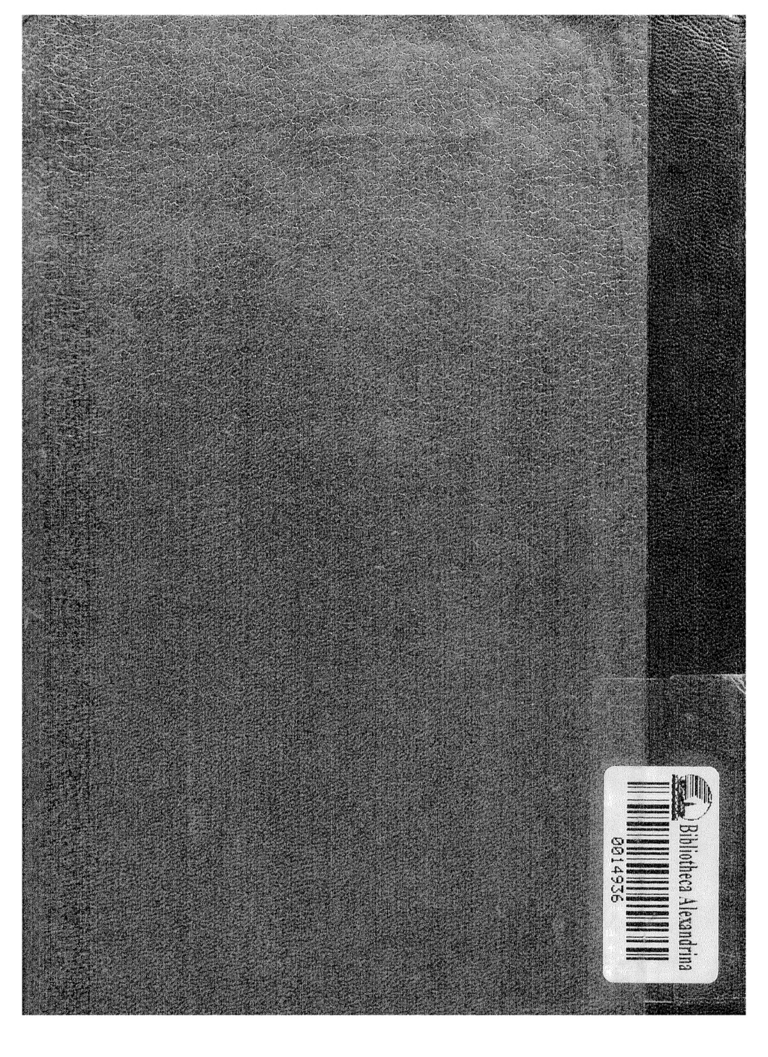

Bibliotheca Alexandrina
0014936


أزمة الضمير الأوروبي
١٦٨٠ - ١٧١٥

پول هازار
عضو المجمع اللغوى الفرنسى



١٦٨٠ - ١٧١٥

ترجمة

جودت عثمان　　　محمد نجيب المستكاوى

القاهرة
مطبعة الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
١٩٤٨

الطبعة الأولى . . . أبريل ١٩٤٨

العنوان الأصلي للكتاب
بالفرنسية

PAUL HAZARD

LA CRISE
DE LA CONSCIENCE EUROPÉENNE
1680-1715

إلى

قراء العربية نقدم هذه المحاولة
لتفسير تطور الفكر الأوربى الذى
عاد على الانسانية بخير عميم

المترجمان

فهرس الكتاب

صفحة

القسم الرابع

القيم التخيلية والحساسة

تقـــــديم

هذا كتاب علم وتعلم ، أراد به مؤلفه إلى أن يعرض فى وضوح وجلاء ، أزمة الضمير الأوربى فى عصر من أخطر عصور الانتقال . وهو العصر الذى يختم طور النهضة الأوربية الحديثة ، ويبدأ فى الاعداد لطور الثورة الفرنسية التى لم تغير حياة أوربا وحدها ، وإنما غيرت معها حياة الانسانية كلها .

والناس جميعاً يعلمون أن النهضة الأوربية الحديثة . قد أخرجت أوربا من حياة القرون الوسطى ، إلى نوع جديد من الحياة ، لا يستأثر الدين المسيحى بالسيطرة عليه ، وإنما تشارك فى تكوينه عناصر أخرى ، يكون لها فى حياة الناس أبعد الأثر ؛ بل يكون لها فى الدين المسيحى نفسه أبعد الأثر . فالرجوع إلى أصول الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستكشاف أقطار من الأرض لم يكن العالم المتحضر يعرفها ؛ كل ذلك عرض العقل الأوربى لحركات عنيفه ، لم تلبث أن أحدثت آثارها ، فشعرت الضمائر بالحاجة إلى الحرية ، وطمعت العقول فى تحقيق هذه الحرية وجاهدت فى سبيلها جهاداً عنيفاً ؛ ولظرت الكاثوليكية فاذا هى وسط بين طرفين متباعدين أحدهما يطمح إلى الحرية ويحقق منها قدراً لا بأس به ، وهو الاصلاح الدينى الذى يتكشف عن البروتستنتية . والآخر لا يطمح ، وإنما يجمح حتى يتجاوز بحريته حدود الدين كلها . وإذا شىء من الوثنية القديمة يعود إلى الحياة فى كثير من القلوب والضمائر ، ويصبغ كثيراً من البيئات بشىء من الشك والاباحة والاستخفاف ، وقد تغيرت حياة الناس المادية بفضل استكشاف ما استكشف من أقطار الأرض ، فأتيح لهم من الثراء وأسباب الدعة ما كان ممنوعاً عنهم ، أو مقتراً عليهم فيه . ولا يكاد القرن السادس عشر يتقدم شيئاً حتى تكون الحياة الأوربية قد تغيرت تغيراً تاماً ، فظهرت فيها نزعات فى الأدب والفن ، وفى العلم والفلسفة ، وفى السيرة الفردية والاجتماعية ، لم

تكن موجودة من قبل . فاذا أشرف هذا القرن على آخره ، كان هذا النظام الجديد قد استقر واطمأن ، وألفه الناس وأصبحت له أصوله الثابتة وقواعده المقررة . وأخذ ينتج فى الأدب والفلسفة ، تلك الآثار الكلاسيكية الخالدة . ولكن العقل ماض فى طريقه إلى البحث والدرس والاستقصاء والابتكار . وإذا مضى العقل فى هذه الطريق ، فلا سبيل إلى أن يقف ، ولا إلى أن يحد سلطانه على الحياة مهما تختلف فروعها ؛ وما هى إلا أن يأخذ المثقفون فى عرض القيم المقررة للبحث والنقد ، كما عرضت للبحث والنقد فى أوائل عصر النهضة الحديثة . وإذا أزمة تطرأ على التفكير والشعور ، وعلى تقدير الأشياء والحكم عليها ، وعلى المقاييس التى تقاس بها القيم الفنية والأدبية والدينية . وإذا صراع يثار بين القديم والجديد . وليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية فحسب ، وإنما هو هذه الثقافة وما نشأ عنها من ثقافة أوربية تقليدية . بل ليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية وما نشأ عنها من الثقافة الحديثة ، وإنما هو هذا ومعه الحياة الانسانية كلها بما فيها من نظم السياسة والادارة ، ومن أصول الأخلاق والاجتماع . كل شىء موضوع للشك . وكل شىء عرضة للنقد ، وكل شىء صالح للبحث والدرس ، وكل شىء قابل للتغيير والتبديل .

وهذه الأزمة هى التى اتخذها الأستاذ بول هازار ، موضوعاً لكتابه هذا الرائع الرفيع . فهو يقتطع من الحياة الأوربية ثلث قرن من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، ويتخذ حياة أوربا العقلية فى هذه القطعة الصغيرة من الزمن موضوعاً لبحثه ، لايدرسها فى فرنسا وحدها ، وإنما يدرسها فى أوربا بأكملها ، مستقصياً مستقرئاً ، موازناً معارضاً ، مستنبطاً بعد هذا كله لما يصل إليه من الاحكام ، عارضاً عليك فى أثناء هذا كله ، نصوصه التى اعتمد عليها ومصادره التى رجع إليها .

ومن أجل هذا قلت إن هذا الكتاب ، كتاب علم وتعليم ، تقرأه فتظهر بفضل قراءته على الحياة الأدبية ، بل على الحياة العقلية كلها فى أوربا كلها ، وهو من هذه الناحية كتاب علم ، لاأعرف له نظيراً فيما قصد إليه من البحث والدرس ، ومن النقد والتحليل . وهو من هذه الناحية إيضاً كتاب ينتفع به المثقفون جميعاً ، مهما تكن ثقافتهم ، ومهما يكن نشاطهم فى هذا الفرع

أو ذاك من فروع الحيـاة . ولكن للكتاب ناحية أخرى ، لعلهـا أن تـكون أعظم خطراً من هذه الناحية ، فهو كتاب تعليم وتوجيه ورسم لمناهج البحث والاستقصاء . يقرأه المتخصصون فى تاريخ الحياة العقلية ، فيتعلمون منه كيف يتأتى الباحث لهذا اللون من ألوان التـاريخ ، ويتعلمون منه أن الحياة العقلية لا تؤرخ بالقرون ، ولا بالأعوام ، ولا بمـا يكون من سقوط دولة وقيام أخرى ، ولا بما يكون من شبوب الحروب حين تشب ، ومن عقد الصلح حين يعقد . وإنما هذه كلها وأشياء أخرى غيرها ، لها آثارها المختلفة فى حيـاة العقـل والشعور ، دون أن تـكون هى المقياس الذى تقسم به ، وتقاس إليه حياة العقل والشعور .

فالذين يؤرخون لأدب أمة من الأمم فى قرن من القـرون ، يتجـوزون فيما يحددون لبحثهم من هذه العصور . فالقرن السابع عشر الفرنسى مثلا ، لم يبتدئ بالضبط سنة ستمائة وألف حين يقاس إلى الحياة العقلية ، وإنما ابتدأ قبل هذه السنة بوقت يقصر أو يطول ، لا سبيل إلى تحديده الدقيق ، وإنما يدل عليـه دلالة مقاربة بظهور الأصول الثابتة ، والقواعد المقـررة للأدب والفن . وهذا القرن لا ينتهى سنة سبعمائة والف بالضبط ، وإنمـا ينتهى قبل ذلك بوقت لا سبيل إلى تحديده تحديداً دقيقاً بل يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الشك فى الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفـن . وقل مثل هذا بالقياس إلى الآداب الأخرى مهما تـكن ، فالحياة العقلية خصائصها وظواهرها التى ليست هى موقوفة على ما ألف الناس أن يتخذوه حدوداً للتاريخ من الخطوب والأحداث .

وللـكتاب ناحية ثالثة ليست أقل خطراً من هاتين الناحيتين . فهو نموذج رائع للأدب المقارن ، ودراسة الأدب المقارن بدع جديد عرفته أوربا فى أواخر القرن الماضى ، وتقدمت به خطوات واسعة قيمة ، وأخذنا نحن نعرفه منذ أعوام ، أو قل أخذنا نحن نسمع به ولا يكاد أكثرنا يحقق معناه فضلا عن أن ندرسه ونتعمقه وننتج فيه إنتاجاً قيماً على شدة حاجتنا إليه ، لتعقد الصلات بين أدبنا العربى وبين الآداب الأجنبية المختلفة قديماً وحديثاً .

فهذا الـكتاب دروس رائعة فى الأدب المقارن ، يعلم المتخصصين فى التاريخ الأدبى كيف يتتبعون الظاهرة الأدبية المعينة فى الشعوب المختلفة ، بل فى

البيئات المختلفة من الشعب الواحد ، وكيف يشخصون هذه الظاهرة تشخيصا دقيقاً ، وكيف يقيسونها إلى أمثالها فى الشعوب المتباعدة والبيئات المتباينة ، وكيف يستخلصون من هذا القياس أحكاماً أدبية لها دلالتها الخطيرة على ما يكون بين الشعوب من تباعد وتقارب ، ومن تشابه وتنافر فى الطبيعة والمزاج . فالذين يريدون أن يعلموا يجدون فى هذا الكتاب علماً كثيراً غزيراً ممتازاً . والذين يريدون أن يتعلموا مناهج البحث فى التاريخ الأدبى ، والذين يريدون أن يعرفوا طرائق الدرس للأدب المقارن ، يجدون فى هذا الكتاب أبرع تعليم وأروع توجيه .

ويعجبنى أن يقرأ الناس وأن يفهموا ما يقرأون فى هذه الظروف التى تحيط بنا ، والتى تصد الناس عن القراءة ، ولا سيما القراءة القيمة ، وتعجلهم عن الفهم ولا سيما الفهم النافذ العميق ، ويعجبنى إذا قرأ الناس وفهموا واستمتعوا بالقراءة والفهم ، أن تكون قلوبهم كريمة ونفوسهم سخية ، وأن يدفعهم ذلك إلى أن يشركوا الناس معهم فيما وجدوا من لذة المعرفة ومتعة الفهم والذوق .

من أجل هذا لم أكد أصدق حين أنبئت بأن أديبين مصريين ، قد فرغا فى هذه الأيام لقراءة هذا الكتاب وفهمه وإساغته . فلما بلغا من ذلك ما أرادا كرها أن يستأثرا بالمتعة من دون قراء العربية ، فتكلفا أعنف الجهد وأعظم المشقة لنقله إلى لغتنا العربية . لم أكد أصدق ذلك حين أنبئت به . فنحن نحيا فى هذه الأيام حياة قوامها الكسل والأثرة والانصراف عن جد الأمر إلى سخفه ، وعن عسير الأمر إلى يسيره . ولكنى رأيت الكتاب بين يدى مترجماً حسن الترجمة ، فاستبشرت واطمأننت إلى حسن الظن بالمواطنين وصدق الرأى فيهم ، وإلى الثقة التى لم تفارقنى قط بأن الخطوب قد تلم ، وبأن النوائب قد تنوب ، وبأن الأحداث قد ترهق الناس من أمرهم عسراً ، ولكن جذوة الثقافة العالية والمعرفة الرفيعة ستظل دائماً حية قوية ، تشيع فى القلوب والنفوس والعقول حرارة ونوراً . وأنا رجل شره إلى العلم مسرف فى الطموح ؛ لا أعرف للطمع حداً حين يتصل الأمر بالثقافة والمعرفة ، فلم أكد أحمد للأديبين الكريمين ما بذلا من جهد وما ل فى ترجمة هذا الكتاب ونشره ، حتى أغريتهما بترجمة كتاب آخر للمؤلف نفسه موضوعه التفكير الأوربى فى

القرن الثامن عشر ، وأعترف بأنى لم أحتج معهما إلى شديد إغراء . فقد استجابا للدعوة كريمين ، وأقبلا على العمل مشغوفين به ، محتفلين له ، مستعدين أحسن استعداد لاحتمال ما سيكلفهما من مشقة وعناء .

فلهما شكرى خالصاً . وعليهما ثنائى صادقاً ، وما أشك فى أنهما سيظفران من كل قارىء بمثل ذلك الشكر وهذا الثناء .

طه حسين

مقـــــــدمة

يا للتناقض ! يا للانتقال الفجائي ! تدرج السلطات والطبقات ، طاعة القوانين ، النظام الذى تتكفل السلطات بتحقيقه ، المذاهب التى تنظم الحياة بحزم : ذلك ما كان يحبه رجال القرن السابع عشر. الاجبار ، السلطة ، المذاهب: ذلك ما كان يبغضه رجال القرن الثامن عشر ، الذين خلفوهم مباشرة . الأولون مسيحيون ، والأخيرون خصوم المسيحية ؛ الأولون يؤمنون بالحق الالهى ، بينما الأخيرون يؤمنون بالحق الطبيعى ؛ الأولون يستطيبون العيش فى مجتمع ينقسم إلى طبقات غير متساوية ، والأخيرون لا يحلمون إلا بالمساواة . إن الأبناء يتندرون على الآباء ، ظانين أنهم سوف ينهضون باصلاح عالم ، لا يتوقف إصلاحه إلا على مجيئهم : ولكن الغليان الذى يثير الأجيال المتتابعة لا يكفى لتفسير تغير سريع قطعى مثل هذا التغير . كانت أغلبية الفرنسيين تفكر كما فكر بوسويه ؛ وبغتة ، فكر الفرنسيون كما فكر فولتير : إنها لثورة .

ولكى نعرف كيف وقعت هذه الثورة ، قمنا بالبحث فى أراض غير مطروقة . فقد درسنا القرن السابع عشر طويلا فيما سبق ، واليوم نعكف على دراسة القرن الثامن عشر . وفى حدودهما الفاصلة تمتد منطقة وعرة ، مبهمة ، نأمل أن نجد فيها بعض الكشف والمغامرة . لقد جسنا خلالها ، واخترنا لتحديدها تاريخين غير قطعيين : من جهة حول عام ١٦٨٠ ، ومن جهة أخرى ١٧١٥ .

ولقد قابلنا سبينوزا ، الذى بدأ نفوذه يشتم فيها ، ومالبرانش ، وفونتنل ، ولوك ، ولبنتز ، وبوسويه ، وفينلون ، وبايل ، إذا اقتصرنا على ذكر الأعلام ، ودون تحدث عن ديكارت الذى لا يزال يسكنها . إن أبطال الفكر هؤلاء ، كانوا عاكفين — كل حسب طبعه وعبقريته — على البحث فى المسائل التى ما برحت تشغل أذهان الناس منذ الأزل ، كما لو كانت مسائل جديدة ؛ مثلا : وجود

الله وطبيعته ، والكائن والمظاهر ، الخير والشر ، الحرية والقدرية ، حقوق السلطان ، تكون الحالة الاجتماعية ، والمسائل الحيوية كافة . فبماذا ينبغى أن نعتقد ؟ وكيف ينبغى أن نسير ؟ وكان هناك سؤال ، سؤال طالما حسب الناس أنه أصبح أمراً مفروغاً منه ، يعود دائماً من جديد : ما هى الحقيقة ؟ . Quid est Veritas ?

فى الظاهر كان العصر الكبير يمتد فى كل عظمته وجلاله ، وما كان على المفكرين والمؤلفين إلا أن يقلدوا الروائع الأدبيه التى ظهرت بوفرة من قريب . واستعرت بينهم المنافسة ، فهذا يؤلف المأساة على منوال راسين ، وذلك يؤلف الملهاة على منوال موليير ، وغيرهما يؤلف القصص على منوال لافونتين ؛ وانتقد النقاد الوجهة الأخلاقية فى الملاحم الشعرية ، والتوسل بأسرار المسيحية ؛ ولم يكفوا أبداً عن امتداح قاعدة الوحدات الثلاث(١) : فخر الفن . لكن فى البحث اللاهوتى السياسى *Tractatus theologico-politicus* وفى « علم الأخلاق » *Ethique* وفى « المقال عن الادراك الانسانى » *Essay concerning human understanding* وفى « تاريخ تبدل الكنائس البروتستانتية » *Histoire des variations des églises protestantes* وفى « القاموس التاريخى والنقدى » *Dictionnaire historique et critique* وفى « جواب على أسئلة قروى » *Réponse aux questions d'un Provincial* استعر جدال لم تعد هذه المشاغل التافهة تبدو بازائه إلا كلعبة أطفال أو عجزة ضعاف . فالأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كان الناس ما برحوا مؤمنين ، أم فقدوا الايمان ؛ ما إذا كانوا يذعنون للتقاليد أم يتمردون عليها ، ما إذا كانت الانسانية ستواصل السير فى طريقها ، واثقة بقادتها أم تختار رؤساء جدداً ليقودوها نحو جنات جديدة . كان العقليون والدينيون كما يقول بايل ، يتنازعون الأرواح ويتواجهون فى معركة شهدتها أوربا المفكرة بأسرها .

جعل المهاجمون ينتصرون شيئاً فشيئاً . لم يعد الالحاد منفرداً مستخفياً ، بل أخذ يكتسب الأشياع حتى أصبح فخوراً متغطرساً . ولم يعد الانكار متخفياً ، بل انكشف وانتشر . ولم يعد العقل حكمة متوازنة ، بل أصبح جرأة انتقادية . وأصبحت المعارف المألوفة ، مثل الارتضاء الشامل الذى يثبت وجود الله ،

---

(١) أنظر ص ٨٨ .

والايمان بالمعجزات موضع شك و إنكار . لقد نفى الناس ما هو إلهى إلى طبقات سماوية غير معروفة ، يستحيل إدراكها ؛ أصبح الانسان ، الانسان وحده ، مقياس كل الأمور ؛ إذ كان بذاته علة بدئه ونهايته . ظل رعاة الشعوب مدة طويلة يملكون السلطة بين أيديهم ، واعدين باستتباب الطيبة ، والعدل ، والمحبة الأخوية على وجه الأرض : لكنهم لم ينفذوا وعدهم هذا ، بل انهزموا فى المعركة الكبرى ، المعركة التى كانت الحقيقة والسعادة جائزتها : إذن كان ينبغى أن ينسحبوا . كان ينبغى أن يطردهم الناس ، إذا لم يقبلوا الانسحاب مختارين . فكر الناس أنه يجب تدمير البناء القديم ، الذى عجز عن حماية الأسرة البشرية الكبرى ، وهكذا أصبحت المهمة الأولى عملا تدميرياً . وكانت المهمة الثانية عملا إنشائياً من جديد ، وتجهيزاً لأسس المجتمع المستقبل . واقتضت الضرورة الملحة بناء فلسفة — لكيلا يقع الناس فى الشك ، نذير الفناء — فلسفة تترك الأوهام الميتافيزيقية الخادعة ، وتدرس الظواهر التى يمكن أن تتوصل إليها أيادينا الضعيفة ، والتى ينبغى أن نقنع بها . اقتضى الأمر إقامة سياسة دون حق إلهى ، ودين بلا أسرار ، وأخلاق بغير مذاهب . اقتضى قسر العلم على ألا يكون تسلية ذهنية ، بل قوة قادرة على قهر الطبيعة . خيل إلى الناس أنه لا شك فى وصولهم — بفضل العلم — إلى السعادة ، وأن الانسان قد ينظم هذا العالم المهزوم فى سبيل راحته ، ومجده ، ورفاهة مستقبله .

ولن يعيينا أن نرى فى هذه الصورة ، روح القرن الثامن عشر . ولقد أردنا ، على التحقيق ، أن نبين أن صفاته الأساسية هذه ، إنما ظهرت فى وقت أقدم جداً مما يتصوره الناس عادة ؛ وأن تكوينها قد اكتمل فى عهد كان لويس الرابع عشر لا يزال يتمتع فيه بكل عظمته الساطعة ، وأن كل الأفكار التى كانت تبدو ثورية نحو عام ١٧٦٠ أو حتى عام ١٧٨٩ ، إنما كانت فى الواقع قد أفصح عنها من قديم ، نحو عام ١٦٨٠ . وقتئذ وقعت أزمة فى الضمير الأوربى ؛ وفيما بين « النهضة » — التى أنشأتها — والثورة الفرنسية التى أعقبتها ، لا توجد أزمة أهم منها فى تاريخ الأفكار . لقد حاول « الفلاسفة » الجدد أن يبدلوا مدنية تستند على فكرة الواجب : الواجبات نحو الله ، والواجبات حيال الملك ، — بمدنية تقوم على فكرة الحق : حقوق الضمير الفردى ، حقوق النقد ، حقوق العقل ، حقوق الانسان والمواطن .

خمسة وثلاثين عاماً من الحياة الفكرية لأوربا ، كان من المحال أن نحددها في الزمن دون حسبان للسنين التي تلت هذه الحقبة على الأخص ، بل التي سبقتها كذلك — ودون حسبان لتلك المحاكم التي استدعت الانسان نفسه ، لتستجوبه عما إذا كان قد ولد بريئاً أو مذنباً ، وعما إذا كان يؤمن بالحاضر أو بالأبدية ، — ودون حسبان لتلك الأفكار الحية الخالدة ذات القوة الهجومية أو الدفاعية ، التي بلغ من شدتها أن تأثير ذلك الماضي علينا لم ينقطع حتى الآن ، وأننا لا نزال نواصل ، في المسائل الدينية ، والفلسفية ، والسياسية والاجتماعية ، تلك المعارك الكبيرة الحامية التي لم يخمد لها بعد أوار — ودون حسبان للمؤلفات الضخمة التي كتبها في سخاء غريب ، أناس لم يهتموا بكمال الشكل اهتمامهم بوفرة البراهين وفاعليتها — دون حسبان للمؤلفات الغامضة ، اللاهوتية والفلسفية — ثم تعدد الصلات بين البلد والبلد ؛ سريان الأفكار ، والعدوى والتأثير ، وغرائب الأحداث التي يصعب تفسيرها في بيئتها المحلية ، ويقتضي الأمر زجها في المحيط الأوربي لكي يسهل تفهمها ، والتوجيهات التي ينبغي ، ويشق التماسها في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، والفواصل الجبلية والطرق والدروب ؛ والشخصيات التي ينبغي أن ترسم ، والسيم التي ينبغي أن نفهمها على حقيقتها ، في غضبها أو في ابتهاجها : ما من شك في أن هذا مشروع عسير التحقيق . ونحن لا نستميح لأنفسنا عذراً في محاولتنا التعرض لهذا المشروع . لأننا لا نجهل ما سيتبقى وراءنا من عمل ، ولا نجهل أن معرفة الشجرة تقتضي دراسة فروعها وجذورها أتم دراسة — ولكننا نعتقد أنه من المفيد أحياناً ، أن يشق المرء درباً مؤقتاً في الغابات الكثيفة(١) .

***

هناك أزمان شاعرية : يلذ للمرء في تناولها بالدراسة ، أن ينتصت إلى نغمها المنسجم ، وأن يستروح عبيرها الفواح ، وأن يستسلم لموسيقاها الحانية ، تحمله

---

(١) لقد نشرنا مقتطفات مختلفة من هذا الكتاب في أعداد ١٥ أغسطس ، ١ ، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٢ من مجلة *Revue des deux mondes* وفي عددى أكتوبر وديسمبر ١٩٣٢ من مجلة *Revue de littérature comparée* وفي عددى ٢١ أكتوبر ، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ من مجلة *L'Europe centrale* وسيجدها القارىء هنا معدلة بعض التعديل .

إلى آفاق يعجز عن تصويرها اللسان : حيث لا تعود الدنيا إلا أنشودة عذبة . والزمن الذى ندرسه ليس من هذه الأزمان ؛ فقد جهل الجرس والايقاع ، وفسر معنى الشعر تفسيراً عكسياً ، ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر . ولكن القيم التخيلية والحساسة لم تتوار على حين غرة ، ولم يكف الناس عن الاستسلام للهوهم وأهوائهم فجأة دون تمهيد ؛ فقد سجلنا ، على النقيض ، استمرار حياة الأشكال والألوان ، ومعارضة القلب ، بجانب عمل العقل الصافى . فقيام الخشوعية piétisme هنا ، والركونية quiétisme هناك ، قد كشف لنا عن الأمانى والرغبات التى تجيش فى الأرواح القلقة ، التى لم يقنعها العقل ، بل كانت تبحث عن إله للمحبة . بيد أن هذه الروحانية نفسها قد ساهمت فى أزمة الضمير التى يتميز بها هذا العصر . فانها فضت التحالف بين الدين والسلطة ، وبافلاتها من رقابة الكنائس الأرثوذكسية ، وبنظرتها إلى الايمان كنفحة فردية ، اختيارية وطبيعية ؛ وبتقويضها دعائم النظام القائم ، قد قاست من جهتها بدور عنصر مجدد : وبالمثل فقد أدخل على المجتمع إذذاك بذرة من الفوضى ، بمواجهة أخطاء المدنية وجرائمها ، بفضيلة الرجل الهمجى البدائية .

بيد أن هذه السنين الشاقة ، الدسمة ، الحافلة بالجدال وبالقتال ، الزاخرة بالأفكار ، لها بالرغم من ذلك جمالها الخاص . وإذا نحن تتبعنا هذه الحركات الواسعة النطاق ، وشهدنا هذه الكتل من الأفكار تتفرق ثم تتجمع من جديد طبقاً لقوانين أخرى وأصول مستحدثة ، وإذا رأينا إخواننا من بنى الانسان يتلمسون فى شجاعة سبيلهم نحو المصير المجهول ، دون أن تثبط لهم همة أو يستسلموا لعائق أو غمة ، شعرنا بما شعروا به من انفعال . وإن فى عنادهم واستبسالهم لشيئاً من الجلال ؛ وإذا كان الشئ الذى يميز أوربا — كما سنبين فيما بعد — هو عدم قناعتها أبداً ، وتجديد بحثها عن الحقيقة والسعادة ، فان فى هذا المجهود لمحة من الجمال لا تخلو من مسحة من الألم . وليس هذا بكل شئ . فبدراسة نشأة الأفكار ، أو على الأقل ما انتابها من تبدل ، وبمتابعتها على طول طريقها ، فى بدايتها الضعيفة ، وفى طريقة تدعمها وتجربتها ؛ فى تقدمها وفى انتصاراتها المتتابعة حتى ظفرها النهائى — نصل إلى هذا الاقتناع العميق الوثيق ، وهو أن ما ينظم الحياة ويوجهها ليس هو القوى المادية بل هو القوى الفكرية والأخلاقية .

القسم الأول

تبدلات سيكولوجية كبرى

الفصل الأول

من الثبات إلى الحركة

الاستقرار ، أى اجتناب كل تغيير من شأنه أن يخل بالتوازن الفذ القائم : تلك أمنية العصر الكلاسيكى . فحب الاستطلاع الذى يعتمل فى النفوس القلقة خطر . أجل ، خطر وجنونى معاً ؛ لأن الرجل الذى يرتحل إلى أقاصى الدنيا لا يجد حيثما ارتحل إلا ما يحمله هو معه : أى حالته البشرية . ولو أنه وجد شيئاً آخر فان ذلك لن يخفف من قلقه . فليركز تفكيره فى المسائل الأبدية التى لا يمكن تحليلها أو تعليلها والفكر مشتت حائر . قال سينكا : « أول دليل على اتزان العقل قدرته على التوقف والطوائه على نفسه » ، وكشف باسكال أن بؤس الناس مرده إلى سبب واحد ، هو أنهم لا يستطيعون الاستقرار فى غرفة .

فالفكر الكلاسيكى ، فى عظمته ، يحب الثبات : بل هو يريد أن يكون الثبات بعينه . فبعد الحدثين التاريخيين العظيمين : حركة النهضة وحركة الاصلاح الدينى la Réforme ، جاء زمن كان زمن التروى والتفكير . فأقصيت كل من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية والفنية عن دائرة المناقشات التى لا تنتهى ، والنقد الذى لا يكتفى ؛ لقد وجدت سفينة البشر الضالة ميناء تستقر فيه : فلترس فيه أطول أمد ، أو تركن إليه إلى الأبد ! إن النظام يسود الحياة : فما دام الناس قد اهتدوا إلى نهج اعترف الجميع بكماله ، فما جدوى بحث جديد ، يجعل كل شئ محل مناقشة من جديد ؟ هكذا بدأ الناس يخشون الانتداد بما فيه من مفاجآت ، ولو استطاعوا لعملوا على إيقاف الزمن ! حتى الماء فى فرساى يبدو للزائر كأنه لا يجرى ؛ فهم يخزنونه ثم يطلقونه ، ويدفعون به نحو السماء ، كأنما يريدون استبقاءه إلى الأبد .

فى القسم الثانى من كتاب دون كيشوت (١) ، الفصل الثامن ، يقدم لنا سرفانتس Cervantes « النبيل ذا المعطف الأخضر » ، الذى يقابله فى الطريق « الفارس ذو الوجه الحزين » . le Chevalier de la Triste Figure ونرى هذا النبيل يسرع إلى منزله حيث يجد السعادة والحكمة معاً . فهو فى بسطة من العيش دون ترف ، يقضى حياته مع زوجته وأولاده وأصدقائه ، مسلاته الأثيرة عنده الصيد والقنص ، لكنه يفضل بجعة مستأنسة أو سمانة أليفة على العربات المطهمة ، وكلاب الصيد والصقور . ولديه بضع عشرات من الكتب وهو بذلك راض قرير . وهو تارة مدعو عند جيرانه لتناول الطعام ، وتارة يدعوهم عنده : مائدته معتدلة لا تبذير فيها ولا تقتير . يحب الحرية المتزنة و يميل إلى العدل والوفاق . يجود على الفقير مراعياً ألا يستسلم للزهو أو الاعلان . يسعى إلى الصلح بين المتنابذين ، ويقدس العذراء ، ويثق كل الثقة برحمة الله الواسعة . هكذا يصف ذلك النبيل نفسه . ونرى على إثر ذلك سانشو — خادم دون كيشوت — يترجل من فوق حماره ، و يمسك بقدم النبيل ، يود أن يتناولها بالتقبيل ، فيقول له : « ماذا تفعل أيها الأخ ؟ » فيرد سانشو Sancho : « اسمح لى أن أقبل قدميك ، لأنك أول قديس أراه على صهوة جواد ! »

وما كان دون دييجو دى ميراندا Don Diego de Miranda — الرجل ذو المعطف الأخضر — قديساً ، بل هو يمثل فى سنة ١٦١٥ المثل الأعلى للحكمة الكلاسيكية . فهو لا يزدرى « الفارس المغامر » بل إنه يحمل فى نفسه قسطا من روح البطولة والفروسية ، ولكنه لا يرضى أن يتبعه فى هذا الطريق . إنه يعلم تمام العلم أن الحياة لا تستطيع أن تجود على المرء بشئ يسعده أكثر من الانسجام بين

---

(١) قصة مشهورة من روائع الأدب العالمى كتبها سرفانتس المؤلف الاسبانى ، ونشر القسم الأول منها فى عام ١٦٠٥ ، والقسم الثانى فى ١٦١٥ . ودون كيشوت هو بطل هذه الرواية ولقبه الآخر هو الفارس ذو الوجه الحزين le Chevalier de la Triste Figure يسخر فيها سرفنتس من الفرسان المغامرين إذ يقول دون كيشوت : «لقد تركت وطنى ، ورهنت أملاكى ، وتخليت عن راحتى وبيتى ، وألقيت بنفسى بين يدى الحظ لكى يدفع بى أينما يشاء . . . أردت أن أبعث الفروسية المغامرة البائدة . . . وأصبحت متعتى المفضلة حماية الأرامل والفتيات واليتامى . . . » من كتاب « دون كيشوت » ، القسم الثانى الفصل السادس عشر ، طبعة جارنييه ، باريس . وانظر أيضا بول هازار ، « دون كيشوت » باريس ١٩٣١ . [المترجان]

الفكر والحواس والقلب . أما وقد اهتدى إلى سر الحياة الطيبة فانه سيحتفظ به ويطبقه حتى يومه الأخير .

بيد أن كل شئ إلى فناء ، ولن يساوى سره هذا شيئاً لدى أولئك الذين سيخلفونه فى الدنيا . وعندما يكبر أحفاده ويصبحون رجالا سوف يجدون ذوقه قديماً بالياً ، ويحتقرون الوسيلة التى اهتدى بها إلى القناعة فى الحياة . وسوف يفسخون تلك الهدنة السعيدة ، التى كانت تسمح بالنشاط والعمل فى هدوء واطمئنان . ويطلقون عنان الحرية لرغباتهم المكبوتة من أمد طويل ، فيرتحلون إلى الآفاق البعيدة ، بحثاً عن الشكوك . وإذا نحن وجدنا فيما بعد ، روح الظعن والارتحال يقوى وينتشر ، وإذا رأينا الرواد يفارقون القرى والولايات والأوطان إلى مختلف الأصقاع بحثاً عن طرائق الناس فى الحياة والتفكير ، فاننا ندرك من هذه العلامة الأولى أن تغيراً يعترى المبادئ التى كانت تنظم الحياة . « إن كنت طلعة ، فارتحل . . . (١) »

***

عندما كان بوالو Boileau يذهب إلى مياه البربون Bourbon كان يخيل إليه أنه فى آخر الدنيا إذ كان قانعاً بالاقامة فى أوتوى Auteuil . وكان راسين Racine مكتفياً بباريس ؛ وانزعج الاثنان أيما انزعاج عندما اضطرا أن يتبعا الملك فى رحلاته . ولم يذهب بوسويه Bossuet إلى روما مطلقاً ، ولا فينلون أيضاً . ولم يشأ موليير أن يعود مرة أخرى إلى دكان الحلاق فى بزيناس Pézenas . فكل العظماء الكلاسيكيين كانوا يؤثرون الثبات . أما المغامرون فسوف نرى أنهم فولتير ومونتسكيو وروسو . ولكن الانتقال من أولئك إلى هؤلاء لم يتم إلا بعد عمل غامض .

والواقع أنه فى نهاية القرن السابع عشر وفى مستهل القرن الثامن عشر ، عاودت الايطاليين روح السفر . وكان الفرنسيون دائبى الحركة كالزئبق :

---

(١) تروتى دى لاشيتاردى « تعليمات لنبيل صغير أو فكرة الرجل الكيس » ، باريس ١٦٨٣ ص ٦٨ .

Trotti de la Chétardie, *Instructions pour un jeune Seigneur, ou l'idée du galant homme*, Paris, 1683 .

وكانوا على حد قول أحد المعاصرين ، مولعين بالجديد حتى أنهم قلما احتفظوا بأصدقائهم إلى أمد طويل ؛ إنهم يبتكرون كل يوم الجديد الطريف ، ويستحدثون البدع . فاذا هم سئموا الاقامة فى بلادهم ، سافروا إلى آسيا أو إلى أفريقيا لتغيير المكان والتسلية(١) .

أما الألمان فقد اعتادوا حب الظعن من قديم . ولا يمكنك أن تحملهم على الاستقرار حيث يكونون . كتب المؤلف الفرنسى سانت إفريموند Saint-Évremond فى روايته المختلطة Cosmopolite الهزلية المسلية *Sir Politick would be* على لسان ألمانى : يقول « نحن رحالون جميعاً من الأب إلى الابن ، ولا شئ يستطيع أن يمنعنا عن الترحال . لا نكاد نتعلم اللاتينية حتى نتأهب للسفر . وأول شئ نقتنيه دليل يشرح لنا الطريق ، ثم كتيب صغير يعرفنا بالتحف والغرائب فى كل بلد . وإذا كان المسافر أديباً أخذ معه دفتراً أبيض فاخر التجليد ، يدعونه دفتر الأصدقاء *Album Amicorum* ، ولا ينسى أن يزور العلماء فى كل مكان يمر به ، وأن يعرض عليهم هذا الدفتر ليسجلوا فيه أسماءهم . . . » وإنك لترى الألمانى فى سفره لا يوفر مجهوده ، فهو لا بد أن يصعد فى الجبل حتى قمته ، ويتبع النهر من منبعه إلى مصبه ، يعد المعابر والجسور ، ويدرس أطلال المسارح والمعابد ، ويشاهد — مسجلا فى مذكراته — الكنائس والأديرة والميادين والمجالس البلدية والقناطر القديمة والقلاع ودور الأسلحة ، ويذكر ما سجل على القبور ، ولا ينسى الأبراج والقباب وساعات الميادين ، ويترك كل ذلك ويسرع إلى مكان آخر ، إذا سمع بحفلة تتويج ملك فرنسا أو انتخاب الامبراطور !

والانجليز مولعون بالأسفار ، وهم يعدونها استكمالا للتربية . كان النبلاء الشبان حديثى التخرج من اكسفورد وكبريدج يملأون جيوبهم بالمال ويستصحبون رائداً حكيما ثم يجتازون المانش ويشرعون فيما يسمونه « الدورة الكبرى » . وقد عرفنا منهم أنواعاً مختلفة : فمنهم من كان يكتفى بمعرفة أجود أنواع النبيذ كالفرنتنيان Frontignan والمونتفياسكون Montefiascone وداى d'Ay ودرابوا d'Arbois وبوردو Bordeaux واكسيريس Xérez ؛ ومنهم من

(١) جيوفانى باولو مارانا : رسالة من أحد سكان صقلية إلى صديق ، تتضمن نقدا ظريفا لباريس وللفرنسيين ١٧٠٠ - ١٧١٠ .

كان يبحث فى كل مكاتب التاريخ الطبيعى ، ويدرس مجموعات قديم الآثار . ولكل امرئ خلق . يقول جريجوريو ليتى(١) Grégorio Leti : «يرتحل الفرنسيون عادة بغية الاقتصاد حتى إن وجودهم فى مكان ، كثيراً ما يسبب من الخسارة أكثر مما يجلب من المنفعة . أما الانجليز فعلى العكس من ذلك ، يخرجون من بلادهم مزودين بكثير من صكوك الصرف ، ومصطحبين حاشية كبيرة فينفقون مبالغ طائلة . وفى مدينة روما وحدها يوجد عادة ما ينيف على الخمسين نبيلا انجليزياً ، ومن يتبعهم من خدم ، ينفق كل منهم مالا يقل عن ألفى جنيه ذهباً فى العام . حتى إن مدينة روما وحدها تسحب كل عام من انجلترا ما ينيف على ثلاثين ألف بستول(٢) . » وكذلك باريس « لا تخلو من السياح الانجليز . أخبرنى أحد أصحاب المصارف الانجليز أنه صرف للنبلاء الانجليز فى فرنسا ، مائة وثلاثين ألف جنيه فى غضون عام ، ولم يكن هذا الرجل من أغنى رجال المال . » وقد كان جريجوريو ليتى نفسه مغامراً ومهاجراً ، وكان له خمسة أوطان . فلقد ولد فى ميلان ، وانضم إلى مذهب كالفين فى جنيف ، وكان مادحاً للويس الرابع عشر فى باريس ، ثم مسجلا للتاريخ الانجليزى فى لندن ، وكاتباً هجائياً فى هولندا حيث توفى عام ١٧٠١ . كان العلماء يزيدون من معارفهم بالانتقال من بلد إلى بلد كما فعل أنطونيو كونتى ، وبادوان الذى أقام فى باريس عام ١٧١٣ ، وفى لندن عام ١٧١٥ حيث اشترك فى معركة حساب النهايات الصغرى (٣) ، ثم رحل إلى هانوفر للاجتماع بليبنتز ، وفى أثناء مروره بهولندا

(١) «تاريخ ومذكرات عن حياة كرومويل» ، أمستردام ١٦٩٢ ، الترجمة الفرنسية ١٦٩٤ ، طبعة ثانية فى ١٧٠٣ ص ٤٦ .

Grégorio Leti, *Historia e Memorie sopra la vita di O. Cromvele*, Amsterdam, 1692, trad. fr. 1694, p. 46.

(٢) بستول pistole : عملة قديمة تعادل ثلاثين فرنكا .

(٣) حساب النهايات الصغرى Calcul infinitésimal : هو فن قياس وتعداد مالا نتصور وجوده ، إخضاع اللانهائى للحساب الجبرى . « لا تظن أننا لسخر منك حين نقول إنه توجد خطوط لا متناهية فى الكبر تشكل زوايا لا متناهية فى الصغر ، وأن خطا مستقيما طالما هو متناه ، إذا اعوج قليلا جدا أصبح منحنيا لا نهائيا . وإذا كان كل هذا يبدو فى أول الأمر مغالاة فى مخالفة المنطق ، فهو فى الواقع نتيجة رفعة الذهن البشرى وسعته ومنهج كشف الحقائق التى كانت مجهولة حتى الآن .» — الرسائل الفلسفية لفولتير ، الرسالة السابعة عشرة عن اللانهائى . [المترجم]

لم يهمل زيارة ليوفنهوك Leuwenhoeck . وكان الفلاسفة يرحلون كما فعل لوك وليبنتز ، لا للتأمل الهادئ بجوار مدفأة بل لمشاهدة تحف العالم . كما رحل الملوك أيضاً ، فقد توفيت الملكة كريستينا ملكة السويد فى روما عام ١٦٨٩ وسافر بطرس قيصر الروسيا إلى أوربا عام ١٦٩٦ .

انتصرت السياحة لأنها نوع من الأدب غير مقيد بحدود ، نوع يسير يستطيع المرء فيه أن يلج كل باب وأن يطرق كل موضوع ، من أبحاث علمية إلى نشرات للمعارض والتحف إلى قصص غرامية . وهى حيناً تروى كقصة جافة حشدت بالعلم ، وحيناً تكون بحثاً فى علم النفس ، وحيناً آخر تسرد كمجرد رواية، وهى قد تشمل كل ذلك فى نفس الوقت . وهى قد تقابل بالاطراء ، أو بالانتقاد ولكن هذا وذاك يؤكدان الأهمية التى اتخذتها السياحة على كل حال ويبينان لزومها للانسان . إن نفس الميل الذى جعلها تزدهر ، شجع أيضاً صناعة دلائل السفر . ليس علينا إلا الاختيار : « النبيل الأجنبى السائح فى فرنسا » : *Le gentil-homme étranger voyageur en France* « تعليمات عامة لمن يريد السفر » ؛ « دليل لطرق جميع ولايات اسبانيا وفرنسا و إيطاليا وألمانيا » *Il Burattino veridico ovvero Istruzione generale per chi viaggia; Guia de los caminos para ir por todas las provincias de Espana, Francia, Italia, y Alemania*. إن المدن الشهيرة لها الحق فى أن تحظى بمعاملة خاصة ، « مدينة وجمهورية البندقية » *La ville et la république de Venise* « وصف مدينة روما لصالح الأجانب » *Description de la ville de Rome en faveur des étrangers* « دليل للأجانب الذين يدفعهم حب الاستطلاع إلى رؤية واستماع أشهر الأشياء فى مدينة نابولى الملكية » *Guida de' Forestieri curiosi di vedere et intendere le cose le più notabili della regal città di Napoli.* « وصف جديد لأغرب ما يوجد فى مدينة باريس » *Description nouvelle de ce qu'il y a de plus remarquable dans la ville de Paris*. وهناك عنوان جذاب ، لا يمكن أن يقرأه المرء دون أن تتملكه الرغبة فى السفر ، ودون أن تلوح له آفاق ملأى بأعذب الوعود : الملاذ « ملاذ إيطاليا » *Les Délices de l'Italie* « ملاذ الدانمرك والنرويج » *Les Délices et Agréments du Danemark et de la Norvège* « ملاذ بريطانيا العظمى وارلاندا » *Les Délices de la Grande-Bretagne et*

de l'Irlande « ملاذ سويسرا » *l'État et les Délices de la Suisse* . وكل هذه الملاذ مجتمعة تهيئ « عجائب أوربا » *Les Merveilles de l'Europe* .

***

ولكن أليس « رواق الدنيا الظريف » *la Galerie agréable du monde* أكثر إغراء من كل ذلك ؟

وواقع الأمر أن نشاط أوربا فى كشف العالم واستغلاله لم ينقطع لحظة ، ولقد واصل القرن السابع عشر فى هذا الصدد المهمة التى ألقاها على عاتقه القرن السابق . ففى عام ١٦٣٦ أعلن توماسو كامبانيلا Thommaso Campanella ما يلى : لما كان كشف العالم قد ناقض بعض المعارف التى كانت تستند عليها الفلسفة القديمة فلا بد من أن ينجم عنه نظرة جديدة نحو الأشياء(١) . هذه الفكرة التى نشأت رويداً رويداً فى مبدأ الأمر ، ازداد سريانها سرعة لأن الهولنديين لم يقتصروا على تنظيم تجارتهم مع بلاد الهند الشرقية ، بل وصفوا ما شهدوه فيها من غرائب ، ولأن الانجليز لم يرفعوا علمهم على كل البحار فحسب بل نشروا عن رحلاتهم أفخم المؤلفات مما لم يسبق له مثيل . ولأن كولبير Colbert عرض على الفرنسيين أن يوجهوا نشاطهم نحو المستعمرات الغنية النائية : وما أكثر القصص التى سترد من هناك « مؤلفة بأمر الملك » ! وما كان الملك يدرى أنه ستتمخض هذه الروايات يوماً بأفكار تزلزل أعز مبادئ عقيدته وألزمها لاستتباب سلطانه !

وهكذا نرى إنتاجاً ينشأ ويتسع حتى يجاوز كل حد معقول ؛ فمن أحاديث إلى وصف وبيان ومجموعات . واستطاع الناس الذين يلتزمون دورهم ، ولا يعرفون شيئاً عن البحيرات الكبيرة فى أمريكا ولا عن حدائق مالابار فى الهند ، ولا عن المعابد العجيبة فى الصين — استطاعوا أن يطلعوا فى غرفهم ، وبجانب مدافئهم ، على ما يقصه الآخرون . وجعل الملحقون بالارساليات الأجنبية الكابوسان Capucins والفرنسيسكان والجيزويت Jésuites يحكون عن التبشير .

---

(١) عن تأثير الارتحال على الأفكار ، أنظر إلى كتاب هنرى بوسون «التفكير الدينى الفرنسى من شارون إلى باسكال» ١٩٣٣ ص ٢٨٤ .

Henri Busson, *La pensée religieuse française de Charron à Pascal*, 1933, p. 284.

ووصف الأسرى من أهل طرابلس والجزائر ومراكش ما عانوا من اضطهاد فى سبيل الدين . ونشر أطباء الشركات ما دونوا من مذكرات ؛ وحكى رواد البحار مثل دامبير Dampier ، جميللى كاريرى Carreri ، وود روجرز Wood Rogers سياحتهم حول العالم ، فخورين . وكان هروب اللاجئين البروتستانت الذين أبحروا فى ١٠ يوليو من عام ١٦٩٠ من أمستردام مغادرين أرض أوربا الجاحدة ، للبحث فى طريق بلاد الهند الشرقية عن فردوس يبدأون فيه حياة جديدة ، علامة من علامات الزمن . ولكنهم لم يجدوا هذا الفردوس .

وتأثرت الضمائر تبعاً لهذا الانتاج الضخم ، ونجدها فى أواخر القرن تعمل بهمة ونشاط . ابتعد سير وليم تمبل Sir William Temple عن ضجيج الأمور السياسية وركز اهتمامه فى استثمار حدائقه الجميلة فى مور بارك Moor Park وفى تثقيف ذهنه . إننا نستطيع أن نتبعه فى تفكيره : كم من بلاد ومناطق كنا نجهلها بالأمس أو نعتبرها فى حالة من الوحشية ، قد عرفناها اليوم بفضل روايات التجار والبحارة والسياح ! فى تلك البلاد التى دخلت فى أفقنا حديثاً وأصبحت الآن موضع محادثات ومناقشات علمية ، ظهرت مكتشفات لها أهميتها ووقعت أحداث تستحق التنويه ولا تقل فى قيمتها عن تلك التى كانت تغذى أذهاننا من قديم . لا ينبغى أن نلقى كل اهتمامنا إلى حدود تلك البلاد وأقاليمها وغلاتها فحسب ، بل يجب أن نهتم بقوانينها وتقاليدها وإدراتها وأشكال حكوماتها . . . وعلى إثر ذلك شرع وليم تمبل فى درس السياسة والأخلاق فى الصين وبيرو والتتار وبلاد العرب ، وبالتأمل فى خريطة العالم الجديد ، عاد يبحث عن المبادئ التى كانت تسود العالم القديم (١) .

وكثيراً ما كان المسافر يعود إلى وطنه بفكرة يعتقد أنها مبتكرة ، بينما هو فى الواقع كان يحملها معه عند رحيله : ولكنه لا يخطئ كثيراً فى اعتبارها فكرة فعالة . لأنه عند رجوعه بها إلى أمستردام أو لندن أو باريس تكون هذه الفكرة أو النظرية قد ازدادت فخراً وجسارة واكتسبت نفوذ التجربة الذى كان ينقصها من قبل . نستطيع أن نؤيد واثقين أن كل الأفكار الحيوية ، كالملكية والحرية والعدالة ، صارت محل مناقشة من جديد ، بفضل الأمثلة

(١) *Essay upon Heroick Virtue.* Dans les *Miscellanea* de 1690.

المستمدة من البلاد البعيدة . أولا ، لأنه بدلا من تبسيط الفوارق بغية الوصول إلى نموذج شامل ، تحقق وجود ما هو خاص ، فردى ، لا يقبل أى تحويل . ثانياً ، لأنه أمكن مواجهة الآراء المكتسبة بالوقائع المستمدة من التجربة ، التى أصبحت فى متناول المفكرين . وأضيفت براهين جديدة ، حية لامعة ، إلى البراهين التى كانت تعوز الناس لمعارضة هذا المذهب أو ذاك ، وهذه العقيدة المسيحية أو تلك ، والتى لم يكن بد من التماسها بمشقة فى محفوظات الأجيال الغابرة : فها هى ذى الآن قد أحضرها المرتحلون وأصبحت فى متناول الناس . كثيرا ما يستشهد بيير بايل Pierre Bayle بتلك الشهادات التى تضمن صحتها المراجع الجديدة . « يؤكد لنا مسيو برنييه M. Bernier فى مقاله الغريب عن المملكة المنغولية الكبرى . . . » — « يتضح لنا من رحلات مسيو تافرنييه Tavernier . . . » — « يتضح لنا مما ننشر من مقالات عن الصين . . . » — « أنظروا إلى ما كتبت الشركة الهولندية عن اليابان . . . » ويقول فى شأن الجلبة التى يقوم بها الناس فى أثناء خسوف القمر : « لا يزال الفرس يقومون بهذه العادة السخيفة كما يتضح من بيان بيترو دلافالى . وهى مستعملة أيضاً فى مملكة تونكين حيث يسود الاعتقاد بأن القمر يقاتل تنيناً : أنظر المقال الحديث الذى كتبه مسيو فرنييه » — « إن الملاحظة التى أبديتها عن تفشى الفسق والفحشاء بين المسيحيين تذكرنى بأنى سبق أن قرأت فى رواية المسيو ريكو . . . إن مقالات مسيو ريكو قد أحدثت ضجة كبرى حتى لا يمكنك أن تجهلها . . . » وحين يريد بايل تبيان أن وجود الله لا يؤيده الارتضاء الشامل — وهو بيت القصيد — فهاك البرهان الذى يستمده من السفر : « بماذا تجيبون إذا اعترضت عليكم بوجود شعوب الكفار التى يتحدث عنها سترابون ، والشعوب التى كشفها الرواد المحدثون فى أفريقيا وأمريكا ؟ (١) » .

لعل أحدث الدروس التى تلقتها أوربا عن « الامتداد » درس النسبية . لقد تغيرت وجهات النظر ، فالمبادئ التى كانت تتراءى سامية فيما سبق ، لم تعد قيمتها تتوقف إلا على اختلاف المكان ، والعادات التى كانت تبدو مستندة

---

(١) « أفكار عن المذنب » ، ١٦٨٣ ، الفصل ١٤ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٦٥ وما بعدها ، *Pensées sur la Comète,* 1633 .

إلى العقل اتضح أنها فى الواقع تقوم على التقليد . وعلى العكس من ذلك فان عادات كانت تبدو خرافية أصبحت منطقية ، إذا تناولها الناس بالتفسير على أساس المصدر والبيئة . فنحن نرسل شعرنا ونحلق لحانا ، أما الأتراك فيحلقون شعرهم ويرسلون لحاهم . واليد اليمنى عندنا أشرف من اليد اليسرى بينما يرى الأتراك عكس ذلك : هذا الاختلاف بين الشعوب لا تجوز المناقشة فيه ، فلنقبله على علاته . إن أهل سيام يديرون ظهورهم للنساء ظانين أنهم يحترمونهن بعدم نظرهم إليهن ، أما نحن فنفعل عكس ذلك . ولكن من المصيب ؟ ومن المخطئ ؟ إذا نظر أهل الصين إلى أخلاقنا على ضوء أفكارهم الخاصة التى تكونت منذ ٤٠٠٠ سنة فانهم يكادون يعتبروننا برابرة جهالا ، وإذا نظرنا نحن إلى الأخلاق الصينية نجدها شاذة . هذا ما يقوله الأب لى كونت عضو إرسالية اليسوعيين ، وبعد ذلك يصل إلى هذا الاستنتاج الفلسفى : « إننا نخطئ جميعاً ، لأن الآراء التى ورثناها منذ طفولتنا ، تمنعنا من النظر إلى أفعال الانسان بعين الحقيقة ، فنتوهم أن هذه الأفعال ليس لها فى ذاتها قيمة ، بل إن الشعوب هى التى حددت معانيها فى بداية تأسيسها . » ومثل هذه الأقوال تؤدى إلى نتائج بعيدة ، تؤدى إلى فكرة النسبية العالمية مباشرة . يقول برنييه : « لا شئ يستعصى على الاعتقاد ، والرأى المبتسر ، والعادة ، والرجاء ، ومسألة الكرامة ، الخ » ويقول شاردان : « إن إقليم كل شعب هو فيما أرى ، السبب الأساسى لميول الانسان وعاداته على الدوام . . . » وهو يضيف إلى قوله : «إن الشك بداية العلم ، فالذى لا يشك فى شئ لا يفحص شيئاً ، ومن لا يفحص شيئاً لا يدرك شيئاً ، ومن لا يدرك شيئاً فهو أعمى ، وسيظل أعمى . » وعندما نطالع هذه الكلمات الزاخرة بالمعانى ، نفهم الملاحظة التى كتبها لابروبير فى فصله المعروف « العقول القوية » *Des Esprits forts* (١) : « بعض الناس يفسدون بسبب أسفارهم الطويلة ،

---

(١) Esprits forts تعبير يدل على من يفاخرون بعدم التصديق . ويتكلم لابروبير La Bruyère عن العقول القوية فى كتابه «الشخصيات» *Les caractères* الفصل الخامس عشر «هل تعرف العقول القوية ، إننا ندعوها هكذا من قبيل السخرية ؟ أى ضعف أبلغ من ألا يكون المرء واثقا بمبدأ كيانه ، وحياته وشعوره ، ومعارفه ، وما سينتهى إليه ؟ أى تثبيط للهمة أكبر من أن يشك الانسان فيما إذا كانت روحه ليست مادة كالحجر أو الهامة ، وأنها لا تقبل الفساد كهذه المخلوقات الدنيئة . . . » [المترجم]

ويفقدون القليل الذى تبقى لهم من دينهم : إذ يشاهدون كل يوم مذهباً جديداً ، وأنواعاً شتى من المراسيم والأخلاق » .

***

وأخيراً أقبل أولئك الأجانب الرمزيون ، أقبلوا ومعهم عاداتهم وقوانينهم وقيمهم المبتكرة ، وفرضوا أنفسهم على ضمير أوربا التى كانت تتحرق إلى سؤالهم عن تواريخهم وأديانهم ، وقد أجابوا على ما وجه إليهم من أسئلة ، كل بدوره .

وكان موقف الأسريكى محيراً ، فقد وجد مفقوداً فى أرض حديثة الاكتشاف ، إذن فهو ليس ابناً لسام أوحام أو يافث . ترى ابن من يكون ؟ كان الوثنيون قبل تجسد المسيح على الأقل مشتركين فى الخطيئة الأصلية لأنهم ينحدرون جميعاً من أب واحد وهو آدم : ولكن ما القول فى الأمريكان ؟ ثم بأى سر استطاعوا الهروب من الطوفان ؟ ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد . فكل امرئ يعلم أن الأمريكان برابرة همج : كان المرء إذا أراد أن يتصور حالة الانسان قبل المدنية ، يضرب بهم المثل . قوم يعيشون عرايا لا يسترهم كساء . بيد أن شكاً جعل يساور العقول : هل الرجل الهمجى لا بد أن يكون مخلوقاً وضيعاً حقيراً ؟ ألا يوجد رجال من الهمج يعيشون سعداء ؟

مثلما كان الجغرافيون القدماء يرسمون على خريطة الدنيا صور النباتات والحيوانات والناس ، فلنسجل هنا فى خريطة الدنيا الذهنية مكانة ذلك الرجل « الهمجى الطيب » le Bon Sauvage وأهميته . صحيح أن هذا الشخص ليس جديداً ، إلا أن شخصيته لم تكتمل نهائياً إلا فى الوقت الذى ندرسه ، بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر . وقبل ذلك كان الاعداد قد أنجز ، فقد امتدحت إرساليات المذاهب المختلفة فضائل ذلك الرجل ، التى رفعت من شأنه ، دون اهتمام بما إذا كانت تلك الفضائل التى يطرونها مسيحية أو غير مسيحية ! ولما كانت الحماسة قد أنستهم الحرص فقد امتدحوا بساطته قائلين إنه يكتسبها من الطبيعة ، وامتدحوا كرمه وحسن طويته ، تلكما الميزتين اللتين لا توجدان دائماً فى أوربا . ولما نضجت هذه الأفكار ظهر رجل لم يكن عليه إلا أن يقدمها فى أسلوب حى قوى ، وفى حذق أيضاً : فالحذق ألزم الشروط . وكان ذلك الرجل، البارون دى لاهونتان baron de Lahontan متمرد الذهن ،

سئم الجيش ، فأبحر إلى شواطئ كويبك عام ١٦٨٣ . وارتأى أن يشق طريقه فى الحياة فى كندا ، فانه لم يكن أحمق أو جباناً . ثم اشترك فى مقاتلة الهنود الحمر بصفته ضابطاً . ولما كان عديم الطاعة ، حاد المزاج ، فقد لاحقه الكرب حتى هرب ، وعاد إلى أوربا ليعيش فيها حياة غير موفقة . ولما نشر فى عام ١٧٠٣ « رحلاته،ومذكراته ، ومحاوراته » ، خلف تحفة لاشك فى أنها أبقى وأخلد مما دار فى خلده ، ولو أنه لم يكن يستخف بقدره .

إن أداريو الرجل المتوحش يحادث لاهونتان الرجل المتمدن ، الذى يقوم بالدور السئ . يعرض أداريو مظفراً الدين الطبيعى مقابل الانجيل . ويعرض الأخلاق الطبيعية مقابل القوانين الأوربية ، التى لا هم لها إلا الايحاء برهبة العقاب . ويعرض اشتراكية بدائية يجد فيها المرء العدالة والسعادة ، مقابل المجتمع الجديد . وهو يصيح فليحى الهنود الحمر ! و يرثى لذلك المتمدن المسكين الذى لا فضيلة له ولا قوة ، والذى لا يستطيع أن يجد القوت والمأوى ، ذلك الساقط الفاسد الأخلاق ، مسخرة الكرنفال بثيابه الزرق وجواربه الحمر وقبعته السوداء وريشته البيضاء وشرائطه الخضر ، ذلك الذى يموت ألماً فى كل لحظة بما يلاق من عذاب وهوان فى البحث عن رتبة أو مال ، لا تترك فى قلبه سوى اليأس والإشمئزاز آخرة المآل .

أما الرجل المتوحش فقوى يجيد السير والصيد ويقاوم التعب والحرمان . ألا ما أجمله وما أنبله ! إن الجهل نعمة له : فهو لا يعرف القراءة والكتابة ولذا يجتنب كثيراً من السوء : فالعلوم والفنون هى منبع الفساد . أما هو فيطيع الطبيعة أمه الرءوم ، ولذا فهو سعيد. إن المتمدنين هم البرابرة الحقيقيون، فليكن ذلك الرجل مثلا يحتذونه وليلقنهم كيف يهتدون إلى الحرية والكرامة الانسانية .

وبجانب ذلك المتوحش الطيب يطالب المصرى الحكيم بمكانه : بيد أن شخصيته لم تكتمل بعد ، فهى فى دور التكوين . وستشكل بتنسيق فسيفسائى قوامه مواد متباينة : أحجار هيرودوت وسترابون التى تستعمل دائماً ولكنها لا تقدم أبداً ، وتقريظ علماء التاريخ الذين سيسعون إلى سلب العبريين مجدهم المقدس ونسبته إلى المصريين ، ثم روايات السياح . وقد ذكر أولئك الأخيرون أن الموسيقا والهندسة قد نشأتا فى أرض مصر القديمة ، وأن المجموعات النجمية سجلت لأول مرة فى سماء مصر . ولنتذكر هنا الصفحات الرائعة التى سطرها

بوسويه فى مؤلفه «مقال عن التاريخ العالمى» *Discours sur l'Histoire Universelle* كان الصقليبيون والأسهريون أقواماً من البرابرة ، فكان على مصر أن تقدم للعالم مدنية كاملة . وكان هذا الشعب المصرى رصيناً رزيناً ، تدفعه قوة ذهنه وثباته إلى التمسك بالقديم والنفور من الجديد ، فاذا أشاد التاريخ بحفظه للجميل ، فانما يدل ذلك أيضاً على أنه كان شعباً اجتماعياً أنيساً لطيف المعشر . ولم يقتصر المصريون على سن القوانين بل حرصوا على تنفيذها ، وتلك فضيلة نادرة . وكانوا يحاكمون الموتى ، وعلى ضوء تلك المحاكمة السامية كانوا يميزون بين الأخيار والأشرار ، فيحتفظون للأولين بشرف المقابر الكبيرة ، أما الأخيرون فيلقون بهم بين الأقذار . . . ولقد كانوا يتركون مياه النيل تغرق أراضيهم لتزداد خصباً . . . إنهم بناة الأهرام .

و إذا كان بوسويه يبدى هذا الاعجاب بمصر ، فلأنه كان يغذى تفكيره بذكريات الأزمان الغابرة ، ولأنه قرأ تقارير إرساليات الكابوسان التى زارت مصر العليا . وقد دفعته الحماسة إلى أن يأمل يوماً أن تبعث طيبة الجميلة ذات المائة باب . أفلم يكن مثل ذلك المشروع يليق بمقام الملك العظيم(١) ؟ «لو أن سياحنا وصلوا حتى المكان الذى بنيت فيه هذه المدينة ، لوجدوا بلا شك بين أنقاضها آثاراً ليس لها نظير : لأن ما شيده المصريون إنما أقيم ليصمد للزمن . . . والآن ، وقد انتشر اسم الملك العظيم فى أماكن الدنيا التى كانت مجهولة من قبل ، الآن ، وهذا الملك يشجع البحث عن الصنائع الجميلة طبيعية كانت أو فنية فى أقصى الأرجاء ، أفلا يليق بازاء هذه الرغبة النبيلة فى المعرفة أن نكتشف الآثار الجميلة المدفونة فى صحراء طيبة ، فتغتنى العمارة الفرنسية بفضل المخترعات المصرية ؟ »

أما ما لم يكن يقبله بوسويه فهو البحث فى مصر عن فلسفة قديمة جداً ، وجديدة فى الوقت نفسه(٢) . غير أنه ظهر رجل مغامر ذو ذهن مخترع غريب يدعى جيوفانى باولو مارانا Giovanni Paolo Marana غادر جنوة غاضباً لأسباب تافهة والتحق بخدمة لويس الرابع عشر ، غير منزه عن الغرض ، ونشر فى عام

---

(١) يقصد لويس الرابع عشر .

(٢) نعتقد أن المؤلف يقصد البحث عن فلسفة « جديدة » أى غير الفلسفة اليونانية القديمة . [المترجم]

١٦٩٦ قصة عجيبة « محادثات بين فيلسوف ومعتزل ، عن موضوعات أخلاقية وعلمية عديدة » . وهو يقدم فى هذه القصة شيخاً فى التسعين من عمره ، يبدو فى عنفوان الشباب ، غض الاهاب ، متورد الوجنات كالغادة الحسناء . ترى كيف يتيسر حفظ الشباب على هذا النحو؟ إنه عاش فى مصر أمداً طويلا : وفى أرض مصر يتلقنون سر الأكسير الذى يطيل العمر . وبتعلمون على الأخص الفلسفة الحقيقية التى لا تربطها أدنى علاقة بالمسيحية . وهو يقدم أيضاً شاباً مصرياً كله فضيلة ومعرفة ، يستطيع أن يدلى على الفور ببيانات تستحق الاعجاب عن أدق الموضوعات . تلك فضيلة هذه الأرض الوثنية ، التى هى بالرغم من ذلك أرض مباركة .

فلندع السنين تمر : وستكتمل الشخصيات ، وتتضح وتغتنى ؛ وسينتظم المنظر بالطنبور والبردى واللوتس وأبى قردان ؛ وأخيراً سنجد المصرى الحكيم ، le Séthos الذى قدمه الأب تيراسون والذى سيصبح فتنة القرن الثامن عشر . لم يكن ستيوس هذا بطلا بل فيلسوفاً ، لم يكن ملكاً بل محافظاً ، ولم يكن مسيحياً بل أحد الموقفين على أسرار Eleusis : نموذج رائع لكل حاكم ولكل إنسان .

ولقد بدا كما لو أن العربى المسلم لن ينال من الحظ مثلما نال المصرى : لأن محمداً كان موضع حملات شائنة وتخرصات مؤداها أنه أغرق الأرض بالدم والنار . ولكن هنا جاء العلماء يضمون جهودهم إلى جهود السياح ، إذ عنى بدراسة الحضارة الشرقية بعض كبارهم مثل هربيلو d'Herbelot وتلميذه جالاند Galland الأستاذ بالكلية الملكية ، وبوكوك Pococke أستاذ التاريخ العربى بجامعة أكسفورد ، وريلاند M. Reland أستاذ اللغات الشرقية والآثار الاكليريكية القديمة بأوترخت Utrecht ، وأوكلى M. Ockley أستاذ اللغة العربية بجامعة كامبردج . اطلع هؤلاء الأساتذة على النصوص الأصلية فنظروا إلى العربى نظرة جديدة .

لفت أولئك العلماء الأنظار إلى أن جمهوراً غفيراً لم يكن ليتبع محمداً لو كان محمد رجلا دعياً مصروعاً ، وأنه من المحال أن دينا غير مهذب — كما يدعى البعض — يستطيع أن يعيش وأن يتقدم . لكن لو سأل الناس العرب عن تاريخهم بدلا من أن يستمعوا إلى الروايات الكاذبة ، لعرفوا أن محمداً وأتباعه لا يقلون عن أبطال الشعوب الأخرى فى مزايا القلب والفكر . وبعد ، فما أسوأ

ما قاله الأميون عن الدين المسيحي ! وما أكثر السخافات التي ألصقت به ! هكذا شأن الناس على الدوام إذا ألقوا نظرة سطحية على الأشياء . لقد ناقضوا أقوالا لم يلفظها المسلمون ، وأخطاء لم يرتكبها الاسلام . والحقيقة أن الاسلام دين منطقي معقول ، دين نبيل جميل . وأكثر من ذلك فان الحضارة الاسلامية جديرة بالاعجاب ؛ فبعدما طغت الجاهلية على العالم ، من الذى كان حفيظاً على حقوق التفكير والثقافة ؟ العرب . . .

تم هذا التطور من الجفوة إلى الحظوة فى سنوات قلائل نهايتها سنة ١٧٠٨ . ففى هذا التاريخ أعلن سيمون أوكلى Simon Ockley حقيقة —أو وهما— ستغدو فيما بعد ، بعد مائتى سنة ، جديرة بالمناقشة : فهو ينكر أن الغرب يفوق الشرق . لأن الشرق أنجب من العباقرة عدداً لا يقل عما أنجبه الغرب ، ولأن الحياة هناك أسعد : « من حيث خشية الله ، والتحكم فى الشهوات ، والحكمة فى السلوك ، والاحتشام ، والتواضع فى كل الأمور وفى كل الظروف ، بالنسبة إلى كل هذه المسائل (وهى الأهم على كل حال) : إذا كان الغرب قد أضاف شيئا مهما كان قليلا ، إلى الحكمة الشرقية ، فينبغى أن أعترف أننى مخطئ كل الخطأ » . تسير هذه الأفكار حتى تصل إلى فرنسى هو الكونت دى بولانفلييه Comte de Boulainvilliers الذى بعد أن شكر هربيلو ، وبوكوك ، وريلاند ، وأوكلى ، كتب « حياة محمد » حيث يكتمل التحول : لكل شعب حكمة تخصه فمحمد يمثل حكمة العرب ، كما مثل المسيح حكمة اليهود .

ترى أى بلد — تركيا أم فارس — سيقدم لنا ذلك الرجل الذى يسخر من عاداتنا ومن عيوبنا ومن رذائلنا ؟ ذلك الغريب الذى يسير فى طرقنا منتقداً أمورنا ؟ ذلك الشخص الذى يسلينا ويكدرنا فى نفس الوقت ، والذى أنيط به أن يذكر شعباً معتداً بنفسه ، بأنه ليس يملك بعد ، لا الحقيقة ولا الكمال ؟ الشخص الذى لا غنى عنه فى الأدب الأوربى بلا شك مادام قد جعل منه أحد نماذجه المفضلة ، واستخدمه مائة مرة قبل أن يسأمه ؟

لقد قدمته تركيا ، لأن أحد أوجهها كان متجهاً نحو أوربا وكان الناس أعرف بها . ولقد وصفها انجليزى هو سيربول ريكو ، سكرتير أحد السفراء ، فى أسلوب بلغ من حيويته أن كتابه أصبح منذ عام ١٦٦٦ أحد كتب السياحة

الكلاسيكية ، وأعيد طبعه مرات عديدة ، حتى أصبح يدور فى كل يد ؛ ونشرت بعده روايات أخرى كثيرة . فقام مارانا الذى ذكرنا اسمه من قبل ، والذى كان معجباً بالمصريين ، يصف تركيا : بدأ فى عام ١٦٨٤ بنشر « جاسوس السلطان الأعظم » الذى لقى رواجاً فذاً ، وأنجب أسرة كبيرة العدد من الأبناء والأحفاد. الجاسوس محمود الذى اتخذ لقب تيت المولداڤ T'ite de Moldavie رجل دميم ، كتوم : ولما كان رصيناً متحرزاً ومتواضعاً فانه لم يجذب اهتمام أحد حتى إنه عاش ٤٥ عاماً فى باريس دون أن يستلفت الأنظار . كان يتنزه فى النهار ، ويعود فى الليل إلى غرفته ، ليكتب إلى رئيس الديوان فى الآستانة ، أو إلى رئيس الخزانة ، أو إلى أغا قائد الانكشارية ، أو إلى محمد ، أغا السلطانة الوالدة ، أو إلى الوزير المهاب قاسم . وكانت رسائله حافلة بالنقد الجارح الجرئ سواء ضد الأمور السياسية أو الأمور الحربية ، أو الأمور الكنسية . كان يسخر من كل شئ .

ولكن الفارسى أخذ بثأره ، وتم له النصر . ولا شك فى أن ذلك يرجع إلى سببين : أولها ، أنه لا توجد حكايات عن الأسفار أمتع مما كتب شاردان بالرغم مما فيها من بطء وإطناب . ذلك الجوهرى الذى رحل إلى بلاد الفرس لبيع الحلى، من ساعات وأساور وعقود وخواتم ؛ ذلك البروتستانتى الذى حرم عليه فسخ أمرنانت(١) دخول فرنسا ، كان يحس فى وطنه إحساس الرجل الغريب . كان يعرف أصفهان أكثر مما يعرف باريس ، ويحبها على الأخص حباً جماً . حتى إن من يقرأ كتابه ولو كان أمياً ، يدرك أن هناك ، بعيداً فى بلاد آسيا ، أناسا لا يقلون عنه شأناً بحال من الأحوال ، ولو أنهم يحيون حياة تفترق كثيراً عن حياته . إذن يجب على الأوربيين أن يدعوا فكرة التفوق الشخصى التى ألفوها ، وأن يبدلوها بفكرة الاختلاف : يا له من تغير سيكولوجى ! ففى بلاد الفرس كل شئ يختلف : الغذاء الذى يتناوله المرء فى الطريق ، والدواء الذى

---

(١) Révocation de l'Edit de Nantes : أمر نانت ، أمر أصدره هنرى الرابع فى ١٥٩٨ لصالح البروتستانت ، يسمح فيه بمباشرة مذهب كالفين ، وكان للبروتستانت أربع جامعات ومقاعد فى البرلمان وغير ذلك من الحقوق . ولكن لويس الرابع عشر حد من هذه الحقوق شيئا فشيئا حتى فسخ هذا الأمر فى عام ١٦٨٥ . وأعمل فى البروتستانت الاضطهاد . الأمر الذى سبب فرار عدد كبير من البروتستانت كان بينهم خيرة الفرنسيين وأنشطهم . [المترجان]

يصفه الطبيب المحلى على طريقته ، والخان الذى يختلفون إليه للمبيت ؛ كل شئ يختلف ، الثياب ، والحفلات ، والمآتم ؛ الدين والعدل والقانون . ومع ذلك فان أولئك الفرس ليسوا قوماً من البرابرة : إنهم على النقيض فى غاية الرقة والتهذيب بل فى أوج المدنية ، حتى إنهم لطول عهدهم بها قد ملوها . وهنا ينوه شاردان بوجود هذا « العالم الآخر » وشرعيته . لقد عرف قراءه « بكل ما هو جدير بأن يتجه إليه فضول أوربا ، مما يتعلق ببلد نستطيع أن نسميه « دنيا أخرى » ، سواء لبعد الشقة أو لفوارق الأخلاق والمبادئ . . . (١) »

أما السبب الثانى ، الذى أتاح للفرس احتلال مكان الأتراك فهو واضح كل الوضوح ، حتى ليكفينا أن نشير إليه : فبعد المسودات والرسوم التخطيطية ، ظهر رجل — ليستغل فيما بعد ، مادة معدة — رجل لم يكن موهوباً فحسب ، بل كان فوق ذلك عبقرياً فذاً يدعى مونتسكيو Montesquieu (٢) .

لم يكن ينقص غير القليل لالتحاق السيامى بهذه الفرقة ذات الألوان المختلفة . أراد لويس الرابع عشر توطيد العلاقات التجارية مع بلاد سيام ، ليبشر هناك بالدين المسيحى . وبدأت العلاقات : ففى عام ١٦٨٤ رأى أهل باريس — لشدة عجبهم — حضور مندوبى سيام ، وفى عام ١٦٨٥ ذهبت بعثة فرنسية إلى سيام ، وفى عام ١٦٨٦ حضرت بعثة سياسية جديدة إلى فرنسا ؛ وفى عام ١٦٨٧ جددت المحاولة بعثة فرنسية أخرى . وعندئذ ظهرت بيانات كتبها العلماء الأكليريكيون وبعض رجال السلك السياسى المشاركين فى الموضوع . ومن هنا تولد حب استطلاع الجمهور . ومن هنا أصبح الناس — بمقتضى آلية سيكولوجية لا تتغير — يتخيلون صورة السيامى فى إطار جميل : رجل تقى عاقل مستنير . فمثلا ، يحكى أنه لما عرض على ملك سيام أن يتقبل الدين الجديد ، أجاب بأنه ، لو شاءت العناية الالهية أن يسود العالم دين واحد ، فما كان أيسر من تنفيذ ذلك الغرض . ولكن حيث إن الله يسمح بوجود أديان مختلفة ، فينبغى أن

(١) مقدمة «صحيفة سياحة الفارس شاردان Chardin فى بلاد الفرس» ، ١٦٨٦ .

(٢) مونتسكيو من أعلام الأدب فى فرنسا . ألف « روح القوانين » ، و« عن عظمة والمحلال الامبراطورية الرومانية » ، و« الرسائل الفارسية » *Les Lettres persanes* وهى المقصودة هنا . [المترجمان]

نستنتج أنه يؤثر أن يسبح بحمده عدد لا يحصى من المخلوقات ، كل يمجده طبقاً لأصوله الخاصة . فدهش الناس عندما سمعوا هذه الكلمات : واعجبا ! إن أمير سيام ، هذا الذى لا يعرف شيئاً من علوم أوربا ، قد شرح بالرغم من ذلك وفى قوة ووضوح يستحقان الاعجاب ، أقوى برهان تتذرع به فلسفة الجاهليا ضد الدين ! . . . إن النتيجة التى نستخلصها من كل ذلك تؤدى بنا إلى الأثورودكسية(١) . إن السياميين يتقبلون فى أرضهم كل أنواع الأديان ؛ وملكهم يسمح للبعثات المسيحية أن تمارس التبشير فى بلاده بكل حرية : فهل الأوربيون فى مثل تسامحه هذا ؟ — ترى ماذا كانوا يقولون لو فكر «الطالابوان» فهكذا يدعى كهنة سيام — فى القدوم إلى فرنسا ليبشروا بدينهم ؟ — إن السياميين يؤمنون بدين خرافى ، إذ يعبدون إلهاً غريباً يدعى « سومونوخودوم » وبالرغم من ذلك فان فى أخلاقهم الطهر والزهد ؛ ولا يستطيع أى مسيحى أن ينتقد سلوكهم . أفلا توجد إذن بين الدين والأخلاق صلة حتمية ؟

إلا أن ثورة نشبت فى القصر السيامى ، جاءت على غير ما تشتهى البعثة الفرلسية ، فلم يغير ملك سيام دينه ، وأهمل المشروع . وعلى إثر ذلك جاء الفيلسوف الصينى يحجب الطالبوان السيامى .

***

ذلك أنه ليس لبلد ، فى جغرافية الأفكار هذه ، ما للصين من أهمية .

لما كان الجيزويت العلماء تحدوهم أوسع المطامع ، ويأسلون فى تحويل تلك الكتلة الآسيوية الهائلة إلى المسيحية ، بالتهوين من الفوارق بين الدينين ، وغض النظر عن تعارضهما ؛ ولما كانوا قد عرفوا كيف يكتسبون فى بكين عطف الامبراطور ، فقد حاولوا تبيان اقتراب الفلسفة الصينية من المذهب الكاثوليكى ، حتى إنه يمكن جعلهما متماثلين تماماً ، إذا توافرت الرغبة فى ذلك . وعندهم ، أن كونفوشيوس الذى كون روح شعبه وهذبه ، قد نادى بمذهب يشعر فيه المرء فى كل لحظة ، بنفث إلهى . كان يعتبر أن الطبيعة البشرية قد جاءت من السماء فى غاية الطهارة والكمال ، وأن الفساد تطرق إليها فيما بعد ، وأن واجبنا

(١) الأثورودكسية : انظر إلى الفصل الرابع من القسم الأول .

لآن أن نرد إليها جمالها الأول : إذن يجب على أشياعه الصينيين أن يطيعوا الله ، وأن يتمشوا مع أوامره السامية ، وأن يحبوا إخوانهم محبتهم لأنفسهم . كان يخيل إلى المرء إذا اطلع على تعاليم كونفوشيوس ، أنه أمام قديس للدين المسيحى ، لا أمام رجل تربى فى فساد حالة الطبيعة : إنه شبيه صينى للقديس بولس . لا ريب فى أن الصين قد استقت الحقيقة من منابعها الأصلية ، وأن أولاد نوح الذين انتشروا فى آسيا الشرقية قد أتوا إليها بتلك البذور التى استثمرها كونفوشيوس .

ولد كونفوشيوس قبل المسيح بثمانية وسبعين وأربعمائة سنة ، وكثيراً ما كان يقول ، كأنه نبى : فى الغرب يوجد القديس الحقيقى . وبعد ٦٥ عاماً من ولادة المسيح استحث الأمبراطور ميمتى حلم ، وفسر كلمة « الأستاذ » هذه ، ثم أرسل مبعوثين إلى الغرب وأمرهم أن يواصلوا رحلتهم حتى يقابلوا ذلك القديس . وفى ذلك الوقت كان القديس توما يبشر بالدين المسيحى فى الهند ، ولو أن أولئك المبعوثين أدوا رسالتهم ، بدلا من التوقف فى أول جزيرة ، خشية خطر البحر ، فربما أصبحت الصين فرعاً من الكنيسة الرومانية . . .

وبالمثل ، لو أن الجيزويت أفلحوا فى مسعاهم لتحقيق التماثل بين الدينين ، فلعل أوربا لم تكن لتشعر بصفة عدم التحول ، التى يتصف بها الشرق الأقصى ، الذى كان يجبرها على الالتفات إليه . وفى عام ١٦٩٧ بذل الجيزويت جهدهم الأخير : إذ نشروا مؤلفهم الكبير *Confucius, Sinarum Philosophus* ؛ مؤلف يهم المذهب أكثر مما يهم العلم ، ويخص تفسير الوقائع أكثر مما يخص الوقائع ؛ لأنه إنما كتب قبل كل شئ ، من أجل شباب الارساليات : صائدى الناس ، الذين يصبحون أقدر على اصطياد الأرواح فى شباكهم ، بازدياد معرفتهم بأوجه الشبه الممكنة : جنود المسيح ، مزودين بالأسلحة المخصصة لمعاركهم الجديدة .

بيد أن الجيزويت أخفقوا ، واتضح فى عام ١٧٠٠ استحالة التوفيق بين المستحدثات التى نتجت من دراسة الشرق ، والتقاليد القديمة . فان معركة « المراسيم الصينية » أوضحت وبينت حالتين فكريتين ، وأوجبت الاختيار بينهما . وكانت معركة قديمة قدم الارساليات الأولى إلى الصين ، لأن المذاهب الأخرى المنافسة ، لم تكف أبداً عن انتقاص تسامح الجيزويت وميلهم إلى المصالحة . فلما رأت هذه المذاهب نجاح الآباء الجيزويت ، وتقريبهم بين المسيحيين والصينيين ، احتجوا احتجاجاً شديداً حتى إن الموضوع لم يرفع إلى السلطات

الدينية فحسب ، بل اشترك فيه الجميع . ونحن نعلم أى شدة تثور بها المناقشات اللاهوتية إذا انتقلت إلى مثل ذلك الوسط . قالوا : لا تخطئوا ، فان الجيزويت يخدعونكم ، فأهل الصين وثنيون . إنهم يعبدون أجدادهم ويعبدون كنفوشيوس . والجيزويت المقيمون فى الصين يبيحون للمتنصرين أن يسجدوا أمام تمثال شنهوام ، وأن يحتفلوا بجنائزهم فى مراسيم ملؤها الخرافات ، وهم يقدمون لزعيمهم كون — فو — زو القرابين ، ويخفى الجيزويت عنهم سر الصليب ؛ ولا يقومون بأداء « المسحة الأخيرة » للمرضى والأموات ، ولا العادة أيضاً . ثم رفع أعضاء الارساليات الأجنبية ما كتبه الأب لوكونت والأب لوجوبيان إلى مجامع روما والسربون ، متهمين إياهما بالمروق .

وكان القتال عنيفاً . فقد قررت روما إرسال مندوب إلى الصين لكى يقوم بتحقيق جديد ؛ أما السوربون فقد أدانت الجيزويت دون انتظار أوبة ذلك المبعوث . هنا اتضحت استحالة تحويل المجهول إلى معروف ، أى تحويل الدين الصينى إلى الكاثوليكية ، والصين إلى المسيحية . لم يكن بد من تقبل وجود كائن لا يتحول ، ولا يمكن إنكار غرابته أو عظمته .

ولكن المتحررين من كل نوع كانوا معجبين بالصين كل الاعجاب :

Vossius apportait un traité de la Chine

Où cette nation paraît plus que divine. (١)

ذكر فوسيوس أن الصينيين لا يعترفون بالنبل إلا لرجال الأدب ؛ ولا يحتفظون بذكرى إلا ذكرى أمرائهم العادلين المسالمين ، وأن مستشارى الامبراطور وأخصائه يؤاخذون أميرهم بمثل الحرية التى كان الأنبياء يؤاخذون بها ملوك اليهود : وإلا تعرضوا للوم الشعب وسخطه . يقال إن لاموت لوفاييه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من الصياح : أيها القديس كونفوشيوس ، ادع لنا! *Sancte Confuci. ora pro nobis* وذلك قبل أن يطالع مؤلفات الفيلسوف الصينى . ولما ازدادت معرفة المتحررين به ، وشهدوا معركة المراسيم ، اتضح لهم أمران بينان : أولها أن المدنية الصينية كانت تستحق الاعجاب ، وثانيهما أن هذه المدنية كانت وثنية تماماً : فبالنسبة « للعقول القوية » يا لها من ثروة للاستغلال !

---

(١) جاءنا فوسيوس ببحث عن الصين يبدو فيه هذا الشعب شعباً إلهيا .

استغلال فى السياسة :

« إن الصينيين قد حرموا من الوحى . إنهم ينسبون إلى قوة المادة كل صفة ننسبها إلى القوة الروحانية ، التى ينكرونها وينكرون احتمال وجودها . إنهم عميان ولعلهم عنيدون .

ولكنهم عاشوا على ذلك منذ ... ٤ عام أو ... ٥ ، وهذا الجهل أو هذا العناد لم يحرم حالتهم من شئ من الفوائد الكبيرة التى يرجوها الرجل العاقل ، وينبغى أن ينالها ، من المجتمع : الرفاهية ، والكثرة ، وممارسة الفنون الضرورية ، والدراسة ، والهدوء ، والأمان(١) . »

واستغلال فى الدين :

« إنه لعجيب أن يوجد بين مختلف الأديان ، دين واحد ، يقوم على أساس الواجب الطبيعى ، ودون استناد على الوحى ، ينكر المذاهب العجيبة وأشباح الخرافات والتهاويل ، التى يظنون أنها مفيدة جداً لسلوك الناس (٢) .»

إن أهل الصين كفرة ، ولكن كفرهم هذا ليس كفراً سلبياً مثل كفر همج أمريكا ، بل هو كفر إيجابى اختيارى : ومع ذلك فهم قوم ذوو حكمة وفضيلة وتقوى ، وعقيدتهم تشبه مذهب سبينوزا :

« بقدر ما أستطيع أن أحكم على شعور الأدباء الصينيين ، بما يزودنا به السياح ولا سيما الأب جوبيان من أخبار ، فى كتابه : « تاريخ أمر امبراطور الصين فى صالح الدين المسيحى » ، يخيل إلى أنهم جميعاً متفقون مع سبينوزا على أنه ليس فى الكون جوهر غير المادة ، تلك المادة التى يميزها باسم الاله وستراتون باسم الطبيعة (٣) . »

---

(١) بولانفلييه ، « حياة محمد » ١٧٣٠ ، ص ١٨٠ - ١٨١ . Boulainvilliers, *La Vie de Mahomed*, 1730.

(٢) بولانفلييه « تفنيد أخطاء سبينوزا » ١٧٣١ ص ٣٠٣ .

(٣) كولنز Collins « رسالة عن أبدية الروح » ١٧٠٩ ، الترجمة الفرنسية ، لندن ١٧٦٩ ص ٢٨٩ .

إن الفيلسوف الصينى يفتن أولئك الذين يتعجلون مجئ نظام جديد ، أكثر مما يفتنهم الهمجى الطيب ، أو المصرى الحكيم ، أو العربى المسلم ، أو التركى الساخر ، أو الفارسى المتهكم .

***

إن سياح أوربا بوجه عام يدفعهم حب استطلاع هادئ ؛ أما سياح أمريكا وأفريقيا وآسيا ، فهم أكثر حماسة ، لأنهم مدفوعون بروح المغامرة والطمع والايمان . والهائمون فى عالم الخيال ، يذهبون إلى حد الجنون .

وأولئك عددهم كبير ، وإننا لنحتار فى الاختيار . أنتبع جاك سادير فى رحلته إلى أستراليا ، حيث أقام أكثر من ٣٥ عاماً ؟ أم نتبع الكابتن سيدن إلى « السيفاراسب » ؟ أنتعرف جزيرة كالاجافا حيث كل السكان عقلاء ؟ أم جزيرة نودلى مثال دماثة الأخلاق ؟ أم مملكة كرينك كسمز العظيمة ؟ أنجد تسلية فى قصة مغامرات جاك ماسيه ؟ ليست هذه الروايات الخيالية بمؤلفات فنية ، فان أبطالها ثراثرة مزعجون لا يخشون التطويل أو الاستطراد الثقيل . يمتلكهم الزهو بأنفسهم ، فلا يوفرون علينا عرض معلوماتهم ولا التحليل المفصل لفضائلهم . أولئك المؤلفون ، أغلبهم من التائهين أو المهاجرين ، يصفون لنا فى كتبهم المشاعر التى كانت سبباً فى مؤاخذة قومهم لهم ، والآخرون بورجوازيون ذوو مظهر هادئ ، يفضفضون أحلامهم المكبوتة .

إن الصيغة لا تتغير : فجميعهم يبدأون بقصة مخطوط قديم ، وجد باحدى المعجزات : ولسنا ندرى لأى سبب يفتن هذا الاختراع الخيالى كل الكتاب على الدوام ، حتى يكرروه ، الواحد بعد الآخر ، كأنه شئ جديد دائماً ؟ — ويحكى هذا المخطوط عادة ، أسطورة بطل مغامر ، عرف أخطار المحيط ، ولما غرق مركبه نزل بأرض مجهولة ، يحسن أن تكون أرض أستراليا . وهنا يبتدئ الموضوع الهام : وصف طويل لأرض لا يعلم بها الجغرافيون ، فيجمعون الذكريات المستمدة من الخيال (١) ، ومن الرحلات البعيدة ، ثم يضيفون إليها بعض البيانات

---

(١) aux utopies من البلاد الخيالية ، utopie فى الأصل بلد خيالى اتخذه توماس مور عنوانا لأحد مؤلفاته ، وأصبحت الكلمة تطلق على كل مشروع مستحيل التحقيق . [المترجمان]

السخيفة المضحكة : فمثلا جاك سادير شخص مخنث ، فيوقعه حسن طالعه فى منطقة كلها خناث مثله ، يقتلون ذوى الجنس الواحد ، إذ يعدونهم مثل الوحوش . ولكن هذه الدعابات ليست إلا حواشي للموضوع . فالغرض الأساسى هو الانتقال إلى أرض خيالية ، والبحث من هناك فى الحالة الدينية والسياسية والاجتماعية لأوربا ، وتبيان أن الدين المسيحى على العموم والمذهب الكاثوليكى على التخصيص همجى غير منطقى ، وأن الحكومة عامة والملكية خاصة نظام جائر مكروه ، وأن المجتمع ينبغى أن ينقلب رأساً على عقب ليتكون من جديد . وحين يتم هذا التبيان ، لا يكون على بطل الرحلة الخيالية إلا أن يعود إلى أوربا ، لكى يلاقى الموت .

والشيء الذى يستلفت النظر فى هذه الروايات هو الرغبة الدائمة فى التدمير والتخريب . ما من عادة أو تقليد لا ينكرونه ، أو فكرة مألوفة لا يرفضونها ، أو سلطة لا يتعرضون لها . فهم يعملون على هدم كل مؤسسة ، ويعارضون بكل ما فى وسعهم . ويظهر شيوخ حكماء فى مواقف معينة ، ويحلون محل رجال الدين فيلقون مواعظ مدنية ، ويشيدون بالجمهوريات التى لا يتطرق إليها الفساد ، وبالحكومات المتسامحة ، وبالسلام الذى يكتسب بالاقناع ، وبالدين بلا قساوسة وكنائس ، وبالعمل المخفض الذى يبدو للعامل كسلاة . ويمجدون الحكمة التى تسود أراضيهم الجديرة بالاعجاب ، حيث فقد الانسان معنى الخطيئة ويضعون تعاليم ضد تعاليم الدين . وعلى إثر ذلك نعود إلى المغامرة بوثبة من وثبات الخيالّ أو بتعبير ماجن أو صورة خليعة ، تنعشنا وتستثير اهتمامنا ، أو هذا على الأقل ما يظنه المؤلف . ثم يعود إلى تبيان ما فى حياتيا اليومية من مشاق وسخافات وأحزان ، ويصف الأيام السعيدة التى يقضيها الناس هناك ، فى تلك البلاد التى ليس لها وجود .

والشيء الذى يستلفت النظر أيضاً ، هو انتصار الفكر الهندسى . انتظام فى كل شيء حسب الرقم والقياس : فكرة تلاحق المؤلفين جميعاً وتلازمهم حتى فى أحلامهم وجنونهم . هذا الميل إلى التسوية ينطبق على كل مظاهر الحياة ، حتى على اللغة التى لا يجوز أن تتضمن شيئاً تجريبياً ، بل ينبغى أن تكون منطقية تماماً . وهو ينطبق أيضاً على المساكن ، مساكن « الست عشرات » ؛ ففى كل منطقة ستة عشر حياً ، وفى كل حى خمسة وعشرون بيتاً ، وفى كل بيت

أربع حجرات تحتوى كل منها على أربعة رجال : ذلك هو البلد التام الانتظام . وشوارع منتظمة وعمارات كبيرة مربعة ، مبنية كلها على رسم واحد : تلك هى المدينة الجيدة البناء . وحدائق مربعة تماماً حيث تغرس الأشجار فى انتظام حسب فائدة الفاكهة ولذتها : ما أروعه من بستان ! فبالأرقام يستطيع المرء أن يثبت كل شئ ، حتى استحالة بعث الأجساد . فلنفترض بلداً فيه ٤١٦٠٠ قرية فى كل قرية ٢٢ أسرة وفى كل أسرة ٩ أفراد . الحاصل : ٣٨,٢٣٠,٠٠٠ نفساً يمثلون ١٠,٤٠٠,٠٠٠ قدماً مكعباً من اللحم . وتتجدد هذه الكتلة كل ٦٠ عاماً فتخيل ضخامتها بعد مرور ١٠ آلاف سنة : ستكون كتلة ضخمة تفوق حجم الأرض بشكل لا يقدر ولا يتصور ؛ وعلى ذلك فبعث الأجساد شئ محال . — إن الجبال شئ مزعج لما فيها من عدم استواء : لذلك فان الاستراليين لم يترددوا ، فطووها وسووها .

وإذا انتشى الإنسان بتلك الأفكار ثم أفاق من حلمه ليجد نفسه أمام الواقع الملموس ، فلا بد أن يحز فى نفسه الألم . أو هو على الأرجح يخضع ذلك الواقع الملموس ، طوعاً أو كرهاً ، لتحويل هندسى ، فيقول إن مجئ المسيح يحير العقل ، إذن فهو ليس حقيقياً ، وإن العهد القديم ليس واضحاً ، إذن فهو ليس صحيحاً ، وإن الحكمة تقضى بألا يقبل المرء شيئاً ما لم يكن مبيناً واضحاً . يقول تيسو دى باتو ، أحد الخياليين وأكثرهم بحثاً وتفكيراً ، وهو مؤلف « مغامرات جاك ماسيه Jacques Massé » ١٧١٠ : « أما وقد سرت منذ أمد طويل فى طرق الهندسة الواسعة المضيئة ، فانى لم أعد أحتمل شعاب الدين الضيقة المعتمة إلا بمشقة . . . إنى أريد فى كل شئ ، الوضوح والامكان (١) . »

إن هذه الكتب مؤلفات تتضمن قسطاً وافراً من الحماقة ، فيها أفكار فجة غير معقولة ، ولكنها قوية . ومشاعر لم يحسنوا التعبير عنها ، ولكنها مشاعر عظيمة . إنها لا تنبئ عن مجئ سويفت وفولتير وروسو فحسب ، بل عن الروح الديموقراطى أيضاً ، عن روبسبيير .

---

(١) تيسو دى باتو ، رسائل مختارة ، ١٧٢٧ ، رسالة ٦٧ Tyssot de Patot, Lettres choisies, 1727. L. 67.

***

لم يكن المراد من السياحة البحث عن المناظر الرائعة ، أو التنزه فى مختلف الأجواء حتى يدرك المرء ما يطرأ على حساسيته من تغيرات ، بل المقارنة بين الأخلاق والمبادئ والفلسفات والأديان ؛ الوصول إلى معنى النسبية ، والمعارضة والشك . وكان بين أولئك الذين ساحوا خلال الدنيا ، أكثر من متحرر واحد .

وقراءة روايات السياحة والأسفار تعنى الهرب والفرار ، تعنى الانتقال من ثبات الفكر إلى الحركة . كم من أفكار خجول كسول واتتها الجرأة بفضل معرفة الصين أو مملكة المغول ! وبازاء هذه المذاهب المتناقضة التى يزعم كل منها أنه يعبر عن اليقين الوحيد ، وبازاء تلك المدنيات المختلفة التى تدعى كل منها تمثيل الكمال الوحيد ، كم تعلمت العقول الشك وعدم الايمان ! « إنهم عميان ، لا خبرة لهم ولا تجربة ، أولئك الذين يظنون أن أوربا قارة تكفى نفسها بنفسها ، وليست فى حاجة إلى جيران . . . لا ريب فى أنها لو استطاعت الاتصال بالاستراليين ، لاختلفت كل الاختلاف عما هى عليه الآن (١) . »

ولكن أوربا لم تتصل بالأستراليين ، بل آثرت الاتصال ببلاد الشرق ، من بين كل البلاد التى ألحت فى هذا الاتصال . الشرق الذى — بالرغم من أن أوربا شوهت صورته — لم يزل بعد يحتفظ بقوة مبتكرة تكفى لكى يقدم للعالم حضارة غير مسيحية ، كتلة من البشر قد بنت بنفسها أخلاقها ، وحقيقتها ، وسعادتها .

لقد كان ذلك أحد الأسباب التى جعلت ضمير أوربا يتعكر ويضطرب ، و بما أنه رام أن ينقلب رأساً على عقب ، فقد انقلب أى منقلب !

---

(١) جبريل دى فوايني « الأرض الاسترالية المعروفة ١٦٧٦ » الفصل الحادى عشر .
Gabriel de Foigny, *La Terre australe connue*, 1676, chap. XI.

الفصل الثانى

من القديم إلى الحديث

القدماء ، القدماء الأعزاء : يا لهم من مثل عجيبة ! كلما أرادوا الكتابة أنتجوا المؤلفات النبيلة . فى ميدان الفلسفة قدموا للعالم مبادئ أخلاق ما كان على المسيحية إلا أن تكملها . وفى ميدان العمل عاشوا كأبطال ، لا أبطال أساطير مثل رولان وأماديس ، بل أبطالا حقيقيين . فاذا أراد امرؤ الكتابة أو التفكير أو الحياة فما عليه إلا أن ينسج على منوالهم .

وعلى حين غرة ، أو هذا ما يبدو على الأقل ، جاء الكفرة المجدفون : المحدثون الذين قوضوا مذابح الآلهة القدامى . أنظر كيف اكتسب هذا اللفظ ، لفظ « حديث » ، قيمة ليس لها نظير : تعبير سحرى يرد جبروت الماضى . وبعد ما كان الناس يبدون عصريتهم فى خجل واستحياء ، أصبحوا بها مختالين ، اختيالا يستفز ويثير . لقد تخلوا عن حزب الأموات العظام مستسلمين إلى متعة رخيصة ، متعة الاحساس بحياة فتية ولو كانت فانية ، مؤثرين الرهان على الحاضر بدلا من الماضى . معتقدين كما يعتقد تريفلان إحدى شخصيات ماريفو le Trivelin de Marivaux أنه لا فخر فى أن يحمل الانسان على عاتقه أربعة آلاف عام ، فانه حمل لا يطاق . فنشأ اعتقاد باطل ما زلنا به متشبثين . « إن الجديد ، مع أنه زائل من أصله ، يبدو لنا ميزة لها من القيمة ما يجعل غيابها عنا يفسد المزايا الأخرى ، ووجودها يقوم مقام كل المزايا : فنحن مضطرون إلى أن نظهر دائماً متقدمين فى الفنون والأخلاق والسياسة والأفكار ، خشية الحكم علينا بالاجداب والهوان والمضايقة — ونحن مفطورون على ألا نقدر إلا دهشة المفاجأة وتأثيرها السريع . . . (١) »

ما السبب فى هذا الانتقال الجديد من الماضى إلى الحاضر ؟ ما السبب

---

(١) بول فاليرى «نظرة إلى العالم الحاضر» ١٩٣١ ص ١٦١ .

Paul Valéry, *Regards sur le monde actuel*, 1931, p. 161.

فى أن شطراً من الفكر الأوربى قد تنكر للقدماء الذين آمن بهم عصر النهضة والعصر الكلاسيكى؟ إن النزاع الشهير، النزاع بين القدماء والمحدثين الذى يفسرون به هذا التقلب، ليس إلا علامة له، فينبغى أن نبحث فى علة وجوده.

فى أعماق الضمائر، أضاع التاريخ من قيمته حتى أفلس؛ بل إن نفس الشعور «بالتاريخية» كان يسير إلى الزوال. وإذا تولى الناس عن الماضى فلأنه تراءى لهم غير مؤكد، غير محقق، غير صحيح. لقد فقد الناس الثقة بمن يدعون معرفته، فاما أن أولئك كانوا يخطئون، وإما أنهم كانوا يكذبون. فحدث ما يماثل الانهيار الشديد، وصار الناس لا يرون شيئاً مؤكداً إلا الحاضر، فانتقل السراب من الماضى إلى المستقبل.

* * *

فى أول الأمر اتضح أن كلام المؤرخين المحدثين ليس محل وثوق. وكان عددهم كبيراً: ميزيراى Mézeray، الأب ميمبورج، فاريلاس Varillas، فيرتو Vertot، سانت ريال Saint-Réal، الأب دانييل، الأب بوفييه Buffier الذى أجمل الملوك والملكات والحروب والمعاهدات والممالك والولايات والمدن فى أشعار صغيرة يمكن حفظها عن ظهر قلب، ولورانس إيشارد، وإدوارد هايد، والكونت دى كلارندون، وآبل بواييه Abel Boyer، وأشهرهم جلبرت بورنيت Gilbert Burnet، ثم أنطونيو دى سوليس، الذى أهدى إلى أسبانيا فى عام ١٦٨٤ مؤلفه الرائع «تاريخ غزو المكسيك». فضلا عن عدد كبير من الآخرين الذين يتمنون أن ننتشلهم من مملكة النسيان، ولكن العدل يقتضى أن نتركهم هناك. وهم وإن كانوا يختلفون كثيراً، فقد كانوا يتفقون فى نقط عديدة: فالتاريخ مدرسة للأخلاق، إنه محكمة سامية، هو ملهاة للأمراء الصالحين، ومأساة للأمراء الطالحين. إنه يعلم دراسة الخلق لأنه «تحليل معنوى للأفعال البشرية». وهو على التخصيص عمل فنى، فكما يقول كورديموا «يحسن أن نخصص وقتنا لتنميق الانشاء، وترتيب الحوادث التاريخية، بدلا من تمحيصها. كما أنه يحسن أن نراعى جمال الأسلوب وقوته ووضوح الكلام وإيجازه بدلا من أن نبدو صادقين فيما نكتب». إن التاريخ دراماتيكى مؤثر، يقتضى ترتيباً مسرحياً فاخراً، فالحروب والمؤامرات والثورات والانقسامات موضوعات جميلة لمادة لامعة.

وهو خطابى، يقترب من الشعر الذى هو وجه من وجوه البلاغة . وهو نبيل شريف، فالجزالة مصدره الطبيعى . وهو، لا جرم، يتضمن خطباً ووصفاً وأمثالا وتحليلا ومقابلة، كالمقابلة بين شار لكان وفرنسوا الأول : « إن المشيئة الالهية لم تكتف بأن يولدا فى وقت واحد وفى مملكة واحدة وفى قرابة وثيقة ، بل شاءت أن يستمدا تألقهما كل من الآخر . وتلك حقيقة لا مراء فيها ، حتى إنه لما انهزم فرنسوا الأول ، بقى الثانى بلا فضيلة ولم يرتكب إلا أخطاء فى إثر أخطاء . فلنبدأ هذه المقارنة الشهيرة بما هو أكثر خفاء فى تاريخ أبطالنا العظماء ، ولنكمله إذا استطعنا بالدقة التى يتحراها أرسطو وفلوطرخس أكبر العلماء فى هذا النوع من الكتابة . . . (١) » .

وجملة القول فى ذلك ، أن جميع المؤرخين فى ذاك الوقت أرادوا أن يحذو حذو « تيت ليف » وأن يكونوا أبلغ منه . ولا ريب فى أنهم ارتضوا جميعاً ذلك الدستور الذى وضعه أحدهم وهو الأب لى موان : « إن التاريخ لرواية متصلة لأحداث حقيقية ، أحداث عامة عظيمة ، كتبت فى حكمة وبلاغة وتقدير ، لتعليم الأفراد والأسراء ولصالح المجتمع المدنى (٢) » .

ولقد كانوا يكتبون مقدمات جميلة ، يقولون فيها إن اهتمامهم إنما يتجه إلى العدل وعدم التغرض . إلا أنهم لا ينسون أيضاً أن من واجبهم الدفاع عن ملوكهم وبلادهم ودينهم ، ولذا فقد كانوا يماشون طبقاً للظروف ، ولا يتحرون الحقيقة فقط بل يدافعون أيضاً عن آرائهم الشخصية . ففى الجدال بين الكاثوليك والبروتستانت ، تجد من كان يمدح لويس الرابع عشر ، ومن كان يمدح وليم أمير أورانج . وهكذا نشبت منازعات لا نهاية لها ، أشهرها ما صحب كتاب جلبرت بيرنت « تاريخ إصلاح كنيسة انجلترا » (١٦٧٩ - ١٧١٥) ، وكتابى الأب مامبورج « تاريخ مذهب لوتر ١٦٨٠ » ، « وتاريخ مذهب كالفين » ١٦٨٢ ؛ وكتاب فاريلاس « تاريخ ما وقع فى أوربا من ثورات دينية » ١٦٨٦ - ١٦٨٩ .

وما كان يعوقهم شئ ، فقد أخذ (سان ريال) يحول حياة دون كارلوس

(١) فاريلاس : تاريخ فرنسوا الأول، ١٦٨٤ Varillas, *Histoire de François Ier.*, 1684.

(٢) الأب لى موان : فى التاريخ ، ١٦٧٠ Le P. Le Moyne , *De l'Histoire.* 1674.

ومؤامرة الاسبان ضد جمهورية البندقية إلى رواية : فما دام الروائيون يقتبسون موضوعهم من التاريخ فلماذا لا يجعل المؤرخون من التاريخ رواية وهى لا تقل عنه كثيراً من ناحية الخطأ ؟ — لما تقدم العمر بفاريلاس وكل بصره ، كان يملى فى كل يوم عدة ساعات دون أن يتحقق من شئ مما يمليه . وهو على كل حال لم ينتظر الشيخوخة حتى يخترع الحوادث . فقد نعى عليه أحد خصومه أنه روى — فى سياق مختلقات أخرى — النهاية المؤثرة لحب فرنسوا الأول مع محظيته مدام دى شاتوبرياند : فطبقاً لقول فاريلاس نجد أن مسيو شاتوبرياند ، عقب عودته من بافى Pavie فى عام ١٥٢٦ ، قد حبس زوجته الخائنة فى غرفة مجللة بالسواد . وأنه فى سبيل لذة الانتقام ، كان لا يتورع عن أن يشاهدها خفية تتلوى ألماً ويأساً ، حتى قتلها ذات يوم بنقل دمها بواسطة الأطباء . إلا أن الواقع أن فرنسوا الأول وهب السيدة المذكورة فى رحلته إلى بريتانى فى ١٥٣٢ غلة ممتلكات عديدة . وقد تركت غلة أموالها لزوجها بعد وفاتها عام ١٥٣٧ .

عندما كتب لورانس إيشارد تاريخ انجلترا منذ يوليوس قيصر ، قدر أن عصراً راقياً كالعصر الذى يعيش فيه ، لا يصح أن يرجع إلى مؤلفات الكهنة غير المتقنة ، حتى إنه قنع بتقليد ما أعجبه من مؤلفات القدماء والمحدثين : معترفاً بذلك ، بما اعتاد الآخرون أن يفعلوه ، دون اعتراف . — وما ذكر لنا من نوادر ، لا يستبعد أن يكون صحيحاً : لما انتهى (فيرتو) من كتابة قصة حصار مالطة ، وأطلعوه على الوثائق ، أجاب بأن الوقت قد فات ، فقد انتهى الحصار . وذهب الأب دانيال إلى المكتبة الملكية ، حيث قضى ساعة بين المجلدات ، ثم أعلن أنه قد أصاب كفايته . فياله من رجل سعيد ! ويقول هو نفسه إن ذكر المخطوطات شئ يشرف المؤلف ، وأنه اطلع على عدد كبير منها ، ولكن هذه المطالعة سببت له من العناء أكثر مما سببت من فائدة . وصدقناه بسهولة .

كيف تصمد عمارة على هذه الفخامة — وعلى هذا الضعف — لأقل صدمة ؟ لقد تطرق الشك منذ ذاك الوقت إلى ضمائر أولئك المؤرخين . فانهم علماء فى اللغات والآداب القديمة ، ولكنهم جاءوا متأخرين . وهم يدركون ذلك التأخر . بدأ وخز الضمير ينخسهم ، حتى فى نصرهم لا يشعرون براحة بال ، يتساءلون فى قلق ، وهم يتظاهرون بالكبر أمام الجمهور : ترى أين الحقيقة ؟ . Quid est Veritas?

هل الحقيقة لا تعدو الاحتمال البسيط فى الوقائع غير الثابتة ؟ « أهى ذلك المظهر المنطقى الذى تتراءى فيه الأمور بعد قليل من التفكير ؟ » أهى موافقة نفسية ؟ أهى انسجام يتولد من تأليف متقن ؟ أهى ابتداع فنى ؟ ما أصعب الوصول إليها ! ولعمرى إلى أى حد يسمح للمرء فى ذاك السبيل ؟ ولعل للمرء الحق فى أن يبحث عند الغير وأن يدخل المكاتب وأن يكشف الستار الذى يخفى أسرار الأسرة للبحث عما يشفى حب استطلاع الناس ؟ ما أكثر ما وصف كاتبان أو أكثر حصاراً واحداً ، أو معركة واحدة ، واختلفوا فى التفسير ، فترى أى تفسير نختار ؟ وبأى معجزة تتخذ الأحداث لوناً روائياً ، بمجرد ما يتناولها قلم المؤلف ؟ هذه هى المسائل التى تحير المؤرخين . ولا ريب فى أن المؤرخين سطحيون عاجزون عن البحث المستديم ، كثيرو الكلام فى غير ما يفيد ، وفى نفس الوقت متعجلون ، وأنهم بارعون فى تذليل المشاكل ، لا يعرفون كيف ينفذ المرء إلى المصادر ، ولا كيف يهتدى تحت الطبقات المتراكمة إلى اللون الأصيل ، وتنقصهم روح النقد والتحليل : ولكنهم يعجزون عن التخلص من بعض القلق الخفى ، الذى نلمس آثاره فى كتاب « منهج لدراسة التاريخ » الذى نشره فى عام ١٧١٣ (لنجليه ديفرنوا) : رجل ذو ذهن حر ولكنه مهوش . يقول : « حذار ، لا شئ أشق من تجنب الخطأ ، خذوا حذركم واتبعوا قواعد أكيدة ؛ لا تقبلوا كل شئ ، بل افحصوا ، ونقبوا ؛ وشكوا إذا لزم الشك ، أما مكل غريب وشاذ ؛ وابحثوا عن الأسباب التى قد توقع المؤرخ فى الخطأ ، والتى قد تدفعه إلى خداعكم . انتقدوا : وإلا أعطينا الحقيقة والكذب نفس السلطة . » ذلك هو موضع الخطر ، فلقد عبروا عنه بكلمة كثيراً ما تتردد على الألسنة ، بكلمة ، كرهوها ولكنهم عجزوا عن استبعادها : فالى الشك Pyrrhonisme الذى أفزع پاسكال ، أضافوا كلمة « التاريخى » .

فى عام ١٧٠٢ كلف العلامة الشهير يعقوب بيريزونيوس أستاذ التاريخ اللاتينى واليونانى فى جامعة ليدن ، بتدريس تاريخ الأراضى الواطئة . فخطب خطبة افتتاحية كالعادة أمام حكام البلدة والطلبة وزملائه المدرسين ، واختار موضوع خطبته « الشك التاريخى » . فقال فى كلمات لاتينية رائعة : إننا أصبحنا فى زمن تغالى أهله فى نقد كل شئ ؛ وإن التاريخ فى أزمة مستحكمة ، إذ يصدق البعض بحماقة ما يفسده من قصص ، بينما ينكر الآخرون كل ما فيه . وإن هذه

الحالة الذهنية الأخيرة البراقة ، الجذابة ، قد سرت وتوطدت ، حتى أصبحت على جانب كبير من الخطورة . فلو أنها انتصرت لضاع كل شيء ولوقع الناس في ارتياب عالمي . لذلك أكد الخطيب احتمال وجود الوثوق التاريخي . واختتم خطبته بقوله : إلى الجحيم أيها الشك !

ولكن كان أماسه إلكثير ، فهناك ثلاث فرق على الأقل تهاجم التاريخ : الديكارتيون الذين يعتقدون مثل زعيمهم أنه لا على الرجل الفاضل إذا لم يعرف اليونانية واللاتينية أكثر مما يعرف السويسرية ، ولا عليه إذا لم يعرف تاريخ الامبراطورية الجرمانية أو الرومانية أكثر مما يعرف تاريخ أية دولة صغيرة في أوربا . وأتباع مالبرانش الذي قال إن المؤرخين لا يفكرون بل يسردون أفكار غيرهم ، وإن آدم كان يملك ناصية العلم في الفردوس ، فهل كان يعرف التاريخ ؟ كلا بالطبع . إذن فالعلم الكامل ليس هو التاريخ . أما مالبرانش ذاته فكان يكتفي بمعرفة ما عرفه آدم . . . بل يرى أن الحقيقة لا توجد إلا بالتفكير العميق ؛ فالحقيقة ليست تاريخية بل ميتافيزيقية . — أما أتباع جانسينيوس(١) ، الأخلاقيون المتزمتون ، فلم يكونوا مرتاحين إلى هذا

---

(١) مذهب جانسنيوس أو *Jansénisme* .

كتب جانسنيوس ، اللاهوتي الهولندي ، عام ١٦٤٠ مؤلفاً ضخماً بعنوان « أوجستينوس » حيث شرح مذهبه عن النعمة الالهية والجبرية . وهذا المذهب يرمي إلى : ١) تحديد حرية الاختيار البشري : لا يستطيع الانسان شيئاً وحده ، بل كتب نصيبه منذ الأبد ، ٢) إنكار مفعولية النعمة الالهية ، والاعتقاد بفساد الانسان منذ سقوطه : فان الانسان بغلطة آدم قد فقد كل حق في النعمة ، وينعم الله على من يشاء .

هذا المذهب دافع عنه لاهوتيو « بورت رويال » Port Royal بزعامة سان سير وارنو Arnauld ، وأثار معركة كبيرة مع الجزويت ، موضوعها المسألة الاخلاقية الانسانية كلها : ١) إما أن الانسان يفرق مختاراً بين الخير والشر ، ولا يتدخل الله الا للحكم ، وإذن فلا وجود للجبرية وبالمثل للنعمة ، ٢) وإما أن الله يعطيه كل شيء ، الارادة والعمل ، ويحيط علمه تعالى منذ الأبد بنتيجة كفاح الانسان . وقد أخذ باسكال جانب الدفاع عن أتباع جانسنيوس ، وبوحي من علماء بورت رويال ، كتب ضد الجزويت « رسائله القروية » *Lettres Provinciales* التي تعد من الوجهة الأدبية المثال الفذ للنثر الحديث .

كان من الطبيعي أن تستفز مسألة « النعمة » هذه فليسوفا كفولتير ، الذي فندها في ═

النوع من شهوة المعرفة الأبدية « L'éternelle libido sciendi » . ولكن أعنف الخصوم كانوا المتحررين .

ذلك لأن التاريخ كان يبدو لهم بمثابة عدو شخصى ، فادعوا أنه موضع شك وبطلان ، وأنه وضيع لأنه كله تملق لأصحاب السلطان ، وأنهم ينسقونه كما لو كانوا ينسقون صحاف الطعام ، فيضعون نفس الطعام ، فى عدد من الصحاف يعادل عدد البلاد الموجودة فى الدنيا ؛ فاذا تحتم علينا أن نقرأه ، فليس لمعرفة الأحداث بل لكى نعرف كيف يفسرها كل رجل وكل حزب وكل شعب ؛ والخلاصة أن التاريخ كله لم يكن إلا شكاً مستمراً .

وكان الفرنسيون يمتازون بحماسة هجومهم ، ولكنهم لم يكونوا وحدهم ؛ ففى ليبزج كان (منكن) J. B. Mencken يهاجم المؤرخين جاعلا إياهم من طائفة الدجالين . دجالون ، لأن بعضهم يحشون رواياتهم بخطب مملة طويلة — تقليداً للمؤرخ الرومانى المجيد تيت ليف — وينسبون أرق الحكم والأمثال إلى أغلظ الناس ؛ ولأن البعض الآخرين يملئون صحائفهم بزخرف قديم كأنما يخشون ألا يجدوا قراء ما لم يقدموا لهم مناظر مشوقة بديعة ؛ ولأن غيرهم يخترعون سلاسل الأنساب ويزورون الوثائق ، تملقاً للعظماء الذين يدفعون لهم الأجر . أما الفرنسى فاريلاس فدجال مع الدجالين ؛ ولكن المؤرخين على العموم دجالون جميعاً ، ما داموا يعدون فى مقدماتهم بأنهم سيقدمون للجمهور حقيقة لا تظهر للناس أبداً . . .

= قاموسه الفلسفى بأسلوبه الرائع : لا شك فى أن أول من تكلم عن النعمة هوميروس . . . لكن بين الفلاسفة من لم يشارك هوميروس فى رأيه هذا ، زعموا أن العناية الالهية العامة لا تتدخل مباشرة فى أمور الأفراد الخاصة ؛ بل هى تحكم كل شىء بمقتضى قوانين شاملة . عند هؤلاء الفلاسفة أن العشب والبلوط ، والسوس والفيل ، والانسان ، والعناصر والكواكب تطيع كلها قوانين ثابتة لا تتغير ، وضعها الله منذ الأزل . . . يصعب على أولئك الفلاسفة أن يأخذوا جانب الزاعمين بأن السيد المطلق على الناس يهب مالا لعبد ، ويمنع الغذاء عن الآخر . . . يقولون إنه إذا وجد ذئب فى طريقه عنزة صغيرة ليتعشى ، وإذا كان ذئب آخر يموت جوعا ، فان الله لم يعن بأن يمنح للذئب الأول نعمة خاصة . . . (مقتطف من القاموس الفلسفى *Dictionnaire Philosophique* ، باب الغفران ، وبيان رقم ٢٠) وأنظر أيضاً « باسكال » بقلم Srephen Valot الفصل ٢٩ ، وأفكار باسكال بقلم F. Strowski . [المترجمان]

فوافق الحكماء على ذلك قائلين : هذا صحيح بلا نكران . فبعد كل ما كتبه المؤرخون عن فرنسا لم نجد تاريخاً واحداً لفرنسا يستحق التقدير ، ولا تاريخاً لانجلترا ولا أى تاريخ كان . فالناس فيما سبق كانوا يصدقون بغير تفكير ، أما الآن فقد حلت ساعة الشك والارتياب . « ألا نكون على صواب إذا عددنا عصرنا هذا عصر الشك التاريخى ؟ (١) »

ولكن الشك فى التاريخ الرومانى أيضاً ، والظن فى أن المؤرخين القدماء لم يكونوا أقل من الآخرين محاباة وتحيزاً ، ولا أقل خفة وتطيراً ، ولا أقل دجلا وتحايلا — قد يكون أليماً موجعاً .

كان كل الأدباء على معرفة وثيقة بروسولوس ومن سبقه ولحقه من الأبطال . فلقد درسوا تاريخهم فى المدارس وكتبوا بلغاتهم ، وحفظوا رسائلهم وخطبهم . وكان ذلك التاريخ الموقر مرتباً ترتيباً يستحق الاعجاب ، وكان مسروداً فى أسلوب فيه من النبل والتوكيد ما يجعله بريئاً من كل احتمال للكذب أو التدجيل . كان قصة بطولة واقعية : فى ذات يوم — وعلى وجه التحقيق فى عام ٢٨٢٤ أى أربعمائة سنة قبل إنشاء روما — حضر (إينى) إلى (اللاثيوم) مع الطروادين الذين هربوا مذعورين من النار واللهيب التى حولت (ايليوم) إلى رماد ، بعد أن ضل فى البحار ثلاث سنوات . وكان لاتينوس يحكم هذه البلاد ؛ وقد أشفق هذا الأمير الكريم على بؤس إينى نأ كرم وفادته وأراد أن يستبقيه برابطة رقيقة قوية ، فزوجه بابنته (لاتينى) . وكان ثورنوس أميراً غيوراً يحارب اللاثيوم ، فارتد وانهزم . وبوفاته أصبح اللاثيوم فى سلام . ونال إينى صولجان الملك الذى تركه لاثينوس حين وفاته كميراث يؤول إلى زوج ابنته (٢) . كل ذلك كان ينتظم كمسرحية جميلة ؛ إن هؤلاء الرومان كانوا يبدون حقيقيين ، بما يرتدون من خوذ ذات ريش وثياب قصيرة ، — كأولئك الذين يشاهدهم الناس على المسرح .

(١) بوليان Paulian : « نقد الرسائل الرعوية لجوربيه » ، ١٦٨٩ ص ٧٨ .

(٢) لورنس إيشارد : التاريخ الرومانى ابتداء من تشييد مدينة روما ، ١٦٨٤ . فيرتو : تاريخ الثورات التى حدثت فى حكم الجمهورية الرومانية ١٧١٩ .

D'après Laurence Eachard, *The Roman History from the building of the City*... 1694. Vertot, dans son *Histoire des Révolutions arrivées dans le gouvernement de la République romaine* (1791); s'il varie quelquefois sur les faits, ne parle pas autrement.

لكن لا . فقد كان على الأدباء أن يصححوا ، مع شديد الأسف ، الصورة الكاذبة لهؤلاء الأصدقاء الأعزاء ، وربما كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم أنهم لم يكونوا غير أشباح ؛ ولسوف ينبلج الصباح ، وينصرفون مع الظلام . إن صوتاً أعلن أنهم غير حقيقيين ، ولم يكن صوتاً باطلا . بل لقد تجاسر فقال إن الناس هم الناس ، فهم مشغوفون بالباطل ، سريعو التصديق ، شديدو الحساسية فيما يتعلق بالأصول والأنساب : فالناس اليوم ، كما كانوا من قبل ، كل يطالب لشعبه بألقاب الأقدسية الزائفة . لقد اخترع الرومان خرافات خيالية ارتضيناها وأحببناها ؛ يقول سانت افريموند:

« لم يكن ينقص الرومان هذا الزهو والخيلاء . إنهم لم يقنعوا بالقرابة مع فينوس عن طريق « إينى » قائد الطرواديين فى أرض إيطاليا ، بل وطدوا حلفهم مع الآلهة بفضل الولادة الروائية لروملوس ، الذى اعتقدوا أنه ابن الاله مارس ، واتخذوا منه إلهاً بعد مماته . ولم يكن فى خلفه « نوما » صفة تؤهله للألوهية ، ولكنه حظى بفضل قداسة حياته بعلاقة خاصة مع الربة إيجريا . . . لم تكن للأقدار مهمة أخرى غير إنشاء روما إذا صدقنا أقوالهم . . . فالى هذا الحد سهرت العناية الالهية على التوفيق بين مختلف مواهب سلوكها ومختلف حاجات شعبها » .

« لشد ما أبغض الاعجاب القائم على الأقاصيص أو على خطأ فى التقدير ! ففى تاريخ روما أحداث أخرى حقيقية تستحق الاعجاب ، حتى إنه ليس من صالح الرومانيين أن يقوم تكريمنا لهم على الروايات والأساطير (١) » .

هذا الصوت الواضح ، هذه الأفكار الجسور كانت تعكر صفو الايمان الهادئ . كيف نستطيع أن نميز بين الأحداث الحقيقية ، التى يريد منا سانت أفريموند أن نعجب بها ، وغير الحقيقية ؟ وعلى وجه التخصيص كيف نستبعد فكرة مجموعة كاملة التنسيق ، ونستبدل بها فكرة التطور التى لا يكاد الناس يتصورونها إذذاك ؟ كيف نرد الماضى ونطيح به إلى أغوار الزمان ، بدعوى عجزنا عن تفهم حقيقته إلا هناك فى طيات الظلام ؟

فى ليدن أنكر يعقوب جرونوفيوس وجود روملوس . وفى أكسفورد أثار هنرى دودويل حول وجوده الشكوك . منذ ألفين وخمسمائة عام والمؤرخون

---

(١) سانت افريموند : «تأملات فى مختلف مميزات الشعب الرومانى» . . .

Saint-Evremond, *Réflexions sur les divers génies du peuple romain, dans les différents temps de la République.*

يروون أن الكاهنة سيلفيا أنجبت طفلين عقب حبها لمارس : رمولوس وريموس . وأن هذين الطفلين وضعا فى الكابيتول ورضعا من ذئبة : بيد أنها قصة سخيفة لا تستحق عناء التكذيب . من المؤكد أنه لا يوجد تاريخ غير التاريخ المقدس ، لا يقوم فى أصله على الأقاصيص والأساطير . إن تاريخ روما قبل رومولوس ليس أهلا للتصديق ، ولعل قصة رومولوس أيضاً من قبيل الاختلاق . . . ذلك ما بدأت تلوكه ألسن الناس . وسنرى فيما بعد ، كيف يستبعد الارتياب المطلق ، صحة القرون الأربعة الأولى لتاريخ روما .

أما التاريخ اليونانى فلا يستحق عناء الكلام : إنه يبدو أكثر خداعاً . هل تصدق أن الأثينيين ، أعلم الناس طراً ، لم يكن لديهم تاريخ منظم إلا فى زمن متأخر جداً ، بمعنى أنهم لم يعرفوا أصلهم ولشأتهم مطلقاً ؟ لقد خلطوا كل شئ ، خلطوا السنين ودورات السنين ، ولم يعرفوا حتى تواريخ أعيادهم ؛ فان أريستوفان يظهر الآلهة على المسرح ، شاكين من أن القمر لا يخبرهم فى الوقت المناسب ، بمواعيد الأعياد العامة ، الأمر الذى يحرمهم من تلك المناسبات السعيدة ، فيعودون إلى السماء ساغبين . فكيف نصدق بعد ذلك المؤرخين اليونانيين ؟

لقد أخذ الناس يدركون أن الأمر لا يقتصر على أنهم لا يعرفون الحقيقة فى التاريخ القديم فحسب ، بل إن الوسائل اللازمة للوصول إليها تعوزهم . كيف كان القدماء يقيسون الوقت ؟ كيف كانوا يعدون السنين ؟ أظن أنه لا بد من أن نعرف ذلك قبل أن نتكلم عن حقائق حياتهم : وإلا حكم علينا بأننا دائماً نخالف الدقة والصواب ، ولا نقول إلا هراء .

بدأت هذه المسائل الهامة تشغل أذهان المجامع العلمية ، مثل الأكاديمية الملكية للتاريخ والآداب . وما من شك فى أن أعضاء هذه المجالس لا تنقصهم المعرفة ولا قوة الارادة ، إلا أنهم يفتقدون المنهج الأكيد . إنهم يفحصون ويستريبون ويظهرون حب استطلاع لا يعرف القناعة ، وأخيراً يكتسبون تلك الحكمة المؤسفة : معرفة المرء أنه لا يعرف شيئاً !

***

فليكن ، لنترك ما هو غير دينى ، ولا نثق إلا بالتاريخ الوحيد الموثوق به ، التاريخ الذى أملاه الله . هنا يصبح كل شئ سهلا يسيراً . لقد انقضى منذ بدء

الخليقة حتى مجىء المسيح أربعة وأربعة آلاف عام ، أو قل أربعة آلاف عام ، تفادياً للمناقشة والانتقاد . وفى عام ١٢٩ أخذت الأرض تغص بالناس ، وزاد الاجرام . فى عام ١٦٥٦ حدث الطوفان . فى عام ١٧٥٧ بدأ تشييد برج بابل . وفى عام ٢٠٨٣ بدأت دعوة ابراهيم . وأنزل القانون المكتوب على موسى بعد دعوة ابراهيم بثلاثين وأربعمائة عام ، وبعد ٨٥٦ عاماً من الطوفان ، وفى نفس السنة التى خرج فيها الشعب العبرى من مصر . على ضوء هذه التواريخ الثابتة ، يرى بوسويه ، حينما يكتب مؤلفه النبيل « مقال عن التاريخ العالمى » ، سلسلة من العصور تنتظم وتجدد نفسها بنفسها على مر الزمان ، وهكذا يمتد — تحت أروقة هائلة منسجمة — طريق النصر الذى يوصلنا إلى المسيح . كم كان يلذ للناس أتباع ذلك الطريق ، حتى إن بعض النفوس الغريرة الساذجة ملأت حياتها بتلك المطابقات التاريخية والذكريات ، مشيدة بالسنة ، بل بالشهر ، بل باليوم الذى وقع فيه ذلك الحدث الشهير الذى يذكره التاريخ المقدس أو ذاك . فكان المؤمنون يفتحون كتب الصلوات : ١٨ فبراير عام ٢٣٠٤ قبل ولادة السيد المسيح ، أطلق نوح يمامة خارج السفينة ؛ فى ١٠ مارس ، تراءت إلى عيسى أخبار عن مرض « لعازر »(١) ؛ فى ٢١ مارس لعن عيسى شجرة التين (٢) ، فى ٢٠ أغسطس عام ٩٣٠ ، مات آدم ، أول رجل (٣)...

جاء علم التاريخ يناقض تلك المعتقدات البسيطة ، ذلك الاطمئنان .

كان يبدو كنظام متواضع ، مفيد للتلاميذ ، لتعمير ذاكرتهم ولمنعهم من الوقوع فى إبهام أحمق مرذول : ولكنه خشن جاف ، جسم نحيل هزيل ، لا ترى فيه إلا العظام والعروق . إلا أنه كلما ازداد إحساس الناس التهوش فى جعبة الذكريات القديمة ، كلما ازداد هذا العلم منزلة وأهمية ؛ وأصبح فناً ضرورياً بل

---

(١) «وكان إنسان مريض وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها . . . . وأرسلت الأختان إليه قائلتين ياسيد هوذا الذى تحبه مريض» (العهد الجديد ، يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ١). [المترجان]

(٢) «وفى الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع . فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط . فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد . فيبست التينة فى الحال» العهد الجديد . متى ٢١ ، ١٨ . [المترجمان]

(٣) هانرى بريموند Henri Brémond ، «التاريخ الأدبى للشعور الدينى فى فرنسا» ١٩٣٠ جزء ١ ، الفصل السادس .

علماً . لقد سموه علم « الأزمان والتواريخ » . « مثلما تهيئ الملاحة للبحارة قواعد تقودهم فى خضم البحر دون ضلال ، فى الأسفار النائية ، فان علم التاريخ يهيئ لنا قواعد تضمن لنا سلامة الارتحال فى غياهب الزمن القديم الواسعة المظلمة » حقاً ما أطولها رحلة ، على سر القرون الغابرة والأجناس الفانية ! وإذا كان هذا العلم لا يعى قوانينه بالضبط فانه على الأقل يطبقها : فهو يقدر صحة النص أيا كان ، بالحساب والأرقام ، لا بما يستند إليه من نفوذ وسلطان ، لا يهتم باللغة التى كتب بها النص ، فرنسية كانت أو لاتينية ، يونانية كانت أو عبرية ؛ لا يبالى مصدر النص وصفته ، بل ينتقل من اللاديني إلى المقدس بطبيعة كيانه التى إن هى إلا الحساب ؛ فهو لا يعرف إلا شيئاً واحداً ، هو أنه ينبغى أن يحسب بالتحقيق والتدقيق . إن الاخصائيين ، مفتشى ومحققى الحسابات التاريخية يعملون فى داخل مكاتبهم ، منكبين على كتبهم ، يفحصون ويقارنون ، عاكفين على أشغال مضنية « جاحدة » وإن كانت فى الظاهر هادئة سالمة : فهم يجدون تسليتهم وهوايتهم فى تسجيل التواريخ ، وحساب السنين . وهم يتنازعون فيما بينهم ؛ فاذا سمع الناس ضوضاءهم ، ضحكوا قائلين : أدعياء يتسلون . وعندما ينتهى أولئك العلماء من عملهم ، أو على الأصح عندما يصلون فى بحثهم إلى شوط بعيد (لأنهم شرعوا فيه منذ زمن بعيد ، منذ النهضة ، ولن ينتهوا منه أبداً) سوف يعكرون صفو الضمائر أكثر مما يعكره العصاة والكفار ، إذ يؤمنون على أنه ليس فى الماضى شئ أكيد . والحق أنهم ليسوا جميعاً غير مصدقين ، فالبعض يعملون للدفاع عن التواريخ التقليدية ضد المؤرخين المحدثين ، حتى إنه لشب بينهم جدال عنيف ، طال سنين . سنرى ليبنتز ونيوتن يشتركان فيه .

ولقد كان الحساب الجارى يبدو سهلا يسيراً . عاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد له ولد على شبهه كصورته وسماه شيثاً . وكانت أيام آدم بعد ما ولد له شيث ثمانمائة سنة ؛ وولد له بنون وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها ثلاثين وتسعمائة سنة ثم مات . وعاش شيث خمساً ومائة سنة وولد له أنوش . وعاش شيث بعدما ولد أنوش سبعاً وثمانمائة سنة . . .(١) ومجموع هذه الأنسال

(١) نقلنا هذا الكلام حرفيا من العهد القديم «تكوين ، الاصحاح الخامس ، ١ - ٥».
[المترجمان]

المتتابعة يقدر بأربعة الاف عام ، هى المدة التى انقضت بين خلق العالم وولادة المسيح . ولكن ربما فقدت من هذه السلسلة حلقات ، ولعل ذلك التعداد لم يبلغ مرتبة الكمال ؛ ومن المحتمل أنه كان للعبريين طريقة خاصة فى الحساب ، وإذا أراد علماء التاريخ ، لكى يخرجوا من الارتياب ، أن يستعملوا أصول القياس ، ويبحثوا عند الشعوب المتاخمة لليهود عن تواريخ وأرقام ، فيا للسماء ! ما أوسع هوة الاختلاف ! إن المشاكل تتكاثر وتتراكم ولا يصلون إلا إلى ظلام .

وإذا نفذنا مباشرة إلى جوهر الموضوع نجد أمتين تنسفان حدود هذا التاريخ زاعمتين أن تاريخهما لا يقف عند أربعة آلاف عام ، — فهى حقبة من التفاهة بمكان — بل يمتد بهما إلى عشرات بل مئات آلاف من الأعوام . إن المصريين الذين أوتوا رجاحة العقل وصحة التقدير ، والذين كانوا دائماً محل تقدير وموضع إعجاب ، يظهرون فى مسألة التواريخ مبالغين إلى حد الجنون . ولما كانوا مصرين على قدمهم وعراقة أصلهم فقد اعتقدوا « أنه شئ جميل أن يتيهوا فى هوة القرون اللانهائية التى تقربهم من الأزلية » إلا أن تكذيب أقوالهم كان مشكلة لأنهم بارعون فى الحساب ولديهم تواريخ منظمة أتم نظام . ففى القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان مانيتون الشهير كاهن هليوبولس ، قد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس ، حيث عدد مجموعة من الأسر الملكية يرجع أولها إلى ما قبل المدة المفروضة عادة للطوفان ، وتمتد دون انقطاع حتى فى خلال الطوفان . وهناك تاريخ أقدم كتب قبل حكم بطليموس يذكر وجود ملوك مصريين « على مدى ٣٦٥٢٥ عام إلى ماكتانب الذى اغتصب منه العرش أوخوس ملك الفرس ، قبل الاسكندر الأكبر بتسعة عشر عاماً (١) » .

وبالمثل ادعى الصينيون ـ الفلكيون العلماء أصحاب التواريخ الدقيقة والتقاويم ـ الوجود منذ أمد طويل ، حتى إننا لو صدقنا أقوالهم لوجدنا هؤلاء السفهاء قد سبقوا الزمن الذى خلق الله فيه النور ! كان آدم يبدو مثل قادم متأخر ، بجانب أسراء الصين الأولين . « . . . يدعى يام — كوام — سيم أنه منذ بدء الخليقة حتى الامبراطور تينسكى الذى تولى الحكم فى عام ١٦٢٠ ،

---

(١) الأب بول بيزرون Le P. Paul Pezron, *L'antiquité des temps rétablie*, 1687, chap. XV

قد انقضى زمن لا يقل عن تسعة عشر مليوناً وثلاثمائة وتسعة وسبعين ألفاً وستة وتسعين عاماً (١) » .

كانت مسألة خطيرة للضمائر ، مسألة عويصة تدرسها كل دوائر العلم فى كل أنحاء أوربا بغية إيجاد حل لها فى عناء وأناة . وفى عام ١٦٧٢ ظن عالم انجليزى هو جون مارشام أنه قد وجد الحل : صحيح أنه كان للمصريين ثلاثون أسرة ملكية لو وضعناها على التوالى لزادت عن عمر الدنيا : غير أننا يجب ألا نضعها على التوالى لأنها ليست أسراً متتابعة بل أسراً تجمع بينها القرابة ، تحكم فى آن واحد فى نواح مختلفة لدولة واحدة . . . وفى عام ١٦٨٧ عرض الأب بول بيزرون حلا آخر : إنه يعترف بأن أربعة آلاف عام لا تفسح مجالا كافياً لتاريخ قدماء المصريين . ولكن هذه المدة هى التى يحددها التفسير العبرى للعهد القديم . فلنتبع التفسير اليونانى المعروف باسم (السبعين) (٢) ، فانه يتيح لنا قرابة خمسمائة وخمسة آلاف عام وهذه الخمسة عشر قرناً الاضافية تهيئ فسحة ويسراً للأسر والتواريخ . لقد انتصر الأب بيزرون ، لكنه لم يتمتع طويلا بنصره ، فان علماء التاريخ رأوا عدم كفاية هذه المدة الاضافية ، ومن جهة أخرى وجد رجال الكنيسة أنه إجتراء أن نفاضل بين التفاسير المختلفة للكتاب المقدس لحساب المصريين والصينيين ، وأفهموا الأب بيزرون أنه ينزلق من علم التاريخ إلى هوة الالحاد . وتبادل الطرفان البحوث والمناقشات فى لسان ينبو عن الآداب . وأعلن الأب أستورينى فى إيطاليا تخميناً أيده فيه الأب تورنمين عام ١٧٠٣ إذ قال : جرت العادة على أننا إذا ذكرنا تاريخاً ، وليكن عام ١٦٠٠ ، وأردنا أن نذكر بعده تاريخاً آخر قريباً ، فاننا لا نذكر الرقم كله بل نقول : فى عام ١٦٠٠ حدث كذا وفى عام ٦١٠ حدث كيت . . . ولعل الأمر قد جرى عند اليهود على ذلك المنوال ، ولما كنا لا ندرك عادتهم ، ولأننا نعتمد على حرفية عباراتهم ، فقد اختصرنا هكذا من التاريخ بضعة آلاف من السنين . . . ولكن كيف نثبت

---

(١) الأب جرسلون : «تاريخ الصين تحت حكم التتار» ١٦٧١ القسم الأول الفصل ١٩ ص ٤٢ . Le P. Greslon

(٢) Septante تفسير يونانى للعهد القديم . أقدم وأشهر تفسير قام به ٧٢ يهوديا من مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس فى ٢٨٢ ق.م. [المترجم]

أن هذه العادة « الايطالية المصدر » فى التعداد والحساب كانت مستعملة لدى العبريين؟ على كل حال هذا الحل لا يؤدى إلا إلى استبدال التباس بالتباس . . .

وقد تولد عن هذا الارتباك ارتباك آخر لا يقل عنه قسوة . فلنصغ إلى بوسويه : «لما خلص الله شعبه من ظلم المصريين وقاده إلى الأرض التى أرادهم ليعبدوه فيها ، عرض عليهم قبل أن يثبت أقدامهم هناك ، الشريعة التى ينبغى عليهم أن يتبعوها . فكتب بيده تعالى على لوحتين أعطاهما لموسى على قمة جبل سينا أساس هذه الشريعة ، أعنى الوصايا العشر التى تتضمن المبادئ الأولى للدين وللمجتمع الانسانى . وأملى على سوسى قواعد أخرى . . . »

ولكن فكرة ساورت بعض الأذهان : فاذا كان المصريون يمثلون العراقة الأصيلة والحكمة العميقة ، و إذا كان العبريون قد عاشوا زمناً طويلا تحت حكم المصريين ، فانه من المنطق بل من الضرورة أن هناك مدنية مزدهرة كبيرة قد أثرت فى مدنية بسيطة صغيرة ، إذن فالمصريون قد أثروا فى العبريين . تلك هى النظرية التى دافع عنها أولا جون مارشام ، ثم جون سبنسر رئيس المجلس المسيحى بكامبريدج عام ١٦٨٥ . وينسب كلاهما للمصريين الذين يعجب بهم تأثيراً قاطعاً على القانون والنظم والعادات الدينية : فالختان والعادة والمعابد والرهبنة والقربان والمراسيم الدينية ،كلها مأخوذة عن المصريين ، وحينما صنع موسى ، لانقاذ شعبه من الحيات ، حية من نحاس(١)تشفى كل من نظر إليها ، فما كان ذلك معجزة بل كان نقلا عن سحر مصرى قديم . إذن لقد ورث الشعب المختار معتقداته الأساسية من شعب وثنى . إذن لم يمل الله وصايا على أحد على جبل سينا ، إذن لم يفعل سوسى إلا أن نقل عن أساتذته المصريين .

أراد الأب الطيب هويه أسقف أفرانش ، ذلك المشغوف بالعلم ، الذى يروى عنه أنه ملأ منزله بالكتب حتى انهدم على رأسه ذات يوم — أراد بين مطالعاته الطويلة أن يصل إلى قصد صالح : أن يرد لموسى مكانه الحق ، مكان الصدارة . لقد أخذ على عاتقه تبيان أن ديانة الوثنيين تصدر عن أفعال موسى

---

(١) فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر اليها يحيا . فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على راية فكان متى لدغت حية انسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا .

(العهد القديم ، عدد ، الاصحاح الحادى والعشرون ، ٩) . [المترجمان]

وعن كتب موسى ؛ وأن آلهة الفينيقيين والفرس والمصريين ، والجرمان والرومان والغال والبريتان ، مصدرها كلها موسى ، وأنها ليست غير تحويرات أخذت عن موسى . ذلك هو ما ذكره فى كتابه *Demonstratio Evangelica* فى عام ١٦٧٢ وفى كتابه . . . *Quaestiones alnetanae de concordia rationis et fidei* « مسائل تخص الاتصال بين العقل والدين » فى عام ١٦٩٠ : إلا أنه لم يدر بخلده أن الحجة يمكن أن تنقلب ضده من أيسر طريق : إذا كان هناك أوجه شبه بين العقيدتين الموسوية والوثنية ، فهل موسى هو الذى أوحى بها إلى الشعوب الأخرى ، أم أن الشعوب الأقدم قد أورثت موسى عاداتها ؟ يا للأب هويه من مسكين ! فها هو ذا يجره نجاح كتابه إلى زمرة الملحدين ! يقول لويس راسين فى رفق « لم يوافق أبى على ما كان يريده هذا العالم من استخدام علمه اللاديني الواسع فى صالح الدين » . أما أنطوان أرنو فيقول فى قسوة « إنه لمن الصعوبة بمكان أن يؤلف الانسان كتاباً أحفل بالالحاد من ذلك الكتاب ، كتاباً يستطيع أن يقنع شباب المتحررين بأنه لا غنى عن الدين وأن الأديان كلها صالحة وأنه حتى الوثنية يمكن أن تكون موضع مقارنة بالمسيحية » .

وبعد ، فهذا ما آلت إليه خير النوايا البشرية ، أخذ الناس ينتقلون من مشكلة ليقعوا فى مشكلة ، ومن ارتياب ليقعوا فى ارتياب . وقد كان ذلك الوقت فصلا أليماً من التنازع الذى وضع العلم فى مواجهة الايمان ؛ تنازع امتد من جيل إلى جيل واتخذ فى كل منها لوناً خاصاً . فلنصغ إلى الأب رينودو الذى ناقش عام ١٧٠٢ كتاب جون مارشام أمام مجمع التاريخ فهو يقدره تقديراً لا يخلو من قلق : « إنه مؤلف كامل من حيث النظام والنهج والوضوح والايجاز وسعة العلم . غير أنه يصعب أن نغتفر للمؤلف أنه ، بدافع من ميله إلى المصريين أو لسبب آخر ، قد أضعف كل ما من شأنه أن يعزز قدم الكتاب المقدس وجلاله ، حتى إنه قد هيأ للعقول المتحررة من أسباب الارتياب أكثر مما هيأ كثيرون ممن هاجموا الدين هجوماً صريحاً » .

وتبلبلت الأفكار . صحيح أن الناس كانوا يستطيعون أن يلوذوا بالحصن يدفعون أسباب علماء التاريخ ، قائلين إن أولئك الكلدانيين والبابليين الذين يطالبون بعشرات الآلاف من السنين لارضاء مطامعهم لم يكونوا إلا كاذبين . وقال القديس أوغسطين آخر كلمة فى الموضوع : إذا ذكر المؤرخون

اللادينيون ما يناقض التاريخ المسجل فى العهد القديم ، فلنعدهم مخطئين .

ولكن أولئك المجاهدين لا يكادون يعرضون أنفسهم خارج الحصن حتى يلاقوا فى طريقهم أخطر المغامرات لعجز وسائل دفاعهم أمام أسلحة ماضية لم يكن الأبولوجيون(١) قد أثلموها بعد . إن أرقاماً تدير الرءوس ما فتئت تحتل الأذهان : ثلاثة وعشرون ألف ، أربعون ألف ، مائة ألف ، سبعون ومائة ألف عام ! أكان ينبغى أن يحذوا حذو الأب أنطونيو فورستى الذى اختار تواريخ بذاتها لا لأنها حقيقية بل لأن فيها راحة ويسراً ؟ لقد وجد نظريتين متطرفتين تزعم إحداهما أن الخليقة بدأت منذ ٦٩٨٤ عاماً وتزعم الأخرى أنها بدأت منذ ٣٧٤٠ عاماً وعدد بينهما سبعين رأياً : وهو لا يستطيع أن يقبلها كلها ، وهو لا يستطيع أن يمحصها بأجمعها : لكن ينبغى أن يتخذ قراره من أجل أسباب عملية لا صلة لها بالعلم . . . ولأجل هذه الأسباب بعينها فاضل فورستى بين المؤلفين : ولكن المؤلفين جميعهم متناقضون ، ترى أيهم المخطئ وأيهم المصيب؟ لا يمكن تفضيل واحد دون استبعاد الآخرين ومع ذلك فلا مندوحة عن البت فى الأمر .

وإذا نحن لم نحذ حذو فورستى فليس أمامنا إلا أن نتبع حكمة بريزيونس الذى كان قد خطب فى ليدن أمام الطلبة يدفع الارتياب المغير . وبعد مر تسعة أعوام من خطبته الافتتاحية قال كلمته فى معركة علم التاريخ وبحكمته التى أضاف إليها شيئاً من الاستدراك . قال : إن هدم البراهين السالفة شئ سهل يسير ، أما البناء من جديد فذلك هو الصعب العسير ، فنحن لا نستطيع استخلاص شئ أكيد حتى لدى المصريين : فأقصى ما نستطيع عمله هو التوفيق بين أحداث الشعوب القديمة المختلفة حتى تتجانس . هكذا كان بريزيونس يجتهد لينقذ ما يمكن إنقاذه من حطام كبير .

ما مصير حقائق الماضى إذاً ؟ تلك النظريات البسيطة العظيمة ؟ تلك التوكيدات الهادئة ؟ ذلك الاعتقاد بالتواريخ الثابتة التى لا تتزعزع ؟ كيف يستطيع المرء أن يتعرف إرادة المشيئة الالهية فيما لا يبدو إلا مبهما مهوشاً ؟ وكيف نعترف بقيمة الوقائع فى ميدان المعرفة بينما الوقائع تبدو كأنما تفلت

(١) Apologétique : علم الدفاع عن صحة الدين المسيحى . [المترجم]

من قبضتنا ؟ كان المحدثون يبطلون دفعة واحدة التاريخ والعناية الالهية والمراجع .

لقد أصبح الموضوع شديد الاقلاق . ماذا ؟ أكلما ازداد البحث كلما قل التحصيل ؟ كان الزمن غارقاً فى ضباب ولم تكن الجهود التى تبذل ابتغاء انقشاعه تزيده إلا كثافة . يقول بول بيزرون(١) « إن الزمن الذى يتلف كل شئ ، ويبدو كأنه يروم تغليف كل شئ بالنسيان الأبدى ، قد حرم الانسان أو كاد ، من معرفة تاريخه وقدمه . ذلك صحيح ، حتى إنه بعد كل ما بذل من عناية لمعرفة مداه وكم قرناً مضى منذ بدء الخليقة حتى مجئ المسيح لم نصل إلى الحقيقة أبداً ، بل بعدنا عنها كثيراً . . . »

. .

إلا أنه بالرغم من ذلك كانت هناك طريقة أخرى للتأريخ : العلم الواسع الغزير . كان جمهرة من العلماء يشتغلون ، جادين فى عمل مضن غير مثمر ، فى نشر النصوص وكشف الوثائق وحل رموز الحجارة « وحك » المسكوكات . جمهرة صغيرة تعمل فى غيرة وإقدام . قرية من النمل لها عمالها ومحاربوها . عمال مجيدون يعشقون العمل المضنى ، ويبحثون عن الحقائق الأكيدة كبيرة كانت أو صغيرة . وينقبون عن سواد قوية تبقى إلى الأبد ، بغير تفسير سطحى سريع ، ولا حكم باطل مبتسر ، ولا افتنان أو تحوير .

أولئك كانوا : فرانشيسكو بيانكينى الذى بحث فى الآثار القديمة عن معارف وثيقة لم يجدها فى النصوص ، وريتشارد بنتلى أستاذ جامعة ترينتى وأمين المكتبة الملكية وأستاذ العلوم الكلاسيكية والذى وهب ذهناً قوياً ليس له نظير ، وبوفندورف الذى كان يعرف تمام المعرفة قيمة جعبة الأوراق القديمة ، وليبنتز .

وكان ليبنتز ينعزل فى المكاتب ، حيث يبحث عن مخطوطات قديمة ينقلها بخط يده ، وعن أوامر ملكية وتقارير دبلوماسية . وكان يرى أن قانون العلاقات الدولية يجب أن يستند على العقود الرسمية وإعلانات الحرب ، وعقود الصلح وغير ذلك من الوثائق ، لا على الكلمات فحسب . وعندما كان أميناً لمكتبة الدوق دى برانسويك ، شرع فى تأليف تاريخ الأسرة الملكية الحاكمة ، وبعد

---

(١) فى كتابه *L'antiquité des temps rétablie* ، ١٦٨٧ ، ص ٨ .

مدة طويلة نشر كتاباً ضخماً ، أتبعه بكتب أخرى ، وقد حشدها بالمستندات الصحيحة المصادر ، وإن لم تعجب ذوق الناس فى ذلك الحين . ولم يخف على الذين يتعجبون لعمله هذا ، أنه عمل عملا أفيد بكثير من البيانات الطويلة البليغة . وقد أضاء بنور جديد ، قروناً كان يكتنفها ظلام مخيف . وأزال عديداً من الشكوك وأصلح كثيراً من الأخطاء .

أنظر كيف يعملون فى كل البلاد ! ها هو ذا هنرى ميبوم يعنى بالقاء النور على الآثار الجرمانية القديمة . وتوماس جيل وتوماس ريمر يهتمان بالوثائق الانجليزية . ونيكولا أنطونيو يعنى بمصادر التاريخ الأدبى الاسبانى . أنظر كيف يعملون فى المعامل العلمية الواسعة التى أنشأها اليسوعيون ! وكيف يعمل البندكتيون(١) الرهبان الذين يشتهرون بالصبر والدأب المتواصل حتى عاب عليهم رالسيه أنهم يخصصون للعلوم وقتاً ومحبة كان ينبغى أن يخصصوها لله ! فرد مابيلون على هذا التحرش وبذا نشب نزاع طويل ونبيل ، كان محوره الخير الأسمى .

ومن جهة أخرى يعمل بعض « البندكتيين » المدنيين ، منهم إيتان بالوز وشارل دى كانج — الذين ظفر العلم بفضلهم بجانب من أروع انتصاراته. فلنذكر أنه فى عام ١٦٧٨ نشر دى كانج Du Cange قاموسه اللاتينى *Glossarium mediae et infimae latinitatis* ، وفى عام ١٦٨١ نشر (مابيلون) Mabillon كتابه عن السياسة *De re diplomatica libri V* ، وفى عام ١٧٠٨ نشر (مونفوكون) كتابه *Paleographica graeca* . ولكن إذا كان علينا أن نذكر مثالا فريداً لهؤلاء العلماء فلعلنا نختار (أنطونيو موراتورى) Antonio Muratori الذى كرس حياته لانقاذ وثائق الانسانية من النسيان . كان يقبر نفسه طوال النهار بمكتبته التى لا يغادرها أبداً إلا للقيام ببحث علمى فى السجلات الايطالية؛ وكتب مجلدات ضخمة جعل منها أكداساً مكدسة خلال ما ينيف على نصف قرن.

---

(١) Bénédictins : شيعة القديس بنوادى نورسى (٥٢٩) . رهبان يمتازون بالعلم والاجتهاد والتواضع ، وقد قاموا بخدمات كبيرة للعلم والأدب وعلى الأخص فى القرون الوسطى . وهم الذين نقلوا روائع الأدب اليونانى والرومانى فكانت الانسانية مدينة لهم بهذا الفضل وصار اسم بنديكتان علماً على سعة العلم والاجتهاد . [المترجمان]

إن مؤلفاته الأدبية والفلسفية والجدلية التي تكفي لتمجيد أى مؤلف آخر ، لم تكن إلا ما كتب فى أوقات فراغه ، فبوساطتها كان يرتاح من عمل مضن قام به فى عناد : جمع كل ما يمكن من وثائق عن إيطاليا وعلى الأخص عن القرون الوسطى التي يجهل الناس كل شئ عنها ، ثم ابتعاث عشرة قرون .

لعل انجلترا كانت تؤثر الاهتمام بدراسة العلوم اليونانية ، أما هولاندا فتعنى بالعلوم اللاتينية ، بينما تفضل فرنسا تاريخ الكنيسة والعلوم الدينية ، وتهتم إيطاليا بتاريخها وماضيها . ولم يكن يفصل الجميع حاجز أو جدار بل كانوا يشتغلون فى كل البلاد . وحينما تتكون آخر الأمر ثروة علمية وافرة ، ويمتد البحث عن آثار المدنيات الزائلة حتى أعماق الأرض ، بفضل علوم جديدة كعلم المسكوكات القديمة ، ويصلح العقول درس الصبر والتواضع ، وليد هذه الجهود ؛ حينئذ سيهزم الشك التاريخى ويهدم .

ولكن متى ينجز هذا العمل ؟ ترى كم من سنين بل كم من قرون لا زالت تلزم لكي يعرف الانسان بغير تخمين ، ولكى يؤكد بدون كذب أو تزييف ؟ إنه لجلبة لليأس والقنوط ألا يجد المرء إلا بضعة أحجار من هذه الفسيفساء الهائلة ، والتي لا يكاد الباحثون يبدأون فى جمعها حتى ينتقلوا إلى عالم الأموات ؛ إذ يقهرهم ماض لا يغلب ، ويدفنهم بدورهم . ولو افترضنا أنهم أفلحوا فى هذا البعث الاعجازى ، فان الناس لا يتقبلون ما يبتعثه لهم الباحثون من عناصر الحياة التي ينبغى عليهم أن يستعملوها ليردوا للأشياء الزائلة أشكالها وألوانها . ومرد ذلك فى الواقع إلى أن العلماء والمؤرخين فى ذاك الوقت كانوا يعملون جنباً إلى جنب دون أن يعرف بعضهم بعضاً وكانت مناهجهم تختلف اختلافاً بيناً ؛ ولقد ظهر جيل جديد يصبو إلى الراحة ويميل إلى التطير وإلى عدم التعمق ، ولا يحب إلا السهل اليسير ، فمن جهة نجد «عمالا» لا يهتمون بالأسلوب ، يملئون هوامش مؤلفاتهم بالبيانات والأسانيد ، ويثقلون ويطيلون فى غير وضوح ، مسلمين أنفسهم باختيارهم إلى أعمال مضنية لا ثمرة فيها ولا طائل وراءها . ومن جهة أخرى نجد المؤرخين ، العباقرة العظاء يأنفون النزول من عليائهم إلى تلك التوافه البسيطة . ويتركون الأبحاث التفصيلية للعقول المتوسطة ، متجنبين المناقشات التي قد تخمد الشعلة التي تذكى عقولهم : فكأن العبيد يجمعون المواد التي يحتقرها نبلاء الأدب العظام .

وبعد ، فما هو التاريخ ؟ هو أولا مجموعة من القصص حين تسرد أصول الشعوب ، وهو ثانياً كتلة من الأخطاء . و إنك لتلاحظ لدى فونتنل Fontenelle الذى يعد مثال الارتياب ، شيئاً من الحزن وبعضاً من اليأس إذ يقول :

« ما أبطأ وصول النـاس إلى شئ معقول ، مهما كان بسيطاً ! إن الاحتفاظ بذكرى الوقائع كما كانت فى الأصل ليس آية من الآيات ؛ وبالرغم من ذلك فسوف تمر قرون عديدة قبل أن نكون أهلا لذلك ، وحتى هذا الحين ، فلن تكون الوقائع التى نتذكرها إلا أوهاماً وخرافات . »

« لقد عودونا فى طفولتنا على الأساطير اليونانية ، حتى إذا وصلنا إلى سن العقل والتفكير لا نجدها من الغرابة كما هى فى الواقع . ولكن إذا نظرنا بعين غير عين العادة ، فلن يسعنا إلا أن ندهش لرؤية كل هذا التاريخ اليونانى القديم ، الذى لا يعدو أن يكون كتلة من خيال وأحلام وخرافات . كيف كان ممكناً أن يقدموا لنا كل ذلك كشئ حقيقى ؟ وترى لأى قصد كانوا يخدعوننا ؟ وفيم كان حب الناس لأشياء ظاهرة البهتـان ، واضحة الخرافة والبطـلان ؟ ولماذا لا تستطيع البقـاء والاستمرار ؟ »

وقد تلا هذا المنهج فى كتابة التاريخ ، منهج آخر ، هو الذى ساد فى الشعوب المتمدنة المهذبة : البحث فى علل الأفعال وفى الأخلاق : ولا يقل هذا المنهج خطأ عن الأول . لأنه ، لا ريب فى أن الانسان غيور مندفع ، سريع التصديق ، ناقص المعرفة أو عديم الاكتراث ؛ « يجب أن نجد رجلا قد شاهد كل شئ خالياً من كل غرض ، متوفراً على البحث » . وهذا محال . فالغالب أن يرتب المؤرخ لنظرية وضع أسسها ومبادئها من قبل ، تتكون من وحدة محكمة الاتصال ، كما يفعل الميتافيزيقيون ؛ فلديه بعض الوقائع التى يتخيل أسبابها ؛ فعمله غير مؤكد ، لا يقين فيه ، ولا يقدم ضماناً أكثر مما تقدمه أى نظرية فلسفية . إذاً فقد يكون التاريخ الوحيد المفيد حسبان الأخطاء وتعديد أهواء الانسانية :

« إننا مجانين ولو أننا لا نشبه تماماً نزلاء المستشفيات العقلية . فان أحداً منهم لا يهتم بمعرفة جنون جاره ، ولا يعنيه من سكن غرفته من قبل ، ولكن يهمنا نحن جداً أن نعرف ذلك . لأن عقل الانسان يقل احتمال وقوعه فى الخطأ متى عرف حدود خطئه وبكم طريقة يمكنه أن يخطئ ، ولن يستطيع أبداً أن يدرس تاريخ أخطاء الانسان دراسة كافية » .

ذلك كل ما يستطيع التاريخ أن يؤدى إليه ، على حسب قول هذا الرجل الحديث ، بطل المحدثين فى « المعركة الكبرى »(١) . فليهتم الحاضر بالحاضر ! إننا نقضى سنين عديدة فى المدارس لنلقن شبابنا ما يقوله مؤرخو روما : كم كان أفضل أن يدرسوا الوقت الذى سيعيشون فيه ! فنحن لسنا ندرك آخر الأمر أى ضوء يمكن أن نكتسبه من مؤلفات كورنيليوس نيبوس C. Nepos أو كنت كورس Quinte-Curce أو تيت - ليف Tite-Live ، لنستنير به فى الوقت الحاضر ؛ حتى لو فرضنا جدلا أن نحفظ عن ظهر قلب كل ما تتضمنه تلك الكتب ، حتى لو قمنا بعمل جدول دقيق لكل ما فيها من تعابير وأحكام وأمثال . لا جدوى من أن نعرف بالضبط عدد البقر والأغنام التى نقلها الرومان معهم عندما انتصروا على الأكيكولنس Equi culans والهرنيسان Herniciens والفولك Volsques (٢) . إنه الحاضر ، إنها الحياة ، إنه المستقبل ينادى ويستهوى ويسحر Ratis vicit, vetustas cessit .

---

(١) المعركة بين القدماء والمحدثين : خلاف مشهور وقع بين أدباء القرن السابع عشر، موضوعه تفوق الأدباء المحدثين على القدماء ، فى الأنواع الأدبية الكبيرة ، اشترك فيه جوالون وراسين ولابروبير فى جانب القدماء بينما كان شارل بيرو وفونتنل يدافعان عن المحدثين . [المترجمان]

(٢) S. Von Pufendorf, *Emleitung zu der Historie der vornehmsten Reiche und Staaten ... an Europa*, 1682. Préface نبذة تاريخية عن نظام الحكم فى الرايخ وأنظمة الحكم الأخرى فى الدول الأوروبية .

أنظر أيضاً مالبرانش ، « البحث عن الحقيقة » ، ١٦٧٤ Malebranche, *De la Recherche de la vérité*, 1674 الكتاب الثانى ، الفصل الرابع والخامس والسادس .

الفصل الثالث

من الجنوب إلى الشمال

كانت أوربا تبدو كأنها قد اكتملت : فلكل شعب من شعوبها صفات معروفة ، معينة ، فلا يكاد المرء يلفظ اسم شعب ، حتى تنبثق مجموعة من الأوصاف تخصه وحده ، كقولنا إن الثلج أبيض وإن الشمس محرقة.. السويسريون ؟ — إنهم مخلصون عقلاء أمناء ، بسطاء الأخلاق أصفياء القلوب ، وهم شجعان ذوو عزم وإرادة ، لا يكاد العدو يهاجمهم حتى يبادروا إلى رد هجومه ، يتميزون بالثبات والبسالة والصدق وروعة القوام ، يصلحون للجندية حتى إن عدداً كبيراً منهم يخدم فى أرض فرنسا ، ولكنهم يتطلبون جزالة الأجور : فلا جنود إذا غابت النقود . — الألمان ؟ إنهم مولعون بالحرب ، وهم جنود أفذاذ متى عرفوا النظام ، يميلون إلى التجارة ويجيدون كل أنواع الصناعة . لا يستهويهم العصيان بل يتمسكون بنوع الحكم الذى اعتادوه . إنهم يكونون كتلة ضخمة ، ولكن للأسف تشغلهم انقسامات عديدة ، دينية وسياسية . . . وقد قال نيكولا دى فير مدرس الجغرافيا لولى العهد فى عام ١٧٠٨ : — « إن البولأنديين بواسل ، يحبون الآداب والفنون ، ويميلون بعض الميل إلى الفسق والفجور ، وكلهم كاثوليك ! — والمجريون يتميزون بقوام ممشوق ، يحبون الحرب والخيل ؛ فى خلقهم جرأة وشراسة ، ويفرطون فى الشراب . خاصتهم رائعون ، ونساؤهم جميلات فاضلات — والسويديون قوم شرفاء شجعان ، مشغوفون بالعلوم والفنون . والجو هناك بارد صحى صاف . والغابات مليئة بالحيوانات المفترسة . — والدنمركيون لا تختلف أخلاقهم كثيراً عن السويديين — أما النرويجيون فيبدون أكثر بساطة ، وأوفر صراحة » .

عندما كان الأدباء يبحثون عن شخصية مجهزة ، كانت تلك الجنسيات المفسرة تقدم لهم قائمة ميسرة . فمن كان يبتغى تأليف مسرحية راقصة (باليه)،

أو مسلاة لرجال البلاط ، كان يقدم دون أن يرهق فكره ، دوراً للأجانب مثل النابوليتان أو الاسكلافون . فى عام ١٦٩٧ ألف (هودار دى لاموت) Houdar de la Motte مسرحية راقصة مثلت فى مجمع الموسيقا الملكى اسمها « أوربا الأنيقة » L'Europe Galante : « لقد اخترنا من بين شعوب أوربا أشدها تبايناً فى الخلق ، الأمر الذى يدخل على التمثيل ظرفاً وتشويقاً : فرنسا ، إسبانيا ، إيطاليا ، وتركيا . ولقد تبعنا الأفكار العامة فيما يخص الصفات المميزة لتلك الشعوب . فالفرنسى طائش ، متظرف ، عربيد . والاسبانى صادق ، مندفع ، خيالى . والايطالى غيور ، حاد المزاج . وأخيراً فقد مثلنا بقدر ما يسمح المسرح عظمة السلاطين ، وانفعال السلطانات » .

فلنتناول هذه الصور ولنبرز معالمها ، وسنرى هذه الصفات الباهتة تستحيل إلى شتائم ، دون تغيير يعترى الأصول . فى عام ١٧٠٠ كتب دانيل دى فو Daniel de Foe (١) نبذة سياسية كان لها ضجيج ، ووجدت فيها كل دولة إطراء : *The true-born Englishman* قال فيها :

Pride, the First Peer, and President of Hell,
To his share Spain, the largest province fell . . .
Lust chose the torrid zone of Italy,
Where Blood ferments in Rapes and Sodomy . . .
Drunkness, the darling favourite of Hell,
Chose Germany to rule . . .
Ungouver'nd Passion settled first in France,
Where mankind lives in haste, and thrives by chance.
A dancing nation, fickle and untrue . . . (٢)

---

(١) مؤلف روبنسون كروزو . [المترجمان]

(٢) الكبر كبير الشيوخ ، زعيم الجحيم ،
وقعت فى نصيبه أكبر ولاية ، بلاد الاسبان ...
والشهوة اختارت ايطاليا أرض الدفء والحنان ،
حيث يهتاج الدم بين الاغتصاب والفساد ...
والسكر العزيز الأثير لدى الجحيم ،
اختار أن يحكم بلاد الألمان ...
واستقرت فى فرنسا الشهوات طليقة العنان ،
حيث يعيش الانسان فى عجلة ويتقدم بالمصادفة .
شعب راقص هوائى حياته خداع وبهتان ...

ولطالما تقابل كل أولئك الاخوان الألداء ، ولكم تصادموا ، ولكم تصالحوا وتحالفوا وتعانقوا ، وعاشوا جنباً لجنب أمداً طويلا فى البؤس والآلام ، حتى ظنوا أن تعارفهم أصبح وطيد الأركان ، وأن الفكرة التى كونها كل منهم عن الآخر لن يعتريها تغيير — يا له من خطأ ! ففى سماء الغرب تخبو نجوم وتنطفئ وتظهر نجوم وتأتلق . لم يعد النور يشع من مركز واحد . ولم يعد التغيير يقتصر على الحدود التى تتحرك إثر الحروب المستمرة فحسب ، بل تناول القوى الفكرية التى تتكون منها أوربا ، وإدارة روحها الجماعية : ولم يتم ذلك دون كفاح ، ودون آلام ، ودون ثورة جديدة .

***

كانت السيادة الفكرية تبدو دائماً كميراث موقوف على اللاتين . فقد حملت لواءها إيطاليا فى عصر النهضة ؛ ثم رأت اسبانيا عصرها الذهبى ؛ وأخيراً أقبلت فرنسا تتلقى الميراث . وربما كان التفكير فى أن برابرة الشمال يستطيعون منافسة هاته الملكات يبدو تفكيراً وقحاً مضحكاً ؛ فماذا كان فى وسعهم أن يقدموا ؟ شكسبير فلتة الطبيعة ؟ أم شعراء ألمانيا القوط الغلاظ ؟ أولئك الناس ما كان يحسب لهم حساب . وكانت إيطاليا وإسبانيا وفرنسا فى نزاع ، متصل الحلقات ، تدعى كل منها الحق المطلق فى تراث الرومان .

إلا أن اسبانيا الطفأ بريقها . ومع أنها ما فتئت تضئ أوربا ببعض أشعتها الأزلية ، فانها مهمة شاقة على أى شعب أن يحتفظ بمكانه فى الصدارة ؛ إذ ينبغى ألا يعتريه ضعف أو كلال ، وينبغى أن يجدد مجده وأن يشعر به الخارج . والحق أن أسبانيا لم تعد بعد تعيش فى الحاضر ؛ فالسنوات الثلاثون الأخيرة من القرن السابع عشر وبالمثل السنوات الثلاثون الأولى من القرن الثامن عشر تكاد تكون فارغة ؛ وكما يقول (أورتيجا . ى . جاسيه Ortega y Gasset) « لم يخفق قلبها طوال تاريخها الفكرى بمثل ذلك البطء الذى كان يخفق به حينذاك » . كانت تنطوى على نفسها وتستلقى فاقدة الشعور ، فى زهو وجلال . وما فتئ يزورها الرواد ولكنهم لم يكونوا يخفون أمارات الاستخفاف ؛ منتقدين عيوب شعب يؤمن بالخرافات ، ومثالب بلاط جاهل ، ومتحدثين عما تلاقى تجارتها من كساد ، وساخرين من كسل السكان وما هم عليه من خيلاء ؛

وفيما يتعلق بآدابها ، كانت مضرب المثل بأسلوب كله تعاظم واصطناع ، ومسرحيات تخالف القواعد ، مسرحيات كانت فضيحة فى نظر الخبراء . وبدأ الناس يقولون إن إسبانيا لم تفقد قوتها ونفوذها فحسب ، بل إنها كانت غير أمينة على عبقريتها : روحها الخيالى وعظمتها وشرفها وحبها للعدل وتجردها عن الأغراض ، كل هذه المزايا التى اختصت بها . ولقد سخر منها سرفانتس Cervantes فى رواية دون كيشوت Don Quichotte ؛ و بما أن الاسبان قد أيدوا سرفانتس بالتصفيق والتهليل ، فانهم فضحوا عيوبهم . ولعل هذه فكرة سخيفة ، ولكنها تكفى لكى تكون الشعوب المنافسة حكماً قاطعاً عن جارها الضعيف .

وكانت إيطاليا لا تزال تختلج فيها علائم الحياة ، وتمتاز أيضاً بالمرونة ، أى القدرة على تغيير لون إنتاجها ، فتبحث فى ميادين أخرى ، فى العلم ، عن شهرة لم تعد تجدها بعد فى الأدب . وكانت قد أثرت فى الخارج عن طريق ذكرى روما : وهى لم تكف يوماً طوال حياتها عن التذرع بهذه الذكرى التى وضعت فيها كل آمالها . كانت تؤثر بلسانها الرقيق الرنان ، لسان الموسيقا ولغة الغرام . كانت تؤثر عن طريق أبنائها الذين برعوا فى الرقص والموسيقا والغناء : فقد كانت أوبراتها تفتن العالم المتمدن وتسلب الألباب ؛ كانت تؤثر فى الشرق أكثر مما تؤثر فى الغرب ، على شواطئ دلماشيا ، فى النمسا وفى بولاندا . ولم تكن هذه مميزات قليلة . ولكن أتى زمن يريد فيه الناس التفكير : وهو ما عجزت إيطاليا عن المشاركة فيه . إنها كانت تنحدر إلى الزوال . وما أكثر السياح الذين ما برحوا يزورونها ! لنقتصر على ذكر المشهورين : جلبرت بيرنت Gilbert Burnet ، ميسون Misson اللاجئ الهوجونوتى الذى صحب أحد النبلاء فى دورته الكبرى ، وليام بروملى Willam Bromley ، مونفوكون Montfaucon ، وزميله دون بريوا Dom Briois ، وأديسون Addison . نحن لا نستخلص من مذكراتهم ورواياتهم ورسائلهم إلا إعجاباً مستمراً بكل ما هو قديم ، واستخفافاً بكل ما هو حى حديث ، وسقوطاً سياسياً وانهياراً خلقياً وفكرياً فى إيطاليا التى أضحت فى نظرهم أرض البرتقال والأطلال ، أرض الأموات .

وهنا أتى دور فرنسا . إنها تدير السياسة الأوربية خلال مدة لا تقل عن أربعين عاماً ؛ والأصدقاء والأعداء يذكرون — كما قال هوراس والبول Horace Walpole — « التقدم العجيب الذى حققه نفوذها منذ معاهدة مونستر فى عام

١٦٤٨ حتى الثورة الانجليزية وبداية « الحلف الكبير » فى عام ١٦٨٩ » ؛ إن هذا الصعود وهذه العظمة ، وهذا المجد ، لدليل على حيوية دافقة . إن فرنسا شخصية معنوية ؛ فرغبتها فى الوحدة ورغبتها فى التوسع تتتابعان بفضل منطق يزداد اتضاحاً على مر الأيام . وعندما توحدت ، لم ينطفئ نشاطها بل انتظم ، وصارت على استعداد لأن تستعمل فى الخارج قوة تستقيم مدة طويلة . و إن سلك فرنسا لشديد الميل إلى الحركة و إلى الاشعاع ؛ وسيكون الضوء ، بل الشمس ؛ فقد كون مجموعة شمسية مركزها فرساى ، و يريد أن تكون شعوب أوربا كواكب لها : «إنه يمثل مجهوداً مرتباً منسقاً ، لخلق جمال نظام فكرى للعالم (١) » .

وفرنسا وفيرة السكان ، غزيرة المدن والقرى ، محاربة ، فيها طبقة نبيلة على استعداد دائم لحمل السلاح ؛ فى سكانها مرح ورشاقة وظرف ، يمتازون بحذق ونشاط ، يستطيعون النهوض بكل مشروع ، ولا سيما ما يتطلب الذكاء أكثر من التوفر والاعتناء ؛ ومع ذلك ففيهم الخفة وعدم الثبات والافتخار بالفسق والفجور : حتى إنك لتجد بينهم من يفخر بذلك ، رغم براءته منه . . . تلك هى الصورة التى لا تخلو من بعض الحقائق التى لم يفلح فى تغييرها الزمان . ولكن نجاحاً فذاً يضاف إلى هذه الصفات فيخلع عليها نضرة جديدة . ففى فرنسا يسود التأدب والتهذيب ، والثقافة ورفاهة الحياة . فكانت قبلة كبار الأجانب ، يقصدونها من كل أنحاء أوربا للدراسة فى المجامع أو للتربية فى البلاط ؛ إذ تستهويهم الأساليب الفرنسية ، فيتلقون فيها دروس الرقة والتهذيب . وبذا تأخذ باريس مكان الصدارة بين كل المدن . وسحرها فى الحرية ويسر التقاليد ؛ فلن تجد فيها من يسألك عما تفعل : إذا أردت أن تغير معيشتك فما عليك إلا أن تبدل الحى . و إذا أردت أن تظهر فيها اليوم بثياب من ذهب ، والغد بثياب من الصوف الثقيل ، فمن سيسأل عنك ؟ و إنك لواجد فيها كل ما تريد ، وحالما تريد . ولا يبتكر العالم شيئاً لكى يتذوق به المرء متعة الحياة إلا ويستعملونه على الفور فى باريس . كانت روما تعلو سابقاً فوق كل مدن الدنيا : أما الآن فانها باريس .

---

(١) سلفادور دى مادارياجا : الأنجليز ، الفرنسيون ، الأسبان . لندن ١٩٢٨ . الترجمة الفرنسية ١٩٣١ ، Salvador de Madariaga, *Englishmen, Frenchmen, Spaniards* London, 1928.

وبينما المتنافسون القدماء يبدون ضعفاء ، تقدم فرنسا فيضاً من الروائع الأدبية ؛ وهي ليست مما تعدها دولة رائعة لكي تتعزى بها ، بل روائع شهد العالم كله بكمالها . فبعد ديكارت وكورنيل Corneille يظهر موليير Molière وراسين Racine ولافونتين La Fontaine وبوسويه Bossuet ؛ ولا يكاد هذا الجيل ينقضي حتى يدعمه ماسييون Massillon ورينيارد Regnard ولي ساج Lesage . إن هذا الفيض الأدبي يستمر ثلاثة أرباع قرن . وفي الوقت الذي ينشرون فيه « التراجيديات » و « الكوميديات » ، والقصص والمراثي ، لمؤلفين سرعان ما أصبحوا كلاسيكيين ، تجدهم ينشرون كتباً أخرى تضاف إلى هذه الكتلة لاستزادة قوتها وإسراع حركتها : فكيف يتأتى أن إنتاجاً ضخماً كهذا لا يعم أوربا ؟ وهكذا بدأ حديث التفوق والعظمة يمتد ويتحقق من يوم إلى يوم . خمن قوة انتشار مؤلفات أولئك الأعلام ، وأضف إليها كتلة الذين يتبعون هؤلاء العظام ، وأضف أيضاً المؤلفين من الدرجة الثالثة ومن الرابعة — (تلك العملة الصغيرة التي نسينا صورتها ولكنها كانت تدور في كل مكان ،) من أمثال بوهور ورابين وفلوري وغيرهم : حينئذ يمكنك أن تتخيل الحركة الفرنسية وما كانت عليه من عمق واتساع وثراء .

وازداد هذا النفوذ حتى إن الأرستقراطية الأدبية في أوربا لم تحتج لترجمة ، فان اللغة الفرنسية تكاد تصبح لغة عالمية . هذا ما يقوله (جي ميج) Guy Miège السويسري الذي يقيم في لندن ، والذي نشر قاموساً فرنسياً — انجليزياً وآخر انجليزياً — فرنسياً ، « لأن اللغة الفرنسية تتحول إلى لغة عالمية » . وهذا ما يقوله أيضاً (جريجوريو ليتي) Gregorio Leti الذي ترجم في أمستردام كتاب « حياة كرومويل » إلى الفرنسية : « لأن اللغة الفرنسية أصبحت في هذا القرن أوسع اللغات انتشاراً في كل أوربا : لأنه إما أن عظمة فرنسا جعلت لغتها أكثر ازدهاراً ، مثلما حدث في الماضي إذ نشرت عظمة الرومان لغتهم في العالم كله ؛ وإما أن اللغة الفرنسية ، بما هي عليه من تهذيب ، تتميز بجمال خاص في وضوحها الذي لا تكلف فيه » . بيد أنه ما من شك في أن أقوى شهادة من بين الشهادات التي يمكننا أن نذكرها هنا ، قول بايل : — « إن اللغة الفرنسية أصبحت فيما بعد حلقة الاتصال بين شعوب أوربا قاطبة ، وغدت لغة نستطيع

أن نسميها « ترانساندنتال (١)» لعين السبب الذى يجبر الفلاسفة على أن يسموا بهذا الاسم كل ما من طبيعته الانتشار فى كل الأبواب والطبقات . . . (٢)»

إن الكتب واللغة ، والأخلاق أيضاً ، وسير الحياة كانت فرنسية . أنظر إلى مكتب ذلك القصر الذى يريد التشبه بفرساى ، تجد هنالك مدرساً فرنسياً يعنى بتربية النبيل الصغير . والثياب ، والفساتين ، والشعر المستعار كانت على الطريقة الفرنسية . وممن كان يطلب الناس تعلم الرقص إلا من أساتذة الأناقة هؤلاء ، French dancing masters الذين يبذون الايطاليين؟ ثم أنزل حتى المطبخ تجد الرؤساء والطهاة يجهزون الطعام طبقاً لآخر الأصول الفرنسية ، والخدم يقدمون النبيذ الفرنسى . «يظهر أننا لا نستطيع أن نجهز مأدبة عشاء من غير نبيذ أجنبى ، نقدمه فى قنينة تسمى «بوتيل» كما هى فى الفرنسية ...» ويقول سوراتورى : « نحن الايطاليين البواسل نهرع كالقرود المضحكة إلى تقليد التبدلات الفرنسية ، و إلى كل بدعة فرنسية كأنما هى آتية من قصر جوبيتر العظيم (٣) ». ويقول الألمانى توماسيوس Thomasius فى كتابه « مقال عن تقليد الفرنسيين عام ١٦٨٧ » *Discours sur l'imitation des Français* « لو أن أجدادنا بعثوا إلى هذه الدنيا ، لما عرفونا ، فقد فسدت أخلاقنا وتنكرنا لأصلنا . كل شئ عندنا الآن ينبغى أن يكون فرنسياً : فالثياب والطهو واللغة فرنسية ، والأخلاق فرنسية ، وحتى الرذائل فرنسية (٤) » .

لم تعد الفرنسية تقوم مقام اللغة الايطالية والاسبانية فحسب ، بل اللاتينية أيضاً التى كانت إحدى حلقات الاتصال للمجتمع الأوربى . « كل الناس يريدون أن يتعلموا اللغة الفرنسية ؛ إنهم يجدون فى ذلك دليلا على حسن التربية ؛ ويتعجب البعض لاصرار الناس على معرفة هذه اللغة ، ولكنها صارت بينهم عادة

---

(١) Transcendantal ما يخص العقل الخالص ، أى ما يدرك بالعقل ولا تثبته التجربة . [المترجم]

(٢) بايل : (أخبار من جمهورية الأدب) ، نوفمبر ١٦٨٥ ، الباب الخامس *Nouvelles de la République des lettres* .

(٣) كما أورده جويليو ناتالى ، (القرن السابع عشر *Il Settecento*) ، ميلانو ١٩٢٩ ، ص ٦٨ ، Giulio Natali .

(٤) كرستيان توماسيوس : Christian Thomasius, *Von Nachahmung der Franzocen,* « فى تقليد فرنسا ، طبعة » *Nach den Ausgaben von* 1678 *und* 1701, Stuttgart 1894. ١٦٨٧ و ١٧٠١ ، ستوتجارت ١٨٩٤ .

متأصلة ؛ ففي كثير من المدن تجد مقابل كل مدرسة لاتينية عشر مدارس فرنسية ، وفي كل مكان تترجم مؤلفات القدماء إلى الفرنسية ، حتى بدأ العلماء يخشون أن تفقد اللغة اللاتينية مكانتها القديمة . . . (١) » كل هذه الأسباب الحقيقية التي عرضها البعض شرحاً لتلك الشهرة ، من قيمة اللغة الجوهرية ، إلى مزاياها الفكرية ، إلى اعتناء شعب يرى كل ما يتعلق بالنحو والصرف والبلاغة مسائل أساسية ، وهو الشعب الذى يتفرد وحده دون شعوب الدنيا بحيازته لمؤسسة رسمية تراقب استعمال الكلمات ألا وهي المجمع — كل هذه الأسباب العميقة الحقيقية ، يضاف إليها سبب هام هو طلب أوربا نفسها التي كانت في طريق التجدد . فقد كانت اللاتينية لغة التعليم المدرسي والعلوم اللاهوتية ، تفوح منها رائحة الماضي ؛ فكانت تفقد رويداً رويداً روابطها بالحياة . ومع أنها كانت أداة كاملة للتعليم ، إلا أنها لم تكن تغني المرء أو تكفيه بعد تخرجه في المدرسة . أما الفرنسية فكانت تبدو كشباب جديد للمدنية : إنها تمدن المزايا اللاتينية . إنها واضحة ، قوية ، أكيدة ، وحية . إن العلم الذى يريد أن يفسر الكون بعلل أخرى غير « العلل الفعالة »(٢) ، يتطلب تعبيراً غير الذى كفى للقرون الوسطى . وإذا نحن وجدنا اللغة الفرنسية وقد أصبحت عقب معاهدة راستادت Rastadt عام ١٧١٤ ، لسان السلك السياسي ، فإنما مرد ذلك إلى أن رجال السلك السياسي لم يقنعوا في عام ١٧١٤ بما قنعت به مستشارية الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . حتى ذلك اليسر وتلك الأناقة في الكلام ، والخفة التي ينعيها الناس على الفرنسيين ، كانت تفيدهم ؛ فقد تراءوا للناس كأنهم تخلصوا من ماض ثقيل . ولقد أخذ علماء الأخلاق الأجانب ينتقدون سلوكهم وميوعتهم وإقبالهم على متاع الدنيا : ولكنه انتقاد لا طائل تحته ، فقد أصبح الفرنسيون نماذج حديثة « ألاموود » . وإنك لتجد هذا التعبير الفرنسي وقد انتشر في إيطاليا في أواخر القرن السابع عشر ، في الوقت الذى يعرضون فيه في واجهات المحال التجارية دمى صغيرة يلبسونها حسب البدع

---

(١) بايل — أخبار جمهورية الأدب ، أغسطس ١٦٨٤ ، الباب السابع .

(٢) Causes efficientes — العلل الفعالة ، العلل التي تحقق نتجتها بالفعل ، فالشمس علة فعالة للضوء . والمؤلف يقصد أن التفسيرات المدرسيه القديمة للكون — من مثل ذلك — لم تعد تكفي للروح العلمية الحديثة في ذلك الوقت . [المترجم]

الباريسى ، البدع الحديث . وإنك لترى الانجليز يستعملونه أيضاً : فالسيدات يرتبن شعرهن طبقاً لأحدث بدع As the mode is ؛ والمكاتب توصى على The à la mode secretary ؛ وينتقد توماس براون فى أحد مؤلفاته(١) « بدع النفاق » ؛ ويعرض (فاركار) فى كتابه « الزوج الوفى » البدع اللندنى The à la mode Londres مقابل البدع الباريسى : The à la mode France ؛ ويقدم (ستيل) على المسرح The funeral, or Grief à la mode ؛ ويفسر لنا أديسون فى مقدمة كتبها لهذه الملهاة ، سر ذلك الاعجاب المفرط :

Our author . . .
Two ladies errant has exposed to view:
The first a damsel, travelled in romance;
The other more refined : she comes from France . . . (٢)

وما هذه إلا حالة خاصة لحركة عامة ، إنه عرض يجيب إلى طلب : وهكذا نستطيع أن ندرك سيادة فرنسا ، وهى سيادة لا تستند على القوة ، لأن القوة لا تكفى لقيام دولة وطيدة فى ميدان الفكر ، بل سيادة مبنية على ارتضاء عالمى . ففى كل مكان تطنطن اللغة الفرنسية ، فى إسبانيا وفى مستعمرات اسبانيا حتى ليما (عاصمة بيرو) حيث يمثلون فى عام ١٧١٠ اقتباساً لمسرحية رودوجين Rodogune (لكورنيل) وملهاة « النساء العالمات » *Les femmes Savantes* لموليير ؛ وفى هولندا حيث تقاوم المواهب الأهلية بلا جدوى ، وفى بولاندا حيث يضمحل النفوذ الايطالى تدريجياً بينما النفوذ الفرنسى يتسع ويقوى ؛ إن الناس يقرأون المؤلفات الفرنسية فى كل مكان ، حتى إن الفكر الفرنسى يسم بطابعه كل الأذهان.

وضعت فرنسا أساس هذه المملكة ، وإذا بمنافس يظهر ، ويا له من شئ معدوم النظير ! إنه دولة من الشمال !

***

كانت انجلترا فى أول الأمر تقف فى طريق السياسة الفرنسية . فهى لم تقبل

(١) *The Stage-Beaux tossed in a Blanket*.

(٢) يقدم مؤلفنا على المسرح سيدتين مرتحلتين ،
أولاهما آنسة سائحة فى بيداء الخيال ،
أما الثانية فأكثر تهذيباً ، فهى قادمة من فرنسا ...

أن تتخلى لفرنسا لا عن البحر ولا عن الأرض ؛ وهى لم تكن تحاربها على السيادة فحسب ، بل أيضاً على مبدأ السلطة الذى كان أساساً للحكم الملكى . فنشبت مبارزة بين لويس الرابع عشر ووليم أورانج ، وكانت مبارزة بين بطلين رمزيين . حينما طرد وليم أورانج جاك الثانى من عرش انجلترا عام ١٦٨٨ واعتلى الحكم بدلا منه تحت رقابة البرلمان ، أخذ لويس الرابع عشر ذلك اللاجئ تحت حمايته الشخصية وأسكنه أروع مسكن فى سان جرمان — لاى ، وهو فى ذلك إنما كان يدافع عن الحق الالهى ممثلا فى شخص جاك الثانى . ولكن بعد حرب طويلة بينهما ، اضطرت فرنسا إلى التسليم أمام القوات المتحدة ، وتوقيع صلح رزويك عام ١٦٩٧ ؛ فيا للاهانة التى لحقت بالملك العظيم ! لقد اضطر أن يعترف بسلطة خصمه وأن يصادق على شرعية حكمه ، بمحض رضائه ، خاذلا بذلك جاك الثانى ، ابن عمه ، بل أخاه .

من كان إذن ذلك الشعب الذى فرض حكمه على أوربا ، والذى أهان فرنسا فى مرة واحدة إهانة لم يلحقها مثلها إبان خمسين عاماً ؟ لشد ما كان هياج الرأى العام الفرنسى ، حتى إننا لنستطيع أن نستشف الثورة الانجليزية من وراء الستار الفاخر لتراجيدية راسين أتالى *Athalie* ، ولا سيما أن الناس أخذوا يترنمون فى « ديجون » فى عام ١٧٠٩ بأغنية مثل التالية :

Le grand-père est un fanfaron,
Le fils un imbécile,
Le petit-fils un grand poltron,
Ah ! la belle famille !
Que je vous plains, peuples français,
Soumis à cet empir !
Faites ce qu'on fait les Anglais,
C'est assez vous le dire ... (١)

---

(١) إن الجد يدعى الشجاعة ،
والابن مغفل سخيف ،
والحفيد جبان رعديد ،
يالها من أسرة بديعة !
إنى لأشفق عليك ، أيها الشعب الفرنسى ،
الخاضع لتلك المملكة !
افعل ما فعله الانجليز ،
كفى أن أقول لك ذلك ...

ولم يبد على ذلك الشعب العظيم فى بداية عهده الزاهر موهبة للأدب . فقد طلب لويس الرابع عشر من سفيره فى لندن إخباره بأسماء الفنانين والأدباء فى انجلترا ، فأجاب السفير بأن العلم والأدب يتركان أحياناً بلداً لكى يحلا على بلد اخر المجد والشرف ؛ وأنهما قد انتقلا الآن إلى فرنسا ؛ وإذا كان لا يزال فى انجلترا أثر للأدب ، فهو ليس سوى ذكرى بيكون ، وبوكانان ، والمدعو « ملتونيوس » الذى جلب على نفسه من العار بمؤلفاته الخطرة أكثر مما يجلبه القاتل الذى يغتال مليكه .

بيد أنه بعد ذلك بقليل ، كان على فرنسا أن تسمح للانجليز بامتيــاز : امتياز التفكير . وهنا أيضاً نجد التعارض قائماً : ففى فرنسا فن الحياة ، وفن الحديث ، وحلاوة الشمائل ، ونزاهة الفكر . وفى انجلترا قوة الفرد ، والعمق والجرأة فى البحث ، وحرية التفكير . ولو لم يكن لدى هذه الأخيرة إلا كتاباً سطحيين ، ومؤلفى « كوميديات » ماجنة ، تعرض على المسرح السلوك فى عهد إعادة الملكية La Restauration ، مثل ويكرلى Wyckerley ، وكونجريف Congreve ، وفانبرو Vanbruh ، وفاركار ، لكان عليها أن تقنع بمكانة التابع : لأنها كانت تقلد فرنسا ، وتنتهب مؤلفيها دون خجل أو حياء ، لكن ها هى ذى تناقش علناً مسائل هامة أرفع مما يتعلق بالروايات الغرامية أو وصف الشخصيات الفاجرة . فهى لم تتجنب الخوض فى المسائل الدينية بدعوى أنها مسائل قد بت فيها ، بل هى لا تكف عن مناقشة الطرق المختلفة التى يستطيع بها المرء أن يتعرف علاقاته بالاله : فمن التصوف البوريتانى لبونيـان ، إلى مذهب (كلارك) و (تيلوتسون) أى الموافقة المنطقية على الدين السائد conformisme ، إلى مذهب (تولاند) أى الاعتقــاد بالله مع إنكار الوحى Déisme . وكانت تشتغل مع (لوك) فى إعداد فلسفة جديدة ؛ وكانت تعمل مع (نيوتن) على انقلاب فى العلم : فقد كتب هذا الأخير مؤلفه (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) *Philosophiae naturalis principia mathematica* فى عام ١٦٨٧ . من هنا منشأ قوة انجلترا الحيوية التى كانت محل إعجاب الفرنسيين :

Les Anglais pensent profondément;
Leur esprit, en cela, suit leur tempérament;

Creusant dans les sujets, et forts d'expériences,
Ils étendent partout l'empire des sciences ... (١)

وأخيراً تجاسر الانجليز على مر الزمن ، فطالبوا بالمجد فى ميدان الأدب : ومنذ ذلك الحين انقسمت مملكة الفكر انقساماً قطعياً . ولقد ظنوا عقب وفاة (درايدن) ، فى عام ١٧٠٠ ، أنهم فقدوا شاعرهم الكبير الوحيد ، فاذا بهم يجدون البعث الاعجازى الجديد . فاذا سألتهم عن الفلاسفة قالوا لدينا كدورث و بركلى ؛ و إذا سألت عن علماء الأخلاق قالوا لدينا (أديسون) وستيل وآربثنوت وشافتسبورى ، ولدينا من العلماء (بنتلى) ، ومن الشعراء (بوب) و (جاى) و (برايور) و (سويفت) ذلك العبقرى الذى يستطيع التفوق فى كل فن وفى كل فرع ، وما ذكرنا هنا إلا العظام . وكان الانجليز يعرفون قيمة تلك الثروة تمام المعرفة ، فعظموا علماءهم ومؤلفيهم وأحاطوهم بصنوف التقدير والتكريم : لقد أخذ العلماء والمؤلفون الفرلسيون يحسدون الانجليز ، فسبحان مغير الأمور ! ولقد أزفت ساعة النصر ، حيث النبات القوى الذى غذته عصارة النماء مدة طويلة ، يفئ أخيراً زهرته الرفيعة .

وإنك لتلاحظ لدى مؤرخى الأدب الانجليزى ، شيئاً من المباهاة عندما يحكون قصة تلك السنين العظيمة . قال (ادموند جوس) Edmund Gosse « فى عام ١٧٠٢ جلست الملكة آن على العرش ، وتحت ظل حكمها القصير حدثت نهضة رائعة للأدب الانجليزى ، على أيدى طائفة من الرجال الذين أوتوا موهبة وابتكاراً ليس لهما مثيل . ففيما بين عام ١٧١١ ، وعام ١٧١٤ انبثقت فى آن واحد من مطابع لندن طاقة من المؤلفات الرائعة نثراً وشعراً . فكأنما ريح قد قشعت ضباباً كان يخيم على السماء من أمد ، فكشفت بعض روائع النجوم . فى عام ١٧٠٢ لم يكن فى أوربا بلد يدانى انجلترا فى فراغها

---

(١) إن الانجليز عميقو التفكير ،
وفى ذلك تتمشى عقولهم مع طباعهم ،
يمحصون المسائل ، ويتوفرون على التجارب ،
فيمدون مملكة العلم إلى كل مكان ...
(لافونتين ، حكايات ، ١٦٩٤ ، الجزء الثانى عشر ، الثعلب والحصرم)
La Fontaine, *Fables*, Livre XII, « Le renard et les raisins. »

الفكرى التعس ؛ وما أتى عام ١٧١٢ حتى غدت فرنسا ذاتها عاجزة عن أن تقارن نفسها بزميلتها من حيث المؤلفات الأدبية نوعاً ومقداراً » . أما عام ١٧١٣ فكان عاماً إعجازياً ! « إن كتاب الحادثة الصغير الذى نشره بيركلى تحت عنوان *Hylas et Philonoüs* يرجع إلى ذلك العام الذى لا ينسى annus mirabilis ، عام ١٧١٣ ، — ففيه وصل بوب Pope وسويفت Swift واربثنوت Arbuthnot وأديسون Addison وستيل Steele إلى ذروة العبقرية ، وفيه قدمت انجلترا فجأة مجموعة من مواهب أدبية رائعة ، حتى لم يكن فى أوربا بلد يستطيع مساواتها أو الاقتراب منها » .

لقد قضى الأمر ؛ فان الضوء كان يشع من الشمال ، وكان للشمال الحق فى أن يواجه الجنوب ظافراً . ونستطيع أن نطبق على المؤلفات الفكرية تلك الكلمات التى كتبها شاعر إذذاك :

What fine things else you in South can have,
Our North can show as good, if not the same ... (١)

ولشد ما كانوا مغرورين بانتصارهم ، أولئك الانجليز الذين وصلوا إلى طليعة الصفوف ! كانوا يتطلعون وراءهم لكى يروا الشوط الذى قطعوه من الطريق ، قائلين إنهم كانوا فى موقف يأس وقنوط ، يهددهم فى حريتهم وفى دينهم بل فى أرضهم ذاتها أعظم الملوك ، لكن سرعان ما تغيرت فى أوربا الأمور ، وأخذت وجها آخر ، حتى إنه ، والشكر لله ، قد انهزم الظالمون وانتصر الصالحون : وبالصالحين كانوا يقصدون أنفسهم . وكانوا يمدحون فلسفتهم ، وأدبهم ، وكل كيانهم . وفى تلك السنين بدأت حركة ما زلنا نحس أثرها حتى اليوم . وحقاً ، من يصدق أنه منذ عام ١٧١٣ ، أخذوا يعرضون اللغة الانجليزية مقابل الفرنسية ؟ يقول (آبل بواييه) : « إن اللغة الانجليزية منافسة اليونانية واللاتينية ، لغة مثمرة قوية ، وهى — كالشعب الذى يستعملها —

---

(١) كل شىء جميل يمكن أن يوجد فى الجنوب ،
يستطيع شمالنا أن يقدم مثله أو ما يوازيه ...

John Rawlet, *An account of my life in the North*, (Poetick Miscellanies London 1687.)

عدوة القسر والاجبار ، فهى تتقبل كل ما يساعد على جمال التعبير وعظمته . بينما الفرنسية التى ضعفت وافتقرت لمبالغتها فى الرقة وخجلها ، وعبوديتها للقواعد والعادات ، لا تسمح أبداً لنفسها بشئ من الحرية ولا تقبل أبداً أى جسارة موفقة . . .(١) »

***

ولا بد من توافر شروط عدة ، لكى تتدفق تلك القوة الحية وتؤثر . ويبدو أنه يجب أولا إبدال الرواسم « الكليشيهات » القديمة بصورة أصدق وأوفر تشويقاً وجاذبية . كانت الطبقات الراقية تستحب الرحلة إلى باريس ، لكن من كان يود زيارة لندن؟ عندئذ بدأت منذ سنة ١٦٦٠ الفترة النشيطة للسفر إلى انجلترا . وكانت العوائق عديدة متنوعة : أخلاق يعتقد الناس أنها بربرية ، ولغة لا يدركونها ، وقبل كل شئ ، ذلك البحر المصطخب الذى كان عليهم أن يعبروه ، والذى كان يرهب القلوب : ويعلم القارئ قصة ذلك الأب النورماندى الطيب الذى سافر إلى شر بورج لكى يخاطر باختراقه ، والذى عدل عن السفر لما رأى لجج الأمواج ، وعاد إلى بيته مؤثراً السلامة . إلا أن سكان المدن الساحلية ، لاعتيادهم المخاطرة ، أقدموا على الخطوة الأولى ؛ ورحل النبلاء قاصدين البلاط الملكى الانجليزى ، والعلماء والأدباء وحتى الأفراد العاديون ، بدافع من حب الاستطلاع . فالسفينة والجمرك والمركبة والفندق ، بما فيها من مشاق ، والطريق والبرارى ، والعشب الرقيق أبدع عشب فى العالم ، ولندن وتحفها وطرائفها ، والتاميز المفروش بالسفن ، ووستمنستر ، والبرج ، والأخلاق الانجليزية الغريبة ، وطرائق الانجليز فى الطعام وفى الشراب ، وعاداتهم العجيبة فى التسلية بما فيها من صرامة وكآبة : كل ما فى هذا الاكتشاف من متع ومشاق كانت تصبغ حكايات السفر بمسحة من المغامرة والبطولة . وجملة القول ، أن الناس بدأوا منذ ١٧١٥ يعرفون انجلترا ، فليس على الأجيال المتتابعة أن تعانى رسم مسودة بل ستكتفى بالتصحيح ، استكمالا للوحة احتلت فيما بعد مكاناً فى رواق الشعوب .

---

(١) آبل بواييه . مقدمة ترجمة كاتون لأديسون ، ١٧١٣ . Abel Boyer, *Préface à la traductiou du Caton d'Addison*, 1713

***

وعما قريب سنرى الأفكار الانجليزية تهاجر إلى ألمانيا . و بجلوس أسرة هانوفر البروسية على عرش انجلترا ، ترتبط الدولتان بروابط سياسية . و إنهما لمرتبطتان من قبل ، جزئياً على الأقل ، بالدين البروتستانتى ، بالكراهية المشتركة للكنيسة الكاثوليكية ، وبالمعارضة المشتركة ضد روما . فى عام ١٦٩٧ ، امتدح أندريه ادم هوتشستتر André Adam Hochstetter الأستاذ بتوبنجن Tubingen فى خطبة باللاتينية فائدة السفر إلى انجلترا *Oratio de utilitate peregrinationis anglicanae* فقال : « لن أمتدح خصب انجلترا ، ولن أطرى تحف لندن ، تلك المدينة العظيمة ، بل سأتحدث عن علمها ؛ وأكثر من ذلك فانى سأتحدث عن دينها . من بيننا يجهل بأى شجاعة وشهامة عارض صفوة الرجال — تحت حكم جاك الثانى — مبعوثى الكنيسة الرومانية اليهودية ، وكيف دافعوا عن قضية يشتركون فيها معنا ؟ » وسنرى بعد ذلك مقدم الفلسفة مع لوك ، وسيتبعها الأدب . وسنشاهد التأثير المؤكد للتفكير الانجليزى على التفكير الألمانى ، فى انفصال هذا الأخير عن الطرائق الفرنسية ، التى كانت تبعد كثيراً عن جوهره العميق ؛ وفى تقديم نماذج أخرى أقرب إليه وآلف ، وفى المؤازرة على تحريره ، حتى يصل يوماً إلى لونه الأصيل . وفى غضون القرن الثامن عشر ، تتبدى لنا على أرض ألمانيا نتائج صعود انجلترا مدارج المجد : تمرد على السيادة الفرنسية ، وتحالف الشمال ضد فرنسا .

ولكن كيف السبيل إلى بلاد الجنوب ، وأى طريق ينبغى أن نختار ؟ فالمؤلفات التى تظهر فى لندن كانت معرضة لانتظار طويل كى تصل إلى تلك البلاد ، لأن اللغة الانجليزية كانت مجهولة فى أرض أوربا ، ولأن الذين يقرءونها من اللاتين عدد قليل ، والذين يتكلمونها أقل . ولذا لم يكن يقدر لانتشارها أن يزداد سرعة ، إلا بمعجزة . فقد انتفعت اللغة الانجليزية باللغة الفرنسية المعروفة فى كل مكان ، فأخذت فرنسا على عاتقها نشر الكنوز المخبأة فى الجزيرة . « إنها لخسارة أن تبقى مؤلفات بمثل هذا الجمال حبيسة بين الحدود الضيقة للجزر البريطانية . فمهما كان فى اللغة الانجليزية من جمال ، فان الفرنسية تفوقها لأنها لغة الاتصال بين كل شعوب أوربا تقريباً . و يمكننا أن نقول بحق

فى صدد الموازنة بين الفرنسية والانجليزية من حيث مدى الانتشار ما قاله شيشرون Cicéron عن اليونانية واللاتينية فى عصره ، فى مقاله *Pro Archia* (١):
« graeca leguntur in omnibus gentibus; latina suis finibus, exiguis sane, continentur .... » (٢) وعندما يحين الوقت المناسب ، ستتكون طائفة من المترجمين ، و يحضر للاقامة فى لندن عدد وفير من الفرنسيين ، و بما هم عليه من حذق وثقافة ، سيتصلون بالأدب الانجليزى ، ويظهرون الاهتمام به ، و يختارون أروع مؤلفاته وينشرونها ، لكى يستعينوا على العيش ، وفى نفس الوقت لكى يعبروا عن شكرهم لدولة أحسنت استقبالهم وأكرمت وفادتهم . حقاً ، لقد كان من المحال أن يجد الأدب الانجليزى سبيلا للانتشار أسرع من تلك السبيل: إلا فى الأحلام...

ومع ذلك فقد تحقق هذا الحلم بالضبط : تحقق بفضل الاضطهاد الدينى الذى طرد القسس البروتستانت ، والأساتذة ، والمؤلفين ، من فرنسا وأجبرهم على الالتجاء إلى لندن حتى جعل منهم مفسرين للتفكير الانجليزى . والحق أنه لم يحدث كل ذلك طبقاً لتلك الخطة المرسومة ، فلقد بدأت من قبل بعض العلاقات وتم بعض الاعداد ؛ لم يحدث شئ لجأة وعلى غير استعداد . وفوق ذلك فان المنفيين لم يكونوا يعملون فى سبيل نشر الأدب الفرنسى فى انجلترا ، أقل مما كانوا يعملون على تصدير الأدب الانجليزى إلى أوربا . إلا أن إحدى النتائج غير المتوقعة لفسخ أمر نانت Révocation de l'Édit de Nantes كانت اكتساب انجلترا حشداً من الوسطاء ، الذين عجلوا انتشار مؤلفاتها واتساع نفوذها بطريقة غير منتظرة : لقد وجدت انجلترا تحت تصرفها ، قبيل استعادة عهدها الزاهر ، المبشرين الذين سوف يعلنون مجدها على العالم المتمدن .

من كان هؤلاء المبشرون ؟ لم يكونوا عباقرة ، ولكنهم كانوا مدفوعين بحب الاستطلاع ، كانوا عقولا نشيطة ، شخصيات قوية ، قبلوا فى شهامة

---

(١) *Pro Archia* لأرشيا : إحدى المرافعات المشهورة للخطيب الرومانى شيشرون تتضمن مدحاً رائعاً للآداب . [المترجان]

« كل الناس يقرءون اللغة اليونانية بينما اللاتينية محدودة ...»

(٢) نبذة من المقدمة التى كتبها (ريكوتييه) فى مقدمة ترجمته لكتاب « كلارك » عن « وجود الله وصفاته » استردام ١٧١٧ . Extrait, de l'*Avertissement* mis par Ricotier en tête de sa traduction de S. Clarke, *De l'existence et des attributs de Dieu*, Amsterdam, 1717.

مغامرة النفى الكبرى ، ولم يقنعوا بالخبز الذى يغذى الجسم ويقيم الأود .
كانوا أصدقاء التجديد . . . Abel Boyer (آبل بواييه) ، الذى بدأ دراسته فى المجمع البروتستانتى ببيلورانس Pylaurens وكان يبلغ التاسعة عشرة عندما فسخ لويس الرابع عشر أمر نانت ؛ فرحل إلى هولاندا ثم إلى انجلترا فى ١٦٨٩ واشتغل بالتدريس لكى يكسب قوته هناك . لشر تراجم من الفرنسية ومؤلفات للمدارس، وفى عام ١٧٠٢ نشر القاموس الملكى *Dictionnaire royal* الذى تستشيره أجيال بأكلها ، فيفيد انجلترا ، وتعده فرنسا كتاباً كلاسيكياً . وسيترجم «كاتون» مؤلف أديسون Le Caton d'Addison الذى سيقدم لأوربا أروع تحف التراجيديا البريطانية . وسيكون تقريباً المؤرخ الرسمى لانجلترا ، ويشترك فى المجادلات الأدبية لذلك الوقت ، ثم يموت فى هدوء ، بعد كثير من النوازل والآلام فى منزل بناه فى شيلسيا كأى بورجوازى لندنى . — وبيير دى ميزو Pierre des Maizeaux وهو ابن قسيس بروتستانتى ، رحل إلى سويسرا عندما بدأ اضطهاد البروتستانت ، درس علم اللاهوت فى بيرن وجنيف ، وكان أبوه يتمنى «أن يكون خلفاً صادقا له لاعادة بناء أسوار بيت المقدس المهدمة » . وهو يجرب حظه فى هولاندا ، حيث عرف بيير بايل Pierre Bayle : الذى لم يكن بذاته الأستاذ الصالح للأرثوذكسية . لذلك لن يصير دى ميزو قسيساً ، بل سيكون أديباً ، متحرراً . ارتحل إلى انجلترا : سويسرا ، فهولاندا ، فانجلترا ، ما أكثر اللاجئين الذين سلكوا هذا الطريق ! ولما كان قد نشر علاوة على أعماله الأخرى — مؤلفات سانت أفريموند Saint-Évremond وبايل ، ولما كان صديقاً لشافتسبرى Shaftesbery وتولاند ، وكولنز ، ونشر بعضاً من مؤلفات لوك Locke ، وتولاند ودرس فى شلنجورت ، وجمع نصوص المناقشة الهامة التى احتدمت بين ليبنتز وكلارك Clarke ونيوتن Newton على الفلسفة والعلم والدين ، ولما كان يرتاد المنتديات ، ويراسل الجرائد ويكتب الرسائل ، ويتوسط لطلاب الوظائف ، ويقدم المعونة للمحتاجين ، فقد كان على ملتقى الطرق التى لا تمر بها الأفكار فحسب ، بل الناس أيضاً : لكل هذه الأسباب مجتمعة فهو يمثل التبادل فى الحياة الفكرية بما فيه من حمى ومغامرة واضطراب بجانب ما فيه من نفع جزيل وإثمار غزير .

ومع بيير كوست Pierre Coste ، نصل بلا شك إلى أعلى مراتب هؤلاء العاملين الطيبين . ولد بيير كوست فى أوزيه Uzès فى عام ١٦٦٨ ،

فلما كان قد كرس للسلك الاكليريكى فانه ذهب إلى مجمع جنيف : ولو أنه أكمل دراسته لصار أستاذاً أو قسيساً ، ولأقام فى مكان ما فى « السيفين » بأواسط فرنسا ، يمجد مذهبه ويعظ المؤمنين ويموت فى داخل أفقه الضيق المحدود . ولكن فسخ أمر نانت يمنعه من الدخول إلى فرنسا ، فيصبح من التائهين . تراه فى جامعات لوزان وزيورخ ، وليدن ؛ ويلتحق فى عام ١٦٩٠ بمجمع كنيسة فالون فى أمستردام . وبعد ذلك يعمل كمصحح فى مطبعة ؛ وفى ١٦٩٧ يشد رحاله إلى انجلترا ، حيث يثبت فيما بعد مكانته فى تاريخ الأفكار . سيعمل مربياً لدى عائلات الأشراف ، وسيجوب أوربا مع تلامذة منتخبين كرائد لهم فى (دورتهم الكبرى) . وسيغدو عضواً فى «جمعية لندن الملكية» ، وينشر المقالات الفلسفية ، والأبحاث التاريخية ، كما ينشر مؤلفات لابروير La Bruyère ومونتانى Montaigne ولافونتين . ويترجم من اليونانية إكزينوفون ، ومن الايطالية جريجوريوليتى ، وريدى ؛ ولكنه سيترجم من الانجليزية على الأخص : كتاب شفتسبرى عن عادة السخرية *Essai sur l'usage de la raillerie* ؛ وكتاب نيوتن عن « علم البصريات » *Traité d'optique* . نيوتن ، شفتسبرى ! إن المشاركة فى تعريف فرنسا بهؤلاء الأعلام ، ثم تعريف كل البلاد اللاتينية بهم عن طريق فرنسا ، لعمل جبار مجيد . ولقد كان عمله أكثر قيمة ، وأشد روعة ، فانه كان مترجم لوك : ترجم إلى الفرنسية باجتهاد وغيرة « بحث فلسفى عن الادراك الانسانى » وهكذا فتح لأوربا أبواب الفلسفة الانجليزية — « إن الفرنسيين مدينون لكوست بما يدين به الانجليز للوك . . . (١) »

وما دمنا لا نستطيع ، عندما نتتبع سير الأفكار ، أن نتمالك أنفسنا من الاعجاب بما تتخذه من طرق غير متوقعة ، فلنعجب أيضاً بالسرعة وبالسهولة التى تتقبل بها فرنسا الدور الذى تمليه الظروف . فانها لا تذعن لهذه القوة التى تظهر فى الشمال والتى تهدد سيادتها فحسب ، بل إنها تخدمها . فهى تضيف إلى نشاطها الابداعى الأساسى ، نشاطاً جديداً ؛ إنها ستروج القيم الشمالية فى الأسواق اللاتينية . وهى ستقوم بدور الوسيط للفكر البريطانى ، لدى عملائها الايطاليين والبرتغاليين والاسبان . وهى تتوسط فى بعض الأحايين بين

---

(١) دارجان : رسائل أخلاقية ، الكتاب الأول D'Argens, *Lettres morales*, I. XXIII.

الشمال والشمال ، حتى إن المؤلف الذى يجئ من لندن سيمر بباريس قبل أن يعبر الرين . ولكنها فى الغالب لا ترسل إنتاجها لحسب بل الانتاج الانجليزى أيضاً ، ثم الانتاج الألمانى ، إلى روما و إلى لشبونة و إلى مدريد . وهى سترسله لا كما يفعل البريد العادى ، من غير اهتمام بما يحمله ، بل إنها على العكس ستزينه وتجمله ! وستجعله يلائم « العادات المشتركة فى أوربا » ، أى الذوق الذى يسود أوربا بفضلها ، الذوق الفرنسى . إن هؤلاء الانجليز ليسوا واضحين ، فيجب أن نوضحهم ؛ إنهم لا يتبعون قواعد المنطق الصريح ، فينبغى أن ندخل النظام على أفكارهم ، إنهم يسهبون فى الكلام فينبغى أن نحملهم على الايجاز . وهم غلاظ جفاة فينبغى أن نهذبهم ونلينهم . وتشرع فرنسا فى العمل ، فتغير الثياب ، وتقطعها ، وتفصلها من جديد ، وتضع على الوجوه الأصباغ والمساحيق . ومع ذلك فلا يزال الأشخاص الذين تقدمهم إلى العالم ، يبدون غرباء إلى حد ما : لكن إلى درجة إثارة الاعجاب دون الدهشة . وفرنسا عليمة بفضلها ، عارفة بذوق جمهورها ، ولذا فهى تتناول مع مصالحها الشخصية ، مصالح انجلترا ومصالح أوربا . والمترجمون الذين تستخدمهم يعلون فضلا وشرفاً : فهم لا يعملون كالعامل البسيط الذى يتوخى أمانة الرقيق ، بل يصبحون بدورهم مبدعين ، أو على الأقل مفوضين كاملى السلطان . يقول بيير كوست : « كلما وجدت أنى لا أدرك تمام الادراك فكرة بالانجليزية ، لاشتمالها على معان غير أكيدة (لأن الانجليز ليسوا مدققين مثلنا فى هذا الصدد) اجتهدت بعد تفهمها ، أن أشرحها بالفرنسية فى وضوح ، حتى يصبح من المحال أن يصعب فهمها على القارئ . إن الفرنسية تمتاز على الأخص بوضوحها عن غيرها من اللغات . . . وعلى ذلك يخيل إلى أننا نستطيع الموازنة بين المترجم والمفوض ذى الحقوق الكاملة . ولما كانت هذه موازنة بديعة ، فانى أخشى أن ألقى العتاب والتثريب على مبالغتى فى تقدير عمل لم يجد بعد فى العالم ما يستحق من تقدير . على أنه ، مهما كان الأمر ، يبدو لى أن المترجم والمفوض لا يستطيعان الاستفادة المبتغاة بكل مزاياهما لو بولغ فى تحديد حقوقهما . . . (١) » .

---

(١) بيير كوست فى مقدمة ترجمته « بحث فلسفى عن الادراك الانسانى » للوك ، أمستردام ١٧٠٠
Pierre Coste, *Avertissement de la traduction de l'Essai philosophique concernant l'entendement humain*, Amsterdam, 1700.

فرنسا ، وسيطة بين الفكر الانجليزى والبلاد اللاتينية : مجرى يبدأ هنا ، ويمر على القرن الثامن عشر بأكمله وما بعده .

***

سفن تصل حتى وسط المدينة لافراغ شحنتها ، والحق أن المدينة كلها ليست إلا ميناء واسعاً ؛ عمارات فاخرة ، البورصة ، المصرف ، فندق شركة الهند ، بيوت رائعة على طول القنوات ، نشاط منتظم ، مظهر ثراء ، لا شحاذون ولا فقراء، بل تجار أقوياء وقوم سعداء : هذه هي أمستردام ، كما يتخيلها الغرباء . إنها تبدو لهم وكأنها أرض النعيم :

Je vois régner sur ces rivages
L'innocence et la liberté.
Que d'objets dans ce paysage,
Malgré leur contrariété,
M'étonnent par leur assemblage !
Abondance et frugalité,
Autorité sans esclavage,
Richesses sans libertinage,
Noblesse, charges, sans fierté :
Mon choix est fait . . . (١)

إن هولاندا لموسرة وعظيمة . وهى ، وإن كانت انجلترا تنافسها فى ميدان

---

(١) أرى الطهارة والحرية
تسودان تلك الشواطىء .
وما أكثر ما فى هذه المنطقة من أشياء ،
أشياء يحيرنى تجمعها ، بالرغم من تنافرها !
فالكثرة مع القناعة ،
والسلطة بغير عبودية ،
والثراء بغير خلاعة ،
والأصالة بغير عجرفة :
لقد قر قرارى ، وتم اختيارى . . .

قطعة منسوبة إلى جان باتيست روسو ، مسجلة فى مؤلفات شوليو ، طبع ١٧٧٤ الجزء الثانى ص ٣٠٤ .

Pièce attribuée à J. B. Rousseau, et recueillie dans les *Oeuvres de Chaulieu*, éd. 1774.

التجارة ، وإن كانت توشك بعد سنة ١٦٨٨ أن تكون القارب المشدود إلى السفينة الكبيرة ، ومع أنها كانت تفقد رويداً رويداً الروح الحربى ، وحب المغامرة التى جعلت منها قوة عظيمة فى البحر والأرض يحسب حسابها ، فان هذا التبدل لا يدل على فقرها بل على أنها تتمتع بغناها ورفاهتها . ومع ذلك فان لديها وسيلة أخرى لتملأ بالذهب والفضة خزانتها : المصرف . إنها تمثل النموذج الأول للدول الرأسمالية ، فماليتها لا تزال تغتنى وتدعم .

وهذه الحركة المالية الواسعة تقتضى بطبيعة الحال أن تكون هولاندا وسيطة . فهى وسيطة فى السياسة ، ما دامت فى حاجة إلى قارة متوازنة ، إلى أوربا يسود ربوعها السلام . وهى أيضاً ملجأ وملاذ للأديان . فمن يبذل جهده لتبشير يهودى فهو مسيحى صالح ، ولكنه ليس بالتاجر الماهر . فهولاندا ترعى حرية الضمير ، أولا لأنها تحملت الاضطهاد زمناً طويلا من جراء عقيدتها ، ولأن تاريخها قصة كفاح أبطال فى سبيل استقلال العقل ؛ ثم إنه لا يمكنك أن تجد تجارة أو مصرفاً ، إذا طلبت من الناس شهادة بعمادتهم . ولذا فهى تسمح بقيام الكنائس ، والمعابد اليهودية ، إلى جانب معابدها . إلا أن هذا التسامح ليس مطلقاً ، فان المنازعات بين القسس تجبر السلطات على التدخل فى الأمر ؛ وهذه السلطات تحارب ، أكثر منها فى أى مكان آخر ، المبادئ التى قد تؤدى إلى انهيارها . ولكن تلك الحرية ، وإن كانت نسبية ، جميلة نادرة .

وهولاندا وسيطة أيضاً بفضل جامعاتها . فحول منابرها تتجمع طوائف من طلاب العلم يقبلون من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، لسماع الأساتذة الذين تجد بينهم الفرنسيين والألمان فضلا عن الهولانديين . « لقد نقابل فيها أناس وكتب وأفكار من مختلف البلاد ، وحدثت فيها مبادلات فكرية لم يحدث مثلها فى أى مكان آخر فى ذلك الوقت . . . ففى غضون القرن السابع عشر بأكمله وخلال فترة طويلة من القرن الثامن عشر ، درس الانجليز والفرنسيون والاسكتلنديون والدنمركيون والسويديون والبولانديون والمجريون ، فضلا عن عدد أكبر من مواطنيها ، فى جامعات أترخت وجروننج وفرانكر وليدن . . . (١) »

---

(١) ج . هويزنجا : فى دور الوسيط الذى قامت به الأراضى الواطئة بين أوروبا الشمالية والوسطى ، ١٩٣٣ ،
J. Huizinga, *Du rôle d'intermédiaires joué par les Pays-Bas entre l'Europe occidentale et l'Europe centrale*

ولما فسخ أمر نانت كانت هولاندا على استعداد . وقبل ذلك كانت هذه الأرض المتسامحة الحانية معتادة أن تشاهد حضور الانجليز المنفيين من بلادهم ، الملكيين فى ظل نظام كرومويل ، والجمهوريين تحت حكم شارل الثانى ؛ فى وسط كل هذه البلابل والثورات ، كلما شعر انجليزى من ذوى المكانة أنه ليس فى أمان ، كان يلتجئ إلى هولاندا ، كائناً اسمه ما كان ، سواء فى ذلك شفتسبرى ، أو لوك ، أو كولنز ؛ وهناك كان ينتظر فى سلام ، انفراج العسر وصفو الأيام . ونحو عام ١٦٨٥ كان الهوجونوت الفرنسيون ، قد أقبلوا يطرقون أبواب مدنها ، فأكرمت وفادتهم وقابلتهم كعادتها بالعطف والترحاب . وبذلت جهدها حتى استطاعت أن توفر لهم المناصب فى مصانعها ، وفى جيوشها ، وفى مدارسها . قبلتهم بين أهلها ، لأنها كانت نفسها بروتستانتية ، ولأنها كانت تكره سياسة لويس الرابع عشر ، ثم لأنها كانت رحيمة وافرة الانسانية .

حينئذ حل وقت دورها الدولى الكبير . كانت أوربا التى تنشد تعبيراً لضميرها الذاتى ، فى حاجة إلى صحف تكون أوربية حقيقية ؛ فأهدى الهوجونوت الفرنسيون هولاندا هذه الهدية الرائعة ، مقابل ما قدمت لهم من حرية وكرم ضيافة . لطالما جرب الناس ذلك ولم يفلحوا أبداً لأسباب مختلفة . فصحيفة العلماء *Le Journal des Savants* — العميد المحترم — تبقى حبيسة فى حدود فرنسا ، بالرغم من جهودها المتكررة للاتصال بالتفكير الأجنبى . وصحيفة التقارير الفلسفية *Philosophical Transactions* كانت أميل إلى العلم منها إلى الفلسفة ؛ وصحيفة *le Giornale dei Letterati* كانت تعوزها الحيوية واتساع الأفق ؛ . وصحيفة *Acta Eruditorum* فى ليبزج كانت ثقيلة بالغة الصعوبة : والخلاصة أنه كان يوجد محل شاغر . وها هى ذى الصحف المرتقبة تظهر الآن : تظهر فى هولاندا . فى شهر مارس عام ١٦٨٣ «أخبار جمهورية الأدب» *Nouvelles de la République des lettres* لبيير بايل ؛ وفى شهر يناير عام ١٦٨٦ «المكتبة العالمية التاريخية» *La Bibliothèque universelle* لجان لكلير ؛ وفى شهر سبتمبر عام ١٦٨٧ «تاريخ مؤلفات العلماء» لباناج دى بوفال Basnage de Beauval . ثلاث صحف محررة بالفرنسية ، كانت تبحث عن قراء أوربيين .

ولم يطل الانتظار حتى وجد القراء . . يا للقلق الذى ينتهب المؤلفين ، عندما

يفكرون فى أن صحيفة ستجود لهم أو ستضن عليهم — كما تشاء — بالمجد الذى يجتاز كل الحدود ، المجد الذى يسرى فى كل البلاد ، المجد العالى ! أى مؤلف لم يتمن معرفة الحكم عليه ؟ من منهم لم يلهج لسانه بالشكر ، إذا اعتقد أنهم قدروا فضله ؟ ومن منهم لا يحتج إذا اعتقد أنهم حطوا من شأنه ؟ — « لدى من الأسباب ما يدفعنى إلى الشكوى يا سيدى ، من الطريقة غير الشريفة التى تتكلمون بها عنى فى عدد « أخبار عن جمهورية الأدب » شهر يوليو . . . لا تنتهكوا مبادئ القانون ، احتفظوا بمقاييس الشرف فى صحيفتكم ، وتشربوا مبادئ المحبة المسيحية . . . (١) » — أو : « انهالت الطلبات على كتابى منذ ما كتبتم عنه فى « أخبار » *Nouvelles* ديسمبر ؛ لقد لقى التقدير سلفاً لدى علمائنا الذين يعتقدون أنه لم يوجد الرجل الذى يفوقكم نفاذاً إلى جوهر كتاب ليتفهمه ويقدره حق قدره (٢) » — « منذ ما تشرفت بقراءة مؤلفاتكم ، أعدها كأحد معابد الخلود المقدسة ، حيث لا يشغل مكان إلا باعتناء كبير ، تدعمه أهلية كبيرة . . . (٣) » غير أنه ما من نداء أشد تأثيراً مما وجهه « فيكو » Vico ذات يوم من نابولى إلى (جان لى كلير) : إن الناس لم يقدروه فى نابولى حق قدره ، ولكن إذا شاء جان لى كلير ، فسيكون اسم فيكو علماً فى كل أنحاء أوربا (٤) .

إن النور يشع علينا الآن من الشمال . . . وفى الشرق أيضاً تغيرات قيمة تعتمل . فبولندا التى أمضها الكفاح ، وأرمضها الاسراف فى البطولة بعد أعمال « سوبيسكى » الذى حاز إعجاب كل أوربا ، تضنيها الانقسامات الداخلية . ولقد طالما علمت موسكو المدنية الأوربية : كانت تؤثر فى جاراتها الخشنة بفضل آدابها ،

---

(١) من الأب دى فيل إلى بيير بايل ، ٣١ اغسطس ١٦٨٦ . L'abbé de Ville à Pierre Bayle. Dans le *Choix de la correspondance inédite de Pierre Bayle,* publié par Emile Gigas, Copenhague, 1890 .

(٢) من فرلسوا برنييه إلى بيير بايل ، ٢٨ فبراير ١٦٨٦ .

(٣) دينس بابن Denis Papin إلى بيير بايل ، ٢٦ يونيه ١٦٨٥ .

(٤) نيكولينى : خطاب من فيكو إلى جان لى كلير . مجلة الأدب المقارن ، ١٩٢٩ ص ٧٣٧ . E. Nicolini, *Due lettere inedite di G. B. Vico a Giovanni Le Clerc.* (*Rev. de litt. comparée,* t. IX, année 1929, p. 737) .

وعلومها ، وفنونها الجميلة ، ونظرياتها السياسية : إلا أن موسكو أخذت تبحث عن نماذج أخرى . هذا بينما تنهار عظمة السويد ، وتكون « بولتافا » ، آخر ملحمة حربية لشارل الثانى عشر . وهكذا تفارق الشخصيات الرئيسية المسرح لتأخذ مكانها شخصيات أخرى . تواترت الأخبار فى باريس — دون أن يلقى الناس إليها كبير اهتمام فى بادئ الأمر — أن فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج ، استولى على العرش فى ١٨ يناير من عام ١٧٠١ فى كونجسبرج تحت لقب فريدريك الأول ملك بروسيا . وترى ماذا يحدث فى روسيا ؟ إن أحد أولئك الأدواق الذين يدعونهم قياصرة ، يريد أن يجعل من تلك الكتلة الآسيوية قوة متمدينة ؛ ويلتمس الدروس فى ألمانيا وفى المجر وفى هولاندة وانجلترا وفى فرنسا ، حتى إن موسكو تتبدل من عام إلى عام : تبدلا عاماً فى الأخلاق والعادات ، والبدع ، وفى أصول الثياب ؛ إن رحالة هولاندياً يدعى كورنيلوس فان برون ، يستشف ببصيرته النفاذة هذه التبدلات ، فيسرع فى رسم الملابس المحلية لكى يحتفظ لها بالذكرى : « بما أن هذا التبدل يستطيع أن يمحو كل شئ مع الزمن ، حتى ذكرى الملابس المحلية القديمة ، فقد رسمت ثياب الفتيات على القماش . . . » إن الشعوب القديمة تتعجب ، وتعجب بالقوام الهائل الذى يتبدى فيه بطرس الأكبر ، امبراطور الروسيا .

ولكن ظهور هاتين القوتين العظيمتين لا يتعلق إلا بالمستقبل : فان بروسيا والروسيا لن تعملا فى ميدان الفكر إلا بعد ذلك الوقت . أما فى هذه الآونة فالواقع الأساسى هو التالى : إن سيادة الفكر لم تعد لاتينية محضة ؛ إن انجلترا تطالب بتقسيم النفوذ ؛ إنها تعى قيمتها ، وتنادى بمجدها الذاتى ، بل هى تشعر نحو اللاتينيين من بورتغاليين وإيطاليين واسبان وفرنسيين ، باحتقار تحاول عبثاً أن تخفيه ؛ إن هم فى نظرها إلا عبيد . يمتدح شافتسبرى السياسة الانجليزية فيقول : « أما نحن البريطانيين فلدينا — شكراً للسماء — فكرة أصح عن الحكومة ، فكرة ورثناها من تقاليد عريقة فى القدم . إننا ندرك فكرة الشعب وفكرة الدستور ، ونعرف نظام السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية .. وإن المبادئ التى نستنبطها من ذلك لبديهية كبادئ الرياضيات . وهذه المعرفة التى تزداد تدريجياً ، تبين لنا يوماً فيوماً ، قيمة « الادراك السليم » فى ميدان السياسة ، ولا بد من أن يصل بنا ذلك إلى إدراك قيمته فى مجال الأخلاق ،

التى هى أساسها »(١) . بينما يشيد « أديسون » فى موازنته بين انجلترا وإيطاليا بفكرتها عن الحرية : « ما أجملك يا إيطاليا ! . . . لكن ما جدوى بسمات الطبيعة ، ومفاتن الفن ، بينما يسودك الطغيان والظلم ؟ إن السكان التعساء يتطلعون بغير طائل إلى البرتقال الذى يتلون بلون الذهب ، وإلى الحب الذى يزكو ويطيب ، ويشمون عبثاً أريج الريحان الذى يتضوع : إنهم يموتون جوعاً وسط حقولهم الخصبة ، ويموتون عطشاً وسط كرومهم الوارفة . . . إيه أيتها الحرية ! إنك تجعلين البؤس سعادة ، أنت التى تعطين للشمس بهاءها ، وللنهار لذته ومتعته . إن الحرية إلهة انجلترا ، التى لا تحسد مزايا إقليم مناخه أصلح للانسان ، فانه يقتضيها ثمناً غالياً . إنك تجد الحرية على صخورها العارية الجرداء . فليحب الآخرون القصور ، واللوحات ، والتماثيل ؛ أما واجب انجلترا فهو رعاية مصير أوربا ، وتهديد ملوكها المزهوين ، والاصغاء إلى شكاة جيرانها التعساء . . .(٢)

قال دانيل لاروك « كلما رأيت الانجليز ازداد إعجابى بهم ؛ إنهم ، فى العموم ، يفوقوننا فى كل شئ . »(٣) إن لهم على الأقل قيمة وحساباً ؛ إنهم على الأقل يؤيدون قوتهم ؛ إنهم على الأقل يمثلون فكراً جديداً . — ترى أى فكر ؟

---

(١) شافتسبرى ، ١٧٠٩ *Freedom of wit and humour*

(٢) أديسون : خطاب من ايطاليا إلى الرايت أونورابل شارلس لورد هاليفاكس ، ١٧٠١ Addison, *A letter from Italy, to the right honourable Charles lord Halifax,* in the year 1701.

(٣) دانيل لاروك : رسالة الى بيير بايل ، ١٢ يوليو ١٦٨٦ . Daniel Larroque à Pierre Bayle, 12 juillet 1686

الفصل الرابع

الأتورودكسية [1]

حدث فى عام ١٦٧٨ أن دخل «بوسويه» Bossuet فى مناقشة مع القسيس البروتستانتى «كلود» Claude ، أثارتها مدام (دى ديراس) Mme. de Duras التى تتردد بين المذهب البروتستانتى الذى توشك أن تتركه ، وبين المذهب الكاثوليكى الذى تريد أن تعتنقه ؛ وكان الزعيان يتواجهان ، ويجاهدان خطوة فخطوة ، من جهة لامتلاك روح ، ومن جهة أخرى فى سبيل حقيقتهما ، وإيمانهما . فلما وصلا إلى حقوق الضمير الفردى ، بدأ بوسويه يضيق الخناق على كلود : — إلى أى مدى تصل تلك الحرية التى يطالب بها السادة دعاة الكنيسة المجددة ؟ أليس لها أى حدود ؟ أكل فرد إذن ، كل امرأة ، كل جاهل مهما كان ، يستطيع أن يعتقد ، ويجب أن يعتقد ، أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر من مجمع بأجمعه ، ولو اجتمع من جهات العالم الأربع ، وأكثر من باقى الكنيسة ؟ فأجاب كلود : نعم إنه لكذلك (٢) .

---

(١) الأتورودكسية Hétérodoxie عكس الأورثوذكسية ، والأرثوذكسية هى موافقة الاعتقاد الدينى السائد . [المترجان]

(٢) بوسوية : محادثة مع السيد كلود تتعلق بعصمة الكنيسة ، عام ١٦٨٢ ويشرح كلود أسبابه فى كتابه « رد على كتاب السيد أسقف مو Monsieur l'Evêque de Meaux المعنون محادثة مع السيد كلود » ١٦٨٣ ص ٤٨٥ فيقول : يقول ذلك الأسقف إنه — بحسب ما قلنا — فكل فرد مهما كان جاهلا يجب عليه أن يدرك كلمة الله أكثر من المجامع العالمية ، ومن كل الكنيسة بأجمعها ، وهذا القول يؤخذ على محملين : أولهما أن كل فرد مهما كان جاهلا ملزم بأن يعتقد أنه يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الحقيقية المكونة من قوم من الأخيار الأبرار ، من رجال أتقياء ، علماء حكماء ، مجتمعين باسم المسيح . وثانيهما أن كل فرد مؤمن ، وهبه الله الروح القدس ، ملزم بأن يعتقد أنه يمكنه أن يدرك كلمة الله أكثر مما تدركها المجامع العالمية الكاذبة ، المكونة من أشخاص دنيويين =

عندما انتقل الخلاف الأبدى بين السلطة والحرية إلى ميدان الدين ، بلغ عنفوانه ، إذ تعارضت أشد التعارض وأقساه ، المبادئ التى على الناس أن يختاروها لتوجيه الحياة . كلود وبوسويه ، بطلا قضيتين متعارضتين ، عظيمان بين العظماء ، يدافعان أمام روح عليها أن تقرر نصيبها بنفسها ، أمام فرنسا ، أمام أوربا — الأول عن حق التفكير بلا إلزام ، عن حق الفحص بغير تقييد أو تحديد ، عن حق تغليب أحكام الضمير الفردى على الارتضاء العام ؛ بينما يدافع الثانى عن إرادة التفكير المشترك ، عن السعادة فى طاعة نظام قد قبله الناس قبولا نهائياً ، وعن ضرورة الاعتراف بسلطة لتسيير ركب الحياة .

فى ذلك التاريخ ، كان كلود يدافع عن قضية تبدو كأنها خاسرة ، وبوسويه يدافع عن قضية ظافرة . كانت الأثوردكسية hétérodoxie (معارضة الأورثوذكسية) تتقهقر ، وكان مذهب لوثر الألمانى Luthéranisme يضعف ويتعثر ، باعتراف زعماء البروتستانت ، وكانت البروتستانتية الانجليزية فى خطر ، يهددها الكاثوليك أعوان أسرة ستيوارت من جهة ، والمخالفون من كل لون من جهة أخرى . كان أعداء الانقلاب الدينى La Réforme (١) قد استردوا شطراً كبيراً من وسط أوربا ، ولم يكن الجيزويت أنصار النظام والطاعة ، أعظم مما كانوا فى ذلك الحين .

= نفعيين ، منافقين ، أى من أشخاص لم يمن الله عليهم بالروح القدس ، وأكثر مما يدركها كل أولئك الدنيويين مجتمعين ، وإن كانوا يخلعون على أنفسهم كذبا اسم الكنيسة .

أما المعنى الأول فهو عبارة عن ادعاء محض يرفضه البروتستانت . وأما المعنى الثانى فيتضمن حقيقة من ، البداهة والوضوح ، بحيث لا يستطيع بوسويه أن ينتصر عليها بأية حال .

(١) *La Réforme* : حركة دينية بدأت فى أوائل القرن السادس عشر وحطمت الوحدة الكاثوليكية بخروج بلاد شمال أوربا على الطاعة التقليدية للكنيسة ، وللبابا على الخصوص . وكان جان هوس من المبشرين السابقين بهذه الحركة التى عززتها الهزة العميقة التى شعرت بها العقول نتيجة للنهضة . وفى ألمانيا كان بطلها مارتن لوتر الذى التجأ إلى فارتبورج ومن هناك لظم الحركة ضد الكاثوليكية الرومانية . وفى ١٥٣١ جاء جان كالفين إلى سويسرا عقب فراره من فرنسا ، يبشر بالمذهب الجديد ، الذى ينكر ألوهية المسيح ولا يعده إلا نبيا وينصح بالرجوع إلى المسيحية الأولى ، ومبادىء العهد القديم ، وينكر التقاليد الدينية والمراسيم وينسب للسلطة مصدرا ديموقراطيا . واشتهر الفرنسيون التابعون لكالفين باسم الهوجونوت . وهذه الحركة يتكلم عنها الكاثوليك على أنها «انقلاب» ويتكلم عنها البروتستانت بحسبانها إصلاحا . [المترجان]

إن فرنسا ، أكثر البلاد منطقاً ، وأقواها إرادة وتصميما إذا تعلق الأمر بالأفكار ، قد افتتنت بهذا الميل إلى الوحدة الكاملة . إن ملكاً عظيما أحال المسألة السياسية المعقدة إلى مبدأ بسيط يشعر بشئ من الألم والضيق ، ويعتقد أنه لم يتم رسالته بعد ، طالما يبقى فى أعماق القلوب انقسام وتشتيت ، وطالما تبقى أقلية تتبع دينا عاصياً . كان الحلم الذى يراود خيال لويس الرابع عشر : تنظيم كل شئ حتى العقيدة ، وتوحيد كل شئ حتى الايمان ، والقضاء على البروتستانتية حتى لا تبقى إلا كنيسة واحدة فى دولة قد نظمت أحسن تنظيم . لحاول أن يقضى على الدين الذى يزعمونه مصلحاً ، بالمجادلة والهداية فى أول الأمر ، ثم رويداً رويداً بالقوة . كان البعض يقولون له ، وكان يجد رضا فى التصديق ، إن الانقلاب الدينى الذى خرب فرنسا فيما سبق بالحديد والنار ، لم يجرد من السلاح ولم يضعف فحسب ، بل خارت قواه ، واقترب من نهايته المحتومة . كتب الأب مامبورج le P. Maimbourg فى مؤلفه تاريخ مذهب كالفين *Histoire du Calvinisme* إنه لا تزال أمامنا خطوة أخرى «وحينئذ سيخمد قريباً ذلك الحريق المشئوم الذى جر على فرنسا كثيراً من التخريب ، والذى لا يتبقى منه اليوم إلا دخان طفيف . ولما كنا جميعاً يربطنا فى المملكة المسيحية قانون واحد يلزمنا جميعاً بالخضوع لملك واحد جاد به الله علينا ، فإنى كبير الأمل فى أن يربطنا أيضاً إيمان واحد . » ولما كانت فرنسا تعطى مثالا يحتذى ، ولما كانت نموذجا لأوربا به يقتدى ، أفلا يفكر الناس أن إنجلترا قد ترعوى وتهتدى إلى الكاثوليكية بدورها ؟ كان الأب مامبورج يستشف ذلك الانقلاب ! — « لى أمل أنه ذات يوم ، سيبدد الله بنور نعمائه الظلام الذى قد نشره انشقاق مشئوم ، أعقبه كفر ، على انجلترا منذ قرن أو يزيد ، وسيضئ عيون الانجليز من جديد بشمس الحقيقة التى ستجمع كل العقول فى طريق الايمان ، الذى علمهم إياه القديس جريجورى الكبير » . هكذا كان يفكر الجميع ، إنه بفضل « الملك المجيد المسيحى جداً » سيرد إليهم الكساء الجميل الذى كان يرتديه المسيح ، وبذا يتحقق انتصار الأورتودوكسية .

لما فسخ لويس الرابع عشر فى شهر أكتوبر ١٦٨٥ أمرنانت ، كان فى ذلك مطابقاً ومطبقاً لمبادئه . إلا أنه لم يكن مخلصاً للروح المسيحية ؛ فانه أخطأ فى تقدير طبيعة الضمير البشرى . إن الضمير البشرى لا يحتمل الشدة،

وهذا سر نبله وعراقته ، سر عظمته . إن شدة الطغيان لا تدفعه إلا إلى العصيان . لذلك قلما تجد من الأحداث ما كان أحسم وأحفل بالنتائج التى تؤثر فى المستقبل مثل فسخ أمر نانت . وعلى قدر ما نستطيع أن نتوقف عند تاريخ ، لنسجل حركات التفكير ، فانه لمن الصواب أن نقول إن سنة ١٦٨٥ تسجل أوج انتصار الهجوم على الانقلاب الدينى ، أما بعد ذلك فيأتى الجزر .

***

أما فى الخارج فيا للضجة التى تعالت ، ويا لصيحات القتال التى دوت ! إن الثورة الانجليزية التى نشبت فى عام ١٦٨٨ لم تكن سياسية فحسب ، بل دينية أيضا . وإن انتصار وليم أوارنج لم يكن فوزاً للبرلمان فحسب ، بل كان ظفراً للاصلاح الدينى أيضاً . ولم يمجد الناس فى شخصه الذائد عن حقوق الشعب فقط ، بل منقذ الدين ، بطل البروتستانتية . كذلك لقد كان لويس الرابع عشر ، فى نظر بلاد الشمال قاطبة العدو الأكبر ، عدو الايمان الحر ؛ فكانوا يرددون أن فعلته كانت الدليل القطعى الظاهر ، والرمز البين لحكمه الظالم ، وجوره ووحشيته وجبروته ، واحتقاره لحقوق الانسان ؛ إن ذلك الميكيافيلى Machiavel (١) ، ذلك الوحش (٢) ذلك الدجال Antéchrist (٣) ، لا يكتفى بأن يفرض على العالم قوة السلاح ، ولا يقنع بفتوحاته وسياسته القائمة على المداهنة والنفاق ، بل يصبو إلى السيطرة على الأرواح ، ويروم إحلال قوانينه محل نداء السماء ! وقد بلغ من قوة هذه المذمة أن وصل صداها إلى العالم الجديد .

---

(١) مكيافيلى : صاحب كتاب «الأمير» و «فن الحرب» يتلخص مبدؤه فى أن الغاية تبرر الوسيلة وقد صار عنواناً للرجل الذى لا يعرف وخز الضمير ، والذى يخرق العرف ويخرج على الأخلاق فى سبيل تنفيذ مآربه السياسية ، ١٤٦٩ - ١٥٢٧ . [المترجمان]

(٢) *La Bête de l'Apocalypse*: الوحش المذكور فى رؤيا يوحنا بالانجيل « ثم وقفت على البحر . فرأيت وحشاً طالعاً من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف ، والوحش الذى رأيته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم الدب . وفمه كفم أسد . . . » (انجيل يوحنا ، الاصحاح الثالث عشر) . [المترجمان]

(٣) الدجال L'Antéchrist أو النبى الكذاب المذكور فى رؤيا يوحنا اللاهوتى سالفة الذكر ، الذى سيظهر قبل يوم القيامة ويغرق الأرض فى الاجرام والدم ، حتى انتصار المسيح . [المترجمان]

يقول بنيامين فرانكلين إنه قد سمع فى صباه ، قوما فى كنيسة فى فيلادلفيا يلعنون « ذلك العجوز الرجيم ، مضطهد شعب الله ، لويس الرابع عشر(١) » أى بذرة تنبت البروتستانتية فى أوربا ، أولئك الفرنسيون المطرودون من فرنسا ! كانوا يشهدون العالم على ماعانوا من عذاب وما حاق بهم من سوء . لقد ظلوا سنين وسنين يطاردون كالوحوش ، ولما كانوا قد رفضوا أن ينكثوا اليمين ، فقد عوملوا معاملة المجرمين . وكانت قلاع المعارضة لا تقتصر على جنيف و برلين ، وبودابست بل كان هناك أيضاً ملجأ هولاندة وانجلترا حيث عشرات الكنائس وآلاف المؤمنين . وكان أولئك الفرنسيون الأقوياء ذوو العزم الشديد ، الذين اعتادوا المقاومة والجهاد منذ أمد طويل ، يضعون فى خدمة الاصلاح الدينى » قوات عديدة : هيبة أولئك الذين يحتملون العذاب فى سبيل الايمان ، وبداهة الظلم المبين الذى عانوه ، وقوة جدالية كلها حياة وحيوية ، وقدرة طائفتهم على الاقناع ، وسخطا جنونياً يلازمهم مدى الحياة ثم يورثونه لنسلهم من بعدهم .

كم تغير صوت القسيس كلود ، بعد ما فسخ لويس الرابع عشر الأمر المشهور ! يعلن كلود أنه قد مضى الزمن الذى كان المرء يستطيع فيه أن يقارع الدليل بالدليل ، والسبب بالسبب ، وإذ لم يكن الظفر إلا فى سلامة النية . فانظر كيف خدعوه ، ومن معبده اقتلعوه ، وكيف أجبروه على أن يأخذ طريق المنفى فى بحر أربع وعشرين ساعة . يا للذكريات الأليمة ! لقد أقبلت الجنود ، وطوقت الطرق ومنافذ المدينة ، حيث نصب الحراس ، ثم أخذوا يتقدمون وسيوفهم مشرعة صائحين : « القتل . . . ! القتل ! أو الكثلكة ! وبين صيحات السباب والانتحاب ، أخذوا يشنقون الناس ، رجال ونساء ، من الشعر ومن الأقدام ، على أسقف الغرف أو منحنيات المداخن . وكانوا يعذبونهم باستنشاق دخان القش المبلول ، وينتفون شعر اللحى والرءوس ؛ وكانوا يلقون بهم فى نيران أشعلت خصيصاً لهذا الغرض ، ولا يخرجونهم منها إلا نصف مشويين ، وكانوا يغللونهم بالحبال ، ثم يغطسونهم فى الآبار ، ولا يخرجونهم منها إلا بعد وعد بتغيير الدين . . . » هل كان ملك فرنسا يجهل أن الايمان ينزل من

(١) مؤلفات بنيامين فرانكلين ، طبعة شمت ، الجزء السادس ص ٨٦ . *Writings of B. Franklin*, éd. Smith, t. VI

السماء ولا صلة له بسياسة البشر ؟ وأن وسائل الالزام لا تؤدى إلا إلى خلق الكفار أو المنافقين ، وأنها تزيد المخلصين صلابة وثباتا يتغلبان على كل عذاب مبين ؟ ألا يدرك أن فى استعمال تلك الأساليب خروجا على قانون دول أوربا؟ وأنه بخرقه وعد أسلافه والثقة العامة هذا الخرق الفاضح ، لن يثق الناس فيما بعد بوعد يقطعه أو ميثاق يبرمه (١) !

هكذا أخذ عدد كبير من قساوسة البروتستانت يستنزلون اللعنات ويبكون بكاء اليهود على شواطئ بابل (٢) ! نذكر منهم جاك باناج ، جاك سوران ، J. Saurin ، إيلى بنوا Elie Benoist ، اسحق جاكلو Isaac Jaquelot . ولكن إذا أردنا أن نعرف إلى أى حد وصل الغضب العاصف ، فينبغى أن نصغى قليلا إلى كلام بيير جوريو Pierre Jurieu . كان مفطوراً على الشغف بالمجادلة ، ولكنه كان يتجمل بالصبر طالما هو يبقى على أرض فرنسا : فلما نفى ، جن جنونه . وأخذ يقول فى هذيان المحموم ، ما يقوله الآخرون فى أسلوب رزين ؛ وكان يوقع نفسه فى الخطأ بتهوره وتحريفه : إلا أنه يلتمس له العذر فقد كان مدفوعاً بتلك المشاعر التى لم يتفرد باحساسها . كان يقف كالحارس من فوق الأسوار ، محتجا ضد البابوية ، ومجمع ترانت ، وممتدحا الاصلاح الدينى ، ومشجعاً المخلصين على المقاومة ، داعياً إياهم ألا يذعنوا للقوة ، باعثاً إليهم برسائل للارشاد ، كما كان يفعل رهبان الكنيسة القديمة مع المسيحيين الواقعين تحت نير الاضطهاد . وكان يتنبأ ، قائلا أنه لن يبعد اليوم الذى ينتهى فيه حكم « النبى الكذاب » وإن مملكة الشيطان ستؤول إلى الدمار ، وإن الكنيسة الحقة ستستعيد تاج المجد والفخار . سينتهى الأمر فى عام ١٧١٠ أو على الأكثر فى عام ١٧١٥ ، إذ

---

(١) شكوى البروتستانت المنفيين من مملكة فرنسا ، ١٦٨٦ .

(٢) يقصد تشبيه البروتستانت المطرودين من فرنسا باليهود المسبيين إلى بابل عقب غزو ملك الكلدانيين لأورشليم : «فكانوا يهزءون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا إلى بابل وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة . وسبى الذين نجوا من السيف إلى بابل . . . » لعهد القديم ، أخبار الأيام الثانى ، الاصحاح ٣٦ . [المترجمان]

يعود البروتستانت إلى فرنسا ظافرين . ولم يعدم من يصدقه ، ويتبعه ، ويناقش مواعيد ذلك العود السعيد : فنحو عام ١٧٢٠ أو ١٧٣٠ سيسترجع المنفيون أورشليم . — . ولم يكتف بما أبداه من صياح وجنون وهذيان ، بل التحق بخدمة منتخب براندنبورج وملك انجلترا ضد فرنسا ؛ ودبر عصيان البروتستانت فى مختلف أنحاء المملكة ، ونظم حركة جاسوسية ضد بلاده ، فكان يرسل الجواسيس ويستقبلهم ويدفع أجورهم . وانزلق جوريو من حقد إلى حقد ، حتى سقط إلى هذا الدرك ، الذى بقى يمثله إلى أن مات فى ١٧١٣ .

***

إن الروح الحقيقية فى الصحف الفرنسية فى هولندة ، الروح التى نسعى إلى شرحها بالذات ، هى أنها غير موافقة للدين القائم ، إنها تنادى بصوت الأثورودكسية .

لا شئ فى صحيفة « أخبار جمهورية الأدب » يتعلق بالمسرحيات أو القصص أو الأشعار ، وبمثلها فى ذلك « المكتبة العالمية » . وإذا كانت صحيفة « تاريخ مؤلفات العلماء » قد شرعت تخصص حيزاً للأدب ، فهى إنما تفعل ذلك فى انطواء وخجل . حقا ، إننا سنرى تقدما ، وسنرى الاستعلام يزداد على مر السنين ، بازدياد ثروة انجلترا من الأدباء ذوى الموهبة والعبقرية ، بيد أن الذى كان يهم تلك الصحف قبل ١٧١٥ لم يكن الأدب بل التفكير . إن هؤلاء الصحفيين من خريجى المدارس الأكايركية البروتستانتية ؛ فلا يكادون يسمعون أحداً يتحدث عن الأخلاق أو المذاهب حتى يبلغ بهم التأثر كل مبلغ ، فتلك هى اللغة التى درسوها فى مجامعهم ، وبذا يتذكرون علوسهم وتفكيرهم ، ويجدون علة كيانهم leur raison d'être . فيشرعون اليراع وينكبون على الكتابة فى تلك الموضوعات المألوفة لهم . ولا يذهبن بنا الظن إلى أنهم هواة فن ، يبادرون إلى كشف روائع الجمال ليقدروها كفنانين ، فما كان لهم بالجمال اهتمام . أما ما يثير فيهم الوحى والالهام فهو روائع أرنو ونيكول M. Arnaud, M. Nicole وتفسير ريشارد سيمون ؛ وفيما يخص الانجليز أبحاث اسحاق بارو Barrow ، وتوماس براون ، جلبرت بورنت G. Burnet ، وهنرى دودويل Dodwell . وبينهم وبين أولئك المؤلفين قياس مشترك : إنهم يفهم بعضهم بعضا ، ويتفاهمون حتى فى غمار المجادلة الشائقة ، خبزهم اليومى . فمذهب

جالسينيوس(١) أو مذهب مولينا (٢) ، الاختيار أو القدرية ، والعناية الالهية أو القضاء والقدر ، ذلك كان مجالهم . وقاعدة «الوحدات الثلاث» (٣) تبدو لهم أقل أهمية من التفسير الفلسفى للعالم . وهم ليسوا جوابى أرض بفطرتهم ، بل ينتمون إلى طائفة أخرى غير طائفة السائحين والشاردين : طائفة ذات همة وحمية ، تضم مفسرى الكتب المقدسة ، وآباء الكنيسة ، والملحدين ، وفلاسفة النهضة ، وقادة الانقلاب الدينى ، وقضاة محاكم التفتيش ، وأعضاء مجمع ترانت ، والأحيـاء الذين يهاجمونهم ، كالأب مامبورج ، وفرانسوا لامى ، وبوسويه : طائفة اللاهوتيين .

كانت المهمة الأولى لصحفيى هولاندا ، أن يعملوا على احتفاظ الروح التى تحرك الاصلاح الدينى بقوتها وحيويتها . إنهم يواصلون عمل آبائهم الهوجونوت، مضاعفين إياه ، ومضفين رنة جديدة عليه ، بيد أنه لا فرنسا ولا روما يخفى عليهما ذلك ، وبالرغم من محاولات بايل لاجتذاب السلطات ، بل حتى مداهنة السلطة الملكية ، فقد صودرت صحيفته فى باريس وحرمت فى روما . هيا ننظر عن كثب إلى جان لى كلير Jean Le Clerc مؤلف «المكتبات» الثلاث : إنه رجل لا يفرغ . لا تموت صحفه إلا لتبعث من جديد ، ويتغير النـاشرون وهو يستمر ويسير ، تتراكم الكتب فيجد فى ذلك سعادته ، ويشكو التعب ويجد فى ذلك متعته . ويضيف إلى إنتاجه الصحفى كتلة من المؤلفات ؛ إنه يمثل نموذجا ، معهوداً فى ذلك الوقت ، نموذج العلماء الذين يقضون الليل فى الكتابة ، بعد ما كتبوا طوال النهار : وإلا فكيف يتركون مثل هذا العدد من الصفحات ، إذا لم يكن الأمر كذلك ؟ إن له مؤلفات عميقة فى العلم ،والنقد، والتفسير ، والفلسفة ، والتاريخ . وقد طبع ونشر إيرازم وجروسيوس ، وترجم

---

(١) مذهب جانسينوس : أنظر بيان ص ٣٩ .

(٢) لويس مولينا : يسوعى اسبانى ولد ١٥٣٥ فى كوينكا صاحب المذهب المولينى الذى يقول بالتوفيق بين النعمة الالهية والاختيار وهو مذهب حرمته الكنيسة. [المترجمان]

(٣) أى وحدة الحركة والزمان والمكان : قاعدة الأدب الكلاسيكى الفرلسى التى تقتضى أن تمثل المسرحية : ١) موضوعا أساسيا واحداً ؛ ٢) وتحدث فى مدى يوم واحد ؛ ٣) وفى بناء واحد أو على الأقل مدينة واحدة .

الكتاب المقدس . هذا فضلا عن أعمال أدبية مختلفة ، من كل نوع ، حتى مراجعة قاموس مور يرى . . .

ولكنه لم يتغير على طول الطريق الحافل بالنشاط . لم يكن جان لى كلير رجل أدب ، فان أسلوبه خال من كل المحسنات ، ويبدو كأنه لا يلتفت أبداً إلى جرس الكلمات ، قانعا بغزارة المعلومات . إنه يعلم ويؤثر . لقد درس فى جنيف حيث درج ، والتحق بجامعة سومير ، وخدم فى كنيسة فالون ، ثم فى كنيسة سافوا بلندن ؛ وأخيراً أقام فى أمستردام حيث كان خلال سبعة وعشرين عاما مدرسا للعلوم الفلسفية والانسانية وللغة العبرية ، بجامعة أرمنيوس فى هذه المدينة. « لقد درس ثلاثة أشياء : الآداب والفلسفة واللاهوت . . . » وأعنى بالآداب دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية ، أى معاونات الفلسفة واللاهوت . ذلك دأبه فى حياته ، وفى كتبه ، وفى مجلاته : يستغل كل ظرف ليتناول المسألة الدينية ويشرحها حسب طريقته . « كان يجهل سر اجتذاب الاعجاب ، وسر التعليم ، وهو مايفوق العلم بمراحل . . .(١) » . ذلك لأنه لم يجر وراءه ، إذ أنه لم يكن يريد — على حد قوله فى مقدمة مؤلفه « المكتبة القديمة والحديثة » — أن يسلى القارئ ، بل أن يعلم الحق والفضيلة .

وما كان الأمر يختلف فيما يخص الكتب التى تنشرها هولاندا بوفرة ؛ « لا يوجد فى الأرض كلها إلا عشر مدن أو اثنتا عشرة مدينة يطبع فيها عدد وفير من الكتب . ففى انجلترا : لندن وأكسفورد ، وفى فرنسا : باريس وليون ، وفى هولاندا : أمستردام وليدن وروتردام ولاهاى وأوترخت Utrecht ، وفى ألمانيا : ليبزج : Leipzig ، وليس هناك غيرها تقريباً (٢) . » خمسة مراكز للطباعة فى هولاندا ، بينما لم يكن فى انجلترا وفرنسا إلا مركزان فى كل ، تلك لعمرى نسبة رائعة . وكان فى أمستردام على ما يقال ، أربعمائة طابع أو ناشر. ولم يكونوا هولانديين فحسب ، بل منهم الألمان ، والفرنسيون ، والانجليز ،

---

(١) فولتير ، « عصر لويس الرابع عشر » ، جدول الكتاب الفرنسيين Voltaire, *Siècle de Louis* XIV .

(٢) شهادة مؤرخة ١٦٩٩ ، يذكرها ه . ج . ريسنك H. J. Reesink (انجلترا والأدب الانجليزى فى المجلات الفرنسية الثلاث الأقدم فى هولاندا ، ١٩٣١ ، ص ٩٣) *L'Angleterre et la littérature anglaise dans les trois plus anciens périodiques français de Hollande,* 1931.

واليهود . وكان بينهم ذو والعقول الممتازة ، الذين لم يقتصر اهتمامهم على الناحية التجارية ، لكن كان بينهم أيضا المزورون المنتحلون . فان « صحيفة العلماء » المؤرخة ٢٩ يونيو ١٦٨٢ تحتج على « انتحال لبعض أصحاب المكاتب فى أمستردام ، يتعلق بتزوير فاضح » . وذلك لأنها لم تكن قلدت فحسب ، بل شوهت فى هولاندا أيضاً . فيحتج بايل فى عام ١٦٩٣ قائلا « ذلك نهجهم ، فهم لا يعطون شيئاً للمؤلف ، لا سيما إذا لاح لهم إمكان لنشر الصورة فى باريس ؛ فهم يحتفظون بحق تقليدها هنا ، دون أن يكلفهم ذلك شيئاً بالنسبة للمؤلف . . . »

بتلك الوسائل ، كانت الكتب سريعة التكاثر : ما تجده منها فى أماكن أخرى ، وما لا تجده على الاطلاق . إن المنسوخات التى تتميز بشئ من الجسارة لم تكن لتجد ناشراً فى فرنسا ، إلا بفضل إغضاء السلطات ، الذى هو من طبع البلد ، وكان نشرها فى إيطاليا أشق وأصعب ؛ أما فى إسبانيا والبرتغال فكان المشروع ميئوسا منه تقريباً . وعلى العكس من ذلك كان الكتاب الذى تمنعه الرقابة وتصادره السلطات ، تتهيأ له فى هولاندا سبل الحياة ، ويجد الطابع والناشر اللذين يهيئان له سبل الانتشار ، والاشتهار . قال فنيلون عندما أرسل إلى بواتو ليعظ المهتدين الجدد ، إنه ينبغى أن ننشر لهم بحوثا فى تقريظ الكاثوليكية ، ممهورة بعلامة مزورة لمدينة من مدن هولاندا : فان تلك العلامة لابد أن توحى بالثقة إلى نفوس القراء ، الذين ما فتئـوا متأثرين بالروح البروتستانتى . أما أن كاثوليكيا مثل أرنو يسمح لنفسه بطبع مؤلفاته فى هولاندة ، فهذا ما يراه جوريو إهانة ، بل خيانة ؛ فقد كان يرى هولاندة أرض القديسين ، قلعة الله ، التى ينبغى أن تبقى محرمة على البابويين ؛ فلتبق لفرنسا كتب الكاثوليكية ، ولتكن لهولاندة كتب الاصلاح . لذلك كان للمتحررين الفرنسيين حسابات جارية فى لاهاى : حيث حرية الفكر مكفولة : وحيث يتحرر المؤلفون من طغيان المبادئ السياسية والعقائد الدينية ، فلم يكن بد من أن يتخذ منها كل فكر حر منهلا ومورداً .

وكانت الكتب المحرمة والكتب المصادرة والكتب الملعونة تدخل فرنسا الكاثوليكية تحت حكم لويس العظيم ، بطريق التهريب ، رغم كل ما اتخذ على الحدود من تدابير ، وكانت تخفى بين أمتعة المسافرين ، وتمر عن طريق مدن الشمال أو ثغور الأنش ، حتى تصل إلى باريس ، فاحتج المدافعـون عن

الأورثوذكسية ، كما كان متوقعاً . لقد عرف محررو « مذكرات تريفو(١) » *Les Mémoires de Trévoux* وكانوا خير حفظة عليها ، أن رقابتهم الساهرة كثيرا ما تنخدع . « عنوان مؤثر جليل ، وورق مصقول ، وحروف جميلة وصور لطيفة ، تلك زينة الكتاب ، وهى دائماً رائعة فى هولاندا . وإنه لشعار جميل وإن كان لا يدل دائماً على جودة البضاعة ، وذلك شأن ما يرد عن هذا البلد بطريق التهريب(٢) » . ويقول بوسويه Bossuet « أتانا من زمن قريب من هولاندا كتاب تحت عنوان : « تاريخ نقدى لأهم مفسرى العهد الجديد » *Histoire critique des principaux commentateurs du nouveau Testament* للقسيس ريشار سيمون R. Simon . وهو أحد الكتب التى لا تستطيع أن تلقى تأييداً فى الكنيسة الكاثوليكية ، وبالتالى لا تجد تصريحاً لتطبع بيننا ، ولذا فهى لا تستطيع أن تظهر إلا فى بلد يسمح فيه بكل شئ ، وبين أعداء الايمان . ومع ذلك ، فبالرغم من حكمة الحكام ويقظتهم ، فان تلك الكتب تتوغل بيننا رويداً رويداً ؛ إنها تستشرى ، فان الناس يتبادلونها سراً ، وما يجعلها جذابة مرغوبة ، هو كونها نادرة ، غريبة ، مطلوبة ، أو الأحرى كونها ممنوعة . . . (٣) »

ولم تنفرد هولاندا وحدها بنشر كتب عدائية ضد لويس الرابع عشر وضد روما ، فقد كانت سويسرا وألمانيا تنتجان مثلها ، ثم انجلترا حيث كثرت تلك الكتب ، لأن الانجليز ، كما يقول ريشار سيمون ، بحاث عظام فى ميدان الدين . حتى إن الأتورودكسية أصبحت تكتنف فرنسا ، من جنيف إلى لندن . وكان الدور الذى أنيط بالهولانديين ، وأكثر منهم بالهوجونوت الفرنسيين اللائذين بهولاندا ، أن يدخلوا تلك المشاعر وتلك الأفكار المتمردة حتى قلب فرنسا نفسها .

وكان الشقاق يستفحل . قال فنيلون « يا له من حكم قاس بالانفصال ، أوقعه الله على الأرض فى القرن السابق ! فان انجلترا ، بتحطيمها رابطة الوحدة

---

(١) مذكرات تريفو : مجلة أدبية انتقادية أسسها اليسوعيون فى فرنسا (تريفو) للمجادلة ضد المدرسة الفلسفية. [المترجمان]

(٢) فبراير ١٧١٩ ، المادة الخامسة عشرة .

(٣) دفاع عن تقاليد الكنيسة وعن الآباء القديسين ، مقدمة (طبع لاشا ، ص ٨)

Défense de la tradition et des Saints Pères, Préface, Ed. Lachat, p. 8.

المقدسة التى تستطيع وحدها أن تكبح جماح العقول ، قد أوقعت نفسها فى وهم كبير . إن ألمانيا والدانمرك والسويد وشطراً من هولاندا ، فروع اقتطعها السيف المنتقم ، ولم يعد لها بالشجرة القديمة أى اتصال . . . (١) » . ولم يكن لفسخ أسر نانت من أثر إلا أن يزيد حكم الانفصال قوة وبريقاً . لقد سجل إحياء محالفة فكرية أخلاقية لن يبطل لها نشاط ، حتى عندما توقع جيوش أوربا عهد السلام . قال ليبنتز « الآن ، يواجه الشمال كله تقريباً جنوب أوربا ، إنه الشطر الأكبر من الشعوب الجرمانية فى مواجهة اللاتين (٢) » . والواقع أن الاصلاح الدينى ، الذى يبدو منهزماً فى فرنسا ، كان فى خارجها أشد قوة وأتم وحدة . ولقد قال بوسويه « إن الاصلاح الدينى الذى تدعونه ، إذا قدرنا القوة التى تسنده من الخارج ، لم يكن فى يوم من الأيام أكثر قوة ووحدة . إن كل الأحزاب البروتستانتية تتحالف . . . فى الخارج يبدو الاصلاح أعظم وأخطر مما كان فى أى يوم من الأيام (٣) » . الاصلاح الدينى أو مذهب كالفين على وجه التحديد .

ذلك لأن مذهب لوثر ، فى الواقع ، « منزو منعزل فى الشمال (٤) » ، فهو ينطوى على نفسه ، قانعاً بحركة محلية محدودة ، فانه ليس مقوداً نحو الفتوحات الكبيرة بفضل دولة منتصرة ، ولما كان ينقصه الطموح ، فانه تعوزه المرونة . هذا بينما مذهب كالفين ، ينتقل مع انجلترا من نصر إلى نصر . وقد نشر جون لوك فى عام ١٦٩٠ بحثين يؤيد فيهما تولى رجل مقاليد الحكم تأييداً نظرياً ، وهذا الرجل هو وليم أورانج الذى قد يعد أكبر ممثل لمذهب كالفين فى أوربا ؛ ولهذين البحثين مقصد هو أن يكونا القانون الجديد للسياسة الحديثة : وهما يستلهمان وحى جنيف (٥) ، الذى

---

(١) فنيلون : موعظة لمناسبة « عيد الظهور » ٦ يناير ١٦٨٥ ، Fénelon, *Sermon pour la fête de l'Epiphanie* .

(٢) ليبنز : فى رسالة إلى بوسويه ١٨ أبريل ١٦٩٢ Leibniz, *à Bossuet*, 18 avr. 1692.

(٣) بوسويه : الاخطار الأول إلى البروتستانت ١٦٨٩ ، Bossuet, *Premier avertissement aux Protestants* .

(٤) الأب مامبورج : ، تاريخ مذهب لوثر ١٦٨٠ ، ص ٢٦٨ ، Le P. Maimbourg *Histoire du Luthérianisme* .

(٥) لأن جنيف — كما يذكر القارىء — كانت ملجأ لكالفين بعد فراره من فرنسا ، حيث أنشأ جامعة كبيرة لمذهبه . [المترجمان]

يشفان عنه بوضوح ، يزخرفهما سحر الانتصار الأخير . وقد كان أساتذة جون لوك وأصدقاؤه فى انجلترا وفى فرنسا وفى هولاندا من مذهب كالفين ، وكانت أفكاره و براهينه مستمدة من مطالعاته فى هذا المذهب ، وهو بالطبع يضاعف من قوتها بعدة مقتطفات وبيانات من الكتاب المقدس ؛ و إن رفضه الخضوع للتحكم والاستبداد ، بلا قيد ولا شرط ، لهو عين الرفض الذى واجهت به الجمعيات الكالفينية فى القرن السادس عشر ، الأساقفة والأمراء الظلمة . إن مذهب كالفين يمثل هنا حرية الضمير ، المنقولة إلى ميدان السياسة . حتى إن دخوله فى خدمة الدولة الانجليزية لا يسلبه هذه الميزة . إلى هذه الدرجة تبلغ حيوية الذكرى التاريخية للكفاح الذى واصله فى الدفاع عن مبدئه ، و إلى هذه الدرجة يتضح سوء استعمال السلطة الذى ارتكبه لويس الرابع عشر باسم الحق الالهى للملوك .

هنا أيضاً تتأيد ، وتظفر بأسباب المجد ، نتائج الاتفاقية التى سبق أن عقدت فى جنيف بين الرأسمالية والدين . ففى الوقت الذى تزداد فيه هيبة انجلترا التى تستولى رويداً رويداً على التجارة العالمية بعد هولاندا ، تزداد هيبة الدين ، الذى لا يخالفها بل يعزز نشاطها العملى . لأن الواقع أن الدين الكاثوليكى فيه على حد قول أحد المعاصرين ، نوع من القصور الطبيعى تجاه الشئون والأعمال ، بينما البروتستانت على النقيض ، يمتازون بحمية تعزز ميلهم إلى التجارة والصناعة ، ولا غرو فانهم يرون الكسل غير مشروع (١). ها هو ذا التاجر يسير ، ملبياً قراراً سماوياً قطعياً بأن يباشر عمله أو بمعنى أصح مهمته ، مختاراً منذ الأزل للبيع والشراء كما اختير غيره للكتابة أو للتبشير ، مباشراً نفس الفضائل التى تتطلبها المشيئة الالهية ، ولنجاح تجارته معاً : النشاط والضمير والاحتياط والتوفير . يسير ليحتل فيما بعد فى المجتمع الأوربى ، مكانة تزداد رويداً رويداً قوة وأهمية ، وينتقل بغير ندم أو تبكيت ، ودون تردد أو وخز ضمير ، من خزانته إلى معبده ، مرفوع الجبين ، واثقاً بأداء واجبه المزدوج ، فخوراً بتأسين مكانه الحاضر على أديم الأرض ، وضمان مكانه المستقبل فى عليين .

(١) مذكور فى كتاب ر . ه . تاونى «الدين ونشأة الرأسمالية» ، لندن ١٩٢٦ ، مقدمة
Cité par R. H. Tawney, *Religion and the Rise of capitalism*; Londres, 1926 Préface.

إنه انتقام الكالفينية : هكذا يتميز ، جزئياً على الأقل ، تبدل السلطة الذى يعتمل من الجنوب إلى الشمال .

***

ولكن ألا نستطيع أن نتصور شقاقاً ، ينظم على مر السنين ، حتى يشيد فى ثناياه دعائم وحدة من جديد ؟ ألا نستطيع أن نتصور نوعاً من الاعتقاد ، مهما تعارض مع الكاثوليكية ، لا يقبل أى استثناء ؟ أو بالاختصار أورثوذكسية بروتستانتية ؟

إنها أمنية ، بل إرادة طالما تبدت خلال سنين الكفاح وما فيها من بلبلة واضطراب . لقد أحس الناس خطر التفكك والانحلال ، ورأوا عاقبة الميل إلى تقسيم الكنائس مجتمعات صغيرة ، حتى لا تجد أخيراً إلا أفراداً منعزلين ، يناصب بعضهم بعضاً العداء . لقد حكموا بجمع الشمل والاتحاد ، بالاشتراك فى قانون واحد ، ولم لا ؛ ما داموا قد عرفوا كيف يتحالفون ضد العدو الخارجى ، ضد المذهب الكاتوليكى ؟ ولقد وضعوا صيغاً معلنين أنه لا سلام خارج هذه الصيغ . وعمل الناس فى انجلترا فى هذه السبيل ، ولعل النشاط فى هولاندا كان أوفر ، لأن قدوم عدد كبير من القساوسة الفرنسيين وضع على عاتقها جديداً من المهام . إقرار « أرثوذكسى » بالدين البروتستانتى : ذلك على التحقيق ما أيده مجمع دوردرخت ، وعرضه على القساوسة البروتستانت للاعتماد فى أبريل عام ١٦٨٦ ؛ فليختاروا ما بين التوقيع عليه أو الخروج من الكنيسة الجديدة . وقد عملت المجامع التى تلته على الاحتفاظ بالمبادئ ، فاستدعت المنشقين للمحاكمة ، وحرمت كثيرين من المائدة المقدسة ، وأوقفت بعض القساوسة . وكانت أحكامها لا تكاد تقل شدة عن أحكام الكنيسة الرومانية ، التى كانت تبغضها . « إن الجمعية الحريصة كل الحرص على الاحتفاظ بالأرثوذكسية ووحدة المشاعر بين أولئك الذين عليهم أن يبشروا بمذهب الحقيقة ، وبإنجيل السلام ، والمعنية كل العناية بفحص التدابير الحقة التى ينبغى أن تتخذها لاتقاء المستحدثات الخطرة ، وبعد التوجه بالدعاء إلى الله لهذا الغرض ، قد قررت طبقاً للوائحنا القديمة ، ألا تقبل بيننا قسيساً ، إلا إذا أكد لنا اتفاق شعوره مع إيماننا على على وجه التعميم ، ومع مبادئ مجمع دوردرخت على وجه التخصيص ، فضلا عن

خضوعه لكل أحكام لنظامنا . . . (١) » . وكان جوريو Jurieu صورة من قضاة محاكم التفتيش : يحتج بل يرعد ضد المذنبين فى مسألة الضمير ، ولا يتورع عن مقاضاتهم أمام السلطات المدنية ، مطالباً بعزل وسجن أولئك الذين لا يشاركونه فى التفكير . « حفظنا الله » ، يقول بايل Bayle الذى جره جوريو أمام قضاة أمستردام ، والذى فصله من وظيفته ، « حفظنا الله من محاكم التفتيش البروتستانتية ، إنها ستصبح فى مدى خمس سنين أو ست من الفظاعة بحيث نناجى الكنيسة الرومانية لجوانا لشئ حبيب . . . (٢) »

ولكن الخطر لم يكن هنا ، فان كل ما كانت تستطيع انجلترا أن تفعله فى ظل وليم أورانج بازاء المنشقين ، لم يكن توحيدهم بل التسامح معهم : إذ تشترط عليهم ارتضاء سياستها مقابل حريتهم الدينية ؛ فهى ، إن لم تكن تسمح بالكاثوليكية ، التابعة لروما ، فانها كانت تسمح بمخالفة الانجليكية ، التى تعتمد على نفسها . أما عن هولندا فلم تكن سوى خلية من المذاهب ؛ منها ما ظهر منذ أولى خطوات الاصلاح ، ومنها ما نما فى إبانه ، فأقدم المذاهب وأحدثها ، بل كل المذاهب تجتمع فيها ، وتقف وجها لوجه . أشياع أرمينيوس وجومار (٣) Arminiens, Gomariens ، والقائلون بالتثليث ومخالفوهم Trinitaires et Antitrinitaires ؛ كل المعتقدات المذهبية ، كل ألوان الاعتقاد عن النعمة الالهية ، وعن الكتب المقدسة ، وعن حقوق الضمير ، وعن التسامح ، وحتى عن طبيعة السلطة المدنية ، توقع الأحزاب الهائجة ، الثائرة ، بعضها فى بعض . وكانت المعركة مستعرة لا يخمد لها أوار ، ولا يقتصر السبب على

---

(١) مقتطفة من المواد المقررة فى مجمع كنائس فالون بهولندة ، المنعقد فى روتردام ١٦٨٦ — المادة السادسة ، ذكرها فرانك بيو فى كتابه « الممهدون للتسامح الدينى فى فرنسا فى القرن السابع عشر ١٨٨١ — أنظر نفس الكتاب » مباحثات مجمع أمستردام ١٦٩٠ ، Extrait des articles résolus dans le Synode des Églises wallonnes des Pays-Bas, assemblé à Rotterdam (1686) Article VI. Cité par Frank Puaux, *Les précurseurs de la Tolérance en France au XVIIe Siècle*, 1881.

(٢) رسالة بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٦٩١ .

(٣) Arminius : لاهوتى بروتستانتى هولاندى (١٥٦٠ - ١٦٠٩) مؤسس مذهب أرمينيوس ، الذى يلطف من لظريات كالفين عن « القدرية » . وجومار لاهوتى بروتستانتى ولد فى بلجيكا (١٥٦٣ - ١٦٤١) ، من أشد أتباع كالفين تعصبا ، وكان بينه وبين أرمنيوس جدال شديد . [المترجان]

لخلاص الأذهان الصعبة المراس ، التى تريد الدفاع عن حقيقتها بأى ثمن ولا على لذة وفائدة الجدال الذى يدفع النور إلى الانبثاق «كارتطام الحجر الذى يحول المادة المعتمة والكامنة فى جسم جامد إلى شرارة » ؛ بل يتعدى ذلك إلى نفس المبدأ الذى يكمن فى عبقرية البروتستانتية . .

إذا كانت البروتستانتية فى مختلف مظاهرها ، تتضمن حقيقة عصيان الضمير الفردى ضد تدخل السلطة فى مسائل الايمان ، فبأى حق إذن تفرض سلطة نفسها على الضمائر ؟ من ذا الذى يعين النقطة التى تقف عندها الأرثوذكسية، والتى تبدأ عندها الأثوردكسية ؟ إن القول باسم البروتستانتية بأن هذه النظرية أو تلك فى صدد الاختيار والقدرية عقيدة مذهبية ، ومن باب أولى القول بأن للحاكم الحق فى استعمال سلطته لهدم الوثنية وإيقاف تقدم الكفر ؛ القول بأن رجلا له الحق فى أن يمنع رجلا آخر من أن يمارس تعليمه أو تبشيره ، أو حتى من أن يعتقد بما يمليه ضميره : إن ذلك لهو اللامنطقية المحضة .

من هنا كان عدم اقتدار المجامع الدينية على جمع القساوسة والمؤمنين سواء فى كتلة خاضعة ، وعجزها عن منع تكاثر المذاهب ، وعن إيجاد الكلمة التى توقف روح البحث عن نشاطه الذى لا يعتريه كلال .

وإنك لتجد لفظاً يتكرر تكراراً خاصاً فى المجادلات اللاهوتية لذلك العصر: السوسنيانية le Socinianisme (١) . وهو فى أولى خطواته سروق فوستو سوزينى

(١) المذهب السوسينى أو السوسنيانى Socinianisme : هو فى الأصل مذهب قديم ظهر فى القرن الرابع بعد المسيح فى عهد الامبراطور قسطنطين . اشتهر باسم الاريانية نسبة إلى صاحبه أريوس ، القسيس بالاسكندرية . وهو مذهب ينكر ألوهية المسيح وسر التثليث ويعترف برسالة المسيح وبأنه كلمة الله . وقد لقى نجاحا موقوتا فى عهد قسطنطين ثم فشل بعد حكم مجمع القسطنطينية فى عام ٣٨١ . وفى منتصف القرن السادس عشر عاود الظهور فى أوروبا تحت اسم « السوسنيانية » وكان من أصحاب هذا المذهب ليليوس سوسان ، باروثا ، أوشين ، جنتليس ، وسرفى . وقد حكم بالاحراق على كل أولئك المتحررين ماعدا فوستوس سوسان ، ابن عم الأول ، الذى استطاع الفرار إلى المانيا مع بعض رفاقه . وانتشر هذا المذهب منذ ذاك الوقت فى هولاندا وفى أرجاء أوروبا حتى ظهر فى انجلترا فى قوة ونضرة ليس لها نظير . وانضم إليه كبار الفلاسفة الانجليز مثل نيوتون ولوك وكلارك . . . فولتير : القاموس الفلسفى Voltaire, *Dictionnaire Philosophique* (Arianisme) الجزء الأول ، باب « أريانيزم » ؛ ورسائل فلسفية *Lettres Philosophiques* ، الرسالة السابعة عن سوسان . [المترجم]

F. Sozini ، ظهر أول ما ظهر فى بولونيا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر . وقد طرد أشياع سوسان من بولونيا فالتجأوا إلى بروسيا وفرنسا ووجدوا فى هولاندا أرضهم المختارة . وهناك تتشكل جمعية الاخوان البولونيين ، حيث ينشر حفيد سوسان المدعو « ويزواتى » Wiszowaty فى عام ١٦٦٥ كتابه Religio rationalis « الدين المنطقى » ، وهو كتاب يتضمن مبادئ المذهب .

وفى هذه النقطة يتقوى تيار نهر السوسنيانيـة برافد فرنسى ؛ إذ يقدم القسيس إسحق دى ويسو Isaac d'Huisseau فى عام ١٦٦٩ كتابه « اتحاد المسيحية » ، مقترحا تطبيق الاصلاح الذى اهتدى إليه ديكارت فى الفلسفة ، على الدين: لن يصدق الناس شيئاً فيما بعد ، ما لم يجدوه مشروحا فى الكتاب المقدس بوضوح ، ولن يحتفظوا إلا بالحقائق البسيطة العالمية المسطرة فيه ، والتى تتفق مع مبادئ المنطق . فلا تقاليد إذن ، أو لا كنيسة صراحة ؛ الله والكتاب المقدس والضمير الفردى ، لا شئ غيرها ولا مزيد عليهـا . ويثور الجدال فى كل الكنيسة الفرنسية المستصلحة حول هذه المبادئ ؛ إن الاضطهاد والنفى لم يوقفا الانقسام بل زاداه حدة . وترى بابون Papon صهر اسحق دويسو يقبل الالحاد ، وتجد أتباعه ومخالفيه يتقاتلون . إن المجمع الذى يقاوم تقدم الروح السوسنيانى ليس له وجود .

وإذا صح أن هذا المذهب قد وهن من جهة كونه مذهباً ، وأنه « انكمش فى الظاهر » ، فانه قد تكاثر « خفية » : فان مبادئه الفتية المتفشية تتوغل فى الضمائر ، وتدفعها إلى إبدال الروح الدينى بالروح المنطقى .

ويعد ، فما معنى السوسنيانية ؟

عند بوسويه أن مبدأ السوسنيانية الأساسى ، هو أنه ما من أحد يستطيع أن يجبرنا على الاعتقـاد بما لا ندركه بوضوح . ويقول بواريه Poiret : Socinianismus finem et scripturam subjicit rationi : المذهب السوسنيانى يخضع الكتاب المقدس للعقل ؛ ويقول بوفندورف Pufendorf إن السوسنيانيين لا يجعلون من الدين المسيحى إلا فلسفة أخلاقية صرفة . وكان جوريو سهووسا بالسوسنيانية يراها فى كل مكان ، ولا ريب فى أنه لا يخطئ فى ذلك كثيراً ، فان هذا الميل العام نحو المنطقية كان كبيراً . وهو يقول إن السوسنيانيين يرون أنه لا فرق بين دين ودين . وإنهم ينكرون الأسرار: بينما الشعور

بالسرية هو جوهر الروح الدينى . . . بيد أن أخطر ما سطر هو ما كتبه ريشارسيمون فى صدد الحكم الصادر على دى ويسو « إن القطيع الصغير ، أراد بمعاملته القاسية للقسيس دى ويسو أن يتهدد ويتوعد عدداً كبيراً من القساوسة الذى يشاركونه مبادئه . ولقد أبلغ قراره هذا إلى عدد من قساوسة المقاطعات الذين أيدوه ، ولو أنهم لم يلجأوا إلى هذه الشدة ، لقضى الأمر بالنسبة لمذهب كالفين فى فرنسا ؛ ولكان أذكى أتباع هذا المذهب أعلنوا صراحة أنهم أرمينيون ، بل ربما سوسنيا نيون . ولكنهم اكتفوا بأن يكونوا سوسنيانيين فى دخائلهم ، وألا يفصحوا عن ذلك إلا لأصدقائهم الأخصاء ؛ إن خشية فقدان وظائفهم قد دفعتهم إلى إتخاذ هذه الطريق . فهم لم يصدقوا على إقرارهم الدينى إلا لأسباب سياسية ، مقتنعين بأن كالفين وغيره من دعاة الاصلاح الأولين ، لم يقوموا بالاصلاح إلا جزئياً . . . (١) » . وإنها لصحيفة من الكراهية والافتراء ، ولكنها على الأقل تبين بوضوح ، الواقع الذى استشفه ريشار سيمون بثاقب بصيرته : وهو أن الاصلاح يستمر فى الاستصلاح .

ويستعر الجدال بين قساوسة هولاندة وألمانيا . ويكافح القساوسة المشتتون فى لندن ضد المذهب السوسنيانى الذى عبر البوغاز . وكل جهد يبذل لتوحيد مذهب كالفين ومذهب لو تربطريقة أو بأخرى ، — غير ما يجمعهما من وشائج القربى — لجمع الكنيستين فى إقرار دينى واحد ، يضيع هباء ويبقى بلا جدوى .

وهكذا وجد الكاثوليك مسلاتهم فى القول بأن البروتستانت منذ ماخرجوا على الكنيسة الرومانية ، دخلوا فى قصر التيه . وبالمثل ، استطاع بوسويه أن ينشر فى عام ١٦٨٨ كتابه « تاريخ تغيرات الكنائس البروتستانتية » ، *Histoire des variations des Eglises protestantes* ، لكى يثبت أن تلك الكنائس قد تغيرت فى الماضى ، وأنها تتغير بلا انقطاع ، وأن جوهرها بالذات هو التغير . إنها تتفتت من جزء إلى جزء حتى لا تعود إلا ترابا . . . من المحال أن تجمعها ، من المحال أن تكبحها ، مادامت كل واحدة منها لها نفس الحق فى الحياة . إنها تنتج كلها من نفس مبدأ البحث الذى يتطلب التغير والتحول من فحص إلى فحص . ذلك يفسر وفرة الاقرارات الدينية التى لايسع المؤرخ

---

(١) ريشارسيمون : رسائل منتخبة ، الجزء الثالث ، Richard Simon, *Lettres choisies*, t. III, 3

إلا أن يسجلها ، كما يفسر عقم المحاولات التى جرت فى سبيل مصالحة تلك الطوائف التى من طبيعتها أن تسير فى طريق الانقسام .

***

نستطيع أن نرد على بوسويه مهاجمين وقائلين إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها لم تسلم من التغيير ، وهو ما فعله جاك باناج بين عدد كبير من معارضيه . كما نستطيع أن نرد عليه بأن الكنيسة البروتستانتية لم تتغير ولم تتحول عن مبادئها الأساسية ، وهو مافعله جلبرت بيرنت .

بيد أننا لا نرى فى أقواله هذه اتهاما ، بل شرفا ، ونحن لا نعتبر روح البحث إلا كامتياز للانسانية ، التى لا تتلقى الحقيقة من السماء ، بل تعمل جاهدة على كشفها ، وعلى توطيد دعائمها بنفسها (١). ولو أننا لاحظنا خطر السلطة الزائدة عن الحد أو الحرية الزائدة عن الحد ، لاخترنا الثانية طواعية، إذا لم يكن بد من الخطر .

يتعرض جان لى كلير فى مجلته « المكتبة المنتخبة » عام ١٧٠٥ ، لهذه المسألة ، وبنفس الألفاظ تقريباً . ما أكثر الكفار حوله ! كثير من الكتب التى يذكرها فى مجلته تحاول مناقضة الكفر: وهذا دليل على أن الكفر قد أخذت خطورته تستفحل . بالأمس لم يكن الناس يفحصون ، ولم يكن يساورهم الشك فيما يلقنهم « الأساتذة » ، بل كانوا يبنون أحكامهم على كلامهم . أما اليوم فقد انعكست الآية ، واختلفت العادة ، فلم يعد الناس يثقون بالسلطة . فهل ينبغى أن نفضل الحالة الأولى ؟ — جان لى كلير لا يتردد . إن عدم التصديق شر ، ولكن الميل إلى تصديق كل شئ بغير بحث أو فحص شر أرذل، فهو يتأتى من حماقة العقل ومن عدم اكتراث بالحقيقة . إن شعبا فيه كثير من النور وقليل من الكفر ، لخير من شعب يسود فيه الجهل ولا يساوره الريب فى المشاعر الموروثة . فان النور يفئ الفضيلة ولو أساء البعض استعماله ، بينما الجهل لا ينتج إلا البربرية والرذيلة .

---

(١) أنظر ، ا . ريبليو ، بوسويه مؤرخ البروتستانية ، الطبقة الثالثة ١٩٠٩ ، ص ٥٧١ ، A. Rebelliau .

أزمة الضمير الأوربى

إن الفكرة التى يعبر عنها جان لى كلير الأرمنيوسى ، السوسنيانى ، هى التى ستسود فى مستهل القرن الثامن عشر . لقد مضى الوقت الذى فرض فيه ديكارت على نفسه طواعية ، قيوداً للحيطة ، لما شعر أن مبدأه سيدفع به إلى أبعد الحدود : « أولها طاعة القوانين والعادات فى بلادى ، واحتفاظى دائما بالدين الذى تفضل الله فعلمنيه منذ طفولتى ، والسير فى كل ميدان آخر حسب المعتقدات الأكثر اعتدالا والأبعد عن المغالاة ، والتى يتقبلها عموماً فى الحياة العملية ، أعقل الناس ممن سأعيش بينهم . »

ولقد أتى وقت الأثوردكسية ، كل أنواع الأثوردكسية ، وقت المتمردين والعصاة ، الذين تكاثروا فى عهد لويس الرابع عشر فى الظلام ، مترقبين إشارة التحرير ؛ وقت العلماء الذين سيرفضون تقبل التقاليد بغير رقابة ولا تمحيص ، وقت أتباع جالسينيوس الذين يؤججون شعلتهم التى لا ينطفئ لها ضرام ؛ وقت أنصار الخشوعية (١) piétisme من كل شاكلة ؛ وقت المفسرين والفلاسفة ؛ وقت بيير بايل .

---

(١) الخشوعية : مذهب بروتستانتى يقوم على التنسك والزهد وينادى بكنيسة عالمية تشمل كل المؤمنين . [المترجمان]

الفصل الخامس

بيير بايل

ينحدر بيير بايل من مقاطعة فوا Comté de Foix ، فهو جنوبى فر إلى الشمال ، مثله فى ذلك مثل الكثيرين ، الذين أتوا إلى هناك بنشاطهم الذهنى ، وميلهم للأفكار ، ومتانة خلقهم ، وحيويتهم التى لا تصدق . وكان بروتستانتيا ، أبوه من قساوسة هذا المذهب ؛ درس اللاتينية واليونانية فى مدرسته ، ثم أكمل دراسته فى مجمع بيلورانس . بيد أنه توقف فى بداية الطريق الذى اختطه ، والذى سيدفعه إلى أبعد الميادين ، التى يبقى فيها وحيداً بلا رفيق ، سابقاً جميع أقرانه ؛ وهو الطريق الذى سنتبعه فيه ، لكى نبين مراحل تفكير يبدأ بالدين وينتهى إلى حالة قريبة من الشك الخالص : فلما كان قد قرأ كتبا عن الجدال ، فقد اعتنق الكاثوليكية ، ثم تابع دراسة الفلسفة فى جامعة الجيزويت فى تولوز؛ ولما جعلت « التأثيرات الأولى لتربيته تتغلب عليه ، (١)» انضم إلى كنيسة الاصلاح ، سعيداً سعادة المقيم فى القطب الشمالى تطلع عليه الشمس ؛ ثم ذهب إلى جنيف فى عام ١٦٧٠ . « لقد كان وقتاً كنت أجيد فيه المناقشة ، إذ كنت حديث التخرج فى مدرسة لقنت فيها المشاكسة المدرسية القديمة ، وأستطيع أن أقول فى غير زهو إنى كنت أجيد استعمالها (٢) ».

خطوة أخرى ، وينتقل بايل من أرسطو إلى ديكارت . فقد ألقى محاضرة فلسفية حينما عين أستاذاً فى مجمع سيدان ، تظهره لنا من أشياع التفكير الواضح والبداهة العقلية . على أن هذه الميول ليست دائما خلواً من روح التبشير . ترى هل كان يقنع بتدريسه ؟ وهل يكرر عاما بعد عام دروسه المملة ؟ ذلك

---

(١) رسالة بايل إلى بنسون دى ريول ، روتردام ، ٢٠ يونيو ١٦٩٣ ، *Bayle à Pinson de Riolles*.

(٢) رسالة بايل إلى باناج ، ٥ مايو ١٦٧٥ ، *Bayle à Basnage*.

أمر ليس قريب الاحتمال . لقد أرسل من سيدان إلى « مجلة العلماء » رسالة عن المذنبات والنبوآت ، خشى المحرر أن يقبلها ؛ بيد أن هذه الرسالة أصبحت علامة ساطعة لتحرره من قيود التدريس ، بعد أن تناولها ببعض التصحيح والتهذيب ، وزاد فى حجمها زيادة كبيرة ، ونشرت فى عام ١٦٨٢ .

كان بايل يستشعر نداء فى دخيلة نفسه ، وكان البحث والفحص من مقتضيات طبيعته ، يزن فى كل شئ ما له وما عليه ، ولا يقبل شيئاً إلا بعدحكم سابق من محكمته الذاتية . ولما أغلق مجمع سيدان لأسباب دينية ، وبعدما بحث عن وسيلة يكسب بها قوته ، غير عارف ماذا سيفعل incertum quo fata ferrent ، دعاه سادة روتردام أولئك ، عارضين عليه وظيفة فى مدرستهم التى طبقت شهرتها الآفاق ؛ وهنا لستطيع أن نرى مصادفة عجيبة للعناية الالهية ولقواتها الحية ، على فرض أنه لا يزال يعتقد بها : سيظل يعمل مدرساً ليكسب قوته ، ولكن عمله الحقيقى ، أو الأحرى مهمته ، أو وظيفته ، أن يكون صحفياً ، ليقود الناس نحو الحقائق القاسية ، التى أخذت تجتذبه وتسحره بالفعل .

وينبغى أن نتخيله ، هناك فى روتردام فى داخل غرفته ، غيوراً وضعيفاً ، منعزلا ، مبتعداً عن الحياة الحسية : وقد تجد لديه عواطف عائلية قوية ، ولكنك لا تجد لديه حباً أبداً . وقد تجد كتباً كثيرة ولكنها لن تكفيه مهما كثرت . وقد تجد أخباراً أيضاً ، يزوده بها أصدقاؤه من مختلف عواصم أوربا رحمة به ! « إن نهمى إلى الأخبار لأحد الأمراض المستعصية التى لا يفلح معها دواء ، إنه استسقاء محض ، كلما أعطيته كلما ازداد طلباً وإلحاحا (١) » . أما الكتب ففيها شئ أدق ، فهى تمثل فكرة معينة ، نستطيع أن ندركها تمام الادراك ، إنها تهيج العقل وتدعوه إلى العراك : إننا أمام خصم قد أعد أدلته لمعركة منظمة ، فأى سعادة فى مهاجمته بالفرق السريعة من الأدلة والردود والأسباب ! فانك لتستطيع أن تصل إلى الكاتب من خلال الكتاب ، وأن تقول له ما يستحقه ، وأن تبين له فقره وعجزه . أما الرجل فلا يظهر إلا نتيجة للكتاب : إن بيير بايل يوجه ضد الكتب معاركه العظمى . منذئذ لا تحسب فى حياته

---

(١) بايل إلى مينوتولى ، ٢٧ فبراير ١٦٧٣ ، *Bayle à Minutoli*, 1673 .

أية واقعة ما لم تكن فكرية : إنه يقرأ ويكتب ويناقش ، ويجد « فى المطالعة من اللذة والتسلية ما يعادل ما يجده الآخرون فى دور اللهو والمقامرة » . إن شهوة العلم La libido sciendi تتملكه : يريد أن يعرف كل شئ ، لينتقد كل شئ .

وهو كصحفى لم يصل بعد إلى ذروة حرارته الجدالية : كتب إليه برنييه Bernier فى ١١ أبريل ١٦٨٦ يقول : «إننا نراك كالنبيذ الايطالي dolce piccante ولكننا بما نحن عليه من خبث نريد أن نراك piccante dolce (١) . ولقد التزم شيئاً من التحرز والتحوط، ولكن الروح العام لمجلة «أخبار جمهورية الأدب» *Nouvelles de la République des lettres* يتضح فى جلاء . فهى تدعو القارئ إلى التفكير فى أخطر الموضوعات : وحيث إنه ليس أخطر من أسباب الاعتقاد أو الارتياب ، فلتتواجه كل الأفكار بكل حرية ! ، ولتحتل مكان الشرف بين الأفكار ، تلك التى تركها الناس فى الظلام بمحض الاختيار ، فى حالة من التمرد والعصيان ! فلتأخذ الأثوردكسية المخنوقة بثأرها منذ الآن ! وليعبر عن رأيه كل إنسان ، وليكن لأجسر الآراء مظهر من المجد والجلال : « فليعرف أولئك الذين يتهامسون ضد تسامح كتب الملحدين ، أن ليست كل أنواع العقول ، تلائم ذوق محاكم التفتيش . » حتى الأورثوذكس ، على حد قول بايل ، يجب أن يواجهوا الالحاد بغير خوف : وإلا فهل يقبلون أن يشاد انتصارهم على الاستحالة التى يضعون فيها خصومهم لابداء ما لديهم من أسباب (٢) ؟

وكان بايل محموما بفطرته ، وهل كان يستطيع بغير حمى أن يتغلب على هذه الكتلة الهائلة من العمل ؟ كان يكتب النصوص ، ثم يجرى تصحيح الأصول ، ولم يكن هذا منشأ تعبه ، فلمداد المطبعة عبير عطر جميل ! وإنما تعبه يتأتى من القراء الذين لا يكتفون ولا يقنعون ، قراء يعطون فكرة صحيحة عن الحماقة البشرية ، بما يبدون من متعارض الآراء ، وباعتقاد كل منهم أنه

---

(١) dolce piccante : لذة حريفة piccante dolce : حراقة لذيذة . [المترجمان]

(٢) أخبار جمهورية الأدب . يوليو ١٦٨٥ ، المادة التاسعة . ملاحظات عن تسامح كتب الالحاد ، *Nouvelles de la République des Lettres*, Juillet 1685, art. IX. *Réflexions sur la tolérance des livres hérétiques*

على صواب ، مما جعل منشأ تعبه تلك الرسائل التى تفوق الحصر والتى كان ينبغى أن يسطرها كل يوم . ونحن حين نؤلف كتابا ، نتركه ثم نرجع إليه ثم نقرأ كتابا غيره ، فنجد تسلية فى تبديل العمل ؛ أما إذا كان لدينا رسائل ينبغى أن تكتب ، فلابد من أن نتعجل ، فنتعب ونكل . وقد عاش بايل على هذا المنوال مدة ثلاث سنوات ، من مارس عام ١٦٨٤ إلى فبراير عام ١٦٨٧ ، ثم كف عن العمل .

ولكن الطريق عاد فاجتذبه ودفعه نحو المر الفاصل . لقد وقف فى أول صف بين المدافعين عن البروتستانتية . وناقض الأب مامبورج بكلام مستفيض ، بالسيل الدفوق الذى يجرف كل شئ فى طريقه ، من براهين و إهانات . ولما زادت تدابير الاضطهاد ، ووقع فى يده كتاب وارد من فرنسا ، يمدح فيه مؤلفه لويس الرابع عشر ، على جعله المملكة كاسلة الكثلكة تحت سيادته(١) ، شرع اليراع من جديد(٢) : ليقول هو ، بيير بايل ، رأيه فيه : « لو أننا أدركنا قوة هذه الكلمة ومعناها الحالى ، لما حسدنا فرنسا على صيرورتها كاثوليكية تحت سيادة لويس العظيم ، لأن أولئك الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم قد سلكوا منذ أمد بعيد سلوكا يدفع إلى الاشمئزاز ، حتى إن الرجل الشريف ليعد تسميته كاثوليكيا وصمة عار ، فبعد أفعالكم فى المملكة الكاملة الكثلكة ، ينبغى أن يستوى من الآن قولنا الدين الكاثوليكى وقولنا دين الأشرار الخوان . »

نجد فى إنجيل لوقا ، فى الفصل الرابع عشر ، مثلا لصاحب الدار الذى أعد مأدبة لمدعوين معينين ، تخلفوا عن الحضور . فقال السيد لعبده : « اخرج عاجلا إلى شوارع المدينة وأزقتها ، وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى . فقال العبد يا سيد قد صار كما أمرت ، ويوجد أيضا مكان . فقال السيد للعبد ، اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول ...(٣) »

---

(١) فرنسا الكاثوليكية فى عهد لويس العظيم ، أو محادثات بعض البرتستانت الفرنسيين ١٦٨٤ .

(٢) رسالة مرسلة من لندن إلى الأب ... ورهبان ... عن فرنسا الكاثوليكية فى عهد لويس الرابع عشر . سان أومير ، ١٦٨٦ .

(٣) نقلا عن إنجيل لوقا ، الاصحاح ١٤ ، ٢١ ، ٢٢ . [المترجمان]

ألزمهم بالدخول ، Compelle intrare ، تلك هي الكلمة التي رددها القديس أوغسطين لالحاق الدوناتيين Donatistes (١) بكنيسة أفريقيا والتي نادى بها المبشرون الكاثوليك بدورهم ، للتدليل على صواب استعمال القسوة ضد البروتستانت . فقابل بايل أولئك بفورة من السخط الشديد ، تعدت شدتها كل ما سبق أن أبداه : لأن الأمر هنا يتعلق بأعمق ما في تفكيره وأعزه (٢) . أنستعمل القوة في مسائل الضمير ؟ يا للشناعة ! يا للفضيحة ! وينتقل بايل من سباب إلى سباب ، ومن استنكار إلى استنكار : — إن الكنيسة الرومانية التي تطالب لنفسها بالسلطة والعصمة ، والتي تريد أن تفرض على الأرواح قانون الأقوى ، والتي لا تتورع عن استعمال مبشرين أنصاف جنود وأنصاف وحوش ، ليست إلا امرأة سليطة ، بل بغياً فاجرة . لا لن يجمعنا بالكاثوليك قياس مشترك بعد الآن ، لأنهم يعودون دائماً إلى رطانتهم العتيقة ، قائلين نحن الكنيسة وأنتم العصاة ، فلنا الحق في أن ننزل بكم العقاب دون أن تستطيعوا إنزاله بنا : يا للادعاء الذي لا يطاق ! فلتبق أوربا في انقسام كما هي الآن ! اللهم لا توقع الشعوب التي تخلصت من ربقة روما تحت نيرها مرة أخرى !

وليست هذه بضمانات واهية القيمة لرفاقه بالمهجر ؛ وقد كان بايل يستحق من حزبه بعض الشكر . بيد أن القصة تبدأ من جديد ؛ إنه لمن العبث أن نسلم للبروتستانت بسلطة الاجبار التي أنكرناها على الكاثوليك . إن الاقتضاء المنطقي لا ينظر أبداً إلى سر من الأسرار إلا على أنه مشكلة مؤقتة عابرة ، سواء أكان قد قبله قساوسة الكاثوليك أم قساوسة البروتستانت . فان نور اليقين الطبيعي يريد أن يحل محل المصباح الذي يسهر أمام الهيكل المقدس

(١) الدوناتيون : أتباع مذهب دونات مطران قرطاجنة في القرن الرابع بعد الميلاد ، وكانوا يرون أنفسهم وحدهم ورثة الحواريين . [المترجم]

(٢) « تفسير فلسفي لكلمات السيد المسيح هذه : «ألزمهم بالدخول» ؛ يثبت ببراهين كثيرة أن ليس أوقح من الالتجاء إلى القوة لتغيير الدين ، وينقد كل سفسطة لمستعملي القوة لتغيير الدين ، والمدح الذي أضفاه القديس أوغسطين على الاضطهاد الديني » . مترجم عن الانجليزية الجان فوكس دي بروج ، بقلم م. ج. ف. (١٦٨٦) ، *Commentaire philosophique sur ces paroles de J. C. ...* Traduit de l'anglais du sieur Jean Fox de Bruges, par M. J. F. 1686.

سواء أخص الأمر كنيسة أم خص معبداً ؛ حتى إن بايل يهلك أصدقاءه ، فى غمار قتاله ضد أعدائه ، وبنفس السلاح . إنه يقول إن الضمير لا يعول إلا على نفسه ، وإنه إذا كان يقبل ، بحسن نية ، ما يتراءى له أنه الحقيقة ، فلن توجد قوة خارجية تستطيع أن تؤثر عليه ويكون تأثيرها مشروعاً ، وإن الضمير الذى يخطئ دون خبث أو سوء نية ، الضمير التائه المتحير ، ليس مسئولا ولا يجوز أن يجبر ويقسر . إن الكافر الذى يعتقد أنه يجب أن يكون كافراً ، لا يقل عن البروتستانتى « الأورثوذكسى » فى شئ . وإن كلمة أورثوذكسى هذه ، لكلمة لا تطاق ، ما دامت تعنى سلطة مفروضة على الأذهان . ولقد أخفى جوريو وجهه بعد هذه الكلمات ، وصاح : لقد أصبح بايل سوسنيانياً . والحق أنه سوسنيانى ، بل أكثر من ذلك ، إذا كان صحيحا أن بايل نفسه يشرح فكره بهذه الكلمات :

« معاذ الله أن أريد توسيع دائرة النور الطبيعى ، ومبادئ الميتافزيقا مثلما يفعل السوسنيانيون ، الذين يرفضون كل تفسير للكتاب المقدس لا يتفق وهذا الضوء وتلك المبادئ ، والذين — بناء على هذه القاعدة — يرفضون الاعتقاد بالتثليث وبسر التجسد . كلا ، كلا ، هذا ما لا أدعيه بغير حدود ولا قيود . إنى أعرف جيداً أن هناك حقائق بديهية ، لا تفلح فى الغلبة عليها أصرح أو أوضح آيات الكتاب المقدس ، مثل كون الكل أكبر من جزء منه ، وأننا إذا طرحنا أجزاء متساوية من أشياء متساوية ، فالبواقى متساوية ، وأنه من المحال أن تجدشيئين متعارضين متساويين ، كما أنه من المحال أيضاً أن جوهر شئ يبقى بالفعل بعد هلاكه لشئ . إذا كان الناس يكشفون مئة مرة فى الكتاب المقدس عكس هذه المحمولات ، وإذا كانوا يأتون بألف وألف معجزة ، أكثر مما أتى به موسى والحواريون ، لكى يثبتوا مبدأ يخالف هذه المبادئ العالمية للادراك السليم ، فلن يصدق المرء منها شيئاً ، فالأرجح أن يقتنع بأن الكتاب المقدس لا يتكلم إلا بالمجاز والألغاز والحقائق المعكوسة ، وأن تلك المعجزات مأتاها الشيطان ، فذلك خير من أن يعتقد بأن نور اليقين الطبيعى يخطئ فى هذه المبادئ . »

. . . « وإنى لأكررها مرة أخرى : معاذ الله أن أريد توسيع هذا المبدأ مثلما يفعل السوسنيانيون ؛ ولكن إذا أمكن أن يوجد بعض التحديد بالنسبة

للحقائق النظرية ، فلست أعتقد بامكان وجود أى تحديد بالنسبة للمبادئ والعادات العامة التى تتعلق بالأخلاق . أريد أن أقول إنه — دون أى استثناء — ينبغى أن تخضع كل القوانين الأخلاقية للعدالة ، تلك الفكرة الطبيعية التى يهتدى بها مثلما يهتدى بضوء الميتافيزيقا ، كل رجل يخرج إلى هذه الدنيا .

ينبغى علينا ، بل يتحتم أن نحكم بأن كل مبدأ دينى خاص، سواء ادعى الناس أن الكتاب المقدس يتضمنه ، أو لم يكن الأمر كذلك ، باطل غير صحيح إذا نقضته معارف النور الطبيعى الواضحة الصريحة ، ولا سيما فيما يتعلق بالأخلاق (١) . »

***

أن يعكف بايل على وضع قاموس : أليست هذه فكرة غريبة ، لرجل فى مثل طبعه ؟ سيتولى هو بنفسه الأجابة على هذا السؤال : « نحو ديسمبر من عام ١٦٩٠ قر رأيى على تأليف قاموس نقدى يتضمن سرداً للأخطاء التى ارتكبها مؤلفو القواميس أو غيرهم من المؤلفين ، يبين تحت اسم كل رجل أو مدينة ، مايخص هذا الرجل أو تلك المدينة من أخطاء . . . (٢) » وهو لم ينفذ هذه الفكرة بتمامها ، بل سجل تحت أسماء مرتبة حسب الحروف الأبجدية بعض معلومات واقعية . ولكن أروع اجتراءاته الحية تتبدى فى التعليقات التى ينثرها هنا وهناك ، أو يطمرها . حتى إنك لا تجد أسمى صور التعبير عن أفكاره إلا استثناء ، وفى الموضع الذى تتوقعه . إنها الجنابى أو « استغماية » وقد كان يهوى هذا النوع من اللعب ، وكان يجيده . وبالرغم مما اضطر إلى إدخاله على مشروعه من تخفيف ، حتى لا يثير لأول وهلة دهشة الجمهور والناشرين ، فان ذلك « القاموس التاريخى النقدى » ***Dictionnaire historique et critique*** يظل أشد عريضة اتهام تثير الخجل وتنشر الارتباك فى الناس . فأمام كل اسم على وجه التقريب ، تتفجر ذكرى وهم أو خطأ أو احتيال أو جرم . كل هؤلاء الملوك الذين سببوا تعاسة رعاياهم ، وكل أولئك البابوات الذين هبطوا بالكاثوليكية إلى دركات أطماعهم وأهوائهم ، وكل أولئك الفلاسفة الذين

---

(١) « تفسير فلسفى » . . . ، القسم الأول الفصل الأول .

(٢) رسالة من بيير بايل إلى ابن عمه نوديه ، ٢٢ مايو ١٦٩٢ .

وضعوا السخيف من النظريات ، وكل تلك الدول والمدن التى تذكرنا بالحروب والمذابح والاغتصابات . . . ثم كثيراً من المفاسد والشناعات : وإذا كان بايل يذكرها راضيا قريراً ، فقد يكون ذلك لأن أصحاب المكاتب طلبوها منه لاجتذاب القارئ كما يقول . أو لعله أراد أن يجد بعض التسلية — كما يقول أيضاً — فى التنويه بأن سرد الخطايا التى ارتكبها المرء شئ ، وإدخال بعض الطلاوة على قصة ببعض ألفاظ طليقة شائقة شئ آخر ؛ لكن أليس الأرجح أن السبب هو أن كتلة بطلالنا وضلالنا تضاف إليها كتلة شذوذنا وفسادنا الخلقى ، وبذا تطابق أخطاؤنا فى دائرة التفكير رذائلنا فى مجال الأخلاق؟ يضاف إلى ذلك قصص الرواة ، رواة مافعله الآخرون ، وما أكثر القصص التى نسجوها بما هم عليه من خفة أو حماقة أو هوى أو فساد ! ياله من منظر !

كل ذلك ينبغى أن يطهر ، وتلك هى بالذات المهمة الأولى التى يشرع فيها بايل بالتذاذ تشويه الجسرة . بئس كتاب الأساطير ! لقد أخطأ العالم كله وانخدع : القدماء الذين كانوا يلقون بالكذب كما نلقى بالكلام ، والمحدثون المسحورون بنفوذ القدماء ، وحتى أكثر المؤلفين اقتداراً وأحقهم بالاحترام ، فلاموت لوفاييه La Mothe Le Vayer (١) نفسه أخطأ وكذلك غاسندى (٢). وهناك محترفو الكذب مثل موريرى(٣) ، الذى ألف قاموساً كما لا ينبغى أن يؤلف القاموس ، قاموساً ليس نقديا ، بل يفيض بالضلال والأخطاء . إنه مسمم عام ، فلنفنده نقطة نقطة ، ولنرقم أكاذيبه ، لقد كذب اثنى عشرة مرة هنا ، وخمس عشرة مرة هناك : فلنقبض عليه دون شفقة من قفاه . بذلك العمل المنزه المعصوم ، نسترد لليقين حقوقه . إن قانون جمهورية الأفكار قانون قاس ولكنه بديع ! « إن هذه الجمهورية دولة حرة غاية الحرية . لا يعترف الناس فيها إلا بسطوة اليقين وصولة العقل ». وفى كنفهما يحارب الناس أى إنسان

---

(١) لاموت لوفاييه La Mothe Le Vayer : أديب وعالم فرنسى ولد فى باريس صاحب « ملاحظات عن البلاغة الفرنسية » (١٥٨٨ - ١٦٧٢) . [المترجمان]

(٢) غاسندى Gassendi : فيلسوف فرنسى مادى ، اشتهر بمهاجمته لفلسفة أرسطو (١٥٩٢ - ١٦٥٥) . [المترجمان]

(٣) موريرى Moreri : مؤرخ فرنسى شهير ، مؤلف « القاموس التاريخى » (١٦٤٣ - ١٦٨٠) . [المترجمان]

بحسن طوية . فعلى الأصدقاء أن يحترسوا من الأصدقاء وعلى الآباء أن يحذروا الأبناء . . . (١)»

هذا الاقدام ، هذا الشغف بالنضال ، هذا العزم على قشع الوهم والضلال ، يفترض فكرة قدرتنا على الوصول إلى يقين يبقى بالرغم من كل جهد مضاد : يقين الوقائع الذى يكشفه النقد ومعرفة الواقع . ولكن ما أصعب إدراك هذه المعرفة ، وهذه الحقيقة ! وما أقوى الخطأ ، وما أشد جذوره تمكنا فى الأرض، حتى ليجد دائماً فرصة ليتولد من جديد ! « ليس هناك كذب ، مهما سخف وأسف ، لم ينتقل من كتاب إلى كتاب ومن عصر إلى عصر . دع أحقر مهرج فى أوربا يجترئ فى كذبه ، وينشر كل أنواع هذيانه ، فسيجد عدداً وفيراً من الناس ينقل رواياته ، وإذا محوه يوما أو استنكفوه ، فستأتى ظروف يجدون فيها مصلحة فى ابتعاثه من جديد (٢) . » .

لن تستطيع أن تقنع إلا المقتنعين ، فشأن العقل عصيان اليقين ، مهما أوتى من بداهة ووضوح .

هل الوقائع فى الحقيقة كما نتلقاها ؟ ألا ترمى المدرسة الحديثة للفلسفة إلى بث الاعتقاد بأن الوقائع إن هى إلا تحورات فى الروح (٣)؟ لقد أغدقت على الارتيابيين فوائد لا يعييك إدراكها (٤):

« إنهم لا يكادون يعرفون فى مدارسنا اسم سكتوس امبريكوس Sextus Empiricus ، إن وسائل تحديد الزمن التى اقترحها فى لباقة لم تكن بمجهولة لدينا أقل مما نجهل أرض أستراليا ، حتى جاء غاسندى وأوجزها لنا إيجازاً فتح أعيننا . ثم أكملت مدرسة ديكارت ذلك العمل . لم يعد بين كبار الفلاسفة من يساوره الشك فى أن الارتيابيين Sceptiques (٥) على حق ، فى اعتقادهم

---

(١) « القاموس » باب كاليوس ، تعليق د ، *Dictionnaire*, art. Calius .

(٢) « القاموس » باب كابت ، حرف ى .

(٣) لعله يقصد مالبرانش على الخصوص وهو من أكبر الفلاسفة الفرنسيين اشتهر بنظرية vision en dieu : من المحال أن يكون للمادة وجود . فالوجود للعقل والروح ، إنما الله يوحى إلينا برؤية المادة . وتفصيل نظريته فى كتابه المشهور « البحث عن الحقيقة » . [المترجمان]

(٤) القاموس . . . باب بيرون ، Pyrrhon .

(٥) الارتيابيون Sceptiques : أو التشكك ، أشياع مذهب بيرون ، وهو فيلسوف =

أن صفات الأجسام التى تؤثر فى حواسنا ليست إلا مظاهر . كل منا يستطيع أن يقول: « أشعر بحرارة فى وجود النار » ، لا أن يقول « أعرف أن النار فى جوهرها كما تظهر لى » . ذلك أسلوب الارتيابيين القدماء . أما اليوم فتتخذ الفلسفة الحديثة لساناً أكثر إيجابية : فالحرارة والرائحة والألوان وغير ذلك لا تقع فى دائرة الحواس ، بل هى تحورات فى الروح . أعرف أن الأجسام ليست كما تظهر لى . ولقد كان المحدثون يتوقون إلى استثناء الحيز والحركة ولكنهم عجزوا ، لأنه إذا كانت الأشياء تظهر لنا فى لون أو حرارة أو برودة أو رائحة ما ، بينما لا توجد فيها صفة من تلك الصفات ، فلم إذن لا تظهر لنا ذات حيز وشكل ، ساكنة أو متحركة ، بينما ليس لها صفة من تلك الصفات ؟ تلك هى الفوائد التى أعطاها الفلاسفة المحدثون للارتيابيين ، والتى أريد أن أرفضها . . . »

بيد أن بيير بايل لا يستطيع أن يرفضها إلى الأبد ، فقد حوصر ذهنه ، وهذا ظاهر للعيان . فهو ينزلق نحو الارتياب ، لكثرة سواجهته لليقين وللضلال ، وقد يكون ذلك على الرغم منه أو لاستعداد فى طبيعته . وهل نعرف أبدا إلى أين يؤدى بنا مبدأ من المبادئ ؟ « إن نفس المبدأ الذى يفلح أحياناً ضد الضلال يضر أحياناً أخرى باليقين . . . (١) » . إن ما نصل إليه دائماً آخر الأمر ، وبعد البحث ، هو تناقض المبادئ (٢) : « وجماع القول فى ذلك أن نصيب الانسان قد ساء إلى حد أن النور الذى يخلصه من شر يوقعه فى شر آخر . طاردوا الجهل والبربرية توقعوا بالخرافة ، وبحماقة تصديق الناس التى يستغلها القادة ، ويسيئون بعد ذلك استعمال مغانمهم منها ، ليغرقوا فى البطالة والفجور . بيد أننا بتبصير الناس بهذا الفساد ، سنوحى إليهم بروح البحث فى كل شئ فيفحصون ، ويتعمقون فى التفكير ، إلى ألا يجدوا شيئاً يرضى عقلهم التعس . . .

= يونانى فى القرن الرابع ق. م. ينكر استطاعة الانسان الوصول إلى الحقيقة . يرى أن كل الكائنات تخضع لتجدد مستمر ، ولذا فنحن لا نستطيع أن نعرف إلا المظاهر . كل خطوة نخطوها بين الناس لا نرى فيها إلا أخطاء ومتناقضات وأوهاماً فى الحواس ، إذن فالبحث عن الحقيقة لا يستند إلى شئ متين . وهنا منشأ خطورة ذلك المذهب لأنه يؤدى إلى الجمود المطلق . وكان ديكارت يرى قبول هذا المذهب كشك مؤقت ، فهو محك معارفنا ومشاعرنا . وأشهر الشكاك المحدثين مونتانى وبايل وهيوم وكنت . [المترجمان]

(١) القاموس ، باب تقى الدين ، Takiddin .

(٢) القاموس ، باب تقى الذين ، Takiddin .

هناك طريقة ، يمكن للمرء بشئ من الجهد أن يكشفها ، بل أن يحصرها فى صيغة . «ما من نظرية لا تحتاج إلى الأمرين التاليين لتكون صالحة : أولها أن تكون الأفكار واضحة ، وثانيهما أن يؤيدها الواقع (١) » . فاذا نحن طبقنا هذه الطريقة ، وصلنا فى آن واحد إلى الحقيقة المجردة ، وإلى الحقيقة الواقعة التى تؤيدها . ولكن كيف التطبيق ؟ ففيما يتعلق بالحقيقة الواقعة ، نرى الناس يخلطون ويفسدون الوقائع ؛ ألا ترى فى « القاموس التاريخى النقدى » كيف يهدم النقد التاريخ ؟ وفيما يتعلق بالحقيقة المجردة فان الناس لا يتبينون الأفكار بوضوح ، ولو أنهم تبينوها لظهرت لهم كما هى : متعادلة القوة ، متعادلة الاحتمال ، تقتتل فتقتل كل منها الأخرى .

***

ولكن بايل لا يقف عند هذا الحد . وإذا أردنا أن ندرك تفكيره بجملته ، وأن نرى كيف يعاوده فى إلحاح ، فى كل مسألة يرى أنه لم يولها حقها من التوضيح ، فينبغى أن نصل إلى كتابه « جواب على أسئلة قروى « Réponse aux questions d'un Provincial الذى شرع فى نشره عام ١٧٠٤ ، ولكن الموت لم يمهله ليكمله . إنه لم يتخل عن طريقته فى الاندفاع ، ولا عن عادته فى البدء برسالة مطبوعة ، أو قصة تاريخية ، أو بحث أو نبذه ، لكى يهاجم ويعارض . ولم يطرح سخريته القاسية . ولكن ازدادت مباغتاته واندفاعاته شدة ، وازدادت ردوده حدة ، وأصبح تحليله أكثر دقة . والمفروض أن القروى يسأله عن فحوى كتاب ، أو تحديد تاريخ ، أو واقعة تاريخية ، أو نقطة فضول هينة . وإذا به يكشف فى بضع جمل ، وبوضوح يستحق الاعجاب دائماً ، عن النقط الرئيسية فى المسألة : لا ظلال ولا ظلام ، ولا محل لتلك الهوامش الغامضة حيث تستطيع أن تلتجئ بقية من خطأ ؛ لا تعلل ولا تسامح ، ولا مغفرة . وتحوطه نفس المسائل ولا تكف عن مواجهته : أيسمح الله بأن يترك إثبات وجوده للارتضاء العام (١) ؟ هل منح الله الحرية للبشر ، أم يقودهم القدر ؟ إذا كان هناك إله فلم خلق الظلم ومختلف أنواع الشر ؟ إن بايل لا يساوره الضجر ، بل يتقدم بحل : حل يرمى إلى القول بأنه من المحال أن نؤكد شيئاً ، أو أن نعرف شيئاً !

---

(١) القاموس ، باب Manichéens ، بيان D .

ويعود ذلك البحاثة الكبير إلى عمله مستزيداً من جسارته ، وأكثر شعوراً بمسئوليته . يريد أن يثبت بالدليل القاطع أن ليس بين الدين والفلسفة قياس مشترك : فطالما يخلط الناس بينهما فستذهب جهودهم أدراج الرياح . وهو يزعم أنه لا يهاجم العقيدة بوصفها عقيدة ، بل يظهر بمظهر يدل على احترامه لها ، قائلا إنه لا يفعل شيئاً غير اتباع وترديد ما يدلى به المدافعون عنها من حجج وبراهين : أفلا يعترفون بأن كل دين يقوم على سر أولى ؟ تلك حقيقة الأمر ، سر يجافى المنطق ، ووضع يتنافى مع مجريات الحال ولا يتفق مع وجود عقل مفكر — بل إنه يقتحم القلعة لكى يزلزلها ، وينشر بين حماتها الاضطراب والذعر . فتراه يقول لهم ، إننا إذا قبلنا الوحى يظهر الدين حقيقيا ، وتتابع مبادئه متفقة مع المنطق . غير أنه يضيف أن الوحى لا يمكن إثباته . فتصديقك شئ ، واستعمالك العقل شئ آخر .

لا توسط ولا تجزئة ، إن رفضك هذا المعتقد أو ذاك لتقبل هذا المعتقد أو ذاك ، لهو التعارض البين ، إنه السخف بعينه « خيل إلى من مطالعة بعض رسائلك أنك تدعى أنه فيما يتعلق بالتثليث وببعض مواد المسيحية الأخرى ، يجب على العقل أن يسجد أمام سلطان الله ، أما فيما يتعلق بخطيئة آدم وما ترتب عليها ، فيجب أن يخضع الكتاب المقدس لمحاكمة الفلاسفة . فاذا كانت لديك تلك الفكرة حقا ، وإذا كان قد وصل بك التباين إلى هذا الحد ، فانك لتستدر رثائى . . . (١) » . هل أنت من أشياع الأسرار ؟ إذن فاعتقد بها ، سواء اتفقت مع الفلسفة أو لم تتفق ، أو كانت تنقضها الفلسفة ببراهين لا ترد . ولكن عندئذ لا تدعى أنك تستعمل عقلك . وأولئك الذين يريد بايل أن يقنعهم بحماقتهم أو بغفلتهم ، ليسوا الكاثوليك وأتباع كالفين فحسب بل كل أصحاب النحل الأخرى ممن يدعون إثبات وجود الله بالنور الطبيعي ، وكل أولئك يسميهم جماعة « الدينين » Religionnaires (٢) ، ويقابلهم « العقليون » Rationaux .

(١) « جواب على أسئلة قروى » ، الجزء الثالث الفصل ١٢٨ ، ١٧٠٦ ، *Réponse aux questions d'un provincial*, t. III., chap. CXXVIII, 1706

(٢) جواب على أسئلة قروى ، الفصل ١٣٤ ... « الدينيون (اسمح لى أن أستعمل هذه الكلمة للدلالة على اليهود ، والوثنيين والمسيحيين والمسلمين ..) » ... *Ibid.* chap. CXXXIV...

« Les Religionnaires (permettez-moi de me servir de ce mot pour désigner en commun les Juifs, les Payens, les Chrétiens, les Mahométans, etc) ».

ولكن حينما تفترق القوتان بعضهما عن بعض على هذا الغرار ، يجد العقليون لزاما عليهم ، لكى يظلوا منطقيين مع أنفسهم ، أن يمحصوا مبدأهم الخاص ، وهنا يبدأ الاضطراب . وا أسفاه ! فان الفلسفة لا ترتق الخروق التى تثقبها بالرغم من كل ما تتخذه من تدابير . فهى إذا كانت قادرة على تقويض التوكيدات الموروثة ، فانها عاجزة عن إبدالها بشئ سوى الاستفهام . هل الانسان حر ؟ أم يخضع للقدر ؟ « لن ننتهى إذا طرقنا مسائل الحرية ، فلكل فئة موارد لا تفنى . . . » إن الاختيار Le libre arbitre لمسألة معقدة حافلة باللبس ، حتى إننا لو تعمقنا فيها لناقضنا أنفسنا ألف مرة ، ولاستغرقنا نصف المدة فى استعمال نفس كلام مخالفينا ، ولهيأنا بأنفسنا أسلحة ضد قضيتنا ...(١)»

هل الروح أبدية ؟ إنها لكذلك ولو لم تكن لكانت مادية . — هل هناك إله سامى الحكمة واسع الرحمة ؟ ربما ، ولكن كيف نعلل بأى دليل ، رضا هذا الاله الحكيم الرحيم بأن يعذب مخلوقاته فى أجسامهم وفى أرواحهم ؟ رضاه بأن يحملهم المسئولية ؟ إن هذه النظرة التى تحضره لأول وهلة ، وهذا الواقع الذى يقرره ، والذى يصدم عقله فيثير شعوره ، يهولانه ويروعانه . وتنتابه قشعريرة : « أولئك الذين يسمحون بحدوث شر فى مقدورهم أن يمنعوه فى يسر ، يستحقون اللوم ؛ أولئك الذين يدعون شخصاً يهلك وفى وسعهم إنقاذه مسئولون بلا شك عن موته . سلوا فلاحة ساذجة : الأمهات اللواتى لديهن فيض من اللبن ، ويؤثرن أن يتركن أولادهن يموتون جوعاً بدلا من إرضاعهم ، ألسن مجرمات كاللواتى يرمين أولادهن فى الماء سواء بسواء ؟ الوالد الذى يرى أحد أبنائه يوشك أن يضع السم فى فمه ويدعه يفعل ، على الرغم من علمه بأن نصيحة يسيرة منه أو إشارة بعينه تمنعه من تجرع السم ، ألا يكون مخالفا لآدميته ، كما لو كان جرعه السم بيده ؟(٢) » .

كيف يتبادر إلى الذهن تشبيه الله بهذه الأم القاسية أو ذلك الوالد المجرم ؟ جهدت النفوس الصالحة وسعـ[illegible]ـل إلى لاهوتى أنجليكى ، وهو وليم كنج الطيب القلب ، أنه قد برّ[illegible] ، إذ نشر بحثاً ضخماً باللاتينية متوهماً

(١) جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثالث الفصل ١٤٢ ، ١٧٠٦ .

(٢) جواب على أسئلة قروى الفصل ٧٤ وما بعده ، نقض كتاب وليم كنج W. King عن أصل الشر [illegible] Origine du mal

أنه حل المسألة التى لا تحل . بيد أنه لم يحل شيئاً ، فهى مشكلة أعقد من ذنب الضب .

يا للانسان من نسيج من المتناقضات ! « الانسان هو العقبة الكؤود أمام النظريات . إنه الصخرة التى تعترض الحق وتعترض الباطل . إنه يربك الطبيعيين و يربك الأورثوذكس . . . إننا هنا أمام عمه أصعب فى تبديده من عمه الشعراء » . نحن نشن الحرب على الضلال ولكنا نخشى أن نجد فى نهاية الكفاح ، أن أرواحنا أكثر انسجاماً مع الكذب منها مع الحق (١). ونضع كل ثقتنا فى قوة العقل السديد ثم نكتشف أنه لا حول له ولا قوة . « لا حيلة للعقل أمام الطبع ، فهو يدعه ينتقل من نصر إلى نصر وينقاد له إما كأسير و إما كداهن . وهو يغالب الشهوات ردحا من الزمن ، ثم يلوذ بالصمت ويسكن ويكتم الحزن ، ثم يذعن (٢)» نحن نحس أنه لا يستوثق أبداً من توكيداته ، وأن أوضح الأفكار فى الظاهر ، ليست إلا مسائل عويصة فى الواقع . إن الارتياب يعود فيهدد ، بينما الفكر يذوى و يهن .

***

لكن هل يسير بايل حتى الشك المطلق ؟ — لقد كان يصل إليه لو أنه انقاد لطبيعة ذهنه ، إلا أن الرهان الفلسفى le jeu du pour et du contre كان لذته الكبرى . ولو أنه كان منطقياً صرفاً ، ولو لم يحسب حساباً إلا لما وصل إليه من تجاريبه الانسانية ، وللاستنباطات التى كانت تفرض نفسها على عقله كل يوم أكثر من سابقه ، لوصل إلى تلك المناطق الفسيحة من الغموض حيث لا يجد المرء حافزاً للعمل أو باعثاً على الوجود ، ولاستطاع بل لتحتم عليه أن يصل إلى مايسميه لى كلير الارتياب الميتافيزيقى والتاريخى ، أى الشك المطلق .

ولكنه صمد وقاوم . فان شجاعته واعتقاده بأن عليه رسالة لا بد من تحقيقها ، وكراهيته للضلال التى كانت أقوى من كل شك يساوره حيال اليقين ، وعقله الذى أبى الاذعان التام لما لقيه من انهزام ، وفوق كل ذلك مجهود واع

(١) جواب على أسئلة قروى الجزء الثالث ، الفصل ١٠٣ ، ١٧٠٦ .
(٢) جواب على أسئلة قروى الجزء الأول ، الفصل ١٣ ، ١٧٠٤ .

لبصير بإرادته ، كل هذا أتاح له أن يحجم عن الخطوة الأخيرة . لم يقبل أبداً أن يتخلى عن اعتقاده فى أن أمامه خير أخلاق ليحققه ، وتقدم ليؤازره . وفى هذا المعنى يقدم لنا « القاموس » فقرة مؤثرة ، وهى فى باب ماكون Mâcon تعليق D « لماذا ألمس هذه المفاسد المروعة ؟ » Pourquoi je touche ces effroyables désordres . هذه المفاسد المروعة ، وتلك الحروب الدينية التى اتخذت ذريعة لأحط أنواع البربرية ، هذا الخروج عن الآدمية ، أليس الأفضل أن نمحو ذكرها وأن نزيل تذكارها ؟ ألا يعنى تكرارها أننا نغذى فى العقول حقداً أكولا لا يخمد ؟ « ألا يستطيع الناس أن ينعوا على أنى كأنما أقصد إيقاظ الأهواء ، وإشعال نار الأحقاد ، بنشرى هنا وهناك فى كتابى أفظع ما عرفه القرن الماضى من وقائع وأحداث ؟ بلى ، « فبما أن لكل شئ وجهين ، فهناك أسباب قوية تدفعنا إلى أن نتمنى أن تبقى ذكرى تلك المفاسد المروعة ماثلة محفوظة بعناية » . ينبغى أن يكون الحكام ورجال الكنيسة واللاهوت على علم بالشرور الماضية ليجتنبوها فى المستقبل . هكذا يفاضل بايل بين وجهى الأشياء ، ويختار الوجه الذى يستشف فيه بعض الأمل . ومع أن الشك قد خامره فى إمكان وصوله يوماً إلى اليقين المطلق ، فقد كان يعتقد أن الباطل مرض معد ، وأن رسالته أن يضع حداً لما يسبب من أضرار . إنه طبيب للعميان ، أقل ما يجب عليه أن يزيل الغشاوة عن بعض الأبصار . . . .

ولم يقلد بايل أصحاب العقول السقيمة الذين حمل عليهم ساخراً « إنهم يفتعلون العظمة والشجاعة أمام الله طالما كانوا فى عنفوان الصحة وأوج الحظ والسعادة ، فاذا ظنوا أنه قد حاق بهم مرض أو مصيبة ، أو أدركتهم الشيخوخة ، انحدروا كالعادة حتى إلى الخرافات ؛ وإذا أحسوا أنهم على شفا الموت ، كانوا أكثر من الآخرين توفراً على تجهيز كل معدات الرحلة إلى العالم الآخر . . . » ولقد بقى بايل حتى أخريات أيامه مهاجماً متعدياً . ضد من لم يشهر السلاح ؟ شيرلوك Sherlock ، تيلوتسون Tillotson ، كادورث Cudworth ، وليم كنج W. King ، جان لى كلير Le clerc ، جوريو Jurieu ، أرنو Arnauld ، نيكول Nicole ، برنار Bernard ، وأخيراً جاكلو Jaquelot الذى هاجم « القاموس » ؛ والذى كان أكثر من خصم عادى لادعائه بأنه أثبت إتفاق العقل مع الإيمان . ولقد كان جاكلو رمزاً للأفكار التى تأبى الاجتلاء ، رمزاً للمشاكل التى

تستعصى على العقــل ، ومثــالا للضعف البشرى . ولما ضعف بايل أخيراً ووقع فريسة للسعال والنزلة الصــدرية ، ونهكته الحمى ، لم يكـف عن استغلال فترة الموت فى الردود والجدال . وإذا كان قد خالجه الأسف على شيء ، فهو اضطراره إلى الارتحال قبل تفنيد أخطاء جاكلو(١) .

إن تفكيره النقدى كعطر مركز أقوى من أن يستعمل فى حالته الخالصة ، بل مقصود فى صنعه أن يخفف : وهذا عين ما حدث . أصبح تفكيره — عن طريق «القاموس» ، وبخروجه من نطاق المنازعات بين رجال اللاهوت ودخوله فى متناول الجميع « حتى شاهد الناس الاعتراضات فى كل ضيائها » ، وبإيحائه بالأثوردكسية فى كل البلاد — داعياً إلى صعوبة التصديق والاعتقاد . « لقد أصبح معلوماً أن مؤلفات مسيو بايل قد ملأت بالشك عدداً وفيراً من القراء ، وغلفت بالريب مبادئ الدين والأخلاق العالمية المكتسبة (٢) » .

* * *

عقب معارك الأفكار فى القرن السادس عشر ، ظهر اقتراح بالسلام . إنه عرض بالتهادن : سيقدر الناس أن المسائل التى طالما أضنتهم قد حلت ، ظانين أنهم يهيئون بذلك للبشر أن يعيشوا دون عذاب الهموم المقيمة . وتراهم ينشطون ، ويوجهون اهتمامهم نحو مبتدعات الفكر الخالصة ، ويتذوقون متعة المجتمع ، ويتعلمون حسن المعاشرة ، فيصبحون على الأقل راضين مسرورين إن لم يكونوا فى غاية السعادة . وتجدهم يضفون على ارتضائهم هذا نوعاً من الشجاعة ومن العظمة ، ويلقون فى أمانهم الاختيارى نوعاً من الجلال ، مثلما

(١) اسحق جاكلو Jaquelot : « توافق العقل والايمان ، أو دفاع الدين ضد الصعوبات الأساسية المنتشرة فى القاموس الفلسفى الانتقادى لمسيو بايل » ، أمستردام ١٧٠٥ . لقد كانت هذه الأزمان أزمان بطولة ، حيث لم يوجد من يرضى بأن يترك لخصمه الكلمة الفاصلة الأخيرة ، وحيث كان يتعقب المبارزون العنيدون خصومهم حتى بعد الممات . ارجع إلى لى كلير « المكتبة المنتخبة » جزء ١٢ ، ١٧٠٧ ؛ ملاحظات عن محادثات مسيو بايل نشرت بعد وفاته « كنت أعرف كل ما يستطيع مسيو بايل أن يقوله ضدى ، وكنت مستعداً لأن أتحمل كل حدته وكل شتائمه ، بدلا من أن أيسر له السعادة فى أن يكون آخر من يتكلم ، السعادة التى كان ينتظرها بفارغ صبر » .

(٢) المكتبة الألمانية ، الجزء ١٨ ، ١٧٢٩ ، Bibliothèque germanique, t. XVIII année 1729

تجد فى تنظيم خلية ، وما فيها من تدرج طبقات ، وقوانين ، وفى إنتاجها وتكاثرها، نظاماً يفترض آلافاً من التضحيات .

ولكن كيف السبيل إلى استتباب ذلك السلام ، إذا كانت المبادئ السيكولوجية التى يقوم عليها تتغير قبل أن تتوطد ؟ المرتحلون والشاردون والفضوليون والمعذبون وأولئك الذين يكرهون الاستقرار ، والمحدثون الذين لا يرون فى حالة الفكر التاريخية إلا الضعف والرياء ، والقادمون الجدد الذين لا يدركون حتى أصول التفكير لدى الشعوب اللاتينية ، وكل من يحتج ، وكل من يشك ولا يرى المسألة السياسية قد لقيت حلا ، ودونها فى ذلك أيضاً المسألة الدينية : كيف تملك نفسها وتربط جأشها هذه الكتلة المتراصة القوية ؟ إنها تشن الحرب على المعتقدات التقليدية ، كبداية .

القسم الثانى

ضد المعتقدات التقليدية



العقل الذى يبنى

(صورة غلاف القاموس التاريخى النقدى لبيير بايل . روتردام ١٦٩٧)

الفصل الأول

العقليون

إن مجهولا يدعى العقل قد حاول منذ سنين أن يقتحم كليات الجامعة قسرا، وأراد أن يناقش أرسطو وأن يطرده ، بمساعدة بعض النكرات المهرجين الذين يلقبون أنفسهم بتلامذة غاسندى ، وديكارت ، ومالبرانش ، أولئك المشردين . . . (١)

وكان هذا صحيحاً . فقد دخل العقل المتهجم إلى المسرح ، لا ليناقش أرسطو فحسب ، بل كل من فكر وكل من كتب ، وهو يزعم أنه قد أزمع القضاء على كل أخطاء الماضى ، ويبدأ الحياة من جديد . ولم يكن نكرة مجهولا ، بل كان الناس قد استشهدوا به فى كل آن على مر الزمان ، ولكنه كان يتقدم فى وجه جديد .

فهل كان العقل يدعى أنه العلة ، وعلى الأخص العلة الغائية ؟ (٢) — كلا لم يدع ذلك . — أم كان يدعى أنه مقدرة ؟ تلك المقدرة التى نفترض أن

---

(١) فرنسوا برنييه وبوالو ديسبريو Boileau Despréaux ، عريضة لأساتذة فى الآداب ١٦٧١ .

(٢) بحسب عقيدة قديمة ، العقل أعطى للانسان لكى يصل به إلى متعة المعرفة ، هى أكبر المتع وأطهرها ، فيها نجد السعادة التى هى « علة » الحياة . (أنظر فى هذا الصدد مؤلفات أفلاطون ، طبع جارنييه مقدمة . . . Préface de E. chambry . [المترجان]

عن العلة الغائية Cause Finale أنظر القاموس الفلسفى لفولتير Voltaire, *Dict. Philos.* Fin

يقول البعض ، إذا كان الله قد خلق شيئا لغاية معينة فانه خلق كل شئ لغاية معينة . من السخف أن نعترف بالعناية الالهية فى ظرف وأن ننكرها فى ظروف أخرى ؛ فكل ما صنع كان مقصوداً ، مرتباً ، فلا ترتيب بلا موضوع ، ولا نتيجة بلا علة . إذن فكل شئ على السواء نتيجة لعلة غائية ، إذن يجوز القول بأن الأنوف قد خلقت لتحمل المناظير ، والأصابع لتتحلى بالجواهر ، كما يجوز أن نقول إن الأذن إنما خلقت لاستماع الأصوات ، والعيون لاستقبال الضوء .

« أعتقد أنه يسهل إيضاح هذه النقطة. إذا كانت النتائج واحدة لا تتغير فى كل مكان =

الانسان يتميز بها عن الحيوان ، وبديهى أن يفوقه فى ذلك بكثير ؟ — مافى ذلك من شك ؛ ولكن على شرط أن نمد حقوق هذه القدرة السامية بحيث لا يحدها حد ولا تنقصها جرأة . وفضل العقل وضع مبادئ واضحة ، حقيقية ، لكى يصل إلى نتائج لا تقل وضوحاً وحقيقة . وجوهره الفحص ، ومهمته الأولى البحث فيما غمض وفيما استغلق وفيما أظلم ، لكى يضئ الدنيا بنوره . وكان العالم زاخراً بالأخطاء التى خلقتها قوى الروح الخادعة ، واحتضنتها سلطات لا تخضع لرقابة ، أخطاء استشرت بفضل التصديق الساذج والكسل ، وتكتلت وتقوت بفعل الزمن : فكان على العقل أن يبدأ العمل بحركة تطهير واسعة . كانت رسالته القضاء على تلك الأخطاء التى تجل عن الحصر ، فأسرع لانجازها وتعجل . وإنها لرسالة تكمن فى صميمه ، فى قيمة كيانه الذاتى .

وأسرع العقليون يلبون النداء ، فى نشاط ، وغيرة ، واستبسال .

وكانوا فرنسيين ، وانجليز ، وهولانديين ، وألمان ، يمدهم بعبقريته يهودى يكرهه الجيتو(١) يدعى سبينوزا Spinoza . وما أشد اختلافهم ! وما أكثر تعارض النقط التى بدأوا منها لكى يصلوا إلى غاية واحدة ! إن تركز القوات هذا لشئ مدهش يأسر النفس !

***

وإنك لتجد أولا المتحررين . ومنهم الانجليز ، مثل وليم تمبل Willam Temple الذى ابتعد عن صخب السياسة ، ليبحث عن السعادة فى حياة هادئة وادعة ،

= وكل زمان ، وإذا كانت هذه النتائج الموحدة تستقل عن الكائنات التى تخصها ، حينئذ هناك قطعاً علة غائية . فلكل الحيوانات عيون تبصر بها ، ولها كلها آذان تسمع بها ، ولها كلها أفواه تأكل بها ، ولها كلها فتحات تتبرز منها ؛ هذه علل غائية واضحة . وإنه لافساد لقدرتنا الفكرية أن ننكر حقيقة عالمية مثل هذه . أما الأحجار فى كل مكان وكل زمان فلا تبنى عمارات ، وكل الأنوف لا تحمل مناظير ، وكل الأصابع لا تتحلى بخواتم ، وكل الأرجل لا تغطيها جوارب حريرية . وإذن فدودة القز لم تخلق لتغطى رجلى ، كما خلق فمك لتأكل به ، وكما خلق دبرك لتذهب إلى المرحاض . وعلى ذلك فهناك نتائج وليدة العلل الغائية ، ونتائج عديدة لا يمكن تسميتها بهذا الاسم » . [المترجمان]

(١) الجيتو : الحى الذى يقطنه اليهود وهو فى العادة الحى الفقير فى المدينة . وكان أصل الكلمة يطلق على أحياء اليهود فى إيطاليا فى القرن السادس عشر . [المترجمان]

حياة أبيقورية مع شئ من الحكمة . وهناك المتحررون الفرنسيون ، على الخصوص . ولم يكن هذا الجنس المتحرر ناشئا فتيا ، فقد عمل على انتشار فلسفتين على الأقل . أولاهما فلسفة بادوا ، أى مدرسة بومبانوزى Pomponazi وكاردان(١) . والثانية فلسفة غاسندى فى جانبها غير المسيحى . ولقد واصل غاسندى نظرية أبيقور(٢) وما بها من ذرات وروح مادية ، مصفياً أفكاره — معقداً إياها — : حتى أضفى على تلك الأفكار عظمة فلسفة ليس يسيراً أن تدرك ، وأضاف لونا من الجدة والطرافة إلى نفوذ تقليد قديم . فلما جاء المتحررون يقتفون أثره ، تشكلت منهم طائفة ، أخذت تزداد أهمية ، وكأنما تزداد منزلة .

بيد أن غاسندى وقف يواجه ديكارت ، وقام بينهما جدال تبودل فيه الهجوم الشديد ، وكانت المبارزة بين الخصمين أمام شرفة غصت بالنظارة المشرئبين . وكان غاسندى يقول لديكارت « أيها العقل الصافى ! أيها الروح! ويقول له ديكارت « قل لى أرجوك ، أيها الجسد . . . (٣) »

ولقد انهزم غاسندى . صحيح أنه لا يزال له بعض الأتباع ، فى انجلترا، وألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، ولكن عددهم قليل ، وقد امحقوا ، كسفهم مجد ديكارت الذى غزا أوربا المفكرة ، ثم مجد لوك ذلك النجم الجديد .وقد حاول فرانسوا برنييه ، الذى نشر فى باريس فى عام ١٦٧٤ مختصراً لفلسفة غاسندى *Abrégé de la philosophie de M. Gassendi* لقى قبولا حسناً من الجمهور حتى أعيد طبعه عدة مرات ، — حاول أن يمد تأثير نظرية تلقاها من فم أستاذه مباشرة : ولكنه كان يعوزه فى ذلك ما فى الاعتقادات القوية من حمية وحيوية ، فقد كان يكثر من ترديد تعبير « على كل حال » إلى المديح ، وهو تعبير يحد

---

(١) كاردان Cardan فيلسوف إيطالى ولد فى باڤى (١٥٠١ - ١٥٧٦) .

(٢) أبيقور Epicure عند أبيقور ، الغرض من الحياة هو التمتع بها . فالمتعة شئ إلهى ، بل هى علة الحياة . فلنبحث عن حياة من المتعة والسعادة نلقى فيها النهاية العظمى من اللذة والسرور مقابل النهاية الصغرى من الألم . إنما المقصود بالمتعة ليس متعة الشهوات الغليظة ، بل متعة العقل بتهذيبه وتدريبه على الفضيلة . وكما قال فنيلون : إن الناس أساءوا فهم مذهبه واتخذوه مثلا على الفجور ، حتى أصبحت كلمة أبيقورى مرادفا للشهوانى . [المترجمان]

(٣) « بحث ميتافيزيقى لبيير غاسندى ، . . . » أمستردام ١٦٤٤ ، Petri Gassandi *Disquisitio metaphsica, seu dubitationes et instantia, adversus Renati Cartesi metaphysicum, et responsa*. Amstelodami, 1644 .

من التأثير : « إن فلسفة غاسندى لتبدو لى — على كل حال — أكثر الفلسفات تمشياً مع المنطق ، وأبسطها ، وأعمقها تأثيراً ، وأسهلها . . . » . أما ما كان ينتصر لديه فهو الشك : « إنى أتفلسف منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ومع اقتناعى كل الاقتناع ببعض الأشياء فقد بدأ الشك يساورنى فيها . . . » . مثله فى ذلك مثل الشاعر سيمونيدس الذى طلب منه الملك هيرو أن يصف له الله ، فالتمس يوما كمهلة ، وفى اليوم التالى التمس من الملك أن يمد المهلة إلى يومين ، ثم فى اليوم التالى إلى أربعة أيام . . . وهكذا ، حتى تعجب الملك من ازدياد عدد الأيام فسأله ، فأجاب الشاعر بأنه كلما فكر فى الأمر كلما ازدادت أسباب الغموض.

إذن فليس لدى المتحررين مذهب قطعى صريح . فلنعترف بأنهم ليسوا فلاسفة متعمقين ، فلاسفة السهرات هؤلاء . إنهم يقنعون بتصفح أشعار هوراس كأنها كتاب مقدس ، أما نظرياتهم الميتافيزيقية فقصيرة مختصرة . إذن فما منشأ إشاعتهم الاضطراب فى صفوف حراس التفكير الأرثوذكسى؟ ذلك على التحقيق لأنهم ينقصهم الروح الميتافيزيقى . إن طبيعتهم عاصية متمردة عنيدة . وتربيتهم الأرستوقراطية لا أثر لها إلا أن تقوى فيهم الشك . فهم أشبه بتلك الروافد السريعة التى تراها فى كل مكان فى ميدان العقل ، والتى تتدفق فتوسع نهر الالحاد . عقل يدعى أنه يفكر من تلقاء نفسه ، وإرادة تأبى أن تحد ؛ أولئك ليسوا فلاسفة متعمقين ، ولكنهم « فلاسفة » على كل حال ، إنهم يعتقدون أن السر الدينى ما هو إلا لغز لا يعيننا إدراكه ، وإذا لم يدركوه فانهم لا يلقون إليه بالا ، لانهم يعيشون على هامش الدين ، لا فى الدين . مادام هناك ظلام ، وما دمنا لا نستطيع أن نبدده ، فلنستفد على الأقل من هذه الحياة الفانية ، فلنتذوق فى رقة ، ما تقدمه لنا من متعة ، ولنستسلم لحكم القدر . ولعل ذلك إهمال خلقى ، ولعله تفسير للحياة أسوأ تفسير ، ولكنه مذهب قد اجتذب إذ ذاك عقولاً عديدة لم تكن عقول عوام .

هكذا كان المتحررون الفرنسيون : فئة فائقة الرقة والترف محتوم عليها إما أن تتجدد عن طريق المحالفة مع فئات أقوى منها وأخشن ، وإما أن تنحدر إلى التلف . وهكذا كان جان ديهينو ، الذى خلف جى باتين ودى لامت لى فاييه وترجم مؤلفات الشاعر الرومانى لوكريس Lucrèce كما فعل كثيرون غيره ، والذى عبر عن أفكاره الانكارية أحسن مما عبر الآخرون ، تعبيراً قوياشوبا بحزن عميق :

Tout meurt en nous quand nous mourons;
La mort ne laisse rien et n'est rien elle-même;
Du peu de temps que nous vivons
Ce n'est que le moment extrême.
Cesse de craindre ou d'espèrer
Cet avenir qui la doit suivre.
Que la peur d'être éteint, que l'espoir de revivre
Dans ce sombre avenir cessent de t'égarer.
L'état dont la mort est suivie
Est semblable à l'état qui précède la vie.
Nous sommes dévorés du temps.
La nature au chaos sans cesse nous rappelle.
Elle entretient à nos dépens
Sa vicissitude éternelle.
Comme elle nous a tout donné,
Elle aussi reprend tout notre être.
Le malheur de mourir égale l'heur de naître,
Et l'homme meurt entier, comme entier il est né . . . (١)

---

(١) كل شيء فينا يموت عند الموت ؛
والموت لايدع شيئا وراءه ، وهو نفسه لاشيء ؛
إنه ليس إلا اللحظة الأخيرة
من الوقت القصير الذى نقضيه .
لاتخش ذلك المستقبل الذى سيتبعه
ولا تأمل فيه .
ولا يخدعنك ذلك الخوف من الهلاك
ولا أمل البعث فى ذلك المستقبل البهيم .
فان مابعد الموت شبيه بما قبل الحياة .
إن الزمن يفترسنا
والطبيعة تدعونا باستمرار إلى الهوة .
إنها تغذى على حسابنا تطوراتها الأبدية .
هى التى وهبتنا كل شيء ،
ولذا تسترد منا كل الوجود .
ان بؤس الموت يعدل فرحة تنسم الحياة .
والانسان كما ولد بأكمله ، بأكمله يموت .
من مؤلفات جان ديهينو ، ذكرها فردريك لاشير ، ١٩٢٢ ص ٢٧ ، *Imitation du chœur de l'acte second de la Troade de Sénèque, Œuvres diverses*, 1670; cité par Frédéric Lachèvre, *les Œuvres de Jean Dehénault*, 1922, p. 27

وهكذا كانت مدام ديهوليير Mme. Deshoulières ؛ وهكذا أيضاً كانت نينون دى لانكلو ،(١) التى كانت مقتنعة بأنها لا روح لها ، ولم تفارقها هذه العقيدة حتى فى شيخوختها ، بل فى احتضارها ..

ولكن أنضر زهرة فى تلك الطاقة كان مولانا شارل دى سان دينس(٢) messire charles de Saint-Denis مارشال جيوش « الملك المسيحى جدا » . منذ عام ١٦٦١ — حين لجأ (سانت افريموند) إلى انجلترا ، هاربا بعد فقده الحظوة لدى ملك فرنسا والوزراء — حتى وفاته فى عام ١٧٠٣ ، لم يعرف مهمة أخرى غير أن يكون متحرراً : ويذا وجد وقتا فسيحاً لكى يصبح نموذجا فذاً للمتحررين ، وهكذا بدا للفرنسيين الذين كانوا يأسفون عليه ، وللانجليز الذين كانوا يحبونه ، وللهولنديين الذين أقام بينهم زمنا طويلا . كان يوجد فى شخصه وفى بعض ميول ذهنه شئ من التأخر والرجعية : مثل الرجل الذى اضطر إلى تغيير عاداته وحياته وهو فى عنفوان شبابه فتراه يحاول ألا يقع أسيراً لماضيه . هكذا بقى «رجلا فاضلا » حتى فى وقت عز الفضلاء فيه ، ويدأ ذلك المثال الجميل للانسان بعدما فقد قوته يحتل مكانا بين الذكريات . وهو كرجل فاضل لم يفتخر بشئ ، وإذا ما تناول اليراع كثيرا ليكتب ، فليس ذلك — كما يقول — على منوال أستاذ يكتب للتعليم ، فى ألفاظ قاطعة من الحكم والأمثال ، بل كرجل مجتمع يحاول أن يمضى وقت الفراغ . لم تكن كل هذه الرياضيات والطبيعة التى انشغل بها الناس من حوله، تثير اهتمامه . فعنده أنه لا علم يهم ذوى الفضل والشرف سوى علم الأخلاق، والسياسة والأدب : وهو استعداد رجعى فى زمن يوشك العلم فيه أن يؤيد عمل الفلسفة ويكمله ، زمن من يبق فيه بمبعدة عن العلم ، يتعرض للبقاء على هامش الحياة . كان سانت إفريموند مشغوفا بالدراسة الدقيقة لمؤلفات القدماء ، وبالمقارنات المتزنة التى يجريها ناقد نبيل بين المؤرخين ، وبين الخطباء ، وبالتحليل والموازنة ، وتصوير الشخصيات ، وغير ذلك مما يجد فيه عقل رقيق

---

(١) نينون دى لانكلو Ninon de Lenclos : غادة مشهورة بذكائها وجمالها ولدت فى باريس وكان صالونها كعبة للأدباء والنبلاء ، (١٦٢٠ - ١٧٠٥) . [المترجمان]

(٢) لقب آخر لسانت أفريموند . [المترجمان]

بطبيعته تجربة لقدرته السيكولوجية ؛ وكان يباشر الحادثة وليس هذا فى حاجة إلى تبيان . وقد نال كل مبتغاه حينما جاءت هورتانس مانسينى دوقة مازارين لتقيم فى لندن ، وافتتحت صالونا : صالونا سيغشاه كل يوم ، وذلك هو ما كان ينقصه حتى الآن فى الحياة .

وكان أبيقورياً ، يرى أن ليس بين آراء الفلاسفة عن الخير الأسمى ، رأى يبدو أصح من رأى أبيقور . كان يريد أن يعيش مجاريا الطبيعة ، وهو وإن لم يدرك تمام الادراك — فى الحق — ما هى هذه الطبيعة ، إلا أنه عرف كيف يعيش عيشة رقيقة ناعمة . كانت السلطة تحميه حتى لما تغير صاحبها بانتقال الحكم من يد جاك الثانى إلى يد وليم الثالث ، وكان يشغل فراغ أيامه بعادات لطيفة منظمة ، وكان نهماً أكولا ، يعين متعه بدقة حتى يكون أكثر تلذذاً بتذوقها ، فكان بذلك كله مثالا ظريفاً لحب الذات . كان يبغض فكرة الامتناع والحرمان ، والزهد وتعذيب النفس . أما الاعتدال والاتزان ، وعدم الاكتراث الذى يتيح للمرء تجنب الشهوات ، وحب الذات فى رقة ، فيراها فضائل أساسية ، ومثل ذلك التوفر على حفظ الصحة ، فانه خير قيم ، جعلنا اعتياده نبخسه حقه من التقدير .

وقد أصيب بعاهة نغصته ، لما بلغ السبعين من عمره . يقول لنا دى ميزو ناشره ومؤرخه الأول « كان لسانت افريموند عينان زرقاوان حينان براقتان ، وجبين عريض ، وحاجبان كثان وفم جميل وابتسامة ماكرة ، وطلعة طريفة ناطقة بالذكاء ، وقوام ممشوق ، وخطو نبيل وثيق ، وقبل وفاته بعشرين عاما ظهر بين عينيه كيس دهنى ، كبر كثيراً فيما بعد . . . » ولكنه قابل ذلك بتصرف حكيم : فليس بذى أهمية أن يصاب المرء بدمل بين عينيه ، مادام باقياً على قيد الحياة . « إن ثمانية أيام من الحياة لأثمن من ثمانية أيام من المجد بعد الوفاة . »

كان يعتز بتلك الحياة التى أفلح فى إطالتها بمهارته ، والتى رقت له بعد عوائق شبابه . لم يصب إلى متعة أخرى ، ولقد كان دون ريب يؤثر على كل ما كتب تخليداً لذكره ، الكلمات الآتية :

Aimé de plus d'un roi, chèr a plus d'une dame,
Il connut peu l'orgueil, peu l'amoureuse flamme; (١)

---

(١) أحبه أكثر من ملك ، وأعزته أكثر من حسناء ،
عرف الكبر قليلا ، ولفحته شعلة الغرام ؛

Ecrire et bien manger, fut son double talent,
Il nourrit pour la vie un amour violent,
Connut à peine Dieu, mais point du tout son âme ... (١)

والحق ، أنه شعر يحب شديد للحياة ، ولكل ما يجعلنا نقدر الحياة : حرية التصرف من تلقاء الذات ، وفوق كل حرية ، حرية عقل لا يقبل إلا قانونه الخاص .

هل ينبغي أن نتصور له نفساً أكثر تعقيداً ؟ هل ينبغي أن نعتقد أنه سبك قصته الشخصية ، وأراد أن يخلف للناس صورته ، مرسومة حسب بدعة المتحررين ، بينما سانت أفريموند الحقيقي ، يحن إلى وطنه ، ولا يشك إلا قليلا ، ويأمل دائماً ؟ ذلك ليس مؤكداً ، ولو أنه طالما أيده الكثيرون . فانه ، عندما تقلقه حالة الانسان التعسة ، ويطلب صعوداً إلى درجات الملائكة ، أو سقوطا إلى درك الحيوان ، لا يبتهل إلى « الاله » الذى مات على الصليب ، والذى يهينه مثل هذا الطلب ، وإنما يبتهل إلى الطبيعة :

Un mélange incertain d'esprit et de matière,
Nous fait vivre avec trop ou trop peu de lumière,
Pour savoir justement et nos biens et nos maux.
Change l'état douteux dans lequel tu nous ranges,
Nature, élève-nous à la clarté des anges,
Ou nous abaisse au sens des simples animaux. (٢)

وعلى كل حال ، فحتى لو كانت تلك الصورة المتفقة قد اختلفت عن أصل

---

(١) موهبته المزدوجة ، الكتابة وجودة الطعام .
أحس حيال الحياة حباً جارفاً شديداً ،
يكاد يؤمن بالله ، ولم يؤمن قط بالروح .

(٢) إن مزيجا مبهما من المادة والروح ،
يجعلنا نعيش بكثير — أو بقليل — من النور ،
لندرك مايصيبنا من خيرات وشرور .
بدلي أيتها الطبيعة حالة الشك التى تدفعيننا إليها ،
وارفعينا إلى ضياء الملائكة ،
أو أسقطينا إلى مشاعر الحيوان .

يذكره ا. م. شمت ، سانت افريموند ١٩٣٢ ص ١٤١ Cité par A. H. Schmidt,
Saint Evremond ou l'humaniste impur, 1932, p. 141

حافل بالتردد والتناقض ، فسيبقى ذلك الأصل سراً مطوياً ، ولا يشتهر إلا الرجل المتحرر : « لو أننا درسنا حياته ومؤلفاته ، بحثا عن رجل جاد رزين ، وعن حياة فيلسوف ، فلن يطول بنا الأمر حتى نكتشف أننا قد وقعنا فى خطأ كبير ، وأن امرأ يسلك مسلكه ، لن يكون يوما فيلسوفا جاداً ، يعيش بمبعدة عن المتع الحسية . . . وفيما يتعلق بمؤلفاته ، سيخيب رجاؤنا إذا نحن بحثنا فيها عن علم ضليع بالفلسفة ، أو بالتاريخ القديم ، أو عن صرامة رواقية(١) أو تنسك ، إذ نقرأ كتبه من أولها إلى آخرها دون أن نجد شيئاً مما كنا ننشده » . أبيقورى خفيف : هكذا يصفه جان لى كاير فى مجلته « المكتبة المنتخبة » ، فى تعليقه على نشر مؤلفاته فى أمستردام(٢).

أى جديد يأتى به سانت أفر يموند فى طائفته ، ذلك الرجل المتحرر ، بشير العصر الجديد ؟ أولا ، لمحة تدل على جامعيته Cosmopolitisme ، لا لاهتمامه بأدب البلد الذى يقيم فيه ، ولا لترجمته «فولبون» Volpone ، ولا لتأليفه ملهاة *Sir Politick would be* على الطريقة الانجليزية فحسب ، بل لأنه — فوق ذلك — أدرك فكرة النسبية ، كما أدرك فكرة التطور فى التاريخ . لقد فهم أن كل شعب ، بما له من أخلاق وسلوك وموهبة تخصه وحده، إنما يمثل قيمة لا يستطيع شعب آخر أن يخضعها لقانونه الخاص . ولقد رفض أن يعد الأجنبى بربريا ، وطبق فى العلائق الدولية ذلك التسامح الذى نادى به تجاه الأفكار . فكما أن لكل نظرية حقيقتها ، فلكل شعب مزاياه : «الحق أننى لم أر أوسع أفقاً وإدراكاً من الفرنسيين الذين يعيرون الأمور اهتماما كثيراً ، والانجليز الذين يستطيعون أن ينتزعوا أنفسهم من لجة التأمل والتفكير ، للعودة إلى سهولة الحديث ، وإلى بعض حرية الفكر ، التى ينبغى ألا تنقص المرء أبداً ، ما أمكن . وأفضل من فى الدنيا ، هم الفرنسيون الذين يفكرون ، والانجليز الذين يتحدثون . »

وهو يتطلع إلى المستقبل ، مدفوعاً بتلك الارادة فى الفهم . ويحس شعورا

---

(١) الرواقيون : Stoïciens ، أو مذهب زينون . مذهب حلولى أى لا يفرق بين الاله والكون Panthéiste ، ولكنه اشتهر على الأخص بأخلاقه ، التى تضع الخير الأسمى فى الجهد والخضوع للعقل ، دون نظر إلى الظروف الخارجية : المال والصحة والألم . . . وجوهر هذا المذهب فى الواقع هو احتمال الألم وعدم الاكتراث له . [المترجم]

(٢) سنة ١٧٠٦ ، الجزء التاسع .

من الراحة والهدوء فى حالته الدينية . فهو لم يخالجه يوما شعور بأنه عاص متمرد ، بل يستغرق فى عدم التصديق براحة البال التى يجدها الآخرون فى الايمان ، مقابل بعض التضحيات ، نزولا على حكم المظاهر والعادات . وإذا كان بعض المتحررين قد عانوا الاضطهاد من أجل أفكارهم ، فهو على النقيض يفوز بالجزاء والمجد ؛ إن سانت أفريموند لا يمثل التحرر المناضل ، بل التحرر الظافر . ألم يدفن ممجداً مكرماً فى وستمنستر فى ركن الشعراء ؟ — وهو يدلنا، على الأخص ، على الاتجاه العام إلى مذاهب أقوى ، مذاهب أكثر تهجماً ، وأكثر اقتداراً على تقديم سواد جوهرية تغذى العقول الشرهة المتحرقة إلى التجديد . لقد عرف إبان إقامته فى هولندا من عام ١٦٦٦ ، إلى عام ١٦٧٢ يهوديا يدعى سبينوزا ، ولقد سرته — كما يقول دى ميزو — رؤية «بعض مشاهير العلماء والفلاسفة الذين كانوا وقتئذ فى لاهاى ، وعلى الأخص هينسيوس وفوسيوس وسبينوزا . » ولسنا نعرف ماذا دار بينهم على التحقيق ، ولكن الذى نعرفه أنه بعد مقابلتهم بزمن طويل ، أصبحت ذكرى سبينوزا تحتل مخيلة سانت أفريموند ولاتريم . « لقد خيل إلى المتحررين الفرنسيين ، الذين لا يمثلون بعد ، إلا رغبة متأرجحة فى التخلص من القيود ، وتبرما بالطاعة والنظام ، وتمرداً على المذاهب والنحل ، أو قل ثورة معنوية فى الاجيال — خيل إليهم أنهم سيجدون فى ذلك الرجل المتواضع الذى يعيش متأملا منعزلا فى راينبرج وستيل فركيد ، عالماً يضع نظرية عن مروقهم ، وميتافيزيقيا يؤيد بالمنطق ، ويترجم إلى مذهب ، الهدف العميق لذلك المروق . . . (١) »

---

(١) جوستاف كوهين : إقامة سانت أفريموند فى هولاندا ودخول سبينوزا ميدان التفكير الفرنسى ، ١٩٢٦ Gustave Cohen, *Le Séjour de Saint-Evremond en Hollande et l'entrée de Spinoza dans le champ de la pensée française*, 1926 - رحل دبهينو إلى هولاندا ليقابل سبينوزا « كان دبهينو Dehénault رجلا واسع العقل ضليع العلم ، مشغوفا بالمتعة فى غير ابتذال ، ماجنا فى فن وتأنق . لكن فيه أكبر عيب يمكن أن يصيب الانسان : كان يزهو بكفره ، ويعلنه بفخر وإعجاب بغيض — ألف ثلاث نظريات عن فناء الروح . ورحل إلى هولاندا لكى يقابل سبينوزا ، الذى لم يقدر سعة علمه واطلاعه كثيراً ، بالرغم من ذلك » . Dubos à Bayle, dans le *Choix de la Correspondance de P. Bayle*, par E. Gigas, 1890 (دبو إلى بايل ، ٢٧ ابريل ١٦٩٦ ، فى رسائل بايل المختارة ، تأليف جيجاس ، ١٨٩٠) .

وهكذا ، فان المتحررين يعملون أولا على اكتساب الشهرة ، بالرغم من ضعف مذهبهم ، وهم لم يقبلوا أبداً الهدنة الفلسفية التى عرضتها الكلاسيكية الفرنسية ، ورفضوا قبول أى مذهب بحسبانه مذهباً مكتملا ؛ لقد شكوا دائماً ، ودأبوا على الانكار . إن عصيانهم بمثابة إعداد للتمردات المستقبلة . إنهم ذخيرة من عدم الايمان . وهذا صحيح حتى إنه فى المجادلات الصحفية لذلك الزمن ، لم يفرقوا بين أولئك الذين ينتقدون نصوص الانجيل ، والذين لم يعتقدوا بالوحى وبالمعجزات ، وغير المكترثين ، والكفار ، بل يسمونهم جميعاً « متحررين » ؛ و إنما يرجع ذلك إلى عدم الاعتناء با لتمييز بين الآراء ، والمذاهب ، والنظريات، وبفحص الفوارق ، وتعيين الحدود ، و إلى مبادرتهم إلى وسم العقول التى تعد خطرة على الايمان ، دون أناة .

ولكنه صحيح أيضاً أن المتحررين لم يعودوا يكتفون بأنفسهم ، وأنهم اضطروا فى نهاية القرن السابع عشر إلى البحث عن دعامة فى فكرة فلسفية أقوى وأكثر انسجاماً . إذا كان التحرر يعنى من جهة عدم التصديق ، ومن جهة أخرى حب الحياة الشهوانية — دالا بذلك على حرية مزدوجة : حريه العقل وحرية الحواس — فان الزمن قد أخذ فى تغيير هاتين الصفتين . فعديمو التصديق يبحثون عن مذاهب جديدة تحل محل مبادئهم الغاساندية المستضعفة المتأخرة ، حتى إننا سنجد فى فولتير شخصاً آخر وأكثر من متحرر . أما الشهوانيون فسيطلبون متعا أقل رقة ، وأقل اعتدالا ؛ وسيظهرون أفسق وأوقح . وفى عهد الوصاية(١) ، سنرى تحرراً فيه شئ آخر غير البحث عن التوازن ، بل سنجد تظاهراً بالمغالاة ، فان ندماء الوصى على العرش Les Roués ، سيشتهرون بالابتذال فى الأخلاق أكثر من اشتهارهم بالاستقلال فى التفكير . وسوف يتم هذا الانتقال على أيدى لافار والشاعر شوليو La Fare et Chaulieu ولا سيما الأخير، الذى يعتقد أن النبيذ والنساء يعدان فى مقدمة المتع

---

(١) عهد الوصاية : La Régence أى حكم فيليب دورليان فى قصور لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٢٣) وهذه الحقبة مشهورة فى تاريخ فرنسا وتميز بحرية مفرطة فى الأفكار ، وفى الأخلاق على الخصوص . وقد انفجرت عقب وفاة لويس الرابع عشر ونهاية حكمه الظالم الشديد . [المترجم]

التى تحبونا بها الطبيعة الحكيمة ، والذى رد ذات يوم على أشعار صديقه ماليزيو Malézieux بهذا الاقرار :

Pour répondre à tes chansons,
Il faudrait de la Nature
De Lucrèce ou d'Epicure.
Emprunter quelques raisons;
Mais sur l'essence divine
Je hais leur témérité,
Et je n'aime leur doctrine
Que touchant la Volupté,
Je suis cet attrait vainqueur,
Ce doux penchant de mon âme
Que grava d'un trait de flamme
Nature au fond de mon cœur;
Dans une sainte mollesse
J'écoute tous mes désirs;
Et je crois que la sagesse
Est le chemin des plaisirs . . . (١)

لقد أخذ معنى الكلمة يتغير ؛ ينبغى أن نخصص وأن نقول « المتحررين عقلا (٢) » libertins d'esprit ، إذا أردنا أن نبين أننا لا نقصد التحرر فى

---

(١) لكى أرد على أشعارك ،
ينبغى أن ألتمس بعض البراهين
لدى « طبيعة » لوكريس وأبيقور .
ولكنى أبغض جرأتهما فيا يخص الجوهر الالهى ،
ولا يعجبنى مذهبهما إلا فيا يخص الشهوة
إنى أتبع تلك الجاذبية الظافرة
ذلك الميل اللطيف لروحى ،
الذى نقشته الطبيعة فى أعماق قلبى ،
بألفاظ من نار .
إنى أصغى إلى شهوانى ،
فى استرخاء قدسى ،
وأعتقد أن الحكمة هى طريق المتعة .

(٢) بيير بايل : القاموس ، باب أرسيزيلاس Arcesilas « نحن لا نراعى المبدأ الحقيقى لأخلاقنا فى أحكامنا النظرية على طبيعة الأشياء ، حتى إننا لا نجد أناسا سيئى السيرة أكثر من المسيحيين الأرثوذكس ، ولا حسنى السلوك أكثر من المتحررين عقلا ».

الحواس . بينما الذين « بقعون فى الديزم (الايمان بالله وإنكار الوحى) ، أو فى هذا النوع من الشك . . . يدعون العقول القوية (١) » .

***

Nulla nunc celebrior, clamorosiorqu esecta quam Cartesianorum

« ليس أشهر الآن من المذهب الديكارتى » ، ذلك ما يعلنه أحد المعاصرين فى كتاب عنوانه بليغ الدلالة *Historia Rationis* (٢) . الواقع أنه فى نهاية القرن أصبح ديكارت ملكا . بيد أن ملكيته ليست مطلقة ، لأن مثلها لا يحدث فى ميادين الفكر ، ولأن بعض الخصائص الأهلية والجنسية تبقى ولا تتغير ، حتى فى أكثر أشكال التفكير تجرداً ونظرية . فان ديكارت لا ينجح فى غزو الفكر الانجليزى ولا الفكر الايطالى ، اللذين يذودان عن انجلترا وإيطاليا ويبقيـان على خصائصهما الجنسيـة . لكن إذا نزل المفكرون إلى ميـدان «الشامل» فان ديكارت يتوج ويسود . فما من فرنسى يفكر ، إلا ويتأثر بنفوذ ديكارت إلى حد ما ، ولو كان من أخصامه ، وما من أجنبى ذى شأن وخطر لم يكتسب منه على الأقل تشجيعاً على التفكير والتفلسف . إن لوك يعترف بأنه مدين له ، وسبينوزا فى بدايته يشرح نظرية ديكارت، ولعل أحداً لم ينفذ مثله إلى أعماق تفكير الأستاذ . ولما حاول فيكو بعد ذلك بقليل أن يجود على إيطاليا بفلسفة من بنات أفكاره ، فان العدو الذى يضطر إلى محاربته لم يكن أرسطو المخلوع عن العرش ، بل ديكارت المتربع على العرش . لقد صار مذهب ديكارت يدرس رسميا فى مدارس هولاندا ، ومنها ينتقل إلى المجر ، بفضل الطلبة العائدين من جامعات ليدن ولاهاى وأمستردام وأترخت وفرانيكير ؛ واتخذت ألمانيا مذهبه وسيلة للتحرر من المدرسية ، وهنا أيضاً ، إذا أردنا أن نقدر قوة فعل بما يصحبه من رد فعل ، فلنتذكر أن ليبنتز العظيم قد عنى بتفنيد ديكارت . إن أتباع ديكارت ، الذين سبق أن حوكموا ، وأدرجوا فى القائمة السوداء ، وعانوا النير والاضطهاد ، وأدينوا ، قد أصبحوا بعد مرور نصف قرن يشغلون

---

(١) بيير بايل : أفكار عن المذنب ، الفصل ١٣٩ ، *Pensées sur la Comète* § CXXXIX.

(٢) تاريخ العقـل : ب . كوليه ، ١٦٨٥ ، البـاب الثـالث عشر ص ١٠٧ .
Historia Rationis, auctore D. P. D. J. U. D. (P. Collet) 1685, art. XIII, p. 107.

المناصب الجامعية ، ويلقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ؛ أصبحوا موضع التشريف والتكريم : دانت لهم السلطة .

حينما يبلغ مذهب هذا المدى الواسع من الانتشار ، حتى يعرفه من لم يمارسوه أبداً ، وحتى يؤثر على من لم تكن لهم أى صلة بالكتب التى تشرحه ، فمن الطبيعى أن يفقد على طول الطريق كثيراً من رواته ، وألا يبقى منه ما يؤثر ، إلا ذلك الشطر من جوهره الذى يمتزج إلى الأبد بالتراث الانسانى . هكذا فقدت فى الطريق ، الغدة الصنوبرية La glande pinéale وهى معقل الروح ، « والحيوانات — آلات » ، التى لا تشعر باللذة أو بالألم ؛ والملاء ، والعواصف، وفيزيقا ديكارت ، بل ميتافيزيقاه أيضاً . . . فماذا نبقى إذن ؟ تبقت روحه ، وطريقته وهى كسب بلا شك ، وقواعده الساطعة التى تضئ أمام العقل الطريق ، والتى بلغ من بساطتها وقوتها أنها وإن كانت لا تنير لنا كل اليقين ، فهى تتيح لنا على الأقل أن نبدد جانباً من الظلمات .

الثقة بالعقل الذى أصبح بعد أداة للمعرفة الأكيدة ، « تلك الحركة التى تجرى من الداخل إلى الخارج ، من الذاتى إلى الموضوعى ، du subjectif à l'objectif (١) من السيكولوجى إلى الأنطولوجى(٢) ، ومن توكيد الضمير إلى الجوهر(٣) » : هذه هى القيم الموقوفة التى يخلفها ديكارت للجيل الثانى والثالث من أتباعه . فلنصدق فونتنل فى قوله « يخيل إلى أنه مصدر هذا المنهج الجديد فى الاستدلال ، والذى يفوق فلسفته نفسها ، تلك الفلسفة التى لو طبقنا عليها القواعد التى تعلمناها منه ، لوجدنا شطراً كبيراً منها خطأ ، أو غير وثيق . »

ولم يعد فى إمكان ذلك العقل الثائر المنطلق أن يقف ، وهو لا يعترف بأى تقليد أو أية سلطة ؛ إنه يعلن أن « ليس هناك ما يمنع من أن نطرح كل شئ لكى نفحص كل شئ » إنه يريد أن يمحو الحقيقة المجردة . إن الكلمة السحرية

---

(١) Subjectif « ذاتى » أو ما يخص الفاعل المفكر . . . Objectif « موضوعى » أو ما يخص الموضوع .

(٢) « السيكولوجى » ما يخص النفس . « الأنطولوجى » ما يخص الوجود والكائنات . [المترجان]

(٣) (تاريخ الأفكار « الاستطيقية » ، مقدمة .

Menendez y Pelayo, *Historia de las ideas esteticas*, siglo XVIII, Introduccion.

القادرة على قمع القوات التي توشك أن تكون خطراً ، والتي تكمن خطورتها في نفس تزايد قوتها ، تلك الكلمة الحكيمة التي فاه بها الأستاذ في سرعة وفي حذر ، لم يعد يتذكرها تلامذته السحرة ، وإذا هم تذكروها فانهم يرغبون عن استعمالها . إن لهم الأرض والسماء ! لهم كل ما يقع في دائرة المعرفة ! لهم الأدب والفن ! لا شيء — في عرفهم — يفر من قبضة الذهن الهندسي . ولهم علم اللاهوت ! إن أستاذاً في الرياضيات ، هو يعقوب شاوتشزر Jacob Scheuchzer في سياق مدحه للذهن الهندسي في الموضوعات اللاهوتية(١) ، يذكر في زهو وتقدير ، « المقدمة » التي أدرجها فونتنل في مؤلفه (تاريخ الجامعة الملكية للعلوم منذ قانون ١٦٩٩) *Histoire de l'Académie des sciences depuis le règlement fait en* 1699. « إن الذهن الهندسي ليس وثيق الارتباط بالهندسة حتى يتعذر فصله عنها ووصله بمعارف أخرى . فان مؤلفاً سياسياً ، أو أخلاقياً ، أو نقدياً ، أو حتى مؤلفاً في البلاغة ، قد يزداد جمالا لو أنه كتب بيد هندسية ، مع بقاء كل شيء على أصله . لعل المنبع الأول لما يسود الكتب القيمة من زمن ، من نظام ودقة ووضوح ، هو ذلك الذهن الهندسي الذي بلغ من الانتشار مداه ، والذي يسرى رويداً رويداً حتى إلى من لا يعرفون الهندسة . يحدث أحياناً أن رجلا عظيما يؤثر في عصره بأسره ، والرجل الذي يستحق عن جدارة أن ننسب إليه شرف وضع فن جديد للاستدلال ، كان عالماً عظيما في الهندسة . » لقد انتهى الأمر ، ومر الزمن ؛ لقد أثر ديكارت الهندسي في العصور الحديثة . — لكن إذا نحن افترضنا أن هذا الذهن الهندسي تعرض للعقيدة ، وطبق دون تحوط على مسائل الايمان، فترى ماذا يحدث ؟ يحدث « محو الأديان » : فانه يعمل على إزالتها كلها (٢) .

أهنالك مثال أعجب من أن مذهباً يؤدى منطقياً إلى نتائج متعارضة ؟ لقد أقيم التدليل على ذلك الواقع في حذق وبراعة حتى إننا لا نملك إلا أن

---

(١) استعمال الفكر الهندسي في علم اللاهوت ، ألفه يعقوب شوتشزر . ١٧١١ .
Praelectio de matheseos usu in theologia, habita a Jh. Jacobo Sheuchzero, med. D. math. P., Tiguri, 1711.

(٢) أخبار جمهورية الأدب ، نوفمبر ١٦٨٤ ، الباب الأول .

نذكره باعجاب(١) وتقدير . إن الفلسفة الديكارتية تمد الدين ، أولا ، بدعامة قيمة مكينة ؛ ولكن هذه الفلسفة تحمل فى تناياها مبدأ لا دينياً ، يتضح على مر الزمن ، وبعمل ويؤثر ، حتى يستعمله الناس فى تقويض دعائم العقيدة . كان المذهب الديكارتى يهيئ يقينا ، وأماناً ، ويقدم حيال الارتيابية توكيداً قاطعاً ، إذ يثبت وجود الله ، ولا مادية الروح ، ويميز بين الفكر والامتداد ، وبين الفكرة النبيلة والحساسية ، ويسجل انتصار الحرية على الغريزة: والخلاصة أنه كان سياجا ضد التحرر . ثم إذا به يثبت التحرر ويقويه . ذلك لأنه كان ينادى بالفحص والنقد ، ويحتم البداهة حتى فى المسائل التى أبعدتها السلطة عن متناول قوانين البداهة . كان يهاجم المعقل المؤقت الذى شيده ليحتمى فيه الايمان . لابد أن يرى المرء النقطة المعينة التى ينتهى إليها المذهب الديكارتى ، طوعا أو كرها ، وبشرط ألا يحاول المرء أن يخدع نفسه ؛ حيث يناقش الأديان ، وماهية الديانة بالذات . بل لقد طرد المذهب الديكارتى أرسطو: «لعل المشائين أنباع أرسطو Péripatéticiens ، قد اشتد بهم الخجل والارتباك ، لرؤية كلمة الله الأبدية Le Verbe Eternel وقد أصبحت ديكارتية ... (٢) » ولو أنك انتظرت بعض الوقت ، لرأيت إلى أين ستصل نتائج التفكير الديكارتى : « كم ستتملككم الدهشة لو رجع ديكارت الآن إلى الدنيا . أظنكم سترون فيه أعدى أعداء المسيحية . (٣) »

***

ذلك الانفصال بين العقل والدين ، الذى يسير ويؤيد نفسه بنفسه ، سينبرى رجل ليعارضه ، بكل ما أوتى عقله من قوة : هذا الرجل هو الأب مالبرانش Malebranche الذى لم يكف طوال حياته عن الاعتقاد بأن « الدين ، هو الفلسفة الحقيقية » .

---

(١) جوستاف لانسون : تأثير الفلسفة الديكارتيـة على الأدب الفرنسى ، دراسات التاريخ الأدبى ١٩٣٠ . G. Lanson, *L'influence de la philosophie cartésienne sur la littérature française, Études d'histoire littéraire*, 1930

(٢) جوريو : فكر المسيو أرنو ١٦٨٤ ، ص ٧٨ . Jurieu, *L'esprit de M. Arnauld*

(٣) ل . ا . كاراجيولى : محادثة بين عصر لويس الرابع عشر ، وعصر لويس الخامس عشر ، لاهاى ١٧٥١ ص ٣٩ . L. A. Caraccioli, *Dialogue entre le siècle de Louis XIV et le siècle de Louis XV*, La Haye, 1751, p. 39

ليس ذلك الرجل بعيداً عن أن يكون فيلسوفا صرفا ، كما يظن العوام : إنه لا يجد راحته التامة إلا فى ميادين « اللامتناهى » ، وهو يتغذى بالأفكار، وما أقل احتياجه إلى المادة ! ولقد كان بمقدوره أن يخترع الميتافيزيقا ، لو لم تكن موجودة من قبله . إنه شخصية ظريفة ، نسيج وحده ، بسيط فى مظهره ، معقد فى مخبره ، كان ضعيفاً مسقاما ، تقوده فطرته — كما يقول فونتنل الذى يرى فيه موضوعاً عجيباً شائقاً — نحو سبيل الحكمة والحرمان التى تحتمهـا إرادته : حتى إن الطبع والارادة ، الجسد والعقل ينفقان لأول مرة ، وفى ذلك الرجل . لقد التجأ إلى جمعية الأوراتوار(١) ، خوفاً من الدنيا ، وفزعاً إزاء الحياة ، وفراراً من جلبة الوظائف والرتب ، والحق أنه عاش متواضعاً أقصى التواضع خاشعاً كل الخشوع . ولما كان غنياً فقد تخلص من ماله ، بجوده وعطائه. كانت فيه على الأقل بعض الفضائل التى تجعل من القديس قديساً . ولكنه مع صفاء قلبه وسذاجته ، كان أيضاً وقاد القريحة ، صلب الرأى ، قوى الارادة ، لا شئ فى الدنيـا يحمله على التخلى عن أفكاره ، وحينما تولد أفكاره المشاكل ، كانت له طريقة نفرد بها ، وهى أن يلقى بنفسه فى مشاكل أخرى ، حتى تستغلق هى ، وينتصر هو .

وذات يوم صادف الفكر الديكارتى ، فكان معين إلهامه(٢) .لغاية ذلك الوقت ، لم يكن يعرف فيم يستغل عقله ، كان يتلمس السبيل ؛ أما بعد ذلك فلم يتردد : قرر أنه سيغدو ديكارتياً ومسيحياً ، معا . سيصلح ما بين الديكارتية والمسيحية من خلاف . منذ ذلك اليوم ، تقرر اتجاه حياته .

كان يطيل التفكير ويتعمق فيه ، حتى إذا بدا له أن تفكيره قد نضج ، خرج على الناس بأبحاث ميتافيزيقية ضخمة ، تخلق رنة وضجة . لقد سعى إليه المجد بنفسه ، مجد بلغ من الحيوية مبلغاً لا نستطيع أن نتصوره اليوم ، ولكنه

---

(١) Congrégation de l'Oratoire : جمعية دينيـة ، تأسست فى روما فيما سبق ، ثم انتقلت إلى فرنسا سنة ١٧١١ .

(٢) ذات يوم وجد مالبرانش فى مكتبته « المقـال فى المنهج » كتاب ديكارت . وفى هذه اللحظة شعر بالهام عميق ، وقرر الفرار إلى الريف حيث عاش عشر سنين فى عزلة تامة وتفكير عميق . وبعدها عاد إلى الأوراتوار وكتب مؤلفه الشهير « البحث عن الحقيقة » الذى أكسبه مجداً منقطع النظير . (أنظر حياة مالبرانش بقلم أوليه لابرون) . [المترجمان]
Ollé-Laprune, *Malebranche* (Ladrange) 1870, 2 vol.

تعدى فى إشعاعه حدود فرنسا ، وكتب له من البقاء أطول مما كتب لصاحبه. وكان له قراء وأتباع ومتعصبون: فان طالباً فى مدرسة أكليركية فى نابولى ، يدعى برناردولاما ، هرب من وطنه ووصل إلى باريس ، قاصداً رؤية مالبرانش الشهير . وكان مالبرانش يعيش فى هدوء ، بمبعدة عن كل ذهن ثورى متمرد، ومع ذلك فقد أثار مناقشات طويلة ، وتفنيدات حماسية ، جعل يرد عليها باقتناع عميق ، حتى إن حياته كانت عراكاً فلسفياً مستمراً . ومن صومعته الصارمة ، حيث التجأ ليفكر بمنأى عن المجتمع ، مستخفاً بالطبيعة ، انبعثت فى ضياء ساطع « تلك المحاولة الأخيرة للفلسفة المسيحية الحرة . » وهذه المحاولة ، التى عاونتها مزية تفكير مولع بالمسائل العويصة ، هى التى أثرت على النفوس وفازت بأسمى تقدير فى تاريخ الأفكار .

البداهة العقلية : ذلك هو النور الوضاء الذى كان يصبو إليه مالبرانش فى غيرة صوفية . لأن التصوف عنده يتفق وتوقير العقل . فهو يعمل فى ورع على أن تظهر الحياة فردية كانت أو شاملة ، وعلى أن يظهر الكون بأجمعه ، كتحقيق لنظام يفسر الايمان ويتضمنه .

بينما ، لو نظرنا إلى الدنيا ، لوجدنا فيها ، بجانب نظام شامل لا ينكر ، اختلالا يربك ويحير . فالظواهر ، والشواذ ، تعلن وجود الشر الطبيعى ؛ والخطيئة تعلن وجود الشر الأخلاق . ومهمة الفيلسوف أن يشرح لنا هذا الاضطراب .

لكيلا يقع بأى حال ما يخالف النظام ، ولكيلا تسقط فى حبائل الاغراء روح توشك على ارتكاب الخطيئة ، وحتى إذا سقطت فلكى تنال الغفران بعد توبتها ، ينبغى أن نفترض إلها يتدخل فى كل لحظة ، ويزعج نفسه فى كل آونة ليأتى بالمعجزات ، ويخالف بنفسه القوانين التى استنها على ألا تنقض : إذن سنستبدل بالاختلال عدداً لا نهائياً من الأوامر الالهية المخالفة .

هنا يتدخل مالبرانش — الذى لا يستطيع أن يتصور أن الله القادر على كل شئ يليق بعظمته ذلك الاسراف فى الوسائل — لكى يقول لنا إن الله يعمل بموجب إرادة شاملة لا خاصة . لابد أن يراعى الله مقتضيات الحكمة ، مادام يمثل الحكمة فى أسمى صورها . إنه يحب الحكمة حباً لا يدفع ، حباً طبيعياً ولازما . ولابد أن يتبع سيرة تليق بأوصافه : سيرة منطقية لا تناقض فيها .

فالمطر يساقط فى نفس الوقت على الحقل ، ليرويه فيثمر ، وعلى الطريق ، والبحر والجدول : عندئذ يأخذنا العجب . فأى الطريقين أصوب ؟ التدخل كلما سقط المطر لتحديد مكان سقوطه ، أم ترك القانون العـام للحركة يأخذ مجراه ؟ إذا كانت هذه الطريق الأخيرة أصوب وأليق ، فان الله لا يستطيع إلا أن يفضلها .

حقا ، إن الله لا يريد تعذيب هذا الكافر أو ذاك الشرير . ولكنه لا يرضيه أن يتدخل باستمرار ، ليهب الايمان لكل الكفار ، والطيبة لكل الأشرار . فان ذلك لا يتفق وفكرة إله ذى حكمة وكمال غير متناهيين ، ومن ثم يستحيل تحقيق السلام الشامل .

كل ما يستطيع الله أن يفعله ، هو أن يضع عللا باعثة Causes occasionnelles : رسلا يعملون طبقاً لأوامره ، وكلت إليهم مهمة وضعت بشكل لا رجعة فيه . إن السيد المسيح قد عينه « أبوه » ليكون العلة الباعثة الوحيدة للغفران الالهى بأسره ؛ وهو يوزع هذا الغفران على الناس ، الذين يصلى من أجلهم وهؤلاء الناس سينقذون دون أن يتكلف « الرب » إرادة خاصة . والسيد المسيح نفسه يصلى ويدعو طبقا لمقتضيات النظام ، وحسبما تحتاج العمارة الروحانية التى يريد الله أن يشيدها ، إلى حجارة حية . فالله يطيع ذلك المبدأ من التبسيط وتوفير القوات ، الذى هو المنطق ، والحق ، والحياة .

هكذا يستدل مالبرانش . وحيثما يشتم خطر انفصال بين الفلسفة والايمان ، سواء تعلق الأمر بسر تناول القربان ، أو بفقرات من الكتاب المقدس محل خلاف ، يهرع ، ويشرح ، ويقول : « كونوا أكثر ثقة بعقولكم ، كونوا أكثر إدراكا لعظمة النظام وقيمته ، يتضح لكم كل شئ ، ويستتب الانسجام . إن رشاقته لا حد لها ، و إن سعة حيلته لاعجازية ، فهو يقيم قصراً واهياً من الأفكار ويدعمه بقصر آخر ، معتقداً أن فى معجزة التوازن هذه ، دليلا على المتانة . إلا أنه لا يدرك أنه بجعله الله يذعن لحكم نظامه المنتصر وحكمته الظافرة ، إنما يسلبه فى نفس الوقت كل حقوقه وبواعث وجوده : إما أن الله لا يعدو كونه وكيلا ، و إما أنه هو العالم الذى يقوم بنفسه طبقاً لقوانين لازمة ؛ حتى إنه ، بالرغم منه ، ومن إرادته القاطعة ، ومن براعته الفذة ، لا يصعب اتهام مالبرانش المسيحى جدا ، بأن مذهبه مخالف للمسيحية . قال له فنيلون فى «مناقضته »

التى كتبها ضده « إنكم لم تقدروا أنكم عملتم على إخضاع الدين لأحكام الفلسفة ، وعلى السماح بقيام المبادئ السوسنيانية ضد أسرارنا . » إن بيير بايل ، الذى كان معجبا به ، بل كان يعد مالبرانش وأرنو أعظم فلاسفة الدنيا ، والذى بعد كتاب « البحث فى الطبيعة والغفران (١) » مؤلفاً لعبقرى ممتاز ومثالا لأقصى مجهود للعقل البشرى » ، لا يخفى عليه إلى أين ستؤدى تلك الميتافيزيقا .
— « لو تحرينا الحقيقة لوجدنا أن مالبرانش يفترض أن رحمة الله وعظمته تحدهما حدود ضيقة ، وأن ليس لله أية حرية ، وأنه ملزم بمقتضى حكمته بخلق الكون، ثم أنه ملزم بأن يكون فعله هذا مثل ذلك الخلق تماما ، ثم أنه يخلقه حسب طرق معينة مثل تلك الطرق تماما . إنك تجد هنا ثلاثة التزامات تكون دعاية رواقية (٢) واضحة. . . » وعلى ذلك يضع بايل قياسين منطقيين مؤكداً : أن فى صغرى القياس الأول ، وكبرى القياس الثانى شرحا لمذهب الأب ، مالبرانش .

— الأول :

أن الله لا يستطيع أن يريد شيئاً يخالف المحبة التى يشعر بها نحو حكمته ضرورة ؛

وسلام العالم كله يخالف المحبة التى يشعر بها الله نحو حكمته ضرورة ؛

إذن لا يستطيع الله أن يريد سلام العالم .

— الثانى :

أن صنيعة الله التى تليق بحكمته تمام اللياقة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً ؛

ولا بد أن الله يريد الصنيعة التى تليق بحكمته تمام اللياقة ؛

إذن لابد أن الله يريد صنيعة ، تتضمن فيما تتضمن خطيئة كل الناس ، وعذاب معظمهم عذاباً أبدياً(٣).

واعجبا ! ألا يكون مالبرانش متدينا فحسب ، بل كاثوليكيا مخلصاً ،

---

(١) *Traité de la nature et de la Grâce*.

(٢) يقصد بالرواقية هنا مذهب الحلوليين أى عدم التفرقة بين الاله والطبيعة وهو ماذهب إليه سبينوزا ، وهو جانب من مذهب الرواقيين . [المترجمان]

(٣) جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثالث ، الفصل ١٥١ .

كاثوليكيا طوال حياته وفي كل أفعاله ، كاثوليكيا في صميم إيمانه ، وأن يعطى في نفس الوقت للحكمة مثل تلك المنزلة ، حتى تبتلع كل شيء ، حتى الله ... !

***

قال ديدرو Diderot (١) ، متحدثا عن نفسه وعن إخوانه الفلاسفة ، « كان لنا معاصرون في عهد لويس الرابع عشر» . وهذا صحيح ، فقد كان له معاصرون في عهد لويس الرابع عشر ، لا في أخريات سني الملك العظيم فحسب حيث نعلم جيداً أن الكتلة السياسية والاجتماعية جعلت تنفصل وتتفكك — بل قبل ذلك بوقت طويل ، في زمن لانرى فيه عادة إلا أورثوذكسية موطدة وسلطانا لامعاً كالبرق . والواقع أنه في نفس الوقت الذى كانت السلطتان الدينية والملكية تعتقدان فيه أنهما ثابتتان لا تتزعزعان ، كانتا ملغمتين . إذا نحن لم ننظر إلا إلى الأدب فحسب ، ولا سيما الأدب الفرنسي منذ ١٦٧٠ إلى ١٦٧٧ ، لأحسسنا شعوراً كله غبطة وسلام وعظمة . لقد مثلت « النساء العالمات » *Les Femmes Savantes* في عام ١٦٧٢ ، و « المريض بالوهم » *Le malade Imaginaire* في ١٦٧٣ ، وقدم راسين « بايازيد » *Bajazet* في ١٦٧٢ ، « وميثريدات » *Mithridate* في ١٦٧٣ ، و « إيفيجني » *Iphigénie* في ١٦٧٤ و«فيدر» *Phèdre* في ١٦٧٧ . وفي عام ١٦٧٠ ألقى بوسويه «رثاء» الأميرة هانرييت الانجليزية ، وعين مربياً لولى العهد Le Dauphin ، وألف لتعليم تلميذه « البحث في معرفة الله والنفس » *Le Traité de la connaissance de Dieu et de soi-même* « والسياسة المقتبسة من الكتاب المقدس » *La Politique tirée de l'Ectriture* « والمقال في التاريخ العالمي » *le Discours sur l'Histoire Universelle* ، *Sainte*

---

(١) Diderot : فيلسوف فرنسي ومفكر شهير ، لعب دوراً هاما في إذاعة الأفكار الفلسفية في القرن الثامن عشر . وهو أحد واضعي الأنسيكلوبيديا ، وكان مؤلفا وناقداً وفنانا أيضا . من أبرز الشخصيات في عصره . ومن أهم مؤلفاته « الرسائل » الموجهة إلى أمراء عديدين ، والتي تقدم لوحة صادقة عن الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر (١٧١٣ - ١٧٨٤) . أنظر « الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر » بقلم بول هازار . *La Pensée Européenne au XVIIIe siècle* في القسم الثالث الفصل التاسع Diderot . [المترجمان]

وكتب بوالو Boileau «فن الشعر» ***L'Art poétique*** فى عام ١٦٧٤ . وليست تلك الكتلة من المؤلفات رائعة فحسب ، بل هى أيضاً متماسكة ، قوية ومتوازنة . ولكن دعونا ننأ بأبصارنا قليلا عن الأدب ، الذى تبهرنا أشعته فتعوقنا عن رؤية القيم الفكرية العميقة ، التى سيخضع لها الأدب نفسه ذات يوم ؛ ولننظر إلى التيار القوى للتفكير الفلسفى : فنكشف عناصر تعمل جادة على انحلال هذه القوة ، قبل أن يكتمل نموها ، كشجرة لا تزال تزهر وتثمر ، بينما بدأت جذورها تذوى وتموت .

ولنذكر هذا جيداً ! لقد ظهر « البحث اللاهوتى السياسى » ***Tractatus Theologico Politicus*** فى عام ١٦٧٠ ، يتضمن من المستحدثات ما يكفى ليقلب المجتمع الذى استقبله رأسا على عقب . قال سبينوزا فى لسانه اللاتينى ، وبكل هدوء ، إنه يتحتم علينا أن نقضى قضاء مبرما على المعتقدات التقليدية ، لكى نبدأ التفكير على أسس جديدة ؛ وإن الأمور قد بلغت حدا لا يستطيع معه أحد أن يميز بين المسيحى وبين اليهودى أو التركى أو الوثنى ، وإنه لما كانت العقيدة لم بعد لها تأثير على الأخلاق ، فقد فسدت الروح ؛ وإن مأتى الشر أننا لم نعد نجعل الدين فعلا نفسيا اختياريا يقوم على الفحص والتفكير ، بل جعلناه « عبادة خارجية » ، اجراء آليا ، طاعة سلبية لأوامر القساوسة ؛ ولقد استولى بعض أصحاب الطمع على المناصب الكنسية واستعاضوا عن روح المحبة والاحسان بجشعهم القذر ؛ ومن هنا تولدت المنازعات والحسد والحقد . ولم يتبق من المسيحية إلا تقاليد شكلية واعتقادات باطلة ، اعتقادات تجعل من الناس حيوانات بمنعهم من حرية استعمال الحكمة وباخماد شعلة العقل البشرى . ينبغى أن نعاود البدء على أساس هذا العقل ، وأن نعمل باسمه على هدم مؤسستين مخربتين غير منطقيتين : دنيا الكنيسة ودنيا الملك .

الكتاب المقدس ؛ إن الناس يذكرون الكتاب المقدس دائماً لفرض الطاعة . ومن الكتاب المقدس يقتبسون كل عقيدة وكل خرافة . وما هو الكتاب المقدس على التحقيق ؟ لم يكن هناك أنبياء مفسرون لكلام الله ، كتاب يملى عليهم أوامره ، بل كانوا رجالا تعساء يستعيضون عن ضعف أفكارهم بقوة الخيال وغنى البيان . لم يكن هناك شعب مختار لكى يحتفظ بالناموس الالهى إلى الأبد ، بل شعب مضى واندثر كما مضى غيره واندثر . ولم يكن هناك أيضا معجزات

لأن الطبيعة تلتزم نظاما مستديماً لا يتغير ، أى مخالفة لقوانينه لا تدل على عظمة الله بل على عدم وجوده . فاذا اطرحنا كل تلك المعتقدات الباطلة التى حملها الناس الكتاب المقدس وإذا شرعنا فى تفسيرها حسب قواعد النقد التى تصلح لكل نصوص العالم ، لاتضحت لنا ماهية هذه الكتب : عمل بشرى حافل بالتردد والتناقض والخطأ . يستحيل أن تكون التوراة لموسى ؛ وليست كتب العهد القديم مثل كتاب يشوع *Josué* وكتاب القضاه *Juges* وكتاب صموئيل وكتاب راعوت *Ruth* وكتاب الملوك ، أصلية ولا صحيحة ، وينطبق ذلك على غيرها أيضاً . وهكذا يسير سبينوزا موثقا كل خطواته ، متوقفا كلما اقتضى الأمر ليتأكد من متابعة القارئ لكلامه ، حتى يصل إلى استنباطه الأول : إن الدين المسيحى لم يكن إلا ظاهرة تاريخية يفسرها الوقت الذى ظهرت فيه والظروف التى تطورت خلالها ؛ ظاهرة لم تكن لها إلا صفة زمنية لا أبدية ، نسبية لا قطعية .

ثم يهاجم سبينوزا الملوك بدورهم ويبدأ فى إثبات أمر واقع : وهو أن الملوك قد استغلوا الاعتقادات الدينية الباطلة لمصلحتهم الشخصية ؛ وأن النظام الملكى هو فن خداع الناس مادام يزين ذلك الخوف الذى يرمى أصحاب السلطان إلى بقاء الناس فيه كالعبيد ويقدمه لهم باسم الدين . إن الناس يسمون «واجب الطاعة » مالا يعدو فى الحق « مصلحة الملك » ؛ يظنون أنهم يقاتلون فى سبيل سلامهم بينما هم يؤكدون عبوديتهم ؛ ويدفعون دماءهم ثمنا لدعم عظمة رجل واحد وتشجيع كبريائه ، رجل يعاملهم كوسائل لتحقيق أطماعه ويحرمهم سبب الوجود إذ يسلبهم الحرية .

ولو أراد الناس التخلص من تلك الحالة فليس أمامهم إلا دواء واحد : هو تطبيق روح الفحص التى نستعملها فى نقض الخرافة والقضاء عليها ، على طبيعة الأنظمة السياسية وأغراضها . ولتحقيق ذلك لا بد من البدء بالتفكير الحر . حينئذ سيدركون أن الدولة لم تتأسس للاستبداد والطغيان ، وأن الحكم ليس إلا تفويضاً ارتضاه المواطنون ، وأن الديمقراطية هى أقرب أشكال الحكم إلى القانون الطبيعى ، وأن غرض الأنظمة السياسية ، فى كل حال من الأحوال ، هو أن تضمن للفرد حرية العقيدة ، حرية الكلام وحرية التصرف .

فلنتخيل قوة انفجار تلك التوكيدات فى عام ١٦٧٠ ولن يأخذنا العجب

إذا رأينا سبينوزا يبدو لمعاصريه « المخرب المنقطع النظير » ، « واللعين الرجيم » . ذلك اليهودى سليل الجنس البغيض ، والذى أثار على نفسه سخط اليهود فطردوه ، والذى يمضى حياته فى عزلة وانفراد ، غير سلق بالا إلى المتعة والشهرة والمال ، المنشغل بتجهيز المناظير وبالتفكير ، كان قد أصبح موضع الفضول والدهشة والحقد . كان يدعى « بندكتوس » Benedictus وكان أصوب أن يدعى « مالدكتوس » Maledictus ، كان شائكاً كما تغدو أرض لعنها الله شائكة . لقد تولد الالحاد مع النهضة الايطالية التى بعثها الجاهلية ، واستشرى بوساطة ماكيافيللى Machiàvel ، وأريتان Arétin ، وفانينى Vanini . وكان من أعظم الذائدين عنه هربرت شربرى Herbert de Cherbury ، وهوبز Hobbes : والآن يظهر أكثرهم شؤماً — سبينوزا (١) .

واليوم نضع سبينوزا فى صفوف البنائين ، بين البنائين المتسامقين المتازين . كان يحتج بشدة ضد الفكرة السائدة فى أنه سوف يهدم ولا يبنى ، ولن يفهم «البحث اللاهوتى السياسى» فهماً تاماً إذا لم نلاحظ فيه هذا العزم الصحيح . ومن باب أولى ، فان كتابه « علم الأخلاق » *L'Ethique* الذى ظهر عام ١٦٧٧ بعد وفاته ، يقدم أفخم قصر من التصورات والأفكار تختلط عقوده بالسماء . إن « علم الأخلاق » الهندسى التأليف والذى تختلج فيه مع ذلك نفثة من الحياة — يتخذ ما هو إلهى وما هو بشرى مادة له ويجمع بينهما فى باب واحد ، ويسجل على مقدمته « أن الله هو الكل والكل هو الله » . ولكنك تجد جسارته الكبرى فى حافظة البناء ، حتى إن أولئك الذين لم يؤتوا الموهبة الميتافيزيقية يجدون دائماً مشقة كبرى فى التطلع إليه . كان سبينوزا يشرح رسومه وقضاياه واستنباطاته فيقول : أعنى بلفظ « علة ذاتية » Cause de soi ما تتضمن ماهيته وجوده ، أو مالا نتصور طبيعته إلا كموجودة . وأعنى بلفظ « جوهر » Substance ما يقوم بذاته ويتصور بذاته ، أى ما يمكن تصوره دون حاجة إلى تصور شئ آخر . وأعنى بلفظ « الخاصية » attribut ما يتصوره العقل فى الجوهر كمكون لماهيته . إذن هناك جوهر وحيد مشكل من عدد لا متناه من الخواص ، تدل

(١) كتاب عن طائفة الدجالين ، بقلم كرستيان كورتلتى . *De tribus impostoribus magnis liber*, cura editus Christiani Kortholti, S. Theo. D. et Professoris Primarii Kilonii, 1680.

كل منها على ماهية أبدية لا متناهية : الله . كل شيء موجود فهو فى الله ، ولا وجود لشئ ولا شئ يتصور إلا بوجود الله . إن الله فكر ، إنه امتداد ، والانسان روحا وجسما حال « للكائن الأسمى » ؛ وهو بهذه الصفة يرمى إلى حفظ كيانه بمجهود يسمى « إرادة » إذا تعلق بالروح ، و « شهية » إذا تعلق بالجسد ، و« رغبة » إذا وعت الروح هذا المجهود ، بمعنى أن الرغبة تصبح العنصر الأساسى للحياة الأخلاقية .

عندئذ تنقلب كل القيم الثابتة رأساً على عقب .

كان الناس يعدون أنفسهم نقطة البداية ، أنفسهم ، ومظاهرهم الزائلة ، وعاداتهم ، وضعفهم ، ونقائصهم ، ورذائلهم ؛ وبنزوة من نزوات خيالهم المنافق توهموا إلهاً على شاكلتهم ، إلهاً جشعاً ، مغرضاً ، يستهويه الملق و يميـل إلى الانتقـام والقسوة . أما هو ، سـبينوزا ، فعـلى النقيض ابتدأ بالله ، وأرجع الانسان إلى ذلك الاله المنطقى . لم يعد الانسان إمبراطوراً فى امبراطوريته ، بل هو يندمج من الآن فصاعداً فى النظام العالمى . ولنفس السبب لم تعد مشكلة الشر تعرض بعد . « فكل ما هو موجود فهو سواء بسواء وجه لازم للماهية الالهية ؛ وكل قوة عاملة ، هى فى حدود عملها ، مظهر للقدرة الالهية ؛ وعلى هذا ، فبما أن الله هو الخير المطلق ، فكل مخلوق له من الحق بقدر ما له من قدرة ، وكل فعـل بما له من صلة اللزوم عينها بكينونة الله فان حدوثه يكون بنفس الشرعية . . .(١) »

واتخذت مسألة الحرية لوناً آخر ؛ لم تعد المناقشة تدور حول الحرية فى عدم الاكتراث liberté d'indifférence ، بل أصبحت تدور حول تشبيه الفكر بجوهر يدرك أنه ليس مدفوعاً إلى العمل إلا من تلقاء نفسه . فالرجل عبد إذا عجز عن التحكم فى شهواته وكبح جماحها ، أما وقد أصبحت العاطفة لا تعد « معلولا » بمجرد أن يكون عنها فكرة واضحة ومميزة ، فان الرجل يصبح حراً عندما يستطيع أن ينظم وأن يقيد عواطف جسمه طبقاً لأوامر إدراكه ، وأن يوجهها نحو محبة الله .

---

(١) ليون برانشويك ، سبينوزا ومعاصروه ، الطبعة الثالثة ، ١٩٢٣ ص ١٠٥ .
Léon Brunschvicg, *Spinoza et Ses contemporains*, 3e éd., 1923, p. 105.

واتخذ البحث عن السعادة أيضاً معنى آخر ، وغير طريقه حتى وصل فى النهاية إلى هدفه . ليست السعادة إرضاء الشهوات ، كما تخالها المخلوقات الخشنة الفجة التى لا تسمو إلى ذروة المعرفة . وهى ليست أيضاً اطراح كل متع هذه الدنيا ، انتظاراً لفردوس يلذ للأديان المختلفة أن تتخيله فى هذا الشكل أو ذاك . السعادة هى إدراك الحق ، هى إذعان المرء لقوانين النظام الشامل ، والعمل على تحقيقه فى كيانه الذاتى . إن سبينوزا يظن أنه قد حظى بهذه السعادة التى تجلب معها السلام ، وهو يرثى لأولئك التعساء التائهين ويشرح لهم كيف تفيد فلسفته حتما فى ممارسة الحياة :

« ١) فنحن ، طبقاً لهذه النظرية لا نتصرف إلا طوعاً لارادة الله ، ونشترك فى الطبيعة الالهية ، ويزداد هذا الاشتراك كلما ازداد كمال أعمالنا وكلما ازداد إدراكنا لله ؛ فمذهب مثل هذا إذن — فضلا عن أنه يهيئ للعقل هدوءاً تاماً — له أيضاً فضل إفهامنا ماهية سعادتنا القصوى أى معرفة الله التى لا تدفعنا إلا إلى الأعمال التى تنصحنا بها المحبة والشفقة . ٢) إن قاعدتنا تعلمنا أيضا أن ننتظر حسن الحظ وأن نتحمل سوءه بنفس الروح : لأن الواقع أن كل الأمور تنتج عن الأمر الالهى الأبدى ، بلزوم مطلق ، كما ينتج من ماهية مثلث أن مجموع زواياه يساوى زاويتين قائمتين . ٣) ومن وجهة نظر أخرى ، فإن قاعدتنا مفيدة أيضاً فى الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تعلمنا التحرر من الحقد والاحتقار ، وألا نكن لأحد سخرية أو حسداً أو حقداً . وتعلم أيضاً كل فرد أن يقنع بما يملك ، وأن يكون فى عون الغير ، لا مدفوعاً بشفقة نسوية باطلة ، أساسها التفضيل والخرافة ، بل طوعاً لأمر العقل وحده ... (١) »

إن الرجل الواثق بالأبدية لم يعد الرجل التقى الذى يتطهر من الخطيئة الأولى ويكسب السماء بفضائله ؛ بل الرجل الحكيم :

« إن المبادئ التى وضعتها توضح امتياز الحكيم ... فروح الحكيم من العسير أن تتعكر ، إن له بنوع من الضرورة الأبدية وعياً بذاته وبالله وبالأشياء ولذا فلن ينقطع كيانه ، ولذا يملك سلام الروح الحقيقى إلى الأبد .(٢) »

---

(١) علم الأخلاق ، القسم الثانى ، عن الروح ، *Ethique*, deuxième partie, « De l'âme »

(٢) « علم الأخلاق » ، الفصل الخامس ، عن حرية الروح .

.. لم يكن الأمر يتعلق بضرب من الحكمة الرخيصة ، المبتذلة السهلة ، بل بحكمة أكثر رواقية من حكمة الرواقيين Stoïciens ؛ حكمة منسجمة ، تكون أخيراً جذيرة بمواجهة المسيحية . حتى إنه كان فى مقدور الناس أن يترقبوا معركة فكرية كبرى ، يتقابل فيها على التحقيق المسيحى والحكيم . وإذا صح ، كما قيل ، أننا نجد فى « الأفكار »(١) Les pensées وفى علم الأخلاق L'Éthique أكمل وصف لحالتين على طرفى نقيض يهدف إليهما المثل الأعلى للضمير الدينى من جهة ، والمثل الأعلى للحقيقة الفلسفية من جهة أخرى » (٢) ، فما أنبل الكفاح الذى كنا نستطيع أن نشهده بين هاتين النظرتين نحو الحياة ، بين هاتين الحالتين للفكر، بين هاتين الملكتين ! . . . إلا أن بسكال Pascal ، كما لاحظنا ، لم يكن له أتباع ، وبنوا سبينوزا ، كمهندس أفكار ، لم يفهمه أحد فى ذاك الوقت . إنه سيأخذ بثأره فيما بعد ، وسيوحى بالميتافيزيقا الألمانية ، وسنرى فى ظهور « علم الأخلاق » لحظة حاسمة فى تاريخ الغرب (٣) . بيد أن الوقت كان مبكراً فى سنة ١٦٧٧ ، وكان علم الأخلاق غذاء دسماً جداً ، وإذا كان « البحث اللاهوتى السياسى » قد فهم بصورة أوضح فيخيل إلينا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ما فيه من إنكار وقوة هدامة .

مذهب سبينوزا — ما أكثر أولئك الذين ناقضوه دون أن يتفهموه ، دون أن يطالعوه ، أو يكلفوا أنفسهم عناء الاقتراب منه . . . ! حتى بين أولئك الذين بذلوا مجهوداً أكبر ، ما أكثر من لم يستطيعوا أن يوثقوا ألفتهم به ، حتى يتحدثوا عنه حديثاً صحيحاً ، فما صدر عنهم إلا صياح باطل ! فعلى الأقل كان فى مقدور الديكارتيين — أقربائه — أن يقبلوه ، إلا أنهم فى هذا بالذات كانوا مرتبكين ، بل رفضوا قبوله ؛ إذ كانوا يخجلون من « ابن عمهم » هذا الذى يعرض سمعتهم للخطر . ولقد رفضه بيكر مؤلف «العالم المفتون» *Le Monde Enchanté* ورفضه أيضاً جان لكلير J. Leclerc الذى قال عن سبينوزا إنه

---

(١) « الأفكار » كتاب باسكال وهو هنا يمثل المسيحية . [المترجان]
(٢) ليون برالشفيك : سبينوزا ومعاصروه ، الفصل الرابع عشر صفحة ١٥٠ .
(٣) ليون برالشفيك : تقدم الضمير فى الفلسفة الغربية ، ١٩٢٧ ، صفحة ١٨٨ .

« أشهر كافر فى وقتنا هذا » ، — وأكثر من ذلك فقد دفعه مالبرانش مبعداً عن نفسه تهمة كان أعداؤه يجدون سروراً خبيثاً فى التنويه بها ، واعتقد أصدقاؤه أن عليهم أن يدفعوها . وقد بين مرتين على الأقل ، فى عام ١٦٨٣ فى « تأملات مسيحية *Méditations Chrétiennes* » ، وفى عام ١٦٨٨ فى « محادثات عن الميتافيزيقا والدين *Entretiens sur La Métaphysique et sur La Religion* » كم كان الناس يخطئون لا فى حق إيمانه فحسب بل فى حق فلسفته أيضاً ، بتشبيهها بفلسفة « سبينوزا التعس » .

كان سبينوزا يحتل مخيلة بايل . ولطالما ذكر اسمه ، ولطالما نوه فى غمار بحثه فى إلحاد قديم ، بما بينه وبين مذهب سبينوزا من تشابه . وهو لم يستطع أن يملك نفسه عن الاعجاب بالرجل الذى كان يبغض إلزام الضمير ، والذى تجاسر فأطلق لتفكيره عنان الحرية ، والذى عاش فى نبل وكرامة ، ومات دون أن يتنكر لمبدئه . أما كون سبينوزا أول رجل أجمل الالحاد فى قاعدة ، وجعل منه مذهباً ، متماسكا محكماً طبقاً للأصول الهندسية ، فما كان بيير بايل يرى فيه موضعاً للمؤاخذة . بيد أن ميتافيزيقا سبينوزا تضمنت نقطة استهجنها بايل . وإذا رأيناه يعد مذهب سبينوزا أفظع الفروض التى يمكن أن يتصورها الانسان ، وأسخفها ، وأشدها تعارضاً مع أوضح أفكار العقل البشرى ، فما كان فى ذلك يتذرع بتفنيد هذا المذهب ليشرحه ، بل كان مخلصا فى اعتراضه عليه ، ولطالما خيل إلى الناس أن هذا الاعتراض حيلة من حيل الجدال ، فكان هذا مثار غضبه ومرجل سخطه . ذلك أن مسألة الشر كانت شغله الشاغل ، فما من شئ أكثر تأثيراً عليه منه ، وكان الحل الذى قدمه سبينوزا يبدو له كأسوأ حل بين الحلول المعروضة . كيف ؟! هل يولد الكائن «اللامتناهى» فى ذاته كل الحماقات ، كل الهواجس ، كل جرائم الجنس البشرى ! إنه لا يكون فى كل ذلك علة فاعلة فحسب بل معلولا أيضاً ، ويتحد بها بأوثق اتحاد يمكن أن يتصور ! ذلك لأنه اتحاد فعال ، بل هو فى الحق «وحدة حقيقية» مادامت الكيفية لا تفترق فى الواقع عن الجوهر المتغير . « لأن يضمر الناس البغض ، بعضهم لبعض ، ويتبادلوا الاغتيال فى ركن من أركان غابة ، ويجتمعوا فى جيوش لسفك الدماء ، ولأن يلتهم الظافرون المهزومين فى بعض الأحايين ، هذا شئ معقول : لأننا نفترض أنهم يتميزون بعضهم من بعض ،

ولأن صالحي وصالحك يتولد عنهما أهواء متضاربة . أما ألا يكون الناس سوى كيفيات مختلفة لكائن واحد ، وبذلك يكون الله وحده هو الذى « يفعل » ، وأن يتحول الله ذاته إلى ترکی حينا وإلى مجرى حيناً آخر ، فتنشب الحروب والمعارك : فهذا ما يفوق كل شناعة وكل تخريف باطل لأشد العقول لوثة بين نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية (١) . »

لم يكن بين الفلاسفة إذ ذاك من يستطيع أن يقف أمام سبينوزا كند ، وأن يستوعب «علم الأخلاق» ، ويرد على فلسفته قادراً على تفنيدها ، غير ليبنتز . أما البحث اللاهوتى السياسى فمسألة أخرى : فليس يلزم أن يكون المرء عالما أكابر كيا لكى يتفهمه ، ولكى يستخلص من ثنايا صحائفه حججاً ضد الكتاب المقدس ، وضد سلطة الملك . من هنا كان رواجه ، بالرغم من الرقابة ، وتحت عناوين غير صحيحة ؛ ومن هنا كانت عاصفة النقد التى قوبل بها ، ومن هنا كان الالتجاء إلى السلطات المدنية ، والتحريم والمصادرة ، حتى فى هولاندة الحرة .

ومن هنا نفهم أنه يوجد هناك فيما يتعلق بهذا الكتاب وتأثيره شهادات متناقضة . فمثلا يقول أرنو إن سبينوزا أصل التحرر ، بينما يرد جوريو Jurieu بأنك لا تجد بين كل مليون من الدنيويين عشرة رجال سمعوا باسبينوزا . ويدعى ديبو Dubos أن قراءة سبينوزا وفهم مؤلفاته تقتضى تعود الجلد على المطالعة ، وأن المتحررين يعيشون وكأنه لا توجد حياة أخرى دون أى اهتمام بمطالعة أسبينوزا . وهذا أيضاً هو رأى فينلون — : فالبدع لدى المتحررين فى عصره ليس فى اتباع اسبينوزا ؛ بينما يؤكد الأب « لامى » أن أتباع اسبينوزا يزدادون عدداً يوما بعد يوم — : فان أخطاءه قد أفسدت أمخاخ كثير من الشباب ، كما قال له رجل يسمح له مركزه بالاطلاع على مجريات الأمور . أولئك الشهود يتناقضون ولكنهم جميعاً على صواب . ليس لاسبينوزا أتباع بمعنى الكلمة خارج حدود هولندا وألمانيا . يقول بايل : « أولئك المشتبه فى اتباعهم مذهب اسبينوزا قلة ضئيلة وبينهم القليلون الذين درسوه فعلا ، وبين هؤلاء الأخيرين قل من فهموه ولم تثبط همتهم لما لقوا فى مذهبه من صعوبات ونظريات مجردة ، إدراكها أمر محال . ولكن هاك حقيقة الأمر : فالناس يعادون كل من

---

(١) بايل ، القاموس ... باب اسبينوزا ، Bayle, *Dictionnaire*, art. Spinoza.

لا دين لهم ولا إيمـان ، ولا يخفون ذلك ، من مذهب اسبينوزا (١) . »

من هؤلاء من لحق بالمتحررين تغذية لجرأتهم وتشجيعاً لعصيانهم ؛ ومنهم من ذهب إلى الايطاليين غير المؤمنين : فانك لواجد نفثات من روح اسبينوزا فى الصفحات التى سطرها الكونت « البرتو دى باسيرانو » ضد الدين وضد نفوذ روما السياسى معاً . ومنهم من قصد ألمانيا لتغذية الالحاد الألمانى مثل « ماتيـاس كنوتسن » Matthias Knutsen ومذهبه الـ Conscienciari ، وستوتش F. W. Stosch والآخرين . ومنهم من مد بالبراهين الانجليز المؤمنين بالله الناكرين للوحى Déistes أمثال شافتسبرى وكولنز وتندال وخاصة أكثرهم صخباً : جون تولاند John Toland !

***

جون تولاند — ما أغربه من رجل ! كان مفتوناً بعقله . *Christianity not Mysterious* ! صيحة أطلقها فى كتابه الذى جعل منه رجلا مشهوراً فى عام ١٦٩٦ ؛ المسيحية لا أسرار فيها — لهذا السبب البسيط الرائع ، وهو أنه ليس هناك أسرار . فالسر ، لفظ وثنى احتفظنا به كما احتفظنا بغيره من ألفاظ، هو إما خرافة يجب أن نقضى عليها وإما صعوبة عارضة ينبغى أن نذللها . إما أن المسيحية تتفق مع العقل ولا تمثل إلا مجرد ارتضاء للنظام الشامل ، متجردة عن كل مايخرج عن هذا الارتضاء نفسه ، كالتقاليد والمذاهب والشعائر الدينية، والعقيدة والايمان ـ وإما أنه يستحيل عليها أن تعيش ؛ فما من شئ فى العالم يمكن أن يكون فوق العقل وما من شئ يمكن أن يتعارض مع العقل .

وما كان جون تولاند تنقصه المعارف ؛ لقد نال درجة أستاذ فى الآداب من جامعة جلاسجو ، وكان قد درس فى أيدنبرج وليدن وأكسفورد . وكان على دراية بالتاريخ القديم : لكى يثبت أنه لم يكن إلا دجلا ، وأن مؤرخيه لم يعملوا إلا على خداع العالم . وكان ملما بالكتاب المقدس : لكى يقول إنه مشكوك فى صحته ، وإن المعجزات التى يسردها يمكن ردها إلى أسباب طبيعية ، ولكى يقطع برأيه ، ويهذى ، ويخترع ويخلط كل شئ . وكان

---

(١) بايل ، القاموس ... باب اسبينوزا .

يتقن الأدب والشعر وضروب البلاغة ؛ لكى يعلن أن أقوال أولئك الدجالين الذين تقدسهم الأديان المختلفة إن هى إلا قناع زائف يلجئون إليه لكى يقودوا الشعوب ، مرغمة ، من الأنوف . كان مفسداً ومزهواً ، ولد لكى يثير الفضائح، يسعد بما يحدث من ضجة ، ويختال إذا واتاه الحظ ، ولا ينزعج إذا قذف بالحجارة لأن سقوطها يثير أيضاً بعض الضجيج .

ليس لنا أن نبحث لدى جون تولاند — الذى يضيف قوته الهدامة إلى « قواه » التى سردناها — عن أفكار مبتكرة . فكثيراً ما نسمع صدى صوت فونتنيل وبايل وبيكر وفان ديل وهوبز وسبينوزا عندما نطلع على كتبه ، ولو ساورنا الشك فى ذلك التأثير لكان ما يذكره هو من بيانات صريحة عنهم يؤكد لنا أن الأمر ليس مجرد تشابه قوامه المصادفة بل إن ما وصلنا إليه صحيح . كان رأسه مكتظا بمطالعاته ، وكانت مقتطفات من أفكار المتقدمين عنه تظهر فى كتبه . لا تبحث عنده عن أفكار مبتكرة ، بل عن انفعال حماسى ، عن هياج شديد : هو انفجار لشعور كبتته أمداً طويلا الكاثوليكية الأرلندية ، والتعصب البوريتانى ، والتأدب الاجتماعى وليد الوقار ؛ حتى إذا تحطمت القيود ذات يوم انفجر فى وقاحة وسفه .

ولد جون تولاند فى أيرلاندا كاثوليكيا ، ثم اعتنق البروتستانتية ؛ ويقول مفتخرا إنه نشأ فى أحضان الخرافة والوثنية ، إلا أن عقله ، معانا ببعض الأشخاص ، كان الأداة السعيدة التى غيرت عقيدته . فهو مذ بلغ السادسة عشرة يضمر للبابوية نفس البغض الذى لم يبرح يضمره لها دائما . وكان متحمساً أيضاً ضد الكنيسة الأنجليكانية ، وضد كل كنيسة تحاول أن تعتدى على شخصية حانقة أو تمس حرية لم تعد تحتمل ظل النير . بعد نجاح كتابه *Cristianity not Mysterious* رحل إلى أيرلاندا لكى يتذوق متلذذا سمعته الشائنة ، ولكى يخطب ويحاضر رواد المنتديات العامة فى ادعاء متحذلق وتظاهر . ولكن هذا عاد عليه بشر وبيل ؛ فقد أصبح مادة للتشنيع ، منبوذا مطارداً ، وألقى الناس به إلى الحضيض وأصبح خارجا على القانون .

يصف العالم الرياضى مولينو هذا السقوط للفيلسوف لوك الذى كان قد أوصاه بتولاند عندما كان يقدره فيقول : «اضطر تولاند أخيراً أن يهجر المملكة . لقد استجلب هذا الرجل المسكين على نفسه بسلوكه المتهور ، ثورة شاملة

حتى أصبح من الخطر على أى شخص أن يشتبه فى محادثته له مرة واحدة . الأمر الذى جعل المحافظين على كرامتهم يتجنبونه ، حتى إنه بلغنى أخيراً أنه لا يجد ما يمسك به رمقه ، وأن أحدا لم يعد يقبله على مائدته . ولما نفذ النزر اليسير من المال الذى تبقى لديه اضطر أن يستدين بالربا الفاحش ، وعجز عن أن يدفع ثمن شعره المستعار وثيابه وأجر غرفته . وأخيراً لسوء طالعه وقع كتابه فى يد البرلمان وحكم عليه « بالموت حرقا » . . . وعلى إثر ذلك لاذ بأذيال الفرار من هنا ولا يعلم أحد أى طريق اختار . . . »

وحالة الخروج عن القانون هذه تفسر لنا حالته الذهنية إلى حد ما . إن نفحة الأرستقراطية التى تجدها لدى المتحررين الفرنسيين ، وذكاء بايل الخالص ، وعزة سبينوزا ، بعيدة عن طبعه . كان يحلم بأن يكون مؤسساً لدين جديد كمحمد ولكنه كان يفتقر إلى القوة والهيبة . كان جافا ، شرسا ، مستعملا كل وسائل لسان متهجم سليط ، ووسائل عقل يسرع فى تلبية مطالب الحقد. لشد ما كان يكره القسس ! كل القسس ، قسس الحاضر وقسس الماضى سواء بسواء ؛ بادئا بكهنة « قبيلة ليفى » الذين لم يكونوا إلا دجالين . فهو يهينهم ويصفهم بأنهم محتالون ومجرمون . فهو أصلا ضد الاكليركية .

وكان فى إنجلترا نزاع سياسى : فالى من سيؤول العرش بعد موت الملكة آن ؟ ظهر تولاند فى مؤلفه *Anglia Libera* سنة ١٧٠١ متحزبا لأسرة «هانوفر» مناديا « فلتتجنب انجلترا خطر الوقوع من جديد تحت نير البابوية ولتحتفظ بحريتها السياسية أغلى نعمة بين النعم ! » وأغلب الظن أن إنتاجا كهذا كان يروق لأسرة « هانوفر » . حينئذ أصبح تولاند مندوبا سياسياً للحكومة . وكثيراً ما كان يسافر مكلفا بمهام سرية فى الخارج . فقد رؤى فى برلين وفى هانوفر وفى دسلدورف وفى فيينا وفى براج وفى لاهاى . ولقد استجوبت صوفى شارلوت ، ملكة بروسيا — التى سبق أن طلبت من ليبنتز أن يشرح لها سر الحياة — ذلك الرجل الغريب عن فلسفته ؛ وأثارت منازعات بينه وبين العلماء وشراح الكتب المقدسة ، المحيطين بها . لذلك بعث إليها ، فى عام ١٧٠٤ برسائل Letters to Serena لعلنا نجد فيها أقوى أفكاره .

إنه يشرح لها أن الاعتقاد بأبدية الروح ليست عقيدة مسيحية محضة ، بل عقيدة وثنية ، وأن قدماء المصريين آمنوا بها من قبل . وأن الاعتقاد بالله

ذى شخصية يرجع إلى الوثنية ، وأن الناس يضفون مجداً إلهيا على مخلوقات من جنسهم ، ويقيمون لها المعابد وينشئون المذابح ، ويقيمون لها التماثيل ، و يرسمون الكهنة ومقدمى القرابين . ولم يمض طويل وقت حتى اعتاد الناس أن يتصوروا الاله على صورة ملوكهم : وذلك هو ماحدا بالناس إلى أن يتخيلوا إلها غريباً يسير على هواه ، غيوراً ، منتقما ، ظالما . لقد سمعنا من قبل كل هذه الأفكار وعرفناها ، فلنمر عليها سراعا . وتولاند ، فى ميدان الأفكار ، هو الرجل الذى كتب خصيصاً ليفند أخطاء سبينوزا ، ولكنه تأثر بسبينوزا ، حتى إنه هو الذى استعمل لفظ حلولى Panthèiste . ولم ينظر إلى هذا الأمر عن كثب ولم يكن حساساً تجاه التناقضات .

وفى نفس الوقت ، كم يتأيد شعورنا الثانى : ألا ما أعنف الشاعر ! وماأشد الغضب ضد القداسة ! إن تولاند يتحمس و يهتاج فورما يلمس باب «الخرافة» ويذهب فى بحثه عما يسميه الاعتقاد الباطل إلى غاية لحمنا ، ودمائنا . إنه يراه فى كل مكان ، ولا يرى شيئا غيره ؛ إنه حصار . إن الخرافة تترصد المرء بمجرد ولادته :

« إن القابلة التى تخرجنا إلى الدنيا تتناولنا بطقوس باطلة ، والنساء اللواتى يحضرن الولادة يعرفن عدداً لا نهائيا من التعاويذ يعتقدن أنها تجلب للطفل المولود السعادة وتبعد عنه الشرور . ولهن تخمينات وأقوال يزعمن أنهن يعرفن بها حظه المستقبل . ولا يقل القسيس نشاطا فى بعض الأحوال عن أولئك السيدات ، إذ يقبض سريعا على الطفل لوضعه فى العبودية ، ويطلعه على أسراره متفوها ببعض صيغ تبدو كالسحر ، مستعملا بعض الملح ، أو الزيت أو الماء ، أو — كما يحدث فى بعض البلاد — ماساً إياه بالحديد أو بالنار قائلاً إنه يمتلكه ، ويسمه بسمة السلطان الذى سيفرضه عليه (١) . »

وحين يشب الطفل عن طوقه تزداد معه قوة اعتقاداته الباطلة ؛ إذ تحكى له المرضعات قصصا عن الذئب الخاطف ، والخدم قصصا عن العفاريت . وتحكى له المدارس عن الجنيات Génies ، وعن عرائس الماء Nymphes ، والعفاريت Satyres ، وأعمال سحر وأحداث عجيبة من هذا القبيل ؛ وهناك يقرأ شعراء

---

(١) الرسالة الأولى إلى سيرينا : عن أصل الاعتقادات الباطلة وقوتها .

وقصصيين وخطباء ، كلهم محترفو كذب ودجل . ولا يصبح شباب الجامعات أحسن حالا ولا أكثر حكمة . وليس المدرسون أحراراً ولا مخلصين ، لأنهم ملزمون بمجاراة قوانين بلادهم . « إن الجامعات لهى المشاتل الحقيقية للاعتقادات الباطلة . . . »

فالاعتقادات الباطلة تنتظرنا طول الحياة وتخدعنا ، حتى إذا حان الحين ، التمسنا من الاعتقادات الباطلة تحقيق آمالنا ونسبنا إليها مخاوفنا . ولكن تولاند برئ من الاعتقادات الباطلة ؛ بل قد ولد لكى يحاربها ؛ إنه يملك اليقين . ولم يساوره شك فى ذلك أبداً ، بل أشار إلى هذه الخيلاء وتلك الجسارة وهذا الفتون حتى فيما كتب على قبره : « هذا ضريح جون تولاند ، المولود فى إيرلاندا والذى درس فى إيقوسيا وفى إيرلاندا وأيضاً فى أكسفورد لما بلغ مرحلة الشباب. وبعد أن تردد على ألمانيا أكثر من مرة ، أمضى سنى رجولته فى ضواحى لندن . درس كل الآداب وعرف أكثر من عشر لغات . كان بطل الحق ، والذائد عن الحرية ، لم يكن متحزبا لأحد ولا كان عميلا لأحد . ولم يعقه التهديد ولا الشرور عن الوصول إلى نهاية طريقه المختار ، مقدما الخير على صالحه الخاص . لقد رجعت روحه إلى رب السموات ، من حيث جاءت من قبل . إن بعثه للأبدية لأمر مؤكد ، ولكن لن يوجد « تولاند » آخر فيما بعد . ولقد ولد فى ٣٠ نوفمبر ؛ ولتبحث عن البقية فى مؤلفاته . . . »

***

أولئك هم العقليون .

لقد رحلوا نحو ميادين سوف تسود فيها البداهة والمنطق والنظام ؛ جارين معهم رفاقا يختلفون عن فئتهم ، كما لبرانش الذى تبعهم متبرما محتجا ضدهم . وكانوا يهدمون العوائق التى لا تزال تنتثر على طول طريقهم . وكانوا ينتقدون قائلين : نحن فى عصر الرقابة Siamo nel secolo dei censuristi يبدو أننا نعيش فى عصر تعقب الأخطاء : We live, it seems, in a faultfinding age (١)

---

(١) جريجوريو ليتى : المسرح البريطانى ، ١٦٨٤ ، Gregorio Leti, *Il Teatro britannico* مقدمة . . . Aaron Hill, *The Ottoman Empire*, 1709, Préface

وكانوا يهاجمون بلا هوادة ؛ ويحملون على الطاعة الذليلة ، والعادات الخاملة، وكتلة الأخطاء ، والحماقات . ويسترسلون فى مهمتهم — الضرورية دائما — لتخليصنا لا من ضلالنا فحسب ، بل من جبننا أيضاً . وإذا هم قالوا إنهم يعملون فى صالح المؤمنين أنفسهم ، بالزامهم على تبرير عقيدتهم ، وعلى اتخاذها بعد اختيار مقصود ، لا على أنها قبول سلبي أعمى : فهم فى هذا المعنى لا يتعدون الحقيقة . وهم حقيقون بالتقدير ، لاخلاصهم ، وشجاعتهم ، وجسارتهم ؛ لأنهم لم يختاروا الجانب اليسير المفيد ، بل الجانب الآخر ، عارفين أنهم سيلاقون فى أول الأمر عناء شديداً . ولم يكن فى صفهم العدد ولا القوة الموطدة ، بل كانوا على النقيض أقلية ضئيلة ، ويعلمون جيداً أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا إلا على مجهودهم وحده . « إن العناء الذى لابد من أن نجده فى البحث عن الحقيقة بأنفسنا ، لشديد بالنسبة إلى السهولة التى نجدها عندما نتبع ، مغمضى العيون ، الطريق الذى يتبعه الآخرون أيضاً ، مغمضى العيون (١). » كلما طال تسلط الضلال وسيادته ، وجبت محاربته بشجاعة : « أعترف بأن محاربة الضلال قبلما يزيد الزمن من تشبث جذوره فى عقول شعب بأسره ، لأقل تهييجاً للخواطر من محاربته بعد ما تؤصله عراقته . ولكن بما أنه لا تقادم prescription يسرى على الحقيقة ، فليس من الصواب أن ندعها على الدوام مقبورة فى غياهب النسيان ، بحجة أنها لم تكن معروفة لنا أبداً (٢) » وإنه لمن أجل هذه المشقة التى يلاقونها ، وهذا السخط الذى سيسببونه ، ما نراه من تقديرهم لضرورة رسالتهم ، وعظمتها . — « إنى لأقدر كل التقدير صفات رجل بسبح ضد تيار سيل ، أكثر من رجل يسلم نفسه لأمواجه ، كما أنى أقدر تقديراً لا حد له ، بصيرة العقل وصلابته فيمن يبحث فى كل شئ ، ويخالف فى بعض الأحيان الأفكار الموروثة من قديم ، أكثر مما أقدر أولئك الذين يرثونها عن أسلافهم ، ولا يحتفظون بها غالباً إلا بسبب قدمها أو نفوذها (٣) . »

---

(١) كلود جلبرت : تاريخ كالاجيفا ، أو جزيرة العقلاء ، ١٧٠٠ ، Claude Gilbert
Histoire de Calajéva, ou de l'isle des hommes raisonnables

(٢) بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ، ١٦٨٣ ، § ٩١ ، Pierre Bayle
Pensées diverses ... à l'occasion de la Comète

(٣) تيسو دى باتو ، أسفار ومغامرات جاك ماسيه ، ص ٢٨ ، Tyssot De Patot
Voyages et aventures de Jacques Massé

شىء واحد فقط : أنهم جعلوا يظهرون أكثر عجرفة من أكبر المتدينين المتعجرفين ، الذين كانوا يبغضونهم . لم يسائلوا أنفسهم حتى ، لماذا كان الناس من مسلمين ويهود ومسيحيين ، يصلّون على مر العصور ، إن لم يكن فى نفوسهم قبس دينى لا تستطيع قوة أن تطفئه ، بل ظنوا ، لعدم تعمقهم ، أنهم قطعوا كل قول ، عندما تحدثوا عن الضلال والخداع . ظنوا أنهم قطعوا كل قول ، حينما رددوا كلمات الاعتقاد الباطل ، والخرافة ، وما إليها ، ولم يسائلوا أنفسهم عما إذا كانوا قد أدمجوا فى هذه الكلمات نفسها ، اعتقادات صحيحة ، وخرافات محققة ، وعقائد شرعية وضرورية . لقد دفعتهم ، عجلتهم وزهوهم ، إلى تشبيه التاريخ كله برقعة من الورق ، زاخرة بالطيات المغلوطه : وكان عليهم أن يزيلوا هذه الطيات ، وأن يرجعوا إلى الصفحة الناصعة البياض ، وهذا كل ما فى الأمر : كأنما هذا شىء سهل ، كأنما هذا شىء ممكن ، كأننا فى طريقنا على مر الأجيال ، لم نجمع إلا أخطاء . لم يروا إلا البؤس والاجرام ، ناسين التضحية والبطولة ، والقديسين والشهداء . دفعهم الكبر إلى الاعتقاد بأنهم وجدوا الحقيقة كاملة ، وجدوا النور الذى يستطيع أن يبدد كل ظلام ، حتى وصل بهم الأمر إلى تأليه الانسان : « نحن ، باتباعنا العقل ، لا نعتمد إلا على أنفسنا ، وبذا نغدو من بعض الوجوه آلهة (١) . »

---

(١) كلود جلبرت : تاريخ كالاجيفا ... ص ٥٧ .

الفصل الثانى

إنكار المعجزة

المذنّب ، الهواتف الإلهية ، السحرة

كانت المعجزة عدو العقليين ، بطريقتها القاسية فى خرق قوانين الطبيعة ، وبنفوذها الغريب . كانت تستهوى الجماهير : والحق أن العقليين كانوا يبغون اكتساب الجماهير ، المؤمنين ، والمصلين فى الكنائس والنساء : وكان نجاحهم رهناً بذلك الثمن .

إنها المعجزة — فيجب حيالها الحرص والاحتياط : حذار من مهاجمتها دون احتراس . كان فى مقدورهم على الأقل أن يهاجموا بعض الخرافات المعينة ، ولم تكن تنقصهم ، فهى متوافرة . وبذا شرعوا يحملون على هذا المعتقد الباطل أو ذاك ، مظهرين ما فيه من ضرر وسخف ، ثم ينفذون إلى أسباب الضلال — السلطة ، والتراضى والعادة ، ولما كانت السلطة والتراضى والعادة هى عمدة الاعتقاد بالمعجزة ، فقد حققوا أهدافهم بهذا اللف والدوران .

وكانت المعركة على خطوات ثلاث .

***

صحيفة العلماء ، يوم الاثنين أول يناير ١٦٨١ :

« يتكلم العالم كله عن المذنب الذى لا شك فى أنه أهم بدعة منذ بداية هذا العام . إن الفلكيين يراقبون سيره ، والشعب ينسب إليه كل الويلات » .

والذى حدث أنه فى ديسمبر عام ١٦٨٠ ظهر مذنب فى السماء ، وفى السنوات التالية ظهرت مذنبات أخرى ، وكانت تلك الظاهرة إيذاناً بعودة الناس إلى نزاع قديم ، لكن بنغمة لم يسبق لها نظير .

كان البعض يقولون إن المذنبات خطرة فى ذاتها . فمادتها تتكون من

كتلة من الغازات التى تتصاعد من الأرض : فاذا حدث أن اشتعلت هذه الغازات ، وهو ما يدل على اضطراب عظيم فى طبقات الجو ، فان ذلك يعقبه ثورة كبيرة . . . فيرد الآخرون بأن ذلك استدلال الفلسفة القديمة ، أما نحن فنعرف اليوم أن هذه المذنبات أجرام سماوية ، وأنه لا خشية على الأرض منها . . .

وكان البسطاء يقولون إن المذنبات نذر ، نذر ترسلها السماء لتعلن عن نقمة يستحقها الانسان : عند ظهور المذنبات ، فويل لمن لا يتوب عما اقترف من ذنوب ! فلتذكروا أنه على مر القرون كان يتبع ظهورها دائماً حادث مشئوم ، من قتل ملك ، إلى زلزال أرض ، إلى مجاعة وحروب أو طاعون . ابكوا وادعوا ، فقد بلغ الكفر ذروته ، إن الله يظهر غضبه ، فيرسل علينا نذراً من السماء .

ويرد الآخرون « أنحن قوم لنا كل هذه الأهمية ، حتى تتكلف السماء نفسها مشقة إرسال مذنب من أجلنا ؟ » لقد بحثنا طويلا فما وجدنا شيئاً يدعم أسباب وجود هذا الاعتقاد الشائع ، وليس بين براهين العلماء ما يقنعنا ، ولا فى الكتاب المقدس ما يؤيد هذا الاعتقاد الباطل . وبعد ، فما المذنبات ؟ إن هى إلا نجوم رائعات ، حلى السماء ، إنما يوحى بالخوف الليل والعتمة والظلام ، لا النجم ذو الضياء . وحتى لو سلمنا جدلا بأن فى الأمر غازاً : فكيف نستطيع أن ندرك أن فى الغاز نذيراً ؟ كيف يتأتى أن جسما مادياً صرفاً لا عقل له ولا شعور ، يستطيع أن يدل على معنى المستقبل ؟ إن المذنبات تخضع لنظام الطبيعة التى خلقها الله ، والذى لم تعكر انسجامه الخطيئة الأولى ، فهى تخضع له وليست تؤثر فيه .

O vis superstitionis, quantos motus, quantos tempestatis, in illorum animis excitas, quos oppressisti ! إيه يا قوة الخرافة ، كم من اضطراب تبعثين ، وكم من زوابع تثيرين فى نفوس أولئك الذين تستعبدين !

وهنا يتدخل بايل (١) ، محللا الصعوبات تحليلا منظماً . على أى أساس

---

(١) خطاب إلى السيد ا. د . س . الأستاذ فى السوربون يثبت فيه ببراهين عديدة مستمدة من الفلسفة ومن اللاهوت أن المذنبات ليست نذراً لأى سوء ... ١٨٦٢ . أفكار مختلفة أرسلت إلى أستاذ فى السوربون بمناسبة مذنب ظهر فى ديسمبر ١٦٨٠ ... ١٦٨٣ — ملحق لأفكار مختلفة عن المذنبات ... ١٦٩٤ — تكملة الأفكار المختلفة ، ١٧٠٥ .

من فضلكم يستند الاعتقاد بأن المذنبات نذر أو أنها سبب الويلات الشديدة ؟ أعلى روايات الشعراء محترفى الكذب والاختلاق ؟ أم على نفوذ المؤرخين مختلقى الأساطير ؟ أم على التكهن والتنجيم أسخف شئ في الحياة ؟ ليس لهذا الاعتقاد أساس وطيد . وإذا صح أن المذنبات كان يعقبها دائماً عديد من الويلات ، فلا محل للقول بأنها علامات لها أو أسباب « اللهم إلا إذا شئنا أن يسمح لامرأة تقطن فى شارع سانت أونوريه وترى عربة تمر كلما تطلعت من النافذة ، أن تعتقد أنها السبب فى مرور تلك العربات ، أو أن ظهورها فى النافذة يكون نذيراً لكل الحى بأن عربة على وشك المرور . . . »

الواقع — ولا اعتداد إلا بالوقائع الثابتة — أنه لم تحدث ويلات تخالف المعتاد فى إبان السنوات التى تعقب المذنبات ، فكم من ويلات بلا مذنبات ، وكم من مذنبات بلا ويلات . إن عدم التمييز بين علاقة العلة بالمعلول ، والمعية أو الاقتران لمنطق غير سليم . وإن تأكيد المعية بالرغم من الوقائع لمحض افتراء . دعوا المذنبات فى سلام ! فما لها من صلة بالانسان ، وما خالها الناس مشغولة بنا إلا لسبب الحماقة والكسل والبطلان ، وكل أسباب الضلال .

وقد صادق كل مسيحى مستنير على ذلك الاستدلال بغير كبير عناء . ولكن بايل لم ينته بعد ، بل إنه لم ينته أبداً ، فعندما نخاله قد انتهى من إثباته ، نراه يفتح فى كتابه فصلا تلو فصل ، وحينما ينتهى الكتاب يشرع فى كتاب جديد . إننا لا نزال بعد فى البداية .

إنه ينكر الاعتقاد بقدرة المذنبات ، ولو استشهدت بها شعوب بأجمعها ، ولو أيدها ملايين من الناس ، ولو اتخذوها دليلا لاقناع الذين لا يصدقون بوجود الله . وهو ينكر بالمثل التقاليد التى ينسب إليها المصدقون القدرة على الاحتفاظ بحقائق الايمان . « إنى أكرر مرة أخرى أنه وهم محض ، ذلك الادعاء بأن فكرة قد انتقلت من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل لا يمكن أن تكون باطلة كل البطلان » .

واحتدم الجدال . وهنا يبرز بايل أعز برهان لديه ، البرهان الذى يبدو له حديثاً مبتكراً : إن القول بأن المذنبات نذر ويل ، معناه أن الله يأتى بالمعجزات ليؤيد الوثنية فى الدنيا . . . ويتحمس ويشتعل ويبدو فى أوج البلاغة والبيان : لا تجعلوا ضعفكم وجهلكم يلجئانكم إلى فكرة المعجزة كلما وجدتم أنفسكم عاجزين

عن تأويل حدث من الأحداث ! إن العقل لا يستسيغ المعجزة . ولا شئ يليق بعظمة الله وقدرته كالاحتفاظ بالقوانين الشاملة التى سنها بذاته ؛ ولا شئ يمس عظمته كالاعتقاد بأنه يتدخل ليخرق سريانها ؛ ولأى مناسبة ؟ لمناسبة حوادث تافهة بالنسبة لنظام الكون كولادة أو وفاة ملك من الملوك !

« كلما درسنا الانسان أيقنا أن الخيلاء شهوته المتسلطة عليه ، وأنه يصطنع الكبر حتى فى خضم البؤس والكرب . تباً له ! فقد استطاع بما جبل عليه من ضعف وهوان ، أن يقنع نفسه بأنه لا يمكن أن يموت دون أن يزعج الطبيعة جمعاء ، ودون أن يجبر السماء على تجشم نفقات جديدة لانارة موكب جنازته . فيا للخيلاء الباطلة الحمقاء ! لو أن لدينا فكرة صحيحة عن الكون ، لفهمنا سراعاً أن ولادة أمير أو وفاته مسألة من التفاهة بمكان بالنسبة لطبيعة الأشياء حتى إنه لعبث أى عبث أن تتحرك من أجلها السماء . ولكنا نقول مع سنيكا أسمى فلاسفة روما القديمة فكراً ، إن العناية الالهية لا تغفل عنا بل تنزل إلى غايتنا ، وإننا نأخذ نصيبنا منها ، ولكن هدفها يفوق كل ما نتصوره عنها ، وإنه وإن كانت حركات السماء تعود علينا بفوائد جلى ، فلا يعنى هـذا أن هذه الأجرام الهائلة تتحرك محبة فى الأرض (١) . »

ثم يواصل بايل كلامه عن الارتضاء الشامل والتقاليد والمعجزات . إن الاعتقاد الذى يجعلنا نرى فى المذنبات نذر ويلات عامة ، خرافة قديمة لأهل الوثنية ، أدخلت على المسيحية واستقرت فيها . والواقع أن كثيراً من أخطاء الوثنية بقى على مر العصور ، وليس بعسير أن نجده الآن فى عادات المسيحيين ومراسيمهم بل فى معتقداتهم .

ولنذهب إلى أبعد من ذلك : إن الله لم يقصد ، حينما انتشل الوثنيين من الظلام ، أن يجعلهم أكثر علماً بالحكمة والفلسفة ، وبأسرار الطبيعة ، وأن يقويهم ضد الاعتقادات الباطلة والأخطاء الشائعة ، فلا يقعون فى وهدتها مرة أخرى . وسواء كان هناك وحى أو لم يكن ، فان أعماق طبيعة البشر تبقى دائما عرضة لأوهام لا تحصر ، واعتقادات باطلة ورذائل وشهوات وأهواء ؛ والمسيحيون

(١) بيير بايل : أفكار مختلفة ... بمناسبة المذنب ... ١٦٨٣ ، باب ٨٣ .
Pierre Bayle, *Pensées diverses ... à l'occasion de la comète ...* 1683.

يقعون فيما يقع فيه غيرهم من فساد واختلال . ولنذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً: فليس بمستبعد أن الدين بدلا من أن يبدد الظلمات قد زادها كثافة وعتمة : « فيما يخص الميول الخرافية التى أوجدها الشيطان فى عقل الانسان ، أقول إن عدو الله هذا وعدو السلام قد واصل الجهاد مستغلا كل ظرف لكى يجعل من الدين — خير ما فى الدنيا — كتلة من الخرافات وشاذ العادات واللغو الفارغ والاجرام ، حتى إنه — وذلك أسوأ ما فى الأمر — دفع الناس مستعيناً بتلك الميول إلى أسخف وأفحش ما يمكن أن يتصوره المرء من وثنية(١) . »

ولعل الوثنية من صفات كثير من الأديان ، وإنه لواضح كل الوضوح أنها الصفة الحالية للدين المسيحى . هذا مع العلم بأنه ليس أسوأ من الوثنية شر : حتى الكفر . وإنه ليمكن القول نظريا ، بأن عدم الكمال يخالف طبيعة الله أكثر من عدم الوجود . ويمكننا لكى نبين مدى استنكار الوثنية ، أن نجمع كل ما أصدرته الكنيسة ضدها من أحكام استنكار وتحريم . ولكن الأفضل أن نقدر الوقائع التى هى دائما مرجعنا الأخير . ألا يعطى المسيحيون أسوأ مثل للرذيلة ؟ ألا يلازم الاعتقاد فى الله فساد خلقى مستطير — فى الحياة العملية ؟ وعلى النقيض من ذلك ألا يوجد من الكفار من يسلك سلوكا كله فضيلة ؟ أو ليس لديهم وعى تام بمبادئ الشرف ؟ ألا يعملون على أن يحظى اسمهم بأبدية المجد دون أن يؤمنوا بأبدية الروح ؟ إن المرء ليستطيع أن يتصور مجتمعا من الكفار لا يتساوى مع مجتمع من المسيحيين فحسب ، بل يمتاز عليه . وأخيراً فاذا كانت قيمة فكرة من الأفكار تقدر بما أوحت من أبطال وبما خلقت من شهداء ، أفلا يعلم الناس أن للكفر أبطاله وشهداءه ؟

هكذا يبدأ بايل بالمذنبات البريئة لينتهى بتمجيد الكفر . ولا شك فى أنه وجد من واصل أفكاره ، قوم أرادوا أن يؤثروا مثلها أثر لا فى مجال الفلسفة فحسب ، بل على أرواح البسطاء أيضا : إلا أنه ما من أحد حتى تولاند الذى نقل أفكاره أحيانا — كان له مثل قوته المطلقة العنان . وما من شك أيضا فى أنه وجد عدد أكبر من معارضيه وأخصامه الذين انشغلوا بنقض أفكاره وتفنيدها نقطة بعد أخرى : إلا أن سنين سوف تمر قبل أن يظهر فكر

---

(١) بيير بايل : أفكار مختلفة . . . بمناسبة المذنب ١٦٨٣ ، باب ٦٨ .

قوى يواجه فكره . فى عام ١٧١٢ كتب إيلى بنوا Elie Benoist راعى كنيسة دلفت Delft بهولندا صفحات ضده ، لم تكن دسمة غير أنها لم تنقصها قوة المادة . يقول الراعى : إنه بالمنهج الذى يستعمله بايل فى شأن المذنبات ، المنهج الذى يتطلب كل وضوح وبداهة وينكر كل شهادة ، يمكن القول بأنه ليس هو مؤلف « القاموس » . إن بايل يدعى أنه مؤلفه : ولكن أى دليل يقدمه لنا ليثبت صدقه ؟ — إنه يقسم على ذلك : ولكنى أريد توكيدا ووضوحا ؛ فان هناك يمينا كاذبة — سوف يقدم لنا أصدقاءه ليشهدوا بأنه رجل فاضل شريف : ولكن لا يزال عليه أن يثبت صدق أصدقائه — وسوف يستشهد بالكتبى والطابع والمصحح : ولكنى سأشك فى ذمة الشهود ، ومن شاهد إلى شاهد سوف يتضح أنى قبل أن أصدق مسيو بايل ، لابد من جمعية عمومية من الجنس البشرى بأجمعه . . .

فالواقع أن هناك ظروفا يجب فيها على المرء أن يقنع بالدليل المعنوى ، وعيب منهج بايل أنه يريد أن يشمل الروح بكليتها والحياة بأجمعها . إن الدليل المعنوى على ما فيه من غموض وظلال ، يتيح للمرء أن يختار وأن يرفض وأن يعمل وأن يريد . « إن الأدلة القاطعة من الندرة والتعذر بحيث لا تغنى ولا تفيد فى الأمور التى تحتم فيها ضرورة الحياة ضرورة العمل ، و إنه إذا ادعينا أنه لابد لنا — لكى نختار — من براهين تتغلب على كل اعتراض يثيره فيلسوف حاذق حصيف ، فعندئذ ينبغى أن نطرح كل مهام الحياة . فالفنون والعلوم والقوانين والتجارة لاأساس لها إلا الأدلة المعنوية » . وعليها يستند الدين . . . (١) .

ويومئذ نسى الناس المذنبات ، وأخذ المؤمنون بكنيسة دلفت ، ووراءهم العالم كله ، يفاضلون بين المذهب العقلى (٢) rationalisme ومذهب الذرائع pragmatisme .

---

(١) ملاحظات انتقادية تاريخيه فلسفية لاهوتية على مقالين لمسيو تولاند M. Toland أولها «الانسان بلا خرافة» وثانيهما « أصول اليهود » *Les Origines judaïques* لايلى بنوا Élie Benoist راعى كنيسة دلفت ، دلفت ١٧١٢ ، Delft, 1712

(٢) المذهب العقلى : مذهب لا يعترف إلا بسلطان العقل وينكر الوحى ، والبراجماتزم أو فلسفة الذرائع مذهب يقول إن أساس الحق هو الفائدة العملية .

[المترجمان]

***

أولئكن « السبيلات » Sibylle أو العرافات الجميلات اللواتى رسمهن مشيل أنجلو فى كنيسة الفاتيكان ، نساء تلقين الوحى من لدن الله ، فقد تنبأن — بالرغم من وثنيتهن — بمجىء السيد المسيح وحياته ومعجزاته وموته وبعثه . وقد استغل آباء الكنيسة أقوالهن على أنها هواتف إلهية لهداية غير المؤمنين ، فإن الوثنيين كانوا يضطرون إلى الاعتراف بقداسة الدين المسيحى وصحته ، حينما كانوا يرون فى الكتب التى تتضمن أقوال العرافات ، أن أسرار هذا الدين قد بينت للناس قبل ظهوره . عشر عرافات شهيرات ؛ وثمانية كتب لاتينية ويونانية وشهادة المؤلفين العظاء ، فرجيل Virgile ، وتاسيت Tacite وسويتون Suétone ؛ سلطان الآباء ، القديس الشهير جوستان ، والقديس أوغسطين ، والقديس جيروم : أى كتلة قوية ! أى حصن ضد الارتياب ! ولا يغربن عن البال أن هذه التنبؤات لم تحدث إلا إلى غاية ولادة المسيح وأنها توقفت يومئذ إذ أصبحت وليس فيها نفع ولا غناء : وكان هذا السكوت الاعجازى برهانا جديداً على صفتها الالهية .

على أن بعض المتضلعين من العلم لم يؤمنوا بذلك بسهولة . هل كتب العرافات هذه صحيحة ؟ ألا يحتمل أن تكون من صنع اليهود المؤمنين بالمسيح (١) ؟ أو لعلها من صنع المسيحيين ؟ إنها تبدو كمجموعة يونانية لجة غير منسقة . وأما فيما يتعلق

---

(١) كان اليهود دائما فى انتظار مسيح ينقذ الشعب الاسرائيلى من ظلم روما ويعيد إليه عظمته القديمة . وكانوا ينشرون فى هذا الغرض كتبا تحت عناوين كاذبة مثل كتب هنوك وجوديت وعزرا - يصفون فيها مجىء المسيح المخلص . وكان يهود «الناصرة» حيث ولد عيسى ، أول من آمن به وبرسالته . لكنهم كانوا يرونه رسولا قد بعث : لا لتبديل الدين اليهودى ، بل لتتويجه بمجىء المسيح المخلص . وأولئك اليهود المؤمنون بالمسيح يختلفون عن مسيحيي اليونان واللاتين فى أنهم ظلوا متمسكين بكل عاداتهم اليهودية مثل : ختم الختان والوضوء والاحتفال بيوم السبت ، وهو اليوم السابع ويسمونه «سابا» ، وقراءة العهد القديم بالعبرانية . وكانوا يكرهون تلك الفكرة الخرافية : الرجل الاله . (رينان : تاريخ أصول المسيحية : الكتاب الخامس ، الفصل الثالث ؛ وتاريخ الشعب الإسرائيلى ، الكتاب الخامس) . E. Renan, *Origines du Christianisme* et *Histoire du peuple d'Israël*

[المترجم].

بآباء الكنيسة فان علمهم وإخلاصهم لايعصمهم من الوقوع فى الخطأ ، فقد كان يعوزهم روح النقد ، وكانوا مغرضين فقد أخذوا على محمل الصدق أقوالا ظاهرة البطلان . لقد انخدعوا ، ثم خدعوا قراءهم بدورهم وإن حسنت النيـات .

لقد نسب العالم فوسيوس Vossius قسيس قصر وندسور ، تلك الكتب إلى اليهود ، دون مراعاة لقداسة عرافات دلفوس Delphes أو قيوم Cumes أو الدردنيل Héllespontique أو غيرهن la Phrygienne, la Tibutine ؛ بينما نسبها يوحنا ماركوس Johannes Marckius العالم اللاهوتى بجامعة جرونج إلى الرعيل الأول من المسيحيين . ثم ظهر طبيب هولاندى يدعى أنطون فان ديل Van Dale يتميز بالقوة وغزارة المعلومات ، فوجه ضربتين قاضيتين : أولاهما أن هذه الهواتف الالهية لم تكن إلا دجلا ، والثانية أنها لم تتوقف بعد مجئ المسيح .

ثم جاء فرنسى أديب حصيف ، أحد أولئك الذين يحسمون الجدال بكلمة قاطعة ، ولم يكن أحد من صفه يستطيع أن يتقدم عليه مهما طال الجدال . أى رمز لتطور الأفكار فى شخص فونتنل Fontenelle ! لم تجتذبه موضوعـات البطـولة - وإن يكن ابن أخى كورنيل Corneille العظيم - بل كان يعـد دعوى « الجليل » طنطنة . لقد عرف التكلف : كان يهوى الأشعار الموجزة ، والقصائد الرقيقة ، وأناشيد الغزل ، ويستطيع أن يجد مائة ناحية من نواحى الجمال فى شعرة بيضاء تتخلل الشعر الفاحم لغادة حسناء .

واشترك فى مجـلة « ميركور » Mercure (١) . وألف الكوميديات والتراجيديات والأوبرات . وكان يرى أن الاشتغال بالأدب يعنى صياغة قوالب محدودة جامدة ، طبقا لمبادئ ثابتة : وقد ظهر له هذا العمل ، حسبما رسم ، مسليا ممتعا . وقد احتفظ من تلك الأذواق بشئ أكثر من الذكرى ، بل ظـل طوال حيـاته قريب الشبه — إلى حد ما — بسيدياس Cydias (٢) الذى وصفه لابروبير La Bruyère فى قسوة .

---

(١) ميركور *Mercure* : مجلة أسبوعية أسست فى ١٦٧٢ لنشر أخبار البلاط والأشعار القصيرة والقصص ، واسمها مأخوذ من ميركور ابن زيوس رب الأرباب ، وميركور (هرمس) رسول الآلهة أيضا فضلا عن كونه إله البلاغة والفصاحة والتجارة ، فى الميثولوجيا اليونانية . [المترجان]

(٢) سيدياس Cydias : مثال الرجل المشهور فى الأدب لفرنسى باسم Bel-esprit =

بيد أن فونتنل كان طلعة بفطرته ، بل تواقا إلى الوصول إلى معارف صحيحة ثابتة : معارف رياضية إذا أمكن . لا تسلية ولا متعة ولا لذة تعدل عنده التحليل والاستنباط ، وإعمال الذهن الذى يقشع الظلال رويدا رويدا . وكان عقله قريباً جداً من أصل جوهره الصافى ، وإنه لعقل جدير بالاعجاب ، يدرك على الفور ويدرك كل شئ ، لا تفسده صورة أيا كانت ولا يفتنه شعور أيا كان ، وحينما نراه إبان العمل ، يخيل إلينا أننا أمام آلة تشريح لامعة حادة النصال . زد على ذلك روح التبشير التى لم يخل منها فى ذلك الوقت أحد، إذ لم يكن أحد قد سئم بعد . وصحيح أنه كان أنانياً وأنه اجتنب كل شهوة وكل انفعال ، وأنه لم يحب النساء إلا من قبيل حب الذات ، وكان يتوقى البرد والحر والتيار ، ويبتعد عن الطفيليين والنقلاء وعن كل مبعث ضيق وابتذال ، وأنه بفضل « ضعفه » الشديد ، شاهد أصح الناس يدفنون ، وعاش مدة قرن طويل . إلا أنه ليس صحيحاً أنه قبض يده على سافيها من ثروة من الحقائق وادخرها لنفسه . وليس ضربة لازب أن يكون المبشرون والدعاة أهل طنطنة أو سوء تربية بل منهم قوم ذوو رقة وتهذيب ، مثل فونتنل . ولشد ما كان يكره الضلال ، حتى إنه ينسى ما اشتهر عنه من حيطة ، ويقاوم الميل إلى الشك قائلا فى حسرة « إنك تجد الضلال فى كل مكان . . . »

فونتنل هذا هو الذى اقترب من العرافات ونظر إليهن نظرة متحرزة . وقد نشر فى عام ١٦٨٦ مؤلفه «تاريخ الهواتف الالهية» *Histoire des Oracles* وهو لم يتعمق ويتوغل ليبحث عن معلوماته ، بل قنع بمؤلفات «فان ديل» Van Dale ولعله كان اكتفى بترجمة كتابه لو لمس فيه القوة والوثوق . ولكن فان ديل يكتب فى أسلوب جاف ثقيل ، حافل بالوثائق زاخر بالتعليق ، يثبط همة

= أى مدعى العقل والذكاء . وصفه لابروبير فى كتابه «الشخصيات» *Les Caractères* وهو حسب وصف لا برويير يعتقد أنه رجل نسيج وحده ، حلو الحديث فريد الشمائل لا يقول ما يقوله الآخرون ولا يفتح فمه إلا لينقد رفاقه : « يخيل إلى أن الأمر عكس ما قلتم ... لا أستطيع أن أشاركم رأيكم ... يجب أن نلاحظ ثلاثة أسباب ... » ثم يضيف سببا رابعا . يبادر أول ما يدخل مجتمعا إلى البحث عن حسناء ليسحرها بحديثه الفاتن وذهنه الرائع وسفسطته . وينتظر دائما انتهاء الحديث ليدلى بالرأى الأخير . يظن نفسه فوق أفلاطون وسنيكا وفرجيل . ثقته بنفسه لا تحدها حدود . (لابرويير - الشخصيات ، الفصل الرابع ، فى المجتمع والمحادثة) . [المترجمان]

القارئ لأول وهلة : يحسن إذن أن يتناوله فونتنل بالتزيين والتهذيب ، وأن يحمله على الطريقة الفرنسية حتى يصبح فى متناول الجميع . لأن « النساء — ولا أخفى عليكم أن الرجال مثلهن فى هـذا البلد — يتذوقن جمال الأسلوب والتعبير والأفكار ، قدر ما يشعرن بما فى الأبحاث الدقيقة والمناقشات العميقة من جمال جاف . ولا سيما ونحن ، بما جبلنا عليه من كسل ، نريد أن نجد الترتيب والنظام فى الكتاب ، حتى نبذل أقل اعتناء . . . » والخلاصة أن فونتنل قسم العمل : فترك لفان ديل الناحية العلمية ، واحتفظ لنفسه باللباقة والأناقة وجزالة السياق ولذع الأسلوب .

أولا ، ليس صحيحاً أن تلك الأصوات الاعجازية كانت من فعل الآلهة (١) كيف أمكن أن يصدق الناس ذلك ؟ — لان إنتاجا أدبياً بأكمله ، زاخرا بالوقائع المدهشة ، اجتمع على تأييدها ؛ ولأنه كان طبيعياً أن يشتغلها الناس ما استطاعوا مادام المسيحيون قد اعترفوا بها ، ولأن الاعتقاد بالآلهة كان يبدو موافقا للفلسفة الأفلاطونية ، زد على ذلك سبباً أقوى من كل الأسباب : تسلط السر المحير على ذهن الانسان .

ولكن كل هذا البناء واهى الأساس : إن الروايات التى يستند عليها هذا التقليد الخرافى غامضة أو متناقضة أو ظاهرة الاختلاق ، حتى إنها لتنهدم وتتداعى فور فحصها بمعرفة العقل . وهكذا يسير فونتنل فى طريقه ضاربا ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا : إن العقيدة الشائعة عن أصوات الآلهة لا تتفق مع الدين قدر ما يظن الناس ، وإن وجود الآلهة لم يقم عليه الدليل الكافى فى الفلسفة الأفلاطونية ، وإن مذاهب هامة فى فلسفة الوثنيين لم تعتقد بوجود شئ خارق للطبيعة فى أصوات الآلهة ، وإن كثيرين من غير الفلاسفة لم يلقوا بالا إلى تلك الأصوات ، وإن المسيحيين القدماء أنفسهم لم يعتقدوا كل الاعتقاد

(١) أصوات الآلهة أو الهواتف الالهية Oracles : هى فى الأصل — لدى الوثنيين — جواب الآلهة على أسئلة النـاس . ففى المعابد والهياكل مثل دلفوس كان الاله يتكلم على لسان عرافة يدعونها بيتى أو سيبل . وكانت هذه الكاهنة الحسناء ، لكى تأتى بالجواب ، تصوم ثلاثة أيام ، ثم تمضغ ورقة غار ، وتقع فى تشنج عصبى هو ولا شك نتيجة عصارة هذا النبات ، ثم تقف على منبر موضوع فوق عين يتصاعد منها بخار أو غاز ، ثم يرتعد كل جسمها ، ويقف شعر رأسها ويمتلىء بالزبد شدقها ، وحينئذ تجيب على أسئلة السائلين .

[المترجمان]

فى أن تلك الأصوات من فعل الآلهة . وهكذا كلما وجد فونتنل تأكيداً ، شك وأنكر ، مدليا بالأسباب على الدوام .

والآن ، وقد ثبت أن أصوات الآلهة كانت فاسدة ، وأن الناس ابتدعوها تحقيقاً لهوى ذوى النفوذ ، وأن كهنة الوثنيين استعملوا كل الحيل لفرض تلك الأصوات على عقول العوام ، وأنها كانت غامضة مبهمة فلا وزن لها ولا قيمة ، وأن أساسها الخبث البشرى ولا صلة لها بالآلهة ، ينتقل فونتنل إلى النقطة الثانية : فغير صحيح أن هذه الأصوات قد توقفت بعد مجئ المسيح ، بل إن كثيراً منها حدث بعد ذلك التاريخ . وإذا صح أنها توقفت عن الصدور ، فلأنها كانت تحمل فى ثناياها سبب الفناء ، وهو سبب منطقى مستقل عن النفوذ الالهى : بداهة البطلان . « إن جرائم الكهنة ووقاحتهم ، ومختلف الأحداث التى أظهرت دجلهم فى جلاء ، وخطأ إجابتهم وعدم الوثوق بصحتها ، كانت لابد أن تضيع آخر الأمر أصوات الآلهة ، وتوردها موارد الهلاك ، ولو لم تنتبه الوثنية » . وجماع القول فى ذلك أنه لا شئ فى كل هذه الرواية خارق للطبيعة ، وهى رواية تقوم على جهل البعض وخداع الآخرين . الخارق للطبيعة ، ذلك هو الملاذ المعتاد للانسان ، ملاذ كله خداع وبطلان . نحن فى جرينا وراء العلة نتخطى حقيقة الأمر الواقع ، وهنا مأتى الضلال . والدواء الناجع فى قاعدة ينبغى ألا تغيب أبداً عن العقول : تحقق من الواقع أولا ، قبل أن تشغل نفسك بالعلة .

من ذا الذى لا يعرف حكاية السن الذهبية ، تلك الحكاية اللطيفة الحية الحافلة بالمعانى ، فلنعد قراءتها فان قيمتها خالدة ، ولنتخيل ما كان لها فى بدء ظهورها من شهرة وضجة . إن فونتنل يبدو كأنه يتسلى ، بينما هو يلمس أهم مصالح البشر : العلم والتاريخ والدين :

« فى عام ١٥٩٣ سرى خبر مؤداه أن طفلا من سيليزيا عمره سبعة أعوام سقطت أسنانه ، ونبتت محل أحد أضراسه سن من ذهب . وقد كتب هورستيوس Horstius أستاذ الطب فى جامعة هلمستاد Helmstad فى عام ١٥٩٥ قصة هذه السن ، زاعما أن فيها شيئاً من الطبيعة وشيئاً من الاعجاز ، وأنها إنما أرسلت من لدن الله إلى هذا الطفل كسلوة للمسيحيين الذين آذاهم الأتراك . هل

تتصورون وجه السلوة فى ذلك ؟ وأى علاقة لهذه السن بالمسيحيين وبالأتراك؟ وفى نفس السنة كتب رولاندوس Rullandus حكاية هذه السن الذهبية مرة أخرى ، حتى لا ينقصها المؤرخون . وبعد عامين كتب انجولستاتاروس Ingolsteterus — عالم آخر — معارضا رأى رولاندوس فى هذه السن الذهبية ، وعليه أجاب رولاندوس فى رد علمى جميل . ثم يأتى رجل عظيم آخر هو ليبافيوس يجمع كل ما قيل عن هذه السن ، ويضيف إليه رأيه الخاص . وكل ما كان ينقص هذه المؤلفات الرائعة أن تكون السن حقيقة من ذهب . فلما لما جىء بصائغ ليفحصها وجد أن قشرة من ذهب قد ركبت عليها بمهارة . غير أنهم بدأوا بتأليف الكتب أولا ، ثم استشاروا الصائغ بعد ذلك .

« ولا شئ يبدو طبيعيا أكثر من أن يسير الناس على هذا المنوال فى كل الموضوعات . لست أعتقد أن مرد جهلنا إلى عدم إدراكنا علة الموجود من الأشياء ، بل مرده إلى إدراكنا علة ما لا وجود له من الأشياء . ومعنى ذلك أننا لسنا نفتقر إلى المبادئ التى توصلنا إلى اليقين فحسب ، بل إننا فوق ذلك نملك مبادئ أخرى تتمشى مع الباطل كل التمشى .

«لقد أثبت كبار علماء الطبيعة أن الطبقات الواقعة تحت سطح الأرض حارة فى الشتاء ، باردة فى الصيف ، إلا أن علماء أعظم منهم ، اكتشفوا منذ زمن قريب أن هذا لم يكن صحيحاً .

« والمناقشات التاريخية أكثر قابلية لمثل ذلك النوع من الأخطاء . نحن نستدل بناء على أقوال المؤرخين ، ولكن من يدرينا ، هل سلم هؤلاء المؤرخون من الأهواء ، والتصديق الأعمى ، وضعف التعليم ، والاهمال ؟ لا بد لنا من مؤرخ يكون قد شاهد كل شئ ، ولابد أن يتوافر فيه الحياد والاهتمام .

«ولا سيما إذا كتب المرء عن وقائع تتصل بالدين ، فانه لمن الصعوبة بمكان إذا كان ينتمى إلى إحدى الطوائف أو الأحزاب ، ألا ينسب إلى دين غير حق ميزات لا يستحقها ، وأن ينسب إلى دين حق صفات باطلة لا يحتاجها . ومع ذلك ينبغى أن نقتنع أنه من المحال أن نضيف أية حقيقة إلى دين حق ، كما أنه من المحال أن نضفى أية حقيقة على دين باطل . . .»

ولا تبدو البداية إلا هزلا ظريفا ، غير أن النغمة تصبح جداً رويدا رويدا.

إن التفكير العميق تحت هذه المظاهر الخفيفة ، يلتحق بالتفكير الذى عبر عنه بايل فى صدد المذنبات ، حتى إنه لا يعييك أن تلاحظ القرابة . إنه نفس النداء موجها إلى جمهور ، أكبر من جماهير الفلاسفة واللاهوتيين ، وفيه نفس الارادة فى اتهام ضعف الطبيعة البشرية ، أهم أسباب الضلال ؛ وعمى التقاليد التى تحتضن الضلال وتدعمه وتجعل منه قوة لا تغلب . تتولد الحماقة : فيصدقها القدماء ويعتمدونها ، ونصدقها بدورنا على علاتها ، استناداً على القدماء . إن الآلية لا تتغير : أقنعوا ستة رجال بأن الشمس لا تضئ النهـار ، وفى ذلك الكفاية : فان شعوبا بأكملها يؤول بها الأمر إلى الاقتناع . وفونتنل ، مثل بايل ، يكره السلطة ؛ إن الارتضاء الشامل يبدو له سخافة محضة ، إذا اتخذ دليلا على اليقين : إن قبول مائة شخص أو مائة مليون لأسطورة ، خلال عام أو خلال قرون ، لا يغير منها شيئاً إذ تبقى دائما أسطورة . وهو ، مثل بايل يستنكف المعجزة ، وأخيراً فهـو مثـل بايل يأبى أن يجد فرقا جوهرياً بين الوثنيين والمسيحيين : فالمسيحية تأبى نسبة حقائقها إلى الوثنيين ، والوثنيون أورثوا المسيحيين أخطاءهم .

ولـمـا كان فونتنل ذا عقـل كسول كسكان سيباريس Sybaris (١) وذا حكمة ، ولما كان ميالا إلى المتعة الهادئة خشية أن يستجلب على نفسه نقمة الآلهة ، فانه لا يجادل جدالا شديداً ، ولـكنه يجادل على كل حال . وهو يعلم أن فى بولونيا مجمعاً للعلوم يدعى مجمع « القلقين » : والقلقون — لقب يليق « بالفلاسفة المحدثين الذين لا يتقيدون بأى سلطة ، ولذا فهم يبحثون ولن يكفوا عن البحث (٢)» . وفونتنل من طائفة أولئك القلقين . وهو مثل أعضاء طائفته ، يدرك أن عليه رسالة شاقة واجبة الأداء : لأن يرفض المرء اعتقاداً جديداً دون فحص ، أو يتقبل اعتقاداً شائعاً ، هذا سهل لا يستلزم استعمال العقل ، أما أن ينبذ اعتقاداً شائعاً وينضم إلى حزب التجديد ، فذلك

---

(١) سيباريس : مدينة قديمة فى إيطاليا اشتهرت بليونة سكانها الذين ضرب بهم المثل فى الكسل . يحكى أن أحد أهلها كان يتصبب عرقا إذا رأى عبداً يقطع الأشجار . وأن آخر يدعى سيمينيريت اشتكى من أنه ظل طوال الليل ساهرا أرقا ، لأن ورقة من أوراق الورد المفروشة فى سريره كانت قد انثنت ، وذهبت هذه المبالغة مثلا . [المترجم]

(٢) مدح لمسيو مارسيجلى ... *Eloge de M. Marsigli* .

عسير وهو ما يستحق التقدير : « إنما القوة تلزم فى مقاومة السيل ، أما فى متابعته فليس لها لزوم » . فهو ينكر على المصدقين كل شئ ، ويعطى للمنكرين كل شئ ، كما هو مبين فى هذا القول : « إن شهادة الذين يعتقدون فى ثبوت شئ ، ليس لها من قوة تسنده ، أما شهادة الذين لا يصدقون به فلها قوة تقوضه . ولعل المصدقين لا يعلمون بالأسباب التى تدعو إلى عدم التصديق ، لكنه من المحال أن يجهل غير المصدقين الأسباب التى تدعو إلى التصديق . »

***

وكان الاعتقاد فى السحرة أقدم وأعم وأعمق تشبثا بالعقول . وكان السحرة مخلوقات كريهة مرذولة : يذهبون إلى اجتماعات السبت Sabbat (١) على مطايا غريبة ، ويشركون فى حفلاتهم الشيطان . وعلى ما يقول أحد المعاصرين يؤذون الناس بأعمالهم السحرية فيمنعون الزوج من مجامعة زوجته ، ويفسدون الفتيات الفاضلات بطلسم يلقونه فيما يشربن أو فيما يأكلن ، ويسممون الماشية ، ويتلفون خيرات الأرض ، ويميتون الرجال بالتعذيب البطئ ، ويجهضون الحوامل ، بجانب مئات من السيئات الأخرى . . . وهناك نوع آخر أخطر من هؤلاء : السحرة المجوسيون ، وهم على علاقات ودية مع الشيطان ، يستحضرونه على الصورة التى يرغب أن يراه فيها محبو الاستطلاع . ويعرفون سر الكسب فى المقامرة ، ويضمنون الثراء لمن يبوحون له بهذا السر . يرجمون بالغيب ، ويستطيعون التحور إلى الحيوان بمختلف أنواعه واتخاذ صورة أبشعه ، ويذهبون إلى بعض المنازل حيث يصدرون أصواتاً غريبة تبدو كعواء الذئاب ، وأنات مرعبة تثير الفزع ، ويظهرون وسط نيران تعلو على هام الشجر ، جارين أغلالا فى أقدامهم ، ممسكين بالأفاعى فى أيديهم ، والخلاصة أنهم يثيرون

---

(١) Sabbat : يوم الراحة عند اليهود وهو اليوم السابع أو السبت . وهو حسب اعتقاد شعبى يعنى اجتماع السحرة فى منتصف الليل يوم السبت تحت رئاسة الشيطان . وقد أمر الله اليهود بعدم الصيد فى يوم السبت ابتلاء لهم فتمر الأيام لا يأتيهم السمك وفى يوم السبت المحرم تظهر لهم الحيتان بكثرة تراودهم . قال تعالى «واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون». [المترجم]

الرعب فى النـاس حتى يضطروا إلى استدعـاء رجـال الدين لصرفهم .

وإن عددهم لكبير : تجدهم فى أمريكا لدى المتوحشين ، كما تجدهم فى لابلاندة . ولما كان سحرة لابلاندة قد تعاهدوا مع الشيطان ، فانهم يستطيعون إيقاف السفينة فى أثناء سيرها ، وتغيير وجه السماء . بدقون طبلا سحرياً لأمـد طويل ، ثم تستولى عليهم علامات رعب شديد ، ويظلون سجودا على وجوههم دون حراك ، بينما أرواحهم تفارق أجسادهم ، راحلة إلى بعيد . ففى لابلاندة تصادف السحرة أينما سرت وفى كل خطوة .

ومالنا نذهب بعيداً . فقد حدث مثلا فى انجلترا القديمة ، فى تدورث ، أن طرد أحد أصحاب المنازل قارعاً للطبول من منزله : يومئذ عاد هذا الرجل بالسحر ، ليسمع صاحب المنزل دقات تثير الرعب وضجة شيطانية . والواقعة أكيدة . فان قسيساً يدعى جوزيف جلانفيل Glanvill ، حضر إلى المنزل وتفقده من الأساس إلى السقف : ولقد سمع الضجة إلا أنه لم ير أحداً . وأولئك الذين ينكرون تلك الشهادة عن وجود الشيطان وقدرته ، غير مؤمنين ، كفرة ، صدوقيون Saducéens (١) وكان المذهب الصدوقى يسرى فى انجلترا ويفتح الطريق للكفر ، بتشكيكه فى وجود روح أبدى لا متناه ، ولكن الصالحين من القوم ، سوف يعملون على إخماد هذا المذهب ، لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا ما سببه شبح تدورث من أذى .

وبلغت مسألة الشيطان من الأهمية مبلغاً ظلت معه تعكر صفو العقول ، مع أنها ليست جديدة بل ترددت مائة مرة . فياأيتها الشيطنة ماذا تعنين ؟ هل أنت لعبة الأرواح الجهنمية ، العفاريت الشريرة المنتشرة فى كل مكان ، والتى تجد متعة فى تعذيب الناس ، وإيقاعهم فى حبائل الاغراء ؟ أم أنت مظاهر متعددة متباينة لقدرة الشيطان على بث الارتياب ، ذلك الشيطان الذى انتقل بالمسيح إلى قمة الجبل حيث أطلعه على كل ممالك الأرض سعياً وراء

---

(١) الصدوق : اليهودى الغنى من أصل كهنوتى ارستوقراطى محافظ . لا يريد أن يسمع عن اعتقاد جديد ، كالبعث والمسيح والملائكة والتفسير الجديد للقانون . وهو يخالف الفريسى الذى يمثل الديموقراطية ويعتقد بالبعث والمثوبة فى الدار الأخرى ، ويحمل القانون كتلة من التفسيرات التقليديه . (رينان : تاريخ الشعب الاسرائيلى الجزء الخامس، الفصل الخامس ص ٤٢ ، *Histoire du peuple d'Israël* (Renan, . [المترجمان]

إغرائه ؟ أم أنت لست إلا كابوساً مخيفاً أو وهماً يساور الانسان ؟ أم لست إلا وليدة الخيال الهائم سيد الكذب والبطلان ؟

لم يكن بد إذن من معاودة النضال للمرة الثالثة ، أو على الأصح الاشتباك بشكل حاسم فى عراك يبدو كأنه لا ينتهى ، وإن كان سينتهى . وكان ينبغى التدخل بحمية ونشاط لأن الأمر لا يتعلق باليقين أو بالضلال فحسب بل بمتهمين ومتهمين ، بمحاكم وقضاة وضحايا . وإذا كانت بعض دول أوربا تميل إلى التسامح ، وتمنع رفع الدعوى ضد فقراء تعساء للاشتباه فى اتصالهم بالشيطان ، وهو ما ليس من الاجرام فى شئ ؛ وإذا كان ملك فرنسا قد أصدر فى عام ١٦٧٢ أمراً يمنع المحاكم من قبول الاتهام بالاشتغال بالسحر : فان دولا أخرى ، على النقيض ، قد واصلت المطاردة بكل شدة ضد السحرة والممسوسين والمدعين القدرة على استحضار الموتى ، بارسالهم إلى السجن والتعذيب والمشنقة والحريق .

وهنا ظهر هولندى ، تبعه ألمانى هو بلتازاربيكر Balthasar Bekker ، ثم أقواهم كريستيان توماسيوس Christian Tomasius ، وقد تجسد فيهم مجهود العقليين الظافر . ويلتازاربيكر هذا سيماؤه ليس لها نظير : لقد كنت ترى بنيقته البيضاء يبرز منها ذقنه المربع الكبير ، وفمه العريض ، وأنفه الضخم الطويل ، وعيناه البراقتان ، يظللهما حاجبان كثان ؛ ولم تكن شخصيته أقل تفرداً . وكان هذا الراعى البروتستانتى — شاء أو أبى — متأثراً بديكارت الذى علمه التفكير الواضح المستقيم . وقد علمته إحدى المغاسرات التقزز من حكم الآخرين : ففى أثناء قيامه بأعباء وظيفته فى فريز ، ألف كتيباً عن عقائد المسيحية ، حرمته جمعية مكونة من أكثر من مائتى قسيس ، دون أن يوجد بينهم قسيس واحد — على ما يزعم — يستطيع أن يبرر هذا الحكم . وقد قوبل هذا الكتاب ، فيما بعد ، بالتأييد مرتين مع أنه لم يجر فى مبادئه أى تعديل . كيف لا نستنبط بعد ذلك ، أن مسيحياً صحيحاً ، ولا سيما إذا كان عالماً ، ينبغى أن يعد حكم الآخرين باطلا كأنه لم يكن ، وألا يستوحى قواعد الايمان إلا من نفسه ؟ وعلى ذلك قرر بيكر أنه لن يكون له فيما بعد إلا رسالة واحدة بجانب الاهتمام برعيته : وهى القضاء على الأخطاء وكشف القناع عن الأكاذيب . لن يتبع خطوات أحد ، ولن يستمع لنصائح أحد حتى العلماء ، الذين سرعان ما ينحنون أمام الشهرة المكتسبة ، والذين لا تنقصهم المعتقدات الباطلة . سيجاهد لجعل الناس أكثر

حكمة ، مع أن حقيقة الأمر أن من يريدون منهم إصلاح عقولهم قلة : إنه ليسير مريح أن يؤمن المرء ويتصرف كما يفعل الناس قاطبة ، وأن يردد اعتقاداً يرويه الناس فى كل آونة ! ما أيسر اتباع الجماهير ! وما أصعب التمحيص . إن بلتازاربيكر مثل تولاند قد تسمم بالعقل . إلا أنه كان على الأقل باسلا مخلصا نشيطاً ، فى عقله تلك الحمية المشتعلة التى لا غنى عنها فى حروب العقل المقدسة .

وقد ارتحل لملاقاة الاعتقادات الباطلة ، فلم يجد عناء فى مصادفة الكثير منها . وهو أيضاً يبتدئ بتبرئة المذنبات : ولكن الشيطان يستأثر باهتمامه ، ويحتل مخيلته ويشغل كل عظاته ، إلى أن يتخلص منه ذات يوم فى كتاب كبير ينشره فى عام ١٦٩١ : *De betooverte Wereld* « العالم المفتون » . سوف يخلص العالم من الافتتان . . .

وهو يبتدئ فى أسلوب حى مؤثر . إن الاعتقاد فى الشيطان وفى قدرته ، وفى خدام الشيطان وإجرامهم ، ليس له أمام النور الفطرى صمود . فلنصل إلى منشأ هذا الاعتقاد ، ولنتبع مسراه على مر العصور ، وفى كل البلاد ، عندئذ سوف نرى أن مصدره وثنى ، وأنه أفسد المسيحية ؛ ومع أن البروتستانت ، منذ انفصالهم عن كنيسة روما ، قد تخلصوا منه إلى حد ، فانه لم يكف عن خداعهم بعد . لا تقولوا إنه يستند على الكتاب المقدس : لعله يستند على تفسير آباء الكنيسة له ، ولكنه لا يستند على تفسير منطقى ، مثل تفسيره هو ، بلتازار بيكر . فمثلا : يتكلم الكتاب المقدس عن الملائكة ، ولما كان لا يذكر شيئاً عن طبيعتها أو ماهيتها ، فيمكن القول بأنه يشير إلى أشخاص كلفهم الله برسالة خاصة ، ولذا أمدهم بقدرة خاصة . وهو أيضاً يتكلم عن أرواح شريرة ، ولكنه هنا أيضا يشير إلى أشخاص ، أشخاص أشرار مفسدين . وهو يذكر ما وقع لآدم من إغراء ، ولكن قصة موسى لا تذكر شيئاً يستدل منه على أن الشيطان نفسه يستطيع أن يؤثر مباشرة على الأرواح والأجساد . كما يذكر الكتاب المقدس إغراء السيد المسيح ، لكنه لم يذكر أن الشيطان لم يكن رجلا شريراً فاسداً . وهو يذكر أن المسيح كان يشفى الممسوسين ، ولكن الناس اعتادوا أن ينسبوا أخطر الأمراض إلى فعل الشياطين ، فضلا عن تسميتهم الأمراض نفسها بالشياطين . إن المسيح لم يغير أساليب الكلام التى كانت فى أيامه ، حتى إن شفاء المس المزعوم daemonia لم يكن على

التحقيق طرداً للشياطين ، بل شفاء لأمراض جد حقيقية . وجملة القول فى ذلك « أن تفسير الكتاب المقدس تفسيراً عميقاً خاليا من التغرض ، لا ينسب إلى الشيطان كل تلك القدرة وتلك الأفعال ، التى ينسبها إليه تغرض الشراح والمفسرين . . . » واليوم نرى السحرة قوما أشرارا جداً ، عقيدتهم وأخلاقهم فاسدة كل الفساد ، ولا علاقة لهم ألبتة بالشيطان .

وقد حكمت الكنيسة على بلتازار بيكر بالخرسان ، وبات بيكر على رأيه . وقد عنى بترجمة كتابه إلى الفرنسية تحت إشرافه حتى يتفادى التراجم المزورة التى تتعرض لها دائما المؤلفات التى تلاقى النجاح . ولم يكن هذا التحوط عبثا ، فقد لقيت الترجمة الفرنسية للكتاب أوسع رواج . وقد ترجم أيضا إلى الانجليزية والألمانية ، وقرأته أوربا بأجمعها .

إلا أن ألمانيا كانت أكثر البلاد مطاردة للسحرة وأخذا لهم بالعنف والشدة . فلم يمض وقت طويل على وفاة رجل قانون شهير ، كان أحد أولئك الرجال ذوى المكانة والخطر الذين يستوثقون من القبض على ناصية الحقيقة وتملك زمام العدالة ، والذين يدينون إخوانهم متى رأوا صالحهم فى ذلك : يقال إن هذا الرجل « بنوا كار بزو » Benoît Carpzow زعم أنه قرأ العهد القديم من الألف إلى الياء ثلاثا وخمسين مرة ، وأنه كان يذهب إلى الكنيسة ليتناول القربان مرة على الأقل فى كل شهر ، وأنه كرس حياته لتقوية إجراءات القانون ، وتشديد العقوبات على السحرة : حتى أدان أو تسبب فى إدانة بضعة آلاف منهم . ومع ذلك ، فبعد مرور جيل كان على ألمانيا نفسها أن تقدم أقدر الرجال على محاربة هذه البربرية وهو كرستيان توماسيوس : وكان تطور أفكاره علامة من علامات الزمن .

لقد ولد فى ليبزج فى عام ١٦٥٥ ، حيث نشأ بين مبادئ قويمة تليق بابن أستاذ كبير . وتعلم التفكير طبقا لمنهج أرسطو ، والايمان على يد القساوسة حراس الأرثوذكسية الأشداء . ولما أتم دراسته فى العشرين من عمره وذهب إلى فرانكفورت لكى يكون معلما هناك بدوره ، كان يدرك تمام الادراك واجبه فى الدفاع عن السلطة والاحتفاظ بالتقاليد ، التى لا تترك مجالا للحرية فى إعمال الفكر ولا للتسامح فى أداء الفروض اليومية .

ولكن حدث فى عام ١٦٧٥ ، أن قرأ مؤلفات بوفندورف Pufendorf ، الذى أخرج العلوم القانونية من نطاق الدين بتمييزه بين الحق الطبيعى والحق

الالهى : فكان ذلك وحيا لتوماسيوس . إن نظرية الحق الطبيعى التى حاربها حتى ذاك الوقت دون أن يعرفها جيداً ، أصبحت منذئذ دستوراً له ، فوصل فى بحثه إلى المبادئ التى أوحت بهذه النظرية ، وانقلب من دجماطيقى متعصب إلى متحرر ثائر . «لا عقيدة تكتسب اكتسابا أعمى بعد اليوم ، عندما أمحص نظرية فلا تقدير عندى لشهرتها ولا لمقام من يؤيدها ، بل سيكون تقديرى الوحيد لما فيها من وضوح ؛ سأدرس ما لها وما عليها من براهين ، وسأتخذ قرارى طبقا لما تهدينى إليه معارفى الذاتية . وبدلا من أن أظل عبداً مطيعاً لطغاة الفكر سأغدو مثل أولئك الأبطال القدماء الذين انتضوا السلاح ضد الطاغية الذى كانوا فى خدمته ، فى سبيل انتصار الحرية . . . »

وكان مفطوراً على الخشونة والعنف ، مشغوفا بالمعارك الحامية ، والمناقشات المحتدمة والمجادلات الحية ، ومحبا للنداء الذى يتعالى من منابر الجامعة ليرن فى أحياء المدينة . وكان يجد لذة فى استعمال حيل الحرب التى تدحر العدو الواثق بقدرته ، وتوقع العظمة « الروتينية » فى الخور والارتباك ، بالاستهزاء وبالسخرية وبالهجاء ، ولم يكن يأنف تلك السمعة السيئة التى تدفع الناس إلى أن يقولوا فى أثناء مروره : هذا هو كرستيان توماسيوس الذى لا يخاف شيئا ولا يهاب . ولما رجع إلى ليبزج فى عام ١٦٨٠ بصفته Privat-docent (١) قام بدور رائع خلاب ، إذ سرعان ما اتخذ تعليمه مظهر ابتكار مثير للخواطر . كان يقول إن الميتافزيقا لغو فارغ ، وإنه ينبغى ترك اللاهوت للاهوتيين ، وإنه لا حساب إلا لعلمين اثنين : المنطق والتاريخ . لأن الأول يعلم التفكير المستقيم ، ولأن الثانى يعطى المثل المفيد ، سواء بالاجتناب أو بالاقتداء ؛ وإن المعرفة ينبغى أن تكون وسيلة للمنفعة العملية ، الواقعية ، المباشرة ؛ وإن القانون يجب أن يكون اجتماعيا . وكان يحارب المعتقدات الباطلة مصدر كل بلاء ، فمنشؤها تلقين الأطفال والشباب كل أنواع الضلال التى تدعو إلى الرثاء ، دون تقدير لعقولهم ؛ فضلا عن خفة الناس وتسرعهم فى تقبل كل ما يقدم لهم للايمان به . وأخيراً فانه كان دائب التكرار لنظرياته القيمة :

---

(١) Privant-docet : أستاذ حر فى جامعات ألمانيا ، يتناول أجره من تلامذته .
[المترجم]

إن النور الفطرى شئ والوحى شئ آخر ، وإن اللاهوت من دائرة الكتاب المقدس ، أما الفلسفة فمن دائرة العقل ، وإن اللاهوت يتناول سلام الناس فى السماء ، أما الفلسفة فتتناول سلامهم فى الأرض ، وهو الأمر الأولى .

وضاق أساتذة الجامعات ذرعا بتلك الأقوال الجريئة : قالوا إن توماسيوس يفسد عقول الشباب ، ويدفعهم إلى الكفر . وتبادلوا وإياه الهجوم والرد والكر والفر . وكان يبدو فى حلة الأستاذية ، يكسوه شعر مستعار فضفاض ينسدل على عاتقيه ، كأنه برج ضخم قوى لا تزعزعه الضربات . كل ما وجه إليه من مقالات ورسائل قدح ، وكتب تهديد ، واستدعاء أمام المجالس الجامعية ، وإيقاف عن التدريس ، كل ذلك كان يلهب حماسته . وكان له من حين إلى حين ابتكارات عبقرية فذة ؛ كما حدث ذات يوم ، وهو يوم ظل مشهوراً فى تاريخ الجامعات الألمانية ، يوم نشر برنامج دروسه لا باللغة اللاتينية بل باللغة الدارجة . ويا له من شخصية عجيبة ! فقد أراد أن يؤثر على التلامذة حتى يجعل منهم لا محامين وقضاة فحسب ، بل رجالا مفكرين أيضا ، فاعتزم أن يدرس ذلك النموذج البشرى الذى قدمه بلتازار جراسيان Baltasar Gracian ، إلى العالم : البطل *le héros* . وإذا به يقع على نموذج بشرى آخر ، هو الرجل الفاضل *l'honnête homme* ، وعلى المدنية الفرنسية ، سيدة الانسانية : إذ كان يسأل فى درسه الافتتاحى ، إلى أى مدى يجب أن يقلد الألمان الفرنسيين ؟ حسن أن ندرس مؤلفاتهم ، ما فى ذلك من شك ؛ وأن نطالع كتبهم المشهورة « كالمنطق (١) لجامعة بور — رويال» ، *La Logique de Port-Royal* وأن نعرف لغتهم التى تحتوى على كثير من النماذج الرقيقة للسيكولوجية . أما أن نقلدهم كالمزورين أو القرود فهذا ما لا يجوز ! إن الفرنسيين يفوقوننا علما وذوقا وتربية : أجدر بنا أن نعمل على منافستهم ، بدلا من أن نقتفى أثرهم فى حطة . فلنتقدم ، ولنخجل لأن هؤلاء المزهوين يضعوننا فى صف واحد مع أولئك البرابرة الروس ، ولنثبت لهم مدى اقتدار الألمان ، إن المستقبل فى أيدينا .

---

(١) المنطق *La Logique* أو فن التفكير : تأليف أرنو ونيكول Arnaud et Nicole فى أربعة أجزاء ، ١٦٦٢ . [المترجمان]

وكان يضحك فى خضم المعمعة ، لأن الخلق المرح — كما يقول جراسيان — ليس عيبا بل كمالا إذا هو بعد عن المغالاة : فشىء من الفكاهة كشىء من التوابل فى الطعام . وأضفى على الراسيو نالزم — أى المذهب العقلى — كثيرا من الفكاهة ، بنشره فى عام ١٦٨٨ صحيفة على مزاجه : أقضت مضاجع أصحاب المذاهب . صحيفة لا تصدر باللاتينية مثل *Acta eruditorum* فخر ليبزج ، بل بالألمانية . صحيفة تجمع بين الهزل والجد ، بين الخفة والرزانة ، تتعرض للكتب الجادة والكتب الفكهة سواء ، صحيفة تزكيها ذكرى أستاذ كان يجمع هو الآخر بين رجاحة العقل والميل إلى السخرية : إرازم Erasme (١).

ظل يجادل حتى عام ١٦٩٣ ، حيث اضطر إلى مغادرة ليبزج : ولابد فى حياة هؤلاء المعارضين من هذه العراقيل . فرحل إلى برلين . وكان ذلك فى الوقت الذى اعتزم فيه فردريك الثالث تحويل مجمع النبلاء فى هال إلى جامعة ، سنراها فيما بعد مركزاً كبيراً للنشاط الفكرى . ووجد كرستيان توماسيوس فيها مستقراً له ، بل أصبح رجل المؤسسة ، وخالقها الحقيقى وموجهها . وهنالك انشغل فى البحث عن الشيطان .

ولشد ما كان نشاطه ! ولكم جمع من البراهين ، متخذاً بعضها من بيكر ومخترعا البعض الآخر ! لا الوقائع ولا التفسير الصحيح للكتاب المقدس ، ولا المنطق ولا العقل نفسه ، تسمح بترك خرافة مثل هذه باقية : ظهور الشيطان لرجل فى صورة حيوانية أو بشرية ، ثم عقد ميثاق بينهما ، يستبدل فيها الساحر بروحه ، قدرة شريرة يؤثر بها على الأشياء والناس . وإنك لترى توماسيوس أحيانا يحتال : فهذه الصورة السخيفة ، مأتاها الكتب ، كتب الدين . هناك رأى الكاثوليك الشيطان منذ الصغر فى صورة وحش بشع ، ورآه اللوثريون فى صورة راهب ، قدمه ذات ظلف مشقوق ، وقرونه نافذة من قلنسوته . وتراه حيناً يغضب ويحتد : كان المنتظر أن يتخلص الاصلاحيون البروتستانت من هذه العقيدة السخيفة ، بعد مافعله لوثر ، وبعد تكذيب

---

(١) إرازم . عالم وفيلسوف وأديب هولندى ، ولد فى روتردام فى ١٤٦٧ ، مؤلف المحاورات الشهيرة *Colloques* ومدح الجنون *L'Éloge de la Folie* : وهو أعلم أدباء النهضة فى العلوم الانسانية اشتهر فيما بعد بفضل أسلوبه وفكره بلقب «فولتير اللاتينى» ومات فى بال ١٥٣٦ . [المترجان]

كل تلك الخرافات الرومانية والبابوية ، بيد أننا نجدها لا تزال فى اعتقاد العوام قائمة حية ، بل إنها بين البروتستانت ولاسيما اللوثريين سارية ، قوية . فيا للمشينة ! ولكن ليس الفيلسوف الذى يتكلم فحسب ، بل يتكلم أيضاً أستاذ القانون ، المحامى الذى دافع عن السحرة فى القضايا الجنائية . ففى ساكس قوانين ، بل قوانين حديثة ، تعلن أن كل شخص يعقد ميثاقا مع الشيطان دون مراعاة المسيحية ، يحكم عليه بالموت حرقاً ولو لم يسبب لأحد ضرراً . آه . . . ! فليحذر القضاة واللاهوتيون الألمان ، بفضل تقدم الفلسفة الديكارتية ، وبفضل تقدم المنطق ، الوقوع فى خطأ يقود إلى الجريمة ! ولعل أكثر ملاحظات توماسيوس ابتكاراً ، تدخله العملى فى هذا السبيل : فانه يقوم بالدفاع هنا ، فى ميدان الواقع الملموس ، عن العدل والانسانية .

وفى عام ١٧٠٩ ، وجد متعة فى أن يرفض كرسيا عرضته عليه جامعة ليبزج — التى تعض بنان الندم . ولقد استقر فى هال ، وفى هال قضى السنوات الأخيرة من حياة طويلة ، وفى هال توفى عام ١٧٢٨ : الرائد المجيد لحركة التفسير الألمانية Aufklarung ، بطل المعركة الكبرى فى سبيل النور .

***

ليس ضربة لازب أن ننقب فى أعماق الضمائر لكى نجد الخرافة ، المستعدة دائما للطفو على السطح . إن المركيزة برانفلير La Brinvilliers والعرافة فوازان la Voisin (١) لم تكونا محترفتى تسميم فحسب ، بل عدتا أيضا ساحرتين . وفى عام ١٦٨٠ قبض على الماريشال دى لوكسمبرج — من أكبر شخصيات فرنسا — وسجن : بتهمة عقد اتفاق مع الشيطان . ولم ينقطع الحديث عن الممسوسين فى لودون Loudun — وهى قصة قديمة — ولا عما يشبهها من أقاصيص . وفى عام ١٦٩٢ كشف المنجم جاك إيمار عن القتلة بعصاه السحرية . وأصبح شهيراً يهدد بها مرتكبى الشرور واللصوص . وأخذ يستغل شخصيته ، فيقع فى تشنج عصبى شديد : وانهالت عليه الطلبات ، وأصبح موضع الفضول . ولم

(١) المركيزة برانفلير : مارى مادلين دى برانفلير ، محترفة التسميم الشهيرة أعدمت وأحرقت فى ميدان جريف ١٦٧٦ ، ولافوزان : عرافة ومحترفة تسمم اشتركت فى حادثة التسميم المشهورة ١٦٧٢ وأحرقت حية فى باريس عام ١٦٨٠ . [المترجمان]

يكن فى ذلك الوحيد ، فانك تسمع عن أعمال مشابهة فى تولوز ودفينىDauphiné وبيكاردى والفلاندر ؛ فرجال الدين ، والأطفال والنساء يستخبرون المنجمين عن وجود الذهب والماء . وهل حدث ذلك فى فرنسا وحدها ؟ كلا ، فقد حدث المثل فى ألمانيا حيث يستعملون العصا السحرية فى جبر العظام ، وأسو الجراح ، و إيقاف النزيف ؛ وفى بوهيميا أيضاً والسويد والمجر و إيطاليا وأسبانيا : « زاهوريس Zahuris هكذا كان الناس فى أسبانيا يسمون أشخاصا معينين ، يزعمون القدرة على رؤية ما تحت الأرض من عروق الماء والمعادن والكنوز والجثث ، بما لهم من بصر خارق . ولهم عيون شديدة الاحمرار . . . (١) » وفى مصر كانت هذه العصا السحرية « تصرف الماء من بطون الحيوانات المنتفخة » . وفى هذه الروايات كثير من الاختلاق . ولكن بما أنه فى بعض الأحيان لا مجال للشك فى أن هذه العصا تتحرك من تلقاء نفسها ، إذ لا سبيل إلى الاشتباه فى صدق من يمسكها ، فقد نسبت هذه الحركات الاعجازية إلى فعل الشيطان . — كل هذا ولم نتعرض بعد لأنواع السحرة كافة ، ومستحضرى الأرواح والعرافات وقارئى الطالع . . .

ولكن يظهر للعقل السليم le bon sens رد فعل فى كل مكان . فاذا سألت عن الكتب التى ظهرت فى صف جاك إيمار أو ضده ، فاعلم أنها لاتختلف فى كثير أو قليل عن حكاية السن الذهبية : « فبعد نشر كتاب أو كتابين صغيرين عن هذا الموضوع ، ألف فالمون Vallemont كتابا ثالثا فى ستمائة صفحة ، ليشرح حركة العصا السحرية على أساس الميكانيكا . ثم ناقضه م. ب من مجمع الأوراتوار ، مثبتا أن العصا لا يمكن أن تدور دون تدخل الشيطان. وأخيراً بعد هذه الكتب الطلية ، ثبت أن جاك إيمار كان مشعوذا وطرد ... وأكثر ما يسر الفيلسوف فى هذه الحكاية هو أن فالمون يؤكد فى بداية كتابه أن قصة السن الذهبية التى سردها فان ديل قد جعلته حكيما ، وأنه لم يتناول المعجزة بالتفسير قبل أن يتحقق من صحتها ! »هكذا يسخر ديبو Dubos فى رسالته إلى بايل فى ٢٧ إبريل ١٦٩٦ . أما بروسيت Brossette الذى شاهد الرجل الاعجازى بعينيه ، والذى لا يزال متأثراً به حينما يفضى بما فى قلبه

---

(١) بيير بايل : القاموس ، باب زاهوريس .

لصديقه الحميم بوالو ، فيبدو على وشك التصديق « ليون — ٢٥ سبتمبر ١٧٠٦ — رأيت بالأمس رجلا أوتى صفات أو على الأصح مواهب طبيعية ليس من السهل تفسيرها . إنه جاك إيمار الشهير أو الرجل ذو العصا السحرية . وهو ريفى من سان مرسلان فى دوفينى على بعد ١٤ مرحلة من ليون . وقد اعتاد الناس استدعاءه إلى تلك المدينة للقيام ببعض الاكتشافات . وقد قال لى أشياء مذهلة عن قدرته فى التنجيم ، من المنابع والحدود المنقولة والنقود المخبأة والأشياء المفقودة والقتلة والسفاكين . وشرح لى الآلام الشديدة والتشنجات العصبية التى يعانيها حينما يصل إلى مكان الجريمة أو يقترب من المجرمين . قال إنه يشعر فى قلبه بمثل حرارة الحمى ، ثم يتقيأ دما ثم يقع فى حالة إغماء . وكل هذا يحدث دون أن يقصد البحث عن أى شئ كان ، وهذه التأثيرات تتعلق بجسمه أكثر من أن تكون نتيجة لعصاه السحرية . وإذا أردتم أن تشبعوا حب استطلاعكم ، فانى أستطيع أن أستزيدكم وأرضيكم . . . » . كلا فان بوالو لا يتوق إلى الاستزادة ، وهو لا يتأثر بالوصف الذى أرسله إليه صديقه ، ويرد عليه فى غلظة : « أوتى — فى ٣٠ سبتمبر ١٧٠٦ — الحق يا سيدى العزيز ، أنى لا أملك إلا أن أصارحك أنى لا أتصور أن شخصا لبقا مثلك ، أمكنه أن يقع فى مثل ذلك الشرك ، بتصديق لصاب سافل قام الدليل على دجله ، ولا يستطيع أن يجد الآن فى باريس طفلا ولا مرضعة تتنازل بالاصغاء إليه . كان ممكنا أن يصدق الناس مثل أولئك النصابين أيام داجوبير وشارل مارتل ، ولكن هل يمكن أن يهتم المرء بتلك الأوهام فى عصر لويس العظيم ؟ أو ليس هذا يعنى أن سلامة الادراك قد تكون ذهبت بذهاب ما أحرزنا من فتوح وانتصارات ؟ » — إن الادراك السليم ، على العكس ساهر متيقظ . يقول ريشارسيمون « بلغنى أن فى باريس قوما كثيرين يحترفون التنجيم ، ويجنون من مزاولته الربح الجزيل . ولست أعجب لذلك . فان تلك المدينة الكبيرة تعج بشتى الأنواع والأجناس من الحمقى والمغفلين . فلا عجب إذا صدق الناس بالتنجيم (١) . »

تلك هى الاحتجاجات الفردية لذوى العقل السديد . ولكنهم فوق ذلك يعملون على تأسيس منهج ، يخلص الأرواح من الخرافات ، ويهاجم العقيدة

---

(١) ريشار سيمون Richard Simon رسائل ... الجزء الثالث ص ٥١ .

فى نفس الوقت . وهو لا يهتم مطلقا بالتمييز بين الفكرتين بل يخلط بينهما على الدوام . فالمذنبات ليست نذيراً بأى ويل ، وأصوات الآلهة ليست إلا محض دجل ، ولم يسجل الله أوامره فى عروق الحيوان ولم يأتمن عليها الحمقى والمجانين . فاذا قصدنا بالسحرة ، النصابين والمرضى ، فهناك سحرة وإلا فلا . ولاعفاريت هناك ولا شيطان . ولا سلطة إلا وفوقها سلطة . ولا تقاليد دون كذب أو ضلال . ولا معجزة هناك فان الطبيعة ليست شريكة فى هذيان الانسان(١). ولا خوارق للطبيعة ، ولا سر يستغلق على العقل : « هل تريد أن أقول لك بصفتى صديقاً قديما ، منشأ تصديقك لاعتقاد شائع دون إصغاء منك لهاتف الحكمة ؟ السبب أنك تعتقد أن فى ذلك كله شيئاً إلهيا ... ، لأنك تتوهم أن الارتضاء العام لكل تلك الشعوب ، وعلى مر القرون ، لا يمكن أن يرد إلا إلى نوع من الالهام ، Vox populi, vox dei (٢) ؛ لأنك اعتدت بصفتك لاهوتيا ألا تستعمل الاستدلال ، فور اعتقادك أنك أمام سر من أسرار الدين (٣). »

---

(١) سبينوزا : مقدمة بحث لاهوتى سياسى ، *Tractatus theologico-politicus*

(٢) صوت الشعب من صوت الله ، ومعناه أن الارتضاء الجماعى لشىء دليل على أنه حق Larousse : *locutions latines* . [المترجمان]

(٣) بيير بايل : أفكار مختلفة ـ بمناسبة المذنب باب ٨ .

الفصل الثالث

ريشار سيمون وتفسير العهد القديم

كيف كان يمكن اجتناب التعرض للكتب المقدسة ، كان المنطق يقتضى أن يصلوا فى النهاية إلى تمحيصها ونقدها ، فقد كانت تمثل السلطة العليا .

وكان المتحررون يفيضون نشوة إذا اكتشفوا فى تلك الكتب بعض التناقض . فمثلا : جاء فى سفر التكوين أن آدم وحواء كانا أول الخلق البشرى ، وأنهما ولدا طفلين : قايين وهابيل ، وأن قايين قام على هابيل أخيه فقتله . . . وقال قايين للرب « ذنبي أعظم من أن يحتمل ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى (١) » كل من وجدنى : إذن كان يوجد إذ ذاك أناس قبل آدم . وكان اسحق دى لابيرير قد وجد هذا الكشف من قديم ، وكان أنصار فكرة وجود إناس قبل آدم Préadamites قد أصبحوا الأصدقاء الأعزاء لذوى « العقول القوية » .

لنقرأ الرسالة التى بعث بها أستاذ آداب فى أكسفورد إلى نبيل من لندن فى عام ١٦٩٥ . لكل الشعوب الشرقية دون استثناء ، حتى العبريين ، خيال قصصى أسطورى . كما أن تاريخ الفرس ، والماديين ، والأشوريين ليس إلا مجموعة من الأساطير ، وكذلك العهد القديم . فان التلمود يتضمن ملايين من الأقاصيص . وقد سبق العرب العبريين فى ميدان المجاز والخيال والتشبيه ، ويثبت ذلك القرآن الكريم ، كما يثبته طوائف شعرائهم الذين انتقلت منهم إلى أسبانيا وولاية بروفانس فيما بعد ، عدوى القص عن الفرسان المغامرين ، والمردة والقصور المسحورة ، ومختلف أنواع الفروسية . . . والخلاصة أن الكتاب المقدس : is altogether mysterious, allegorical and enigmatical وأن مرجعه

---

(١) نص سفر التكوين الاصحاح الرابع ، ٨ - ١٤ . [المترجمان]

إلى تلك الأقاصيص الشرقيـة ، التى ليست إلا فروضا رومانتيكية : Romantick hypotheses (١) .

ووجد البروتستانت الذين عكفوا على دراسة كلام الله ، وتخليصه من التفسيرات التى تجمعت على مر الزمان ، أن تلك المهمة من الصعوبة بمكان . وقد نعوا على الكاثوليك موقفهم السلبي تجاه العهد القديم ، بينما أخذ عليهم الكاثوليك اجتراءهم المعيب . والواقع أنه تم من هذه الوجهة عمل تفسيرى كبير ، ويقوم على ذلك الدليل ، فى مؤلفات صاسويل بوشارت Bochart القسيس والأستاذ فى كان ، ومؤلفات لويس كابل Louis Cappelle القسيس والأستاذ فى سومير Saumur .

أما من جهة اليهود فقد قام سبينوزا ، عارضا منهجا لتفسير العهد القديم ، شبيها بالمنهج الذى يستعمل فى دراسة الطبيعة ، وكان هذا نفس تعبيره ، ولعلك تدرك إلى أين كان ذلك المنهج يقود . ولما كان المقصد الأول لهذا المنهج وضع تاريخ صادق للظواهر والأحداث ، للوصول إلى تفسيرات صحيحة عن طريق وقائع أكيدة ، فلم يكن بد من توافر شرط أولى هو معرفة العبرية ؛ وهى مهمة صعبة التنفيذ إذ أن « النحويين العبريين لم يتركوا لنا شيئا عن أصول هذه اللغة وقواعدها » ، كما أننا « ليس لدينا قاموس ولا كتب نحو أو بيان عبرية »

ويقول سبينوزا إن الشرط الثانى ، هو أنه ينبغى علينا أن نحترم العهد القديم روحا ومعنى ، وأن نجاريه ، بدلا من أن نخضعه لأباطيلنا . — « والشرط الثالث واجب على العهد القديم ، وهو تعريفنا بما لقيت كتب الأنبياء من ظروف وحظوظ ؛ تلك الكتب التى احتفظنا بذكراها حتى اليوم ؛ وأن يبين لنا حياة وتعاليم صاحب كل كتاب ، والدور الذى قام به ، وفى أى زمن ، ولأى مناسبة ، ولمن وفى أى لغة وضع الكتاب . وليس هذا بكاف ، بل يجب أن يبين أيضا نصيب كل كتاب على وجه التحديد ، وأن يوضح لنا بأى طريقة جمع ، وفى أى يد — على التوالى — وقع ، وأى دروس وجد الناس فيه ، ومن

(١) بحثان مرسلان فى خطاب من أكسفورد إلى نبيل فى لندن . الأول يتعلق ببعض الأخطاء عن الخلق والطوفان ، وتعمير العالم بالسكان . والثانى يتعلق بنشأة الأساطير والروايات الخيالية ، وتقدمها ثم انعدامها . كتبهما (.L. P) أستاذ الآداب، لندن ١٦٩٥ .

الذى رفعه إلى منزلة الكتب المقدسة ، وأخيراً كيف تجمعت كل تلك الكتب فى كتاب واحد ... (١) »

والكاثوليك أنفسهم ألم يكن بينهم جان دى لونوى Jean de Launoy كاشف القديسين ، ومابيون Mabillon العالم الذى يجيد نقد النصوص ؟ حتى الأب فلورى Abbé Fleury « مؤلف تاريخ الأكليركية » كان ينقى حياة العذراء والحواريين مما يشوبها من أساطير : فهكذا كان روح ذلك الوقت .

إلا أن كل هذه الاتجاهات لم تتركز إلا بظهور رجل اجترأ على ذكر ألفاظ بسيطة ، لكنها قطعية حاسمة ، مثلما يأتى « أولئك الذين يحترفون النقد ، ليس عليهم إلا أن يشرحوا المعنى الحرفى لما ينقدونه ، وأن يتفادوا كل ما لا يجدى فى تحقيق هدفهم (٢) ».

***

وبظهور ريشار سيمون ونشر كتابه «تاريخ نقدى للعهد القديم» *Histoire critique du Vieux Testament* فى عام ١٦٧٨ ، اتضح ما للنقد من قدرة ونفوذ .

وكان لفظ « نقد » Critique اصطلاحا فنيا كما ذكر ريشار سيمون فى مقدمة كتابه : « أما ، ولم يظهر بالفرنسية شئ فى هذا الموضوع بعد ، فلا تعجبوا إذا رأيتمونى أستعمل فى بعض الأحايين غير المألوف من التعابير ، فلكل فن تعبيرات تخصه ، يضعها موضع التقديس . وفى هذا المعنى ستجدون فى هذا المؤلف بكثرة كلمة « نقد » وما هو منها بسبيل ، وجدت ألا مفر من استعمالها ، لكى أعبر عن آرائى بتعبيرات الفن الذى عالجته . زد على ذلك أن العلماء اعتادوا استعمال تلك التعابير فى لغتنا . فاذا تكلمنا مثلا عن كتاب كابيلى Cappelle الذى نشره تحت عنوان *Critica Sacra* ، وعن تفسيرات الكتاب المقدس المنشورة فى انجلترا تحت عنوان *Critici Sacri* ، قلنا بالفرنسية la critique de Cappelle, et les critiques d'Angleterre.

---

(١) بحث لاهوتى سياسى ، الفصل السابع .

(٢) ريشار سيمون : تاريخ نقدى للعهد القديم ، الجزء الثالث الفصل ١٥ .
Histoire critique du Vieux Testament, t. III, chap. XV.

وهذا الفن الخاص الذى يهدف إلى ألا يقتصر استعماله فيما بعد على العلماء بل ينبثق بكل جلاله ليعم الجميع ، يكمن هدفه فيه نفسه : إنه يبين درجة الوثوق ، ومدى الصحة فى النصوص التى يتناولها بالدراسة والتمحيص ، ولا وزن عنده لكل غريب عنه ، كمراعاة نواحى الجمال والأخلاق والابقاء عليها . فاذا تناول بعض الكتب المقدسة بالدراسة فهو يتجاهل اللاهوت الذى لا يقع فى اختصاصه بأى صفة من الصفات ، فلا هو يهاجمه ولا هو يدافع عنه . وهو يرى أنه لا يختص بالحكم على النص ، فلا سلطة تستطيع أن تجعل من النص شيئاً خلاف ما هو عليه بالضبط . فاذا رأينا فقرة تخالف عقيدة دينية ، وثبتت صحة الفقرة فالمعول على نص الفقرة لا على العقيدة . فمبادىء النقد واحدة لا تختلف سواء تعلق الأمر بالياذة هوميروس أو إناييد Enéide فرجيل أو التوراة ، فهى ترفض الأولية l'a priori ؛ وفور وجوده أمام كتابة سواء نقشت على حجر أو سطرت على قرطاس أو خطت على ورق ، فهو السلطان المطلق ، السيد الوحيد على أعماله الذاتية .

فالنقد يقوم على الفيلولوجيا (فقه اللغات) : الذى ينقلب من مسود إلى سيد . ولو استطاع ريشار سيمون أن يؤيد من مملكة الظلام ما قاله رينان Rénan عن مقام الفيلولوجيا الرفيع لأيده ، لأن هذا كان رأيه . أراد ريشار سيمون أن يكون ناقدا وفيلولوجيا ؛ كما أراد علماء التاريخ من قبله أن يكونوا نقادا . فقد زعموا هم أيضا أنهم لا يعرفون إلا مادة الفن ، وحسبان الزمن : ولكنهم ريعوا أمام اكتشافاتهم . أما أكثر ما كان يعوزهم فهو وعيهم الانقلاب الذى أزمعوا إحداثه . وعلى كل حال فانهم لم يتغلغلوا إلى أعماق النصوص المقدسة . من جهة النقد ، كان جروسيوس ناقدا ، فى تعليقاته وحواشيه عن تفسير العهد القديم والعهد الجديد ، ولكنه لم يلتزم جادة التدقيق إذ خرق القانون الذى التزم به من ناحيتين . فهو من جهة قد استشهد بالوثنية القديمة التى لا محل لها فى هذا المقام ، وهو من جهة أخرى أسلس قياده لآرائه الشخصية : فهو بصفته أرمينيا ، سوسنيانيا قد اختار خير تفسير للنص ، ولكنه فى نفس الوقت التفسير الذى يفيد أتباع أرمنيوس وسوسان . وكان سبينوزا أيضا ناقدا ، بحيث يصعب ألا نرى فيه سلف ريشار سيمون المباشر . صحيح أن هذا الأخير يناقشه ويناقضه فى استنباطاته ، ولكن بذلك النوع

من الاحترام والتوقير الذى يكنه المرء دائما لأستاذ كبير . « لا تنعوا على أن هذا أسلوب سبينوزا الكافر ، الذى ينكر كل الانكار ما ورد فى الكتاب المقدس من معجزات . دعوا هذا الاعتقاد الباطل الذى يسىء البعض استعماله اليوم . إنما ينبغى إدانة النتائج الكافرة التى يستخلصها سبينوزا من بعض المقولات التى يفترضها . أما هذه المقولات نفسها فليست دائما باطلة ، ولا تستحق الاطراح (١) » . ولم يكن سبينوزا ، ذلك المخترع العبقرى ، عالما متضلعا من الفيلولوجيا ، وقد عانى القسم البنائى من تفسيره ذلك النقص ، فقد ترك متافيزيقاه تطغى على علمه .

كان النقد يصل مع ريشار سيمون لأول مرة إلى نقاوته وإلى صراحته المستقلة . لا الفلسفة ولا العقيدة تؤثران على أحكامه ، ولا يهتم إلا بالمخطوط والمداد والكتابة والأحرف والعلامات المختلفة . إن العلم اللاديني يرفض الاعتراف بالسلطة المقدسة .

***

كان رجلا قميئا ، دميا ، ذا صوت حاد رفيع كصوت النساء ، لا تلوح عليه مخايل الذكاء : « لا نستطيع أن نقول عنه ما قيل عن بعض الآخرين وهو أن الطبيعة قد كتبت على وجهه أوراق الاعتماد . » ولم تكن الطبيعة قد حابته من ناحية المولد أو المال ، فقد كان ابن حداد فقير من أهل دييب . ولكنها حبته شغفا بالبحث والدرس ، وعقلا ذا صفاء وسداد ، وعزيمة لاتغلب ولا تنقاد ، وأمدته فى نفس الوقت بحظ وافر من المرونة والعناد . درس الفلسفة والعلوم الانسانية فى « أوراتوار » دييب Diêppe ، واعتزم الانخراط فى سلك الرهبنة ، ملتزما بذلك الطريق الطبيعى ، وأرسل إلى باريس للتمرين . وأوشك أن يترك الجمعية « بسبب تقزز لم يستطع أن يتحمله » ، وكاد يقع بعد أن ارتفع ، لولا أن أغاثه رجل غنى هو الأب دى لاروك ، فهيأ له سبل العودة إلى باريس ليتم دراسة اللاهوت . وفى باريس استشعر ميوله وقرر مستقبله . لم يكن يميل أبدا إلى دراسة العلوم الانسانية ، ولم يكن مدرسيا قط ، بل

(١) رسائل منتخبة : طبعة ١٧٣٠ ، الجزء الرابع الرسالة الثانية عشرة .

بالعكس اجتذبه العلم العميق ، بل أقله شيوعا وأصعبه : فقد توفر على دراسة العبرية .

وعندما اندرج فى جمعية الأوراتوار فى عام ١٦٦٢ سمحوا له بمواصلة هذه الدراسة . وهنا نجد حكاية من الحكايات التى تجدها دائما تجلل مثل هذه الحياة ، وتجعل لها معنى رمزيا . فقد غضب أصدقاؤه إذ وجدوا غرفته تغص بكتب الالحاد ، مثل الكتاب المقدس المكتوب فى لندن بلغات شتى *la Bible polyglotte* ، بجانب كتب نقد مختلفة عن النصوص المقدسة ، فأبلغوا عنه . وعندها اتضح أن ريشار سيمون كان له شريك : مدير المؤسسة بالذات ، الأب بيرتاد الذى كان يقرأ معه كل يوم أصول الكتاب المقدس ، والذى برغم الستين التى سلخها من عمره جعل من نفسه تلميذا لذلك الأستاذ الصغير. فكان هذا لريشار سيمون يوم النصر الكبير .

ولعل أسعد حقبة فى حياته ، تلك الأيام التى قضاها فى مكتبة الجمعية بشارع سانت أونوريه ، ليضع بيانا عن الكتب الشرقية التى تملكها الجمعية. فأن يوسع مداركه الفيلولوجية ، ويصل إلى المصادر مباشرة ، ويجد خير الأساتذة بل أفضلهم فى الحقيقة فى متناوله ، ذلك متعة أى متعة ! وهو لم يقتنع بمطالعة يومية للمطبوعات والمخطوطات ، بل عرف بعض اليهود الربانيين ولا سيما يوحنا سالفادور الذى قرأ معه العهد القديم . وفى عام ١٦٧٠ — العام الذى عين فيه قسيسا — كتب بناء على رجائه مقالا يدافع فيه عن قضية يهوذ ميتز Metz ، المتهمين بارتكاب جريمة قتل شعائرية .

كان يقول : إذا أردتم أن تبحروا خلال المحيط العبرى الربانى ، فاختاروا ربانا اعتاد ذلك السفر الشاق الطويل . ولقد طال سفره سنين ، ولم يغفل شيئا يجعل السفر مستقيما مأمونا ، فاطلع على كل الخرائط وتطلع إلى كل النجوم. استفاد من إرادته والتجأ إلى كل مزاياه : وضوحه ، إذ كان بمقدوره أن يبدو واضحا حتى فى موضوعات النحو والصرف الشائكة ؛ ورجاحة عقله وسلامة إدراكه وذكائه ودقته(١) : واستمد معلوماته من علمه الغزير العميق

(١) كل هذه تعبيرات ف. سبانهيم F. Spanheim ، فى رسالة إلى صديق ، بها تعليق عن كتاب عنوانه «تاريخ نقدى للعهد القديم» نشرت فى باريس عام ١٦٧٨ .

ولاسيما علمه عن اليهود ؛ وأخيراً وجد نفسه مستعداً لكى يعرض على الجمهور مؤلفه « تاريخ نقدى للعهد القديم » .

« أولا ، من المحال أن ندرك تمام الادراك معانى الكتب المقدسة ، قبل أن نعرف الحالات المختلفة التى وجدت فيها نصوص تلك الكتب حسب مختلف الأماكن ومختلف الأزمان ، وقبل أن نعلم تمام العلم كل ما طرأ على هذه الكتب من تغيرات . . . » وهنا يبين المبدأ والقاعدة الأساسية لمنهجه ، وهو يكررها ويصر عليها قدر ما يستطيع . « إنى مقتنع بأنه لا ثمرة ترجى من قراءة الكتاب المقدس ، مالم نكن عالمين من قبل ، ما يتعلق بنقد النصوص . » هاك مثالا واحدا عن أهمية الفيلولوجيا : احذف كلمة واحدة ، حرف عطف بسيط مثل حرف « و » الذى يلوح كأنه لا أهمية له فى ذاته : فاذا بك تحبذ إلحادا . يبتدئ الفصل الثالث من إنجيل لوقا هكذا : « و » فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس . . . إن ذلك يفترض وجود قصة سابقة ، مادام الحرف (و) الذى يفيد العطف عند النحويين ، يدل على صلة حتمية بشئ سابق . قل بعكس ذلك : « فى السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس. . . » تجعل للملحدين القدماء عذراً فى زعمهم بأن الفصلين الأولين أضيفا فيما بعد إلى انجيل القديس لوقا . ومن باب أولى ، فان العهد القديم الحافل بصعوبات لا يمكن أن يفكر فى وجودها غير المتفقهين ، يستحيل أن ندربه إلا إذا عرفنا هذه القواعد ، وإلا إذا كانت تحدونا هذه الروح .

فلنتناول الكتاب المقدس ولنعالجه دون أية فكرة مبتسرة : فكيف يتراءى لنا حينئذ ؟ هل يمكن أن نعده كلمة الله ، أوحيت مباشرة وسجلت كتابة وانتقلت إلينا فى حالتها الأصلية ؟ يجيب ريشار سيمون على ذلك بأنه ينتج من الفحص والتمحيص أنه ما من شك فى أن النصوص المقدسة فيها معالم التحريف والتغيير ، وفيها إبهام وصعوبات ، من جهة التواريخ وأن فى بعض قصصها تبدلات غريبة فى المواضع يمكن انطباقها على فصول بأكملها . علينا إذن أن نرجع إلى الوقت الذى كتبت فيه هذه النصوص ، وأن نحاول معرفة المدنية العبرية وتفهمها . من هم الأنبياء ؟ — كتاب ؛ كتاب عموميون كانت مهمتهم تجميع وثائق الدولة بأمانة ، وحفظها فى سجلات مخصصة لهذا الغرض . « إذا كان أولئك الكتاب العموميون موجودين فى الجمهورية العبرية منذ أيام موسى ، وهذا

وافر الاحتمال ، فانه يسهل الرد على كل محاولة لاثبات أن التوراة ليست لموسى . وذلك مايثبته الناس عادة ، بالشكل الذى كتبت به ، الشكل الذى يوحى بأن أحداً آخر غير موسى هو الذى جمع التقارير وكتبها . وبفرض وجود هؤلاء الكتاب ، ننسب إليهم كل ما يتعلق بتاريخ هذه الكتب ، بينما ننسب إلى موسى كل ما يخص الأحكام والقوانين : وهذا مايسميه الكتاب المقدس شريعة موسى . » ولما كان هؤلاء الأنبياء أو الكتاب لا تقتصر مهمتهم على تجميع التقارير عما يحدث فى زمانهم وحفظها فى « السجلات » ، بل كانوا فى بعض الأحايين يصوغون التقارير التى جمعها أسلافهم فى شكل جديد : فانه يمكننا أن نفسر ما يوجد فى الكتب المقدسة من صنوف الاضافة والتغيير . وبالمثل ، إذا كانت تلك الكتب لا تخرج عن كونها مختصرات لمذكرات أطول وأوسع ، فلا عجب إذا لم نستطع وضع تواريخ مضبوطة أكيدة عن الكتاب المقدس . فمن السخف مثلا عدم الاعتراف بوجود ملوك للفرس غير الذين يذكرهم الكتاب المقدس ، واحتساب الزمن طبقا لتتابعهم ، مادام الكتاب لم يذكروا إلا ما تعلق باليهود ، بينما نجد عند المؤلفين الجاهليين إشارات إلى ملوك أخر عديدين ، ولذلك كان لديهم تاريخ أوسع وأقدم . وأخيراً فلنفكر فى عوادى الزمان ، وفى إهمال الناقلين ، ولنتخيل الظروف المادية التى كتب فيها أولئك الأخيرون . « لما كانت النسخ العبرية قد كتبت فيما سبق على لفائف أو قراطيس وضع بعضها فوق بعض ، تكون كل منها مجلداً ، فقد حدث بتغير ترتيب هذه اللفائف بطريق المصادفة ، أن تغير أيضا ترتيب الأحداث والأشياء . »

والخلاصة أن ريشار سيمون يشرح أفكاره ببساطة محسوسة ، وبقوة ملموسة ، حتى إن اللادينيين وقد هالهم فى أول الأمر تغلغلهم وراءه فى عالم غامض مقدس — يصغون لقائدهم بآذان واعية : إنه يجيد فن إضفاء مظهر البداهة المنطقية على شرح الواقع الملموس . وعلى كل حال فقد رفض أن يتكلم فى لغة اللاهوتيين ، بل أراد أن يكتب « تاريخه النقدى » فى فرنسية جزلة قوية . فان اللاتينية لا تكفى إلا للمناقشات بين المفسرين والشراح : أما التطور العام للنصوص المقدسة فيجب أن يظهر أمام كل الأبصار .

***

إن طباع الشخصيات العظيمة التى درسناها حتى الآن لبسيطة نسبيا . إنهم ثوار بالفطرة . وهم لا يتنفسون فى يسر إلا فى جو المعارضة . أما سيكولوجية ريشار سيمون فمعقدة . فهو قسيس كاثوليكى لا يعلن إخلاصه لصرامة العقيدة فحسب ، بل لروح الكنيسة أيضا ، حتى إنه لما أدانته الكنيسة ، جاهد ليثبت أنها فى قرارها هذا مخطئة .

وذلك لأنه يدعى التمسك بالدين . والواقع أنه لم ينكر الوحى ، بل هو يمتد به إلى أولئك الذين تناولوا الكتب المقدسة بالتغيير . وهو يعلن أن الله ، بعد اتصاله بموسى ، اتصل أيضاً بالكتاب والمؤرخين الذين تناولوا نصوص شريعة موسى بالتغيير على مر العصور . فان أصحاب التغييرات الواردة فى الكتاب المقدس « بما لهم من حق فى كتابة الكتب المقدسة ، لهم أيضا الحق فى إصلاحها وتغييرها . » فالأنبياء والكتاب العموميون ما زالوا مفسرين لكلام الله . فتلك التغييرات المتتابعة إنسانية من وجهة التنفيذ ، وإلهية من جهة الوحى . إن كتاب نصوص الكتاب المقدس ، قد وكلوا من قبل الله بأداء هذه المهمة المقدسة التى بدأت فى عهد موسى واستمرت على مر السنين . والشعب العبرى هو شعب الله المختار ، بشكل صريح لا شك فيه . « وفى هذا تختلف جمهورية العبريين عن كل دول العالم الأخرى ، فى أنها لم تعترف أبداً برئيس غير الله وحده ، الذى تولى حكمها بهذه الصفة حتى فى الأزمان التى خضع فيها العبريون للملوك . وذلك منشأ اكتسابها لقب الجمهورية الالهية المقدسة ، واكتساب شعوبها صفة القداسة ، لكى تتميز بهذا اللقب المجيد عن بقية الشعوب . ولهذا السبب عينه وهب الله بنفسه قوانين — عن طريق موسى وغيره من الأنبياء الذين تبعوه — لشعب اختاره ليكون شعبه الخاص » (١) .

ولينكر الآخرون قيمة التقاليد ، أما هو فعلى النقيض سيدافع عنها . ليس صحيحاً أن الكتاب المقدس واضح على الدوام ، ولا أنه تكفى قراءته لكى

---

(١) تاريخ نقدى للعهد القديم ، الكتاب الأول ، الفصل الثانى ، *Histoire critique du Vieux Testament*

نجد فيه كل أوامر الله ونواهيه . فالتقاليد مكملة له لا غنى عنها ، وهى لازمة لشرحه وتفسيره . إن « التاريخ النقدى للعهد القديم » يصر على توكيد قيمته . — « سترون فى هذا الكتاب أننا إذا فرقنا بين قاعدة القانون وقاعدة الواقع ، أى إذا لم نجمع بين الكتاب المقدس والتقاليد ، فقد لا نستطيع أن نؤكد شيئاً وثيقاً فى الدين . ولا يعنى إشراكنا كلام الله مع تقاليد الكنيسة إنكارا لفائدته : مادام الذى أحالنا إلى الكتب المقدسة ، هو الذى أحالنا أيضاً إلى الكنيسة ، التى سلمها تلك الأمانة المقدسة (١) . » ثم يستطرد ريشار سيمون : ليشرح أنه قبلما يكتب موسى القانون ، لم يكن الأنبياء القدماء يحتفظون بصفاء الايمان إلا بفضل التقاليد ، وأنه بعد موسى كان اليهود يستشيرون مفسرى هذا القانون فيما يستغلق عليهم من صعاب ؛ ثم هاكم أيضا ما حدث بالعهد الجديد : كان مذهب الانجيل قد تأسس فى عدة كنائس قبلما يوجد منه شئ مكتوب ، وقد حفظ هذا الكلام غير المكتوب واستقر فى الكنائس الأساسية التى أسسها الحواريون : حتى إن كبار رجال الكنيسة — مثل القديسين إرنييه وترتوليان Saint Irénée et Tertullien — استشهدوا به فى نزاعهم ضد الملحدين بدلا من أن يلتجئوا إلى « كلمة الله » المسجلة فى الكتب المقدسة . كما استشهد الأساقفة فى المجامع les conciles بتقاليد كنائسهم لشرح الفقرات الغامضة فى الكتاب المقدس . — « لذلك ، أصدر آباء « مجمع ترانت (٢) » أمرا حكيما بعدم جواز تفسير الكتاب المقدس « ضد رأى الآباء الموحد » ؛ وفضلا على ذلك فقد اعترف هذا المجمع بالتقاليد الصحيحة غير المكتوبة ، وزودها بسلطة تعادل سلطة كلام الله الذى تتضمنه الكتب المقدسة ، لأنه افترض فى نفس الوقت أن تلك التقاليد غير المكتوبة مصدرها السيد المسيح ، الذى أوصلها إلى الحواريين ، وأنها بعد ذلك وصلت

(١) تاريخ نقدى للعهد القديم ، مقدمة المؤلف.

(٢) مجمع ترانت : Concile de Trente ١٥٤٠ - ١٥٦٣ . جمعية من الأساقفة اجتمعت فى مدينة «ترانت» بالنمسا حيث قررت إصلاحاً عاما فى الكنيسة الكاثوليكية . ولقد اجتمع هذا المجمع اولا فى مدينة «مانتو» فى إيطاليا ، بأمر البابا بولوس الثالث فى عام ١٣٥٧ ، ثم فى مدينة Trente بالنمسا فى عام ١٥٤٠ ، وتم عمله فى شهر ديسمبر ١٥٦٣ . فى حكم البابا بيو الرابع PIE IV . أنظر فى هذا الصدد فولتير ، القاموس الفلسفى ، فصل المجامع . Voltaire, *Dict. Phil.* chap, Conciles. والبيان رقم ١٠ فى نهاية الكتاب. [المترجمان]

إلينا . ويمكن تسمية هذه التقاليد ملخصا للدين المسيحى ، الذى تأسس فى بداية المسيحية فى الكنائس الأولية ، مستقلا عن الكتاب المقدس . . . »

وعلى أساس هذه البيانات القاطعة ، يهاجم ريشار سيمون البروتستانت كالعاصفة . فالبروتستانت باستنادهم على الكتاب المقدس وحده ، لا يستندون فى نفس الوقت إلا على نص زاخر بمواضع النقص والتغيير ؛ و برفضهم الاعتراف بالتقاليد ، يرفضون فى نفس الوقت عون « الروح » التى سبقت ولازمت ووضحت هذه النصوص الغامضة . فيأخذ فى مجادلات عنيفة ضد إسحق فوسيوس Isaac Vossius قسيس وندسور ، وجاك باناج Basnage القسيس بروان Rouen ثم بروتردام . ويخص أتباع سوسان برعده الشديد لحسبانهم أن التقاليد لا قيمة لها ولا وجود ، بل إنهم يدعون جزءاً من الكتاب المقدس نفسه لكيلا يؤمنوا إلا بما يعجبهم الايمان به ، ولكى يعتقدوا ببعض العقائد التى يقبلها العقل الشامل ، ولا شئ غير ذلك . وهو فى هذا المعنى يبدو كمدافع عن الكاثوليكية .

أجل فى هذا المعنى . ولكن من ذا الذى لا يرى هنا ما فى استدلاله من عيب وقصور ، وكيف ينتقل من قيمة إلى قيمة أخرى تختلف عنها فى النوع ؟ فأولا ، نصوص الشريعة الموسوية تغطيها طبقات تراكمت على التتابع : وذلك عنده أمر واقع . وثانيا ، المؤلفون الذين بدلوا نص القانون استمروا يعملون بوحى من الله مهما تبعناهم بعيداً : وذلك ليس أمراً واقعاً ، بل اعتقاداً أو تفسيراً . فنجد من جهة ظاهرة تاريخية يمكن إثباتها بالعلم ، ومن جهة أخرى عقيدة تستند على الايمان . ونستطيع ، من وجهة نظر خارجة عن دائرة الايمان، أن نقتنع بالنظرية الأولى دون أن نقبل الثانية . نستطيع باستدلال غير دينى ، أن نقبل أن الكتاب المقدس حافل بآثار من فعل الانسان — كما أراد هو أن يثبت — دون أن نقبل أن اليهود الذين بدلوا النص القديم ظلوا معبرين عن الفكر الالهى ، وهذا ما يضيفه على أساس اعتقاد شخصى ، دون إثبات واقعى . إن ريشار سيمون يخرج عن دائرة النقد والفيلولوجيا التى سبق أن بين حدودها وقواعدها تبيانا حاسما صارما .

وإنك لتستبين هذا الخروج ، من شرحه لأفكاره فى مقدماته ؛ ولكنا لو تبعناه فى تفاصيل كتابه « التاريخ النقدى » لاتضح لنا إلى أى حزب يقوده الميل الطبيعى لذهنه . أنظر إليه يفسر التوراة : إنه يصر على إثبات

أن موسى يستحيل أن يكون كاتبها الوحيد . فانها تحتوى على بيانات وحكم وأمثال وأشعار لغتها وأسلوبها لاحقة على موسى — و إنها تتضمن رواية أحداث لاحقة على موسى : « فهل يمكن القول — مثلا — بأن موسى هو مؤلف السفر الأخير (تثنية الاشتراع) الذى يذكر فيه موته ودفنه ؟ (١)» — والتوراة تتضمن أيضا كثيراً من الأقوال المكررة ، مثل « وصف الطوفان كما هو فى الفصل السابع من سفر التكوين » . « فقد ورد فى الآية ١٧ : وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض . ثم ورد فى الآية ١٨ : وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض . فكان الفلك يسير على وجه المياه ، وفى الآية ١٩ : وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض . فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء . وهو ما يتكرر فى الآية ٢٠ : خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت المياه . فتغطت الجبال (٢). هناك احتمال كبير ، أنه لو كان كاتب واحد قد ألف كل ذلك الكتاب ، لكان عبر عن أقواله بكلمات أقل بكثير ، ولاسيما فى حكاية واحدة ... » ويواصل ريشار سيمون عمله ؛ فترى أى تأثير يتركه فى القارئ إذا ما انتهى ؟ أن قصة الكتاب المقدس عن خلق الكون لا اتساق فيها ولا انسجام . وأنها كتبت فى أزمان جد مختلفة وبأياد لم تؤت المهارة ولا الأهلية . وأنها على الأقل اعتراها كثير من التبديل ، وفى غير حذق حتى أصبح من المستحيل أن نميز كاتبها الأصيل . فاذا وصلنا إلى هذه النتيجة فأى جدوى فى الالتجاء إلى التقاليد ؟

لذلك فان ريشار سيمون فى فحصه تلك التقاليد يحدوه روح النقد الخالص ، ولا يحدوه روح الايمان على الاطلاق . فلنتبعه أيضا فى عمله هنا ، ولننظر عن كثب كيف يأخذ فى دراسة القديس أوغسطين (٣). يحتل هذا القديس

(١) التاريخ النقدى .. الجزء الأول ، الفصل الخامس .

(٢) نص الآيات من سفر التكوين ، الفصل السابع . [المترجمان]

(٣) القديس أوغسطين : من آباء الكنيسة فى القرن الخامس . لاهوتى وفيلسوف شهير . صاحب «الاعترافات» و«مدينة الله» . كان يريد أن يوفق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية ، وأن يثبت الانصال بين الحكمة والايمان . ترك تأثيراً عميقاً على مالبرانش الذى كان مشغوفا بدراسة فلسفته ، وقد وصل فلسفته إلى القرن الثالث عشر القديس «توما الاكوينى» ناقلا أفكار ابن رشد فيلسوف الاسلام عن «الاتصال بين الحكمة والايمان». [المترجمان]

الكبير مقاما ممتازا فى نقد الكتاب المقدس برجاحة عقله وصلابة حكمه . « لقد نوه أحسن التنويه فى مؤلفاته عن العقيدة المسيحية ، وفى مواضع مختلفة فى كتبه ، بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — إلا أنه « لما كان متواضعا فقد اعترف بأن أغلب هذه الصفات كانت تعوزه » ؛ وأنه أظهر من الدقة فى تفسيراته نزراً يسيراً . — ونظراً لجهله اللغة العبرية فقد اعترف بأن كتابه عن سفر التكوين رداً على الزنادقة المانويين (١) ، Manichéens كان فوق طاقته ؛ « ولم يخجل حتى من أن يعيب العمل الذى قام به على عجل ، ودون استعانة بالصفات اللازمة لتفسير الكتاب المقدس خير تفسير . » — فهو بدلا من أن يبحث فى المعنى الحرفى ، « لا يتوسع إلا فى المعانى المجازية ، البعيدة عن تاريخ النص وعن الحرفية » . — « و بما أوتى من ذهن وقاد نفاذ ، فقد كان يسيراً لديه أن يجد مواضع الصعوبة والغموض فى الكتاب المقدس ، حتى كشف بعضها فى مواضع تبدو أبعد ما تكون عن كل صعوبة وغموض . ولكنه لم يكن كثير الممارسة لهذا النوع من الدراسة حتى يمكنه أن يقدم حلولا واضحة ، ترضى القراء » — « وفضلا عن ذلك فقد كان متشبعاً ببعض الاعتقادات المبتسرة عن الفلسفة واللاهوت ، يحشو بها كل مؤلفاته . . .(٢) » . ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما بقى — ولنضف فقط أن ريشار سيمون يجد متعة خبيثة فى إيقاع القديس أوغسطين فى مجادلة مع القديس جيروم ، ولنتساءل بعد ذلك عن الفكرة التى يمكن أن يكونها القارئ غير الدينى عن مقدرة القديس أوغسطين ونفوذه .

وسرعان ما يرجع ريشار سيمون إلى النقد والفيلولوجيا ، فهما مصدر وحيه و إلهامه . إنه يفكر فى أعماق كيانه أن لا شئ يقف أمام « الأدلة المبينة » ، وعلى الأخص حدس « رجال الدين المتعصبين المستنيرين » . إن القول بأن « روحا خاصا » أو « هاتفا فى القلب » « يكشف لنا عن أخفى الحقائق فى

---

(١) المانويين Manichéens : الزنادقة أتباع مانيس وهو مذهب ظهر فى القرن الثالث بعد الميلاد . ويشرح مانيس وجود الخير والشر كما يشرحه زرادشت : بنسبة الخليقة إلى مبدئين أولهما الخير وهو الله ، أى الفكر أو النور ؛ وثانيهما جوهره الشر وهو إبليس أى المادة أو الظلام . (مبدأ الثنائية فى الخلق) . [المترجمان]

(٢) الجزء الثالث — الفصل الخامس .

يجهلها أحد : فقد كان لدى الكنيسة ، منذ أول عصور المسيحية ، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التى تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين . وهذا العمل الذى يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة ، وبحثا عميقا عن النسخ المخطوطة ، يسمى « نقدا » . لأننا نقدر أفضل الدروس التى يجب أن يحتفظ بها فى النص . فكلمة « نقد » لفظ فنى مخصص للمؤلفات التى يدور فيها الفحص فى مختلف الدروس لتوطيد أحقها . ولأن يجهل الناس هذا الفن فى العصور التى خيمت فيها البربرية على ربوع أوربا ، هذا محتمل ؛ أما أن يحتقر اليوم ، فهذه إهانة لا تغتفر . اليوم ينبغى أن ننسب إلى النقد الدور الذى نسبه الناس إلى اللاهوت فيما سبق . . . تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه . كتب أرنو إلى بوسويه فى يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها « حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن نتبع إلا قواعد النحو ، وليس اللاهوت أو التقليد لكى نحسن شرح العهد الجديد ! . . . عندى أنه لا شئ أكثر من ذلك يفيد أشياع سوسان Sociniens (١) »

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير ، « العهد الجديد للسيد المسيح ، مترجما عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات » : ظهر فى تريفو Trévoux عام ١٧٠٢ . وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص ، والرجوع إلى النص ، وبيان المعنى الحرفى للنص ، بالرغم من التفاسير التقليدية التى يقول عنها ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعانى معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون . كانت ترجمة نقدية ، إذا أمكن القول ، تحمل فى حواشيها المقارنات التى أوحتها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية . « على كل حال ، لما كنت لا مقصد لى من بياناتى إلا شرح المعنى الحرفى للأناجيل وكتب الحواريين ، فلا ينبغى أبداً البحث فيها عن ذلك « التصوف » cette mystiquerie الذى لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والادراك من الناس » . المعنى ولا شئ غير المعنى الحرفى : « وإلا كثر وقوعنا فى تلك الرطانة الأعجمية التى يسمونها روحانية . » — ولقد حرمت هذه الترجمة .

---

(١) أرنو إلى بوسويه ، يوليو ١٦٩٣ ، Arnauld à Bossuet.

***

لا ينبغى أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيا ، ولا أن نلطف خلقه ، لأنه كان شرسا جافاً . ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية ، ولكنه كان فقيراً فى حياته العاطفية . أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضا المكائد والحيل : « لأنه ينبغى أن تعرف يا سيدى ، أن اللاهوتى المجهول بجامعة باريس ، ورينيه دى ليل René de l'Ile القسيس ، وجيروم لى كاموس Jerôme le Camus ، وجيروم دى سانت فوا Sainte-Foi ، وبيير أمبرين Pierre Ambrun ووكيل الانجيل المقدس، وأوريجين أدامانتيوس، وأمبروزيوس، وجيروم أكوستا Acosta ، والسيد دى سونى ، والسيد دى سيمونفيل Simonville — أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم ، يتجمعون فى رجل واحد » ، ريشار سيمون . ولم يتوخ الأمانة التامة فى مجادلاته مع الكاثوليك ، فقد بعث بصورة من كتابه « التاريخ النقدى » إلى أساتذة السوربون ليفحصوها ، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة . وكانت الشفقة المسيحية أقل شئ يثير اهتمامه فى مجادلاته الطويلة مع البروتستانت . وكان متكبراً جافا يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة ، ويجد متعة فى رمى السهام الحادة . وحتى فى مؤلفاته الكبيرة — وبالرغم من التواضع الذى كان يدعيه — ترى أن ذلك التقدير الذى يشعر به نحو ذاته يصحبه دائما شئ من الاحتقار الذى يشعر به نحو الآخرين . ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله — بل قل مجموعة شتائمه وهجوه . إنه ليس الرجل المظلوم الذى لا يجد القوة فى صفه فيدافع عن نفسه بكل الوسائل فحسب ، إنه ليس ذلك الرجل الساخط : بل هو رجل يميل إلى الالحاد ، مشغوف بعرض المذاهب التى تشم فيها رائحة الحطب والحريق ، وبالحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة ، ويلفت الأنظار إلى الكتب المخبأة ، الكتب المحرمة التى تتضمن بذور الشقاق ، الكتب التى تحمل مواد الانفجار . كيف السبيل إلى التوفيق بين ميول ذهنه هذه ، وتلك الشيمة الدينية التى كان يزعم أنه محتفظ بها ؟

الكتاب المقدس » ، كان يليق بأزمان الأساطير . إن ذلك الروح الخاص لا تجده اليوم أبدا إلا لدى الكويكرز(١) وغيرهم من الموتورين ، الذين يلوذون به لافتقارهم إلى المقدرة والعقل السليم .

***

ولقد واصل السير فى طريقه ، بالرغم مما صادف من عقبات ومشاق . فى ٢١ مايو عام ١٦٧٨ أبلغ بطرده من جمعية الأوراتوار ؛ وفى نفس العام حرم « التاريخ النقدى للعهد القديم » بقرار من الديوان الملكى ، وبناء على ذلك صادر البوليس نسخ الكتاب وأتلفها . وفى عام ١٦٨٣ حرمت جمعية « إندكس Index » (٢) بدورها الكتاب . ولما رأى ريشار سيمون أنه لن يتفق مع الرقابة أبدا ، وأن « مسيو الزيفييه Elzevier » (كان قد نشر كتابه فى خارج فرنسا مشوهاً نقلا عن نسخة مخطوطة ، فقد حصل على نص صحيح ونشره فى أمستردام عام ١٦٨٥ . وواصل عمله ، فقد كان لابد من أن تظهر القوة التى تعتمل فى كيانه ، وكان المنطق يقتضى أن يفسر العهد الجديد بعد العهد القديم . وعلى ذلك أخذت مؤلفاته تتوالى : فى عام ١٦٨٩ «التاريخ النقدى لنص العهد الجديد» ، وفى عام ١٦٩٠ «التاريخ النقدى لتراجم العهد الجديد» ، وفى عام ١٦٩٣ «التاريخ النقدى لتفاسير العهد الجديد» : وفى كل هذه العناوين تظهر كلمة « نقد » ، ويشرحها ريشار سيمون دائما لكيلا

(١) الكويكرز Quakers : مذهب دينى نأسس فى القرن السابع عشر فى انجلترا وصاحبه جورج فوكس (١٦٤٢) ثم انتشر فى أمريكا بفضل وليام پن . وكان جورج فوكس يرتعد ساعة الوحى ومن هنا كلمة كويكرز أى المرتعدون . وأتباع هذا المذهب اشتهروا بطهارة الأخلاق فهم لا يحاربون معتقدين أن القتال لا يليق بالانسان . ولا يقسمون بالانجيل بل يقولون أمام المحكمة «نعم» أو «لا» . ويخاطبون دائما بكلمة «أنت» لا «أنتم» وفضلا عن ذلك ينكرون بعض الأسرار المقدسة لدى الكنيسة كالعمادة معتقدين أن المسيحية ليست عبارة عن غسل الرأس بقليل من الملح والماء . كما يرفضون تناول القربان معتقدين أنه من أباطيل الانسان . فهم لا يعتمدون إلا على البراءة وصفاء القلب . (الرسالات الفلسفية *Les Lettres Philosophiques* لفولتير رسالة ١ - ٤). [المترجان]

(٢) جمعية إندكس Congrégation de l'Index : محكمة تأسست فى روما فى عام ١٥٦٣ حسب قرار مجمع ترانت Concile de Trente للبحث فى الكتب وتحريمها إذا كانت خطرة على الدين. [المترجمان]

يجهلها أحد : فقد كان لدى الكنيسة ، منذ أول عصور المسيحية ، علماء توفروا على تصحيح الأخطاء التى تسربت إلى الكتب المقدسة من حين إلى حين . وهذا العمل الذى يتطلب معرفة تامة بالكتب المقدسة ، وبحثا عميقا عن النسخ المخطوطة ، يسمى « نقدا » . لأننا نقدر أفضل الدروس التى يجب أن يحتفظ بها فى النص . فكلمة « نقد » لفظ فنى مخصص للمؤلفات التى يدور فيها الفحص فى مختلف الدروس لتوطيد أحقها . ولأن يجهل الناس هذا الفن فى العصور التى خيمت فيها البربرية على ربوع أوربا ، هذا محتمل ؛ أما أن يحتقر اليوم ، فهذه إهانة لا تغتفر . اليوم ينبغى أن ننسب إلى النقد الدور الذى نسبه الناس إلى اللاهوت فيما سبق . . . تخيل كيف كان غضب اللاهوتيين حينما سمعوا كلمات مثل هذه . كتب أرنو إلى بوسويه فى يوليو ١٦٩٣ رسالة يقول فيها « حسب أقوال هذا الناقد لا يجب أن نتبع إلا قواعد النحو ، وليس اللاهوت أو التقليد لكى نحسن شرح العهد الجديد ! . . . عندى أنه لا شئ أكثر من ذلك يفيد أشياع سوسان Sociniens (١) »

وأخيراً ظهر المؤلف الكبير ، « العهد الجديد للسيد المسيح ، مترجما عن النسخة اللاتينية القديمة مع ملاحظات » : ظهر فى تريفو Trévoux عام ١٧٠٢ . وكانت ترجمة لا ديدن لها إلا الاعتماد على النص ، والرجوع إلى النص ، وبيان المعنى الحرفى للنص ، بالرغم من التفاسير التقليدية التى يقول عنها ريشار سيمون إنها لا تعدو كونها تفاسير بل أخطاء ومعانى معكوسة ومع ذلك فقد انتحلت سلطة القانون . كانت ترجمة نقدية ، إذا أمكن القول ، تحمل فى حواشيها المقارنات التى أوحتها لريشار سيمون معرفته للغتين اليونانية والعبرية . « على كل حال ، لما كنت لا مقصد لى من بياناتى إلا شرح المعنى الحرفى للأناجيل وكتب الحواريين ، فلا ينبغى أبداً البحث فيها عن ذلك « التصوف » cette mystiquerie الذى لا يتذوقه إلا قليلو البصيرة والادراك من الناس » . المعنى ولا شئ غير المعنى الحرفى : « وإلا كثر وقوعنا فى تلك الرطانة الأعجمية التى يسمونها روحانية . » — ولقد حرمت هذه الترجمة .

---

(١) أرنو إلى بوسويه ، يوليو ١٦٩٣ ، Arnauld à Bossuet .

***

لا ينبغى أن نجعل من ريشار سيمون رومانتيكيا ، ولا أن نلطف خلقه ، لأنه كان شرسا جافاً . ولقد كانت حياته الفكرية غنية قوية ، ولكنه كان فقيراً فى حياته العاطفية . أحب معركة الأفكار الكبرى ولكنه أحب أيضا المكائد والحيل : « لأنه ينبغى أن تعرف يا سيدى ، أن اللاهوتى المجهول بجامعة باريس ، ورينيه دى ليل René de l'Ile القسيس ، وجيروم لى كاموس Jerôme le Camus ، وجيروم دى سانت فوا Sainte-Foi ، وبيير أمبرين Pierre Ambrun ووكيل الانجيل المقدس، وأوريجين أداماتيوس، وأمبروزيوس، وجيروم أكوستا Acosta ، والسيد دى مونى ، والسيد دى سيمونفيل Simonville — أن كل أولئك المؤلفين وكثيرين غيرهم ، يتجمعون فى رجل واحد » ، ريشار سيمون . ولم يتوخ الأمانة التامة فى مجادلاته مع الكاثوليك ، فقد بعث بصورة من كتابه « التاريخ النقدى » إلى أساتذة السوربون ليفحصوها ، بعد أن حذف منها الفصول الخطيرة . وكانت الشفقة المسيحية أقل شئ يثير اهتمامه فى مجادلاته الطويلة مع البروتستانت . وكان متكبراً جافا يستعمل الألفاظ اللاذعة الجارحة ، ويجد متعة فى رمى السهام الحادة . وحتى فى مؤلفاته الكبيرة — وبالرغم من التواضع الذى كان يدعيه — ترى أن ذلك التقدير الذى يشعر به نحو ذاته يصحبه دائما شئ من الاحتقار الذى يشعر به نحو الآخرين . ولكنك تستبين خبثه وحقده على الخصوص من قراءة رسائله — بل قل مجموعة شتائمه وهجوه . إنه ليس الرجل المظلوم الذى لا يجد القوة فى صفه فيدافع عن نفسه بكل الوسائل فحسب ، إنه ليس ذلك الرجل الساخط : بل هو رجل يميل إلى الالحاد ، مشغوف بعرض المذاهب التى تشم فيها رائحة الحطب والحريق ، وبالحديث عن اللاهوتيين الذين خرجوا على الكنيسة ، ويلفت الأنظار إلى الكتب المخبأة ، الكتب المحرمة التى تتضمن بذور الشقاق ، الكتب التى تحمل مواد الانفجار . كيف السبيل إلى التوفيق بين ميول ذهنه هذه ، وتلك الشيمة الدينية التى كان يزعم أنه محتفظ بها ؟

For some, who have his secret meaning guess'd,
Have found our authour not too much a priest (١)

أما عن المعارك الداخلية الدفينة ، ولعله قد عرفها ، فلم يسر منها شيئا فى أذننا . ولكى تعرف ماذا كان إيمانه على التحقيق ، لم يكن بد من أن تطلع على مذكراته الضخمة التى أحرقها ذات يوم بيديه ، مدفوعا بنوبة من التحرز . كان قد لاذ بداره فى بولفيل بنورمانديا . وذات يوم استدعاه محافظ الولاية واستجوبه ، ويومئذ خشى أن يفتشوا بيته ويصادروا أوراقه ، فوضعها فى عدة براسيل كبيرة ، ودفعها ليلا إلى أحد المروج ثم أحرقها فاستحالت إلى رماد . أما ما كان يخفى فى أعماق نفسه فلا يعرفه إلا « الذى » يسبر أعماق القلوب .

وظل يعد نفسه عضواً فى الكنيسة بالرغم من طرده من الأوراتوار ، غير ناس ذلك الشعار بل متشبثا به فى عناد وإصرار : « إنك خادم الكنيسة إلى الأبد » . ولقد واصل مهمته كعالم إلى النهاية ، لا يريد أن يعرف شيئا غير العلم ، مع احتفاظه بصفته كابن عنيد للكنيسة ، بالرغم من مؤاخذتها إياه . « لقد تناول أسرار الكنيسة بروح مسيحى يستوجب العبرة ، ثم توفى فى أغسطس من عام ١٧١٢ فى الرابعة والسبعين من عمره . . . (٢) »

* * *

لقد شارك ريشار سيمون فى تصحيح القيم التى سبق أن رأيناها تعتمل فى الضمائر فى شتى الأشكال ، باحتجاجه على مثل هذه الصيغ : لقد اعتاد الناس دائما — إنه معلوم من قديم — إنه تقليد قديم قدم الدنيا . . . كما أنه أثر وأنتج ، لأنه أضفى على النقد وعيا بقوته وواجباته « إن النقد لازم ومفيد » critici studii utilitas et necessitas . ولقد نشر خصمه جان لى كلير Le Clerc — الذى كان ببعض نواحى تفكيره لا يفترق عنه إلى الحد الذى يظنه الاثنان معا — فى عام ١٦٩٧ قانونا لفن « النقد » l'Art Critique الظافر . ثم إن

(١) درايدن : Dryden, *Religio laici* ١٦٨٢ . « لأن بعض الذين خمنوا مرماه الدفين وجدوا أن مؤلفنا لم يكن قسيساً كما ينبغى أن يكون . »

(٢) بروزن دى لامارتنيير ، مدح ريشار سيمون Bruzen de Lamartinière, *Éloge de Richard Simon.*

ريشار سيمون هو الذى أثار تلك الحركة التفسيرية للكتاب المقدس : إن لم يكن لدى الكاثوليك الذين أرجف ضمائرهم ، فعلى الأقل لدى البروتستانت : وإن فى وجود أكثر من أربعين مناقضة « لتاريخه النقدى للعهد القديم » لدليلا أكبر الدليل على ما أثار من إزعاج واضطراب . ولم يكن عدد أتباعه كبيراً ، ولو أن تلميذه روفائيل ليفى ترجم القران — كما يقول لويس دى بيزانس — حسب منهج استمده منه . ولكنه ولد أفكاراً جريئة جديدة فى عقول الكثيرين . أنظر كيف يأتى بياجيو جاروفالو فى عام ١٧٠٧ فيعلن أن الكتاب المقدس حافل بالكلام الموسيقى المنظوم . والسجع الشعرى الموزون : فهل كان يجترئ على كشف ذلك الأثر الانسانى فى الكلام الالهى ، لو لم يفتح مؤلف التاريخ النقدى الطريق للاجتراء من كل الصنوف ؟

وأخيراً ، فأى ثروة لغير المصدقين . . . ! إنهم ليسوا قادرين على تمحيص الكتب المقدسة بأنفسهم ، ولكنهم مستعدون لتصديق كل مايضعف من سلطانها . وهم يقولون « كيف تريد أن أعتقد بصدق هذه الكتب المقدسة التى كتبت منذ أقدم العصور ، وترجمت إلى شتى اللغات بمعرفة قوم من الجهال ربما لم يدركوا معناها الحقيقى ، أو بمعرفة قوم من الكاذبين الذين ربما بدلوا أو زادوا أو أنقصوا ما تتضمنه اليوم من أقوال ؟ . . . (١) »

(١) بارون دى لاهونتان : محادثات فضولية ، ١٧٠٣ ص ١٦٣ ، طبع شينارد .
Baron de Lahontan, *Dialogues curieux*, 1703, éd. G. Chinard.

الفصل الرابع

بوسويه ومعاركه

لا يرى النـاس بوسـويه Bossuet إلا فى صورة من العظمـة الجليـلة ، كما يظهره لهم الرسام « ريجو » . وإذا كان من العبث أن نذكر هذه الصورة الفـاخرة ، فلعـل لنا فى ذلك عذراً لأنه يمكن القول بأن ذلك ضرورى : فان أسلوب بوسويه وعظمته وشهرته ماثلة أمام عيوننا أبداً . ونحن نتخيل الخطيب عادة يلقى بعض مرثياته : فهو لا يكاد يبتدئ فى كلامه حتى نحس أننا ننتقل إلى ميادين الجلال ، ثم تعلو أنغامه رويداً رويداً تشوبها مسحة من الحزن والأنـين توقظ فى قلوبنا من الرنين العميق ما يشتد حتى يصبح مؤلما ، فاذا انتهت موسـيقاه المقدسـة بأنشودة للعـالم الآخر ، خيل إلينـا أننا كنا أمام رسول ، لا أمام إنسان عادى .

وصورة بوسويه هذه ليست غلطاً . ولـكنها تفترض استنارة خاصة ، فقد صفى الزمن كل ما عدا النبل والجلال والنصر . بيد أن هناك بوسويه آخر : بوسويه الذليل ، التعس .

ولسنا نقصد أن نبدل شيئا فى بساطة عقيدته العميقة التى تستحق الاعجاب . فلقد آمن مرة بالأزلى ، بالشامل ، وهذه المرة كانت إلى الأبد : Quod ubique, quod semper (١) — « إن اليقين الذى جاءنا من الله له — قبـل كل شئ — كماله » : ذلك المبدأ هو قوام كل عقيدته الثابتة . فهنالك يقين أوحى به الله الى الناس ، مسجل فى الانجيل ، مؤيد بالمعجزات . يقين كامل مادام إلـهيا ، وبالتالى فهو متين لا يتغير : ولو أنه يقبل التغير لما كان يقينا . ومهمة الـكنيسة هى أن تـكون حفيظة عليه : « إن كنيسة السيد المسيح الحفيظة على العقائد التى اؤتمنت عليها ، لا تبدل فيها شيئا أبداً ؛ فهى لاتنقص

---

(١) فى كل مكان وفى كل زمان . كلمة للقديس فنسان دى ليران . [المترجان]

أو تضيف شيئا ، لا تحذف منها الأشياء الضرورية ، ولا تضيف إليها الزوائد الباطلة . فكل مهمتها أن تجلو ما سلم إليها من قديم ، وأن تؤيد ما لقى شرحاً وافيا ، وأن تحتفظ بما أصبح مؤيدا مبيناً . . .(١) » وواجب المرء أن يتمشى مع هذا اليقين الوحيد المتين : لأنه إذا أراد كل منا أن يكون له يقين خاص، لوقعنا فى الفوضى واللامنطقية ، لأنه بديهى أن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون محل مليون يقين ، أو ألف ، أو مئة ، أو عشرة أو اثنين ، بل يقين واحد . « من هنا ندرك بوضوح الأصل الصحيح للكاثوليكى والملحد . فالملحد هو من كان لديه رأى : وهذا معنى الكلمة نفسها . وماذا يعنى « لديه رأى » ؟ يعنى أتباع المرء رأيه الخاص ، وشعوره الخاص . أما الكاثوليكى فكاثوليكى أى عالمى ، فهو يتبع رأى الكنيسة بلا تردد ، ودون أن يكون له رأى خاص . . .(٢)»

إيه أيها الكتاب المقدس ، أيها الكتاب العزيز ، الذى يقدم للناس ، فى شكل جميل خلاب ، مزخرف مؤثر ، تاريخ جنسهم وقانون واجباتهم فى نفس الوقت ! إنه يتضمن المبادئ التى تؤسس الكاثوليكية ، حتى إذا فسرته التقاليد ، أصبح السلطة التى تمنع الناس من جعلها موضع نقاش . إن بوسويه لا يتخلى عن كتابه المقدس ، فقد شغفه حبا منذ فجر شبابه ، وسيكن له الحب حتى أخريات أيامه . لا غنى له عنه ، فهو غذاؤه ، وهو خبزه . ومثلما يستمر الخورى الريفى فى قراءة كتاب صلوات حفظه عن ظهر قلب : فكذلك بوسويه قد حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ومع ذلك فهو لا يكف عن قراءته . ولما كان آباء الكنيسة قد شرحوا الحقيقة الأصلية ، وأيدوها ووضحوها ، فلا عجب أن نراه يلتجئ كثيراً إليهم . وبوسويه مغرم بالمطبوعات ، ، فهو لا يكاد يتوقع نشوب مجادلة حتى يهرع إلى ما يتعلق بها من أوراق ، فان متانة إيمانه لا تمنعه من الإستعلام ، يحدوه إلى ذلك الذوق والواجب معاً . وبين كل الكتب ، تراه يؤثر أن يستشير كتب الآباء ، خدام الكنيسة ، وبين

(١) أول تنبيه للبروتستانت ، ١٦٨٩ ، (طبع لاشا) ، الجزء الخامس عشرص ١٨٤ .
Premier avertissement aux Protestants, 1689, éd. Lachat.

(٢) التعاليم الأولى عن وعود الكنيسة . . ١٧٠٠ (طبع لاشا) ، الجزء السابع عشرص ١١٢
Première instruction pastorale sur les promesses de l'Église, (1700).

كل الآباء يفضل القديس أوغسطين Saint Augustin . لقد لاحظه سكرتيره المتيقظ « لى ديو » Le Dieu الذى سجل أفعاله وحركاته : « كان يتغذى بمذهب القديس أوغسطين ، ويتشبث بمبادئه ، حتى إنه لم يؤيد معتقداً ، ولم يعط أى تعليمات ، ولم يذلل صعوبة إلا عن طريق القديس أوغسطين ، كان يجد لديه كل شئ . . . كان يطلب منى مؤلفات القديس أوغسطين مع الكتاب المقدس ، إذا أراد أن يلقى موعظة على الجمهور ، وكان يقرأ القديس أوغسطين إذا أراد أن يحارب ضلالا أو يوضح نقطة فى الدين . »

أما وقد وثق بعقيدته ، واستنار بالتجائه إلى الكتب ، فقد التزم بوسويه نظاما يبرر وجوده الذاتى ، وكل مجهود شخصيته لا يخرج عن ارتضاء تصويره هذا للحياة ، وترسيخه ، وإظهاره وتبيانه للناس . إن حدوده لا تضايقه بل يتقبلها عن طيب خاطر . وفى دخيلة تفكيره الخاص، تجده يرتاح لتنظيم حياته : لأن مجهود الحياة ينبغى ألا يكون دائما نقد قاعدة تقبلها الناس مختارين راضين ، بل الاستفادة من الأمان الذى تهيئه ، لنمضى حياتنا فى إتيان الخير وفى النشاط. وعنده كلمة جديرة بالاعجاب اقتبسها من كتاب الملوك : « إن الطاعة أفضل من التضحية » . فنحن نطيع ، نطيع الله ، ونطيع الملك ، الذى يمثل الله على الأرض . ونحن نستمتع بالتصرف طوعا لرغبة « الذى » خلق النظام الذى نرتضيه ، والذى هو اليقين وهو الحياة . هكذا نخلص أنفسنا من البحث والفحص ، ومن القلق والاضطراب : على منوال مؤلف كلاسيكى قد أذعن مرة وإلى الأبد لقاعدة الوحدات الثلاث التى ظهرت له سليمة منطقية ، فيشيد فى نطاق هذه القاعدة ، ولائذا بهذه القاعدة ، تحفة رائعة .

وبوسويه ليس مفطوراً على الزهد . إنه يحب رانسيه Rancé ويقدره : وعندما يذهب إلى « تراب » ليزوره ، يرى الرهبان راعيهم رانسيه وأسقف « مو » L'évêque de Meaux يتنزهان معاً طويلا ، يكرسان للأحاديث الودية الزمن الذى لا يقضيانه فى الصلاة . بيد أنه لا يمكث فى الدير . وهو مثل الكلاسيكيين أيضا ، يجتنب الافراط فى كل شئ ، فحتى المغالاة فى التقوى تبدو له شديدة الخطر . وهو وإن كان شرساً مع العنيدين les opiniâtres إلا أنه بالغ الحنو على الضعفاء ، كثير الشفقة بالفقراء . ومائدته ، التى لا تخلو من النبيذ الجيد ، تبدو عامرة دسمة دون ترف أو إسراف . وهو مرهف الحس

من ناحية الطبيعة ، يتذوق جمال حدائق « جرميني » أبهى حدائق الدنيا ، كما يستمتع بالطريق الهادئ المحوط بالأشجار حيث يستطيع أن يطالع فى كتابه المقدس وأن يفكر ويتأمل . بل يحس تلك الصلات التى تتولد بين مناظر الطبيعة الرائعة ، وقلب رجل يتأثر بها وينفعل . وهو شديد القسوة فى بعض الأحيان ، ومع ذلك فهو قادر على أن يكون بالغ الحنان : فقد كانت فيه فضيلة الصداقة . وعنده أن القديس أوغسطين كان على اتفاق مع القديس فنسان دى بول ، أستاذه . وهو ليس قويا ثابتا فحسب ، بل متزنا كل الاتزان .

لا مدخل للشك إلى روح مثل هذه الروح ، التى لا تقدم على شئ دون أن تبرره أمام محاكمتها الذاتية ، والتى تعى أفكارها وإرادتها تمام الوعى : ذلك أن بوسويه — مثل الشكاك المدققين — يحاسب نفسه على سير تفكيره ونتائجه أعسر الحساب . إنه يحادث ابن أخيه ، فيحكى له عن السؤال الذى وجهه إليه ذات يوم مريض على شفا الموت ، وكيف أجاب :

« ذات يوم طلبنى شخص غير مصدق ، كان على فراش الموت ، وقال « يا سيدى ، لقد اعتقدت دائما أنك رجل شريف ، وأنت ترانى اليوم على وشك الهلاك ، فحدثنى بصراحة ، فانى واثق بك ، ما رأيك فى الدين ؟

— إنه أكيد ، لم يخالجنى الشك يوما فيه . . . (١)

فعن هذا الايمان المكين ، لا شئ يقال . ولكن بدلا من أن نتصور بوسويه عظيما ومنعزلا ، فلندمجه بين معاصريه ، لنحاول رؤيته وسط الجدال ، بين المعامع والآلام . فلننظر إليه لا فى شبابه الزاهر وظهوره المجيد ، بل فى سنى شيخوخته : ولنحاول أن نعرف ما صار إليه أمره ، خارج إطاره المذهب ، فى خضم الحياة ، ممثلا لتقليد قد شن عليه الهجوم من كل صوب وحدب ، وهيكلا تخلى عنه عصره ، إذا أمكن القول بذلك .

***

إن « البحث اللاهوتى — السياسى » الذى أرسله إليه أرنو Arnauld ،

---

(١) لى ديو ، الصحيفة ، ١٥ مايو ١٧٠٠ ، Le Dieu, *Journal*, 15 mai 1700

والذى يملك منه نسخة فى مكتبته ، ليس كتاب ملحد فحسب بل كتابا منغصاً منكداً . ماذا . . . ! سبينوزا هذا ، هذا اليهودى الهولندى الحقير ، أيفتعل مظاهر التفوق لأنه يعرف اللغة العبرية ؟ ! إنه يعلن أنه لا اللاتينية تكفى ولا اليونانية : إما أن تعرفوا العبرية وإما ألا تتكلموا عن الكتاب المقدس .

كان بوسويه قد اكتفى « بالفولجات Vulgate (١) » لأنه يجهل العبرية : وهنا موضع الخطورة ؛ وهو لا يجهل ذلك ، فاذا أراد أن يجيب وهو عليم ، وألا يبدو متأخراً أو مضحكا ، وفضلا عن ذلك إذا أراد أن يطيع ضميره المدقق الذى كان يملى عليه واجبه ، كان عليه أن يبدأ الدراسة من جديد . ولم يكن ذلك هينا يسيراً . . . ومع ذلك فقد اشتغل . ونحن نحب أن نتخيل انعقاد المجلس الصغير ويالها من لوحة جميلة تقية : بعض الرجال الحكماء وبعض القساوسة يجتمعون بانتظام ، كل يمسك فى يده نسخة من الكتاب المقدس : هذا يقرأ النص العبرى ، وذلك يقرأ النص اليونانى ، والكل يستشيرون أيضا القديس جيروم وكبار الأساتذة ، ويفسرون ويتناقشون ، وبوسويه يقرر والأب فلورى يسجل الملاحظات . مجلس من رجال ذوى إرادة طيبة ، يكونون حلقة بحث حيث يزيدون معارفهم ويدعمونها ، لأنهم يستشعرون أن زمن التجارب الكبرى قد حان . ولكن هل سيعرف بوسويه العبرية أبداً ؟

فى يوم الخميس المقدس من سنة ١٦٧٨ قدم الأب رينودو Eusèbe Renaudot الذى كان عضواً فى المجلس ، بياناً للأسقف عن كتاب على وشك الظهور : «التاريخ النقدى للعهد القديم» ، تأليف ريشار سيمون . وكان هذا الكتاب قد حصل على الامتياز وأجازته الرقابة وأذن به المدير العام لجمعية الأوارتوار ، وكاد الملك يقبل إهداء ذلك الكتاب ، لأن الأب لاشيز La Chaise كان قد وعد بالتدخل لهذا الغرض . ففز بوسويه فزعاً مروعا :

(١) الفولجات *La vulgate* : ترجمة لاتينية للكتاب المقدس ، تستعمل فى الكنيسة الكاثوليكية ، كتبها القديس جيروم فى القرن الرابع بعد الميلاد . وقد رفضها الاصلاحيون فى القرن السادس عشر بدعوى أنها تتضمن أخطاء فى الترجمة . وسمح مجمع ترنت فى ١٥٤٦ بدراسة النص القديم وأيد صحة الفولجات من حيث كونها ترجمة ذات قوة إثباتية يمكن الاستشهاد بها فى المناقشات اللاهوتية . [المترجان]

إن التاريخ النقدى الباطل هذا ، ليس إلا كتلة من الكفر والالحاد ، بل هو قلعة للتحرر والفساد ، فيجب إيقافه . وبالرغم من قداسة ذلك اليوم ، المكرس لمراسيم الكنيسة وللحرمان ، فقد هرع إلى مشيل لى تولبير Michel Le Tellier رئيس الديوان ، وأقنعه ونجح فى منع نشر الكتاب .

ولكن أى ألم . . . ! كيف يتجاسر قسيس ، وقسيس من الأوراتوار بالذات على مثل هذه المعاملة للكتاب المقدس ! طالما يعيش ريشار سيمون فسيكون لبوسويه مصدراً للحزن والاضطراب . إن ريشار سيمون سيلف حوله ويدور ، محاولا إقناعه بأنه ليس « عنيداً » : بيد أنه لا يستطيع أن يخفى على عيون يقظة ساهرة ، تلك القوة التى كانت تدفعه . إن هذا الرجل كان يريد إبدال اللاهوت بالنحو ، فتبا له من شرير !

ولو أننا طالعنا القسم الثانى من « مقال عن التاريخ العالمى(١) » ، متذكرين أن سبينوزا وريشار سيمون يحتلان ذهن بوسويه ، لما ازداد فهمنا للهجة الحماسية التى يستعملها محامى الأورثوذكسية الكاثوليكية فحسب ، بل للصفة الحقيقية لهذا الكتاب أيضا . إنه ينقض أكثر مما يعرض ، وهو يجيب على أسباب تختلف بطبيعتها وجوهرها عن تفكير المؤلف المتميز : وإنها لمهمة شاقة ، أن يطبق المرء على إقرار دينى ، على مبدأ أولى à priori ، تبريراً تاريخيا يفرضه عليه خصومه ، تبريراً أصبح ضروريا إذا أراد حقا أن يقابلهم وأن يجابههم .

. وإن قوله لواضح : فالكتاب المقدس له مصدر إلهى ، ولذا لا يحق لنا أن نتصرف حياله تصرفنا حيال كتاب بشرى . وهو بعد قوله هذا ، لابد له ، لكى يرد على المفسرين المحدثين ، من أن يتطرق إلى خططهم ، وأن يمحص ويقدر وجهات النظر البشرية . وهذا منشأ ارتباك بوسويه ، فهو مجبر على شرح كيفية جمع موسى لتاريخ العصور السالفة ، ومجبر على دحض الافتراض الذى يعزو تأليف التوراة إلى عزير (٢) Esdras ، ومجبر على دراسة النص

(١) مقال عن التاريخ العالمى *Discours sur l'Histoire Universelle* : ألفه بوسويه ١٦٨١ . وأصبح كتابا كلاسيكيا ، وقد ألفه لتربية ولى العهد . [المترجمان]

(٢) عزير Esdras : كاتب فى عهد أرتاكسركس ملك الفرس (القرن الخامس ق.م.) وعالم يهودى عارف بالقانون . رحل من بابل الى القدس (٤٥٨) ومعه ١٥٠٠ رجل =

باعتباره نصا ، وعلى تبرير غموضه ، وصعوباته وما فيه من تبدلات . وشرع بوسويه يهاجم مباشرة إلى الأمام ، متعجلا الخروج من هذه « المنازعات التى لا طائل وراءها » : فلندع التفاصيل ولننفذ إلى لب الموضوع : ففى كل ترجمة للكتاب المقدس نجد نفس القوانين ونفس المعجزات ونفس التنبؤات ونفس التسلسل التاريخى ونفس مجموع التعاليم وأخيراً نفس الجوهر : فماذا تبغون أكثر من ذلك ؟ وأى أهمية لبعض الاختلافات الهينة فى التفاصيل ، بجانب هذه المجموعة الثابتة التى لا يعتريها تغيير ؟ فهو طبقا لطبيعته الواضحة الصريحة على الدوام ، لا يتهرب من الاعتراض بل يواجهه و يحاول الغلبة عليه ، بهجمة سريعة شديدة : « لكن فى النهاية — وهنا تتركز قوة الاعتراض — أليس هناك إضافات فى كتاب موسى ، وما منشأ ذكر وفاته فى نهاية الكتاب المنسوب إليه ؟ ما وجه العجب فى أن الذين واصلوا تاريخه قد أضافوا نهايته السعيدة إلى باقى أفعاله لكى يجعلوا من الكل كتلة واحدة ؟ أما الاضافات الأخرى فلنر ما أمرها . فهل من قانون جديد ، هل من مرسوم جديد ،

= وعمل هناك على إصلاح الشعب والدين وأسس الدولة اليهودية (رينان: تاريخ الشعب الاسرائيلى ، الجزء الرابع ، الفصل الثامن Renan: *Histoire du Peuple d'Israël*, 5 vol.) . ويقول العهد القديم إن عزيرا قد رحل بموافقة الملك إرتاكسركس ومعه رسالة منه موجهة إلى الشعب الاسرائيلى (العهد القديم كتاب عزيز الاصحاح الثالث ١ - ٢٨). وجاء فى القرآن الكريم فى سورة التوبة (٣٠) «وقالت اليهود عزير ابن الله» وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى فرفع الله عنهم التوراة . فخرج عزير يسيح فى الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب ؟ قال أطلب العلم فحفظه التوراة ، فأملاها عليهم عن ظهر لسانه . فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه (تفسير أبو السعود ص ٤٠٠).

أما القائلون بأن التوراة ليست لموسى فيردون قولهم إلى ثلاثة أسباب ١) أن موسى ليس له وجود أكيد ، فان مؤرخى مصر القديمة لا يذكرون اسمه ولا معجزاته سواء فى ذلك مانيتون وهيرودوت وسالشونياتون . ٢) أن التوراة نفسها لا تقول إن موسى هو كاتبها . ٣) تقول كتب اليهود إن التوراة اكتشف وجودها فى عهد الملك جوزياس . مع أنه بين جوزياس وموسى انقضى ١١٧٧ سنة . ولم يذكر أحد الأنبياء الذين ظهروا فى هذه المدة ولو سطرين عن هذا الكتاب . فلا يستبعد إذن أن تكون التوراة كتبت فى بابل إبان أسر اليهود أو عقب ذلك مباشرة بعد عزير ، خصوصا أن التوراة فيها كثير من الكلمات الفارسية والكلدانية (القاموس الفلسفى لفولتير ، باب موسى ، وبيان رقم ١٠٠ فى آخر القاموس ، Voltaire: *Dictionnaire Philosophique*, Notes.) . [المترجمان]

أو عقيدة أو معجزة أو نبؤة ؟ لا أحد يدعى ذلك ، ولا شبهة من ذلك ولا أثر ولو حدث هذا لكان ذلك بحق إضافة إلى كتاب الله : ولمنع القانون ذلك ، ولكانت فضيحة هذا التجاسر فضيحة شنعاء . فماذا إذن ؟ لعله استكمال لتاريخ نسب ؛ أو لعله تفسير لتغير اسم مدينة بفعل الزمن ؛ أو لعله بمناسبة المن الالٰهى الذى اقتات به الشعب الاسرائيلى أربعين عاما فى الفلاة ، تسجيل الوقت الذى توقف فيه هذا الغذاء السماوى ، ولما كان هذا الواقع قد سجل منذئذ فى كتاب آخر ، فقد استبقى على سبيل البيان فى كتاب موسى ، كواقع على ثابت شهده الشعب بأسره . إن أربع ملاحظات أو خمسا من هذا النوع سجلها يشوعة أو صموئيل أو بعض الأنبياء الآخرين الأقدمين — لأنها لا تتعلق إلا بوقائع شهيرة لا يتطرق إليها شك ولا غموض — كان من الطبيعى أن تنفذ إلى النص . وقد أوصلتها نفس التقاليد إلينا مع الباقى كله : أفيضيع كل ذلك فى الحال ؟ . . . »

وهنا يبتسم ريشار سيمون ويسخر . فان الاعتراف ثمين لا يقدر . فالسيد الأسقف يعترف بوجود إضافة إلى كتاب موسى ، يعترف بأن التوراة قد حورت وزورت . وبذا فان أسقف « مو » الكبير ، (مثل هويه أسقف أفرانش M. Huet, évêque d'Avranches) يصبح سبينوزيا فى نظر اللاهوتيين ، يدمر الكتاب المقدس أيما تدمير . . .

إلا أن بوسويه يعاف السخرية : « إن السخرية ليست من طباع الفضلاء » وقد لا يكون لذلك أهمية لولا أنه يشعر أن الكلمة الأخيرة لم تنطق بعد ، وأن ريشار سيمون يزداد جرأة من كتاب إلى كتاب ، وأن « المسألة أصبحت لدى الكنيسة من الأهمية بمكان » . ولم يكن فى حياته المثقلة بالمهام مكان ، فهناك تربية ولى العهد ، وإدارة أسقفيته ، وقيادة كنيسة فرنسا التى أصبح رئيسها الروحى ، والكفر الذى يتولد هنا وهناك ، وإلقاء المواعظ ، وضرورة وجوده فى البلاط ، آه . . . ! يا للعمل الشاق ! العمل الذى لا يستغرق كل أيامه فحسب بل كل لياليه : فحين تستسلم الأسقفية كلها للرقاد ، يبقى ساهراً متيقظا ، فيوقد المصباح ، ويستشير الملفات ، ويشرع اليراع . هيا ، فلا زال علينا أن ننجز هذه المهام ، وأن ندافع عن التقاليد وعن القديسين ، ضد ريشار سيمون : لأنه ليس هناك واجب أكثر إلحاحا .

وعندما ظهرت ترجمة العهد الجديد ، تملكته نوبة جديدة من السخط الشديد : لابد من المبادرة إلى مصادرة هذا الكتاب كما صادر التاريخ النقدى للعهد القديم من قبل . غير أن أربعة وعشرين عاما كانت قد انسلخت منذ ذلك الحين ، ، فنحن فى عام ١٧٠٢ الآن ، ولقد ألقى بنفسه رثاء ميشيل لى تولييه رئيس الديوان الذى كان ينقاد لمطالبه عن طيب خاطر فيما سبق . أما الآن فرئيس الديوان هو بونشارتران وهو لا يصغى إليه بل يناصبه العداء ؛ وأكثر من ذلك أيضا ! فقد أراد أن يجبره على أن يقدم للرقابة « التعليمات » التى كان قد أعدها ضد ريشار سيمون . ولولا الملك الذى بقى على وده معه ، لخسر دعواه . كيف يخضع هو — بوسويه — للرقابة ! وكيف يستجوبه القضاة ! هو ، بوسويه فى صورة شخص مغموم بل مهزوم ! إن السلطة تفر من يده ، فقد تغيرت الأزمان ، وظفر المتحررون ، ولا شئ يستطيع أن يؤلمه أكثر من ذلك .

وطالما كان يأمر باحضار مؤلفه الكبير « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » *Défense de la tradition et des Saints Pères* فيعيد قراءته ، ويأخذ فى التحرير : إنه لن يفرغ منه أبداً . ذلك أنه ينبغى أن يضيف إلى كتابه الفصل تلو الفصل ، وأنه لم يكن يحارب شخصا واحدا ، بل روحا متشعبا يتحين كل فرصة للظهور . فلم تكد مسألة ريشار سيمون تنتهى ، حتى ظهرت مسألة إيلى دى بان Elie Du Pin . وكان هذا بدوره قسيساً ، وهو يبدو أقل عنادا ، بيد أن عدم اكتراثه البارد كان خطير المغزى . فقد نشر مجموعة ضخمة عن المؤلفين الأكليركيين ، قائلا إن الملحدين كانوا أحيانا أنفذ بصيرة وأصدق من الكاثوليك فى دراسة النصوص المقدسة ؛ والأكثر وحشية قوله إن النقط الأساسية التى تتعلق بأسرار الكنيسة بل بالعقيدة ذاتها ، لم تكن قد بينت بعد وحددت فى ذهن آباء الكنيسة خلال القرن الثالث بعد المسيح . فقد تكلم القديس سيبريان Cyprien عن الخطيئة الأولى فى وضوح وجلاء ، كما أنه تكلم أيضا عن التوبة والتكفير ، وعن سلطة القساوسة فى هذا الميدان ، وغير ذلك . ولكن بوسويه ساهر متيقظ . إنه لا يريد أن يأخذ ابلى دى بان بالشدة لقرابته لراسين ، ولأنه على أهبة الاستعداد للاعتراف بأخطائه . إلا أن هناك مسائل عدة لا يستطيع بوسويه أن يتحملها : محاباة

الملحدين ، وإضعاف التقاليد — فيما يتعلق بالخطيئة الأولى وفى نقط أخرى كثيرة — والخوض فى سيرة القديسين بتلك الجسارة التى لم تجر عادة الكاثوليك على السماح بها . إن شر الحريات قد أصبحت بدعة فى عصر « خطير كهذا الذى نعيش فيه . . . »

ويكتب إليه فنيلون Fénelon فى ٢٣ مارس ١٦٩٢ : « لقد سررت لرؤية الدكتور العجوز والأسقف العجوز ، ولقد تخيلتك والقلنسوة تتدلى على أذنيك تمسك بتلابيب دى بان كنسر ينشب مخالبه فى صقر ضعيف » . وما يحق لفنيلون أن يبتسم : فلولا النسر الرابض فى « مو » ، ولولا يقظته ، لتعرض ميدان الدين للغزو والتخريب . ولو أنه يشعر فى بعض الأحيان بتعب شديد(١) .

***

وبوسويه لن يتم « الدفاع عن التقاليد وعن الآباء القديسين » ، ولا « السياسة المستمدة من نفس كلام الكتاب المقدس » Politique tirée des propres paroles de l'Écriture Sainte : كم من كتب لم يتمها ـ وكلها لازمة ، وكلها ملحة ! وكان يشتعل رغبة فى الذهاب إلى انجلترا ، والدخول فى محادثات مع اللاهوتيين هناك ، وفتح عيونهم : ولكنه لن يذهب إلى انجلترا أبداً . ذلك أن انجلترا قد غرقت فى الفتنة وطردت ملكها ، وآثرت أن تنصب عدو فرنسا اللدود وعدو الكاثوليكية حاكما عليها . « إنى شديد الحسرة على انجلترا »(٢) ولقد فكر فيما سبق فى إثارة حروب صليبية ضد الأتراك : أين الزمن الذى كان يخطب فيه مادحاً القديس بيير دى نولاسك فى كنيسة الآباء « لامرسى » ، الزمن الذى كان يدهش فيه للتقدم العظيم المذهل الذى حققه الاسلام ؟ الزمن الذى كان يتألم فيه من عدم اكتراث الناس بالأتراك ، ذلك العدو الرئيسى ، أخطر إمبراطورية تشرق عليها الشمس ؟ « أى عيسى ، يا سيد

(١) صحيفة (لوديو) أول ديسمبر ١٧٠٣ « كان يقول لى ، وسط ذلك كله ، أشعر بأنى لم أعد أحتمل هذا العمل . فلتتحقق إرادة الله ! إنى على أتم استعداد للموت . والله قادر على إرسال من يذود عن كنيسته . ولو أنه أرجع لى قواتى لاستعملتها فى هذا السبيل » .

(٢) رسالة فى ٢٢ ديسمبر ١٦٨٨ ، إلى الأب بيرودوت ، à l'abbé Perroudot .

الأسياد ، أيها الحكم بين الدول ، والأمير على كل ملوك الأرض ، إلام تحتمل أن عدوك الأكبر ، وهو متربع على عرش قسطنطين العظيم ، يدعم دعوى محمد بقوة السلاح ، ويصرع هلاله صليبك ، وينتصر كل يوم على المسيحية بسيفه المجدود ؟ » عندئذ كان لويس الرابع عشر الشاب يبتسم لفكرة تلك المشروعات العظيمة . فلم يعد هناك محل الآن للذهاب إلى الشرق البعيد . اليوم لا أحلام ولا أوهام . كلما ذكرت الحروب الصليبية ، لم يكن المتحررون وحدهم يبتسمون ، بل يرى رجال الدين الأتقياء أيضا أنه يحسن أن يدعوا الأتراك فى سلام : فكان فاورى يقول ، لقد استفقنا من وهم الحروب الصليبية ، فلم يعد لها موضع إلا فى أمنيات الشباب الذين تدفعهم الحماسة أكثر مما تنيرهم المعرفة ، أو فى قصائد بعض الشعراء المداهنين .

وكان بوسويه كعادته دائما ، ثابتا لا يتزعزع . إلا أنه يمكن القول بأن الأمور أخذت تنزلق من حوله ، وتظهر فى لون جديد ، حتى إنه لم يعد يتعرفها . ولقد كان معتادا أن يحيطه الناس بصنوف الرعاية والتقدير ، وحتى فى وطيس الجدال كانوا يحترمون حماسته وشفقته وإخلاصه . ولقد غمره الأساقفة والأمراء الأجانب بمظاهر التقدير والتوقير . إلا أنه منذ استقر الاصلاحيون فى هولاندة ، لم يبق للمراعاة والتوقير أثر ، ولا حتى للأدب . بل إنهم أهانوه . إن جوريو Jurieu الذى لم يسلم من هجومه أحد ، كان يختص بوسويه بالهجوم . فاتهمه بالتنكر والخداع والكذب ، وأثار فى أخلاقه الريب ، واتهمه بمعاشرة خليلة . وكان فظا أغلظ له القول : إن بوسويه يدعو نفسه «مولاى» ها . . . ها . ! يظهر أن هؤلاء الأساقفة قد ارتفع مقامهم أيما ارتفاع منذ مؤسسى المسيحية ، الذين لم يكن لهم لقب غير خدام السيد المسيح . إن بوسويه خطيب متعاظم لا شرف له ولا إخلاص ، ولا عقل سليم لديه ولا احتشام ، وهو جاهل كل الجهل ، مجترئ مقحام . لكى ينكر امرؤ ما ينكره بوسويه ، يجب أن يكون صاحب جبين من نحاس ، أو أخا جهل عميق عجيب .

إلا أن بوسويه لم يكن من أولئك الذين لا يتأثرون بالاهانات ، أو أولئك الذين يجدون متعة فى إثارتها ، أو تلقيها . فقد كان يشعر بانفعال وغضب شديد يخون قدرته على احتمال الآلام : كان يتألم ويتعذب إذا تعلق الأمر بمن كان يكن لهم الحب مثل فنيلون ، أو إذا نجحت الاهانات فى المساس بسلطته ،

أو قللت من جدارته على تفسير كلام الله . ثم وقف جوريو فى طريقه الشاق الأليم يقذفه بالطين ، ويسميه رجلا لا شرف له ولا إيمان ، ويتهمه بالكذب والنفاق . عندئذ أصدر بوسويه صيحة ، بل نداء مؤثراً وجهه إلى الله المطلع على كل شئ ، والذى يدير كل الأمور لصالح الأرواح :

« رباه ، استجب دعائى ، يا رباه ! لقد بعثوا بى لأتلقى حكمك الرهيب كمفتر كذاب ، يلقى على « الاصلاح » تهمة الكفر ، والتجديف ، والخطأ الجسيم ؛ سفتر لم يتهم الاصلاح بتلك الجرائم فحسب ، بل اتهم أسقفا بأنه اعترف بها . ربى إنى اتهمت أمامك . . . فاذا كنت قد قلت الحق ، وإذا أقنعت بالتجديف والافتراء أولئك الذين أرسلونى لأتلقى حكمك كمفتر كذاب، كرجل لا إيمان له ولا شرف ولا ضمير ، فاللهم أدعوك أن تبيض وجهى أمامهم . ولتحمر وجوههم خجلا ، ولتفحمهم ، ولكنى أتوسل إليك يا رب أن يكون إفحامك لهم إفحاما شافيا فيه التوبة وفيه السلام . . . (١) »

***

إن كل ريح من الالحاد تجعله يرتعد . وقد كان على علم بكل ما طبعه المتحررون . ولم يقنع بمطالعة مؤلفات جروسيوس السوسنيانى : بل امتد بحثه عن مؤلفات كريليوس Crellius وسوسان Socin صاحب المذهب إلى شتى المكتبات ، لأنها المصدر الذى تسرى منه السموم إلى الأرواح . . . — لا تظنوا أنه يجهل المناقشات الدائرة عن استراليا ، ولا الاعتراض الذى يوجه إلى الكاثوليكية بدعوى أنها ليست دينا عالميا ، مادامت توجد قارة بأكملها عاش سكانها دون أن يسمعوا بالمسيح : إنه لا يجهل ذلك . فتسمعه يصيح « هيا إذن ناقشوا القديس بولس بل السيد المسيح أيضا ، ودللوا أمامهما بأراضى استراليا ، وحاجوهما فى المواعظ التى سمعتها الأرض قاطبة ! »
وهو لا يجهل شيئا أيضا عن أولئك الصينيين الذين يثيرون الحيرة

---

(١) الانذار الثانى إلى البروتستانت ١٦٨٩ الفصل الخامس عشر ص ٢٧٥ .
Deuxième avert. aux Protestants, 1689, éd, Lachat, XV, p. 275.

والارتباك : بل يشترك فى مؤامرة الارساليات الأجنبية ضد الجيزويت ،لاجبارهم على الاعتراف بأن المراسيم الصينية إن هى إلا وثنية . وقد اتخذ لديه قرار نشر الرسالة التى أرسلت إلى البابا عن « الوثنية والخرافات الصينية » ، قبل أن يطلع عليها الملك ، الذى ربما كان يتدخل لصالح الآباء الجيزويت . كما أن المبعوثين يحضرون إلى الأسقفية لاخباره بما يجرى هناك بجوار بكين : لقد حضر أسقف روزالى صباح اليوم وبعد الظهر لمحادثة أسقف مو عن شئون ذلك البلد وعن أخلاقه ، وعن مواهب تلك الشعوب . . . » . يا للاجتراء على الحديث عن كنيسة صينية من تجديف ! إن بوسويه يعلن فى سخط : « أنها كنيسة عجيبة لا إيمان لها ولا وعد ولا محالفة ولا أسرار ولا أقل أثر للشواهد الالهية ؛ كنيسة لا يعرف الناس فيها من يعبدون ولا لمن يقدمون القرابين ، إذا كانوا لا يقدمونها للسماء والأرض وما بها من آلهة كآلهة الجبال والأنهار ؛ كنيسة هى أخيراً كتلة مهوشة من الكفر والسياسة واللادينية والوثنية والسحر والتنجيم ! . . . »

وهو لا يجهل علماء التاريخ وعملهم العميق ؛ فلا عجب أن نجد فى مكتبته مؤلفات مارشام وكتابه «تاريخ الناموس الدينى لدى المصريين .» *Chronicus Canon Ægyptiacus* . ويتهم جان لى كلير بوسويه باقتباس كثير من آراء مارشام Marcham ونسبتها إلى نفسه . والحق أنه عندما نشر مقاله عن التاريخ العالمى فى عام ١٦٨١ أراد أن يسجل الانفعال الذى أهاج معاصريه على إثر ما اتضح من اختلاف بين التاريخ المقدس والتاريخ اللادينى ؛ وأنه وإن كان يفضل المعارف التقليدية الثابتة ، فقد اعتقد أن عليه على الأقل أن يشرح لولى العهد الأسباب التى تدفعه إلى الاحتفاظ بها . ما أشق علم التاريخ ! من جهة ، يقول لنا التاريخ المقدس كيف جمل « نبوخذناصّر » بابل التى كانت قد أثرت بغنائمها من الشرق ومن أورشليم ، وكيف أن امبراطورية بابل ، بعده ، لم تستطع احتمال قوة الماديين ، وأعلنت عليهم الحرب ، وكيف عين الماديون خورس ابن قمبيز ملك الفرس قائداً عليهم ، وكيف دحر خورس القوة البابلية وضم مملكة الفرس — التى لم تكن قد ازدهرت بعد — إلى مملكة الماديين التى كانت قد بلغت من القوة مبلغاً عظيما بفتوحاتها وانتصاراتها ، وهكذا أصبح خورس سيد الشرق بأسره غير منازع وأسس أكبر

امبراطورية شهدها العالم . لكن من جهة أخرى ، نجد أن المؤرخين اللادينيين مثل جوستان ، وديودور وأغلب المؤلفين اليونانيين واللاتين الذين بقيت لنا كتبهم ، يقولون بغير ذلك . فهم لا يعرفون أولئك الملوك البابليين ، ولا يذكرونهم فى كلامهم لنا عن الملكيات ، فلا ترى فى مؤلفاتهم أثراً للملوك المشهورين من أمثال تغلثفلاسّر ، شلمنأسر ، سنحاريب ، نبوخذناصّر(١) وغيرهم من الملوك المعروفين فى الكتاب المقدس والتواريخ الشرقية .

لا تصدق يا مولاى أولئك المؤرخين اللادينيين . لقد ضاعت بعض التواريخ اليونانية ، ولعلها كانت تذكر ما يذكره الكتاب المقدس . إن الروم — الذين نقل عنهم اللاتين — كتبوا متأخرين . وقد كانوا يهتمون بالبلاغة فى مقالاتهم أكثر مما يدققون فى أبحاثهم ، يريدون تسلية هلاس بقصص قديمة يبنوها على مذكرات مهوشة . لن تصدق بها ، فانما أنت تصدق بالكتاب المقدس ، فهو أكثر اهتماما بأمور الشرق ، ولذا فهو أقرب إلى الحقيقة ، حتى ولو لم نعلم أنه قد أملاه الروح القدس . . .(٢)

ولما نشر المقال ذاته فى عام ١٧٠٠ لثالث مرة ، عندئذ اتضح للناس ما كان يشغل ذهنه . فقد ظهر فى عام ١٦٧٨ كتاب الأب بزرون « قدم الأزمان » ، وظهر الردان اللذان دبجهما الأب مارتيناى والأب لوكيان فى عامى ١٦٨٩ ، ١٦٩٠ : لجمع بوسويه كتلة الأفكار والوقائع الواردة فى هذه الكتب . كان متضايقاً ، مثل علماء التاريخ ، من المصريين والأشوريين والصينيين ، الذين يطالبون بالقرون الطويلة لتعزيز تاريخهم ، حتى لجروا إطار التاريخ المقدس . فنصح ، مثلما فعل الأب بزرون — فى سبيل تذليل هذه الصعوبة الخطيرة ، بالتجاء إلى « الترجمة السبعينية » التى تسمح بخمسة قرون زائدة لاسكان أولئك المضايقين ، واضطر ، مثله أيضا ، أن يفاضل ، لأسباب تاريخية ، بين ترجمتين للكتاب المقدس ، لم تتفقا فى قياس الزمن . وما من شك فى أنه لم يتعرض طوال حياته لارتباك فى مثل هذه القسوة .

---

(١) تغلث فلاسر ، شلمنأسر ، سنحاريب ، ملوك أشور (العهد القديم ، الملوك الثانى اصحاح ١٥ ، ١٦) ونبوخذ ناصر ، ملك بابل . [المترجمان]

(٢) مقال عن التاريخ العالمى ، طبع ١٦٨١ ص ٤١ وما بعدها .

***

إن سيماءه الحقيقية ترتسم رويداً رويداً ؛ إنه ليس البنّاء الهادئ الآمن لكاتدرائية فاخرة شيدت على طراز لويس الرابع عشر ، بل هو أقرب إلى العامل المشغول المتعجل الذى يجرى و يهرول ليُصلح ثقوبا تزداد خطورتها يوما فيوما . إن بصيرته تمتد حتى المبادئ : إذ كان يراقب ، ويقيس الجهود الواسعة العظيمة التى يقوم بها الملحدون لتقويض أسس كنيسة الله .

إن سبينوزا ، بانكاره المعجزة ، يريد إخضاع الله لقوانين الطبيعة . آه ! فليحذر الناس أن تفتتن عقولهم بذلك الإله ـ الكون ، ذلك الإله الذى لايعدو كونه ظلا ! أما الله الذى عبده موسى فله قدرة أخرى : « إنه يستطيع أن يبنى وأن يهدم كيفما شاء ، إنه يعطى قوانين للطبيعة ، يقلبها أنى شاء . . . و إذا كان قد أتى بالعجيب من المعجزات ، لكى يثبت وجوده فى زمن كان قد نسيه فيه الناس ، وأجبر الطبيعة على الخروج على قوانينها الثابتة ، فانما أراد بذلك أن يثبت أنه السيد المطلق للطبيعة ، وأن إرادته هى القوة الوحيدة التى تحرك نظام الكون . . . » انظروا إلى الخليقة « يثبت الله بخلق الكون بكلمته ، أن لا شئ هناك يشق عليه ؛ ويثبت بانشائه متواتراً ، أنه سيد مادته وسيد فعله وسيد مشروعه كله ، وأنه لا يخضع فى أفعاله لأية قاعدة سوى إرادته المستقيمة دائما بذاتها . . . » . انظروا إلى الطوفان « حذار من التفكير فى أن الدنيا تسير وحدها ، وأن ما كان موجوداً من قبل ، سيبقى دائما على ما هو عليه ومن تلقاء ذاته . إن الله الذى خلق كل شئ ، والذى بقدرته يعيش ويبقى كل شئ ، سيغرق كل الناس وكل الحيوان ، أى سيدمر أبدع جزء من صنعه (١) .» إن بوسويه يفكر فى الخراب الذى يستطيع إله سبينوزا أن يولده فى الضمائر المسيحية ، ومن أجل هذه الضمائر فهو يرتعد من هذا الإله .

ومالبرانش أيضا يزعجه ، لأنه يجد فى أغوار فلسفته نفس التفكير . يقول بوسويه فى مرثيته لمارى تيريز النمسوية فى أول سبتمبر ١٦٩٣ « لشد

---

(١) مقال عن التاريخ العالمى ، القسم الثانى .

ما أحتقر أولئك الفلاسفة الذين يجعلون عقولهم مقياساً لمقاصد الله ، فلا يتصورونه إلا كواضع لنظام شامل ، بينما ترك الباقى يسير كيفما يسير ! كأنما هو مثلنا ، يملك نظريات عامة ، مهوشة ؛ وكأنما يمكن للعقل السامى ألا يتضمن بين مقاصده الأشياء الخاصة ، وهى وحدها ذات الوجود الحقيقى (١)» . وبوسويه يعترف بأن مالبرانش متواضع ، حسن المقاصد : ولكنه يعلم أن أشياعه ، مع كل ذلك ، يتجهون صوب الالحاد مباشرة . فاذا نحن نفذنا من القشرة المهوشة التى تغطى فلسفته إلى لبها ، لوجدنا تفسيراً للدنيا ينفى كل ما يخرق الطبيعة ؛ وهذا التفسير عينه يقوم على منهج يتضمن « مضار فظيعة » . إن الفقرة التالية من كلام بوسويه تنم عن نفاذ بصيرته وتظهر شخصيته بشكل يستحق الاعجاب :

« ينجم عن هذه المبادئ التى أسئ فهمها ، ضرر فظيع آخر يستولى على العقول من حيث لا تدرى . لأنه بحجة أنه ينبغى ألا نقبل إلا ما ندركه فى وضوح — وهذا قول وافر الصواب ، إذا خضع لبعض الحدود — فان كل امرئ يبيح لنفسه أن يقول : « أنا أدرك هذا ولا أدرك ذاك»؛ وعلى هذا الأساس وحده ، يوافق على ما يشاء ويرفض ما يشاء ، دون أن يفكر أن هناك ، بجانب أفكارنا البينة ، توجد أفكار غامضة وعامة تتضمن حقائق جوهرية ، يؤدى إنكارها

(١) يحسن بهذه المناسبة ذكر كلام لامارتين فى هذا الصدد . قال «الاعتقاد بأن الله يدير العالم بمقتضى قوانين شاملة وليست خاصة ، يعنى إنكار أهم صفات الله وقواته : اللامتناهى . فكما أن العناية الالهية ليس لها حدود ، فالله موجود فى كل جزء من خليقته بكليته ، كما هو موجود فى الكل بكليته ؛ بالنسبة لله فلا عدد ولا عظمة ولا صغر ولا شمول ولا تفصيل . عنده ، لكل ذرة عالم له من الأهمية ما لكل العوالم . والنسبة بين الأشياء ليست فى ذات الأشياء بل فى ذاته فقط . إنه القاعدة والعدد والمقياس لكل شىء ، واللامتناهى فى كل جزء من صنعه كما هو فيه ذاته ، وكوننا ننسب إلى الله هذا التعميم : هذه القوانين وهذه القواعد التى تطبق على مجموع لعدم إمكان تطبيقها على الفرديات ، هو تشبيه لله بالانسان وللامتناهى بالمتناهى . هذه غلطة فى ميتافيزيقا فولتير . وهى ليست إلا زلة فى الاستدلال أو عيبا فى التفكير تولد مئات الأخطاء فى الفيزيقا . وهى فى الأخلاق تولد أخطاء لا تقل عن ذلك : لأنه إذا كان الله لا يتأمل ولا يحكم ولا يجازى إلا الجنس البشرى فى عموميته ، فماذا تكون أخلاق الذات الفردية ، أخلاق كل واحدة من ملايين الأرواح التى تكون هذا المجموع البشرى الشامل ؟ (لامارتين فى *Cours Familier de Littérature* ، باب فولتير) . [المترجمان]

إلى قلب الأوضاع . فتنجم عن هذه الحجة حرية فى التقدير تؤدى إلى أن يجترئ الناس ، على قول كل ما يشاءون ، دون مبالاة بالتقاليد . . . (١) »

لكن ممن تستقى فلسفة مالبرانش ؟ من ديكارت . يفكر بوسويه ذاته فى عصر مفتون بالديكارتية ، كديكارتى إلى حد ما فيحلل و يميز ويدافع . إن ديكارت تجتمع فيه ثلاثة . أولها براهين ناجعة نافعة ضد الكفار والمتحررين، وثانيها نظريات فيزيقية تستطيع أن تطبقها أو لا تطبقها ، وهى نظراً لعدم أهميتها بالنسبة للدين ، ليس لها أهمية كبرى فى ذاتها ، وآخرها مبدأ يهدد الايمان :

« أرى . . . معركة كبرى تعد ضد الكنيسة باسم الفلسفة الديكارتية . أرى أنه يتولد فى أحضانها ، وعن مبادئها التى أسئ فهمها فيما أعتقد ، أكثر من إلحاد . و إنى لأستشف أن الاستنتاجات التى تستخلص منها ضد العقائد التى آمن بها آباؤنا ستؤدى إلى كره هذه الفلسفة ، و إلى تضييع كل الثمار التى كانت الكنيسة ترجوها منها ، لترسيخ قداسة الروح وأبديتها فى أذهان الفلاسفة (٢) . »

فلنذهب إلى أبعد من ذلك : ألا يحتمل أن تكون هناك حالة فكرية ، لم تكن الفلسفة الديكارتية فى أول الأمر إلا عرضاً لها ، ثم قوتها فيما بعد ؟ ألا يحتمل أن تكون هناك إرادة شاملة متأصلة فى الحياة ، هى مصدر كل شئ ؟ ألا يحتمل أن يكون هناك رفض هائل للخضوع للسلطة ، واحتياج لا يرد ولا يدفع للنقد الذى أصبح « المرض بل الشهوة السائدة فى هذه الأيام (٣) » . لقد راح الزمن الذى كان الانسان فيه خاشعاً أمام الله ، مطيعاً للملك ، واليوم جاء زمن « نهم الفكر » . وهنا تجمّل البلاغة الحقيقة التى يكشفها بوسويه ؛ ففى الكلمات الرائعة التالية يصف الخطيب الحالة الفكرية التى تظفر رويداً رويداً ، وتكتسب الضمائر ، والتى تروعه وتسبب له جزعا شديداً :

(١) رسالة إلى تلميذ لمالبرانش ٢١ مايو ١٦٨٧ ، A un disciple de Malebranche.

(٢) رسالة إلى هويه فى ١٨ مايو ١٦٨٩ ، Lettre à Huet, 18 Mai 1689.

(٣) بوسويه إلى رانسيه ١٧ مارس ١٦٩٢ «النقد الباطل الذى هو المرض والشهوة السائدة فى هذه الأيام» .

« إن منطقهم الذى يتخذون منه دليلا لهم ، لا يقدم لأذهانهم إلا فروضا وارتباكات ، والسخافات التى يقعون فيها بانكارهم للدين تصبح أصعب إثباتا من الحقائق التى يذهلهم سموها ، ونظراً لرغبتهم فى عدم الاعتقاد بأسرار لا تدرك ، فهم يقعون فى أخطاء متعاقبة لا تدرك . ماذا إذن أيها السادة إلحادهم المنكود هذا ؟ إن هو إلا خطأ ليس له نهاية ، إن هو إلا اجتراء يستخف بكل شىء ، إن هو إلا دوار اختيارى ، وبالاختصار كبر لا قبل له باحتمال علاجه ، أعنى لا قبل له باحتمال سلطة شرعية . لا تظنوا أن المرء لا تستولى عليه إلا المغالاة فى الشهوات ، فان المغالاة فى الفكر أكثر إغراء ، وهى الأخرى لها متع خفية ، ويهيجها التحريم . يظن هذا العظيم أنه يزداد رفعة عن كل شىء — حتى عن نفسه — حينما يخيل إليه أنه يرتفع فوق مستوى الدين الذى طالما احترمه ووقره ، إنه يضع نفسه فى صف أولئك الذين زالت عنهم الأوهام ، وهو يسخر فى قلبه من أولئك الضعفاء الذين لا يفعلون شيئا سوى اتباع الآخرين دون أن يقفوا على شىء من تلقاء أنفسهم ، وإذ يصبح ولا موضع لرضاه إلا نفسه ، فانه يتخذ من نفسه إلهاً (١) . »

* * *

لقد انعدمت البساطة ، وزال التوازن ، وامحت المقاييس ، يوم بدأ الناس لا ينقادون للسلطة ؛ واستسلم أتقى الناس وأعلمهم إلى أهواء غريبة ، فلم يعد المرء واثقا بشىء أو عارفا بشىء . ألم يفكر البعض فى نشر ، وفى إطراء مؤلف الراهبة الاسبانية مارى دى جيزو التى يقال إنها متصوفة ، بينما الحق أنها مجنونة ؟ والغلطة الوحشية التى ارتكبها عزيزه فنيلون . . . يحاول البعض الدفاع عن المسرح ، يريدون أن يثبتوا بكل وسيلة أن الكنيسة تسمح بتحرر المسرح ، ويعصرون كتب الآباء القديسين ليستخلصوا موافقتهم ، بل لقد اجترءوا على الاستشهاد بالكتاب المقدس ، مدعين أنه ذاته يتضمن ألفاظا تعبر عن الشهوات ، وأنه إذا كان الأمر يقتضى تحريم كل شىء يؤدى إلى عواقب سيئة ، فانه ينبغى تحريم قراءة الكتاب المقدس حتى باللاتينية ، مادام

(١) رثاء آن دى جونزاج ، طبع لاشا الجزء الثانى عشر ص ٥٥٢ ، *Oraison funèbre d'Anne de Gonzague*, éd, Lachat

الفصل الخامس

ليبنتز وإفلاس وحدة الكنيسة

« كان نحيل القامة ، شاحب الوجه ، أصابعه الضامرة تطيل يديه المعروقتين ، وكان بصره الكليل منذ أمد طويل ، قد حرمه من تلك المناظر التي تستولى على المرء بصورتها البصرية ؛ وكان يمشى محنيا رأسه ، ويكره الحركات العنيفة ، يستمتع بالروائح الجميلة ويجد فيها راحة وإنعاشا . ولم يكن يميل إلى الحديث ميله إلى التفكير والمطالعة فى عزلة ، على أنه إذا تبودلت أطراف حديث فقد كان يشترك فيه بكل سرور . وكان مشغوفا بالعمل ليلا ، قليل الاهتمام بالماضى ، بل لقد كان أقل تفكير حالى يشغل ذهنه أكثر من أكبر الأحداث البعيدة . لذلك كان دائما يكتب مقالات جديدة يتركها دون أن يتمها ، وكان ينساها فى اليوم التالى ، أو لا يقوم بأى مجهود للعثور عليها (١) . »

تلك هى صورة ليبنتز . ما أعنف شهوة المعرفة ، فى روحه المركبة ! إنها شهوته الأساسية . فهو مولع بمعرفة كل شئ ، إلى غاية الحدود النهائية للواقع الملموس ، وما وراءها حتى ميادين الخيال . إنه يقول : من شهد باهتمام صوراً أكثر من النبات والحيوان ، وعدداً أكبر من الآلات ، ونماذج أكثر من المنازل والقلاع ، ومن قرأ من الروايات الرائعة أكثر ، ومن سمع من القصص العجيبة أكثر ، فهو أكثر معرفة من غيره ، وإن لم يكن هناك ظل للحقيقة فيما شهد أو فيما سمع . . . وكان قد درس كل شئ : درس أولا اللاتينية واليونانية ، والبلاغة والشعر ، حتى إن أساتذته ، وقد ريعوا لشهوته المنهومة ، خشوا أن يبقى حبيساً لدراسته الأولى ، ولكنه فى نفس

---

(١) جان باروزى ، ليبنتز (الفكر المسيحى) ص ١٠ - ١٢ ، Jean Baruzi, *Leibniz* (la pensée chrétienne. p. 10 - 12)

هو السبب البرىء لكل الالحاد ، ومن من فضلكم يتفوه بتلك الحماقات والتخرصات ؟ إن هو إلا راهب ، الأب كافارو — إن الناس ينتقلون من مغالاة إلى مغالاة ، وبحجة طاعة الملك يكادون يعصون البابا ، وتوشك الكنيسة الفرنسية أن تصبح كنيسة انفصالية ، لولا وجود بوسويه ليعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وتتوالى الضربات بلا انقطاع ، ولابد من الانتقال من دفاع إلى دفاع ، بل لابد من وجوده فى كل ميدان . لشد ما يريد أعداؤه أن يزول من الميدان ! وهم من آن إلى آن يذيعون الشائعات بأن داء القلب قد صرعه ، بل يؤكدون أن ريشار سيمون قال : « دعوه يمت ، فلن يطول به الوقت . » ولكن بوسويه يقاوم على الدوام .

ولعل ذلك ، ومعيشته فى حالة حذر مغيظ ، وفى حالة مجهود لا ينقطع ، هو السبب فيما اتخذ من لهجة قاسية وحشية ليلعن كل ما يتعلق بالدنيا الخداعة : شهوة الجسد التى تسقطنا إلى أسفل سافلين ، وشهوة العيون ، وشهوة الفكر . ولا شئ يكتسب رضاه إزاء عنفه وصرامته ، لا الرغبة فى التجربة ولا فى المعرفة ، ولا الميل إلى التاريخ ، ولا العلم إذا بدا فى صورة كبر ، ولا حب المجد ولا التعلق بالبطولة : ومن أجل اشمئزازه من أخطاء الناس ، يخرج عن الانسانية . وهو لهذا السبب ينشد « العلوى » ، مدفوعا بقلب يبتغى السلوان. عندئذ يرجع إلى الانجيل ، لا للمناقشة بل للتفكير فى التقوى ، ويستسلم للذات المحبة ، وملذات الايمان : « اقرئى يا روحى مرة أخرى هذا الأمر الرقيق بالمحبة . . . » ويصعد بوسويه من قمة إلى قمة حتى يبلغ عنان السماء ، فيصل إلى تلك الدرجة الجليلة حيث الصلاة والشعر يمتزجان ، وحيث لا يعبر لسانه عن شعور سوى تلهفه الكلى للوصول إلى الحقيقة والجمال اللذان سيبقيان على الدوام .

هذه اللحظة فر من قبضتها . فانتقل من الفلسفة المدرسية واللاهوت إلى الرياضيات ، حيث كشف فيما بعد عن مخترعات فذة عبقرية ، ثم انتقل من الرياضيات إلى القانون . وعكف على دراسة الكيمياء القديمة (السيمياء) ، منقبا عن الغامض والنادر ، وعما قد يوصل ، بطرق تمتنع على الرجل العادى ، إلى شرح المظاهر . كل كتاب وكل رجل يقابله مصادفة ، كان له بمثابة تحريض على المعرفة . أما أن يستقر « كن ثبت بمسمار » ، فى مكان معين ، أو فى نظام ، أو فى علم ، فهذا ما لا طاقة له عليه . أما أن يختار عملا معينا ، أن يصبح محامياً أومدرسا ، أن يستسلم لأعمال بعينها كل يوم فى نفس الموعد — فلا ! وارتحل ، فجاس خلال ألمانيا بلدة بلدة ، وفرنسا وانجلترا وهولاندا و إيطاليا ، وزار المتاحف وتردد على المجالس العلمية ، ودعم فكره وأغناه بألف اتصال ، جاعلا من حياته كسبا مستمراً وغنما . ثم وافق على أن يكون أمينا لمكتبة ، مصيخا سمعه للنداء المستمر لكل الأفكار البشرية ؛ ومؤرخا ليحتضن أكثر ما يمكنه احتضانه من الماضى ومن الحاضر ؛ ومراسلا عالميا ؛ ومستشاراً للأمراء ؛ ودائرة معارف دائمة الاستعداد للاستشارة . ولكن رسالته فى الحياة كانت أن يمثل فى العالم قوة ديناميتية لا تفرغ ، لأنها لم تتوقف يوما عن التزود بالوقائع والأفكار والمشاعر الانسانية .

وقد انبثقت من ضميره العامل الناشط ، الذى يحرك ويقلب مكاسبه من كل نوع ، المخترعات النافعة والنظريات الفلسفية أو الأحلام الخصبة . فانتهى إلى امتلاك ناصية كل العلوم وكل الفنون ، فضلا عن المواد اللانهائية التى أقام عليها منشآته المثالية . كان — كما قيل — « عالما رياضيا ، طبيعيا ، سيكولوجيا ، منطقيا ، ميتافيزيقيا ، مؤرخا ، قانونيا ، فيلولوجيا ، دبلوماسيا ، لاهوتيا ، أخلاقيا . » وفى هذا النشاط الفذ ، الذى نظن أن أحداً من بنى الانسان لم يسبقه إليه ، لم يكن يعجبه شئ — قبل كل شئ — مثل التنوع : إننا نستمرئ التنوع Utique enim delectat nos varietas .

لكننا نستمرئ أيضاً اختزال الأشياء إلى الوحدة Utique delectat nos varietas, sed reducta in unitatem . اختزال الأشياء إلى الوحدة : تلك هى فى الواقع الشهوة الثانية لدى ليبنتز ، الذى لا يتأثر بالتعارض تأثره بالاتساق ، والذى يهتم بكشف سلسلة التدرج الواهية التى تصل بين النور والظلام ، وبين الفناء

واللامتناهي . كان يبتغي أن يوحد العلماء فيما بينهم : أو ليس السبب فى بطء تقدم العلم انفراد أولئك الذين يزاولونه ؟ فلتنشئوا المجامع العلمية فى كل البلاد ، ولتتصل هذه المجامع بين كل شعب وشعب ، حتى تخصب تلك القنوات الفكرية الأرض بأمواج المعارف الجديدة . بل أكثر من ذلك ! فان ليبنتز يريد تأسيس لغة عالمية . والحق أن الدنيا مشهد أليم للتنافر والاختلاف : فالحواجز فى كل مكان، والطلبات لا تلقى الجواب ، ووثبات نحو اليقين ، مقضى عليها بالضياع هباء : ارتباك مقيم من أجيال . أفليس فى الامكان على الأقل إزالة بعض العقبات التى يصدم مرآها العقل ؟ أيتعذر ، فى البداية ، التفاهم على معانى الألفاظ ؟ سنخترع لغة توافق الجميع ، ولا تسهل العلاقات الدولية فحسب ، بل تحمل فى ذاتها صفات الوضوح والدقة والمرونة والغنى ، حتى تصبح معقولة بديهية محسوسة . فنستعملها فى كافة أعمال الفكر كما يستعمل الرياضيون الجبر : إلا أنها ستكون جبراً ملموساً ، كل حد فيه يعطى صورة لعلاقته الممكنة باللفظ الذى يجاوره لأول وهلة . فيكون لدينا مقياس بيانى عالمى ، يمكن اعتباره أدق أداة استعملها عقل الانسان .

إنه يتألم لانقسام ألمانيا ، وانقسام أوربا التى يود أن يهيئ لها السلام ؛ إلا أنه يوجه نحو الشرق ما يفيض من نشاطه المجاهد . ولو أننا نفذنا إلى أغوار عقله العميقة لوجدنا فيها نفس الرغبة . إن كشفه الكبير فى الرياضيات، حساب النهايات الصغرى *Calcul Infinitésimal* ، هو الانتقال من المنفصل إلى المتصل ؛ وقانونه السيكولوجى الكبير هو قانون الاستمرار : إحساس واضح يتصل بأحاسيس غامضة تقودنا رويداً رويداً ، بسلسلة من التدرج غير المحسوس ، إلى الاختلاج الأول للمجهود الحيوى (١) . إن الاتساق هو

---

(١) حساب النهايات الصغرى : أو فن قياس ما لا نعلم وجوده بالدقة ، إخضاع اللانهائى لحساب الجبرى . ارجع إلى الرسائل الفلسفية لفولتير Voltaire, *Lettres Philosophiques* الرسالة السابعة عشرة عن اللانهائى وعلم التاريخ .

وعن تدرج الكائنات ونظرية إفلاطون : انظر إلى القاموس الفلسفى لفولتير (باب سلسلة الكائنات) *Dictionnaire Philosophique* : « لما قرأت إفلاطون لأول مرة ورأيت هذا التدرج فى الكائنات ، حيث تصعد من أصغر ذرة حتى «الكائن السامى» تعجبت ، ولكن عندما نظرت باهتمام فى هذا التدرج ، زال هذا الشبح الكبير ، مثلما تزول الأحلام فى الصباح ، على صياح الديك ».

=

الحقيقة الميتافيزيقية العليا ، تذوب فيه الفوارق التى كانت تبدو مستحيلة التحويل ، والتى تتجمع فى وحدة ، يجد كل منها مكانا فيها ، طبقا لنظام إلهى . إن الكون كورس Chœur كبير ، يتوهم المرء أنه يغنى فيه أغنية بمفرده ، ولكن الواقع أنه يتبع من جهته « دوراً » هائلا ، رتبت فيه كل « نوتة » بحيث تتوافق كل الأصوات ، وبحيث يكون المجموع « كونشرتو » أكمل من انسجام الأفلاك الذى داعب خيال إفلاطون (١).

ولنقرأ هنا الصفحة الرائعة التى سجل فيها إميل بوترو Emile Boutroux الصعوبات التى لاقاها عقل مثل هذا العقل فى الوقت المعين الذى جاء فيه إلى الدنيا . — « إن الظروف التى عرضت لمهمته ليست كالظروف التى عرضت للقدماء ، لأنه يجد نفسه أمام اختلافات ومتناقضات قوتها الديانة المسيحية والتفكير الحديث ، الأمر الذى لم يعرفه الأقدمون . فالعام والخاص ، والمحتمل والحقيقى ، والمنطقى والميتافيزيقى ، والرياضى والفيزيقى ، والآلية والغائية ، والمادة والفكر ، والتجربة والفطرة ، والصلة العالمية والاختيارية ، وتسلسل العلل والحرية الانسانية ، والعناية الالهية والشر ، والفلسفة والدين ، كل هذه النقائض — التى كشف عنها تحليل عناصرها المشتركة — تختلف الآن حتى ليخيل إلينا أن التوفيق بينها ضرب من المحال ، وأن اختيار أحد الاثنين وصرف النظر عن الآخر نهائيا ، يبدو كأنه يفرض نفسه فرضاً على كل فكر معنى بالمنطق والوضوح . والهدف الذى يرمى إليه ليبنتز هو العودة إلى مهمة

= ولما كان لليبنتز مكانة سامقة فى عالم الفلسفة ، فلعل القارىء يهمه أن يقرأ بعض المراجع عنه وعن فلسفته : بول جانيه Paul Janet « مصنفات ليبنتز الفلسفية » طبعة فليكس ألكان Félix Alcan فى جزئين ، باريس ١٩٠٠ . وليبنتز ، مصنفات مختارة ، كلاسيك جارنييه يقدمها ل . برينان . وكتاب فلسفة ليبنتز ، للمؤلف ن . رسل Russel ترجمة م . راى التى حازت تقدير الأكاديمية (طبع فلكس ألكان، باريس) . وكتب أوليه لابرون Ollé-Laprune عن العلاقات بين ليبنتز ومالبرانش فى كتابه القيم : مالبرانش ، طبع لادرانج ، ١٨٧٠ فى الجزء الأول ص ٢٨ . وقد دارت بين بطلى الفكر هذين رسائل عدة ، أوردها ف . كوزان V. Cousin فى كتابه «مقتطفات من الفلسفة الحديثة» . الطبعة الخامسة ، باريس ، ١٨٦٦ . [المترجمان].

(١) لنا عودة إلى هذه الفلسفة ، فى القسم الرابع من هذا الكتاب ، الفصل الخامس : ميتافيزيقا الجوهر .

أرسطو ، والبحث فى وحدة وفى اتساق الأشياء ، الأمر الذى يبدو أن العقل الانسانى قد عجز عن إدراكه ، أو لعله قد رفض قبوله (١) .»

وهكذا أراد هذا الذهن الوقاد الجدير بالاعجاب ، الجسور الهادئ معاً ، فى زمن كانت تتبارز الأفكار فيه بشدة لم يسبق لها مثيل ، وفى هياج وسخط شديد — أراد أن يتسامق فى وجهة نظر عالية ، بحيث يبدو له كل اختيار بطرح نقيضا ، لا كعلامة قوة بل كعلامة ضعف وإذعان . ترى هل ينجح فى مقصده؟ عندما ينزل ليبنتز إلى ميدان الواقع ، منتقلا من البحث النظرى إلى التطبيق العملى ، ومنتويا أن يعالج الضمير الدينى لمعاصريه — الضمير المقطع الأوصال المثخن بالجراح — بدواء التوفيق : فالسؤال هو هل يتوصل إلى نتيجة ، أو لا تسفر جهوده إلا عن إضافة فكرة استعصاء الاصلاح إلى الشقاق القديم . بين هذه المعتقدات التقليدية ، هل كان يمكن لانسان مهما أوتى من عبقرية أن ينقذ الروح المسيحية ؟

***

لا يكاد المرء يلقى نظرة على أوربا ، حتى يرى جرحا يصدم العيون : فلقد تحطمت وحدتها المعنوية منذ حركة الاصلاح ، وانقسم سكانها إلى حزبين يتواجهان . فغدت الحروب والاضطهادات والمنازعات والاهانات ، الحياة اليومية لهؤلاء الاخوان الأعداء . فالواجب الأول على كل حالم بالانسجام أن يعالج شراً يزداد استفحالا واستشراء . والواقع أنه منذ عام ١٦٦٠ تجدد العراك بين الكاثوليك والبروتستانت : ترى أما لهذا الشطط من حد؟ فلو أن هذا العراك استمر لكان وبالا على الايمان ، على كل إيمان؛ لأن المتحررين، وناكرى الوحى ، والكافرين يشنون على العقيدة حربا شعواء ، تزداد كل يوم اجتراء ، ولا تجد فى ملاقاتها إلا قوات متفرقة منقسمة . أما إذا توصل البروتستانت والكاثوليك إلى التفاهم ، فان المسيحيين المتفقين — بما يجدون

---

(١) إميل بوترو Emile Boutroux : مقدمة *La Monadologie* ، ١٨٨١ . وهو كتاب ليبنتز الشهير ألفه بالفرنسية فى ١٧١٤ يشرح فيه مبادىء نظريته فى (الموناد) Monade وعن «الاتساق المقدر» (انظر القسم الرابع من هذا الكتاب) . [المترجم]

فى اتحـادهم من قـوة لا تغلب — يكونون جبهة ضد الالحاد ، وينقـذون كنيسة الله .

سوف يساهم ليبنتز بكل قوته فى سبيل هذا التوفيق . وهو عليم بمزاعم الجانبين ، وقد درس كتب الجدال دراسة طويلة ، بل هو يعلم أنها لا تتضمن فى عمومها شيئا ذا قيمة . ولقد خبر الناس . وهو ليس شخصاً أيا كان ، لأنه أثبت باكتشافاته أنه جدير بثقة المفكرين وأهل للتقدير : ففى كل أرجاء أوربا علماء أعلام فى مقدمة الصفوف يشهدون له . وهو بروتستانتى لوثرى : ولكنه — طبقا لكلمة رائعة له — فى مقصد جميل كمقصد الوحدة ، « لا يريد أن يميز الشئ الذى يميز distinguer ce qui distingue » . وهو لكى يجد منهجا ، ليس عليه إلا أن يتبع ميول طبيعته : أن يثبت أن أوجه الخلاف ليست جوهرية ، وأن أوجه الشبه عديدة تكاد تبلغ الوحدة التامة ، وأن يحقق إجماعا عاما على أبسط مبادئ الايمان ، وهى الأعمق .

ومنذ رحلته إلى باريس ، كان قد أعلن — لدى أرنو زعيم الجانسينية — دعاء Pater Noster ، يقول إن كل شخص يمكنه أن يقبله : « اللهم ، أنت الأحد ، وأنت الصمد ، أنت القادر على كل شئ ، وأنت الاله الواحد الحقيقى المستولى على كل القلوب ؛ وإنى أنا المخلوق الحقير ، لأومن بك وآمل فيك ، أحبك أكثر من كل شئ ، وأصلى لك ، وأمجدك ، وأحمدك ، وأسلم روحى إليك. اللهم اغفر لى ذنوبى ، وجد على جودك على كل الناس ، بما تراه إرادتك مفيداً لخيرنا فى الدنيا ، ولخيرنا فى الآخرة ، وقنا كل شر . آمين . » إلا أن أرنو رفض هذا الدعاء بدعوى أنه لا يتضمن اسم المسيح . وسيوجد على الدوام قوم يرفضون هذه الصيغ ، ولن تكون المهمة يسيرة ، ولكنه على الأقل كان يود الشروع فى إنجازها . ولو أنه نجح لحقق الانسجام ، ناموس الكون . ولو أنه أخفق لكانت المسئولية على الآخرين ، على العنيدين والعميـان ، الذين سيطيلون الشقاق ، ويجعلونه مستحيل الاصلاح ، ويعملون على إتلاف الضمير الدينى فى أوربا .

وبدأت محاولات تقرب وئيـدة تمتد عـلى مر السنين . فى عام ١٦٧٦ لما كان ليبنتز يجرب حظه فى دراسة « السيمياء » ، تقابل فى (نورمبرج) مع أحد أشيـاعه وهو البـارون بوانبورج Le Baron de Boinebourg

ـــ البروتستانتي المرتد ـــ والذى كرس كل حياته فى سبيل مفاوضات « iréniques »، كما كانوا يقولون حينذاك . واصطحبه البارون بوانبورج إلى فرانكفورت ثم إلى بلاط مايانس Mayence حيث كانت المنازعات الدينية فى ذروتها . ولما آب من باريس ، وقبل وظيفة أمين مكتبة فى هانوفر عام ١٦٧٦ ، وجد فى شخص الدوق جان فردريك ـــ الأمير الكاثوليكى الذى يحكم رعايا من البروتستانت ـــ الرجل الذى تأمل روما فى هداية شمال ألمانيا عن طريقه . وازدادت الحركة سرعة ، وبدأ هرج الممثلين على مسرح هانوفر : أرنست أوجست خلف جان فردريك ، والأسقف سبينولا ، الذى يحميه الامبراطور ، والذى ينتقل بين فينا وولايات ألمانيا وروما ، لينسج خيوط الوحدة . وفى عام ١٦٨٣ يعد سبينولا صيغة كأساس لاتحاد كل المسيحيين : Regulae circa christianorum omnium ecclesiasticam reunionem . ويجتمع رجال اللاهوت من الطرفين ، ويعقدون المجالس ، ويوحى من سولانوس قسيس لوكم ـــ الراجح العقل الكريم القلب ـــ يعدون منهجاً يرجى أن يؤدى إلى التوفيق المنشود : Methodus reducendae unionis ecclesiasticae inter Romanenses et Protestantes مشروع فى سبيل اتحاد الكاثوليك مع البروتستانت .

وذهب ليبنتز إلى أبعد مما ذهب إليه الجميع . ففى الوقت الذى يعد فيه فسخ أسرنانت فى المملكة الفرنسية وينفذ ، ودون اكتراث للشدائد العابرة ، ومقتنعاً بأن روح الوفاق هى الحقيقة وهى الحياة ، نجده يفكر ، ويؤلف إقرار الايمان المعروف باسم *Systema theologicum* ، فى لهجة بالغة الخطورة رائعة الجمال : بعد أن التمس العون الالهى بصلوات طويلة حارة ، مجتنبا بقدر ما فى طوق البشر ، روح التحزب ؛ متأملا فى الخلافات الدينية « كما لو كنت مقبلا من عالم جديد ، حديث عهد بالدين ، غريباً عن كل تعميد ، حراً من كل القيود ، توقفت بعد تفكير عميق عند النقط التى سأتناولها بالشرح والتفسير : لقد آمنت بها لأنى خلت الكتاب المقدس ، ونفوذ الزمن القديم ، والعقل السليم المستقيم ، وشهادة الواقع الوثيق ، قد اجتمعت كلها على إقناع كل شخص متجرد من الاعتقادات الباطلة . . . »

ترى عن أى اقتناع يتحدث ؟ نظراً لأنه لم يقتصر على فحص العقائد ،

ووجود الله ، وخلق الانسان والكون ، والخطيئة الأصلية ، والأسرار الدينية فحسب ، ، بل تعدى ذلك إلى أكثر النقط تعرضا للنقاش من الوجهة العملية للدين ، كالنذور ، والمراسيم ، والصور ، وعبادة القديسين ، فقد اقتنع بأنه لا شئ يحول دون تقارب الكاثوليك والبروتستانت ، واتحادهما ، وأنهما ، بتنازل كل منهما عن بعض الصعوبات الظاهرية ، يردان الوحدة إلى الايمان . أنظر كيف يتكلم عن الأنظمة الرومانية ، التى تثير فى رفاقه فى الدين — اللوثريين — السخط أو الاحتقار :

« أعترف بأن المؤسسات الدينية ، الجمعيات المقدسة ، وكل ما شاكل ذلك ، كانت دائما موضع إعجابى بنوع خاص . إنها تبدو كجيش سماوى يحارب على الأرض ، بشرط أن يبعدوا عنها كل سوء استعمال وكل فساد ، وأن يديروها طبقا لروح مؤسسيها وقواعدهم ، وأن يطبقها الأب الأقدس على شئون الكنيسة العالمية » .

وأحسن من ذلك قوله :

« وهكذا ، فان النغمات الموسيقية ، وتوافق الأصوات الرقيق ، وشاعرية الأناشيد ، وقدسية البلاغة ، وتألق الأضواء ، وشذا العطور ، والثياب الفاخرة والآنية المطعمة بالجواهر الكريمة ، والهدايا القيمة ، والتماثيل والصور التى توحى بروح التقوى ، وقوانين العمارة العلمية ، والتنسيقات الفنية ، والمراسيم الاحتفالية ، والزينات الثمينة التى تجمل الشوارع ، وأصوات النواقيس ، أو بالاختصار كل مظاهر التمجيد والتشريف التى تحب الشعوب أن تجود بها فى سبيل التقوى والعبادة ، لا تجد عند الله — فيما أرى — ذلك الاحتقار الذى يتظاهر به فى أيامنا هذه ، بعض الناس بتواضعهم الحزين ؛ وهذا على كل حال مايؤيده المنطق والوقائع معا . . . »

فهل هناك — بعد ذلك — موضع للعجب إذا رأينا روما ، التى اقتاده إليها فى عام ١٦٨٩ وظيفته كمؤرخ وحب استطلاعه العالمى ، تعرض عليه منصب مدير مكتبة الفاتيكان ؟ أفلم يكن يحق للناس أن يعتقدوا أنه كاثوليكى مخلص ، وأنه يوشك أن يهتدى ؟

***

بوسويه ؛ بوسويه هو الرجل الذى يقتضى النجاح اللحاق به : « إنكم قديس بولس آخر ، لا تقتصر أعماله على شعب واحد ، أو بلد واحد : بل تنطق مؤلفاتكم فى الوقت الحاضر بأغلب لغات أوربا ، وينشر أشياعكم انتصاراتكم فى لغات لا تعرفونها (١) . . . »

اعتقد بوسويه من زمن طويل أنه يمكن التغلب على البروتستانت بالمجادلة والمحاجة . ولما نشر فى عام ١٦٧١ كتابه « شرح المذهب الكاثوليكى » *Exposition de la doctrine catholique* ، كان يبدو كأنه يمد إليهم يده ويفتح لهم ذراعيه وكان — كما فعل ليبنتز — لا يريد أن يميز الشئ الذى يميز ، بل كان يصر على الشئ الذى يستطيع أن يوحد . ولقد خلص المذهب الكاثوليكى مما حمله المفسدون والمتغالون من غموض وارتباك ، وأثبت أن العقائد الأساسية كانت واحدة مشتركة ، وشرح عبادة القديسين ، وتكريم الصور والبقايا المقدسة وعفو الكنيسة وأسرارها والغفران فى أسلوب ينم عن روح المصالحة ، وبرر التقاليد وسلطة الكنيسة ، وأوضح أن الاعتقاد بسر تناول القربان المقدس هو أساس الصعوبة الوحيدة الحقيقية ، ولو أن هذه الصعوبة لا تستعصى على الحل : فكان ذلك كله حركة كريمة صادقة منه ، حتى إنها أثرت فى العالم البروتستانتى بأجمعه ، بل لقد اتهم البعض كتابه هذا بأنه يتضمن لوثة من التحرر ، لا تتفق والأرثوذكسية ؛ ولكن الكتاب انتصر بالرغم من ذلك لفوزه بموافقة الأساقفة والبابا نفسه ، ولقى رواجا كبيراً فى أوربا : « سيكون لشرحنا هذا لمذهبنا ، أثران طيبان ، أولها أن كثيراً من المنازعات ستزول زوالا تاما ، لأن الناس سيعرفون أنها كانت تقوم على تفسير باطل لعقيدتنا ؛ وثانيهما أن ما سيتبقى من فوارق لن يبدو — حسب مبادئ الاصلاحيين ، les Réformés أساسيا إلى الحد الذى زعموه وحاولوا إقناع الناس به ، وأنه طبقا لهذه المبادئ نفسها ، لم يكن فى هذه الفوارق ما يجرح أسس الايمان . »

صحيح أنه قد امتدح (فسخ أسرنانت) ، الذى كان يبدو له منطقياً ،

---

(١) لورد بيرث إلى بوسويه ، ١٢ نوفمبر ١٦٨٥ ، Milord Perthe à Bossuet 12, Nox. 1685

الأمر الذى أوسع الخرق بينه وبين البروتستانت ؛ فيوم خطب عن كلمات الانجيل « ألزمهم بالدخول » Compelle intrare ، أمام البلاط مجتمعاً فى يوم الأحد ٢١ أكتوبر عام ١٦٨٥ ، لم يكن بد من أن يعده البروتستانت لا فى صف خصومهم فحسب ، بل عدوا لهم أيضاً . ونحن نعرف كيف أثار نشر « تاريخ تبدلات الكنائس البروتستانتية » فى عام ١٦٨٨ عواصف عنيفة . ففى خلال أشهر ، وفى خلال سنين ، ظهرت مناقضات وردود ، وردود على الردود ولم يكن فى هذه أو تلك شئ من الرقة : « ليس من اللازم أن نشرب كل ماء البحر لندرك أنه مر ، كما أنه ليس من اللازم أن نحتفظ فى ذاكرتنا بكل الاهانات التى يوجهها الناس إلينا ، لنشعر بالحقد الذى يضمرونه لنا (١) . »

وهنا تدخل المسألة فى مرحلة خطيرة وتصل إلى درجة مؤثرة . كيف يمكن ، بعد فسخ أمر نانت ، البحث فى وحدة الكنائس ؟ ومع ذلك فقد كانت هذه الوحدة مرغوبة من كل جانب ؛ ففى السويد وفى انجلترا وحتى فى روسيا قوم يحاولون جمع أصحاب الارادة الطيبة فى صف واحد . ولكن كيف يمكن التفكير فى المصالحة والتوفيق بينما القادة لا يكفون عن العراك ؟ ومع ذلك فقد كان هذا حلم ليبنتز ، الذى التمس المعونة من بوسويه .

وهما سيتفاوضان ، إن لم يكن بلحمهما ودمهما ، فعلى الأقل بأفكارهما وإرادتهما ، لا جالسين متواجهين ، بل بحرص ودقة كأنهما يجلسان سويا فى بهو مهيب تحت ظل الصليب . وبمعونة بعض الموقفين ، وفى ظل الغموض الذى يتمشى مع المفاوضات الشاقة الطويلة ، ينشب بين هاتين الروحين العظيمتين جدال مؤثر أليم .

***

إذا استثنينا فترة تبادل الرسائل والمجاملات ، فان الجدل أخذ يحمى ويتسع ابتداء من عام ١٦٩١ . وألقت جمهرة صغيرة من أصحاب الأرواح المتدينة فى فرنسا نظرة أمل ورجاء نحو هانوفر : بليسون Pellisson صديق فوكيه (٢)

(١) التعليمات الثانية الارشادية عن وعود المسيح لكنيستة ١٧٠١ طبع لاشا جزء ١٧ ص ٢٣٩ *Seconde Instruction pastorale* 17,01 .

(٢) فوكيه Fouquet : وزير مالية فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر . [المترجمان]

القديم ، الذى سجن فى الباستيل ثم حرر وأصبح كاثوليكيا بعد أن كان بروتستانتيا ، يسعى بروح مشتعلة فى سبيل وحدة الكنيسة التى فارقها مع الكنيسة الرومانية ؛ ولويز هولاندين Louise Hollandine أخت دوقة هانوفر التى اعتزلت فى دير موبيسون بعد ارتدادها عن البروتستانتية ؛ والسيدة دى برينون Mme de Brinon سكرتيرتها الناشطة المتحمسة فى سبيل الله . ومن يعرف ؟ لعل دوقة هانوفر تهتدى بدورها ؟ ولعل زوجها يحذو حذوها ! ولعل هذه الأرض الهانوفرية ذات المنبت الطيب تغل محصولا مجيداً ! لقد بدأ تبادل الاشارات : فليبنتز وبليسون يتراسلان ، ويتحاجان ، ويبدأ كلاهما يقدر الآخر ويحبه على بعد المدى . وإذا ببوسويه يهب ويدخل الميدان .

وهاهما يبدآن الجدال . وليبنتز يبحث عن منفذ للمصالحة ، عن أقل النقط حراسة أو أضعفها دفاعا لينفذ إلى داخل القلعة ، وهى النقطة التالية : يمكننا أن نخطئ فى مسائل الايمان دون أن نكون خوارج أو ملحدين ، بشرط ألا نكون عنيدين . إذا كان البروتستانت يقبلون أن كل مجلس عام للكنيسة concile œcumenique يعبر عن الحقيقة فيما يختص بالسلام ، أو إذا كانوا على خطأ فى تفكيرهم أن «مجمع ترنت» الذى قرر الانفصال النهائى ، لم يكن له صفة العمومية ، فهم على الأقل يخطئون بسلامة نية ، فلا هم خوارج ولا هم ملحدون ، وبارتضائهم ترك الأمر لحكم مجلس عام يجتمع فى المستقبل ، فهم يظلون روحياً خاضعين لوحدة الكنيسة . . . يا للأمل العظيم ! ويا للخطوة التى نخطوها فى سبيل سلام الأرواح ، لو حبذها بوسويه !

إلا أن تغيير القرارات التى وضعها مجلس عام ، بحيث يعد هذا المجلس باطلا وكأنه لم يكن — هذا هو ما لن يسمح به بوسويه بتلك السهولة . « لكيلا نخطئ فى مشاريع الوحدة هذه ، ينبغى أن نعرف جيداً أن تساهل الكنيسة الرومانية ، فى بعض المسائل غير الجوهرية ، حسب مقتضيات الزمان والظروف ، لا يعنى على الاطلاق تساهلها فى أية نقطة تتعلق بالمذهب المبين ، وخاصة المذهب الذى وضحه مجمع ترانت » . فالسماح ببعض الترضية للوثريين ، مثل تناول القربان ، هذا ممكن . أما التنازل فيما يخص مبدأ السلطة ، الحجر الأساسى للكنيسة ، فكلا بكل تأكيد . إذن فهو بطريقته العنيفة ، التى لا تتفق والدبلوماسية ، يختار الهجوم : فاذا كان السيد ليبنتز يؤمن

بالكاثوليكية ، إذا كان يعلن قبوله للمبادئ التى هى روح الكاثوليكية ، فهل هناك أيسر من ذلك؟ فليعتنق الكاثوليكية !

ولكنه مخطئ ، إنه لا يعرف خصمه جيداً . إن ليبنتز لن يجاوز ذلك الهامش الغامض ، ذلك الحد الواهى ، الذى يفصله عن الكنيسة الرومانية . وهو لن يجاوزه أيضا ، لأن ذلك عنده مسألة ضمير شخصية ، لا يجوز أن تتعرض لأى ضغط من أية قوة خارجية ، ولا سيما أن المسألة الجوهرية ليست فى ذلك . فالأمر الذى يعنى البروتستانت ، ليس التنازل بل الوحدة . وهو نفسه مفاوض وليس هاربا خائنا . فليعلم بوسويه ذلك جيداً ، وليدع تلك الأساليب، أساليب العجرفة والتعجيل . وليدرك الفرق بين المصالحة وتغيير الدين : « لقد قطعنا مرحلة كبيرة فى سبيل تنفيذ ما اعتقدنا أنه من مقتضيات الشفقة ومحبة السلام ، واقتربنا من شواطئ نهر بيداسووا Bidassoa (١) لعلنا ننتقل يوما إلى « جزيرة المؤتمر » . ولقد تفادينا عامدين كل الأساليب التى تثير النزاع ، وكل مظاهر الامتياز التى يعتاد كل فرد أن يخلعها على فريقه ، هذا التعاظم الجارح ، وهذه المظاهر من الوثوق الذى ، و إن كان المرء يشعر به فى الواقع ، إلا أنه من العبث ومن غير اللائق أن يظهره أمام أولئك الذين لا ينقصهم هذا الوثوق . . . » مرة أخرى ، فالسؤال الذى نلقيه على بوسويه هو عما إذا كان قولنا — بغير سوء نية — إن مجمع ترنت ليس له صفة العمومية ، يمكننا من إعادة مناقشة قراراته . إن جواب الأسقف كان جوابا متسرعا ، فليعد النظر فى المسألة ، وسننتظره .

وعاد بوسويه إلى العمل : وبالرغم من المشاغل المتكتلة التى تثقل كاهله، فانه سيدرس النصوص التى كتبت حتى ذلك الحين ، والصيغة التى قدمت للموافقة عليها ، دراسة مفصلة : « سأنتهز أول فرصة مناسبة لأعبر لكم عن

---

(١) بيداسووا Bidassoa : نهر بين فرنسا و إسبانيا فيه جزيرة عقدت فيها معاهدة البرانس Pyrénées سنة ١٦٥٩ بين مازاران Mazarin نيابة عن لويس الرابع عشر وبين إسبانيا بخصوص زواج لويس الرابع عشر بماريا تيريزا Marie-Thérèse بنت فيليب الرابع بشرط تنازل فرنسا عن حقوقها فى تاج إسبانيا مقابل بائنة قدرها نصف مليون جنيه ذهباً . وكان مازاران عالما بأن إسبانيا الفقيرة لن تستطيع سداد ذلك المبلغ وبذلك تستبقى فرنسا الحق فى عرش إسبانيا . [المترجان]

شعورى بنية خالصة . . . » — « أتمنى أن تكون هذه السنة سعيدة لكم ولكل العاملين باخلاص على اتحاد المسيحيين (١)! » . وينكب بوسويه على العمل : « إنى أوافق على المبدأ ، ومع أنى لا أستطيع أن أوافق على كل الوسائل ، فانى أرى أنكم لو صدقتم رأى المسيو مولانوس وأمثاله من الصالحين ، لزالت أغلب العراقيل ، وستعلمون شعورى فى القريب . . . »

ولم يقض ليبنتز فترة الانتظار فى خمول ، بل أخذ يبحث عن براهين ليدعم قضيته . لقد لفت الأنظار فيما سبق إلى أن فرنسا نفسها لم تعد مجمع ترنت مجلساً كنسياً عاما : وهو الآن يكاد يطير فرحا ، إذ يجد دليلا واقعيا ، سابقة يخالها لا تقبل الانكار . لقد حدث مرة واحدة على الأقل — والواقع أنه حدث فى ظروف أخرى ولكن مرة واحدة على الأقل فى ظرف مثالى فريد — أن الكنيسة الرومانية نقضت قراراً لأحد المجامع . فحينما رفضت جماعة الكاليكستيين (٢) فى بوهيميا الاعتراف بسلطة مجمع كونستانس فيما يتعلق بتناول القربان المقدس ، لم يعتمد البابا أوجين ومجمع بال هذا القرار ولم يفرضا على الجماعة المذكورة الخضوع ، بل أجلا المسألة إلى حين إصدار قرار آخر من الكنيسة . ترى ما رأى بوسويه فى قوة سابقة مثل هذه؟ أليست نفس الحالة التى نحن فيها اليوم؟ « احكم يا سيدى ، إذا كانت غالبية الشعب الألمانى لا تستحق على الأقل جميلا أو معروفا مثل الذى ناله البوهيميون . . . »

وأخيراً وصل هذا الرد الذى طال انتظاره ؛ وصل فى شكل بحث يتبع كتاب مولانوس Molanus « الأفكار الخاصة عن طريق التوحيد بين الكنيسة البروتستانتية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية » ، نقطة فنقطة ، ويستنتج بدوره . ويقول بوسويه فيه إن المنهج المعروض مرفوض لا يمكن قبوله، لأنه منهج تعليق ، يرمى إلى قبول التسكين والتوفيق قبل الاتفاق على المبادئ ،

---

(١) رسالة فى ١٧ يناير ١٦٩٢ .

(٢) الكاليكستيون : Calixtins أشياع جان هوس فى القرن الخامس عشر . وجان هوس زعيم إصلاحى ولد فى بوهيميا وأحرق حيا بأمر صدر من مجمع كونستانس فى عهد سيجزموند امبراطور ألمانيا ، بالرغم من أن هذا الامبراطور كان قد أمنه على نفسه . [المترجمان]

وإن المنهج الوحيد المقبول هو المنهج البياني ، الذى يعرض المبادئ قبل التعرض للوقائع . أما البدء بمصالحة فى الناحية العملية ، ثم استدعاء مجلس للاتفاق الودى على المذهب ، ثم الوصول أخيراً إلى مجمع يحكم فيما تعذر الاتفاق عليه ، فهذا هو الخطأ كل الخطأ ! يجب أولا عقد مجمع يتقبل توبة البروتستنت ، وبعدئذ ننتقل إلى التوفيق . وإلا فاننا نتنازل مقدما فى المسألة الأساسية وهى : إذا كان البروتستانت يريدون العودة إلى الاتحاد الرومانى قبلما يخضعون ، فهم إذن لم يعترفوا بخطئهم ، وبذلك يرفضون الاعتراف بسلطة الكنيسة ؛ وهنا كل المسألة .

الواقع أن المنهج يتضمن الأفكار التى يتكون منها جوهر الجدال . فالكنيسة معصومة من الضلال ، وما قرره مجمع ترانت يسرى إلى الأبد . أما القول بأن فرنسا لم تعترف بصفته « العمومية » فتعسف باطل ، لأن رفض فرنسا لا يتعلق إلا بحقوق الصدارة والأولوية ، وبالامتيازات ، وبحريات وعادات المملكة دون أدنى مساس بمسائل الايمان .والاستشهاد بمثل الكاليكستيين تعسف باطل بالمثل : فالفحص الذى وعدوا به فى بال لم يكن يرمى إلى إعادة النظر فى قرار مجمع كونستانس ، بل لتأييد هذا القرار بايضاحه . وسادام ليبنتز يسأل صراحة عن قوم مستعدين للخضوع لأحكام الكنيسة ولكن لديهم أسباب تدعوهم إلى عدم الاعتراف بعمومية مجمع من المجامع ، أيجب أن نعدهم ملحدين ؟ — فان بوسويه يجيب بنفس الصراحة : « أجل أولئك ملحدون ، أجل أولئك عنيدون . » وعلى ذلك يجد ليبنتز أنه لا جدوى من الدفاع . ويرد بأنه قول عجيب ، أن يقال « كانوا بالأمس يعتقدون ذلك ، إذن ينبغى اليوم أن نعتقد كذلك » . ولا جدوى من استشهاده بالسوابق ، فليس فيها غناء . إن بوسويه أقام أمامه جداراً يرى أن لا ثغرة فيه ، وأوشك الجدال أن يتوقف .

إلا أنه استؤنف . وقد زالت شخصيات الصف الثانى إذ أقصاها الموت ؛ وبقى بوسويه وليبنتز وبذا بقيت بارقة من الأمل . فى ٢٧ أغسطس من عام ١٦٩٨ عاد ليبنتز فكتب فى دير لوكم « مشروعاً لتيسير الاتحــاد بين البروتستانت والكاثوليك » ، اختتمه بابتهال مؤثر إلى الله . واستأنف مراسلاته مع بوسويه . ولكن بقيت الأدلة والحجج على ما هى عليه — إلا واحداً .

فان إصرار ليبنتز على إثبات خطأ الزعم بأن الكنيسة لم تتبدل أبداً ، استدعى التعرض لمسألة صحة الكتب المقدسة . فقد لاحظ أن الكنيسة الحالية ترى صحة كتب كانت الكنيسة القديمة ترى صحتها محل شك ؛ إذن فقد حدث تبدل فى التقاليد . . . واستمر الجدال عنيفاً دقيقاً حتى اللحظة التى أصبح موت بوسويه فيها وشيكا ؛ وأصبحت الرسائل المتبادلة بحوثا مطولة حتى إن أحدها تضمن ١٢٢ بابا ، ولكن أهناك حاجة للقول بأن ليبنتز ، باثارته الارتياب فى صحة الكتب المقدسة — قد خرج على وسائل المصالحة ؟

***

وواصل هذان العاملان العظيمان ، اللذان لم يقعدهما يوما تعب أو ألم ، عملهما إلى النهاية ، كل طبقا لقانونه . استعمل ليبنتز ذكاءه المرن الخارق ، وقدرته الدبلوماسية ، فقد ابتدأ بالحذر واللباقة : لأن الأمر — على حد قوله — لم يكن أمر نزاع أو تأليف كتب ، بل تعرف المشاعر والآراء ، وقياس القوى. وأخذ يتحمس رويداً رويداً ، فقد عيل صبره إزاء مقاومة عنيدة لم تنجح إرادته الطيبة ولم تفلح عبقريته فى التغلب عليها ، وأخذت لهجته تشتد فيتكلم عن « السخافات » ، وينعى على بوسويه التواء أساليبه ، وميله إلى التضليل ، والتجاءه إلى التهويل ، فبدا أسلوبه مشوبا بشئ من الحسرة والمرارة . إن هذا الأسقف مفطور على العناد ، فالأفضل أن نشرك معه بعض المدنيين وأن نأتمر معهم . فلأولئك الأكايريكيين نظريات خاصة وآراء مغرضة . أما هو فلا يروم إلا التوفيق والمصالحة . إن ذاكرته الفذة دائما متأهبة لأن تمده بأمثلة يستطيع الحاضر أن يهتدى بها . وتفكيره دائما يحمله على أن يكتشف فى المتناقضات أوجها للاتفاق ، وأن يختزل الصعوبات ، وأن يخلق الانسجام . وعنده من الروح السياسى أكثر مما عنده من الروح الدينى ، فالرهان فى نظره من الأهمية بمكان ، وهو حقيق بالاغضاء بعض الشئ عن قواعد المباراة . نقطة واحدة هى التى لا يمكن أن يغضى عنها ، وصحيح أن هذه النقطة تجر الباقى وراءها : الحق فى حرية البحث والفحص ، ورفض الخضوع لسلطة دجماطيقية تحكمية . وقد شعر بحزن وألم لاخفاقه فى محاولاته ، ولم يتخل دون حسرة ، عن المشروع الذى كان ينتظر منه خيراً عميما لأوربا وللانسانية

جمعاء . ويخيل إلينا أننا نشتم أيضا رائحة الحسرة ، ولوم الآخرين ، فى تكراره العنيد لهذه الفكرة « تسجيل براءته من مسئولية ما قد يجره الشقاق على الكنيسة المسيحية من شرور وويلات . » — « وعزاؤنا أننا لم ندخر وسعا فيما اعتقدنا أنه واجب علينا ، ولن يستطيع امرؤ أن ينعى علينا الشقاق ، وإلا كان هذا هو الظلم المبين . » — إن الكنيسة الرومانية « هى سبب الشقاق، وهى التى تجرح الشفقة التى هى روح الوحدة . »

وبوسويه أرهف حساسية إلا أنه يخفى تأثره . فاذا هو أهان ليبنتز بوصفه بالالحاد وبالعناد ، وإذا شكا ليبنتز من هذه التهمة ، فهو يأسف ويحزن ولكنه يقول : لو لم أتكلم بتلك الصراحة التى طالبنى بها ليبنتز ، لاتهمنى باللف والدوران . وهو يرد على المؤاخذات بتواضع برىء : « إذا تفضلتم بتبيان الأسباب التى تدفعكم إلى الظن بأنى لم ألب رغبتكم ، فانى أؤكد لكم أنى سأقوم بتنفيذها بتمامها دون نظرة منى إلى يمين أو شمال ، بل بكل استقامة النية الطيبة التى يمكنكم أن تتوقعوها من رجل لم يجد يوما سعادة أوفر من الاشتراك مع رجال بمثل هذه القدرة وهذا الشرف ، فى علاج جراح الكنيسة التى ما فتئت تنزف بفعل الشقاق الذى يؤسف له أشد الأسف . » إن الفكرة التى راودت ذهن ليبنتز وهى : تكليف الأسقف الكاثوليكى سبينولا بكتابة مذكرة تعرض وجهة نظر البروتستانت ، بينما يكتب هو مذكرة بوجهة نظر الكاثوليك، فكرة لم تكن لتتولد يوما فى ذهن بوسويه . فليس للحقيقة وجهان . بل الحقيقة واحدة لا تتغير . وهى أيضا أبدية . فهو يتمسك بالمبدأ الذى غذى فكره ، والذى هو ناموس روحه ، والموجه لنشاطه وحياته : لا تشبث إلا بما يبقى ويثبت .

وهو يرى — بقلب أقل حزنا لكن فى غير ضغينة أو مرارة — إبعاد هذا السراب الذى لم يفتنه كثيراً فى يوم من الأيام . فالروح الدينى عنده يتغلب على الروح السياسى . فهو يعرف أن رفض المصالحة هو رفض إعادة السلام الروحى إلى أوربا . ذلك السلام الذى لم تكن يوما فى حاجة إليه أكثر مما هى الآن . لكن إذا لم يكن بد ، للتوصل إلى هذه الوحدة ، من الاعتراف بأن الكنيسة الكاثوليكية عرضة للخطأ ، وأنها أخطأت فى أحكامها ، وأدانت وطردت بغير حق ، وأنها تناقض نفسها وتتغير — فان ذلك يكون قضاء على مبدئها بالذات . فأى ثغرة تصيب السلطة ، تجر وراءها الكفر يتوالى فى إثر

الكفر ، وتؤدى إلى دمار معبد اليقين . فاختار بين النظريتين : فليبق المنشقون فى ضلالهم ، ولتبق الكنيسة كشجرة راسخة عتيقة لم تفقد إلا فرعاً واحداً جافاً .

***

وانتهى به الأمر فيما بعد ، فقد عمر طويلا ، فهو شيخ عجوز . ويتخلى عنه الناس حتى أولئك الذين كان عليهم أن يؤازروه . وهو يشكو سن حصاة ولذا يتألم ويتأوه . وعندما يتيح له مرضه لحظة راحة ، يركب فى محفته ويلتجئ إلى الملك ، الذى كان يستمد منه القوة والشجاعة فيما سبق : ولكن الملك كان بالمثل يجنح إلى الغروب ، ولا يستطيع أن يأتى بمعجزة ليعيد الشباب إلى الذين أصبح اقترابهم من القبر وشيكا .

وقد كان يقاوم المرض الذى يضنيه ، « يقف على رجليه بصعوبة » فى تهالك مؤثر ، ليحاول تأدية فروض الاحترام للسيد . لا يرى الناس سواه فى فرساى . ورجال البلاط يسخرون من هذا الشيخ المحطم ، المضحك المزاحم . ومدام دى مانتنون القاسية تهمس «أتراه يود أن يموت فى البلاط ؟ » . وفى عام ١٧٠٣ ، فى حفلة عيد صعود العذراء التى أراد أن يحضرها ، كان موضع مشهد أليم جعل الأصدقاء يحزنون له ، والمحايدين يعطفون عليه ، وعجائز البلاط يسخرون منه . وكانت مدام دى مانتنون تسر إليه على طول الطريق « شجاعة يا سيدى فسنصل عما قريب » . ويقول الآخرون « آه . . . يا للسيد المسكين ! » ، ويقول غيرهم « لله دره ! » ، بينما تقول الأغلبية « ترى لم لا يذهب ليموت فى منزله ؟ (١) » .

ولم يكن ليبنتز أسعد حالا . فهو يواصل أحلامه . إنه يفكر فى تحويل الصين إلى المسيحية ، لا بإيضاحه للصينيين أنهم على خطأ ، بل بتبيان أوجه الشبه بين ديانتهم وبين المسيحية ، مستعيناً بفكرة الوحدة الجوهرية للفكر البشرى . ولكن الحقيقة الواقعة تخيب ظنه ، لأنها ليست مادة يشكلها المرء على هواه ، ولا يستطيع الفكر أن يبدلها بغير مخاطرة ، إنها تقاوم مقاومة لا تغلب . لقد ضاع الأمل ، فلا لغة عالية إذن ، ولا وحدة للكنيسة ، كل

(١) جيرو : بوسويه ، ١٩٣٠ ص ١٣٩ ، V. Giraud, *Bossuet*, 1930

هذه المشروعات لا طائل من ورائها ، إن هى إلا ظلال يتعذر الوصول إليها .

لقد وصفه فونتنل كبطل ظافر حينما أطراه أمام مجمع العلوم بباريس (١) : « ما أشبهه بأولئك القدماء الذين أوتوا من المهارة ما يمكنهم من سياسة ثمانية جياد مجتمعة مشدودة إلى عربة ، فقد أجاد دراسة العلوم مجتمعة . » كما وصفه أيضا من ناحيته الانسانية : « كان دائما السيد المطلق فى منزله ، لأنه كان يتناول الطعام دائما وحده . ولم ينظم وجباته فى أوقات معينة ، ولم يعش حياة بيتية ، بل كان يستحضر من أى بدال ما يجده عنده للغذاء . وكان ينام أغلب الوقت مستلقياً على مقعد ، ومع ذلك كان يستيقظ مبكراً موفور الراحة مكتمل النشاط . ثم يبدأ على الفور فى الدراسة ؛ وعاش أشهراً بتمامها دون أن يترك مقعده . . . » وكلما تقدم العمر بليبنتز تجلت حقيقة هذه الصورة . إنه يعيش وحيداً . تخلى عنه أولئك العظاء الذين كان يعتمد عليهم فى تنفيذ أغراضه . — ولما أصبح « منتخب هانوفر » ملكا على انجلترا فى يناير من عام ١٧١٤ ، رفض الناس خدمات ذلك الشيخ المريض . ولما كان لا يتردد على المعبد ولا يقترب من القربان فقد عدوه ملحداً وخاصمه الرعاة . وتوفى فى ١٤ نوفمبر من عام ١٧١٦ ؛ فدفن بغير احتفال ولا شهود ولا شفقة : « كأنهم يدفنون قاطع طريق ، لا رجلا كان فخر وطنه » .

فلنحلق فى سماء الخيال — لقد مرت لحظة بدت فيها وحدة الكنيسة وشيكة التحقيق ، لحظة من اللحظات التى «قل أن يجود بها عصر بأكمله » . «إن يد الله لم تنقبض » ، هذا ما دبجه ليبنتز إلى مدام دى برينون فى ٢٩ سبتمبر من عام ١٦٩١ ؛ — « إن الامبراطور يميل إلى التوحيد ، والبابا إنوسنت الحادى عشر وجماعة من الكرادلة ورؤساء الكنيسة ، ورئيس القصر المقدس ورجال اللاهوت ، قد أبدو آراءهم فى هذا الموضوع ، بعد فتله دراسة ، بشكل يدل على تمام التأييد والتحبيذ . ولقد طالعت بنفسى لص الرسالة التى كتبها الأب نوابيل الرئيس العام لجماعة الجيزويت والتى يستحيل أن تكون أدق

(١) عين فونتنل سكرتيرا دائما لمجمع العلوم فى باريس وقد كتب بصفته هذه مقالات تقريظية رائعة عن أعضاء المجمع السابقين . [المترجمان]

وأوضح من ذلك ، ويمكن القول بأنه إذا كان ملك فرنسا والأساقفة ورجال اللاهوت الذين يشير إليهم ، ينضمون إلى هذا المشروع ، فسيكون ممكن التنفيذ بل وشيك التحقيق . وهكذا تتحقق الوحدة ، وتستصلح الكاثوليكية، وتعود البلاد الجرمانية واللاتينية إلى اتحادها الروحي الوثيق ، وتنضم الأراضي الواطئة وانجلترا بدورها إلى كنيسة رومانية و إصلاحية فى نفس الوقت ، ويقاوم المؤمنون ، كل المؤمنين ، قوات التفرقة والتشتيت التى تهدد الايمان » .

ولنهبط الآن إلى ميدان الواقع . نجد البروتستانت والكاثوليك يعجزون عن الاتفاق ؛ لقد مضت السانحة المناسبة ، وأخفق أمهر الرجال وأكثرهم عناية وسهراً فى المهمة التى أخذها على عاتقه ، وابتهج أعداء المسيحية وانتصروا . فما أشد الدمار ، وما أكثر الخراب !

يريد البعض إبدال إله إسرائيل و إسحق ويعقوب باله مجرد ، هو فى جوهره نظام الكون ، ولعله الكون نفسه . وذلك الاله المتخيل لا قدرة له على المعجزات . إن المعجزات تنم عن أهوائه أو تكشف تناقض أفعاله ، وبذا فهى لا تؤيد وجوده بل تنكره . ولم يعد للسلطة قيمة ، أما التقاليد فكاذبة ، وأما الارتضاء العالمى فلا يمكن إثباته ، وحتى إذا أمكن إثباته، فلا شئ يمنع من أن يكون ملطخا بالضلال . وشريعة موسى لم تعد تقدر الكلمة التى أملاها الله عليه فى جبل سينا وسجلت بتمامها على الفور ، بل هى قانون بشرى ما زالت فيه آثار للشعوب أورثتها العبريين ، وعلى الأخص آثار المصريين . والكتاب المقدس لا يفترق عن غيره من الكتب ، فهو حافل بالتزوير زاخر بالتبديل والتحوير ، لا يعدو كونه عدة أضابير ضم بعضها إلى بعض بوساطة أياد غير ماهرة ، وبفعل عقول غير صقيلة لم تعن بالتواريخ ، حتى لقد أخذت البداية على أنها النهاية فى بعض الأحيان . فلم يعد الكتاب المقدس يبدو إلهياً . وجعلت السلطة الملكية تفقد أيضاً صفتها الالهية. وأعلن الناس ضدها الحق فى العصيان. وأبدلت علامة الايجاب بعلامة سلبية فى كل مكان . ولما توفى لويس الرابع عشر ، كان الابدال يبدو وشيك الاكتمال .

وما من شك فى أن العقائد التى كان يستند عليها المجتمع القديم ، وعلى الأخص المسيحية ، لم تتعرض يوما لمثل هذا الهجوم . فى عام ١٧١٧ يستسلم

سويفت(١) لنوبة من السخرية التى اعتادها فيقول : « إنه لخطر وحماقة أن نتكلم ضد إلغاء المسيحية ، فى زمن أجمعت فيه كل الأحزاب على القضاء عليها ، الأمر الذى يثبتونه قولا ، وكتابة ، وفعلا . فالدفاع عن المسيحية ، وتبيان أن إلغاءها لا يتم إلا لقاء بعض المحظورات ، ولا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة ، لابد من أن يكون مشروع عقل شاذ . . . » إن كلمة سويفت هذه ، تترجم عن اضطراب الضمائر المسيحية ، عندما تشاهد نتائج حركة تخريبية طالت خلال سنين ، حركة لم تشن هجمات صغيرة خفية ، بل هاجمت علنا ، فى وضح النهار .

إلا أن أوربا لا تحب الخرائب ؛ بل هى لن تحتملها أبداً إلا كنزوة عارضة ، تجعل منها زينة لحدائقها ومغانيها ؛ لا لشئ إلا لتبرز ، بتناقضها ، روعة نماء الأشجار ونضرة الأزهار . لقد توقف أكبر الارتيابيين ، من بين العقول التى تتبعنا نشاطها ، أمام خطر الانكار المطلق nihilisme ، الذى كاد يوقعهم فيه شكهم . إنهم لم يتذوقوا « تلك الراحة التامة ، بالنسبة للارادة أو بالنسبة للادراك » ، الراحة التى كان « بيرون » يرى فيها الحكمة والسعادة(٢) : فاذا كان عقلهم قد مال بهم فى بعض الأحيان إلى جانب أسباب التفنيد le contre أكثر مما مال إلى جانب أسباب التأييد le pour ، فان إرادتهم مع ذلك لم تضعف ولم تستسلم . فلقد أعلنوا جميعاً أنهم لم يدمروا البناء القديم إلا ليشيدوا بناء آخر ، قد رسموا مشروعه ،ووضعوا أساسه ، وأقاموا جدرانه ، إبان قيامهم بعملية التدمير . تدمير ، وفى نفس الوقت إنشاء من جديد . فاذا نحن أردنا أن نتم فهم الرجال الذين عاشوا وسط هذه الأزمة الخطيرة ، فعلينا أن نراهم الآن فى محاولتهم الانشائية الايجابية.

---

(١) ج. سويفت : برهان يثبت أن إلغاء المسيحية فى انجلترا قد لا يحدث ، فيما نحن فيه من ظروف ، إلا لقاء بعض المحظورات . وربما لا تنجم عنه العواقب الطيبة المرجوة منه فى عام ١٧٠٨ ، J. Swift, an argument to prove that the abolishing of Christianity in England may, as things now stand, be attented with some inconveniencies, and perhaps not produce those many good effects proposed thereby. written in the year 1708.

(٢) موريرى ، القاموس ، باب بيرون Pyrrhon .

القسم الثالث

محاولة الانشاء من جديد

الفصل الأول

لوك ومذهب التجربة (1)

لم يكن بد إذن من بدء الرحلة الطويلة من جديد ، وتوجيه القافلة البشرية إلى طرق أخرى ، صوب أهداف أخرى .

وكان الواجب يقضى بادئ ذى بدء ، باجتناب مذهب الارتيابية ، الذى كان بايل نفسه يخشاه . « المناقشة فى كل أمر دون اتخاذ قرار إلا إرجاء الحكم » ، هذا مايؤدى إلى الخمود ، بل إلى الموت . فمذهب الارتياب ، ولو أنه معوان صادق يضمن للعقل حريته فى الاختيار ، قد انتهى به الأمر إلى القضاء على الارادة ، بل إلى قتل كل احتمال فى الاختيار . فالأمر لايتعلق بالمناقشة غير المجدية ، والموازنة بين ما للشئ وما عليه ، le pour et le contre بل يتعلق بالاسراع نحو أقاصى السعادة .

لقد شرح فونتنل لتلميذته المركيزة (2) — وهما يتأملان النجوم سويا — أن الفلسفة تقوم على أمرين : أن لدينا ذهناً مستطلعاً وعيونا كليلة . حتى إن الفلاسفة يقضون حياتهم فى عدم التصديق بما يرون ، وفى محاولة إدراك مالا يرون : وتلك حالة لا تطاق . وقد كان الأوفق ألا نشغل البال بما لا نرى ، وأن نصدق بما نرى . وإن منهجا للحياة يحقق هذين الشرطين ، ليكون خيراً للناس ، فانه ينقذهم من الشك .

ولتحقيق هذا الغرض ، يتدخل لوك .

---

(1) L'Empirisme .

(2) أراد فونتنل أن يشرح فلسفته فى أسلوب شائق ممتع ، فقدمها فى شكل محادثات بين فيلسوف ومركيزة تتتلمذ عليه . والكلام الذى أورده المؤلف مقتطف من كتاب فونتنل « ابتسام العقل » ... Fontenelle : *Le Sourire de la Raison* . [المترجان]

****

لقد ظهر فى الوقت المناسب ، كرجل مصلح محسن ، لأنه أثبت قيمة الواقع وسمو فضله . ولا نقصد الواقع التاريخى الذى أنكر وأدين وألغى . إذ تلك مسألة لا يستطيع امرؤ أن يعود إليها ، فقد بت فيها . فالوقائع المفقودة فى غياهب ماض لا بعث له ، لم تعد تصل إلى الناس ، إذا أرادو أن يعيدوها إلى وضح النهار ، — إلا سيئة التفسير ، مزورة ، كأنها بالكذب ملطخة ؛ فلم يستطع ذوو العقل السليم أن يثقوا بها . لم يكن بد من يقين آخر ، وجون لوك هو الرجل الذى كشفه .

ذلك أنه يبين للمفكرين الحقائق السيكولوجية ، الكامنة فى النفوس ، حية ، لم يعتورها فساد . والعقل ، فى هذا الميدان ، يعين ولا يشل ؛ فهو ليس ملزما — مهما أوتى من حذر — بتسجيل معارف أولية تبعد عن متناول النقد فحسب ، بل يجد أيضاً غبطة فى الكشف عن ظروف نشاطه الخاص ، التى كان يجهلها . هكذا يقبل العقليون تحالفا ينقذهم من الشك ؛ فالتفكير فى القرن الثامن عشر ، الذى تمتد جذوره إلى القرن السابع عشر ، — عقلى rationaliste فى جوهره ، وتجريبى empiriste بالاتفاق .

كان لوك يبدو وكأنما قد خلق خصيصاً ليكون فيلسوفا بحق . فهو أولا انجليزى : ولذا فهو عميق التفكير . ثم إنه لم يقنع بدراسة الميتافيزيقا ، بل درس العلوم التجريبية ، الطب ؛ فقبلما ينشغل بالروح ، اهتم بمعرفة الجسد: وهذه حيطة طبية أهملها الخياليون . وقد شارك فى الشئون العامة ، فكان كاتم سر للورد أشلى Lord Ashley كونت شافتسبرى وموضع ثقته ، ثم فقد هو وسيده حظوتهما لدى الملك ، ونفى إلى هولاندة ، ثم رجع ظافراً مع وليم أورانج ، فكان من أولئك الذين أسسوا انجلترا الجديدة ، التى لا تغلب. ولكنه كان عاقلا فى قناعته بالوقوف فى الصف الثانى ، فقد استطاع بتواريه قليلا أن يشاهد ما جبل عليه الناس من ختل ودهاء . ولما كان مسقاما عليلا ، فإنه لم يستغرق فى الحركة والنشاط بالمتعة التى يجدها الأشداء : بل تصرف بتحفظ وحكمة كأنما ليحسن التفكير . وقد زادته رحلاته مرونة ، فقد أقام طويلا فى جنوب فرنسا دارساً عن كثب ذلك الشعب الذى ليس كريها ،

وإن بدا غريباً : فدرس أخلاق الفرنسيين ، وغذاءهم ، وكيف يفكر منهم من يفكر ، وكيف يعمل منهم من لا يفكر ؛ وكيف كانوا يصنعون تلك المنتجات اللذيذة التي لا توجد في انجلترا ؛ الزيت والنبيذ ؛ وكيف ولماذا كان فلاحهم تعساً . وقد صادق في باريس الأطباء والفلكيين ومختلف العلماء ، والبحاث والقلقين les inquiets . ولكن هولاندا كانت أنفع له ، إذا صح أنه لا مدرسة أكثر فائدة ولا أقسى من مدرسة المنفى . ولما طرد من بلاده ودار في بلاد « الملجأ » تائها معاشراً دعاة الاصلاح ، والخوارج ، ومعارضي الأورثوذوكسية ، رجع إلى مدرسة التفكير . وأخيراً أصبح مربياً ، وهذا أيضاً نوع من التعلم ؛ ولأي تلميذ ! لابن حاميه لورد-أشلي — شافتسبري ، الذي سيطالب قريباً بمكانه بين أعلام الفلسفة الجديدة . وجون لوك رجل مهذب gentleman لعدم زهوه بعلمه ، ولبعده عن العجرفة ، ولبساطته وحكمته ، (باستثناء بعض نوبات من الغضب الشديد) ولأنه محبوب في الحياة كما هو في كتبه ، ولما يزدان به خلقه من نبل طبيعي . وهو لا يشبه الأستاذ ذا الرداء التقليدي والقلنسوة المربعة في شيء ؛ لا يتيح له صدره الضعيف أن يصيح من فوق المنبر ، بل هو يخاطب الدنيويين في إسهاب وأناة . فالفلاسفة الحقيقيون سيكونون فيما بعد من الدنيويين ؛ لن ينتخبوا — إلا فيما ندر — من بين رجال الدين ، ومن بين أساتذة السوربون أو السابينزا : بل سيندمجون في الحياة لكي يديروها .

***

ابتدأ بفلسفة المشائين التي درسها في أكسفورد ولم يستسغها . وظل مدة طويلة ، يبحث عن طريق ، متخذاً من باكون وغاسندي وديكارت أدلاء : ولكنه لم يكن يثق إلا بنفسه . في شتاء سنة ١٦٧٠ — ١٦٧١ ، بينما كان يتحدث في الفلسفة مع بعض أصدقائه ، وجد أنه كان في حاجة إلى قاعدة أكيدة ؛ فمبادئ الأخلاق والدين المنزل لا يمكن أن تقوم على أساس سليم ، مالم « نفحص مقدرتنا الشخصية ونعرف أي الموضوعات تقع في متناولنا وأيها فوق إدراكنا . » إذن ، لابد من أن نقدر قوات الادراك بالتدقيق قبل أن نشرع في أي خطوة أخرى ؛ ولا ينبغي أن نعيش على الاحسان ، ولا أن

نركن فى كسل إلى آراء الناس ، ولا أن نهتم بما إذا كنا فى حماية أفلاطون أو أرسطو ، ولا أن نقسم بأقوال الأساتذة ؛ بل بالعكس يجب أن نجعل من الحقيقة هدفنا الوحيد ، وأن نتوسل إليها بروح الفحص . إنك تجد ، فى بداية حياة لوك الذهنية ، نفس هذا العزم على الاستقلال ، ونفس هذه الحاجة إلى التجديد ، ونفس هذه الرغبة فى ألا يعتمد إلا على تفكيره الذاتى ، وهذا ما كان يختمر فى الضمائر إذ ذاك .

إن هذا المنهج ليس من فعل رجل منعزل . بل يخيل إلينا أننا نسمع أولئك الأصدقاء الذين يسألون لوك ، لأنهم فى حاجة إلى أن يطمئنهم ؛ ويفوضون أجدرهم بايجاد فلسفة تسكن ارتيابهم ، وهم بذلك إنما يترجمون عن مقتضيات زمنهم . إن لوك قد استدعاه زمنه ؛ إنه ظل طول مدة تعليمه على صلة مباشرة مع معاصريه ، مستمعاً إلى سؤالهم ، ذلك السؤال الخالد الذى أصبح عويصا ، لأن الأجوبة التقليدية لم تعد تكفى وهو : ما هى الحقيقة ؟ Quid est Veritas ? عليه أن ينطق بهذه الحقيقة الجديدة . ويدأ منذ عام ١٦٧١ يسطر على الورق بعض الأفكار التى سرعان ما كونت مجموعة كان يمكنه أن يطلع بها على الجمهور كما هى عليه ؛ ولكنه سينتظر قرابة عشرين عاما فى استكمالها وتجربتها ، مطلعاً خاصة أصدقائه على مخطوطه : لا منعزلا بل اجتماعياً .

كان يفكر ويشتغل ، ويعمل شيئاً فشيئا على استكمال مذهبه ، سواء فى طرق فرنسا ، فى الفنادق ؛ أو فى لندن فى وسط ضجيج السياسة ؛ وفى أكسفورد ملجئه العزيز ؛ وفى روتردام وأمستردام وكليف . وأخيراً عندما شرح نظرياته، شهد الناس أن لديه قدرة نادرة على إضفاء الحيوية على أى موضوع يطرقه . لأنه لم يقتصر على الفلسفة المحضة ، بل كان يروق له أن يبدى رأيه فى الدين وفى السياسة وفى البيداجوجيا ؛ وكلما نشر كتابا أثار أصداء لا نهاية لها . لست أرى رجلا غيره ، لم يكتب شيئا إلا بدا جوهريا ، سوى جان جاك روسو ؛ الذى كان يثير دائما اشتعالا كلما تكلم فى الدين أو السياسة أو البيداجوجيا . إلا أنك لا تجد لدى لوك — الذى تخفى رصانته لهيبه — تلك الحرارة التى يشعل بها روسو كل من يقربه . ولكنه استشعر قبل روسو ، نداء الضمائر فاستجاب إليها : هنا سر قوته الفعالة . إن كتبه تبدو كمحادثات تؤثر على القارئ ولا تسمح له بالانصراف إلا مقتنعاً ، فهى تقنعه بالتكرار مائة

مرة ، وتكسبه فى صبر وأناة ، إن ألفاظها تطوقه وتستبقيه . أما وسائله ، فهى الأدب الرشيق ، وجزالة الأسلوب ، وشئ من التدفق الواضح .فالغموض ، والاغراق فى التركيز ، والتغالى فى التعمق ليس من شأنه ؛ بل هو لا يقبل غير الواضح المبين ؛ ويتألم عندما يجادل روحا ميتافيزيقيا كروح مالبرانش . « يجب الاعتراف بأن لدى هذا الفيلسوف تعبيرات كثيرة لا تقدم لعقلى أفكارا واضحة بينة ، ولذا فهى ليست سوى أصوات لا تستطيع أن تأتيه بأى نور . . . » — « هنا أجد نفسى أيضاً فى ظلام كثيف . . . » — « يخيل إلى أن أى كاتب يجشم نفسه مشقة التعبير عن أفكاره فى غموض ، لم يكن لينجح كما نجح الأب مالبرانش هنا . . . » . ما أبعد لوك عن هذا الغموض ! — « بما أنى لم أقصد من نشر هذا الكتاب ، إلا أن أكون مفيداً بقدر ما أستطيع، فقد اعتقدت أنى ملزم بجعل كلامى واضحا مفهوما بقدر الامكان ، لكل أنواع القراء . أفضل أن يشكو أصحاب العقول النظرية والثاقبة من أنى أضجرهم فى بعض صفحات كتابى ، على أن يعجز بعض الأشخاص الذين لم يألفوا المطالعة العلمية والمجردة — أو الذين أشربوا معارف تناقض ما أقدم لهم — عن إدراك معنى كلامى أو فهم أفكارى . . . »

ذلك هو شعوره وتلك هى طريقته . أفلم تكن أيضاً علامة من علامات الزمن ، هذه الارادة الصريحة فى ألا يقصد المؤلف إخصائيى الفلسفة فحسب ، وأن يغضب عند اللزوم العقول « النظرية الثاقبة » ، بل يخدم كل الذين يبحثون عن قاعدة صالحة للحياة ؟

***

وأخيراً ظهر كتابه فى عام ١٦٩٠ ، تحت عنوان متواضع ، « مقال عن الادراك الانسانى » *An Essay concerning human understanding* . ومهما قال أولئك الذين لا يحبون فى الفلسفة « الألعاب الكبرى » أى الموضوعات العميقة فانه كان تاريخ تبدل قطعى ، تاريخ اتجاه جديد . لقد أتيح للانسان منذ ذلك اليوم أن يتخذ من ثروة العقل الانسانى اللانهائية موضوعاً لأبحاثه . يقول لوك : فلندع تلك الفروض الميتافيزيقية : ألم نر أنها لم تؤد أبداً إلى نتيجة؟ ألم نتعب من أسئلتنا غير المجدية ؟ من استطاع أن يحدد طبيعة الروح

وجوهرها ؟ أن يبين أى حركات يلزم أن تثار فى عقولنا الحيوانية ، أو أى تبدلات يجب أن تحدث فى أجسامنا لكى تولد — بوساطة أعضائنا — مشاعرنا وأفكارنا ؟ إن الجسد يخضع للروح ، إن الجسد يؤثر على الروح : وما تكاد الميتافيزيقا تتدخل حتى يصبح هذا الواقع التجريبى ، الذى هو واضح كل الوضوح فى ذاته ، سرا لم يعمل العلماء إلا على زيادة غموضه ، فلندعه ؛ فلا مدعاة للاهتمام به . إذا كانت هناك جواهر خارجية عنا (ولا شك فى أنها موجودة) ، فليس لدينا أى وسيلة لندرك حقيقة كيانها ، فلماذا نحاول إدراكها بأى ثمن ؟ فلندع فيما بعد هذا البحث المؤيس الذى لا رجاء فيه .

إن اليقين الذى نحن فى حاجة إليه موجود فى نفوسنا فلننظر إلى هذه النفس ، ونحول عيوننا عن ذلك الامتداد اللامتناهى الذى يخلق السراب ولنركز بصرنا عليها . أما وقد عرفنا أن إدراكنا محدود ، فلنقبل حدوده هذه ؛ ولندرسه كما هو ، ولنعرف كيف يعمل . فلنلاحظ كيف تتكون أفكارنا وتتركب ، وكيف تحتفظ بها ذاكرتنا ، فقد كنا نجهل ذلك العمل الاعجازى حتى الآن . هنا نجد المعرفة الصحيحة ، المعرفة الأكيدة الوحيدة : وما أغناها بالمرئيات حتى لا تكاد الحياة تكفى للتأمل فيها :

« إن مثلنا فى هذا الصدد مثل البحار الذى يركب متن البحر . يفيده جداً أن يعرف طول حبل مسبره ، وإن كان المسبر لا يكفيه دائما لتعرف مختلف أغوار المحيط : يكفيه أن يعرف أن الحبل من الطول بما يكفى ليصل إلى القاع فى بعض أرجاء البحر التى تهمه معرفتها لكى يحكم رحلته ، ولكى يجتنب مواطن الخطر . فان شأننا فى هذه الدنيا ليس أن نعرف كل شئ ، بل أن نعرف ما يتعلق بتوجيه حياتنا . فاذا كنا نستطيع أن نجد القواعد التى يمكن لمخلوق عاقل كالانسان — بالحالة التى هو عليها فى هذه الدنيا — أن يستعملها ، ويجب أن يستعملها ، ليدير مشاعره وما يتصل بها من أفعال ؛ — أقول ، إذا كنا نستطيع أن نصل إلى هذا الحد ، فلا ينبغى أن نتزعج لوجود أشياء أخرى فوق متناول إدراكنا (١) . »

(١) عن إدراك الانسان — مقدمة — ترجمة بيير كوست ، Pierre Coste .

أو فلنقل بألفاظ أخرى — (لأن لوك لا يخشى أن يكرر كلامه) — : ماذا علينا أن نفعل فى هذه الدنيا ؟ — معرفة الخالق بما نستطيع أن نعرفه عن المخلوق ؛ معرفة واجباتنا ، ومواجهة مقتضيات حياتنا المادية . ولا شئ غير ذلك . ومهما كانت قدرتنا ضعيفة غير صقيلة فقد خلقت متناسبة مع هذه الاحتياجات ، إذن ، فلندع البحث عن معرفة كاملة مطلقة بما يحيط بنا من أمور تخرج عن متناول المخلوقات الفانية ، — ولنقنع بما نحن عليه ، ولنفعل ما نستطيع أن نفعل ولنعرف ما نستطيع أن نعرف . . .

والواقع ، أنه ما يكاد عقلنا يحاول الخروج عن دائرته المحدودة للاتجاه صوب العلل ، حتى نرى أن هذا البحث لا فائدة له إلا أن يشعرنا بقصور معارفنا : إذ نصطدم بسياج من الظلام . وعلى النقيض ، لو أننا قنعنا بالدائرة المخصصة لنا — كالرواد المتواضعين ، لاكتشفنا عالما من العجائب ، ولظفرنا بالحكمة ، والسعادة . فهل يجب أن نتردد فى الاختيار؟ لنطلّق المستحيل ، فلن نخشى السقوط فى الهوة إذا أحكمنا قبضتنا على الوقائع الأكيدة التى يمكن أن تتناولها أيادينا مهما كانت ضعيفة .

والقيمة الابداعية لفلسفة لوك ليست فى اطراح الميتافيزيقا ، وهو ما قبلته ضمائر عديدة من قبل ، بل هى فى تحديد جزيرة والاحتفاظ بها فى لجة المحيط الهائل الذى يزيغ فيه البصر .

* * *

وفوق ذلك فان عليه أن ينظم هذه الأرض التى يريد إنقاذها من الارتياب . ينبغى أن يعد المعرفة المسلم بها l'a priori كأنما لا وجود لها : يا للتغير ...! يجب أن يبدأ كل الفلسفة من جديد على صورة أخرى ، كل الفلسفة ، منذ أرسطو إلى أحدث الفلاسفة ، فلاسفة مدرسة كبردج المعروفين باسم الافلاطونين الجدد Néo-Platoniciens (١) ، و «كادورث» والآخرين ، الذين يدعون بعث الأفكار . لا توجد أفكار غرزية . ففكرة الأبدية ليست غرزية ؛ ولا فكرة

(١) Néo-Platoniciens مذهب فلسفى ظهر فى الاسكندرية فى القرن الثالث بعد المسيح ، وكان من أبطاله فلوطن Plotin وبورفير ... وهذا المذهب يخلط أفكار أفلاطون ببعض أفكار صوفية . [المترجم]

اللامتناهى ، ولا فكرة المماثلة ، ولا فكرة الكل ولا فكرة الجزء ، ولا فكرة العبادة ، ولا فكرة الله . حين يبدأ المخلوق فى الحياة ، من المستحيل أن نميز فيه تلك الحقائق المزعومة التى لا ندرى من أين جاءت ، ولعلها مخترعات تفكير نظرى قد اتخذ صوراً عديدة ، من يونانى إلى مدرسى وحديث ، ولكنه لم يقدم لنا سوى كلمات . فلنطرح تلك الأشباح . إن الفكر لوحة بيضاء تنتظر نقش الحروف عليها ؛ إنه غرفة مظلمة تنتظر وصول أشعة الشمس .

هناك عنصر إيجابى يكفى لبناء كل شئ من جديد : الاحساس . إنه يأتى من الخارج ، يصدم الفكر ، ويوقظه ، وسرعان ما يملؤه . وهو يقدم لنا أكثر الأفكار تركيبا وتجردا مما ينتج من عمل النفس على أساس معارفها الذاتية ، بعد ترتيبها والوصل بينها . بالاحساس ، لا شئ أسهل من بناء نظرية عن المعرفة ، بديهية كانت أو بيانية ، تهيئ لنا يقينا ثابتاً مكينا . فالنسبة لم تعد بين الفاعل والموضوع (أى النفس والأشياء) ، بل هى أبسط من ذلك بكثير ، بين الفاعل والفاعل (أى النفس والنفس) ؛ وبذا ، لم يعد الكفاح ضد أسباب الضلال إلا مسألة داخلية ، اتخاذ بعض التحوطات والاحتفاظ بها . مادام العقل ليس له موضوع آخر لتفكيره واستدلاله إلا أفكاره الخاصة ، وهى الشئ الوحيد الذى يتأمل أو يستطيع أن يتأمل فيه ، فانه بديهى أن كل معرفتنا لا تستند إلا على أفكارنا . . . « يبدو لى أن المعرفة ليست إلا إدراك ما بين فكرتين من أفكارنا من اتفاق أو اختلاف . . . » حتى إن علمنا ، علمنا البشرى ، محتمل كل الاحتمال ومؤكد كل التوكيد فى نفس الوقت .

فلنسلم للوك بمبدئه هذا عن الاحساس الغرزى ، نجده على الفور يعيد بناء علم الأخلاق من جديد . نحن نشعر بالمتعة وبالألم ، ومن هنا نكتسب فكرة المفيد والمضر ، وتتبعها فكرة المباح والمحرم ، وبالتالى فكرة أخلاق لاتستند إلا على حقائق سيكولوجية ، أخلاق لها لنفس هذا السبب صفة يقينية ، لم تكن لتتوافر فيها لو أنها قامت على بعض التزام خارجى . فبما أن اليقين ليس إلا إدراك ما فى أفكارنا من تناسب وتنافر ، وبما أن البيان ليس إلا إدراك هذا التناسب باستعمال أفكار وسيطة : وبما أن أفكارنا الأخلاقية — كالحقائق الرياضية سواء بسواء — مجردات يؤلفها الفكر ؛ فلا يوجد فرق نوعى بين هذه وتلك والاثنتان أكيدتان .

هكذا يستعاض ، رويداً رويداً ، عن الوضع الدجماطيقى بنظرية تقوم على التجربة ، تكشف وتسجل كل أفعال حياتنا السيكولوجية . ما أصل اللغة ؟ هل وضع الله فينا ذلك الترجمان الاعجازى ببعض أسباب من مشيئته ؟ نحن لا نعرف عن هذا شيئا ، ولكنا نعرف جيدا أن للانسان أعضاء مهمتها النطق بأصوات مفصلة ، وأنه يترجم بفضل تلك الأصوات ، عن التبدلات التى تشعر بها حساسيته ، وأن الكلمات تصبح علامات خاصة ، ثم عامة للأفكار . هذه كل البلاغة وهذا كل فن الكتابة ؛ فليكف الناس عن التحدث إلينا عن أبحاث فى الأسلوب أو فى فن الشعر ، مالم تستند على هذه الملاحظات البسيطة . إن الكاتب الذى يعرف مصدر الكلمات ومهمتها ، سوف يتجنب استعمال الكلمات التى لا تتضمن أى فكرة واضحة ؛ وسوف يستعملها بشكل ثابت ، وإلا خلط بين الأفكار التى ليست هذه الكلمات غير علامات لها ، وسوف يتجنب الحذق والدهاء والتفخيم : ذلك التغرير . بما أن المقصود من اللغة هو أن ندخل أفكارنا فى ذهن الغير ، فالذى يجيد الكتابة ، ويجيد الكلام هو من يستعمل وسائل الأسلوب فى هذا الغرض . فالنحو نفسه ليس من عمل بعض العلماء الأدعياء ، الذين يفرضون أهواءهم على تلامذة مساكين ، بل له منطقه الخاص ، ويجب إقامته على أساس الاحساس .

لأن يشاهد الانسان نضج التفكير البشرى ، وفى نفس الوقت قيام العقائد التى تتيح له حياة سعيدة ، واعياً أنه لا شئ إلا ويتولد من أفعاله الخاصة سواء فى ذلك العلم أو الاخلاق أو الفن : أهناك منظر أجدر من ذلك بتهيئة الاهتمام والسعادة والزهو للمشاهدين ؟ ولا نقصد زهو ذلك الذى يتحدى الآلهة ، مادمنا لا نستطيع أن نعد من يعترف بجهله ، ويرتضى هذا الاستسلام الهائل ، من بين الموقفين ، إلا إذا ضحينا وصغرنا من شأنهم . وإنما نقصد الابتهاج الذى يشعر به رجل كان مشرفا على الغرق فى الأغوار ، ثم توصل إلى الشاطئ فبنى كوخا بيديه الحكيمتين القديرتين . إن العنوان الذى اختاره لوك يبدو متواضعاً ؛ فالأمر لا يتعلق إلا « بمقال » Essay ؛ ولكنه مقال عن الادراك الانسانى : عجيبة العجائب . إنه يتضمن مبدأين فقط : تأثيرات الأشياء الخارجية على الحواس ، وعمل الروح الذى يتلو هذه التأثيرات . وهذه المبادئ ، إذا وقفنا على نشاطها ، ودرسناها وحللناها ،

تكفى لاشباع حب استطلاعنا ؛ إلى هذه الدرجة تأتى بالمعجزات ، وإنها لمعجزات حقيقية . سيتوالى كثير من العلماء قبل أن نعرف على التحقيق ما الارادة ، والذكريات ، وصور الخيال . إن الادراك منجم لا يفرغ ، يعطى معدنا صافيا ، صفته لا تخدع . « عندما يتعمق الناس البحث إلى أبعد مما تسمح لهم مقدرتهم ، مستسلمين فى عرض ذلك المحيط الواسع حيث لا يجدون قاعاً ولا شاطئاً ، فلا عجب أن يكثروا من الأسئلة ، ويضاعفوا المشاكل التى لا نفع لها بما أنها لا يمكن أن تجد حلا واضحاً اللهم إلا اضطراد شكوكهم وازديادها ، ووقوعهم آخر الأمر فى ارتياب محض . » وبالعكس ،

« إن معرفة عقلنا وحدوده تكفى لعلاج الارتياب والاهمال الذى نستسلم إليه عندما نشك فى مقدرتنا على كشف اليقين » .

***

يمدح لنا بيير كوست التوفيق الذى لاقاه مؤلف الأستاذ ، فى المقدمة التى دبجها للطبعة الثانية باللغة الفرنسية : « مقال فلسفى عن الادراك الانسانى » (١٧٢٩) : « إنه أروج مؤلف لواحد من أعظم العباقرة الذين ظهروا فى انجلترا فى خلال القرن الأخير . لقد نشرت منه فى حياة لوك أربع طبعات بالانجليزية خلال عشر سنوات ، وبما أن الترجمة الفرنسية التى نشرتها فى ١٧٠٠ جعلته معروفا فى هولاندا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا ، فقد اشتهر فى هذه البلاد شهرته فى انجلترا ، إذ لم ينقطع الناس عن التعجب مما يسود هذا الكتاب من أوله إلى آخره من عمق وسعة معلومات ودقة ووضوح . وأخيراً فان مما يرفع هذا الكتاب إلى ذروة مجده ، مالقى من تقدير فى أكسفورد وفى كمبريدج ، حيث يدرسونه ويشرحونه للشباب كأصلح كتاب لتهذيب عقولهم وتنظيم وتوسيع معارفهم ؛ حتى إن لوك يحتل الآن مكان أرسطو وأشهر شراحه فى هاتين الجامعتين الشهيرتين . »

إن رواج كتاب فلسفى لمغامرة فكرية كبيرة على الدوام : أما رواج كتاب لوك فقد تم بسرعة لم يسبق لها مثيل . لقد استفاد لوك من الوسطاء الذين أوجدتهم تحت تصرفه التبدلات التى حدثت فى أوربا . وكان صحفيو هولاندا أول من نادوا بشهرته ؛ وعلى الأخص جان لى كابر ، فى « المكتبة العالمية » :

مقتطفات من كتاب انجليزى لم يظهر بعد ، عنوانه مقال فلسفى عن الادراك الانسانى ، يشرح فيه المؤلف مدى معارفنا الأكيدة وكيفية الوصول إليها . »
هناك منفيان ، أحدهما دافيد مازيل ، والثانى بيير كوست الذى لم ينقطع الناس عن ذكره كأنه ظل للمؤلف — فسر أحدهما تفكيره السياسى والثانى تفكيره الفلسفى . مات لوك فى عام ١٧٠٤ ؛ ومنذ عام ١٧١٠ قدمت ترجمة « مؤلفاته المختلفة » إلى الجمهور الفرنسى جوهر ما كتبه . وفى ألمانيا ، قرأ توماسيوس « المقال الفلسفى » نحو عام ١٧٠٠ ، فجعل منه هذا الكتاب أحد المبشرين بعهد الأنوار : إن لوك يقف فى منحنى الطرق الأوروبية التى تقود إلى العصر الجديد .

والحق أن تفكيره قد تعرض لبعض التبدلات . فمهما كان مذهبه يقوم على التجربة والحس ، فانه أوحى مع ذلك بمثلية بركلى Idéalisme (١) : وعلى كل ، فان ذلك لا يعد أكبر مغامراته غير المنطقية ؛ لأننا ، إذا صرفنا النظر عن النقطة التى بدأ منها ، وعشنا فى داخل نظريته الفلسفية ، لوجدنا أنفسنا لا فى عالم الحقائق بل فى عالم النسب والصلات . لم يرد ، بأى ثمن كان ، أن يدمجه الناس مع الماديين ، بل كان على النقيض يؤكد وجود كائن أبدى ، جوهر مفكر ، لا حد لحكمته ؛ وكان فى بيانه المسهب الدقيق صفة من الاصرار بل من التعاظم ؛ إذ يثبت فيه أن المادة لا يمكن أن تشترك فى الأبدية مع روح أبدية(٢) . ولكنه قال عرضا — وكأنما قد فتنته الفكرة التى كونها عن عظمة الله وجلاله — إن الله كان فى قدرته ، على كل حال ، أن يعطى « لبعض كتلة من المادة — إذا وجد ذلك مناسبا — قدرة الادراك والتفكير . . .(٣) » وكانت هفوة ، هاجمها اللاهوتيون فى الحال ، هفوة استشفها فولتير(٤) واستغلها ، وأذاعها ، حتى انتهت إلى تأويل معكوس

(١) مذهب فلسفى يعتبر الأشياء صوراً عقلية لا أجساما مادية . [المترجمان]
(٢) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ١ .
(٣) مقال فلسفى ... القسم الرابع ، ٣ .
(٤) فولتير : قال لوك بكل تواضع : « لعلنا لن نستطيع أن نعرف ما إذا كان مخلوق مادى صرف يفكر أو لا يفكر . » ... مثل المعتقدين بالخرافات فى المجتمع مثل الـ فى الجيش : يمتلكهم الرعب بلا داع . لقد صاحوا إن لوك يريد أن يقلب الد

لمؤلفه كله : أصبح لوك ماديا برغمه . لكنه كان يريد أن يكون مسيحيا ، وكان التمييز بين العقل والايمان مما يشغله كثيراً : ففائدة العقل « كشف اليقين أو أرجحية المحمولات والحقائق التى يتوصل إليها الذهن باستنباط مستمد من الأفكار التى يكتسبها باستعمال مقدراته الطبيعية أى بالاحساس أو بالتفكير » — أما الايمان فهو « تقبل كل قول لا يستند هكذا على استنباط العقل بل على الثقة بقائله ، على تقدير أنه يأتى من قبل الله ببعض اتصال خارق للعادة . هذه الطريقة فى كشف الحقائق للناس هى ما نسميها بالوحى » . إذن فقد كان مؤمنا بالوحى ، بالرسالة الالهية للمسيح ، بسلطة الانجيل ، بالمعجزات ؛ كان يعتقد أن أشد الناس وسوسة ، وأغرقهم فى الارتياب ، لا يمكن أن تخالجهم ذرة شك فى الوحى الانجيلى : وهذه كانت ألفاظه بالذات . ولكن بما أنه كان — من جهة أخرى — يلخص العقيدة إلى نهاية صغرى : الايمان بالمسيح والتوبة ؛ وأنه كان يقول إنه لا يشترط شرط آخر لانقاذ الأرواح إلا قبول رسالة المسيح ، والتزام سلوك طيب ؛ وبما أنه كان يرفض الاعتقاد بأن كل سلالة آدم قد حكم عليها بعذاب أبدى لا نهائى من أجل خطيئة الرجل الأول ، الذى لم يسمع عنه قط ملايين من الناس : فقد كانوا إذ ذاك يعدونه بين ناكرى الوحى ويشبهونه بتولاند ، ويضعون مؤلفه « المسيحية المعقولة *Christianisme raisonnable* » بجانب « المسيحية دون أسرار » : وكان ذلك يؤلمه أعمق الألم ، لأنه إنما كان يقصد على التحقيق أن يرد الايمان إلى أولئك الذين نبذوا الدين بفعل آلية التقاليد وغموض العقائد وتباين المذاهب ؛ ولأنه إنما كان يريد أن يثبت أن الدين الطبيعى لا يكفى فى ذاته ؛ ولأنه أخيراً إنما كان على التحقيق يريد إفحام المعترفين بالله الناكرين للوحى ، Deistes ، المتذرعين فى إنكاره بالمبادئ العقلية .

= رأساً على عقب ... لكن الأمر لم يكن يتعلق بالدين قط فى هذه المسألة ؛ بل كانت المسألة فلسفية محضة مستقلة قطعاً عن الايمان والوحى . ما كان علينا إلا أن نفحص بلا مرارة ما إذا كان هناك تناقض بين قولنا : تستطيع المادة أن تفكر ، وقولنا : إن الله يستطيع أن يعطى التفكير للمادة . لكن اللاهوتيون يقولون فى الغالب إننا نهين الله لو لم نكن على رأيهم ... « رسالات فلسفية » ، رسالة ١٣ عن لوك — والقاموس الفلسفى لفولتير : باب الروح « sur M. Locke » ، *Lettres Philosophiques*, [المترجمان]

هذه هي عواقب ومحذورات تفكير لم يكن متسقا على الدوام — تفكير هيأ الفرص باختياره لمخالفيه ، ولكنه بالرغم من التفسيرات الخاطئة ، والانحراف والتيارات المضادة ، استمر مؤلفه يعمل في اتجاه كان من السهل إدراكه . ظل لوك الرجل الذي يدعو الحكماء ألا يزرعوا إلا في حديقتهم . حديقة للزراعة : هل يحتاج الانسان إلى أكثر من ذلك لكي يتوهم أنه في الفردوس؟ أو على الأقل ليروح عن نفسه ، وليجد بواعث على الحياة ؟ — ظل لوك على الأخص الرجل الذي لفت الأنظار إلى ألزم لعبة وفي نفس الوقت أمتعها : السيكولوجي . دراسة محركات العقل البشري ؛ والملاحظة والفهم بدلا من الحكم والادانة : إنه لعمل ومتعة تناولها كونديالك Condillac ، فالايديولوجيون (علماء الأفكار والتصورات) ، ثم تاين Taine بالصقل والتهذيب ، حتى وصلتنا ولا زالت تشغلنا وتسحرنا .

الفصل الثانى

الاعتراف بالله وإنكار الوحى[1] — والدين الطبيعى

هاك أيضاً إحدى الصلات القوية العديدة ، التى تربط ما بين النهضة والزمن الذى ندرسه ربطا مباشراً . لقد أتى هذا المذهب — الاعتراف بالله وإنكار الوحى — من إيطاليا ومن ثم هاجر إلى فرنسا منذ القرن السادس عشر حيث استقر ؛ ذلك لأنه اتخذ هناك عناوينه الصريحة القاطعة ، ولأن بيانات توالت بلا انقطاع محاولة إيضاح وتحديد كيانه الغامض . واستبان كثيراً فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، ثم لم يعد يعيش إلا فى الظلال .

ولكن فرعا انجليزيا انفصل عن الشجرة الأصلية ؛ كتب إدوارد هربرت، بارون دى شربرى ، فى باريس عام ١٦٢٤ ، إقرارا بمبادئ هذا المذهب ، لا يحمل مسحة الانكار والتجديف ، بل الاحترام والتقوى وشئ من التصوف « إنى أنبهك من البداية ، أيها القارئ العزيز إلى أنى لست أقدم لك حقائق الايمان ، بل حقائق الادراك . . . » لا ريب فى ذلك . بيد أن هناك حقائق دينية يتقبلها الادراك ، وتلك كانت طبيعة المبادئ المذهبية للبارون هربرت دى شربرى : هناك قدرة سامية — يجب أن نعبدها ؛ ومباشرة الفضيلة جزء من العبادة التى يؤديها الناس لله ؛ وبالتوبة نكفر عن الجرائم والطغيان ؛ وسيلقى الانسان بعد هذه الحياة العقاب أو الثواب .

ولما انتقل هذا المذهب إلى انجلترا ، ازداد وازدهر فى هذا الوسط الجديد . إذ وجد الأرض والسماء التى توافقه ، فهو يشعر كأنه فى بيته . واحتدمت المعارك ، علناً ، كأنما على قارعة الطريق ، بين محبذيه ومعارضيه . وذهب به تولاند إلى أقصى درجات المغالاة فى التعصب . وقام ضده بنتلى و بركلى

---

(١) Le Déisme .

وكلارك وبتلر ووار برتون يدافعون عن الدين المنزل : والخلاصة أنه ، « ما من بلد تحدد فيه الدين الطبيعي واتضح أكثر من انجلترا . . . (١) »

ويعد حين ، عندما يتقاذف الأفكار المد والجزر ، ستتقبل فرنسا الدييزم (٢) من جديد ، إذ سيبدو لها موشّى بصفة أجنبية . سيقتبس فولتير منه فلسفته الدينية ، وسيصور جان جاك روسو ، فى شخص اللورد إدوار بومستون (٣) ، الرجل « الديست » المثالى ، رجلا ماديا وفاضلا فى نفس الوقت . ولكنا لم نصل بعد إلى زمن تمجيده ، بل مازلنا فى الوقت الذى يكافح فيه ليثبت أقدامه .

ويسير علينا أن ندرك صفاته السلبية : « لا ينبغى أن نغضب أنفسنا ؛ فما من شئ يخالف ذوق عصرنا أكثر من ذلك (٤) » . كان هناك دين يرغمنا ، دين كاثوليكى أو بروتستانتى أو يهودى ، والناس يوقفون هذا الارغام . لم يعد أى قسيس أو راهب أو حاخام يدعى الاستحواذ على السلطة . لم تعد هناك أسرار مقدسة ، ولا شعائر ، أو صيام ، أو تعذيب للنفس ؛ ولا إلزام بالحضور إلى الكنيسة ، أو المعبد . لم يعد للكتاب المقدس قيمة خارقة للطبيعة ؛ لم تعد هناك أسفار ، ولا وصايا . لقد دخل الدييزم فى دائرة التسهيلات المتزايدة التى يقتضيها الزمن . بدل الناس من صورة الله ؛ فهم لا يريدون غضبه ، ولا انتقامه ، ولا حتى تدخله فى سير الأمور البشرية . فلم يعد الله يبدو مضايقا ، بل أصبح بعيداً متوارياً . إن معنى الخطيئة ، ولزوم الغفران ، والارتياب فى شأن السلام ، التى طالما عكرت صفو الضمائر على مر العصور ، لم تعد تقلق أبناء الناس.

ولكن ترى ما هى الصفات الايجابية للدييزم ؟

***

إذا كان الدييزم ينكر إله إسرائيل ، إله ابراهيم ويعقوب فهو على

---

(١) المكتبة الانجليزية ، ١٧١٧ القسم الأول ، ٣١٨ .

(٢) من أجل ضرورات الترجمة اضطررنا إلى استعمال كلمة « الدييزم » محل « مذهب المعترفين بالله الناكرين للوحى »

(٣) Lord Bomston صديق سان برو Saint-Preux فى رواية جوليا Julie أو (هيلوييز الجديدة) . القصة التى أكسبت روسو شهرة لم يكن لها مثيل . [المترجمان]

(٤) الأب بوفيبه Buffier مبادئ الميتافيزيقا فى متناول الجميع ١٧٢٥ ص ٩٢

نال مرتين شرف الاشتراك فى هذه المحاضرات فى عام ١٧٠٤ وفى عام ١٧٠٥ فماذا يقول عن أنصار الديزم ؟ إنهم أربعة أنواع . أولئك الذين يتظاهرون بالايمان بوجود كائن أبدى ، لامتناه ، مستقل عاقل ، ولكنهم ينكرون العناية الالهية . — وأولئك الذين يؤمنون بالله وبالعناية الالهية ، ولكنهم يزعمون أن الله لا يبالى بأفعال الانسان ، طيبة كانت خلقياً أو سيئة ؛ فالأفعال لاتعد طيبة أو سيئة إلا بمقتضى قوانين بشرية وضعت بطريقة تعسفية — وأولئك الذين يؤمنـــون بالله وبالعنـاية الالهية ، وبالصفـة الالزاميـة للأخلاق ، ولكنهم لا يعتقدون بخلود الروح وبالآخرة .

« وهناك نوع آخر من أنصار الديزم لديهم — من كل النواحى — أفكار سليمة وصحيحة عن الله وعن صفاته كافة . إنهم يفاخرون بالايمان بوجود كائن واحد ، أبدى ، لامتناه ، عاقل ، قادر على كل شئ ، كامل الحكمة، خالق ، حفيظ ، هو السيد المطلق على الكون . . . »

إن أسلوب صامويل كلارك هنا شبيه بأسلوب ميشيل لى فاسور : إن بعض المعتدلين من أنصار الديزم مازالوا يحتفظون بعناصر دين إيجابى ؛ لكنهم لسوء الحظ ينكرون الوحى .

والآن ، إذا سألنا رجلا مدنياً ، لا دينياً — مثل درايدن Dryden اللبق الرقيق — فهل نخطئ فى ظننا أننا نجد فى أشعاره بعض الادانة ؟ ولكنها إدانة مخففة وكأنها مشفقة ، لأنه واع أنه لا يزال هناك شئ من التدين لدى عدد كبير من أنصار الديزم .

صادف درايدن أنصار الديزم أولئك ، فى تتبعه للفلاسفة الذين عبروا عن رأيهم فيما يخص الخير الأسمى Summum bonum ووصفهم كما يلى : « يعتقد نصير الديزم أنه يقف على أرض ثابتة ، أوريكا (١) ! لقد

---

(١) *Euréka* ! : لفظ يونانى معناه « وجدتها ! » وكلمة أصبحت مشهورة ، وهى التى صاح بها أرشميدس لما كشف فجأة — وهو يستحم — قانون الأجسام الطافية (نظرية الماء المزاح). وكان أرشميدس يفكر فى ذلك الوقت فيما كلفه به الملك هيرون — ملك سيراكوز — أى فى تحليل سن من الذهب مشتبه فى خلطها بالفضة . فوجد فى أثنـاء استحمامه — أن أعضاء جسمه تفقد من وزنها حين يغطس فى الماء ، وترفع الماء أى تزيحه بكمية تتناسب مع الوزن ... كان هذا ضوءا قاده إلى كشف تلك القـاعدة التى اشتهرت باسمه : وخرج من الحمام وطار فى الطريق يصيح : أوريكا ! أوريكا ...! وجدتها...وجدتها ! [المترجمان]

انكشف السر الأعظم ! — إن الله مصدر الخير ، المصدر السامي الكامل — أما نحن فقد خلقنا للخدمة ، وسعادتنا في خدمته — فاذا كان الأمر كذلك ، فلابد من أصول للعبادة — توزعها السماء على كل الناس بالقسطاس — ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الله مغرضا ولكان البعض يحرم — من الوسائل التي من العدل أن يفيئها على الجميع — وقوام هذه العبادة الشاملة حمد الله ، والابتهال إليه — واقتراض الحسنة منه ، ثم ردها — وحينما تنزلق طبيعتنا الضعيفة في الخطيئة ، — يكون التكفير في التوبة — ومع ذلك ، فما دمنا نشهد أن العناية الالهية — توزع خيراتها ، في تفاوت ، على الجنس البشري — ومادامت الرذيلة تنتصر في هذه الدنيا بينما تذوي الفضيلة — (عار ولاشك ، لا يستطيع العدل السامي أن يتحمله) — فان عقلنا يوجهنا إلى حالة مستقبلة حيث تستبين كل طرق الله الصالحة — استئناف سام ضد الحظ وضد القدر — سوف يعاقب الأشرار وسوف يجزي الأخيار — هكذا سيصعد المرء بفضل قدرته الخاصة إلى السماء ، — دون أن يكون ملزما قبل الله بالتزام آخر . . . (١) »

فأنصار الدييزم الذين يصفهم درايدن على هذا المنوال عقليون ، لكنهم عقليون ، يشعرون بحنين إلى الدين .

فالدييزم ، — كما يتبين لنا من كتب ذلك الوقت ، يضعف فكرة الله : ولكنه لا يمحوها . إنه يجعل الله موضع عقيدة غير معينة ، ولكنها إيجابية . وهذا يكفي لكي يحتفظ أشياعه بشعور من التفوق على إخوانهم الأشرار ، الكفار ؛ يكفي لكي يصلوا لله ويعبدوه ، لكيلا يشعروا أنهم منعزلون ، ضائعون ، يتامى ؛ ويكفي لكي يجد رعاة سافويا فيما بعد (٢) ، Les Vicaires Savoyards عندما

---

(١) الدين الدنيوي *Religio laïci* ، ١٦٨٢ ، الفقرات من ٤٢ إلى ٦٣ .

(٢) إشارة إلى مؤلف جان جاك روسو « إقرار بالايمان لخوري من سكان سافويا » *Profession de Foi du Vicaire Savoyard* وهذا الاقرار من أبدع صفحات كتابه المشهور « إميل » — الجزء الرابع — يشرح فيه على لسان راهب أفكاره الفلسفية والدينية ويدرس المسألة الدينية من حيث صلتها بالأخلاق والسعادة ، ويبين لنا لزوم دين شخصي يقوم على أساس مشاهد الطبيعة وعلى أساس (الروح الالهية) التي يكشفها المرء لا بعقله بل بالحس والضمير . لذلك يعد « الاقرار » هجوما على المادية والكفر وليس هجوما على التقاليد المسيحية . ولقد كتبه روسو في أسلوب قوي جميل حتى أصبح كتابه يعد من أروع صفحات الأدب الفرنسي ، وحتى أصبح «الاقرار بالايمان» إنجيلا =

تضيء الشمس جبالهم ، سر تلك المكاشفة القلبية ، ويؤمنوا من جديد بالدموع . إنه لعسير على المرء أن يكفر بالله في قسوة ووحشية ، ويسير عليه جدا أن يؤمن بالله وينكر الوحي . إن العصيان التام ، الانكار المطلق يتطلب شخصيات غير عادية . يقول بايل «لافرق تقريباً بين الكفار وأشياع الدييزم ، لو فحصنا الأمور بالدقة » . ولكن ما أكثر المعاني التي يمكننا أن نضمنها تلك الكملة «تقريبا» ! ويقول بونالد : « إن نصير الدييزم لم يتح له بعد الوقت الكافي ليكون كافراً » . أما نحن ، فيخيل إلينا ، بالعكس ، أنه رجل لم يشأ أن يكون كافراً .

لا عجب أن ينضج الدييزم في بلد اعتاد سكانه إيقاف تفكيرهم عند النقطة التي يريدونها ؛ حيث يحطمون فيه قوة المذهب إذا زاد عن حده وأصبح خطراً يهدد أخلاق الشعب . فلنصدق بشهادة معاصر : « يعد الانجليز دائما شعبا على استعداد طيب لقبول مشاعر الدين والفضيلة ؛ وبالرغم من أننا لا يسعنا إلا أن ندهش لما نراه من تقدم الكفر والرذيلة بيننا ، إلا أن أسلي أن ذلك لن يكون إلا مرضا مؤقتا ، لأنه لا يتفق وعبقرية هذا الشعب(١) ». إن عبقرية الشعب لا تتعجب ولا تتأثر من تحديد اختياري ، أو من تناقض . السماح لدين دون أسرار ! إن الشعب يترك السر ويحتفظ بالدين . فالتفكير عند الانجليز ليس مسألة منطق فحسب ، بل مسألة إرادة أيضاً .

***

إن أشياع الدييزم يحتفظون —بجانب ذلك— بفكرة الاذعان لقانون : قانون الطبيعة .

= لأشياعه . قال عنه فيكتور كوزان V. Cousin إنه أفخم مؤلف في القرن الثامن عشر ، ويقول بيير تراهار P. Trahard في مؤلفه : « أساتذة الحساسية الفرنسية » إنه سيأتي يوم يظهر فيه جان جاك روسو في نظر الكنيسة كرسول بعثته السماء لينقذ من الدين ما يمكن إنقاذه . أما عن جملة « عند ما تضيء الشمس جبالهم » فان راهب سافويا يحدث زميله فوق جبل مرتفع بالقرب من جبال الألب ، في يوم من أيام الصيف ، حينما تضيء الشمس قمم الجبال بأشعتها الساطعة ... عن « الاقرار بالايمان » أنظر كتاب بيير موريس ماسون : « دين جان جاك روسو » ، الجزء الثاني ، P. M. Masson, *La Religion de J. J. Rousseau*, Hachette, 3 Vol., 1916. [المترجمان]

(١) ريشارد بلاكور : مقال عن موضوعات عديدة ، ١٧٦٢ ، الجزء الأول .

الأقل لا يزال يعتقد بوجود إله . وإذا كان ينكر الدين المنزل ، فهو على الأقل لم يرد أن تكون السماء فضاء خالياً ، ولم يرض أن يجعل الانسان وحده مقياساً للكون . حتى إنك لترى فى بعض الأحيان تعبيراً أقل جفاء أو نعتا أرق حاشية ، ينزلق بين الكلمات التى كان الكاثوليك والهوجونوت والانجليكان يؤاخذون بها أنصار الدييزم : كرجال يشتركون فى العقيدة الأولى والأخيرة ، مع نفس الذين يناقضونهم : الايمان بالله . انظر كيف يتكلم ميشيل لى فاسور القسيس (بجمعية الأوراتوار) الذى أراد أن يدافع عن شرف الجمعية المتألمة من موقف ريشارد سيمون ، فنشر فى هذا الغرض فى عام ١٦٨٨ مؤلفا ضخما « عن الدين الحقيقى » : « بعض أنصار الدييزم الذين هم أكثر حكمة وبصيرة من أعضاء الأكاديمية والأبيقوريين ، يعترفون بسلامة نية بأن هناك مبادئ دينية وأخلاقاً طبيعية ، على الرجل أن يتبعها. ولكنهم يضيفون أن هذه المبادئ كافية وأننا لسنا فى حاجة إلى الوحى ولا إلى الشريعة ليعرفنا بواجباتنا نحو الله ونحو إخواننا . وإننا لنستطيع أن نسير بفضل العقل ؛ وسيرضى الله دائماً ، إذا تبعنا المشاعر الدينية والأخلاقية التى بثها فى نفوسنا . . . (١)» هكذا يرى هذا المادح الكاثوليكى ، أن بعض أنصار الدييزم (بعضهم ، لأن الفئة تتضمن أنواعاً جد مختلفة) — لا يمثلون إنكارا مطلقاً ، بقدر ما يمثلون انحرافا مؤسفاً .

ولنأخذ الآن رأى البروتستانت . لقد خصص العالم روبرت بويل ، الذى يحزنه سريان عدم التصديق ، ريع منزل يملكه فى لندن لمؤتمرات سنوية قد حملت اسمه : مؤتمرات دينية ، لا تقصد تأجيج النزاع بين المذاهب — بل تقوية المبادئ العامة للايمان : « تبيان البراهين التى تؤيد صحة الدين المسيحى ، والذود عنها ضد هجوم غير المؤمنين ، مثل الكفار ، وأنصار الدييزم والوثنيين واليهود والمسلمين ، ودون مساس بأوجه الخلاف بين المذاهب المختلفة للمسيحية . » لقد لقيت « محاضرات بويل » Boyle Lectures نجاحا عظيما ؛ ودعى للاشتراك فيها أكبر رجال اللاهوت فى انجلترا وأفصح الخطباء، وكان بينهم صامويل كلارك ، الراهب إذ ذاك فى أسقفية نورويتش ، والذى

(١) عن الدين الحقيقى ، الكتاب الأول ، الفصل السابع .

كان الكاثوليك يعترفون بوجود هذا القانون : Est in homnibus lex quaedam naturalis participatio videlicet legis aeternae, secundum quam bonum et malum discernunt (١) : يوجد فى قلوب الناس شئ من القانون الطبيعى ، أى اشتراك فى القانون الأبدى ، الذى يفرقون به بين الخير والشر . . . وكان البروتستانت يعترفون أيضاً بهذا القانون بكل رضا ، لأنهم كانوا أقرب من الكاثوليك إلى المذهب العقلى ، ولأنهم كانوا أكثر استعداداً لأن يقطعوا جزءاً من الطريق بجانب الفلاسفة ، سواء لاقتناعهم ، أو للزوم التوفيق بين الدفاع عن الدين ومقتضيات الزمان . ولم يكن العون الذى يقدمه لهم الدييزم هنا يستحق الاستخفاف : لأن فى ذلك العون مقداراً معادلا من الفوز على الكفار ، الذين ستأخذهم الدهشة والارتباك .

ولكن لا يكاد الناس ينظرون فى فكرة « الطبيعة » هذه عن كثب ، حتى تظهر آراء مختلفة لا يمكن إنكارها . وكانت على الأقل ثلاثة آراء .

أول شئ لم يستطع الكاثوليك ولا البروتستانت أن يقبلوه ، هو أن هذه الطبيعة الجريئة ، — بدلا من أن تقنع بكيانها وليدة السبعة الأيام ، وأن تدين بجمالها « للذى » استخرجها من الفناء — تستبدل بمكانها رويداً رويداً مكان الخالق ؛ تصبح وسيطاً له ، بل تعمل نيابة عنه ، بل تصبح النظام نفسه ، ذلك النظام السامى الذى يجب على الله أن يجاريه ؛ وأن تصبح « الكائن »: لقد رأينا فيما سبق بأى استنكار استقبل تفكير سبينوزا .

والشئ الثانى الذى لم يستطع المؤمنون أن يقبلوه ، هو أن تكون الطبيعة نوعاً من الغريزة الأخلاقية تستطيع أن تقوم وحدها مقام الدين بأكمله : فلا يكون الدين حينئذ إلا صلة بين القوانين الطبيعية والانسان ، ولا شئ غير ذلك .

والشئ الثالث : إذا اعتقدنا أن الطبيعة « أم رءوم » كما يقول لاهونتان؛ أو كما يقول شفتسبرى : Nature has no malice ؛ وأنه يكفى لعمل الخير

---

(١) القديس توما الأكوينى Saint Thomas d'Aquin فى كتابه المشهور : *Summa théologica* ويعد هذا القديس أشهر لاهوتى كاثوليكى وأكبر فلاسفة المسيحية فى القرن الثالث عشر . [المترجمان]

أن نتبع القوانين الطبيعية : فما الرأى فى الخطيئة الأصلية وما تلاها من فساد ؟ وماذا يعنى لزوم تخليصنا ؟ أفلا تكون الحياة إذن امتحاناً مؤقتاً نكافح فى أثنائه ضد المبادئ السيئة التى نحملها فى أنفسنا ، حتى نحظى بالجنة ؟

ما هى الطبيعة ؟ لقد عرض هذا السؤال بكل مافيه من شدة — كما عرضت إذ ذاك كل الأسئلة الأخرى — لأولئك الشجعان الذين لم يسمحوا — أياً كان الحزب الذى ينتمون إليه — بالالتجاء إلى الحيل أو اللف والدوران. لأنهم كانوا يتحرقون إلى الحقيقة ، وكانوا جميعاً يكافحون فى سبيل النور . كلما صعبت المسائل بدت لهم جديرة بالفحص . ما هى الطبيعة ؟ — سرعان ماتحققوا من أن هذه الكلمة قد اتخذت مختلف المعانى ، وبذا ، كانت تسبب « لبساً قطيعاً فى كلام الجهال وفى كلام العلماء على السواء » . إن الطبيعة حكيمة . إن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا . إن الطبيعة لا تتجاوز غايتها أبداً . إن الطبيعة تفعل الأصوب دائما . إن الطبيعة تسلك أقصر طريق . إن الطبيعة لا تبدو أبداً مسرفة فيما لا لزوم له ، ولا عاجزة فيما يلزم ويفيد . إن الطبيعة حافظة بذاتها . إن الطبيعة تعالج الشرور . إن الطبيعة تحرص دائما على حفظ الكون . إن الطبيعة تكره الفراغ . . . ما أكثر تلك الأمثال السائرة التى لا صلة بينها ولا مناسبة ! وما أكثر التفسيرات المتناقضة غير المتناسبة ، التى تتعلق كلها بموضوع واحد : خالق الطبيعة ، جوهر شئ ، نظام الأشياء ، شئ مثل نصف إله ، وغير ذلك كثير(١) .

لم يستطع الناس التوصل إلى اتفاق ، ليس أكثر من قبل ، ولا أكثر من بعد . ولكن هذا كان مثاراً لألمهم . إن روبرت بويل — الذى أشار إلى هذا الارتباك فى الألفاظ التى ذكرناها ، والذى رجا أن يحاول الناس إدخال بعض النظام على الطرق المختلفة لتفسير هذه الكلمات ، — لم يكن يبحث عن تعريف قطعى ، بقدر ما كان يعبر عن احتجاج ضمير مسيحى ، مخافة أن تنتشر بين الناس عادة ابدال الله بالطبيعة ، واحتج بيير بايل ضد الفكرة السخيفة — التى كان من حظها أن تنال نجاحاً غريباً فيما بعد — فكرة أن الناس طيبون بطبيعتهم . الطبيعة ؟ أولا لم يلاحظ أحد المشاعر التى تولدها فى قلوب الناس

(١) روبرت بويل ، عن الطبيعة ... لندن ١٦٨٦ ، Robert Boyle, *De ispa Natura, sive libera in receptam naturae notionem disquisitio*, Londini, 1686

بالضبط . « لا توجد كلمة نستعملها بطريقة مبهمة أكثر من كلمة « طبيعة » . إنها تدخل فى كل أنواع الكلام ، حينا فى معنى ، وحينا آخر فى معنى غيره ، ولم تتوقف أبداً عند فكرة معينة . ولكن مهما كان الأمر ، فاننى أعتقد أن أولئك الذين يجيدون التفلسف سيعترفون بأنه ينبغى أولا — لكى نتأكد عما إذا كان هذا الشئ أو ذاك موحى به إلينا من الطبيعة — أن نعرف ما إذا كان الفتيان يعرفونه دون مساعدة أى تعليم . ولا أظن أننا لم نجر تجارب لمعرفة ماذا يحدث فى ذهن رجل لم يتعلم شيئاً بعد . لو أننا ربينا عدداً من الأطفال ، بمعرفة أشخاص يكتفون بتغذيتهم ، دون أن يعلموهم أى شئ ، لعرفنا ما تستطيع الطبيعة أن تفعل وحدها ، ولكنا لا نعرف إلا أشخاصاً تعهدناهم منذ المهد وجعلناهم يعتقدون بكل ما نريده » — ثم إننا لا نكاد نفتح عيوننا ونسرحها فيما حولنا ، حتى نضطر إلى الاعتراف بأن « طبيعة » و « طيبة » ليستا مترادفتين « إننا نرى فى الجنس البشرى أشياء بالغة السوء . مع أن أحداً لا يستطيع أن يشك فى أنها من فعل الطبيعة . . . أرى أن أنقى الآباء وأكثرهم ميلا إلى تربية أبنائهم طبقا للمبادئ الانجيلية ، لا يستطيعون أن ينجحوا فى كبت الميل إلى الانتقام ، وإلى النفاق ، وإلى المقامرة وإلى الفحشاء . . . (١) » أو كما يقول أيضاً : « أنبهكم إلى أن شرلوك يفترض أن الارتضاء العام للجنس البشرى هو صوت الطبيعة ، ولذا فهو صفة أكيدة لليقين . وإذا كان هذا يثبت شيئا فانما يثبت أنه إذا أمكن أن نجعل شيئا كصوت للطبيعة ، فهو أنه ينبغى أن ننتقم ، وأن نشبع شهواتنا الحيوانية تماما كما نرضى الجوع والعطش . . . (٢) » إذن ، لم يكن ليكفى أن يتكلم الناس عن الطبيعة ليظنوا أنهم قد وصلوا إلى مصدر الطيبة ، مصدر الفضيلة . . .

إلا أن أشياع الدييزم كانوا يقنعون بالاعتقاد بأنهم يعملون مختارين فى اتجاه القوة الغامضة التى تضمن حفظ الكون ونظامه . ولما كانوا يعبدون إلها بلا أسرار ، فقد كان يخيل إليهم أنهم يذعنون لقانون إيجابى . بل كانوا

(١) بيير بايل : جواب على أسئلة قروى ، الجزء الثانى ، الفصل ١٠٥ .

(٢) بيير بايل جواب على أسئلة قروى : عما هو بالضبط شئ يصدر عن الطبيعة . وعما إذا كان يكفى لكى نحكم على حسن شئ ، — أن نعرف أن الطبيعة هى التى أرشدتنا إليه — الفصل ١١١ .

يعتقدون أحياناً أن الأديان المنزلة هى التى تسئ إلى الاله الحقيقى ، بابدال « فكرته » بصور ليست طبيعية بل مصطنعة ، ألفها رجال مغرضون ، خادعون، واستمرت بفضل الخرافة .

***

لقد تكون بين أشياع الديزم مذهب ، « مذهب جديد من العقول القوية أو قوم يفكرون فى حرية (١) ».

أنظر كيف يستدلون . إنهم يعرفون حرية التفكير بأنها : « إباحة استعال العقل لمحاولة الوقوف على معنى قول أيا كان ، بوزن وضوح البراهين التى تدعمه أو تناقضه ، بمقدار درجة قوتها » . إلا أن محكمة الضمير هذه لا تحكم دائما بالادانة — بل تقبل أى شهادة ترى فيها كفاية من الصحة ، وتقبل أى واقع يتفق مع قواعد الوضوح والصراحة . إن المفكر الحر Le libre-penseur ينبذ ما يبدو له باطلا و يحتفظ بما يبدو له صحيحاً ، فهو بعيد عن أن يكون ارتيابيا ، بل يؤمن بقوة العقل الفعالة ، قوام الحقيقة والعدل .

هنا سر القوة النفسانية التى تحركه : إنه يثق و يرتاح للتفكير فى أنه يملك مبدأ من الصحة والبداهة ، بحيث يبدو له مستحيلا أن يضيف إليه شيئا آخر ، يوضح صحته فى ضوء أقوى : فانه أدرك السر الكبير الذى لن يدركه الضعاف . إنه يجد متعة فى تكرار الصيغة السحرية التى تقنعه باقتداره على الناس وعلى الأشياء : « إنى أفكر فى حرية » . ما من أحد فى الدنيا لم يخطئ ؛ أما هو فلم يعد يخطئ أبداً ؛ بل إنه — فى نهاية الفحص الدقيق الذى يمتحن به كل شئ يعرض لبصره ولذهنه ، — يكشف الحق والخير ، جزاء على جرأته التى هيأت له أن يتخلص من الخرافة . إن توكيداته العقلية تمده بالراحة

---

(١) أنطونى كولنز : مقال عن حرية التفكير لندن ١٧١٣ Anthony Collins. A Discourse of Free-thinking, London, 1713 . — مقال عن التفكير الحر ، بمناسبة مذهب جديد من العقول القوية أو أناس يفكرون فى حرية — مترجم عن الانجليزية ، لندن ١٧١٤ . مقال عن حرية التفكير ، والاستدلال فى أهم المواد ، كتب بمناسبة اتساع مذهب جديد بين العقول القوية أو أناس يفكرون فى حرية ، ترجم عن الانجليزية ، الطبعة الثانية ، لندن ١٧١٧ .

والسعادة التى كان المؤمنون يجدونها فيما سبق فى الايمان : إن العقل لايخيب ، ولا يخيب أملك : Neque decipitur ratio, neque decipit unquam فكروا فى حرية ، وستفوزون بالباقى ، فكروا فى حرية ، تأكلوا من فاكهة شجرة المعرفة . أما الجبناء والعبيد فسيبقون فى الظلام ، خارج الفردوس . « لا شئ يخالف الصواب أكثر من الظن أنه من الخطر أن نسمح للناس بحرية الفحص فى أسس الآراء المكتسبة ؛ ولا شئ يخالف الصواب أكثر من الشك فى حسن نوايا أولئك الذين يستعملون هذه الحرية . فالى أن يجد الناس دليلا أفضل من العقل ، من الواجب عليهم أن يتبعوا هذا النور إلى كل مكان يقودهم إليه » .

فالتفكير الحر سعادة فى ذاته ، وهو فضلا عن ذلك ، وسيلة لتنظيم الحياة فى اتجاه السعادة . إنه بفضل التفكير — ولا شئ غيره — يستطيع الناس أن يصلوا إلى معرفة الحياة البشرية تمام المعرفة ، وأن يقتنعوا بأن البؤس والشقاء عواقب الرذيلة ، بينما المتعة والحياة السعيدة دائما ثمرة الفضيلة . كان شيشرون مقتنعاً بذلك تماماً لما امتدح سعادة الرجل الذى يقوم بواجباته فى مرح ، والذى ينظم كل أفعاله باعتناء ، والذى لا يطيع القانون لأنه يخشاه ، بل لأنه يجده رائعا فى ذاته . فالفكر الحر يشعر بأنه لا يصغى إلا لارادته المستنيرة ، وللقوة المنطقية التى توجد فى عقله : إنه سيد نفسه كما هو سيد الكون .

كان أنطونى كولينز أول من أعلن هذه التعريفات عن التفكير الحر ؛ أولا فى المجادلات ، ثم بشئ من التفصيل فى مقاله المشهور عن التفكير الحر : *Discourse of free thinking* فى عام ١٧١٣ . حينئذ اكتسب لفظ The Free thinker ولفظ Le libre-penseur حقوق الرعوية بين الناس . كان هناك رجل مهذب gentleman شهد له الناس بذلك ، كان فيما سبق تلميذاً فى إيتون ، ثم درس فى كمبردج ، يمتلك — كما يقول لوك — منزلا فى الريف ، ومكتبة فى المدينة ، وأصدقاء فى كل مكان ، ولا مأخذ على حياته ، ينطق بالوقار Respectability الذى يعده مواطنوه الفضيلة الاجتماعية الأولى ؛ كان هناك رجل مهذب ، ليرث التركة المهوشة التى خلفها المتحررون وأشياع الدييزم ، وليستخلص الرغبات والمبادئ التى تتضمنها ويوضحها . كان المفكرون الأحرار قد بدأوا فى ذلك الوقت يمثلون البدع والذوق الحسن ؛ يرثون لحال المؤمنين

من كل نوع — الذين لم يزل لهم العدد والنفوذ — ويسخرون منهم . يخاطب أنطونى كولينز صاموبل كلارك بلهجة كلها احتقار : إن صاموبل كلارك أورثوذوكسى ، وهذا يكفى للحكم عليه . « الشىء الذى أدهشنى من السيد كلارك ، — الشىء الذى لم أتوقعه منه والذى قرأته فى دفاعه — أنه يشتبه فى أنى قليل الايمان . إن كل شخص يستطيع أن يكون آراء من هذا القبيل ، ويثير شكوكا لا تشرف مثيريها ، ولا تلقى عند القارىء الشريف البصير إلا أسوأ القبول . لست أعتقد أنى ملزم بتبرئة نفسى من شك لا يقوم على أى دليل ، ولن أرد على هذا إلا باستشهادى بأورثوذوكسية السيد كلارك . وعلى ذلك أستأذنه ، مؤكداً للجمهور أنه لا يؤمن فى كثير ولا قليل ، وأنه أورثوذوكسى تماما ، وأنه سيبقى أورثوذكسياً طوال عمره » . هذا هو التطور الذى حدا بالناس إلى أن يجعلوا الأورثوذوكس ، لا قوما عاجزين عن التفكير بأنفسهم ، أو عقولا متأخرة فحسب ، بل أشخاصاً يعوقون التقدم ؛ وإلى أن يجعلوا المفكرين الأحرار ، لا قوما يفكرون تفكيراً صائبا فحسب ، بل عقولا تشارك مشاركة إيجابية فى خير المجتمع . لم يعد بمقدور أحد أن ينعى على أولئك الأخيرين أنهم متحررون متهورون ، أنانيون ، شهوانيون ، أو أنهم صعاليك لا حسبان لهم ، أفاقون ، ساقطون . إن مفكراً حراً مثل أنطونى كولينز مثال يحتذى لطهارة الأخلاق واللباقة التى ترفعه حتى فى نظر خصومه المتعددين .

إن كولينز يملأ مقاله عن « التفكير الحر » بالنفى والانكار ، ولكن أيضا بالجزم والتوكيد ، مهاجما أمامه مباشرة ، فى عناد ، دون اهتمام بتفاوت المعانى الذى لا يزعج ذهنه أبدا — لسبب واضح وهو أنه يجهله — ودون التعرض لحجج خصومه . إنه يبدل العلامات : فيضع علامات سلبية محل العلامات الايجابية ، أو العكس : فيقول مثلا إن الضرورة مبدأ من مبادىء الحرية ، وإن المادية تحقق انتصار الفكر . تداول الناس منذ عام ١٧١٤ ، لما كان لويس الرابع عشر لا يزال على قيد الحياة ، ترجمة فرنسية لكتابه ؛ وراجت ، مادامت قد نالت شرف الطبع مرة ثانية فى ١٧١٧ . يقول لنا المترجم إن لها أهمية عالية . إلا أن البعض ادعى أن هذا الكتاب إنما كتب للانجليز ، وأنه يقتضى تفسيراً واسعاً لكى يفهمه الأجانب . ولذلك فلا يحتمل

انتشاره إذا ترجم إلى لغة أخرى . وفى هذا القول خطأ مبين ! — « فاليقين والتفكير والعقل لا وطن لها بل تخص الجميع » — « إن جوهر هذا المقال يهم كل الشعوب » . ولننوه هنا — وليس هذا موضع الغرابة الوحيد — بأن كولينز يغمر معبد « التفكير الحر » بالقديسين . يجب أن يقدس عبدة العقل العظماء الذين شاركوا على مر العصور ، فى تأسيس المذهب الجديد : — سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأبيقور ، وفلوطرخس ، وفارون ، وكاتون ، وشيشرون، وسنيكا ، وسليمان ، والأنبياء ، والمؤرخ يوسف ، وأريجين ، وفلكس ، ولورد باكون ، وهوبز ، بل حتى سنسيوس أسقف أفريقيا والأسقف تيلوتسون : الذى ولو أنه كان فى الحقيقة مادحا للمسيحية ، إلا أن مواعظه كانت ترمى إلى دعم « حرية التفكير » مصحوبة بالدين والفضيلة ، وهى ما تشارك مزاولتها فى سلام المجتمع ورفاهته . إلا أن كولينز كان فى مقدوره أن يضيف إلى أولئك المفكرين الأحرار الذين يشيد بفضائلهم ، عدة أبطال آخرين ، ولكنه يكتفى بذكر أسمائهم مخافة الاسهاب ، ويعد من بينهم إيرازم ، ومونتانى ، وسكاليجر ، وديكارت ، وغاسندى ، وجروسيوس ، وهربرت شربرى ، وملتون ، ومارشام ، وسبنسر ، وتدورت ، وتمبل ، ولوك . ويختم قائلا إنه من الصعب ، بل من المستحيل ، أن نذكر رجلا قد امتاز بعقله السليم وبفضيلته ، وخلف أثراً طيباً ، دون أن نعترف فى نفس الوقت أنه ترك لنا دلائل على « حرية تفكيره » . وبالمثل لا نستطيع أن نذكر عدواً « لحرية التفكير » ، مهما كانت منزلته إلا ويكون متعصباً أو مضطرب العقل ؛ أو يبدو جشعاً ، غير إنسانى ، كله رذائل شنيعة ؛ والخلاصة أنه لابد من أن يكون على استعداد دائم لأن يقدم على كل شئ بدعوى أنه يعمل فى سبيل الله وتمجيد الكنيسة ، وأن يخلف آثار جهله العميق ووحشيته ، وأخيراً أن يكون عبداً للقسس ، والنساء أو المال...

***

ولا يقتصر الأمر على القديسين المدنيين . بل إن تأسيس جمعية فكرية ، ووضع مراسيم وأصول تسمح بالتعرف على الأشياع وجمعهم ، والعودة إلى الاحتفال بالشعائر والطقوس ؛ هى الرغبة التى نشهدها فى نهاية التطور الذى تبعنا سيره من لحظة .

يقول سويفت : من يستطع أن يرى فى تولاند فيلسوفا ، إذا حرمناه من موضوعه الوحيد ، وهو كره المسيحية ؟ يصل الأمر بتولاند إلى تنظيم جمعية تجابه الكنيسة ، بدافع كرهه للمسيحية ، ويؤلف ترنيمة ، لا لتمجيد الألوهية ، بل لتمجيد الفلسفة ، ولكنها ترنيمة على كل حال : أيتها الفلسفة ، أنت دليل حياتنا ، تقودیننا إلى الفضيلة وتطردين عنا كل رذيلة ! ماذا كنا نصبح ، وماذا كان يصبح كل الناس فى أثناء حياتهم ، لولا عونك ؟ — أنت التى شدت المدائن ، وجمعت الناس المتفرقين ووحدتهم فى مجتمع . . . أنت التى اخترعت القوانين ، ولقنتينا قاعدة أخلاقنا وعلمتنا النظام . إليك نلتجئ . لأن يوماً واحداً نمضيه طبقا لمبادئك أفضل من الخلود . . . أى عون ننشده غير عونك ، أنت التى منحتنا الطمأنينة فى الحياة ، وأنقذتنا من رهبة الموت ؟ . . .

وهو يعلن كراهيته لكل نوع من أنواع العبادة التى يزاولها الناس : ومع ذلك ، يعرض دستوراً لجمعية جديدة ، سوف يكون الناس بفضلها أحسن وأعقل ، وسوف تبهم المرح وترفعهم إلى أوج السرور . إن محبته للجنس البشرى تدفعه إلى تأسيس جمعية « سقراطية » ، يضع أخلاقها ومبادئها ، وفلسفتها . وسيعقد أعضاء هذه الجمعية اجتماعات سرية ؛ فيها أغان ، وولائم ونبيذ ، حيث يستعملون الصيغ الكنسية . رئيس ينطق بالأشعار ويرد عليه الأشياع . لندخل لحظة ، فى أثر جون تولاند ، إلى قاعة اجتماع أولئك الاخوان ، ولنصغ إليهم :

الرئيس :
— لكى نكون سعداء .

يجيب الحاضرون :
— نؤسس جمعية سقراطية .

الرئيس :
— فلتزدهر الفلسفة .

جواب :
— مع الفنون الحرة .

الرئيس :

— صه ! فليكرس هذا الاجتماع وكل ما فيه من تفكير ، وقول ، وعمل ، فى سبيل أهداف الحكماء : فى سبيل اليقين ، والحرية ، والصحة .

جواب :

— فليكن ذلك على مر الأزمان .

الرئيس :

— لنعلن أنفسنا أنداداً و إخواناً .

جواب :

— وأيضاً شركاء وأصدقاء . . .

حتى إن الرجل الذى كان أشد الناس تحاملا على الكنيسة ، يبنى معبده أمام أبصارنا . فلنذكر أن المحفل الماسونى الانجليزى الأكبر تأسس فى عام ١٧١٧ ، وأن أول محفل فرنسى تأسس فى عام ١٧٢٥ .

الفصل الثالث

القانون الطبيعى

كان هناك القانون الالهى .

وكان هذا القانون ، كما كان الدين — يبدو واضحاً وعظيما . كانت السياسة تستند على نفس الأقوال المقتبسة من الكتاب المقدس : وهل أمتن من ذلك ؟ « اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك(١) » . إن محبة الله تجبر الناس على محبة بعضهم بعضاً ، وهكذا يتولد المجتمع . وأول صور السلطان هى السلطة الأبوية؛ والملكية التى تخلفها ، هى أشيع أنظمة الحكم ، وأقدمها ، وأكثرها تمشيا مع الطبيعة ، لأن الناس بحالتهم الأصلية رعية ؛ والسلطة الأبوية التى تعودهم الطاعة ، تعودهم فى نفس الوقت ألا يكون لهم إلا رئيس واحد . إن الحكم الملكى هو النظام الأصلح ؛ وأصلح الأنظمة الملكية هو الذى ينتقل بالتوريث والتتابع ، وعلى الأخص حين ينتقل من الذكر إلى الذكر ومن الأرشد إلى الأرشد (٢) .

هكذا يبنى أسقف « مو » — مربى ولى العهد — بيديه ، المظلة التى تؤوى شخص الملك . إنه شخص مقدس ، وما من أحد فى الدنيا يستطيع أن يمس سلطانه . ولا يعنى هذا أن يكون الملك فوق كل قاعدة : بل يلزمه القانون الالهى بواجبات أقسى وأثقل من واجبات أقل الناس شأنا . إن السلطة الملكية مقدسة ، ولكنها أبوية ؛ إنها مطلقة ، ولكنها تخضع للعقل ؛ إنها تطبق بمقتضى إرادة عامة ، لا بمقتضى أهواء ؛ فليرتعد من يملك هذه السلطة العظيمة ويسئ

(١) نص العهد القديم ، تثنية ، ٦ . [المترجان]

(٢) بوسويه : سياسة مقتبسة من نفس كلام الكتاب المقدس ، ١٧٠٩ . *Politique tirée des propres paroles de l'Écriture Sainte*

الظلام ؛ ونحن أيضاً نستريح ، بينما الملك ، قد أوى إلى مخدعه ، ساهراً علينا وعلى كل الدولة . . . »

من جهة أخرى ، لدعم الفكرة القائلة بأن السلطة كلها ترجع إلى الأمير ، كان هناك نظريات سادرة فى الالحاد ، توضح أنه لا يمكن حكم الناس إلا بمعاملتهم كما لو كانوا وسائل . مثل نظرية « ماكيافيللى » التى لم ينسها النـاس بعد ، وإن بعد بها العهـد . ومثـل نظرية هوبز Hobbes ، وهى أقرب . لقد استكملت تلك النظرية الشرسة الوقحة ، الموضوعة من عام ١٦٤٢ ، صورتها النهائية فى عام ١٦٥١ ، كما ظهرت فى « اللوياثان » Leviathan (١) . وفرضت نفسها على كل مفكرى أوروبا الذين اضطروا إلى أن يحسبوا لها حسابا ، حتى ولو ليفندوها . ولكم رأى الناس فى أثناء تصفحهم لكتاب عن المذاهب اسم هوبز يظهر فيما بين السطور ! يا للدوى الذى أثارته أفكاره ! يا لها من أصداء رنانة أبداً !

كان هوبز يخاطب الناس قائلا : — إنكم مفطورون على الشر . ليس فى الدنيا أى مبدأ روحانى ؛ لا خير غير المتعة ، ولا شر غير الألم ؛ ولا هدف غير المنفعة ؛ ولا حرية إلا عدم وجود ما يعوق الشهوة . بما أن مبدأ حفظ الحياة قوامه حب الذات ، ولما كان كل فرد يدافع عن حقه فى الحياة ، فالحالة الطبيعية هى حالة القتال بين الناس ، أولئك الذئاب . « إن حالة الناس فى هذه الحرية الطبيعية هى حالة الحرب ؛ لأن الحرب إن هى إلا الزمن الذى يعلن فيه العزم على القتال أو المقاومة بالقوة ، بالقول أو بالفعل . أما الزمن الذى لا حرب فيه فهو ما يدعى السلم » . أسيتبع ذلك دمار الجنس البشرى ؟ . . . بالتأكيد ، لو لم نصطنع بعض الحيلة لمعالجة شرور الحالة الطبيعية ؛ لو لم نستبدل بالمساواة بين الناس نظاما قوامه عدم المساواة ، إذ هو النظام الوحيد الذى يستطيع أن يحميهم من أنفسهم . من هنا يلزم تأسيس هيئة سياسية ، تحت سلطة أمير يجب أن يكون — بحكم الضرورة — طاغية .

---

(١) اللوياثان : تأليف هوبز . وهو وحش مذكور فى كتاب أيوب ، العهد القديم الأصحاح ٤١ ، ١ . « أتصطاد لوياثان بشص أو تضغط لسانه بحبل » . [المترجان]

استعمالها ، لأنه سيلقى حسابا عسيراً يوم الحساب . أما والملك مسئول أمام الله ، فهو غير مسئول أمام رعاياه ؛ ليس ملزماً بأن يستشيرهم أو يتبع نصائحهم . والواقع أن نسبتنا إلى الملزمين بالطاعة قدرة فعالة تؤثر على الذين اصطفاهم الله للحكم ، مخالفة للمنطق ومخالفة للدين . وهذا المبدأ من القوة بحيث إن الشعوب لا تعفى من الخضوع حتى ولو جهر الملك بكفره ، أو أعمل الاضطهاد ؛ ليس لديهم سلاح ضد ظلم الأمراء إلا رفع العرائض ، دون عصيان أو تذمر ، بل بالدعاء لهدايتهم . إن الله يمسك من عليائه بزمام كل الممالك ؛ ويحكم الملوك رعاياهم وفق أهدافه الخفية ؛ وعلى الرعية أن تطيع دون تذمر ؛ أما الأحداث العابرة التى تفسد هذا الانسجام فى الظاهر ، فسيتضح لنا أنها تشارك فيه ، إذا نظرنا إليها لا بعيوننا بل ببصيرتنا ، وتمكنا من تفهمها فى تسلسلها .

والآن إذا نحن بحثنا عن صورة لا تشوه هذه العظمة الساطعة ، وتناسب هذه الجلالة التى تفوق البشرية ، لوجدنا فى الحال أمامنا صورة لويس الرابع عشر . إن هذه الصورة الملكية لا تفارق أذهاننا ، إنها تلاحقنا وراء الزمان ، وتلحق بنا ، إنها هنا ، إنها حية . وتتذكر حافظتنا تلك الكلمات المشهورة التى نطق بها الملك ، حتى يخيل إلينا أننا نسمعه يقولها كما حدث فى اليوم الذى سجل فيه بداية سلطته الشخصية : «الدولة أنا» l'État, c'est moi. ونحن نعرف أنه أراد أن يحقق كلمات هذا الشعار حرفياً : « ملك واحد ، إيمان واحد ، قانون واحد » ؛ وأنه حطم كل مقاومة ؛ ودافع ضد البابا نفسه — ذلك النوتى الذى يقود سفينة الكنيسة — عن حقوق الربان الذى يحافظ على سلامة السفينة : وكان هو الربان . إنه بطل الملكية . إننا نبحث عنه فى فرسايل ، فى الردهات والأبهاء ، ونتبعه فى رواق المرايا ، بين رجال البلاط المنتبهين لأدق حركاته وسكناته ؛ وحينما نترك عند حلول الليل طرق المتنزهات التى خطتها إرادته السامية ، نتجه نحو القصر مؤملين أن نجد على إحدى النوافذ ، الظل الذى يذكرنا به لابروبير La Bruyère : « هو بنفسه — إذا أبحت لنفسى القول — وزير لنفسه ؛ لا وقت لديه للراحة ، ولا ساعات خاصة ، لأنه أبداً معنى بأمورنا . لقد تقدم الليل ، وتبدل الحراس فى قصره ، ولمعت الأنجم فى السماء ودارت فى فلكها ؛ كل الطبيعة تستريح ، بعد عناء النهار ، يلفها

لن تستطيع المواثيق والأيمان إقامة السلام بين الناس ، لأنهم يخرقونها على الدوام ؛ ولا شئ يستطيع أن يكبح غرائز الناس الوحشية ، غير القوة والخوف الذى توحيه القوة ؛ وعلى ذلك يجب أن يتقلد الملك سيفا للقتال وصولجانا للعدل . يجب أن تتركز فى شخصه كل الحقوق المطلقة ؛ إن تحديد سلطته بأحد مخترعات الديموقراطية ، كالمجالس ، يعنى تشجيع الفوضى ، والسقوط توا من جديد فى وهدة الحالة الطبيعية . إن الملك ليس مسئولا أمام أحد ؛ إنه فوق كل قانون،إنه الكل فى الكل . لا ريب أننا ننزل له عن الحرية ، التى تعتز بها الشعوب إلى حد ما . وماذا فى ذلك؟ . . . مادمنا لا نستطيع التوفيق بين الحرية والحياة ، فالأفضل أن نختار الحياة . إن فن الانسان لاعجاز ؛ إنه نجح فى صنع حيوانات اصطناعية ، تماثيل آلية تمشى وتجلس وتحرك رأسها ، وتفتح فمها وتقفل عينها . وبالمثل ، نجح الانسان فى تشكيل مجتمع اصطناعى : آلة مروعة ، آلة أوتوماتيكية سياسية تقوم لحسن الحظ ، مقام المجتمع الطبيعى ؛ هذه الآلة الأوتوماتيكية تسمى « لوياثان » . « إن المجتمع العالمى الذى أسميه لوياثان ، رجل اصطناعى ، وبالرغم من أنه أقوى وأضخم من الرجل الطبيعى فهو مكلف بحمايته وتأمينه . . . »

***

ستواجه هذه النظريات الواردة من مصادر شتى — ولكنها تلتقى عند مبدأ واحد هو مبدأ السلطة — نظريات أخرى ؛ ستبدأ معركة جديدة : إنها فى أول الأمر معركة المجردات ، ولكنها لا تخلو من جمال مؤثر . سنرى الأفكار تتولد ، متهيبة ، ضعيفة ، ترفض لأول وهلة ؛ ثم نراها يشتد ساعدها . ولاتظل إحداها حبيسة فى موطنها الأصلى بل تطير وتجتاز الحدود ، تلك طبيعتها ، تلك حياتها . تبدو كأنها تحيا وتتقوى عندما تصل إلى آفاق جديدة . يهاجمها البعض بلا هوادة والبعض يدافع عنها ويوضحها بلا انقطاع ؛ فتنال نصراً يتلوه غزو ؛ حتى يأتى يوم تحس فى نفسها قوة تحفزها إلى احتلال مكان المبادئ التى ألهمت الماضى ، وقيادة الناس نحو مستقبل يأملون أن يكون أفضل . يتولد القانون الطبيعى من فلسفة : الفلسفة التى تنكر ما يخرق الطبيعة ، وما هو إلهى ، وتستبدل بفعل الله وإرادته الذاتية نظام الطبيعة ، القائم بنفسه .

ويصدر هذا القانون أيضاً من اتجاه عقلى يتحقق فى دائرة النظام الاجتماعى : لكل كائن بشرى أهلية تلتحم بتعريفه التحاما وثيقا ، يصحبها واجب مباشرتها وفقا لماهيتها . وأخيراً يصدر هذا القانون عن شعور هو : أن السلطة التى تنظم العلاقة بين الرعايا والأمير ، تنظيما تحكميا — فى الداخل — والتى لاتؤدى إلا إلى الحروب فى الخارج ، يتعين رفضها ، و إبدالها بقانون جديد لعله يوصل إلى السعادة : قانون سياسى ينظم علاقات الشعوب ، مع فكرة توليها مصائرها بنفسها — قانون الشعوب . . .

القانون ، فلسفة الحياة ، قيمة اجتماعية ، قيمة عملية ؛ القانون ، جذور عميقة ، فروع كثيفة ، كيانه لا يتغير دون كبير عناء . هناك مؤلفات عظيمة مناضلة ، تقيم الأوتاد على طول الطريق . إن تتبعها ، مع ملاحظة تواريخها ، لمشاهدة لمجهود جبار ، يزداد وعيا ، فى كل مرحلة ، بالحقائق التى يسعى فى أثرها .

١٦٢٥ — هوج دى جروت (١) : قانون الحرب والسلام

Hughes de Groot, *De jure belli et pacis*

إن الذى أعطى الاشارة الأولى ، هولاندى لاجئ إلى باريس . ولما كان موفور الحس ، جم المعرفة ، وافر الذكاء ، ويقف فى طليعة المعارك السياسية وفى قلب المنازعات الدينية ، فقد كان يتألم من أجل القتال المستمر الذى يخرب أوربا : « كنت أرى فى العالم المسيحى إفراطا فى الحروب ، لو اقترفته الشعوب البربرية لكان مثاراً لخجلها ؛ فالناس يهرعون إلى السلاح لأتفه الأسباب أو دون أى سبب ، فاذا تناولوه لم يحترموا أى قانون ، لا القانون الالهى ولا القانون الانسانى ، كأنما الغضب الجنونى ينطلق فى طريق الجرائم بمقتضى قانون شامل . . . » جروسيوس هذا ، الذى جرت عليه أفكاره الاضطهاد ، هرب هروبا روائيا من السجن الذى سجنه فيه أعداؤه وانتقل إلى فرنسا : وقدم إلى لويس الثالث عشر فى ١٦٢٥ كتابه « قانون الحرب

(١) أسم جروسيوس ، Hugo De Groot, dit Grotius . [المترجم]

والسلام » ، كتاب عظيم ، يجهله الشعب ، كما هو دائما شأن كل ما يؤثر فى مصيره أعمق التأثير . من يدرس هذا الجزء من القانون الذى ينظم علائق الشعوب أو رؤساء الدول بعضهم ببعض ؟ لا أحد ، كما يقرر جروسيوس . بل يقول الناس عادة إن الحرب لا تتفق مع أى نوع من القانون ؛ وإنه ، لأسباب تقتضيها مصالح الدولة — أسباب اخترعها « ماكيافيلى » — يجب أن نفهم وأن نبيح كل غدر وكل عنف . وهذا غير صحيح ، فهناك قانون يبقى فى أثناء الحرب بل يسود الحرب ، وهو القانون الطبيعى . والواقع أن الطبيعة قد نقشته فى قلب الانسان ، الذى تريده اجتماعياً أنيساً ؛ لا شئ يستطيع أن يفوق هذا القانون العرفى ، هذا القانون الحيوى . — « لكى تكون الحرب عادلة ، ينبغى أن تقوم على روح الانصاف التى اعتدنا أن نراعيها فى توزيع العدل . » — « فى أثناء الحرب ، تبطل القوانين المدنية : لكن لا تبطل القوانين العرفية التى تفرضها الطبيعة . »

وما القول فى القانون الالهى ؟ يحاول جرسيوس أن يحميه . يقول : إن ما قلنا يسرى ، ولو فرضنا أن لا وجود لله (وهو ما لا يمكن تصوره دون جريمة) ، أو أن أمور البشر ليست محل عنايته . أما ولا شك فى وجود الله والعناية الالهية ، فهناك منبعاً آخر للقانون ، غير الذى ينبثق من الطبيعة : القانون الذى يصدر عن إرادة الله . « إن القانون الطبيعى نفسه يمكن نسبته إلى الله ، مادام الله شاء أن يوجد فى أنفسنا مبادئ مثل تلك المبادئ . »

قانون الله ، قانون الطبيعة . . . هذه الصيغة المزدوجة ، لم يخترعها جروسيوس ، بل استعملت قبله بكثير ؛ إنها كانت معروفة فى القرون الوسطى. أين إذن صفتها الجديدة ؟ ولأى سبب ينقدها الناس ، ويحرسها الأساتذة والآباء ؟ ولماذا تثير كل هذه الضجة ؟

وجه الجدة هو فى التفرقة بين هذين اللفظين ، التى بدأت تتكشف ، وفى اختلافهما الذى يحاول أن يندعم ، وفى محاولة التوفيق بعد نفاد السهم ، التى تفرض فكرة انفصام . وجه الجدة على الأخص هو الشعور الذى سبق ذكره — والذى كان غامضاً إذ ذاك وأصبح قوياً الآن : الحرب ، والقسوة ، والبلبلة ، التى لا يكبحها قانون الله ، بل يبيحها ، بل يبررها بأغراض تسمو عن مداركنا ؛ فلعل قانوناً بشرياً يفلح فى تخفيف كل هذه الشرور التى نقاسيها ،

وفى القضاء عليها . هكذا ننتقل ، — مع الاعتذار عن تلك الجرأة — من نظام العناية الالهية إلى نظام الانسانية .

وترجم هذا الكتاب ، وفسر ، وشرح ، فى كليات القانون طوال القرن .

١٦٧٠ — سبينوزا . بحث لاهوتى سياسى ، *Tractatus theologico-politicus*

١٦٧٧ — الأخلاق ، *Éthique*

ظهرت فكرة أن الملوك دجالون ، يستغلون الدين فى دعم سلطانهم الجائر ؛ ثم فكرة أخرى عميقة ، وهى أن : كل كائن لابد أن يجاهد للابقاء على كيانه .

يكفى أن نذكر فى هذا الصدد نص «علم الأخلاق» القسم الثالث ، الفرض السادس :

«كل شئ ، مهما كان ، يجاهد ، طالما له كيان ، للابقاء على كيانه.»

الاثبات — الواقع ، أن الأشياء الخاصة حالات تعبر عن صفات الله بطريقة مؤكدة ومعينة . . . أى أشياء تعبر عن قدرة الله ، التى تدل على وجوده ، وبها يؤثر بطريقة مؤكدة ومعينة . ولا شئ يحمل فى ذاته دواعى دماره ، أى ما يقضى على وجوده . . . بل هو بالعكس يقاوم كل ما يستطيع أن يقضى على وجوده ، وبذا فهو يجاهد ، — طالما له كيان — للابقاء على كيانه . هذا هو ما كنا نريد تبيانه .

١٦٧٢ — صامويل بوفندورف : ثمانية كتب عن القانون الطبيعى وقانون الشعوب

Samuel Pufendorf, *De jure naturae et gentium libri octo.*

١٦٧٣ — كتابان عن واجبات الانسان والمواطن طبقاً للقانون الطبيعى

De officio hominis et civis juxta legem naturalem libri duo

واصل المهمة ألمانى — أستاذ فى السويد — ووسم أثره الخالد على النظريات التى كانت تتكون فى ذاك الوقت . كان صامويل بوفندورف أول أستاذ لقانون الطبيعة وقانون الشعوب ، فى جامعة هايدلبرج . فى ١٦٧٠ قبل دعوة

شارل الحادى عشر ملك السويد ، الذى عرض عليه كرسى الأستاذية فى جامعة لوند Lund . — « واجب الانسان والمواطن » : ما أعجب هذا العنوان فى ذلك الوقت ! يخيل إلينا أنه يسبق زمنه بمائة سنة على الأقل ؛ ولو أننا سئلنا إلى أى تاريخ يرجع ، لما ترددنا فى أن ننسبه إلى لغة الثورة الفرنسية . الواقع أن هذا المؤلف يتضمن أفكاراً ، ستتنقل من ذهن إلى ذهن ، حتى تسيطر فيما بعد على ضمائر القرن التالى : — قيام التجرد الفلسفى محل التاريخ ، مادام ممكنا « أن نقدر أن أول رجل إنما هبط من الفضاء ، حاملا نفس الميول التى يحملها الناس معهم اليوم عند ولادتهم » ؛ — والأخلاق الاجتماعية ، بتقدير أن الواجب « هو فعل بشرى يطابق تمام المطابقة القوانين التى تفرض علينا التزامه » ؛ — والميثاق السياسى . فالمجتمع المدنى — الذى خلف الحالة الطبيعية عن طريق الزواج ، والأسرة ، وتكوين كتلة سياسية — يقوم بالضرورة على اتفاقات : يتعاهد الأفراد على الاتحاد فى كتلة واحدة ، وعلى تنظيم أمنهم ومصالحهم المشتركة بارتضاء إجماعى ؛ ويتعهد أولئك الذين يملكون السلطة العليا بالسهر على الأمن الجماعى والمصلحة العامة ؛ وفى نفس الوقت يعد الآخرون بطاعة خالصة .

بدأ القانون الطبيعى يتكون ويزداد قوة ؛ لم يعد يطالب بمكانه فى وسط الحروب فحسب ، بل يحتله قسراً فى التكوين السياسى للدول ؛ ويسود الحياة الاجتماعية : « إن قانون الطبيعة هو القانون الذى يوافق دائما طبيعة الانسان الأنيسة والمنطقية ، حتى إنه لا يمكن أن يوجد فى الجنس البشرى ، دون مراعاة لمبادئه ، مجتمع شريف سالم . . . » لا ينكر بوفندورف القدرة الالهية ، ولكنه يبعدها إلى مجال آخر ؛ فهناك مجال العقل الصرف ومجال الوحى ؛ إذن هناك مجال القانون الطبيعى ومجال اللاهوت الأخلاقى ؛ مجال الواجبات التى نلتزم بها لأننا ندرك على ضوء العقل الطبيعى المستقيم ، أنها لازمة لارادة المجتمع البشرى ؛ ومجال الواجبات التى نلتزم بها لأن الله فرضها علينا فى الكتاب المقدس . إلا أن البراهين التى يقدمها لاثبات أن هذه المجالات لا تتعارض بل يمكن أن تتوافق ، تبين لنا اختلافها العميق . إن اللاهوت يخص السماء ، والعقل الطبيعى يخص الأرض ؛ وبوفندورف لا ينظر إلا إلى الأرض : فالسماء تبدو له بعيدة جداً .

لقد أدرك قساوسة السويد خطر هذه القسمة ، أو بمعنى أصح خطر هذه المفاضلة الصريحة ؛ وقد حدثت حينئذ ضجة كبرى ضد عالم القانون الطبيعى ، حتى اضطر إلى الاستغاثة بالسلطات المدنية لكيلا يفقد وظيفته .

وحدث العكس ، فقد انتصر .

١٦٧٢ — ريشارد كامبرلاند : بحث فلسفى عن قانون الطبيعة

De legibus naturae disquisitio philosophica.

إنه يمثل مشاركة انجلترا فى هذا السبيل : لقد فند ريشار كامبرلاند ، أستاذ اللاهوت ، والأسقف فيما بعد ، مبادئ هوبز المرذولة . فعلى أى أساس يستند ؟ على القانون الطبيعى ، الذى هو على التدقيق نقيض العنف الذى أشاد به كاتب اللوياثان : « إن القوانين الطبيعية تتلخص فيما يلى : ينبغى أن نأخذ بالرفق كل كائن عاقل . . . »

إلا أن هذه الأرض العجوز ستقدم معونة فعالة أخرى ، حيث أصبحت المنازعات السياسية جزءاً متمماً للحياة الفكرية والأخلاقية والدينية للشعب ؛ وحيث كانت الملكية — التى لم ينقطع الحديث عنها طوال القرن السابع عشر ، والتى انقلبت ، ثم تأسست من جديد ، ثم انقلبت ثانية وتأسست من جديد ، وتغيرت فى جوهرها — قد أصبحت موضوعاً لمجادلات حامية محتدمة ، أراد أن يشترك فيها البورجوازيون والنبلاء ، وليس الشعراء والفلاسفة فحسب ، بل حتى الملوك أنفسهم . ولكن الأمور لم تأخذ مجراها بتلك السرعة ؛ فعلينا أن ننتظر قليلا .

١٦٨٥ — فسخ أمر نانت

La Révocation de l'Édit de Nantes

ارتفع من فرنسا المكونة خارج فرنسا ، من الملاجئ المؤسسة فى الأراضى الأجنبية ، صوت ينادى بالعصيان . والحق أن رجال الاصلاح ، حتى بعد الاضطهاد والنفى ، لم يعتقدوا أنهم فى حل من يمين الولاء للملك ؛ ولم يحلوا

مشكلة الضمير التى عرضت لهم حلا واحداً ، لأن بعضهم ظل يعتقد أنه بما أن القانون الالهى هو أساس الطاعة نحو الأمير ، فان أخطاء الأمير لا تمس سلطة الملك ، القائمة على الحق الالهى . ولكن البعض منهم رفعوا عقائرهم منادين بمقابلة العنف بالعنف . ألقى جوريو ، من ١٦٨٦ إلى ١٦٨٩ بمقالاته «رسائل رعوية إلى المؤمنين الذين يئنــون فى أسر بابل (١) » معلناً فيها الحق فى العصيان : « إن استعمال سيف الأمراء لا يمتد إلى الضمائر » : لقد استعمل لويس الرابع عشر سيفه لاجبار الضمائر ، وبذا خرج على القانون : إن العصيان أصبح مشروعا من الآن .

ولقد انصدم بوسويه عندما سمع بذلك التوكيد ، وكرس لتفنيده مؤلفه « الانذار الخامس إلى البروتستانت عن رسائل القسيس جوريو ضد تاريخ التبدلات (١٦٩٠) : أساس الممالك الذى يقلبه هذا القسيس (٢). » — «ينشر السيد جوريو مبادئ مثيرة للفتنة ترمى إلى قلب كل الممالك وإلى تجريد كل السلطات التى وضعها الله . » يا للعجب ! لقد عانت الكنيسة المسيحية القديمة الاضطهاد دون عصيان ، وأنكر البروتستانت أنفسهم زمنا طويلا أنهم تمردوا فى فرنسا وفى انجلترا على السلطة الملكية ؛ والآن يعلن جوريو أن لنا الحق فى أن نحارب ملوكنا وأوطاننا ! إن روح العصيان هذه لشئ ممقوت . « أريد أن أثبت لكم أن إصلاحكم هذا ليس إصلاحا مسيحياً ، لأنكم غير مخلصين لأمرائكم وأوطانكم . »

لكن الأمر ، لم يكن أمر مسألة بين البروتستانت والكاثوليك : بل تدخل القانون الطبيعى فى اقتتالها . استند جوريو على جروسيوس . وكان بوسويه يعرفه تمام المعرفة ؛ كان جروسيوس عالماً بحق وحسن النية ؛ ولكنه كان سوسنيانيا ؛ كان ذهنا خطراً ، يخلط بين ما هو إلهى وما هو بشرى . ماذا كان يريد أن يقول بقانونه الطبيعى ؟ إن تخيله أن الشعب كان سيداً مطلقاً بطبيعته ، معناه بلا شك أن الانسانية — فى حالتها البدائية — كانت

---

(١) *Lettres pastorales aux fidèles qui gémissent sous la captivité de Babylone*.

(٢) *Cinquième avertissement aux protestants sur les lettres du ministre Jurieu contre l'Histoire des Variations*, 1690 *: Le fondement des empires renversé par ce ministre.*

لديها فكرة سلطة مطلقة تخصها ، وأن لها الحق فى تفويض هذه السلطة إلى من تشاء . يا له من خطأ ! إن جروسيوس ، وجوريو من بعده ، يخطئان فى المبادئ ولا يدركان معانى الألفاظ . فلنحذر الخطأ : بما أن حالة الانسانية البدائية كانت فوضى شنيعة وحشية ، ولم تكن أول الجماعات البشرية تشكل — كما يسمح لنا المنطق أن نفترض — شعباً بل قوماً رحلا ، فكيف نتصور إذ ذاك سلطة مطلقة تكون شكلا من أشكال الحكومة ؟ « من المستبعد أن يكون الشعب — فى حالته هذه — سيداً مطلقاً ، بل لا يوجد شعب أصلا فى هذه الحالة . من المحتمل أنه كانت هناك أسر سيئة الادارة وغير موطدة ؛ كما أنه من المحتمل أنه كانت هناك قبيلة ، كتلة من الناس ، خليط مهوش ؛ ولكن لا يمكن أن يكون هناك شعب ، لأن الشعب يفترض شيئاً يتضمن بعض السلوك المنظم وبعض القانون الموضوع ؛ وهو مالا يحدث إلا لدى الذين بدأوا يخرجون من هذه الحالة التعسة ، أى الفوضى » . لا يستطيع بوسويه أن يتصور أن الفوضى تفوض سلطة .

ومع ذلك فان لويس الرابع عشر ، السلطان المطلق ، قد حكم عليه بصفته هذه ؛ كان يمثل فى نظر الناس النظام القديم . ما أشد رد الفعل الذى حدث فى داخل مملكته — فرنسا — ضد مبدأ سلطة لا يصادق عليها إلا الله ! فالمعارضون ، الذين قاموا بالبحث فى المواثيق والقوانين القديمة ، عن مصادر الملكية ، مبينين اغتصابها ؛ والبارلمانيون العنيدون ، الذين دافعوا عن حقوق وامتيازات هيئاتهم الجليلة ؛ والنبلاء الذين يطالبون بامتيازات أسراء الاقطاع فى فرنسا Pairs ؛ بدأ الجميع ، بورجوازيين كانوا أو نبلاء ، منقادين كانوا أو غاصبين ، مجانين أو عقلاء ، يعبرون عن عدم رضاهم ، وعن غضبهم وعدم اصطبارهم على هذا النير ، فى الكتب التى يطبعونها فى هولاندا ، وفى المخطوطات التى يتداولونها خفية تحت أرديتهم .

وفى الخارج ، افتضح لويس الرابع عشر ، كما قلنا من قبل . ولكن من وجهة نظر القانون ، بقى اعتراض بوسويه قائما . إذا لم يكن البشر فى حالة الطبيعة إلا قبيلة رحالة ، فكيف تولد قانون من تلك البلبلة البدائية ؟

١٦٨٨ — الثورة الانجليزية

طرد جاك الثانى ، الملك بنعمته تعالى ، من العرش ؛ وتربع وليم أورانج مكانه ؛ يقول المؤرخون إن الملك الجديد ، الذى توج فى وستمنستر فى ١١ أبريل ١٦٨٩ ، « يحكم بمقتضى حق لا يفترق فى شىء عن الحق الذى ينتخب كل مالك بمقتضاه نائب مقاطعته » ؛ وإنه قبل رقابة المجلسين ، وبذا حقق انتصار الحكم البرلمانى ، وفقاً لميثاق مثالى أبرم بين الأمير ورعاياه .

أين كانت الأفكار التى نادى بها الأساتذة من فوق منابرهم ، والتى استوعبها الطلاب ، وأعلنتها الصحف العليمة ، والتى نوقشت ، ونوقضت ، ثم عادت واندعمت من جديد ، وغذت منذ جروسيوس جيلين متتابعين ؟ أين كانت الأفكار التى شرحها أساتذة الكنيسة ، ووضحها الفقهاء الرسميون ، والتى كانت تدعمها قوة التقاليد ؟ هل تقف تلك الأفكار جامدة ، بينما التجربة نفسها ، بينما الحدث الذى يقلق كل أوربا ، يهيء لها فرصة عظيمة للاعلان عن نفسها ، والمغارضة فى هذه المرحلة الحاسمة من قتالها ؟ لم يفت الناس الالتجاء إلى النظريات للدفاع عن حكم أسرة « ستيوارت » المزعزع الأركان . لقد بعثوا من زوايا النسيان كتباً تثبت شرعية الحكم المطلق ، من بينها كتب مجادل قوى ، قد دافع فى منتصف القرن عن القضية الملكية بشجاعة . كان روبرت فلمر Robert Filmer يعظ بالخضوع والطاعة ، قائلا إن حكومة مختلطة لا تؤدى إلا إلى البلبلة ، وإن الرعايا ليس لهم أى حق فى العصيان ؛ وإن هوبز كان مخطئا فى مبادئه ، ولكنه كان مصيبا فى استنباطه ؛ وإن سلطة الملوك المطلقة ضرورة لا معدى عنها . لقد أصبح فلمر بدعة العصر ، بل طبع فى عام ١٦٨٠ — ثم مرة أخرى فى خلال السنوات التالية — المؤلف الخطير لذلك «الرجل العالم» ، تحت عنوان *Patriarcha* ، موضحاً وضوح النهار أن سلطة الملوك امتداد للسلطة الأبوية : لا يجرؤ ابن ، يخاف الله والناس ، أن يعق أباه .

لقد كذبت الوقائع مزاعم أشياع جاك الثانى . وسيتقدم رجل ليخلع على الوقائع قيمة المبدأ الشامل .

١٦٨٩ — جون لوك : بحثان عن الحكومة
نكشف فى الأول مبادىء السير روبرت فلمر وخافائه الباطلة وأسسهم المغلوطة ونفندها . والثانى مقال عن مصادر الحكومة المدنية ومداها ومقاصدها الحقيقية (١)

فى نفس السفينة التى أقلعت من هولاندا ، حاملة وليم أورانج نحو انجلترا ونحو الثورة ، كان يرحل جون لوك ، فيلسوف الأزمان الحديثة . وهو الذى سيستجيب فى بحثه لدعوة الملكيين إلى القتال .

وهو فى الواقع يردد الأفكار التى سبق أن سمعناها مراراً : ولكنه سيدفع بها إلى أبعد مما وصلت إليه من قبل ؛ ويلزمها بأن تثبت ، بسلسلة من الاستدلال المنطقى ، شرعية الحق فى العصيان . إنه يبدأ من حالة الطبيعة ، كما سبق أن فعل بوفندورف ، وكما يفعل الجميع الآن ؛ فان هذه بدعة ، بل هوس . إن حالة الطبيعة ليست حالة عنف ووحشية كما يدعى هوبز ، إلا أنها أيضاً لاتبلغ مرتبة الكمال . فالرجل يؤسس حالة اجتماعية ، علاجا للشرور التى تتضمنها حالة الطبيعة ، ولكن دون أن يتبع نظام رب العائلة ، كما يزعم فلمر ؛ بل يؤسسها بناء على ميثاق ، كما أثبت بوفندورف . فليعرف القراء ما يلى : «لا يوجد مجتمع سياسى إلا حيث يتجرد كل عضو من سلطته الطبيعية ويضعها بين يدى المجتمع ، لكى يستعملها فى الأمور كافة ، على ألا يحول ذلك دون الالتجاء إلى القوانين التى يضعها المجتمع . » إن الحكم المطلق ، الذى ينكر هذا الحق فى الاستئناف ، لا يتفق مطلقاً مع المجتمع المدنى ؛ وإن الحق الالهى ، الذى يشيد به الأساتذة الكاثوليك ، لا يثبت بتاتاً سلطة رجل واحد على بقية الناس . يجب أن تكون السلطة تحت الرقابة وأن تكون مجزأة ، كما هى الحال فى بريطانيا العظمى : تشريعية وتنفيذية . إذا لم تعمل السلطة التنفيذية طبقاً

---

(١) *Deux traités de gouvernement*. Dans le premier, les faux principes et les fondations erronées de Sir Robert Filmer et de ceux qui le suivent sont découverts et rejetés. Le second est un essai concernant l'Origine, l'Extension et la Fin véritable du gouvernement civil.

للأغراض التى أسست من أجلها ، وإذا اعتدت على حرية الشعب ، يجب سحبها من يد الذى يملكها . بل أكثر من ذلك : إذا رأى الرعايا أن الطاغية يعد الوسائل لاستعبادهم فليسبقوه! فليمنعوه ، بوساطة عصيان علنى ، من تحقيق نواياه السيئة !

كان لوك يرتب الأمور بفضل مزايا عبقريته العملية ؛ فكان يضيف إلى فكرة الطبيعة ، فكرة المدنية . وكان يبدو كأنما يرد مقدما على بوسويه . حقاً ، إن حالة الطبيعة تتضمن بعض المحذورات . وحقاً أيضاً ، إن التاريخ ، الذى لا يتصف بالغنى والدقة فيما يخص نشوء المجتمع ، كما نريده أن يكون ، لا يقدم لنا نماذج أكيدة ، بل فروضاً شبه حقيقية ؛ وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتصور على وجه التقريب كيف اضطر الناس إلى تفويض سلطتهم . هكذا : كان الناس بطبيعتهم أحراراً ؛ وكانوا فى تأييد هذه الحرية ، قضاة ومحتكمين ؛ أما للدفاع عنها فعند من كانوا يستأنفون ؟ كان الناس بطبيعتهم سواسية ، ولكن ، لحماية هذه المساواة ضد الاغتصاب ، إلى من كانوا يختصمون ؟ لو أنهم لم يفوضوا سلطتهم إلى حكومة قادرة على الاحتفاظ بالحرية والمساواة الأولية ، لوقعوا فى حالة حرب مستمرة . لم يكونوا قبيلة رحالة ، ولكن ، لولا احترازهم لأصبحوا كذلك . إن القانون الطبيعى يوحى بالقانون السياسى ، الذى يصون المزايا الطبيعية من أخطار الحياة العملية .

كلما ظهرت صعوبة حاول لوك الحكيم أن يحلها بالحكمة . مثلا : يصعب على الناس أن يضحوا بفكرة السلطة الأبوية ، الوسيطة بين الله والناس ، وأول صورة للسلطة الملكية . ويتدخل لوك ليشرح أن الأطفال لا يولدون « فى » حالة مساواة تامة ، وإن كانوا يولدون « لأجل » هذه الحالة ؛ وأن الوالدين (الأب وكذا الأم) يملكان نوعاً من الولاية عليهم : الواقع أن الوالدين ملزمان باعداد الأطفال للحرية ، طالما لم يبلغ الأطفال رشدهم . إذن فالسلطة الأبوية موجودة ، ولكنها غير مطلقة ، بل هى واجب أكثر منها سلطة ؛ لا يمكنها أن تسن قوانين ؛ وإذا أمكن افتراض أنه كان هناك ، فى بداية الأزمان ، نظام رب العائلة ، فان هذا النظام لم يكن يقوم إلا على رضا ضمنى من الأطفال .

لننظر الآن إلى الملكية : تلك المسألة الخطيرة . إنها لا تتفق مع المساواة الطبيعية كل الاتفاق . نرى ، بموجب العقل و بموجب الوحى معاً ، أن الله أهدى الأرض مشاعاً لكل الجنس البشرى : كيف نفسر إذن أن الأفراد استطاعوا أن يتملكوا شرعاً جزءاً من هذا الرزق الجماعى ؟ — يتدخل لوك هنا أيضاً و يجيب : إن الملكية الفردية تفسر بالعمل . — « ومع أن الأرض وما عليها من خيرات مشاع بين الناس ، إلا أن كل فرد يتمتع بحق خاص على شخصه الذاتى ، الذى ليس لأحد آخر أن يدعى عليه أى حق كان . يمكننا أن نقول إن جهد جسمه و إنتاج يديه ، ماله الخاص . كل شئ يستخرجه من الطبيعة ، بفضل مجهوده وصناعته ، يملكه هو وحده . . . » إن الماء الذى ينبثق من تلك العين ملك لكل المارة ، ولكن إذا ملأت منها جرتى ، من يجرؤ أن يقول إن ماء جرتى ليس ملكى؟

كان لوك ينقض ويفسر ، وسيطاً بين الفقهاء والجمهور ؛ وسيطاً أيضاً بين الأزمان القديمة والأزمان الحديثة : محتفظاً من العقائد القديمة بما يكاد يكفى لئلا يدهش الضمائر كل الدهشة ؛ ومكثراً من الجديد : لا حق إلهياً ؛ ولا حق فى الفتح : « يبعد أن تكون الفتوحات مصدراً أو أساساً للدول ، قدر ما يبعد أن يكون تدمير منزل السبب الحقيقى فى إنشاء منزل آخر فى نفس المكان . » فبفضل لوك ، كان شعاع الدستور الانجليزى ينعكس على الحق الطبيعى ؛ وفى نفس الوقت ، كان الحق الطبيعى يؤسس الدستور الانجليزى ؛ دستور عادل يتضمن برلمانا وملكا اختارته الارادة الأهلية . كان لوك يدخل الحق الطبيعى فى سياسة زمنه ، وبلده وجنسه ، وفضلا عن ذلك ، كان يسجل صلته بدين الاصلاح . فالحق الالهى ، بمجرد زعمه أنه أساس الحكم المطلق ، لم يكن يبدو فوق الطبيعة ، بل مخالفاً للطبيعة : ولم يكن تبرير الحكم المطلق ببعض إرادة إلهية مزعومة ، إلا اختراعا حديثاً للاهوتيين الكاثوليك : « لم نسمع مطلقاً عن شئ مثل ذلك ، قبلما يكشف لنا علم اللاهوت فى هذا القرن الأخير عن ذلك السر الكبير . . . »

١٦٩٩ — مغامرات تلياك (١)

Les Aventures de Télémaque

الحق أن فينلون لا ينكر مبدأ الحق الالهى . ولكن ، بين المشاعر والأفكار العديدة التى أعلنها هذا الكتاب المشهور ، المنتشر بين الصغار والكبار بآلاف وآلاف النسخ ، — يوجد على الأقل شعور واحد وفكرة واحدة يجب أن نعيها .

شعور واحد : البغض ، كراهية لويس الرابع عشر . والموضوع ليس مجرد اعتراض نظرى ، بل هو فى الحق شعور ينفجر ، أو انفعال متهم عام . — « هل بحثت بين الناس عن أبعدهم عن التغرض ، وأصلحهم لمصارحتك ؟ هل عنيت بأن تسمع كلام أناس لا تدفعهم أى رغبة إلى إرضائك ، وأبعدهم عن الوصولية فى سلوكهم ، وأجدرهم بلومك على شهواتك ، وعلى مشاعرك المخالفة للعدل ؟ ولما وجدت منافقين ، هل صرفتهم عنك ؟ هل كنت تحترس منهم ؟ كلا ، كلا ، إنك لم تفعل البتة ما يفعله الذين يحبون الحق ، والجديرون بمعرفته . . . بينما كان العدو الخارجى يهدد مملكتك التى لا تزال مزعزعة ، لم تفكر فى داخل عاصمتك الجديدة إلا فى إنشاء المبانى الفاخرة . . . إنك بددت مالك ؛ إنك لم تفكر لا فى إنماء شعبك ولا فى فلاحة الأراضى الخصبة. . . بل إن كبراً باطلا دفع بك إلى حافة الهاوية . ومن أجل رغبتك الملحة فى التظاهر بالعظمة ، حطمت عظمتك الحقيقية . . . »

وفكرة واحدة : قيمة الشعب . « إن الآلهة لم تجعل منه ملكا لشخصه بل لكى يكون رجل الشعب : إنه مدين للشعب بكل وقته ، بكل عنايته ، بكل عاطفته ؛ وإنه ليس جديراً بالملكية إلا بقدر ما يتناسى نفسه ، ويضحى بنفسه للصالح العام . . . » — « اعلم جيداً أنك لست ملكاً إلا بقدر ما لك

(١) كتاب ألفة فنيلون Fénelon لتعليم تلميذه دوق بورجونى de Bourgogne الذى أصبح ولى العهد فى ١٧١١ . يصف فيه مغامرات تلياك لما رحل ، وهو ما يزال طفلا ، باحثاً عن أبيه أوليس ، أحد أبطال حرب طروادة . إنما المقصد من هذا التأليف — كما اعترف به فنيلون — شرح الحقائق الضرورية لادارة الدولة ، وعيوب السلطة المطلقة ؛ والتعليمات الأساسية التى تناسب أميراً تؤهله ولادته للحكم . [المترجان]

من شعب لتحكمه ... » بل أكثر من ذلك ! الشعب المكبوت لا رغبة له إلا فى الانتقام من الملوك ، وحينئذ تأزف ساعة العصيان : « إن حكمه المطلق يخلق عدداً من العبيد بقدر ما له من رعايا. يتملقه الناس، ويتظاهرون بعبادته ، و يرتعدون لأقل نظراته؛ ولكن انتظر العصيان: لن تستمر هذه العظمة الوحشية، إذا تجاوزت الحد ؛ فلا سند فى قلوب الشعب ؛ لقد أجهدت كل كيان الدولة وأثارته ؛ إنها دفعت كل أعضاء الدولة إلى التلهف على تغير الحال . فمن أول ضربة ينقلب ذلك الصنم المعبود ، ويتحطم ، ويقع مرذولا تحت أقدام الناس(١)» .

إن مملكة فرنسا تعانى تعاسة شديدة . من لا يعرف الفقرة التى وصف بها (لابروبير) حالة الفلاح بأسلوب روائى مؤلم (٢)؟ ولعل ملاحظات لوك أقوى منها تأثيراً ، و إن كان لا ينظر مثله إلى التأثير : إنه يلاحظ أن الفلاحين يعيشون فى جحور ، و يملكون مايكاد يستر أجسادهم وما يقيم أودهم ، وبالرغم من تعاستهم لا تعدم الحكومة وسائل لافقارهم بالضرائب . ولذلك تتوقف الزراعة وتبور الأرض : وحيث إن العمل لا يؤدى بالفلاح إلا إلى ظلم أفدح ، فانه يكف عن العمل . ومن جهة أخرى ، تموت المصانع ، أو تحاول الفرار إلى خارج الحدود ، علها تجد الحرية التى افتقدتها فى فرنسا . إن الرسوم الجمركية ، التى تفرض عند كل مخرج ، وعند كل مرور ، تجعل التجارة تبور . إن إخفاق سياسة « كولبير » الذى بدأ الناس يحسونه فى أثناء حياته ، أصبح جليا بعد مماته. مجاعة عام ١٦٩٤ الهائلة ، والافلاس : أى تعاسة !

وجمعت نخبة ممتازة هذه الشكاوى وحاولت أن تعالج هذه الشرور . إن الضائقة الفرنسية الكبرى ، ستسجل فى كتب يبدو أنها قد أملتها ضرورة

---

(١) تيليماك ، الكتاب العاشر.

(٢) هاك هذه الفقرة : « نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف ، سوداء ، مغبرة ، قد لفحتها الشمس ، ملحقة بالأرض التى تنبش فيها بعناد لا يغلب ، نلوح كأنها تنطق بلغة مفصلة ؛ وحينما تقف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية ؛ الواقع أنهم أناس يأوون بالليل إلى جحورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود، بالماء وبالجذور . إنهم يكفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرث للمعيشة ، وبذا يستحقون ألا يحرموا من الحب الذى بذروه » . (كتاب الشخصيات ، الفصل ١٠ ، الانسان) . La Bruyère, *Caractères*, chap. X . [المترجمان]

الحياة . كتب بواجلبرت(١) فى أسلوب ثقيل خال من الفن ولكن فى إصرار وصرامة لها تأثيرها ، مبيناً أن فرنسا ، التى كانت أغنى ممالك العالم فيما سبق ، قد فقدت خمسة أو ستة ملايين من دخلها السنوى ، وأن هذا العجز يزداد كل يوم . ولقد بلغ من سوء توزيع الضرائب أن تثقل على الفقير وتحمى الغنى، وبهذه السياسة المالية أصبح الفقراء بائسين : إن المملكة بأجمعها تسير إلى حتفها . ويقول فوبان Vauban بدوره ، إن الحالة ملحة إلى تغيير توزيع الضريبة ؛ إن ضريبة عشرية عادلة Dime تكلف أقل ، وتغل محصولا أوفر . وإذا كان بواجلبرت وفوبان — مع بعدهما عن أن يكونا متمردين — يحاولان إصلاح مالية الدولة وإيجاد موارد يبحث الملك عنها عبثاً ، فقد كانا يبدوان دخيلين مغتصبين يتعديان على ملك محفوظ من قديم (٢) : فحكم على مشروع ضريبةالعشر بالحريق (٣) .

ولكن كم يبدو فنليون أكثر جسارة ! فالأسئلة التى يوجهها تليماك إلى إيدومنيه (ملك كريت) ، يوجهها فنيلون ، بنفس النغمة الأليمة ، إلى تلميذه الدوق بورجونى ، إذا قدر له أن يتولى الحكم يوما : أتعرف كيف تتأسس الدولة ؟ هل درست الواجبات الأخلاقية التى يجب أن يتحلى بها الملوك ؟ هل بحثت عن الوسائل التى تروح عن الشعوب ؟ كيف تجنب رعاياك الشرور التى تنجم عن الحكم المطلق ، وسوء الادارة ، والحروب ؟ وحينما يصبح الدوق بورجونى فى عام ١٧١١ ولى عهد فرنسا ، يقدم له فنيلون قائمة إصلاحات ، تهيئة لتنصيبه على العرش .

فلنسجل فى قائمة فنيلون ما قاله ، دفاعاً عن حقوق الانسانية ، بهذه الألفاظ : « كما أن كل أسرة عضو فى شعب معين ، كذلك كل شعب عضو فى الجنس البشرى ، الذى هو المجتمع الشامل . وكل فرد مدين للجنس البشرى ، الذى هو الوطن الأعظم ، أكثر مما هو مدين لوطنه الخاص ، الذى ولد فيه ؛ لذلك فإن المساس بالعدالة بين شعب وشعب آخر لأشد وبالا على الجنس البشرى،

(١) دى بواجلبرت : تقرير عن مالية فرنسا ، ١٦٩٥ . Pierre Le Pesant De Boisguilbert, *Le détail de la France*, 1695.

(٢) لأن الضريبة العشرية كانت مخصصة للكنيسة . [المترجمان]

(٣) مشروع قانون عن ضريبة العشر الملكية ... (١٧٠٧) .

سن المساس بالعدالة بين أسرة وأسرة . إن إنكار المشاعر الانسانية ليس إعوازاً للتربية ووقوعاً فى البربرية فحسب ، بل هو أيضاً أشد صور عمى الأشقياء والمتوحشين : إنه خروج على الآدمية ، لا يليق إلا بأكلة لحوم البشر (١). »

١٧٠٥ — توماسيوس :
أساس القانون الطبيعى وقانون الشعوب على ضوء الادراك السليم
Fundamenta juris naturae et gentium ex sensu communi deducta

١٧٠٨ — جرافينا : مصادر القانون المدنى ونشأته وتقدمه ، وقانون الشعوب واثنا عشر جدولا مفسراً .

Origines juris civilis, quibus ortus et progressus juris civilis, jus naturale gentium et XII Tabulae explicantur.

يدخل جان فنسانزو جرافينا Gravina فكرة القانون الطبيعى فى التاريخ . ويحاول ، من جهة أخرى ، أن يفسر تناقضاً يتولد دائماً من فكرة الطبيعة ، التى لا يمكن إدراكها . فالقانون الطبيعى هو العقل ، الذى يوجب الفضيلة . والفضيلة تطرد الرذيلة : ومع ذلك نرى الرذيلة أيضاً فى الطبيعة ... هاك الجواب : « علاوة على القانون الشامل الذى يشترك فيه الروح والجسد معاً ، بتقديرهما مرتبطين ، فان للانسان قانوناً يخصه ، وهو كثيراً ما يخالف القانون الآخر . أسمى الأول : القانون الجماعى ، والثانى ، قانون الروح فقط . فالقانون الجماعى يشمل عموم الكائنات ، فهو إذن يشمل الانسان أيضاً . أما قانون الروح ، القانون المنطقى ، الذى يقوم على التفكير ، فيخص الانسان فقط . » وبموجب هذا القانون الأخير ، يخضع الرجل لعقله الذاتى ، وبالتالى يخضع للفضائل ، كما لو كانت قضاة عينهم ذلك القانون لكى يحكموا على أفعالنا ويسهروا على حواسنا . . .

سيطرد مجهود العقول وانتشار هذه الأفكار إلى أيامنا . ولكن نهاية القرن

---

(١) حديث الأموات ، سوقراط والسيبياد (١٧١٨) *Dialogue des Morts, Socrate et Alcibiade*, 1718.

السابع عشر تسجل مرحلة حاسمة ، إذ تلاقت فيها نظرية القانون الطبيعى ، ونظرية قانون الشعوب ، والوقائع . لقد أتم لوك — وإن كان أقل قـوة وتعمقاً بكثير من جروسيوس وبوفندورف ، ومع أنه كان يعوزه المنطق أحياناً — تحويل « القانون » من دينى إلى مدنى . الحرية ، والمساواة : كان يمكن أن يتخذ كتابه هاتين الكلمتين شعاراً . « لحالة الطبيعة قانون طبيعى ينظمها ، وعلى كل فرد أن يخضع له وأن يطيعه . فالعقل ، الذى هو هذا القانون ، يعلم كل الناس — إن تفضلوا باستشارته — أنهم ماداموا جميعاً سواسية ومستقلين ، فلا يحق لأحـد أن يؤذى الآخر ، فى حيـاته ، أو صحتـه ، أو حريتـه أو ماله . . . (١) »

(١) عن الحكومة المدنية ... ترجمة دافيد مازيل ، أمستردام ١٦٩١ ، الفصل الأول ، *Du Gouvernement civil...*, traduit par David Mazel, Amsterdam



تيلياك فى رحلته إلى الجحيم يشاهد مصير الملوك السيئين

(من كتاب مغامرات تيلياك . باريس ١٧٨٣)

الفصل الرابع

الأخلاق الاجتماعية

إذا كان هناك رجل ، قد أكد بصورة أوضح وأقوى من كل أسلافه ، استقلال الأخلاق عن الدين ، فهو بلا شك بيير بايل . لقد رجع إلى هذا الموضوع مرات ومرات ، فى أبواب قاموسه ، وفى إجاباته على أسئلة قروى . ولكنه كتب فى أفكاره عن المذنب ، متئداً ، مبدياً كل قواته ، وواضحاً متحمساً ، دستور الانفصال .

لقد بدأ فى هوادة ؛ ليس الكفار أسوأ من الوثنيين ، سواء من حيث العقل أو من حيث القلب . ثم تطرق ، بعد أن مهد الطريق ، موعزاً بأن الكفار ليسوا أسوء من المسيحيين . إذا قلنا لرجل يأتى من عالم آخر إن هناك أناساً ذوى حكمة وعقل سليم ، يخافون الله ، ويعتقدون أن السماء ستثيبهم على حسناتهم وأن الجحيم ستعاقبهم على سيئاتهم : لتوقّع ذلك الرجل أن يرى أولئك الناس يأتون بالحسنات ، ويحترمون الغير ، ويتسامحون حيال الاهانة والشر ، ويسعون لاكتساب سعادة أبدية . وا أسفاه . . . ! فان الأمور لا تجرى على هذا المنوال فى الواقع . يجب أن نعترف بأمر واقع يوضحه لنا مشهد الحياة فى نور ساطع وهو أن : الفرق كبير بين مانعتقد به وما نفعله ، وأن المبادىء ليس لها تأثير على الأفعال ؛ وأننا نبدو أتقياء فى كلامنا ، كفرة فى سيرتنا ؛ ونزعم أننا نعبد الله بينما نحن لا نطيع إلا المنفعة ولا نتبع إلا الشهوة ؛ « إنى أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أرتكب الشر (١) » : هذا مثل قديم . انظر

---

(١) قاله الشاعر أوفيد Ovide باللاتينية على لسان الأميرة ميديه : Video meliora proboque, deteriora sequor . وهاك تعليق بايل : « إن الشاعر الذى جعل « ميديه » تقول : « أرى الخير وأصدق به ، ولكنى أفعل الشر - قد بين فى وضوح ودقة الفرق بين ضوء الضمير والرأى الخاص الذى يدفعنا إلى العمل ... »
(أفكار عن المذنب ، الفصل الثانى) . [المترجمان]

كيف يعيش المسيحيون . يقرأون كتب العبادة : ولكنها تنسى فور ما تقرأ . إن جنود الجيوش الكاثوليكية جداً فاسقون ونهابون ، ينهبون البلاد بلا تمييز بين الأعداء والأصدقاء ، ويحرقون عند اللزوم — ودون تبصر — الكنائس والمعابد والأديرة . أما الحروب الصليبية ، فيا لها من مشروع يستحق الاعجاب من الوجهة النظرية ! ولكن ما أكثر ما حدث فى إبانها وما تبعها من استغلال وخيانة وإجرام ! إن النساء متدينات بوجه خاص : ومع ذلك فكم نرى من يتقابلن منهن مع عشاقهن بمجرد مغادرتهن غرفة الاعتراف ! هناك عاهرات ، ولصوص ، ومجرمون يعبدون العذراء عبادة خاصة ؛ وتسرى روايات — يزعم الناس أنها دينية — تقول إن العذراء تحمى الفتيات والأشرار ، لأنهم يحرقون شمعة أو يسجدون أمام تمثالها . إن أشياع جانسنيوس يعارضون كثرة تناول القربان ، لأنهم يعرفون جيداً أنه يمكننا الاقتراب كل يوم من مائدة القربان المقدس ، ونبقى مع ذلك أشرارا . والخلاصة ، إن إيمان المرء لا يؤثر على سيرته وعلى أخلاقه . بل إن التدين يشجع أحياناً بعض الشهوات السيئة ، مثل الغضب على الذين يعتقدون بعقيدة أخرى ، أو التمسك بالمراسيم الظاهرية ، والنفاق .

حينئذ يعرض بايل للقارئ التجربة معكوسة : كما أنه لا يوجد شئ عادى أكثر من المسيحيين الأورثوذوكس الذين يسلكون سلوكاً سيئاً ، كذلك نجد عدداً كبيراً من المتحررين الذين سلكوا سلوكا صالحاً على أتم وجه . وفضلا عن القدماء ، مثل دياجوراس ، ثيودور ، نيكانور ، أفيمير ، هيبون ، ويلين ، الذى كان دائما جديراً بصفته كرومانى عظيم ؛ وأبيقور الذى عاش حياة نموذجية ، — فلننظر إلى المحدثين : كان يشتبه فى أن « دى لوبيتال » ، رئيس الديوان ، عديم الدين ، مع أنه لم يوجد أوقر من شخصيته وأنبل من حياته ؛ وأولئك الذين عاشروا سبينوزا يذكرون أنه كان أنيساً ، وحليما ، وشريفاً ، ومستقيما فى أخلاقه ؛ ومع ذلك كان سبينوزا كافراً .

جمهورية من الكفار — لماذا لا نستطيع أن نتصورها ؟ إن مجتمعا بلا دين يكون أشبه بمجتمع وثنى ؛ ولا يفترق المسيحيون ، فى حياتهم العملية ، عن الوثنيين . . . لعل الكفار يدركون الشرف والخزى ، والثواب والعقاب ، بقدر ما يدركها المسيحيون : إن فكرة فناء الروح لا تحول دون تمنى المرء أن

يكسب اسمه الخلود . و إذا كان لزاما أن يكون لمذهب شهداء ، لكى يستحق الاحترام ، فان مذهب الكفر لا يعوزه الشهداء : « فانينى » الذى مات فى سبيله ؛ وأحدث من ذلك ، المدعو « محمد أفندى » الذى أعدم فى « الآستانة » لأنه أنكر علناً وجود الله . « كان يستطيع أن ينقذ حياته لو اعترف بخطئه ووعد بألا يكرره فى المستقبل ؛ ولكنه آثر الاصرار على تجديفه ، قائلا إنه ، و إن كان لا ينتظر أى جزاء ، إلا أن محبته للحقيقة تجبره على أن يموت شهيداً فى سبيلها ، دعما لها . »

وبعد ما يتم بايل التجربة والتجربة العكسية على هذه الصورة ، يصل إلى نهاية إثباته : إن الدين والأخلاق ليسا ملتحمين ، بل مستقلين ؛ نستطيع أن نكون متدينين دون أن نكون أخلاقيين ؛ ونستطيع أن نكون أخلاقيين دون أن نكون متدينين . فالكافر الذى يعيش حياة فاضلة ليس مخلوقا خارقا للطبيعة : « لأن يعيش كافر حياة فاضلة ، ليس أغرب من أن يرتكب مسيحى كل أنواع الجريمة . » فالكفار الذين يعيشون فى تركيا ، والكفار الذين يعيشون فى الصين ، أطهر أخلاقا من المسيحيين الذين يعيشون فى روما أو فى باريس . . .

ألا نستطيع أن نقول إن أخلاقا مستقلة أفضل من أخلاق دينية ؟ مادامت الأولى لا تنتظر ثوابا أو عقابا ولا تعتمد إلا على نفسها ؛ بينما الأخرى ، لخوفها من الجحيم وأملها فى السماء ، لابد من أن تكون متغرضة ؟ — « تولاند » ، يغالى كعادته ، قائلا : « إن أفظع كفر لأقل شؤما على الدولة والمجتمع البشرى من تلك الخرافة الوحشية والبربرية ، التى تملأ الدول المزدهرة بالنزاع والانقسام ، وتفسد أكبر الممالك وكثيراً ما تقلبها ؛ والتى تفصل الأولاد عن آبائهم ، والأصدقاء عن أصدقائهم ، وتحطم وحدة الأشياء التى يجب أن تكون متحدة بأقوى الصلات . . . (١)»

***

ولكن بعدما هدمنا أخلاق النظام الالهى ، كيف نستطيع أن نعيد إنشاء الأخلاق فى النظام البشرى ؟ هنا كان يبتدئ الارتباك .

---

(١) *Adeisidaemon* ، ١٧٠٩ .

غرستها فطرة وحشية فى الناس البدائيين (١)» لم نحرم هذه الأخلاق الملذة ، ولا الشهوة ، بشرط أن تكون معتدلة ، مسيطرا عليها . . . ما فى ذلك من شك . ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تدعى أن لها قوة ملزمة ، أو قيمة شاملة . كان يجب أن يدعى المرء سانت أفريموند ، أو وليم تمبل ، أو لورد هاليفاكس، لكى يدركها ويباشرها . أخلاق أرستوقراطيين ، أخلاق قوم مترفين ، قوم سئموا الدنيا ؛ إنها مركب هش رقيق ، اتفاق ، ليست سيطرة ، بل تكييفا .

***

قلّ من كان يستطيع أن يتقبل تلك الأخلاق الميتافيزيقية السامية الجديه، التى عرضها سبينوزا ، كما رأينا ، — تباين هائل ، يقابله تعارض دائم فى الأخلاق البشرية ، فيا للتهوش ! ما أصعب إيجاد مبدأ مشترك ، قاعدة ينبغى أن تفرض على كل النـاس ، فى كل زمان وفى كل مكان ! هنـا ، نرى النـاس يعرضون أولادهم للوحوش ، أو يتركونهم يموتون جوعاً : كيف نتكلم بعد ذلك ، عن الصفة الشاملة للواجب الأبوى ! وهناك ، نرى الأولاد لايترددون فى قتل آبائهم عندما تدركهم الشيخوخة . « فى إحدى بلاد آسيا ، لا يكاد الناس يقطعون الأمل فى صحة مريض ، حتى يضعوه فى حفرة تحت الأرض ، حيث يتركونه معرضاً للريح ، وأخطار الجو ، دون شفقة وبلا معونة ، حتى يموت . وإنها لعادة لدى بعض سكان « جورجيا » الذين يدينون بالمسيحية ، Mingréliens ، أن يدفنوا أبناءهم أحيـاء ، دون تأنيب ضمير . وفى جهات أخرى ، يأكل الآباء أبناءهم . اعتاد أهل « كاريبيا » أن يخصوا أولادهم بقصد تسمينهم وأكلهم . يذكر « جارسيلازو دى لافيجا » أن بعض سكان « بيرو » اعتادوا أن يحتفظوا بالسبايا ، لاستخدامهن كسرارى ، ويتوفرون علىّ تغذية أولادهم منهن حتى يبلغوا الثالثة عشرة ، ثم يأكلونهم، ويأكلون أمهاتهم بالمثل بمجرد بلوغهن سن اليأس . » إن ما نراه فى الدنيا يثبت لنا ، فى الواقع ، أن الأخلاق تختلف اختلافاً جوهرياً . ينبغى أن نسلم بذلك : « إن من يعنى

---

(١) سانت أفريموند . بقلم جوستاف لانسون ، تبدل الأفكار الأخلاقية (مجلة الشهر ، ١٩١٠) .

هل يجب أن نرجع إلى الوراء ، ونلتجئ إلى القدماء ، ونتخذ الوثنيين أدلاء ؟ ومن بين الوثنيين ؟ أبيقور ؟ أبيكتيتوس ؟ أولئك الفلاسفة متناقضون. هل كان يجب اختيار فيلسوف حاول أن يقدم إلى العالم أفضل ما فى الأخلاق القديمة ، دون أن يؤلف مذهباً مبتكراً ؟ هل كان يجب أن نستشير الخطيب الرومانى ، مؤلف كتاب « الواجبات » ، أى شيشرون ، عن قاعدة حياة مدنية لا دينية ؟ لقد كان العالم « إيرازم » Érasme معجباً بعظمة حياته وطهارة قلبه ؛ والواقع أنه « لم يخلف لنا العالم الوثنى أحداً آخر يوضح تمام التوضيح هذه المبادئ الكريمة ويوصى بها بمثل تلك القوة — هذه المبادئ التى تستمد منها الطبيعة البشرية مجدها وكمالها : حب الفضيلة وحب الحرية ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشرى بأسره (١) ».

ولكن كان من السهل على علماء الأخلاق المسيحيين أن يردوا على ذلك . فقد قضت المسيحية على هذه النظريات التى يريد الناس ابتعاثها ، منذ ألف وسبعمائة عام . بروتوس ، وكاتون ، وأمثالهم ، يا لهم من نماذج تعسة ! إنهم أولعوا بتلك الكلمات الضخمة ، وبتلك الحركات الكبيرة ، بتلك المواقف المسرحية ؛ فانتهت حياتهم بالافلاس . وأنقذت الروح المسيحية الانسانية من هذا الافلاس .

حينئذ ظهرت أخلاق حديثة ، أخلاق الناس الشرفاء ؛ أخلاق سيكولوجية . لم تأنف هذه الأخلاق أن تقتبس من المصادر القديمة ، مفضلة إياها من كل الوجوه على المسيحية ؛ ولكنها كانت تستعين على الأخص بالعقل . عقل قد تمدن وتهذب ، عقل لم يعد خشنا وجامداً كما كان فيما سبق ، ولم يحتفظ بشئ من صلابته القديمة . « يجب أن ننسى وقتا كان يكفى فيه أن يكون المرء جاداً رزيناً لكى يبدو فاضلا ، مادام الأدب ، والرقة ، والتفنن فى الشهوات ، قد أصبحت جزءاً من الفضيلة الحالية . فمن جهة كراهية الأفعال الخبيثة ، يجب أن تبقى ما بقيت الدنيا ؛ لكن فلنتقبل أن يدعو المترفهون « متعة » ما دعاه الغلاظ الجفاة « رذيلة » ، ولا نكوّن فضيلتنا من المشاعر القديمة التى

---

(١) لقد أخذنا هذه التعبيرات من كتاب « تاريخ شيشرون » بقلم ميدلتون C. Middleton لندن ١٧٤١ ترجمة أبيه بريفو فى عام ١٧٤٣ .

بمطالعة تاريخ الجنس البشرى ، وفحص سيرة شعوب الأرض بغير تغرض ، ليستطيع أن يقتنع بأنه يتعذر إيجاد أى مبدأ أخلاق ، أو تصور أى قاعدة للفضيلة — باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى ، (والتى كثيراً ما تخرقها الشعوب فى صلات بعضها ببعض) — من غير أن تستخف بها ، وتناقضها ، تقاليد شعوب بأكملها فى بعض أرجاء الدنيا . . . (١) »

باستثناء الواجبات التى يقتضيها بالضرورة حفظ المجتمع البشرى . . . هنا ظهر احتمال أخلاق جديدة ؛ أخلاق لا شئ فطريا فيها ، حتى ولا فكرة الخير ، حتى ولا فكرة الشر ؛ بل أخلاق شرعية ولازمة ، مادامت مكلفة بالابقاء على وجودنا الجماعى . حيث إننا خلقنا لحياة اجتماعية ، فمن المعقول أن نخاف من الفوضى التى قد تهلك جنسنا ؛ ولذلك ، نتخذ الحيطة التى تنقذنا من اضطراب مشئوم ؛ فنجمع النصائح التى توعز بها إلينا غريزة حفظ النوع ، فى قانون . لأن هناك « أنانية » شرعية ، تبقى على حياة الجماعة ؛ إن الأنانية لا تصبح مرذولة إلا إذا هددت كيان الجماعة ، وبالتالى هددت الفرد نفسه ، بحسبانه جزءاً لا ينفصل من الكل . إن الخير الأخلاقى ليس شيئاً تقديريا ، مثل الشهرة ، والمال ، والمتعة ، بل إنه ضرورة حيوية : إن معناه حفظ الانسانية .

يقول أشياع ذلك المذهب إن له فضلا يستحق الاعجاب ، فضلا ليس له مثيل : فان هذه الأخلاق يمكن إثباتها . لأنها لا تستند على فرض أولى مسلم به ، بل على حقائق واقعية يمكن تحليلها تمام التحليل . لننظر فى أنفسنا: نحن نسمى « خيراً » ما يمكن أن يولد ، أو يزيد ، أو يحفظ إحساسنا المتعة ؛ ويعكس ذلك نسمى « شراً » ما يمكن أن يولد أو يزيد أو يديم إحساسنا الألم . لذلك ، فان منفعتنا الحقة ، أو بمعنى أصح كياننا بالذات ، يدفعنا إلى طاعة القوانين المدنية ، مادمنا ، بمراعاتها ، نحفظ ما لنا ، وحريتنا ، وبذا نعمل على دوام وضمان متعتنا الذاتية . أما إذا لم نراعها ، فاننا نعرض أنفسنا للعقاب، ثم الاضطراب ، ثم الفوضى التى لا حياة فيها بلا ألم ، أو لا حياة فيها على الاطلاق . والأمر لا يختلف فيما يخص الأمور التقديرية : فالفضيلة تكسبنا تقدير

(١) بيان مأخوذ من « مقال عن الأدراك الانسانى » الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

ومحبة الأشخاص الذين نعيش بينهم ، وبالتالى تزيد من متعتنا ؛ أما الرذيلة ، فتسبب التأنيب ، والنفد ، والعداء ، وبالتالى تسبب الألم (١).

***

ولكن ، هل الخير الاجتماعى هو الفضيلة الصرفة ؟ هل تنجح جماعة تنفذ واجبها بتمام الدقة فى أن تزدهر أو حتى فى أن تعيش ؟ ذلك مالم يشك فيه لوك ؛ ولكن ذلك أيضاً هو ماشكك فيه ذهن خبيث ، متحرر ، أزعجه علماء الأخلاق الذين يزعمون أنه ليس فى قلب الانسان إلا الكرم ، والعطف، والايثار . كان هذا الرجل هولانديا متجلنزا ، يدعى « برنارد دى ماندفيل » وكان من طائفة الفلاسفة المحدثين ، بمعنى أنه كان يعلن تفكيره بكل حرية ، دون أن يحسب حساباً لقادة الفكر ، أو العادة ، أيا كانت قيمتها . تدفعه جسارته إلى حب الآراء الغريبة التى تثير ضجة . والحق أنه أثار ضجة ، لما بدأ يحكى قصته . كان قد حاول ، قبل ذلك ، أن يقلد قصص « إيزوب » و « لافونتين » ؛ ولكن قصته هذه لم توضع للأطفال .

لقد ظهر فى ٢ أبريل عام ١٧٠٥ كتيب فى ستة وعشرين صفحة ، دون اسم المؤلف : « الخلية الطنانة ، أو اللصوص الذين انقلبوا شرفاء . » ذات مرة ، كان هناك خلية تشبه مجتمعاً بشريا حسن التنظيم . لا ينقصها اللصوص، ولا المتعيشون على الاحتيال والاختلاس ، ولا الأطباء الفاسدون ، ولاالقساوسة الفاسدون ولا الجنود الفاسدون ، ولا الوزراء الفاسدون ، وكان لها ملكة فاسدة . وكانت تحدث كل يوم خدع وسرقات فى هذه الخلية ؛ والسلطة القضائية التى كان عليها أن توقف هذا الفساد ، كانت هى نفسها فاسدة . الخلاصة ، كانت كل وظيفة ، وكل طبقة مليئة بالرذائل : ولكن ذلك لم يحل دون ازدهار الشعب وقوته . والواقع ، أن رذائل الأفراد كانت تشارك فى الرفاهية العامة : وفى مقابل ذلك ، كانت الرفاهية العامة تولد سعادة الأفراد. ولما أدرك كبار الأشقياء ذلك ، أخذوا يشاركون بكل جهدهم فى سبيل الخير العام .

---

(١) لوك : «مقال عن الادراك الانسانى» الكتاب الثانى ، الفصل ٢٨ .

الفصل الخامس

السعادة على الأرض

السعادة ؛ أنتركها وديعة بين يدى العالم الآخر؟ هناك ستكون الظلال خفيفة ، واهية ؛ بل لن تكون ظلال ، ولكن بعض الجوهر الأبدى ، الذى يستحيل أن نتصور صورته . لن يكون هناك إكايل غار ، ولا قيثار ، ولاموسيقا سماوية . السعادة ؛ فلنقتنصها على الأرض . أسرعوا ، نحن فى عجلة ؛ لاضمان فى الغد ، ولا عبرة إلا بالحاضر ؛ غافل من يقامر على المستقبل ؛ فلنضمن أولا رفاهية بشرية صرفة .

هكذا فكر علماء الأخلاق المحدثون ، الذين أخذوا يبحثون عن السعادة فى الحاضر .

***

لكى نحقق حياة سعيدة ، يمكن أولا (كوسيلة أولى) أن نفكر فى هدوء ودعة ، كما يليق بالفطنة الخالصة ، وأن نلطف من حدة الخيال الذى يبالغ فى تصوير الشرور . لأنه إذا تعلق الأمر باختراع الشرور ، فمقدرتنا لاتحدها حدود ؛ نحن نضخمها ، ونظنها غريبة ليس لها دواء ؛ بل إننا نحس بعض الميل إلى الألم ، ونعزه . ولهذا الخيال الخادع عيب آخر : فانه يهدف إلى متع مستحيلة ؛ إنه يغرو بنا باكثاره من السراب : فنسرع لحاق به ؛ ولما كنا ننخدع فى كل مرة ، فاننا لم نعد نقدر سأمنا . فلنتعلم كيف ننظر إلى الحياة على ضوء الواقع ، ولا نطلب منها أكثر من طاقتها . إننا نشكو دائما من حالة لا ترضى: ولكن ، لو فرضنا أننا اطلعنا ، قبل ولادتنا ، على كل الحوادث ، وكل المصائب التى يمكن أن تكون من نصيبنا : أفلا تتملكنا الدهشة ؟ وإذا قدرنا الأخطار التى نجونا منها أفلا نكون فى أوج السعادة بأننا ضمنا سلامتنا بهذا الثمن الزهيد؟

لـكن حدث تغير فى عقول النحل ، إذ واتاه تفكير غريب فى ألا يقبل بعد ذلك إلا الشرف والفضيلة ، فطالب باصلاح كامل . وكان أعلاه صوتا أكثره بطالة ولصوصية . حينئذ أقسم « جوبيتر » أنه سينقذ هذه الخلية الزائطة من الرذيلة التى كانت تشكو منها ؛ قال ذلك : وفى الحال ، استولى حب الخير المحض على القلوب .

وسرعان ما سبب ذلك دمار كل الخلية . لم يعد بعد لا إفراط ، ولا أمراض : وبالتالى لم تعد حاجة إلى الأطباء . لم يعد بعد نزاع ، ولا دعاوى : فلم تعد حاجة إلى المحامين ولا إلى القضاة . ولما أصبح النحل مدبراً وقنوعا لم يعـد ينفق شيئا : وبالتالى لم يبق ترف ولا فن ولا تجارة . وبذا عم الحزن والخراب.

وجد النحل المجاور أن الوقت مناسب للهجوم ؛ فبدأت المعركة . ودافعت الخلية عن نفسها وانتصرت على الغزاة ، ولـكنها دفعت ثمنا غالياً لهذا الانتصار . لقد مات فى هذه المعركة آلاف من النحل الشجاع . وطار باقى النحل — فى عزة ووقار — إلى جوف شجرة ، خوفاً من أن يقع فى الرذيلة مرة أخرى . لم يبق للنحل إلا الفضيلة والبؤس .

« أبطلوا شكواكم ، أيها الحمقى ! إنكم تحاولون عبثا أن تربطوا بين عظمة الشعب والفضيلة . لا يتوهم إلا المجانين أنهم يمكنهم أن يتمتعوا بخيرات الأرض ، وأن يكتسبوا الشهرة فى القتال ، وأن يعيشوا فى يسر ورخاء ، وأن يكونوا فى نفس الوقت فضلاء . أتركوا هذه الأحلام الزائفة ! ينبغى أن يدوم الخداع ، والترف ، والبطلان ، إذا أردنا أن نتمتع بثمارها الشهية ... »

ما أكثر المناقضات التى أعقبت هذا الـكلام ! ما أكثر ما أثاره من نقاش! كان « برنارد دى ماندفيل » أزرق الناب ، ولم يسمح بأن يفوت شيئاً أياً كان. إنه عاش طويلا ، ولـكن قصته هذه عاشت أطول مما عاش ، وما زلنا نناقشها إلى الآن.

« العبيد ، وأولئك الذين لا يجدون الكفاف ، وأولئك الذين لا يعيشون إلا من عرق الجبين ، وأولئك الذين تنهكهم الأمراض ، هاك قسماً كبيراً من الجنس البشرى . ما كان أقربنا من أن نكون من هؤلاء ! فلنعترف إذن بمدى الخطر فى كوننا بشراً ، ولنحتسب مالم يصبنا من البلايا ، عدداً من الأخطار نجونا منها (١). »

و بما وصلنا إليه من نظرة سليمة ، فلنسع إلى إدارة رزقنا إدارة حكيمة : لعله قليل ، ولكنه حقيقى . فلنعن بتجنب التنهوات ، التى ليس وراء عنفها إلا الحزن والارتباك ؛ فلننشد الهدوء . و إذا ردد الناس أنه لا طعم له ولا لذة، فلنهز أكتافنا : « أى فكرة لدينا عن حالة البشرية ، لو شكونا من الهدوء ؟ » فلنعرف كيف نبتعد عن المراكز التى تطمح إليها الأنظار ، الشهرة ، والطمع ، وكل الأخطار التى تهدد الرحلة الهادئة لزورقنا المسكين ، الذى يجب أن نقوده برفق نحو هدوء الميناء . فلنكن متفقين مع أنفسنا : إن ضميراً واثقاً بنفسه لنعم الملجأ لنا . ولنحرص على رزقنا القليل ، حرص البخيل ، مخافة أن نضيع منه أى نزر يسير . إن ضربة من ضربات الحظ يمكن دائما أن تحرمنا منه ، بالرغم من تحوطنا الدقيق . أما إذا احتطنا وسهرنا عليه ، فان حظنا فى الاحتفاظ به ليزيد : لأننا ، بقدر ما نكون عقلاء ، نكون بناة لحياتنا .

متع بسيطة ، نصيب متواضع من سعادة لا نستطيع الوصول إليها ؛ حديث ممتع ، أو رحلة صيد ، أو مطالعة كتاب : فى ذلك ما يكفى لشغل أيامنا . فلنتذوق هذه المتع المضمونة بدلا من الاعتماد على غير المضمون . « إننا نملك الحاضر بين يدينا ، ولكن المستقبل دجال مشعوذ يخطف الحاضر منا ، — ساحراً عيوننا . » فلنتمتع بالخيرات البسيطة ، كأنها وهبت لنا من قوة تستطيع أن تحرمنا غداً من هباتها بنزوة من نزواتها . فلنحذر تفويت سوانح الفرص ، ولنحذر الخطأ فى خصائص المتع . « المسألة مسألة حساب ، والحكمة تقتضى أن نوفر دائما فى حجارة اللعب . . . »

إن ذلك الموقف للمقامر الماهر ، الذى لا يكف عن الاهتمام باللعب ، والذى يضارب أو يتخلى عن المضاربة بدراية ، لا يخلو من بعض الجمال . لنعترف

---

(١) فونتنل ، عن السعادة . ولقد تبعنا أفكار فونتنل من قريب ، فى كل هذه الفقرة .

مع ذلك أنه ليس فى طوق الجميع ، بل يقتضى ذكاء بصيراً وثبات جأش خارقاً للعادة ؛ وينظر إلى الشهوات كأنما يكفى أن نستعمل عقلنا للتغلب عليها ، وإلى الخيال كأنه عبد ذليل ؛ ويفترض يسر الحال ، واستقلالا ، ووقت فراغ : سعادة أنانية . . .

***

يعرض البعض لنا ضرباً آخر . الشيء الذى يجب أن نستأصله من روحنا، لكى تحس تمام الراحة ، هو الشعور بمأساة الحياة . إن هذا الشعور يبعث فى نفوسنا الألم طوال حياتنا ، وحينما يحين حيننا ، يثور و يهتاج : حينئذ تلوح مأساة أخرى ، مأساة الآخرة . ما أسعدهم ، أولئك الذين رحلوا إلى الشاطئ الآخر بثغر باسم (١). لم يعرفوا ذلك الاضطرام الحالك عدو طمأنينة النفس ، الذى لا يكفيه إزعاج من يتملكهم ، بل يخلق فيهم حمية متعصبة لاذاقة غيرهم العذاب . حماسة ، تجلّ ، خوف معذب على الدوام ، تخيلات مرعبة عن الجحيم والعذاب ، كيف نستبعد كل ذلك؟

بطريقة بسيطة ؛ بفضل استعداد فكرى يسمى الخلق المرح : good humour, good nature يكفى أن نجده . ضع على أنفك منظاراً ناجعاً ، ذا لون وردى جميل : يضحك لك كل شئ . يوم تصبح الانسانية مستعدة للابتسام ، يوم تزول تلك الجفوة الفكرية التى تزيد حدة الشرور . لاتستخفوا بفضل « الخلق المرح » ، فانه فضيلة فعالة تؤثر كعلاج دائم . يقول سيكتاتور — الذى شرع ، كما هو معلوم ، فى إصلاح معاصريه رويداً رويداً ، موزعاً عليهم قليلا من الأخلاق فى كل صفحة من صحيفته — إن الخلق المرح ثوب يجب أن نرتديه كل يوم : كم يكون العالم أفضل !

لقد وجد هذا الشعور المتفشى ، الذى لم يكن مجهولا فى فرنسا ، ولكنه كان أقوى فى انجلترا ، بماله من تأثير ناجع ضد الميل العام إلى السوداء Spleen — الذى لاحظه المراقبون — وضد التعصب البوريتانى — وجد مفسراً مهذباً فى شخص أنطونى أشلى كوبر ، كونت دى شفتسبرى Shaftesbury .

---

(١) ديلاند Deslandes تأملات عن العظماء الذين ماتوا بثغر باسم ، ١٧١٢ .

إنما نحبذ أسوأ نقائصنا : الحزن ، الكسل فى التفكير ، التعلق بالغريب ، الغرور ، الزهو الباطل ، وأكثر من ذلك فضول التطفل على حياة الغير واضطهاد الضمائر ؛ وعادة الحقد والقسوة . . . فلنستعمل ضد الحماسة سلاح العقل السليم ، وحرية الفكر ، بل حتى — وهذا أقل ما كنا نتوقعه — السخرية فى الوقت المناسب .

لنتعلم الضحك : ليس هناك مبدأ أصوب منه فى الطب النفسانى . هل من الصواب أن نستسلم للغضب ، ونقابل حدة المحتدين بالحدة ؟ كلا ! بل الأفضل أن نضحك . فلنزل تعاظم المتعاظمين ، ولنسخر من المحزونين ؛ أما المتحمسون ، فلنهزأ بهم .

هاهم أولاء بعض المساكين من اللاجئين إلى لندن ، البروتستانت الفرنسيون القادمون من السيفين ؛ إنهم يفيضون بحماسة مقدسة ، ويتنبأون ، ويقعون فى الهذيان ؛ حتى أصبحوا خطراً وقبضت عليهم السلطات . هل ينبغى أن نسجنهم ؟ أن نحكم عليهم بالاعدام ؟ أن نجعل منهم شهداء ؟ — لقد مثلهم الناس تمثيلا تهريجياً فى المساخر ، وهذا فيه الكفاية : فانهم يفقدون ، بعد هذه السخرية ، كل أهميتهم . لنترك المرض الذى انتابهم يأخذ مجراه ، ولنضحك ، ولنبتسم : وسيفقد قوته ، وسيشفى من تلقاء نفسه . آه . . . ! لو أننا تصرفنا هذا التصرف فى كل المجادلات الدينية ، منذ بداية الأزمان ، كم من أكوام من الحطب كنا أطفأنا وكم من أرواح كنا أنقذنا !

يجب أن نعامل الدين بلا تكلف : فان المرح يقود إلى الايمان الصحيح ، والسآمة تقود إلى الكفر . فاذا كان الله رحيما ، وهو لاشك رحيم ، فلنفكر فى شأنه فى حالة نفسانية هادئة ، بدلا من الخوف والغم . أى زيغ يجعلنا لا نبتهل إلى السماء إلا ونحن فى بؤس ، أو قلق أو مرارة ؟

« الخلاصة ، يا عزيزى اللورد ، أن الطريقة السوداوية التى نباشر بها أمور الدين هى التى تجعله ، فى اعتقادى ، مفجعاً إلى هذا الحد ، وتدفعه إلى خلق كل هذه المآسى المؤلمة فى الدنيا . إن رأيى هو الآتى : طالما نحن نعامل الدين بالحسنى ، فلا خشية من أن نستعمل حياله مرحاً زائداً عن الحد ، ولا أن نتمادى فى حرية فحصه ، أو أن نرفع الكلفة بيننا وبينه . لأنه إذا كان حقيقياً ، فلن يحتمل الفحص فحسب ، بل سيفيد منه ؛ وإذا كان مختلقاً مزيفاً ، فسينكشف ويفتضح . »

كان طبيعياً ، بل ضروريا ، أن يجابه شفتسبرى الرجل الذى كان أكثر ما يكون إحساساً بفاجعة الحياة : باسكال . إنه يعرف نظرية الرهان(١) ، ويرفضها . يقول : إن الرهان على الدين ، بحيث إذا كان الله موجوداً نكسب كل شئ ، وإذا لم يكن موجوداً لا نخسر شيئاً ، يعنى تقليد المتسولين الماكرين الذين نقابلهم فى الطريق . إنهم يقولون لكل مار : يا مولاى . فاذا كان المار لورداً ، فسيغضب لو لم يخاطب بلقبه ، وإن لم يكن لورداً ، فسيفرح لتعميده بهذا اللقب ؛ وهو فى الحالتين ، سيجود بالحسنة على هذا المتسول . . . أفليس إهانة لله أن يستند إيماننا على مثل هذا الحساب ؟

إن الله ذاته ليس مرعبا . إنه ليس جائراً ، كما يريده أشياع « القدرية ».

---

(١) نظرية الرهان : ذات يوم طلب عالم رياضى من باسكال أن يقنعه بالبراهين الهندسية بوجود الله . ولما عارض باسكال بأن الله يخرج عن متناول العقل لأنه أبدى لا متناه ، رد العالم بأنه من المستحيل حقا أن نعرف ماهية الله ولكن ليس من المستحيل أن نعرف وجوده . وضرب مثلا لذلك ، العدد اللامتناهى الذى لا شك فى وجوده وإن كنا لا ندرك ماهيته . فأجاب باسكال بأن ذلك يرجع إلى أن بيننا وبين اللامتناهى صلة بالنسبة للامتداد ، وتفاوتا بالنسبة للحدود . أما الله فليس له امتداد ولا حدود ، ولذلك لا يمكننا إدراك وجوده إلا استناداً على الايمان والأنبياء والكتب المقدسة . ولكنه لم يشأ أن يعترف بالعجز ، فاضطر إلى أن يضع نفسه فى مكان سائله وأن يقنعه باستدلال بسيط ، فضرب مثل الرهان وقال :« إن عدم المراهنة على وجود الله مراهنة على أنه غير موجود . فالى أى جانب تنحاز ؟ فلنزن المكسب والخسارة بالانحياز إلى الجانب المراهن على وجود الله : إذا كسبت تكسب الكل ، وإذا خسرت لا تخسر شيئاً . راهن إذن على أنه موجود دون تردد ... » (أفكار باسكال ، بقلم ستروفسكى ، الفصل السادس ، الرهان) Les Pensées de Pascal, par Strowski, de l'Institut. [المترجمان]

وقد انتقد فولتير أفكار باسكال ومن بينها هذه فقال : «تبدو هذه الفكرة باطلة غير لائقة فان فكرة اللعب هذه ، والمكسب والخسارة ، لا تليق بجدية الموضوع . غير أن صالحى فى الاعتقاد بشئ لا يثبت وجود هذا الشئ . تقول إنك ستعطى لى مملكة الدنيا إن كنت أصدق بأنك على صواب . أريد إذن بكل قلبى أن تكون على صواب ؛ ولكن ، إلى أن تثبت ذلك ، لا أستطيع أن أصدق كلامك . إذا كنت تريد أن تقنعنى فاستعمل طرقاً أخرى ، ولا تتكلم عن اللعب ، والرهان ، والوجه والظهر . لا ترعبنى بالأشواك التى تبذرها على الطريق الذى أريد أن أتبعه ، بل يجب أن أتبعه . إن استدلالك هذا لا يصلح إلا لدفع الناس إلى الكفر ، لولا أن الطبيعة كلها تنطق بوجود الله ، بقوة وصراحة بقدر ما يبدو فى برهانك من ضعف وإبهام . » (فولتير : رسائل فلسفية الرسالة ٢٥ ، عن أفكار باسكال) . [المترجمان]

إن الله ليس حانقاً علينا ، كما يريده أولئك الذين يخافون من العذاب الأبدى . لا يجبر الله الناس على أن يكونوا متغرضين ومنافقين ، كما يريده أولئك الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة ابتغاء أجر فى الآخرة . إن الله هو الطيبة ، والاحسان ، المنتشر فى العالم : فمن كان طيبا ، محسنا ، فهو به على اتصال .

« إن محبة الغير ، والسعى فى سبيل الخير الشامل ، والعمل لصالح الجميع، بقدر ما فى وسعنا من إمكان ، هو بلا شك الوصول إلى الطيبة المثلى ، إنه تحقيق ذلك الخالق الذى نسميه إلهياً . . . »

مجادلات ، ومنازعات ، ومناقشات ، وضوضاء ، ذلك ماشهدناه عشرين مرة ، فى ذلك العصر الذى لم يكن قد اعتراه الملل ، الذى كان يكره عدم الاكتراث ، الذى كان يخاف الشك ، والذى كان يبحث . إن شفتسبرى ، وإن كان مقتنعاً بذلك مثل معاصريه ، إلا أنه يسمعنا لهجة أقل حدة ؛ فان تحضّره ، ووداعته ، ورقته الأرستوقراطية ، وغناه بالمحبة واللطف ، ومذهبه الذى يعتقد أنه عقلى بينما هو ليس إلا فضفضة عاطفية لقلب كريم ، تريحنا وتؤثر فينا . والأمر الذى لا يصدق ، هو أن هذا العالم الأخلاق لا يستطيع أن يكره الناس ، ولا أن يشتد فى حكمه عليهم ؛ ولا يعد الزمن الذى يعيش فيه سيئا : حقاً ، إنه زمن زاخر بالشذوذ وبالجنون ، ولكنه شذوذ نشهر به ، وجنون نسمه بالفضيحة ؛ زمن يحييه نقد حر ، هو بداية السلام . وإذا وجدنا علاج شافتسبرى بسيطا جداً ، ووصفته عن السعادة غير كافية ، وفلسفته جد مألوفة أو بيتية ، كما يقول فى رسالته : this plain homespun philosophy of looking into ourselves, this plain honest morals فان عزمه لا يثبط بتلك السهولة : بل يريد أن يجعلنا نتذوق ، دون أن نترك الأرض ، الملذات السماوية بفضل سحر الجمال .

الجمال والخير شئ واحد. Beauty and Good are one and the same مادام الكون انسجاما ، فلا يمكن أن نتصور فيه شذوذاً ؛ ومادام وعينا الأخلاقى بالخير والشر يرمى إلى تحقيق هذا الانسجام ، فيجب أن نريد هذا الانسجام بتمامه . إن الرذيلة خطأ «أستطيقى» ؛ وارتكاب هذه الخطيئة بالاختيار يعد أولا تعديا على المنطق ، ثم تعديا على الاخلاق ، ثم تعديا على الذوق السليم . فكما يمثل الفن روائع عالم المحسوسات ، — التى هى انعكاس «الفكرة»

المنظمة للأشياء — فكذلك يجب أن يحاول الانسان أن يمثل فى ذاته ، الجمال الأخلاق ، أو المثل الأعلى للجمال الأخلاق ، الذى ليس إلا انعكاساً آخر لنفس الفكرة . إن المرء فنان ينحت تمثال نفسه ؛ يولد من نفسه أفكاراً صحيحة ، وأفعالا فاضلة ، وصوراً جميلة ؛ وهذه المجموعة ، التى تحققها إرادته المبدعة ، هى ما نسميها السعادة . إن الكافر يحرم نفسه من هذه المشاركة فى النظام ؛ إنه مخطئ ، إنه شرير ، إنه ينشر القبح فى العالم ، إنه تعس .

هكذا يفكر الرجل الذى أسميناه بحق « فنان الانسانية الموهوب » . وهو ، لكى يقتنع بأن الأخلاق اجتماعية فى جوهرها ، يصغى إلى لوك ، الذى كان مربيا له . ولكى يتكلم عن السعادة ، يصغى إلى سبينوزا : الذى يرفض فكرة الخطيئة ، ثم ينصح الحكيم أن يتذوق متع الحياة ، ورقة العطور ، وجمال النبات ، والموسيقا ، واللهو ، والتمثيل : فلن يستمرئ دموع الجنس البشرى إلا إله يعاديه . ليس سبينوزا مغموراً ببهجة خفية عميقة فقط : فان البهجة ، عنده ، هى الشعور بتحقيق صفة سامية للكائن ؛ والحزن ، هو الشعور بالحط من شأن الكائن ؛ ولكنه فوق ذلك ، يقدر ثمناً عالياً ، أو قل قيمة فلسفية ، للمرح . وشفتسبرى يتبعه ؛ ولكنه ، يفضل الخير دائما ، ولذا نراه يتبع أفلاطون أيضاً . فاذا كان الوقت الذى يعيش فيه يذكرنا ، من كل نواحيه ، بزمن النهضة ، فكيف يمكن أن يغيب فيه ذكر أفلاطون ؟ إن أساتذة كامبردج يتبعون مذهبه بشئ من التقديس ؛ يشرح « كادورت » الدنيا بخواص « بلاستيكية » تقبل التشكيل ، وسيطة بين الأفكار والخليقة . ويحب شفتسبرى أن يتأمل الظلال الكبيرة ، فى لعبتها الالهية على جدار مغارتنا (١) . يتخيل

---

(١) رمز المغارة *Allégorie de la Caverne* ـ شرح أفلاطون لنظريته عن الأفكار فى رمزيته المشهورة عن المغارة حيث يمثل الناس بقوم مكبلين بالأغلال : تحت الأرض مغارة ينيرها ضوء خاب ضعيف ينفذ من كوة فى أعلى المغارة . وفى المغارة أناس مكبلون بالأغلال من أيديهم وأقدامهم ، بحيث إنهم لا يستطيعون حراكا ولا يرون إلا الصخرة التى أمامهم . من ورائهم يمر بعض الرجال يحملون تماثيل من الحجر . وفى جوف المغارة نار موقدة تلقى بظلال التماثيل على الجدار . من البديهى أن أولئك الناس المقيدين بالاغلال لا يرون إلا ظلال هذه التماثيل على الجدار الذى يقع أمامهم . فيعتقدون أن الحقيقة هى هذه الظلال — يقول أفلاطون إنه ينبغى تشبيه عالمنا المرئى بالاقامة فى السجن، وضوء النار التى تنيره بتأثير الشمس. فالأشياء التى مرت هى الأشياء التى تخص العالم =

أنه يكفى أن نصغى إلى انسجام الأفلاك ، لكى نكف عن الشكوى والصراخ .

وفى نهاية عمله ، يبدو له أن السعادة لم تعد تظهر فى المذهب الرواق ، الذى يحتمل بل يحتقر الشرور التى لا يستطيع أن يتفاداها . لا نشترى السعادة بالزهد ، أو بالكبت الدائم لطبيعتنا الفاسدة . لم تعد الأرض مقرا للامتحان، حيث المصائب التى تثقل كاهلنا أرفع قيمة من المتع ، لأن أولئك الذين يبكون سيجدون عزاء(١) . يريد العالم أن يحول أنظاره عن المسيح المفجع ، الذى صلب لانقاذ البشر ؛ لم يعد يريد أن يسمع نداء ذراعيه الأبكم . إن السعادة إبراز قوة كامنة فى أنفسنا يكفى أن نحسن توجيهها . فارتضاء العذاب ، وشهوة التضحية ، والكفاح ضد الغريزة ، وجنون الصليب ، كل هذه ليست إلا أخطاء فى التقدير وعادات سيئة . إن إله العقل يحرم علينا أن نتصور وجودنا الفانى كاستعداد للخلود

***

شاركت فى تأسيس السعادة على الأرض فضيلة ؛ فضيلة جديدة .

لم تكن تبدو فضيلة فى ذلك الوقت ؛ بل كانت ضعفاً ، بل تكاد تكون جبناً . التسامح حيال كل الآراء ، التسامح حيال رأى أخى ، ولو كان مخطئا، ولو انتهى الأمر به إلى فقدان روحه ؛ التسامح حيال رأى أدعياء النبوة والكاذبين — هذا يعنى أننا شركاء علنا فى الباطل والضلال . بينما الواجب على النقيض ، هو أن نفتح عيون الذين بعمهون ، وأن نهدى الضالين إلى الطريق المستقيم . لا ريب فى أنه لا ينبغى أن نشتد على الضمائر : ولكن هل يجوز لنا أن نتركها وشأنها ، بينما نعرف أن اليقين واحد ، وأن السلام الأبدى

= الذى لا وجود له إلا فى الفكر ، والشمس التى تنيرها هى فكرة «الخير» علة العلم وعلة الوجود . أنظر : مجموعة مصنفات أفلاطون ، طبع جارنييه ، الجزء الرابع (جمهورية) الكتاب السابع ، ص ٢٤٧ ، وعلى الأخص مقدمة الجزء الرابع Robert Baccou ص ٤٢ ، ومقدمة شامبرى Chambry فى الجزء الأول . [المترجمان]

(١) بوسويه : رثاء مارى تيريز النمسوية Oraison funèbre de Marie-Thérèse d'Autriche «المسيحى ليس حياً على الأرض أبدا ، لأنه يتعذب فيها دائماً ، والعذاب تمرين ، إمتحان ، بداية الموت »

يتوقف على معرفة اليقين ؟ إن الواجب يمنعنا من التسامح ، وبالمثل الشفقة . إذن ، لا يمكن أن يكون المتسامحون إلا سوسنيانيين متنكرين ، أناساً يمحون الصفات التى تميز الكنيسة الحقيقية ، أناساً يتقبلون كل المارقين فى وحدة الايمان ؛ ارتيابيين ، يعلنون أن لا فرق هناك ولا مفاضلة بين الأديان ؛ عصاة ، عقولا قوية . كان من المستحيل أن يكون رجل مثل بوسويه متسامحاً ؛ ولا رجل مثل بيليسون ، حتى حينما كان يفاوض ليبنتز فى رجوع البروتستانت إلى الكنيسة الرومانية . لقد كتب إلى ليبنتز فى عام ١٦٩٢ — « أعتقد أن من نسميهم سوسنيانيين ، ومعهم من نسميهم أشياع الديزم وأتباع سبينوزا ، قد شاركوا كثيراً فى انتشار ذلك المذهب ، الذى يمكن أن نعده أكبر الأخطاء ، لأنه يتفق معها كلها . ولما كانوا يخشون ألا يحتملهم الناس ، وأن تتدخل السلطات المدنية فى شئونهم ، فقد وجدوا صالحهم فى أن يقولوا باحتمال كل شئ . من هنا تولد « مذهب التسامح » ، كما يسمونه ؛ وتولدت كلمة أخرى أحدث من الأولى ، هى عدم التسامح الذى يتهمون به الكنيسة الرومانية . . . »

ولكنه كان يتكلم بلا جدوى ؛ وكان هناك تغيير ينتاب الأمور ، وكان يستشعره جيداً ؛ وجعل التسامح — بعد عناء شديد وجهد كبير طال سنين وسنين — يتخذ لونا جديداً ، فيصبح فضيلة .

كان رهان معركتين ، إحداهما سياسية ، والأخرى دينية . نعم ، إن لملك فرنسا الحق فى استعمال القوة لارغام العنيدين على الرجوع عن غيهم ؛ ولحكام هولاندا الحق فى أن يعزلوا من الوظائف وأن يزجوا فى السجن من يأبون الاعتراف بأى سلطان فى موضوع التفكير ، وبذا يعكرون السلام ويهددون كيان الدولة ؛ ولملك انجلترا الحق فى أن يحرم من حماية القانون ، أولئك الكاثوليك البشعين الذين يعلنون دائما سيادة روما على السلطات المدنية . — كلا . لا يستطيع الناس ولا يجوز أن يزعجوا الضمائر فى نشاطها ، لأن كل هذا الموضوع من اختصاص الله وحده . إن روحا مسيحية حقة ، لتعلم وتشعر أن الاضطهاد يخالف روح الانجيل مخالفة الظلام للنور . بحيث إن ملكا مسيحياً يجب أن يكون متسامحاً حيال كل رعاياه ، طالما يحترمون حكمه السياسى . هكذا كان وليم أورانج ، كما قال المؤرخون البروتستانت . — « قال إنه كان

بروتستانتيا ، وبصفته هذه ، لم يستطع أن يتعهد إلا بالاحتفاظ بدين الاصلاح ، وإنه على كل حال ، لم يعرف على وجه الدقة ماذا يعنى الكفر ، ولا إلى أى حد قد يمتد معنى هذه الكلمة ؛ أما عن نفسه ، فانه لن يحتمل أبداً أن يضطهد أحداً من أجل دينه ، وإنه لن يعمل على تغيير إيمان أحد أيا كان ، إلا بالاقناع ، حسب الانجيل(١) . » ولقد وضع فى عام ١٦٩٠ « عقد التسامح » مقابل « فسخ أمر نانت . »

وكانت المعركة الدينية أشد . أعطى إشارتها الأولى ، عام ١٦٧٠ ، الراعى « هويسو » ، حين عرض على المذاهب أن تلقى السلاح ، لانتخاب عقيدة من السعة بحيث تشمل العالم بأسره . الأمر الذى دفع جوريو إلى الاحتداد ؛ يقول لنا إنه ألف كتابه « فحص فى كتاب الوحدة أو بحث عن التسامح فى موضوع الدين » بقصد مناقضة هويسو : « إن كرهى لهذا التسامح المهين نحو الالحاد لهو عندى داء قديم قد اشتد على مر الزمن . » واستمر الكفاح فى أرض الملجأ ؛ وأخذ الطرفان يتقارعان بالحجج دون أن تتلاقى ؛ وتتابعت الأبحاث تلو الأبحاث . ويين أكثر رعاة البروتستانت عرفانا ، مثل « هنرى باناج دى بوفال » ، و « جيديون هويه » ، وألى سورين Elie Saurin ، أن عدم التسامح ، لا التسامح ، خطيئة ضد الفكر ؛ وإذا كانوا حقاً ، قد حرموا الكاثوليك من عطفهم ورعايتهم ، كما فعل بهم « وليم الثالث » باستبعادهم من « عقد التسامح » ، — فقد حالفوا على الأقل علماء وحكماء هولنديين ، مثل « جلبرت كوبر » ، وأدريان باتس Paets ونودت Noodt ، المخلصين لتقاليد بلادهم الحرة : وكانوا جميعاً يسعون فى سبيل إقامة فضيلة من الصعب إقامتها . وكانت أحياناً تظهر عواصف تفسد كل شئ : لقد تسبب بايل فى اشتداد تلك المجادلات العنيفة ، بنشر « إعلانه للاجئين » — الذى نسب إليه بحق أو بغير حق — والذى كان يحمل على عدم التسامح البروتستانتى حملته على عدم التسامح الكاثوليكى . ولكن لم تكد العاصفة تهدأ ، حتى تغيرت نظرة الناس نحو التسامح ، فبدا لهم مزدانا بغصن الزيتون .

---

(١) دافيد دوراند David Durand : تاريخ انجلترا منذ تأسيس الرومانيين ...، لرابين تويراس Thoyras ١٧٢٤ - ١٧٣٦ . الجزء الحادى عشر ، ص ٤٨ : شعوره عن التسامح .

كان لوك أكثر الجميع إنسانية . ليس فى تلك الكتلة من المؤلفات نداء أبلغ ولا أكرم من مؤلفه «رسالة عن التسامح» *Epistola de Tolerantia* الذى نشره فى عام ١٦٨٩ والذى دافع عنه حتى مماته . كان لوك يقول بأعلى صوته : تذكروا أن التسامح هو جوهر المسيحية . لأنه إذا أعوزتنا الشفقة ، والرفق ، والعطف ، فكيف نجرؤ على الزعم بأننا مسيحيون ؟ إن الايمان يؤثر بفضل الشفقة ، لا بفضل الحديد والنار . وهل ينبغى أن يحرق الأخ أخاه ، من أجل بعض الاختلاف فى الآراء ، التى لن نعرف صحتها من بطلانها قبل يوم القيامة ؟ فليحارب الثائرون الغيورون — إذا راموا أن يعملوا — الرذائل والجرائم التى يرتكبها كل يوم إخوانهم فى الدين : فساد أنكد بلا شك من رفض المرء ، لعدم ارتياح ضميره ، بعض قرارات الكنيسة ! فالروحانيات شئ ، والزمنيات شئ آخر ؛ والمجتمع الدينى شئ ، والمجتمع المدنى شئ آخر : ليس للحاكم سلطان على الأرواح ، فليحذر أن يعتب أبواب المعابد . إن التسامح مطابق لانجيل المسيح ، وموافق للادراك السليم لكل الناس ، حتى إنه يمكننا أن نعد من يرفضون أن يدركوا لزومه وفائدته كوحوش . أى أهمية فى استعال اللاتينية أو عدم استعالها فى الكنائس ؟ أى أهمية فى السجود أو فى الوقوف ؟ فى ارتداء كساء طويل أو قصير ؟ يا من تؤمنون بالمذهب الكاثوليكى ، وأنتم أيضاً ، يا أهل جنيف ، وأنتم يا ناكرى التعميد ، ويا أيها الأرمنيون ، والسوسنيانيون ، اعلموا أنكم لن تستحوذوا على روح بالقوة ؛ فليس لكم الحق ولا القدرة . تسامحوا فيما بينكم ، وتوادوا ، متحدين تجمعكم إرادة واحدة لفعل الخير .

الفصل السادس

العلم والتقدم

متنزه واسع منعزل فيه شخصان : مركيزة لعوب ورجل مجتمع ، صديق لها أو لعله عشيق ، يستغرقان عند انسدال الليل فى حديث . عن أى موضوع ؟ عن علم الفلك : « حدثنى عن نجومك . . . (١) » . إنهما متأنقان متكلفان مهذبان : هكذا يصورهما فونتنل ، لا لأن هذه طبيعته فحسب ، بل لأنه يريد إظهارهما محببين . يريد صراحة ألا يضير كتابه أحداً ، وأن يعجب الجميع ، وعلى الأخص أولئك الذين لا يعرفون شيئا ، وأن يسحر — قبل كل شئ — بظرفه وخفته الفاتنة . حتى ليكاد أن يفقد كتابه صفته العظيمة . ومع ذلك تنبثق فى وضوح النور ، رغم التكلف فى الأسلوب ، تلك العظمة السامية . يبدو رجل المجتمع والمركيزة ، وقد طواهما جناح الليل ، يعيدان ذكرى رعاة كلدانيا القدامى ، يستخبران الأفلاك ، ويتعجبان للنجوم بعد أن تعجبا للشمس — مثل سكان الأرض الأولين . رفيقان من أبناء الرغام ، يجترئان بعيونهما الحقيرة ، يسبران غور السماء .

إن المركيزة لا تعرف شيئا : ولكن فونتنل يعرف ، وسيعلمها فى خلال بضعة ليال ، سير الكواكب الذى يبدو فى الظاهر على هذا الغموض . كفى أخطاء ! لقد أخطأ العالم فى حركات الاجرام السماوية منذ زمن بعيد ! لقد تخيل الناس من زمن طويل أن الشمس تدور حول الأرض : إنه خطأ أولى ، جر وراءه كثيراً من الأخطاء . ولكن فى النهاية زال الضلال . « لقد أتى ألمانى يدعى كوبرنيكوس ، هدم كل تلك الدوائر المختلفة ، وكل تلك السموات الصلبة ، التى تخيلتها الأزمان القديمة . لقد دمر بعضها وفتت البعض الآخر .

---

(١) فونتنل : فى ابتسام العقل ، Le Sourire de la Raison . [المترجم]

تملكته حماسة عالم فلكى نبيلة ، فتناول الأرض ونحاها عن مركز العالم حيث وضعت من قبل ، وفى ذلك المركز وضع الشمس ، التى كانت أحق بهذا الشرف . . . » لقد انخدع القدماء مرة أخرى ، وأخطأ الناس لأنهم تبعوهم . ولكن بزغ عهد جديد . لقد فضح العقل والفحص هذه الأخطاء الأزلية . إن العلم يتكلم ، فيجب أن نصدق به ، لقد تغيرت الأرض والسماء .

لعل المركيزة تنتابها الدهشة لهذا الاكتشاف . لقد كانت تعتقد أن هذا الكون إنما خلق لها ، مثلما كان يظن ذلك الأثينى المجنون أنه يملك كل السفن التى تدخل ميناء بيريه ، فيا للوهم الذى تبدد ! إن الأرض بما فيها من أشغال، وحروب ، واضطراب ، لم تعد تبدو لها إلا كيرقة من دود القز ، يرقة صغيرة ، ضعيفة ، وحقيرة ! ولعلها قد ترتعد فزعاً ، أمام تلك الهوة اللامتناهية التى تكشفت لها .

ولكنها على العكس ، تشعر ببهجة الموقفين ، يخالجها شعور من الكبرياء : إنها تسلم بهذا العلم الجدد . وهى تدخل فى زمرة المؤمنين ، لم تعد من قطيع الوثنيين الذين لم يعرفوا الحقيقة أبداً ، ولا الكفار الذين يتغذون بالضلال : وهى بذلك فخور . فلنتخيل ، باحدى تشبيهات فونتنل المألوفة ، التى تحيل الأفكار المجردة إلى صور ظريفة — مثل (زورق ينزلق على نهر ، سفينة تنساب فى المحيط ، كرة تدور على الطريق) — فلنتخيل تمثيلا فى الأوبرا : فايتون يترك الأرض(١) ، الريح ترفعه فيحلق فى السماء . لنفترض أن فيثاغورس ، وأرسطو ، وأفلاطون ، وكل أولئك الحكماء الذين يتردد ذكرهم على الأسماع ، يشهدون هذا التمثيل . سيقول أحدهم : « إن فايتون مركب من بعض أعداد ترفعه إلى أعلى . » وسيقول الثانى : « إن فايتون يرتفع ببعض خاصية سرية . » بينما يقول الثالث : « إن لفيتون شيئا من الشغف بأعلى المسرح ، فهو لا يرتاح مالم يكن هناك . » تخيل مئة حلم من هذا القبيل ، قدمتها الأزمان القديمة شرحا لتلك الظروف : أفلم يكن هذا يستدر الرثاء ؟ من حسن الطالع أن أتى ديكارت وبعض المحدثين وقالوا : « إنما يرتفع فايتون

---

(١) فايتون : فى الميثولوجيا اليونانية ابن الشمس . ولقد ألف الكاتب كينو Quinault أوبرا تدور حول اسطورته المشهورة (١٦٦٣).

لأنه مشدود بالحبال ، ولأن ثقلا ، أثقل منه ، ينزل . » لم يدر بخلد أحد أن ننظر إلى ماوراء الستار : يوم اكتشفت الآلة ، ويوم بدأنا نستعمل العقل ، عرفنا السر . يا للمتعة ، متعة الاكتشاف ! ويا للبهجة ، بهجة الحقيقة !

للمعرفة العلمية جالها الخاص ، لأن تصور عالم مكتمل الترتيب ، تبدو أكثر الوقائع ارتباكا فيه نتيجة لأبسط الوسائل ، أو إن أمكن القول أقلها كلفة ، لشئ يفتن العقل . فليقل إعجاب الآخرين بهذا العالم الآلى : أما المركيزة ، فعندما تعلم أنه يشبه الساعة ، تزداد حبا له . أى شئ أحق بالاعجاب من هذا الانتظام ، هذا التوفير فى انتخاب الوسائل ، هذه البساطة؟ إن كشف قوانين الطبيعة بشعرها بلذة ذهنية ، رقيقة ، نادرة : « ليست متعة كالتى تشعر بها فى إحدى كوميديات موليير ، بل متعة لست أدرى فى أى مكان من العقل ، لا تدغدغ إلا الذهن . »

العلم ؛ لقد رأينا العلم فى كل مكان ، ونحن نقترب الآن من أولئك الذين يعدون علماء فى أوج العلم ، من أولئك الذين يملئون السبورة بأرقام تدير الرءوس ، أولئك الذين يتطلعون بالمرصدة ، أولئك الذين يشرّحون أجساد الحيوان والناس ، إننا ندخل فى مملكتهم الخاصة . إن فونتنل يدعونا إليها . وفونتنل فى الفلسفة يصطف بين « القلقين » ، وفى العلم بين « محبى الاستطلاع » وهذا نفس الشئ . فليقترب اللادينيون دون وجل من شجرة المعرفة ! ولسوف تؤثر الحقيقة على كل العقول كالهام سماوى . إن مؤلفه « محادثات عن تعدد العوالم ، ١٦٨٦ » لقدمة ، عميقة ، خلابة ، لتفسير جديد للكون .

***

لم يصبح التفكير الهندسى فقط هو البدع ، بل الهندسة أيضاً . لقد هبطت من أعلى الذرى ، حيث رفعها العصر السابق ، إلى الجمهور المثقف . وفى باريس لقى عالم رياضى — جوزيف سوفير — شهرة عريضة بالقاء محاضرات تهافت عليها النبلاء ؛ وأصرت النساء على أن يكشف الرجال « تربيع الدائرة » قبلما يحاولون اكتساب حظوتهن . وهذا على الأقل ، ما تذكره « صحيفة العلماء » ، ساخرة من هوس ذلك الوقت : « منذ ماعرف علماء الرياضة سر الدخول إلى الأبهاء ، ناقلين إلى خدور النساء ألفاظ علم قوى جاف كالرياضيات ، عن طريق كوميدية

للمادة ، أن الفراغ ليس له وجود ؛ وعلى إثر ذلك أثبت علماء أخر ، بناء على تجاربهم ، أن الفراغ (١) موجود ولا شك فى وجوده ؛ لقد وجد أولئك الأخيرون الحقيقة الصحيحة ، بتوفرهم على دراسة الواقع الملموس . الواقع . الخضوع للواقع . كان هذا هو الواجب .

هيا بنا ، فلا زالت أمامنا مهمة لنشرع فيها : مهمة شاقة . فلابد من من تغيير اتجاه العقل البشرى من جديد ، لابد من البحث ، والعمل ، والكد، وعلى الأخص التوصل إلى نتائج إيجابية ؛ فلنحتفظ بعون الرياضيات التى تمثل يقينا ، لكن مع الوصول إلى نمط جديد من المعرفة ، التى لا تجرد الكائن ، بل تقبل تركيبه لكى تسيطر عليه . وكان هذا مجهوداً جماعيا من قبل أوربا التى تسير فى طريق التبدل . انظر إلى الايطاليين المجتمعين فى مجمع سيمنتو بفلورنسة . كل ظاهرة طبيعية موضوع بحث علماء ذلك المجمع : لماذا يوجد دود فى الفواكه ؟ ما هذه الافرازات التى تظهر على الغصون والأوراق ؟ لماذا تضئ السمكة فى الماء ، ولا تضئ إذا خرجت إلى الهواء ؟ إنهم يبحثون . وليس لديهم معمل ولا عدة ، ولا يكادون يخلعون ثيابهم الرسمية وشعرهم المستعار حتى ينكبوا على العمل . إنهم يبحثون . إنهم يصنعون الأدوات ، ويكثرون من التجارب ، ويقولون : حقا ، إن المثل الأعلى للمعرفة هو الهندسة ، ولكن هذه الهندسة تتركنا لتحلق فى الفضاء اللامتناهى : حينئذ نتجه نحو

(١) الفراغ Le Vide : كان الاعتقاد السائد من قديم أن الطبيعة لا تقبل الفراغ . وكان أشهر علماء الطبيعة ينكرون أن الفضاء يمكن أن يكون فارغاً على الاطلاق أى محتوياً على عدم . وكانت هذه المسألة موضع اهتمام العلماء وعلى الأخص جاليليو وتلامذته وطورشيللى وغيرهم . وبدأ باسكال يهتم بها ويجرى التجارب منذ صيف ١٦٤٦ حيث أخبره صديق أن رجلا اسمة جان باربيه يحاول انتشال الذهب الغارق مع السفينة « سنغال » بوساطة جهاز يستعمله غواص . ونجح باسكال فى تجاربه لاثبات وجود الفراغ ، إذ وجد أن أى نوع من السائل إذا وضع فى انبوبة اختبار مقلوبة ، فانه يتوقف عند ارتفاع معين ، متناسباً دائماً مع كثافة السائل . وبين السائل وطرف الأنبوبة مسافة فارغة فى الظاهر ، أثبت باسكال أنها فارغة فى الحقيقة . ويرجع سبب هذا التوقف إلى كثافة الهواء . وقام بتجربة كبيرة أمام العلماء والفلاسفة ليثبت لهم ذلك ، تفصيلها فى كتاب «باسكال» بقلم ستيفان فالوت الفصل ١٢ ، وكتاب «أفكار باسكال» بقلم ستروفسكى ، الفصل الأول ص ١٤
Stephen Valot, *Blaise Pascal*, (B. Grasset), Paris 1945. — F. Strowski, *Les Pensées de Pascal*, (Mellottée) Paris. [المترجم]

« ميركورى الأنيق(١) » Mercure galant ، يقول الناس إن مملكة الأناقة تتخلف ، وإننا لم نعد نتكلم فيها إلا عن مسائل ، ونتائج ، وقضايا هندسية ، وزوايا قائمة ، وزوايا منفرجة ، وأشكال شبيهة بالمعين ، وغير ذلك ؛ وإنه كان فى باريس منذ عهد قريب غادتان ، هوست تلك المعارف من ذهنيهما ، حتى إن إحداهما لم تشأ قبول عرض زواج ، إلا إذا تعلم طالب يدها صنع المناظير التى تردد ذكرها فى الكوميديا المذكورة ، ورفضت الثانية رجلا غاية فى الكمال والشرف ، بحجة أنه حين تقدم يطلب يدها ، لم يقدم شيئاً جديداً عن تربيع الدائرة . » (٤ مارس ١٦٨٦) . مادامت المادة ليست سوى الامتداد ، فليس علم الطبيعة إلا علم الرياضيات . لقد شكر الناس فضل علماء الهندسة لاتاحتهم لهم تملك زمام المادة ، ولاستعاضتهم عن السفسطة واللغو — كالقول بأن الأفيون منوم لأن فيه خواص منومة — بضمان الحساب . فبفضلهم وجدوا مفتاح مغالق الظواهر الكونية .

ولكن الحق أن هذا الشعور لم يكن وحده المتسلط على العقول : هناك ضرورة أخرى كانت تعذبها ، ضرورة تزداد إلحاحاً كل يوم . كانت الرياضيات وجها من أوجه المعرفة : ولكن هل كانت حقا الوجه الوحيد؟ هل تجريد كل شئ هو معرفة كل شئ؟ لعل الهندسة قد تجاوزت حدودها ، فى انتصارها ؛ والدليل على ذلك أن ديكارت ، العالم الهندسى الفائق ، قد تاه فى علم الطبيعة . المشاهدة ، والتجربة : ذلك ما كانت تنصح به الفلسفة الجديدة ؛ فهل كان يجوز أن يستخف بها العلم؟ كان الناس يسمعون صوت جاليليو ، وأكثر منه صوت بيكون الذى لم ينسوه أبداً . لقد قال بيكون — وكان العالم لا يزال يتذكر قوله — إنه يجب أن نبتدئ بالمشاهدة ، وإن الذهن البشرى يدرك الأشياء عن طريق الحواس ؛ وإن صور الحواس — بنقلها إلى الذهن — تصبح موضوعاً لأحكام العقل ؛ وإن العقل بدوره ، يردها صافية مصححة ؛ ولذلك يجب أن تبتدئ الفلسفة الصحيحة من الحواس لكى تشق للادراك طريقا مستقيما ، ثابتاً وأكيداً . كان علماء الهندسة قد أكدوا ، بناء على تعريفهم

---

(١) رواية كوميدية ألفها بورسو Boursault فى عام ١٦٨٣ ، وميركورى هو إله التجارة فى الميثولوجيا اليونانية . وهو الزئبق أيضاً . [المترجم]

التجربة التى تقودنا إلى الحقيقة ، بفضل البراهين والبراهين المضادة . ولما انحل مجمع سيمنتو فى عام ١٦٦٧ ، لم يمت التقليد الايطالى ، بل هو سيدوم طوال القرن التالى بفضل مارسيجلى ، وفالسنيرى ، وجوالتيرى ، وكلاريسى ، وميشيلى ، وراسازينى ، وفورتيس ؛ ولسنا ندعى أننا ذكرناهم كلهم . نشر جيوفانى ماريا لانسيزى فى عام ١٧٠٤ ، فى صحيفة « جاليرى دى منيرف » مقالا عن : طريقة التفلسف فى الفن الطبى ، يثبت فيه أنه من الأفضل للطب العقلى ، أن نستعمل الفلسفة التجريبية بدلا من أية فلسفة أخرى .

ولم يبد الفريق الانجليزى ، الذى يتميز فيه بويل ، نشاطا أقل : لقد استحقت « الجمعية الملكية » إعجاب أوربا . إن أعضاءها الحكماء المهرة ، لا يهتمون باظهار ذكائهم وقوة ذاكرتهم فى مقالاتهم ، اهتمامهم بتقدم العلوم والفنون بفضل الوصول إلى نتائج راسخة . بحيث إنهم يفحصون أولا حقيقة الفروض التى يمكن تحقيقها فى ميدان الواقع ، ولا يضيعون وقتهم فى الأمور الأخرى . . . ثم يبحثون عن العلل ، بالتفكير وباجراء التجارب الجديدة ، التى تدفع بهؤلاء العلماء الكبار إلى أقصى الأبعاد ، حتى إنهم أرسلوا علماء إلى قمة جبل تنريف (فى جزر الكنار) لاجراء بعض التجارب ، بعد ما أجروا عندهم تجارب عديدة واخترعوا آلات خاصة(١) . »

وأصبح علماء الطبيعة الهولنديون أساتذة فى المنهج الذى بدأ يتشكل ؛ الأطباء ، وعلماء النبات ، وعلماء الطبيعيات ، يتسابقون فى العمل : سوامردام ، هيجنز ، بورهاف ، جرافيساند ، وليوفانهوك . وهذا الأخير ، ذو أصابع خفيفة، ونظرة ثاقبة ، وعقل تغريه الطرافة ؛ وهو يبدأ فى استكمال طريقته الفنية أو « التكتيك » كما نقول اليوم ؛ ولا يرتاح إلا بعد أن يصنع بيده ، وبعد تجارب عديدة ، مجهراً أقوى من الذى استعمله أسلافه . ولقد نجح وتوصل إلى مجهر يكبر الأشياء مائتين وسبعين مرة . إنه يرى عالما فى قطرة من الماء : ففيها مخلوقات دقيقة تتحرك ، وتتقاتل ، وتبحث عن غذاء ؛ إن هذه القطرة مأهولة بالسكان كأنها محيط ، إن الحياة تختلج فيها بكل مظاهرها . وهو

---

(١) سوربيير Sorbière ، ذكره ج. أسكولى ، « بريطانيا العظمى أمام الرأى الفرنسى»، ١٩٣٠ ، الجزء الثانى ، ص ٤٢ .

يطبق التجربة على سوائل مختلفة ، من دم ومنى وغير ذلك . . . ومع ذلك فقد أنكر الناس اكتشافاته ، ولم يكن هناك بد كما يحدث دائما ، من مناقشات ومناقضات ومؤلفات ، وهمة واسعة لكى يسلم الرأى العام بالحقيقة التى رآها بعينه .

ثم نجد رجال اسكندناوة ، أولوس رومر ، توماس باتولان ، نيلز ستنسن ، يجددون الطب باكتشافاتهم التشريحية . والألمان ، مثل أوتو فون جوريك ، الذى واصل التجارب على الفراغ . لقد نشر الألمان — بما هم عليه من نظام وتوفر على العمل الجماعى — صحيفة خاصة ، صحيفة طبية — فيزيقية ، تعرف الناس بأعمال محبى الاستطلاع فى الطبيعة ؛ وقد أثنى عليها بايل ثناء جما ، قائلا إن أصحابها يخدمون العلوم أجل الخدمات ، بمثابرتهم على العمل بلا كلال ، وفى نفس الوقت ، باختراعاتهم وعبقريتهم .

ولقد أصيب الفرنسيون أيضا بحب الاستطلاع فى الطبيعة : فأهل باريس يذهبون إلى متنزه الملك للاستماع إلى دروس التشريح التى يلقيها دفرناى Duverney ؛ ويفاخرون بأن لديهم فى شخص نيقولا ليمرى Nicolas Lémery الذى كان صيدليا فيما سبق ، « أول عالم كيميائى معقول » كما قال عنه فولتير ؛ وواحد من أعلام الطبيعة فى هذا الوقت ، وهو ماريوت Mariotte « لقد افتتح فى باريس مكتب جديد للطبيعة ، هكذا أسمى أكاديمية العلوم . قال الأب بنيون الذى يحتفظ بمفتاح هذا المكتب ، إن الطبيعة ستبدو فيه غاية فى البساطة ، وإن هذا المكتب لم يجد من اللائق أن يستعير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، مظاهر الأبهة التى يسرفون فيها . وإنه لعلى صواب(١) »

إن إسبانيا نفسها تشترك فى حركة الفحص : تأسست فى أشبلية فى عام ١٦٩٧ جمعية للطبيعة والطب التجريبى . وإنك لترى الأفكار تهاجر ، كما يحدث فى الأدب ، وكما يحدث فى الفلسفة ، بل لعلها أسرع هنا . لقد نشر طبيب توسكانى شهير — جراندشسكو ريدى — بحثا عن الجراثيم ، يبين فيه أن المادة لا تفسد إذا لم تعرض للذباب ، بينما هو يضع بيضه عليها إذا عرضت

---

(١) روح المحاضرات فى أوربا ، ١٦٩٩ ، ص ٢٥ L'esprit des cours de l'Europe, 1699, p. 25

له : وتهتم أوربا العالمة بأسرها باكتشافه هذا ، فترى بيير كوست الفرنسى يترجم هذا المؤلف الايطالى ، ثم تظهر هذه الترجمة فى هولاندا ، كأن فى ذلك علامة على تبادل الأفكار . تعرف أحد سكان البندقية ، باولو ساروتى ، بروبرت بويل فى لندن ، فتملكته حماسة العلم ، واستقدم معه إلى البندقية « شابين انجليزيين خبيريين فى تكييف الآلات لاجراء التجارب . » ولما قام الأب تاشارد برحلته الثانية إلى سيام ، طلب منه تيفينو أن يوضح له شيئا يؤكد الناس صحته ، مع شدة غرابته : يقال إن هناك أصدافا على جبل « المائدة » المتسامق فهل هذا ممكن ؟ وسرعان ما يشرع الأب لوبلان والأب دوييز فى تسلق الجبل . ولقد خصصت كبريات الصحف الأوربية حيزاً كبيراً من صفحاتها لمسائل الرياضيات العالية ، وحيزاً أكبر منه للطبيعيات . وكثيراً ماتنبئ رسائل القراء عن ميل متأصل للخوارق : إن دجاجة لم يسبق أن وضعت بيضا ، قد وضعت بعد ماغنت بشكل خارق للعادة ، بيضة ثمينة يزيد حجمها عن الحجم الطبيعى ، وعليها رسم لا لمذنب واحد كما اعتقد الجمهور ، بل لنجوم عديدة . عثر الناس على فراشة رأسها رأس طفل صغير . تقيأت فتاة بعض العنكبوت والديدان والحلزون ، وأنواعا أخرى من الحشرات . . . تلك بعض الحوادث الغريبة التى يطرب لها الجمهور . ولكنك تلمس أيضا ، فى نفس الصفحات ، المجهود العلمى ؛ إن علماء من كل نوع ، ينكبون على العمل ، مدفوعين بحب استطلاع واحد ، وقلق واحد : كيف تعمل عصارة النماء فى الأشجار؟ ما هو تأثير الكنكينا China-China على التحقيق ؟ كيف تؤثر الخمائر؟ تشريح العين ، تشريح المعدة ، مسالك جديدة فى القلب البشرى . هل وجد قط متوحش هائل ؟ فليكن ، فلنتناوله بالتشريح ، بدلا من أن نصيح بأنه معجزة .

ولما تهيأ الجو ، ظهر — كما يحدث فى الفلسفة وفى النقد — أحد أولئك الأبطال الذين تستدعيهم الأزمان الكبرى : نيوتون .

***

أليس علامة من علامات الزمن ، أن يجد الرجلان اللذان وصفهما فيكو بأنهما « العبقريتان الأوليان فى هذا العصر ، ليبنتز ونيوتون » ، فى آن

واحد تقريبا ، حساب النهايات الصغرى؟ إن تطبيق هذا المنهج الجديد يسمح لنا بأن نعد الظواهر الطبيعية لا كأنها غير مستمرة — وهى ليست كذلك فى العموم — بل كأنها مستمرة — كما هى فى الواقع . ما أهم المكانة التى احتلها فى تطور الفكر البشرى ذلك العلم الذى كان الناس السذج لا يزال يراودهم الظن فى أنه يمكنهم الاستغناء عنه بسهولة! لقد لاحظ الناس أنه ، كلما ظهر نظام من نظم الرياضيات ، يظهر مذهب يبنى على هذا النظام نظرية شاملة عن الأشياء : فعلى علم الحساب قام مذهب فيثاغورس ، وعلى الهندسة قام مذهب سبينوزا ، وكذلك على علم النهايات الصغرى قامت فلسفة ليبنتز(١) . والواقع أن هذا الأخير أعلن بنفسه أن الرياضيات تقدم للفيلسوف العون الأساسى ، وأنه ما كان ليجد أبداً نظرية الاتساق ، لو لم يضع أولا قانون الحركة . بينما كان نيوتون يصل ، بوساطة علم النهايات الصغرى ، إلى كشف قوانين الجاذبية .

لقد ظهر منذ عام ١٦٨٧ ، فى الواقع ، المؤلف الجبار الذى يتضمن شرحا لهذه القوانين «مبادئ رياضية للفلسفة الطبيعية .» وما كان أبعد هذه المبادئ عن أن تفهم بمجرد أن تظهر ؛ فانها لن تؤتى ثمارها إلا فى القرن التالى ؛ إن القرن الثامن عشر سيتغذى ، فى الفلسفة وفى النقد وفى كل شئ ، بما كشفته نهاية القرن السابع عشر ؛ فان الناس لا يهضمون هذه المواد الدسمة إلا ببطء . إلا أن هذه «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» لا تعد الرياضيات كل الفيزيقا — كما أراد ديكارت — بل آلة تستعملها الفيزيقا فى اكتشافاتها وتجاربها . إن هذا المؤلف الخالد يرد للبحث والتجربة مكانتهما ، وقيمتهما . الاهتمام بالواقع ؛ الاذعان للواقع ؛ التواضع أمام الواقع ؛ وكراهية شبه غرزية لكل نظرية لا تحققها التجربة الواقعية : تلك كانت بعض نواحى عبقرية نيوتون ، وكان اكتشافه الكونى يبدو كأنه تمجيد عظيم لمبادئه ، أو جزاء على إصراره على رأيه . إن الخيال الشعبى ، الذى يتصور نيوتون جالساً تحت شجرة ، متأملا فى سقوط التفاحة ، متسائلا عن السبب فى سقوطها ، لا يخطئ

---

(١) ليون برونشويك ، مراحل فلسفة الرياضيات ، ١٩١٢ ، Léon Brunschvicg, *Les étapes de la philosophie mathématique*, 1912.

كثيراً حين يرمز إلى فكر يبدأ خطواته من الواقع الملموس . فانه يحقق إلى مدى بعيد ، الرغبة التى كانت تحرك فرق البحاث الذين رأيناهم يعملون من قريب فى صبر وحمية . تقبل الواقع الملموس ، وتفسيره بالعقل ، وتحقيق نفس هذا التفسير بالواقع الملموس : ذلك هو قانون العلم الصريح الذى كانت هذه الفرق تسعى إلى وضعه .

عندما يخطب فونتنل ، السكرتير الدائم لمجمع العلوم ، مثنيا على إسحق نيوتون ، وعندما يعرض اكتشافاته ، بتفكيره الواضح ، حتى يتوهم غير العارفين أنهم قد أدركوها ، وعندما يشتد أسلوبه ويحتد ، دون أن يفقد شيئا من وضوحه وجماله ، كأنه تحت تأثير النفثة المبدعة للرجل العظيم الذى سيعمل على تمجيده : عندئذ سنرى مقارنة ، لن تكون زخرفا من البلاغة ، بل ستجابه ديكارت بنيوتون وجها لوجه ، وهو ما كان صوابا ، وما كان مرغوبا ؛ وبالرغم من تحيز فونتنل لأستاذه ديكارت ، فسيبين تمام التبيان ، الفرق بين الحالتين الفكريتين اللتين تسجلان — كما يقول — حدود العقل البشرى :

« إن الرجلين اللذين يقوم بينهما هذا التعارض البين ، كانت تجمعهما صلات كبيرة . كان الاثنان عبقريين من أعلى طراز ، ولدا ليتسلطا على العقول وليشيدا الممالك . ولما كانا عالمين ممتازين فى الهندسة ، فقد أدركا ضرورة إدخال الهندسة فى ميدان الفيزيقا . ولقد أقاما علمهما الفيزيقى على هندسة لا مصدر لها تقريباً إلا ضوء معارفهما الذاتية . ولكن أحدهما تجاسر فأراد أن يرتفع إلى غاية مصدر الأشياء ، لكى يتمكن من المبادئ الأولية ببعض أفكار واضحة أساسية ، حتى لا يكون عليه بعد ذلك إلا الهبوط إلى الظواهر الطبيعية على أنها نتائج ضرورية . أما الآخر ، فكان أقل جرأة أو أكثر تواضعا ، فبدأ خطواته مستنداً على الظواهر لكى يرتفع منها إلى المبادئ المجهولة ، معتزماً أن يتقبل تلك المبادئ حسبما تتولد من سلسلة النتائج . لقد بدأ أحدهما بما كان يدركه تمام الادراك ليصل إلى علة ما كان يراه . بينما بدأ الآخر بما كان يراه ، ليصل إلى علته . . . »

كذلك نرى فونتنل عندما يستطرد فيتحدث عن « علم البصريات » أو عن « بحث عن الضوء والألوان » اللذين نشرهما نيوتون فى عام ١٧٠٤ ، يجيد

تبيان دور فن التجربة ، وقيمته ، وصعوبته ، وما فيه من جمال :

« إن فن إجراء التجارب ، إذا سمونا به ، لا يعد شيئا عادياً أبداً ، إن أقل واقع يعرض لنا ، ليتضمن كثيراً من الوقائع الأخرى التى تكونه أو تعدله ، حتى إننا لا نستطيع أن نميز كل ما يدخل فيه دون حذق كبير ، ولا نستطيع أن نخمن ما يمكن أن يدخل فيه دون بصيرة ثاقبة . يجب تجزئة هذا الواقع إلى وقائع أخرى لكل منها تركيبها الخاص . ولو أننا لم نحسن اختيار طريقنا ، لدخلنا فى تيه لا مخرج لنا منه . يبدو أن الوقائع الأولية والأصلية قد أخفتها الطبيعة عنا ، بنفس العناية التى أخفت بها العلل ، وإذا أمكننا أن نراها ، يخيل إلينا أنها مشهد جديد كله ، ما كنا لنتوقعه . »

إن فى ظهور الفيزيقا التجريبية تأييداً لحالة فكرية غزيرة النتائج ؛ فنيوتون يسجل بساطع عبقريته ، هذا الانتقال من ميدان العقل إلى ميدان الواقع ، وهو ما حاول بوفندورف أن ينفذه فى القانون ، وريشار سيمون فى تفسير الكتاب المقدس ، ولوك فى الفلسفة ، وشفتسبرى فى الأخلاق . ولقد أبعد — وهو يمتلئ ثقة — كل ما كان يتصوره العالم من مخاوف من تمادى عقل ، بقى زمناً طويلا يعد قوة هدامة .

لقد حقق الاتحاد بين مقتضيات النقد ووقائع التجربة — وهو ما كان يبدو من الصعوبة بحيث يعد مستحيلا . لقد شرع الانسان يغزو العالم من جديد .

***

ألقى الطبيب بويرهاف Boerhaave فى ٨ فبراير ١٧١٥ أمام مجمع ليدن ، خطابا بعنوان De comparando certo in physicis ، يلخص فيه النتائج التى وصل إليها العالم فى خلال السنين السابقة : لقد فشل كل ما أجرى من محاولات لمعرفة كنه الأشياء ، فالعلل الأولية والجواهر ليست فى متناولنا ، إننا نكثر من ترديد كلمات من قبل الذرات والجواهر الفردية ، على حين أنه ينبغى أن نعرف الآن ، أنه ليس هناك إلا فروض ستكذبها الأيام . لقد بين نيوتون نفسه ، أنه فى كلامه عن قوة الجاذبية ، قد تحاشى أن يقع فى ضلال

المدرسيين الذين كانوا يشرحون العلل التى تستعصى على إدراكهم ، بصفات مبهمة . إن الأمر يبدو كأن الأجسام يجاذب بعضها بعضا : ولكن لماذا تتجاذب؟ هذا هو مايتحاشى شرحه ، إنه يشاهد ظواهر واضحة محسوسة ، ويقارن ويحسب النتائج : ويقف عند هذا الحد . وعلى ذلك ، فلنعد تلك الميادين الميتافيزيقية التى تاه فيها عدد كبير من الفلاسفة ميادين محرمة . فلنقتصر على النتائج التى تحرزها التجربة وتؤيدها ؛ ولندع الميتافيزيقا ، ولنتجه صوب الفيزيقا ، فهنا فقط سنبتدئ فى معرفة الصفات الصحيحة للطبيعة ، التى فاتنا إدراكها حتى الآن .

كل شئ يلمس ، هاك شكا آخر تغلبنا عليه : الشك الفيزيقى Pyrrhonismus physicus كقول بويرهاف نفسه . كان من المحال أن يلقى خطابه هذا لولا التغيرات التى نحاول أن نتبع مجراها . إن الطبيب الهولندى الكبير يلخص مبادئ حكمة حديثة ، فلسفة عامة كان لوك قد عبر عن جوهرها . لقد كل الناس من البحث عن الحقائق الجوهرية ، واقتنعوا أنهم لن يستطيعوا إدراكها ، فعملوا على وضع بيان بالمجال المحدود الذى يمكنهم أن يسودوه . فليفلحوا هذا الميدان ! وليبنوا فيه مسكنا مريحاً ! وليجعلوا عملهم أقل مشقة وأوفر ثمرة ! وليكونوا فيه سعداء ، سعادة تزداد كل يوم ! ومن الذى سيأخذ على عاتقه أن يرشدهم فى ذلك العمل؟ العالم ، الذى عليه أن يدير الحياة ، ولذا فله الشرف العظيم . فيعلن الناس تفوقه على الأمراء والغزاة ، ويمدحونه فى المجامع ، إنه يستحق تلك الصفحات البليغة التى كانت تخصص للكتاب فقط فيما سبق . وهو جدير أيضاً بترؤس الشئون العامة : لقد رأى الناس أنه إذا كانت السياسة عبارة عن « حساب » رفيع أو ترتيب دقيق ، فلا ريب فى أن العالم سيمتاز فيها ؛ عندما كان نيوتون عضوا فى البرلمان الانجليزى ، لم يكن مثالا سيئا لعضو البرلمان . إن المؤرخ يفتخر بالتأمل فى الحركات التى تثير الشعوب ، والتى تولد الدول أو تقلبها : إنها لمتعة تافهة ، بالنسبة للمتعة التى يختص بها العالم ! — « إن أغرب صفحات التاريخ ، لا تكاد تكون أغرب من الفوسفور ، ومن السوائل الباردة التى تولد اللهب إذا خلطت ، ومن أشجار الفضة ، ومن التأثيرات السحرية للمغناطيس ، ومن عدد لا يحصى من الأسرار التى اكتشفها الفن بالبحث فى

الطبيعة ... (١) » أى عجب بعدذلك ، فى أن يأخذ الشعر فى تمجيد المجهر ، والآلات التى تدور بالهواء المضغوط ،والبارومتر ؛ وفى وصف الدورة الدموية ، أو انكسار الأشعة ؟ ليس فى عمله هذا إلا تمجيد للفكر الحديث .

سيزداد اتساع المعارف على الدوام : اليوم ، كشفت الجاذبية ، وغدا ستظهر عبقريات أخرى تكشف لنا عن أسرار جديدة ؛ بحيث إننا سنكشف رويداً رويداً ، كل أجسام « الآلة الاعجازية » التى جهلناها حتى الآن . إن المعارف ستعطينا القدرة . فالعلم مفيد حتى لو بدا فى الظاهر كأن لا غناء فيه . ليس عبثاً أن نعلم كيفية التفكير المحكم الدقيق ، وتكوين ذهننا طبقا لصرامة قوانينه . ولكن العلم النظرى يولد الواقع دائماً : Theoriam cum praxi (٢) « إن معرفتنا أن ما تحت الماس فى القطع المكافئ ، يساوى ضعف الاحداثى الأفقى المقابل ، لمعرفة مجدبة فى ذاتها ولكنها ضرورية للوصول إلى فن رمى القنابل بالدقة التى وصلنا إليها فى الوقت الحاضر » — « لما جعل أكبر علماء الهندسة فى القرن السابع عشر يدرسون منحنياً جديداً سموه سيكلويد Cycloïde لم يكن فى ذلك إلا بحث نظرى محض . . ، بينما تعمق بحث طبيعة هذا المنحنى جعل من نصيبه أن يهيئ للساعات كل الكمال الممكن وأن يذهب بقياس الزمن إلى أقصى درجات الكمال . » مامن شك فى أن نفوذنا على الطبيعة سيزداد بلا انقطاع ، وسنسير منتقلين من أعجوبة إلى أعجوبة : سيأتى اليوم الذى يطير فيه المرء إلى عنان الجوزاء . لقد حاول الكثيرون الطيران ، بوساطة جناح يسندهم : « إن هذا الفن سيكتمل ، وذات يوم سنرحل حتى القمر ... » والخلاصة ، « هاك ميدانا فسيحا من المعارف لاستعمال الناس ولافادتهم : اختراع آلات جديدة سريعة توفر عملنا أو تسهله ، وترتيب وسائل أو مواد عديدة تضمن لنا منتجات جديدة ومفيدة ، يمكن أن نستعملها ، وبذا نزيد

---

(١) هذه التعبيرات وما بعدها مأخوذة من أنشودة العلم لفونتنل فى مقدمة تاريخ « تجديد الأكاديمية الملكية للعلوم » ، ١٧٠٢ .

(٢) تعبير لبنتز فى خطبة بمناسبة افتتاح أكاديمية برلين : *Denkschrift über die Errichtung der Berliner Academie* (Deutsche Schriften, B. II, p. 268).

أنظر أيضا برنامجه عن العلم العام : (Opuscules et fragments inédits, éd. Couturat, p. 218).

نحب أن نتملى بضع لحظات فى هذا الوجه الرقيق . كان لدى شفتسبرى ، على ما يظهر ، أسباب كثيرة تدعوه إلى التفاؤل : فهو عريق الأصل ، ابن لرجل الدولة ، حامى لوك ؛ وكان لوك نفسه يشرف على تنشئته ؛ ولما كان غير معد للحياة السياسية ، فقد استمرأ رويداً رويداً متع الفكر والفن ؛ ولما كان غنيا فقد استطاع السفر ، واقتناء الجميل من اللوحات والنادر من الكتب ، ومساعدة المحتاجين من رجال الأدب ، من أمثال دى ميزو وبايل ، ولى لكير : كان الحظ قد حباه بكل هباته . لم يغفل منها إلا واحدة : الصحة . ذلك أنه كان مصدوراً ؛ فترك قصره ، وأراضيه ، وأصدقاءه ، ووطنه، باحثا بلا جدوى فى جو مونبلييه ، ثم فى نابولى ، عن علاج للمرض الذى قضى به نحبه ، فى الثانية والأربعين . بحيث إنه كان لديه أسباب كثيرة للتفاؤل ، وسبب واحد ، فاصل ، لكى يلعن الحياة .

إنه يجدها جميلة ، ويجدها سعيدة : وبذا تأخذ تأكيداته ، الوادعة ، والباسمة بالرغم من ألمه ، لهجة مؤثرة . سواء فى بستان انجليزى عريق الشجر ، أو فى ضوء البحر المتوسط الشفاف ، يتكلم شفتسبرى مع أقرانه ؛ لا يبدو حديثه أبدا ثقيلا متكلفا ، بل لطيفاً بسيطا ؛ وإذا كان فيه عيب ، فهو تشعبه وأناته. حيناً يذكرنا بأجمل أفكار فلاسفة اليونان ، أو شعراء اللاتين ، فتزينه دون جهد ؛ وحينا يستعين بالحاضر ، فيوقظ واقعة معاصرة ، أو شخصية حية : وهكذا ينوع مفاتنه . لا يستخف بالسخرية ، أو بمعنى أصح بالدعابة : فالمعنى ليس واحداً ؛ إذ السخرية للفرنسيين ، والدعابة للانجلبز . إن لهجته الملتوية تتسلط عليها فكرة ثابتة ، اعتقاد يرمى إلى الاستحواذ على القلوب بافتتانها .

كيف نصل إلى السعادة ؟

بجعل الناس أكثر إنسانية — إذا صح التعبير — وبتجريدهم من تلك الرزانة الباطلة ، ومن نفاقهم ، ومن الحماسة التى تخدعهم فى شأن مشاعرهم الحقيقية . إن العدو الذى يهاجمه شفتسبرى فى « رسالة » بقيت بحق مشهورة (١) هو الحماسة : لا تلك العبقرية المبدعة التى تخلق روائع الجمال ؛ بل الحماسة الدينية ، التى تدفعنا إلى الاعتقاد بأننا نملك شرارة من الألوهية ، بينما نحن فى الواقع

(١) رسالة عن الحماسة ، ١٧٠٨ . *A letter concerning Enthusiasm*

فى عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقا ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاما . . . (١)» بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان الانسان قد كل من النظر إلى الوراء متأملا فى العصر الذهبي فى ثنايا الماضى البعيد ، ولما كان يخالجه الشك فى الخلود ، فقد أخذ يضع آماله فى مستقبل أقرب ، لعله يستمتع به بنفسه ، وسيصل إليه أبناؤه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صنما معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادى والتقدم الأخلاقى . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلسفة والدين ، وأنه سيكفى كل مطالب الذهن البشرى . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم ميله إلى تخطى الحدود التى رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلنون إفلاس العلم — فالى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذى يوشك على الظهور(٢) .

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٦٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن. ١٧٠٠ . Thomas Baker, Reflections upon Learning, by a gentleman

مجموع ثروتنا ، أى الأشياء المفيدة ليسر حياتنا . . . » سوف تصبح الأرض فردوساً ، ولقد أخذ الموت يتقهقر من الآن بفضل هذه « الأخوات العالمات » ، الميكانيكا والهندسة والجبر والتشريح وعلم النبات والكيمياء ؛ اللواتى يفقن عرائس الشعر التى عفا عليها الزمان :

Savantes sœurs, soyez fidèles
A ce que présagent mes vers :
Par vous, de cent beautés nouvelles
Les arts vont orner l'Univers.
Par les soins que vous allez prendre
Nous allons voir bientôt s'étendre
Nos jours trop prompts à s'écouler ;
Et déjà sur la sombre rive
Atropos en est plus oisive,
Lachesis a plus à filer ... (١)

***

أى شعور بالانتصار ، وأى ترقب سعيد فى هذه الكلمة وحدها : التقدم ! إنها تهيئ الكبرياء التى تصعب بدونها الحياة ، وذلك الرجاء فى المستقبل الذى لا يتعارض والحاضر بل يكمله ويجمله . إن منهجنا يتقدم . إن علمنا يتقدم . إن قدرتنا على العمل تزداد . حتى مزايا ذهننا تتحسن . « كل العلوم وكل الفنون التى كان تقدمها قد توقف تماما منذ قرنين ، قد اكتسبت فى هذا العصر قوى جديدة ، ودخلت فى دور جديد . . . (٢) » — « ها نحن أولاء

(١) هودار دى لاموت ، قصيدة إلى السيد بنيون (مجمع العلوم) :
أيتها الأخوات العالمات ، لا تكذبن ما تنبئ به أشعارى — بفضلكن ستزين الفنون الكون بمئة شئ جميل جديد — وسنرى قريبا بفضل عنايتكن ، امتداد أيامنا السريعة الجريان ، وقد بدأت أتروبس نتعطل من الآن ، على شاطئ النهر الظليل ، بينما نشاط لاشيسيس قد ازداد .

أتروبس ولاسيسيس : فى الميثولوجيا الاغريقية اتروبس إلهة تقطع حبل الحياة ، ولاشيسيس إلهة أخرى تدير المغزل وتوزع النصيب ، والأنثتان من ملكات الأجل الثلاث المشهورات باسم Parques . [المترجمان]

(٢) فونتنل ، المقدمة المذكورة سابقا .

فى عصر سيصبح من يوم إلى يوم أكثر إشراقا ، بحيث لن تبدو العصور السالفة بالنسبة إليه إلا ظلاما . . . (١)» بدأ الناس يصرفون قلقهم واضطرابهم ، ولما كان الانسان قد كل من النظر إلى الوراء متأملا فى العصر الذهبى فى ثنايا الماضى البعيد ، ولما كان يخالجه الشك فى الخلود ، فقد أخذ يضع آماله فى مستقبل أقرب ، لعله يستمتع به بنفسه ، وسيصل إليه أبناؤه على كل حال . . .

لقد أصبح العلم من الآن صنما معبوداً . بدأ الناس يمزجون بين العلم والسعادة ، بين التقدم المادى والتقدم الأخلاقى . ويعتقدون أن العلم سيتبوأ مكان الفلسفة والدين ، وأنه سيكفى كل مطالب الذهن البشرى . وحدث رد فعل ، فأخذ الناس يحتجون ، وينعون على العلم ميله إلى تخطى الحدود التى رسمها ، ويتحدثون عن زهوه المتزايد ، ويعلنون إفلاس العلم — فالى هذا الحد يلزم أن نبادر إلى محاربة هذا الاله الذى يوشك على الظهور(٢) .

(١) بايل ، أخبار عن جمهورية الأدب ، أبريل ١٦٨٤ ، باب ١١ .

(٢) توماس بيكر ، تأملات عن المعرفة ، لندن. ١٧٠٠ . Thomas Baker, Reflections upon Learning, by a gentleman

الفصل السابع

نحو مثال جديد للانسانية

لما اعتزل « رجل البلاط » الايطالى الحياة العامة ، بعد أن مثل دور السيد ودور المرشد ، خلفه « الرجل الفاضل » L'Honnête homme . لقد لقن دروس الحكمة لجيل لا يزال مضطربا مهوشا : كيف ينبغى تقبل النظام الدينى ، والسياسى ، والاجتماعى ، الذى يبدو بعد طول التجربة وكثرة المشاق ، أفضل نظام ؛ كيف ينبغى على كل فرد أن يستقر فى ظله ، دون انقلاب أو عصيان ، لكى يسعد جميع الناس أو على الأقل يعمهم الرضا . وإذا كان هذا الرجل مجموعة من المتناقضات ، فقد وفقت حكمته بينها حتى انتهى به الأمر إلى انسجام تام : التوفيق بين الحكمة القديمة وفضائل المسيحية ، بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الحياة ، بين الروح والجسد ، بين العادى والجليل . كان يعلم الأدب ، الفضيلة الصعبة ، التى تعنى إرضاء الغير لنرضى عن أنفسنا ؛ ويقول إنه يجب اجتناب المغالاة فى كل شئ حتى فى الخير ، وألا نفتخر بشئ ، إلا الشرف . وكان يخضع لنظام ثابت ، وإرادة قوية : وإنه لمشروع صعب أن يمنع الانسان « الانية » من تخطى حدودها ، وألا يقدرها إلا كجزء من قيمة شاملة . وإن التزاماً مثل هذا ليقتضى بطولة رصينة ، فما يبدو الرجل الفاضل جذاباً إلا لأنه ينظم قوته النفسانية ويتصرف فيها باتزان ، والسجام .

وكانت صورته لا زالت تتلألأ فى نهاية العصر ؛ وكان البعض لا يزال ينظر إليها بشئ من التقديس ، ويعرضها كمثال للشبان . وأخذ «محترفو» الأبحاث يستغلون نجاح أسلافهم ويكثرون من النصائح والعظات المألوفة . فمثلا : إن الرجل الفاضل يحب المجتمعات ويجد متعة فى البحث عنها ؛ ويقدر مؤلفات الفكر ولا يتكلم عنها بتغرض أو نقد أو غيره . . .

نصائح متأخرة وهراء معاد . لم يكن الأمر يتعلق بتقبل هذا الارتضاء الاختيارى أو الانتفاع منه بأكبر نصيب : بل باصلاح كل شئ ، وبأسرع طريق . لا توفيق ، ولا مصالحة ؛ يجب تغيير السياسة ، والمجتمع . كيف يمكن أن نخضع لدين دولة ؟ إن المحدثين من الناس ، نماذج البدع — مثل الماركيز هاليفاكس الذى يعرض على ابنته مبادئ للحياة — يوصون الجيل الجديد بأن يضع لنفسه دينا خاصا ، دينا لطيفاً ، مريحاً ، ظريفاً ، دينا خاليا من الخوف والحزن : الآن ، لم يعد الله هو الذى يتحكم فى المخلوقات ، بل المخلوقات هى التى تسعى إلى الله ؛ لقد انهارت تقريبا كل المبادئ التى كانت تقوم عليها فلسفة الشرف ؛ وتحطم التمثال الجميل .

وكانت تلك الفلسفة تبدو فيما سبق كأنها من عمل العقل : ولكن الحق أن العقل هو الذى غير اتجاهه . . . لم يعد العقل قوة وسيطة ، تفرض نظاما كله اصطلاح ، بل أصبح قوة ناقدة ، فضيلتها الأولى روح الفحص . إن الرجل الفاضل لم يعد يلائم هذا العقل الذى لا يقنع .

لقد تنازل عن عرشه من تلقاء نفسه . ولما كان قد ساد زمنا طويلا ، فقد دخل شئ من الآلية ، فى طريقة تقليده واتباعه . لم يعد البعض ينظرون إلى الشرف كوسيلة لحياة صالحة ، بل كهدف فى ذاته ، لم يعد يتضمن شيئاً من الأخلاق ، بل أصبح متعة : بحيث إن أولئك الناس غيروا كيانه . يقول الكونت دى جراسون لصديقه ماتا ، وهو يحكى له عما تلقى من تعليم فى أكاديمية السلاح : « تعلم أنى أمهر رجل فى فرنسا ؛ ولذا سرعان ما عرفت كل مايدرس فيها ؛ كما عرفت مايستكمل الشباب ويجعل المرء رجلا فاضلا ، لأنى تعلمت كل أنواع لعب الورق والنرد(١) . » إنه لا يميز بين القشر واللب ، ويظن أن المقامرة — وهى طريقة بسيطة لقضاء الوقت فى صحبة — هى كل الشرف . ولما كنا نعلم من سياق قصته فيما بعد ، أنه يستغل مهارته فى سرقة لاعب وثق به ، فاننا نرى أن الشرف والفضيلة فى بداية القرن الثامن عشر ، لم يعودا يتفقان : ومنذئذ هوى الرجل الفاضل من منزلته ؛ فلابد من مثال آخر لقيادة الحياة .

---

(١) هاملتون ، مذكرات عن حياة الكونت دى جراسون ، ١٧١٣ ، الفصل الثالث .

***

لقد عرضت إسبانيا نموذجا آخر : وكانت مفاجأة ، ولا سيما أن « البطل » الأسبانى لم يكن خلقا حديثا ، بل يبدو كأنه يبعث من جديد . فى عام ١٦٣٧ نشر الأب بالتازار جراسيان ، من جماعة الجيزويت ، كتاباً عنوانه « البطل » *El Héroe* ؛ وفى عام ١٦٤٠ « السياسى » *El Politico* ؛ وفى عام ١٦٤٦ « الرصين » *El Discreto* ؛ وفى عام ١٦٤٧ « كتاب الهاتف الالهى » *El oraculo manual* وفى ١٦٥١ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٧ « الناقد » *El Criticon* ؛ كل هذه المؤلفات محورها دراسة الانسان ، وتكوين نموذج من صفاته المختارة ؛ وكان المتوقع أن تبطل بدعتها ، طبقاً للقانون العادى ، وعلى الأخص فى زمن كانت الأفكار فيه تسرع فى جريانها. فلماذا ترجمت فى نهاية القرن السابع عشر مؤلفات بالتازار جراسيان بتلك الكثرة ؟ ولماذا أغدق عليه هذا الثناء ؟ إنه لم يكن رجلا مجهولا : لكنه بعد ضياء بسيط انتهى إلى سناء المجد الكبير . ولعل السبب فى ذلك ترجمة فرنسية سلسة لمؤلفاته ، — بقلم املو دى لاهوسيه ، فى عام ١٦٨٤ — ، هذه الترجمة وإن كانت قد أضاعت شيئا من نكهتها الأصلية ، إلا أنها أضفت عليها شيئا من الروح الأوربية التى كانت تعوزها ، من قبيل التعويض . ولعل جماعة الجزويت ، وقد نسيت خلافها القديم مع المؤلف ، شاركت من جهتها فى هذا النجاح المتأخر . ولعل السبب أنه كان هناك جمهور واسع لا ترضيه الميول الحديثة ، ويجد فى التغذية الأرضية شيئا من المرارة ؛ وكما يقول ستاندال إنه يكمن دائما فى القلوب شئ إسبانى . ولعل مرد ذلك إلى أسباب لاندركها : فنحن لا نستطيع أن نشرح كل شئ .

والواقع أنه ظهر من عام ١٦٨٥ إلى ١٧١٦ فى فرنسا فقط ، خمس عشرة ترجمة لكتب جراسيان . وتحمست ألمانيا للعالم الأخلاقى الاسبانى : قدمه توماسيوس — فى خطابه الافتتاحى المشهور الذى ألقاه ضد تقليد الفرنسيين الذليل — كأحد الأساتذة الذين يجب أن يستوحيهم الألمان ، إذا كانوا يريدون تهذيب أخلاقهم ، فيشيد به فى بداية خطبته وفى نهايتها . وفى انجلترا ، وفى ايطاليا ، وفى كل مكان ، يلقى جراسيان التشريف والتمجيد .

فالرجل المثالى — إذا صدقنا قول جراسيان — ليس هو الذى يقنع بمجموعة منسجمة من المزايا المتوسطة : فالفضائل العادية ، مهما تعددت ، لا تصل بالمرء إلا إلى مستوى عادى : بل هو الذى يدفعه طموح أعلى ، لأنه يريد أن يتفوق فى كل ميدان عظيم . الرجل المثالى ذو ذكاء خارق ، ورأى سديد ، وعقل من لهيب ، وعاطفة مرهفة ، (لأنه ماذا يساوى الذكاء إذا افتقد القلب ؟) ؛ يختار مقدرته الغالبة ، ويضع ثقته — بالحدس — فى مقاصد الحظ ، الذى يحب من يقابله بالعنف ؛ يهدف إلى أجل النماذج جمالا فى كل نوع ، لا لكى يصل إلى مستواها ، بل لكى يتعداها : إنه من يسعى ليكون « الأول والوحيد ». لذلك يجب أن يحيط نفسه بجو من الغموض ، وأن يكون قادراً على انتظار ساعته ، بل يجب أن يخفى دوره : إلى هذا الحد يجب ألا يكشف عن نفسه إلا تدريجيا ، ليثير كل مرة تعجب العامة ، أمام قوة لا ينضب لها معين . إن « البطل » يحتمل كل ألم ، ويصبر على كل إهانة : فالاهانة الوحيدة الحقة هى التى يجب أن يفرضها على نفسه ، أمام محكمة ضميره ، إذا وجد أنه قد حط من شأنه . إن الانتصار ليس غاية ، والسيطرة على الدنيا ليست إلا وسيلة : يهب البطل « إنيته » المنتصرة المتفوقة لله ، ويرد للدين مافاز به من سيادة خلقية . إنه ماهر حتى إنه يضفى على خبثه لونا مقدساً ، ويستر كبرياءه بقناع من السذاجة ؛ خيالى مع معرفته التامة بحقيقة القلب البشرى ، وعملى مع ولعه بالجمال المثالى ؛ متحمس ، متجبر ، متدين ، يحب المشاكل لما فيها من حدة وصعوبة ، عجيب ، عظيم ، متناقض : هكذا ترسم صورته . إن « الرجل الفاضل » ، — الذى خلق ليوائم مشاهد (جزيرة فرنسا) الوديعة الهادئة ، الغبراء — تودى به المقارنة مع البطل : فالبطل يتطلب نفس الشمس التى كانت تلفح دون كيشوت فى طريق الكاستيل والتى كانت تجعل العدل ، والطيبة ، والحب تتلألأ أمامه .

لقد راق فى عين أوروبا ؛ ولكن للحظة . كانت تستطيع أن تتأمل جراسيان بحب استطلاع وعطف ، وأن تقرأ كتبه ، وتجد فيها دراسة وتسلية : ولكنها لم تستطع أن تتخذ منه دليلا ومرشداً . فقد فات الوقت ، وكانت قد اتخذت قرارها ، ولم يمكنها أن تتراجع . فاذا كان الرجل الفاضل لم يعد يرضيها فكيف كانت تستطيع أن تتبع آثار « بطل » أقل منه بعدا عن الدين .

لقد كانت لحظة من تلك اللحظات النادرة العجيبة ، تختلط فيها الشاشة البيضاء ، إذ تتنازعها صورتان مختلفتان ، إحداهما تتأخر فى الانصراف والثانية لا يزال ينقصها الوضوح والوثوق . فقد أخذت الظلال ، تكسو النبيل ، ويبدأ « البورجوازى » يتخذ رويداً رويداً شكلا ولونا . لم يعد الناس يقبلون المبدأ الأرستقراطى الذى ساد حتى ذلك الحين . الوداع للمحارب ؛ لقد انقضى الزمن الذى لم يكن يعجب الناس فيه إلا ببطولة القواد ، وغزو المدن ، وكسب المعارك بعد قتال عنيف ، وفرار العدو على أثر هجوم شديد ، وتتويج هامة المنتصر بالغار . يسخر سانت أفريموند من الماريشال دى هوكنكور ، ذلك المغوار ؛ ويعلم فنيلون تيليماك ، على لسان الملك إيدومنيه ، أنه ينبغى أن نكف عن تقدير الملوك المحاربين ، وأن نحب الملوك الحكماء ؛ ويسخر فونتنيل : « أغلب رجال الحرب يظهرون فى مهنتهم شجاعة كبيرة ، ولكن قليلا منهم يفكرون فيما يعملون ؛ إن ذراعهم تتحرك كيفما تشاء ؛ ولكن رأسهم يرتاح ، وإن انشغل ففى غير شئ . » ويحكم بايل ، باسم العقل السليم على « زهو أولئك المحاربين الطامحين » الذين لا يفكرون إلا فى شهرتهم ، بأنه ضعف أخلاق وجنون ؛ ويستمع جان باتست روسو إلى هذا الكلام فيقول : — ما الغزاة إلا قوم حاباهم الحظ ، الذى يتوج الجرائم التى ليس لها مثيل :

Mais de quelque superbe titre
Que tes héros soient revêtus,
Prenons la Raison pour arbitre,
Et cherchons chez eux leurs vertus.
Je n'y trouve qu'extravagance,
Faiblesse, injustice, arrogance,
Trahisons, fureurs, cruautés,
Etrange vertu qui se forme
Souvent de l'assemblage énorme
Des vices les plus détestés ... (١)

(١) مهما بلغ جمال ما يحمل أبطالك من ألقاب ،
فلنجعل العقل حكما ولنبحث عن فضائلهم ،
إنى لا أجد فيهم إلا جنونا ، وضعفا ، وجورا ، وعجرفة
وخيانة ، وحنقا ، وقسوة ،
يالفضيلة العجيبة ، التى تتكون من مجموع ضخم من أقبح الرذائل ...

حتى أبطال الأزمان القديمة العظماء ، ينبغى أن يحرموا من الاعجاب الذى لا يستحقونه ، والذى خلعه عليهم الناس من زمن طويل :

Quoi! Rome, l'Italie en cendre.
Me feront honorer Sylla!
J'admirerais dans Alexandre
Ce que j'abhorre en Attila!
J'appellerais vertu guerrière
Une vaillance meurtière
Qui dans mon sang trempe ses mains;
Et je pourrais forcer ma bouche
A louer un Héros farouche
Né pour le malheur des humains! (١)

إن الفاتح لرجل قد سلطته الآلهة — الحانقة على البشر — على العالم ، لتخريب الممالك ، لنشر الذعر والفقر واليأس فى كل مكان ، وليخلق عبيداً أرقاء بقدر ما يوجد من أحرار . — إن أولئك الغزاة الكبار الذين نخلع عليهم صفات التمجيد ، لأشبه بتلك الأنهار التى تفيض فتبدو رائعة ، ولكنها تخرب كل الأرض الخصبة التى كان عليها فقط أن ترويها . — من صاحب هذا الكلام ؟ « فنيلون » أيضاً ، فى الجزء الثامن من « تيليماك » .

ومسألة الشرف ؟ لقد افتتن به الناس كل الافتتان ؛ إنه اعتقاد باطل حان الوقت للتحدث فيه . إن خرافة مسألة الشرف هذه تقود إلى المبارزة ، أى إلى أسوء الجنون . وقد اتفقت الصرامة الانجليزية والعقل الفرنسى ضد الرذائل التى يتظاهر بها النبلاء عادة ، بحسبانها من الأناقة ، وضد فساد الأخلاق ، وشهوة المغامرة ، وعادة التجديف ، حتى إن « النبيل » أوغل فى الظلام مصحوبا باللعنة .

حينئذ ظهر « البورجوازى » ، مبتسما ، تلوح عليه أمارات الرضا والفخار ! وكان « ستيل » Steele و « أديسون » Addison بمثابة إشبينين له ؛ كانا

(١) ماذا ...! هل من أجل روما وإيطاليا المدمرة أمجد سيلا !
هل يعجبنى فى الاسكندر ما أكرهه فى « أتيلا » !
هل أعد تلك الشجاعة القاتلة — التى تخضب يديها بدمى — فضيلة حربية !
وأقسر لسانى على مدح بطل متوحش ، ولد لاتعاس البشر !

عالمين أخلاقيين ، ماهرين ، حكيمين . لا ينقصهما إلا شئ من قوة التركيز ومن الجرأة ؛ ومع ذلك فقد أجادا تصوير مثال جديد للانسانية ، وفرضاه على القراء العديدين ، الذين وجداهم أولا فى انجلترا ، ثم فى أوروبا كلها . وإذا كان حقاً أن وراء كل نجاح أدبى باعثاً اجتماعياً ، فقد كان الباعث هنا مايلى : تطوعت مجلتا *Tatler* و *Spectator* بتقديم مثال للانسانية ، إلى زمن كان لا يزال يبحث عن قوانينه : ذلك أنهما كانا يفحصان الانسان ، لمجرد التسلية فى تصويره لا شك ، ولكن أيضاً لأنهما كانا قد شرعا فى إصلاحه . كلما كانت صحيفة تخرج من مطبعتهما ، وتنتشر فى مقاهى لندن ، ثم تجتاز البوغاز ، كانا يوجهان رسالة إلى مجتمع فى حاجة إلى أصول للأدب واللياقة والواجب ؛ ويشاركان — كما تقول صحيفة *Tatler* فى توطيد شرف الطبيعة الانسانية . كانا ينقضان خطأ ، أو يصلحان ضرراً ، وأكثر من ذلك ، كانا يرشدان إلى ما يجب فعله ، بعد تبيان ما يجب اجتنابه، لاجئين إلى السخرية حينا وإلى اللوم حينا آخر . وكانا يعرفان القدماء ويمجدانهم ؛ درسا علماء الأخلاق الفرنسيين ، مونتانى Montaigne ، وسانت أفريموند ، و « لابروييير » ؛ ولم يجهلا أى نوع من الأنواع الحديثة للنموذج الذى يدرسانه ، من « رجل فاضل » إلى «رجل لبق» ، إلى « رجل ظريف » ، إلى « رجل متعاقل » ، إلى « أستاذ صغير » (١) ؛ ولكنهما كانا يعرفان أيضا أن قلب الانسان ثابت ومتقلب فى نفس الوقت ، وأنه يجب ألا نكف عن العمل على إصلاحه ؛ وتوفرا على العمل : بعد كاستجليونى ، وبننكازا ، ونيكولا فارى ، وشيفالييه دى ميرى ، بعد أولئك اللاتينيين جاء رجلان انجليزيان ، فقد حل دورهما .

فقيه فى القانون ، والتاجر فريبورت ، والربان سنترى ، والدنيوى هونيكومب ، وقسيس : تلك هى الجماعة الصغيرة التى تحيط بالسيد سبكتاتور . ومجمل القول ، أن هذه الجماعة لم تضم إلا بعض البورجوازيين ، فيما عدا البارون السير روجير دى كوفرلى ؛ ولكن سير روجير يبدو من البساطة ورجاحة العقل ، ومخالفة عادات إخوانه النبلاء ، وحب المناقضة وغرائب الآراء ، ومن الرقة والاحسان ، بحيث لا يشبه فى شئ أولئك النبلاء

---

(١) honnête homme — galant homme — homme du bel air — un petit maître — un bel esprit.

الفاسدين الذين شهد أدب العصر السابق ازدهارهم . إن السيد سبكتاتور نفسه يبدو كأكثر الناس بساطة وتواضعاً . كل ثروته عبارة عن عقار بسيط فى الريف ، لم يتغير منذ ستمائة عام ؛ يعرف الكثير ولكنه لا يحب أن يتظاهر به ؛ ولقد رحل إلى كل نواحى الدنيا ، ولكنه لم يتخذ من ذلك سبباً للزهو . إنه رزين ، صامت ، يحب العزلة ، قليل الأصدقاء ، لا يتردد على أقربائه ، ولا يقابل أحداً ، حتى صاحبة مسكنه . ولما كان الناس يرونه يتردد على المسارح ، والمقاهى ، والمحلات العامة فى لندن ، بحثاً فى أخلاق معاصريه ، فقد أخذ البعض يظنه يسوعيا ، والبعض جاسوساً ، والبعض متآمراً ، والبعض مجنونا . « الشىء الذى يعزينى عن هذه المعاكسات التافهة ، هو أنى أجد سروراً فى مشاهدة طبائع الناس بنظرة هادئة ساكنة ، دون رأى مبتسر . ولما كنت قد تحررت من الشهوات والأغراض التى تسيطر عليهم ، فان لى بصيرة أقوى فى الكشف عن فضائلهم ورذائلهم » . وهكذا يقدم لنا السيد سبكتاتور ، ببساطة خلقه وحكمته الهادئة ، نموذجا لحياه جميلة سعيدة .

يقول لنا إن الطبقة النبيلة توشك على الضياع ، لاصرارها على المبارزة من أجل مسألة شرف ليس لها أساس ، ولأنها تخطىء فى معنى كلمة العدل ، إذ تلعب مع محترفى المقامرة ، وتبدد ثروتها بين أيديهم . إنه يسخر من أولئك الذين يضعون كل شرفهم فى ألقاب باطلة ، يكتسبونها مصادفة بمولدهم ، ولا فضل لهم فيها . ويبشر بالأدب وبرقة الأخلاق ، ويؤاخذ الناس الذين يضجون فى المسرح ، والنساء اللواتى يشربن الخمر أو يدخن ؛ ولكنه ينوه فى نفس الوقت بأن التهذيب الخارجى ليس كل شىء فى الحياة ؛ بل يفضل توكيد الفردية على إمحاء الشخصية : إن كلا من المجاملة ، والتصنع ، والتكلف تثير اشمئزازه ؛ فقيمة كل امرئ فى صدق طبيعته لا فى تصنعه . إن الناس يخطئون فى ظنهم أن أسمى فضيلة لدى الرجال الشجاعة ، ولدى النساء العفة : اعتقاد باطل مرده إلى رغبة كل جنس فى أن يروق فى عين الجنس الآخر . فالنساء يقدرن الشجاعة عند الرجال فوق كل شىء ، والرجال يكرهون النساء الخائنات . كأنما دماثة الخلق ، وكرم الطبع ، ورقة الشمائل ، ليست فى منزلة تلك المزايا التى يسمونها اجتماعية ، والتى لها مكان الشرف فى العادة ! وبالمثل ينبغى أن يقدم المفيد على الظريف : فالغانيات اللواتى لا يبتغين إلا اجتذاب

الأنظار ؛ والمتعطلون الذين لا يرومون إلا نيل الاعجاب ، والمتكلفون ، الذين غالوا فى الرقة والدقة فى كل شئ ، حتى أصبحوا لا يبالون بالخير والشر ، كل أولئك جنس مشئوم . وإن الدعابة ، والملحة ، والسخرية ، التى يستلطفها الناس ، ليست فى الغالب إلا خبثا محضا . وبعد ، فإذا تساوى حياة المجتمع نفسها؟ هل يجب أن يكون دور الرجل النأنق والتظاهر فى المجالس والمجتمعات ؟ هل فى ذلك كل سعادته ؟ إن السعادة عدوة الأبهة والضجة ، بل هى تبتغى العزلة ؛ إنها تتولد من التمتع الذاتى ، أو من صداقة عدد قليل من الأشخاص المختارين ؛ إنها تحب الهدوء والانفراد ، وتتردد على الغابات والجداول ، على الحقول والمروج : تجد فى كيانها كل ما تحتاج إليه ، وإنها لفى غنى عن الشهود والشاهدين . وبالعكس ، فان السعادة الخيالية لا هم لها إلا اجتذاب الأنظار ؛ ولا سعى لها إلا وراء إثارة الاعجاب ، حياتها تترعرع فى القصور ، والمسارح ، والاجتماعات ، وتموت بمجرد ما تنصرف عنها العيون . السعادة تقتضى ألا نغالى فى مطالبنا ! والبحث عنها لا يفيد الجنس البشرى بقدر ما يفيده قدرة المرء على السلوان ، وثباته وصبره أمام الأحزان . إن رضى النفس هو كل مانستطيع أن نتوقعه فى هذه الدنيا : فلا تكاد أطماعنا ترتفع حتى تصادفها العوائق والآلام . لنستغل دراستنا وجهدنا لنحصل على الراحة فى الأرض ، والسعادة فى السماء . — إننا نرى كيف يكرر السيد سبكتاتور بعض الصور المعروفة لموضوعات قديمة ؛ ولكنا نرى أيضا كيف يبتعد ابتعادا صريحاً — ولو أنه يلتزم الكلاسيكية — عن مثال الرجل الفاضل ؛ وكيف ينتقل — محاولا أن يشيد حالة رفيعة من المدنية — من الأرستقراطية إلى البورجوازية ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن المتعة الاجتماعية إلى الفائدة الاجتماعية ، ومن الفن إلى الأخلاق .

تقول مجلة تتلر ***Tatler*** ، إن التاجر أحق بلقب « جنتلمان » من رجل البلاط الذى لا يشارك إلا بالكلام ، ومن العالم الذى يسخر من الجاهل . وهذا ماتراه مجلة سبكتاتور ***Spectator*** . إن التاجر جدير بكل الاحترام . فهو لا يعطى لانجلترا القوة ، والغنى ، والشرف فحسب ؛ ولم يرفع مصرف انجلترا — معبد الأيام الحديثة — إلى مجده فقط ، بل يعمل ، بفضل تجارته ، فى سبيل التعاون بين الدول ، ويدفعها إلى المشاركة فى سبيل الرفاهة العامة :

إنه صديق الجنس البشرى . البطل يقنع بشهرة باطلة ، بينما يحتاج التاجر إلى سمعة أدق وأرهف ، وكأنما أرق ، تسمى ثقة أو ائتمانا . إن كلمة بسيطة ، أو تلميحاً أو سريان خبر غير صحيح ، يجرح هذا الائتمان ويخرب التاجر : قال نبيل ذات يوم إنه اعتاد أن يتكلم بكل حرية ، عن النبلاء الآخرين ، دون تحفظ ، بينما كان يحرص على ألا يتكلم بسوء عن التجار : لأن فى ذلك قضاء عليهم وإدانة لهم بدون دفاع . هكذا ينتشر شرف من نوع جديد : شرف التاجر .

إن الشخصيات تبدو أكثر حيوية على المسرح ، كما يعلم الجميع ؛فالكتاب مضطرون إلى المبالغة فيها بعض الشئ ، ليظهروها للعيون . ولا يكتفى ستيل بوصف تلك المنافسة بين النبيل والتاجر فى الصحف فقط ، بل ينقلها إلى المسرح . وكان هذا فى واحدة من أجمل مسرحياته : « The Conscious Lovers » . سيرجون بيفيل ، الرجل النبيل ، يوشك على تزويج ابنته من ابن السيد سيلاند ، التاجر الثرى الذى اغتنى من الاتجار مع بلاد الهند . إنهما يتجابهان : يسخر التاجر من الرجل النبيل ؛ قائلا إن عنده — هو ، سيلاند — سلسلة نسب رائعة : جود فروا ، أبو أدوارد ، أبو بطليموس ، أبو كراسوس ، أبو الكونت ريشارد ، أبو المركيز هنرى ، أبو الدوق جان : كلهم ديكة ممتازة فى القتال . . .

وإذا لم يكن لدى السير جون بفيل المعرفة الكافية ، فان السيد سيلاند يتكفل بأن يوضح له التطور الذى حدث فى انجلترا .

— « اسمح لى أن أقول لك إننا ، معشر التجار ، نوع من النبلاء ظهر فى الدنيا فى القرن الأخير . إن لنا مالكم من شرف ونفع ، يأيها الملاك الذين بعدكم الناس أفضل منا بكثير . لأن مشاغلكم لا تتعدى ، فى الحق ، حمل علف أو ثور سمين . إنكم حقا قوم مضحكون ، لا تصلحون إلا لخلق الكسالى.! »

وهاك صيغة أكثر كبراً

— « إنه الحق كل الحق ، إن التاجر الكامل هو أفضل مثال للنبل فى الشعب ؛ وأنه يفوق كثيراً من النبلاء من وجهة المعرفة ، والحكمة ، وحسن السلوك . »

وخلاصة القول ، أن انقلابا قد تم ، وأن الأدب قد سجله وعمل على ، نشره :

— « إن مآل عدد كبير من النبلاء أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التنازل عن إرث آبائهم لأسياد جدد ، كانوا أدق منهم فى إدارة حساباتهم ، ولا شك فى أن الذى اكتسب ملكا بفضل صناعته أحق بملكيته من الذى أضاعه نتيجة لاهماله . . . (١) »

***

هذا الطراز الانجليزى الذى رأيناه يتشكل ، سيؤثر على كل أوروبا تأثيرا عميقاً . ستشيعه الصحف ، وقصص الأسفار ، والمسرح والروايات ؛ وسيسعى أهل البدع إلى تقليده : بساطة فى المظهر ، ثياب بلا زينة ؛ صوف لا حرير ؛ وعصا لا سيف . وبساطة فى الروح أيضاً : خلق صريح يذهب فى مقت الكذب إلى حد الخشونة ، إدراك سليم ، اهتمام بالمسائل العملية : فكما يقول السيد سبكتاتور ، هل ينبغى ألا نهتم إلا بالأدب والفنون الجميلة ؟ يجب أن نوجه الاهتمام أيضاً إلى العمل ، والتجارة ، والادخار ، والفنون الميكانيكية التى تفيد فى استكمال الحياة . يقول بيير كوست — الذى ترجم فى عام ١٦٩٥ كتاب جون لوك عن « تربية الأطفال » — إن الحق أن ذلك المؤلف الانجليزى كتب للشباب المهذب Gentlemen ، ولكن لا يجوز أن يخطئ الفرنسيون فى معنى كلمة « جنتلمان » هذه : لأنها لا تشير إلى النبلاء ، بل إلى الطبقة التى تأتى تحت رتبة البارون مباشرة ، أى إلى الأشخاص الذين يسمون فى فرنسا « أناساً من أسرة طيبة » ، أو بورجوازيين طيبين ، « وبذلك يسهل علينا أن نستنتج أن هذا البحث عن التربية لابد من أن يلاقى رواجاً واسعاً ، نظراً لأنه كتب خصيصاً للنبلاء ، على أن تأخذ هذه الكلمة المعنى الذى أخذته فى انجلترا » . هكذا عرضت البورجوازية الانجليزية على لسان بيير كوست ، دعوة إلى البورجوازية الأوروبية .

ولكن لن يملك شعب فيما بعد الامتياز فى أن يكون « طرازا » عالمياً

---

(١) سبكتاتور رقم ١٧٤ .

وحده ، ولذلك سيكون هذا الطراز أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً فى معالمه من الطراز الكلاسيكى ؛ ولن يبدو أى مثال فيما بعد ، بتلك البساطة الجميلة التى أضفاها الفن الكلاسيكى على النموذج الذى قدمه للعالم . لقد أخذت فرنسا تبحث من جانبها . فلابد لها — وبذلك يقضى طبعها و إرادتها — من دليل يقودها نحو العقل ، ونحو استقلال الفكر . فعرضت أخيراً المثل الأعلى الذى ستتخذه بصفة قطعية ، البدعة الفكرية فى القرن الثامن عشر : سولد من الانجليزى والفرنسى ، مفكر نظرى وسيد للحياة : الفيلسوف .

فى هذا الوقت ، وقت العمل والتوليد ، فى أى صورة يظهر لنا هذا النموذج الجديد ؟ « الفيلسوف » — كما يقول لنا قاموس الأكاديمية سنة ١٦٩٤ — : « هو الذى يتوفر على دراسة العلوم ، و يرمى إلى معرفة النتائج بمعرفة العلل والمبادئ . . . الفيلسوف هو الرجل الحكيم الذى يعيش عيشة هادئة منعزلة، بعيداً عن صخب الأمور . . . وهذه الكلمة تنطبق أحياناً على الرجل الذى يعلو بنفسه ، بفضل تحرر فكره ، فوق الفروض والالتزامات العادية للحياة المدنية . »

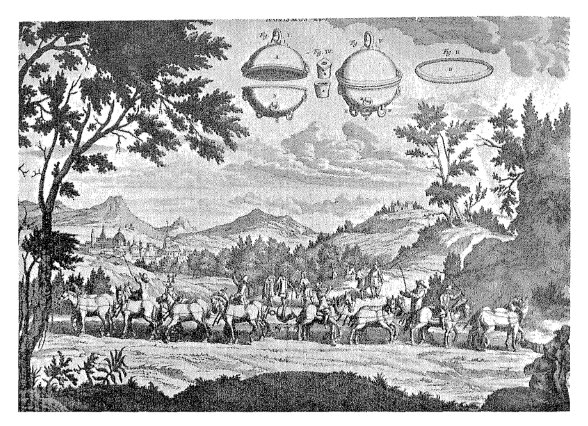
هذا زمن تتلاحق فيه هذه الملامح المختلفة متتابعة . أولا ، لم يعد الفيلسوف ذلك الرجل ، المحترف ، المتخصص ، الأستاذ ، الدعى الذى لايقسم إلا بأرسطو أو بأفلاطون ، بل من الجائز ألا يدرس المرء الميتافيزيقا أبدا ، ومع ذلك يكون فيلسوفا . — ثم ، إنه عالم يستعمل عقله ، لا ذاكرته : يدرس علم الفلك ، ويتكلم عن تعدد العوالم ، ويشرح — إن لم يكن لم فعلى الأقل كيف — تدور الأرض حول الشمس . — إنه حكيم ؛ فهو يتخذ لنفسه حياة ناعمة ، يحيط به أصدقاء وصديقات ، دون أن يطمع فى وظيفة أو مهنة أخرى غير وظيفة مراقب بط قصر سان جيمس ؛ وسيتضمن برنامجه الشهوة ، دون أن تشغل حيزاً كبيراً : شهوة معقولة . — إنه متحرر الفكر : هذا هو المهم . إنه يقدر كل شئ فى حرية تامة ؛ ويعيد إلى العقل منزلته الرفيعة ، كما ستقول مدام « دى لامبرت » فيما بعد . إن أولئك السادة أعضاء الأكاديمية يخطئون ، أو لعلهم يسيئون التنبؤ ، فى قولهم إن الفيلسوف يعلو بنفسه فوق فروض والتزامات الحياة المدنية . لأن الفيلسوف ، على العكس ، يبتغى إصلاحها : فلا فلسفة إن لم يستمل الفيلسوف أنصاراً . وأخيراً فسيكون له قلب حار ،

ولكن بعد مدة ؛ يجب أن ننتظر نصف قرن ، قبلما يضطرم قلبه ويشتعل بكل لهبه .

يبدو الفيلسوف ، من بدايته ، خصما للأديان المنزلة . فان قلت إن فى الصين ، جميع مستشارى الامبراطور والمقربين إليه فلاسفة ، فانك تدرك جيداً أنهم ، مثل أستاذهم كونفوشيوس ، حكماء لا دينيون . وإن استمعت إلى فيلسوف يتكلم عن الأخلاق والعلم ، فكن متأكداً أن أخلاقه لن تكون دينية ، وأن علمه لن يكون فيه شئ من القداسة : بل العكس . وإن علمت أن رجلا عاش فيلسوفا ومات فيلسوفا ، فستدرك أن ذلك الرجل مات غير مؤمن . والمدافعون عن التقاليد لا يخطئون فى ذلك ؛ ألف الأب « ليجبيه » فى عام ١٦٩٦ مسرحية لمدرسته ، بعنوان « ديموقليطس أو حكم الفيلسوف » *Damocles, sive philosophus regnans* : كن أحمق وسلم زمام السلطة لفيلسوف ، وسرعان مايقلب أمور الدنيا !

***

فلسفة تكف عن الميتافيزيقا وتقتصر مختارة على ماتستطيع أن تدركه مباشرة فى النفس البشرية . فكرة طبيعة مازال الناس ينكرون طيبتها التامة ، ولكنها مع ذلك عظيمة قوية ، منتظمة ، وموافقة للعقل : ومن هنا دين طبيعى وقانون طبيعى ، وحرية طبيعية ، ومساواة طبيعية . أخلاق تنقسم إلى فروع عديدة ؛ والالتجاء إلى المنفعة الاجتماعية لاختيار أفضل هذه الأخلاق . الحق فى السعاده ، فى السعادة على الأرض ؛ الكفاح ضد الأعداء الذين يحولون دون سعادة الناس فى هذه الدنيا ، ضد السلطة المطلقة ، ضد الخرافة ، ضد الحرب . العلم الذى سيضمن تقدم الانسان ، وبالتالى سعادته . الفلسفة ، مرشد الحياة . تلك هى التبدلات التى حدثت أمام أعيننا ؛ تلك هى الأفكار والرغبات التى ترعرعت قبل نهاية القرن السابع عشر ، والتى اتحدت لتكوين مذهب النسبية والانسانية . الطريق ممهد . وكل شئ معد : يستطيع فولتير أن يقبل .



تجربة عن الفراغ (أمستردام ، ١٦٧٢)

القسم الرابع

القيم التخيلية والحساسة

الفصل الأول

زمن بـــــلا شعر

نستطيع أن نتتبع الحركة العقلية حتى ظهور الانسيكلوبيديا (١) ، وحتى « المقال عن الأخلاق » (٢) ، وحتى إعلان حقوق الانسان (٣) ، وحتى وقتنا هـذا .

لـكن من أين يأتى ريشاردسون (٤) ؟ من أين يأتى جان جاك روسو؟ من أين تأتى « العـاصفة والانفعـال » (٥) *Sturm und Drang* ؟ لابد من أنه كان هناك نبع خفى قد انبثق منه هذا السيـل العـاطفى . لقد ظهرت

---

(١) تأليف واسع استغله فلاسفة القرن الثامن عشر ، وكان يتولاه دالامبير وديدرو Diderot . [المترجمان]

(٢) Essai sur les mœurs مؤلف تاريخى وفلسفى لفولتير، ١٧٥٦ . الفكرة الأساسية فيه : أنه لا يوجد شعب مختار ولا جنس متفوق ، بل المجتمع البشرى بأجمعه يشارك فى تقدم الانسان . وأن الأنسانية كونت نفسها ، تحت ضغط الاحتياج والظروف التى خلقت القوانين والأخلاق والعلوم . (أنظر فولتير ، بقلم جوستاف لانسون ، هاشيت ١٩٢٧) . [المترجمان]

(٣) المبادئ التى أعلنتهـا الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ : المسـاواة بين المواطنين ، سيادة الشعب ، واحترام الحريات ... [المترجمان]

(٤) ريشاردسون : خالق الرومانتيكيه الانجليزية الحديثة ومن مؤلفاته كلاريس هارلو ، وباميلا . [المترجمان]

(٥) *Sturm und Drang* ، أو العاصفة والانفعال : أعطى هذا الاسم لمدرسـة أدبيـة أثرت تأثيرا عميقا على الأدب الألمانى بين (١٧٧٠ - ١٧٩٠) . وهذه المدرسة تدين باسمها لمسرحية ألفها Klinger عام ١٧٧٦ بعنوان « عاصفة وانفعال » قوامها حركة عكسية ضد العقلية ، مطالبا بحقوق الشعور ضد حقوق العقل ، وبحقوق الابداع ضد الاصطلاح . ويظهر فى إنتاج هـــذه المدرسة تأثير «ستيرن» ويونج وجولد سميث و «أسيان» والـكتـاب المقـدس . ولـكن الحركة على وجه عام يسودها تأثير « جان جاك روسو » . وأهم من يمثل هذه المدرسة فاجنر ، لنتز ، كلينجر وفردريك مولر . [المترجمان]

حتى الآن بمظهر من لا يرى على المسرح العالمى إلا العقليين : والواقع أن هذا هو الوقت الذى تقدموا فيه إلى المنظر الأمامى ، حيث شغلوا — فى صخب وإلحاح — أهم الأدوار الكبرى . لكن ليس صحيحاً أنهم كانوا وحدهم متفردين ، وقد حان الوقت لنلتفت إلى الآخرين . إلا أنه ينبغى أن نعترف أولا أن البحث شاق هنا ، وأن المظاهر تخدعنا ، وأن أولى النتائج التى نصل إليها سلبية .

***

ونحن فى الواقع نرغب فى توجيه بحثنا إلى ناحية الشعر . فلابد من أن القيم التخيلية والحساسة التى نأمل العثور عليها ، تحتمى فيه .

إلا أن هذا العصر كان عصر النثر . وهل هناك نثر أغنى وأقوى ، وأحق بالاعجاب من نثر سويفت ؟ وأرق من نثر سانت أفريموند ؟ وأبلغ من نثر فونتنل ؟ وأحد من أسلوب بايل ؟ إن ذلك المنطيق ، ذلك الرجل الذى لم يحب إلا الاتهام والتمييز Criminations et discriminations كما يقول لبنتز ، — لم تخمد أبداً جذوته . إنه يغضب ، وتزداد فورته ، ولا تزال تشتعل صفحاته بالنار التى كانت تلهبه . فاذا لم تكفه ألفاظ اللسان الجارى ، خلق غيرها . يحصر تعبيره الأفكار ويربطها حتى يجعلها تفصح عن كل ماتتضمنه . ولا أحد يشبهه ، وإنك لتتعرف أسلوبه لأول نظرة ، حتى ولو لم يوقعه .

لقد أعطى الجميع ، — انجليزا كانوا أو فرنسيين — للنثر قوة مؤثرة جديدة ، بتحميله بالأفكار ، وبجعله مناضلا ، متهجما . ولقد صبوا فى بحوثهم ، وفى رسائلهم ، وفى أحاديثهم عن الأحياء والأموات(١) وفى رحلاتهم الخيالية ، كل الأخلاق ، وكل الدين ، وكل الفلسفة .

ولم يكونوا شعراء . كانت آذانهم قد سدت عن نضرة الكلمات ورقتها ، وكانت نفوسهم قد فقدت معنى الأسرار . ولقد أغرقوا عالم الواقع الملموس فى نور لا يخمد . وكانوا يبغون الانتظام والوضوح حتى فى مكاشفاتهم القلبية .

---

(١) مثل كتاب فينيلون « أحاديث الأموات » الذى كتبه فى عام ١٧١٢ لتربية دوق بورجونى . [المترجم]

وإذا كان الشعر دعاء ، فانهم لم يعرفوا الدعاء ؛ وإذا كان محاولة للوصول إلى ما يجل عن الوصف ، فقد كانوا ينكرون ما يجل عن الوصف ؛ وإذا كان ترددا بين الموسيقا والمعنى ، فانهم لم يعرفوا التردد . فهم لا يريدون إلا البرهان والقضايا ، وإذا نظموا شعراً ، فانما يفعلون ذلك ليضمنوه فكرهم الهندسى(١).

هكذا مات الشعر ، أو على الأقل بدا ميتا . لقد نفذ إليه الذكاء ، بآليته وجفافه ، ففقد سبب وجوده . فى ذلك الوقت ، كان هناك جمع غفير ممن ينظمون الشعر : ولكن بعد موت لافونتين ، لم يعد فى فرنسا شعراء . ولما ظهرت المدرسة الكلاسيكية الانجليزية فى ازدهارها الرائع ، كان أكثر ماتفتقده الشعراء المجيدون .

وبعد ، فقد كان للعبقرية المبدعة عدو آخر . لقد بولغ فى الاعجاب بما قدمه الجيل السابق من الروائع الأدبية فى سخاء . ازداد أشياع كورنيل وراسين وموليير عما يجب ، وظن البعض أن أولئك الأعلام جديرون دائما بالمحاكاة والتقليد . واعتقدوا أنهم استعملوا صيغاً خاصة وأسراراً فنية ، وأنه يكفى أن يتوصلوا إلى هذه الصيغ وتلك الأسرار لكى ينتجوا مثلهم روائع خالدة .

إن جبابرة العقل الذين كانوا يفخرون بعدم احترامهم لشئ من الأشياء، وكراهيتهم للاعتقادات الباطلة ، قد أصبحوا فى ميدان الأدب قطيعاً طيّعاً ؛ يسجدون أمام الأوثان ، ولا يجترئون على لمس « قانون التفريق بين الأنواع » أو قانون « الوحدات الثلاث » . يرفضون الاعتقاد فى الملائكة والشياطين ، ولكنهم يؤمنون ببندار وأناكريون وتيوكريت(٢) . بل كانوا يعتقدون فى أرسطو : لا أرسطو الفيلسوف ، بل أرسطو مؤلف علم البلاغة ، فهو بصفته هذه نصف إله .

---

(١) ليماجون دى سان ديديه : الرحلة إلى بارناس ١٧١٦ ، ص ٢٥٨ « لقد دوت فجأة ضجة هائلة، فان مائة شاعر صاحوا فى آن واحد راجين أبوللو أن يستمع إلى أشعارهم . فقال أحدهم : أيها الاله العظيم ، لقد نظمت قصيدة عن حركة الأرض ، وقال غيره : لقد نظمت قصيدة عن الجبر ...» — وفيما يتعلق بالمجلترا انظر إلى مؤلف جورج أسكولى ، « بريطانيا العظمى فى نظر الرأى الفرنسى فى القرن السابع عشر ، ١٩٣٠ . الجزء الأول ص ١١٩ .

(٢) شعراء اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد . [المترجان]

كانت اليونان فى نظر راسين حقيقة شعرية مؤثرة . ولو لم تكن فيدرا (١) ابنة الآلهة ، لما تألمت مثلما تألمت :

J'ai pour ayeul le Père et le Maître des Dieux.
Le Ciel, tout l'Univers est plein de mes Ayeux.
Où me cacher? Fuyons dans la Nuit infernale.
Mais que dis-je? Mon père y tient l'urne fatale.
Le Sort, dit-on, l'a mise en ses sévères mains.
Minos juge aux Enfers tous les pâles humains.
Ah! combien frémira son ombre épouvantée,
Lorsqu'il verra sa fille à ses yeux présentée,
Contrainte d'avouer mille forfaits divers
Et des crimes peut-être inconnus aux Enfers?
Que diras-tu, mon Père, à ce spectacle horrible?... (٢)

ولكن اليونان لم تعد اليونان ، فقد آذاها هذا النجاح ، ولم تفهم على حقيقتها : ففقدت بساطتها الطبيعية ، وشبابها وحياتها ، وأصبحت أشبه بالمدافن العامرة بالتماثيل ؛ ولم تعد روائعها الابداعية سوى مجموعة قوانين للنجاح المصطنع . لقد درسها الناس على ضوء الحاضر ، وبدلا من تفهم أوليس وأجاكس (٣) ، قالوا إن جمالها مرده إلى لبسهما الشعر المستعار و إلى حملهما السيف فى ذاك الوقت.

(١) فيدرا : فى الميثولوجيا اليونانية ابنة مينوس إله الجحيم وابن زيوس رب الأرباب ، وقرينة « تيزيه » اشتهرت بحبها لابنها هيبوليت سفاحا ، ولما صدها اتهمته لدى زوجها ثم انتحرت ندما . وألف راسين مسرحية عن هذه المأساة . [المترجمان]

(٢) جدى هو سيد الآلهة ، رب الأرباب .
إن أجدادى يملئون الكون والسماء .
أين أختبئ ؟ هيا نهرب فى الليل الخبيث .
لكن ماذا أقول ؟ إن أبى يحتفظ فيه بالاناء المشئوم
يقال إن إله القدر قد وضعه فى يديه الصارمتين .
إن مينوس يحكم فى الجحيم على البشر المسكين .
آه ! ... كم سيرتعد دهشة حين تتقدم ابنته إليه ،
مجبرة على الاعتراف بمائة فاحشة ، وجرائم ربما لا يعرفها الجحيم !
يا أبتاه ! ... ترى ماذا تقول فى هذا المشهد الفظيع ؟

(٣) Ulysse : والد تيليماك وزوج بنليوب ، بطل حرب طرواده . ورجوع أوليس إلى وطنه هو موضوع الأوديسا لهوميروس . وأجاكس هو خصم أوليس ، نشب بينهما قتال قلاستيلاء على سلاح أشيل — قاتل هيكتور فى حرب طروادة وأحد أبطال الالياذة ، الذى لتل بارلس برمية سهم — فانتصر عليه أوليس ، فاغتم وجن . [المترجمان]

عندما شرع العالم فى تمجيد هوميروس فى عام ١٧١٥ ، وأراد أنصار القدماء الانتقام من المحدثين ، ونشر بوب ترجمته للالياذة ، التى ترجمت مقدمتها إلى الفرنسية والألمانية ، ترى ماذا كان رأى المعاصرين فى القصيدة اليونانية ؟ قال بوب إن هوميروس يفوق الآخرين بفضل الابتداع ، علامة العبقرية ، لأنه يمد الفن بالثروة التى عليه أن ينظمها . لقد استطاع هوميروس بفضل مقدرته هذه ، أن يتخيل تلك الأساطير التى أسماها أرسطو روح شعر الملاحم ، والتى تنقسم ثلاثة أقسام ، الأولان هما القصص المجازية والمحتملة — التى تبيح للشاعر التعبير عن أسرار العلم والحكمة — ثم القصص العجيبة المحيرة التى تتضمن ما يفوق الطبيعة ، وآلية الآلهة : « يخيل إلى أن هوميروس هو أول من جعل من الآلهة نظاما آليا للشعر ، مما أضفى على الشعر هذه الرفعة والأهمية . . . » بيد أن هذا الابتداع ، وإن كان مفيداً فى الخطابة والوصف والتشبيه ، فى التصوير والشعر والأسلوب ، إلا أنه لا يخلو من بعض العيوب ! فأعاجيب هوميروس لم تعد معقولة ، واستعاراته ملؤها المغالاة ، وتكراره متعب ممل . . .

ولما قرأت مدام داسييه(١) هذا الكلام ، ثارت وقالت : « ماذا يعنى بوب هذا ؟ ذلك الانجليزى الذى يترجم هوميروس وهو لا يفهمه ؟ إنه لا يرى فى الالياذة إلا كتلة مهوشة من جمال لا انتظام فيه ولا انسجام ، حقلا ليس فيه سوى بذور لجة ، لا نضج فيها ولا كمال ، و إنتاجا حافلا بالغث الذى لا فائدة فيه ، يجب حذفه لأنه يخنق ما يستحق الاحتفاظ به . إن أعداء هوميروس لم يوجهوا إليه أبدا إهانة أشد ولا ظلما أفدح . ماأبعد الالياذة عن أن تكون حقلا بائراً ، بل إنها فى الحق بستان فيه أحسن انتظام وأكمل انسجام رآه الانسان . إن « لينوتر » أعظم مهندسى البساتين فى الدنيا ، لم يحقق فى بساتينه انسجاما أكمل مما حققه هوميروس فى أشعاره . . . »

عند هذا الحد انتهى الانتقال ، واستقرت الأمور فى مكانها : أصبحت إتياك(٢) فرسايل .

(١) قرينة عالم مشهور قامت بترجمة الالياذة والأوديسا . [المترجمان]

(٢) إتياك : إحدى جزر الأيونيون ، موطن أوليس عندما اشترك فى حصار طروادة . [المترجمان]

***

لشد ما أساء الناس إلى الشعر ! لم يعودوا يدركون معناه ، ولم يعد نفثا إلهيا يذكى القلوب . لقد صغروا من شأنه حتى لم يعد إلا صورة من صور عدوه ، فن الخطابة . فبدلا من البحث فى أعماق النفس ، اتجه — بمجهود مخالف لطبيعته — نحو خارجها ، نحو الاثبات والتحليل . كان الخيال يعد مقدرة تافهة ، ولم تعد صوره إلا بهرجا كاذبا . وأصبح الشعر مملا ثقيلا ، ولم يعد إلا صعوبات مذللة : هنا كان فضله كله . وكما قال فالانكور فى رده على خطاب السيد دى فليرى فى الأكاديمية الفرنسية فى عام ١٧١٧ : إن عرائس الشعر لم يعدن يسكن جبل بارناس ، لم يعدن بعد آلهة ، لم يعدن سوى وسائل شتى يتوسل بها العقل للتوصل إلى أدمغة الناس .

إذا أردنا أن نعرف إلى أى حد من الضلال وصل الناس إذ ذاك ، فينبغى أن نطلع على ما كتبه فونتنل عن أشعار فرجيل ، وما كتبه « هودار دى لامت» عن القصيدة . إلا أن هذا الأخير كان أكثر تمشيا مع المنطق ، فقد واصل جرأته حتى وصل إلى نتائج مبادئه : الشعر مضايقة ، فلنكتب بالنثر . إن النثر قادر على التعبير عن كل مايقوله الشعر ، فهو أدق وأوضح وأسرع ؛ لا يدفع بالذهن إلى العذاب ، بالقوافى والأوزان ؛ فلنقدم للناس قصيداً غير منظوم . . . وهو لم يكن يسير فى طريق ابتداع الشعر المنثور ، ولم يدرك أن الالهام له الحق دائما فى اختيار الشكل كيفما يشاء : بل على النقيض كان ينكر الانسجام بكل فخار .

والحق أن البلاغة ، على طول تهديدها للشعر ، لم تحرز يوماً انتصاراً أقسى مما نالته يوم كتب هودار دى لامت قصيدة سماها « البلاغة الحرة » : العفاء على القافية والوزن !

« يا قافية ، أيتها القيود الغريبة الظالمة ، أتكون أفكارى دائما عبيداً لك ؟ حتام تتحكمين فيها مغتصبة حقوق العقل ؟ فور ما تأسرين بالتزام العدد والوزن ، يجب التضحية بالصحة والدقة والوضوح . وإذا أنا أصررت على الاحتفاظ بها بالرغم منك ، فبأى عذاب تنتقمين منى لمقاومتى لك ؟ عليك وحدك،

أيتها البلاغة الحرة المستقلة ، عليك وحدك أن تخلصيني من عبودية مهينة للعقل كل الهوان . »

هودار دى لاموت ، الرجل الذى لخص « الالياذة » فى اثنتى عشرة أغنية ، ثم نظم قصيدة يتمثل فيها « هوميروس » يهنئه على عمله القيم ؛ الرجل الذى كتب أشعار راسين منثورة ، وسر بعمله هذا وافتخر . . . لقد أمل أصدقاؤه وأمثاله أن العالم بأجمعه سيدرك يوما أنه لا حساب إلا لعرض الوقائع ، ويومئذ سوف يدع الناس الاشباح ولا يعبرون عن غير الحقيقة ، ولن يثقلوا كاهل اللسان مرضاة للأذن ، وسوف يصبح الشعراء فلاسفة : وهذا خير سبيل للافادة منهم(١) . « كلما سار العقل فى طريق الكمال ، فضل الناس التمييز على الخيال ، وبالتالى قل إعجابهم بالشعراء . يقال إن أوائل المؤلفين كانوا شعراء . حسنا ، إنى أصدق هذا ، فما كان فى مقدورهم أن يكونوا غير ذلك . أما الآخرون فسيكونون فلاسفة (٢). »

وإلى أن يحين ذلك اليوم البعيد ، ينبغى التحرز من طائفة عنيدة ، مخادعة، لا فائدة لها . الشاعر — حسب قول جان لى كلير — رجل يخترع ، جزئيا أو كليا ، الموضوع الذى يتناوله ، ويرتب أفكاره طبقا لنظام خاص يجتذب القارىء ويسترعى انتباهه ، ويستعمل ألفاظا تختلف عن الألفاظ الشائعة . « عندما نطلع على قصيدة ، فلا بد من أن نقول إن هذا عمل كذاب ، يريد أن يصف لنا أوهاماً أو حقائق مشوهة حتى إننا لا نستطيع أن نفرق بين الصحيح ، والباطل . ينبغى أن نعى أن الألفاظ الفخمة التى يستعملها لا غرض منها إلا أن يحير بها عقلنا ، وأن الوزن الذى يستعمله لا غرض منه إلا أن يتملق آذاننا ، لكى يدفعنا إلى الاعجاب بعمله ، والاكبار من شأنه . قد تنفع هذه الأفكار كترياق فى مطالعات من هذا النوع ، إذ تفيد أولئك الذين أوتوا ذهنا قوياً ، ولكنها لا نفع لها إلا فى تهويش أصحاب الأذهان الضعيفة ، إذا بالغوا فى الاعجاب بها (٣). » ما منشأ هذا العداء من أحد أعلام العقليين؟ إنه هذا الاعتقاد الراسخ : الشعر هو الباطل .

(١) فونتنل : عن الشعر ، مصنفات مختلفة ، الجزء الثامن ، ١٧٥١ .
(٢) الأب تروبليه ، مقال عن موضوعات شتى فى الأدب والأخلاق ١٧٣٥ .
(٣) جان لى كلير : ١٦٩٩ .

وبعد ، فقد كان هذا رأى معظم المعاصرين ، وإن لم يشعروا بذلك . كان عملهم يقتصر على تقليد أشعار بندار — أعظم شعراء الأغانى فى اليونان القديمة — و « قصيدة الاستيلاء على نامور » . فقد قال جان باتست روسو الذى كان يعد أكبر شاعر غنائى فى هذا الوقت « كان اعتقادى دائما أن آمن طريق للوصول إلى ذروة الاجادة هو تقليد عظماء المؤلفين السالفين » لذلك تجد الاجادة عنده ، عبارة عن علامة استفهام أو تعجب أو فورة كاذبة . فهو يبتدئ كلامه بتعجب مدهش : ماذا أرى ؟ ماذا أسمع ؟ لماذا تنشق السماء ؟ لأن الأميرة فلانة تقترن ، أو الأمير فلان يولد ، أو الملك فلان يموت » . ثم يتبع ذلك ببعض الأبيات يدعمها مدد من الميثولوجيا ، ثم ينتقل إلى مقارنة ، أو وصف : وهكذا تتم القصيدة . ولا يكتمل لها النجاح ، إلا إذا اختفى المنطق ، وبناء القصيدة ، تحت ستار من الغموض الفنى . « وهذا الخروج على القواعد والفن والمنهج ، إنما يزداد روعة كلما ازداد خفاء ، وكلما وهنت فيها الروابط ، مثلما يحدث فى أحاديثنا إذا أوحت بها نشوة العقل ، التى تعوقها عن الخمود . بمعنى أن هذا الغموض هو الحكمة فى ثوب الجنون ، متحررة من تلك القيود الهندسية التى تجعلها ثقيلة ، وتسلبها الروح . . . »

***

ويمكننا على أسوأ الفروض ، أن نلتجئ إلى الظروف المخففة ، بل أن نذكر أيضاً فى كتاب الحساب الكبير ، حيث يسجل نجاحنا وفشلنا ، بعض القيم المستنقذة ، مقابل كل هذه الخسائر .

أى حلم عذب ، أن نحلم بوجود الشعر الخالص ؛ لا شعر هناك إلا نسبى ، نسبى لكل جيل يمضى . لكى يبقى الشعر ويعيش ، يكفى أن جيلا ، حتى ولو كان مولعا بالعقل المجرد ، لا يزال يجد بعض الفتنة فيما يسميه « المخادع الكذاب » ؛ يكفى أن يرفض — وقد ناقض نفسه — اتباع مثال رجل يعتزم تحويل الشعر إلى نثر ؛ وحسبه أن يكون لديه كتاب تؤثر فيهم الموسيقا والجرس ، يوهمونه — مهما كانوا عليه من ضعف — بوجود انسجام رفيع . لا يوجد شعر خالص ؛ ولكن هناك طلب أبدى للشعر . بدا بوب شاعراً موهوبا ، وإنه لشاعر موهوب مادام قد بدا كذلك ؛ وقد وفى الطلب الخجول لزمنه ، ويزيد .

ومن هنا ، ليس غريباً أن نقول إنه حتى فى هذا الزمن المجدب ، كان هناك شعر ، فى نظر المعاصرين . كان كانتز فى رأى الألمان شاعراً ؛ وحتى فى رأى الفرنسيين ، مادام قد كان من بين النماذج التى قدمت لهم فيما بعد ، عندما أريد لهم أن يتذوقوا طبيعية الألمان وبساطتهم . وقدم الايطاليون سلسلة من الشعراء كانوا موضع إعجاب أوروبا بأسرها : والمعجزة ، أنه بالرغم من كل الأسباب التى كانت تدعوهم إلى كتابة شعر ردئ ، فقد نظموا أشعاراً بقيت أكثر من يوم ، أكثر من سنة ، أكثر من قرن ، أشعاراً تفتننا اليوم . فقد كانت تثقل كاهلهم التقاليد « المارينيه » (١)، التى كانت تنصحهم بالتغنى دون سأم ، بالنيران المثلجة ، والثلوج المتأججة ، والرقة القاسية ، والشدة المستحبة . وكانت أكثر من ذلك إثقالا لكاهلهم ، الذكريات القديمة ؛ وحينما كانوا لا يشعرون باضطرار إلى تقليد أناكربون ، كانوا يجعلون من تقليد بندار واجبا عليهم . وكان مما يسبب ارتباكهم ذلك العلم ، الطارئ الجديد ، الذى باشروه ، وأحبوه ، وأرادوا أن يخلو له مكانا فى أشعارهم . ظلت قصائدهم ثقيلة تنبئ عن كثير من الجهد ، بما تحمل من كلمات فخمة ، ولتحرقها إلى الوصول إلى ذلك « الاختلال » الجميل ، مجد الفن . ولكن حدث ذات يوم ، أن خطر ببال فرانسسكو ريدى — بالرغم من تقليده بندار فى التكلف والغموض — أن ينادى باكوس بين تلال توسكانيا ، وأن يذيقه خمور الكروم ، الواحدة تلو الأخرى ، وأن يصوره مترنحاً ، مثأثئا ، وهو ينتشى شيئا فشيئا :

Chi la squall ida cergovia
Alle labbra sue congiugne,
Presto muore, o rado giugne
All'età vecchia e barbogia:
Beva il sidro d'Inghilterra
Chi vuol gir presto sotterra:
Chi vuol gir presto alla morte,
Le bevande usi del Norte . . .

إنه لتجديف من باكوس ، أن يلفظ أسماء هذه الخمور الدنسة ؛ ينبغى أن تتطهر شفتاه :

---

(١) نسبة إلى مارينى الشاعر الايطالى الذى أخذ عليه التكلف فى الأسلوب. [المترجم]

Si purifichi, s'immerga,
Si sommerga
Dentro un pecchero indorato,
Colmo in giro di quel vino
Del vitigno
Si benigno
Che flammeggia in Sansovino... (١)

فى ذاك اليوم ، أنقذت صورة من صور الشعر ، ثقيلة لكن حية مرحة ، عذبة ، مبتكرة ، بالرغم من أنها تزعم تذكيرنا بالشعر الغنائى القديم . ومرة أخرى أسمعنا فانسترو دافليكاجا — وقد حزن على عبودية وطنه — صيحات جميلة ملأها أنات مؤثرة :

E t'armi, O Francia? e stringi il ferro ignudo
Contra a me, che a'tuoi colpi armi ho di vetro,
Nè a me la gloria de l'antico scetro,
Nè l'antica grandezza a me fa scudo? (٢)

وأكثر من ذلك ! البهرج ، الاستعارة المبالغ فيها إلى حد الجنون ، الصور المعقدة التى شوهتها المغالاة فى التكلف ؛ كل القرن السادس عشر Secentismo أراد الايطاليون أن يبعدوه عن أشعارهم . فثاروا . لا إطناب فى الشعر ، بل بساطة وطبيعية . إن العبء ثقيل على المنزل : ينبغى الاستغناء عن الخدم . ماذا أقول ؟ لا لزوم لبيت على الاطلاق ، ولا لزوم لسقوف ولا جدران : ويعقدون اجتماعاتهم فى رياض ، تظلها السماء ؛ يريدون ابتعاث أركاديا القديمة، أرض النعيم ، حين كان الناس يستروحون الشعر فى نسمات الرياح ، وحين

---

(١) *Bacco in Toscana,* 1685 : باكوس فى توسكانيا .
ذلك الذى يقرب من شفتيه — الجعة الشاحبة الحزينة — يموت سريعا — أو قلما يصل — إلى الشيخوخة الخرفة — وليرشف شراب التفاح الانجليزى — من يريد أن يوارى التراب سريعا — ومن يرد أن يلاقى الموت — فعليه بخمر الشمال . . .
. . . يجب أن تتطهره شفتاه ، أن تغطسا — أن تغرقا — فى كاس من ذهب — تفيض بتلك الخمر — بذلك الكرم — العذب أى عذوبة — الذى يتلألأ فى سالسو فينو !

(٢) إيطاليا على الطريقة الفرنسية *L'Italia alla Francia,* 1700 .
إيه يا فرفسا أتشهرين السلاح ؟ وتجردين السيف — ضدى ، أنا التى لا أستطيع أن أواجه ضرباتك إلا بسلاح من زجاج ؟ — ضدى أنا التى ، لا مجد صولجانى القديم — ولا عظمتى الحالية ، يستطيعان حمايتى ؟

كان الرعاة يبعثون الألحان السماوية من مزاميرهم الريفية . وأسفاه ! إن تنفيذ مشروع فى مثل هذا الجمال ينقلب إلى تهريج وسخرة . إن أول ما اتجه إليه اهتمام أولئك « الأركاديين » ، أن يضعوا لأنفسهم قوانين ؛ وأن يتنكروا بأسماء رعاة تقليداً للاغريق ؛ ويسعون فى جماعات عديدة تنتشر فى إيطاليا كلها ، أكثر حذلقة وادعاء من أركاديا الرومانية ؛ إذ يلقون فى رياضهم أشعاراً لا تقل رداءة عن تلك التى أرادوا أن يتخلصوا منها : هى هى بذاتها ، احتفظوا بها ولم يغيروا شيئا منها . فانتهى المشروع إلى إفلاس . ومن دأبنا ألا نهتم إلا بالافلاس : ولو شئنا لاستطعنا أن ننظر إلى جمال المشروع ونبله .

ولا زال فى مقدورنا أن نجد فى الحقول الانجليزية بعض السنابل ، المتخلفة عن الحصاد . صحيح أنه ليس لدى برايور لوحات عظيمة حية الألوان : ومع ذلك فانه يجيد إضفاء لون بهيج على مواطن الجمال فى رسومه الدقيقة . إنه يجهل « السيمفونية » الهائلة : لكن لحنه رقيق ؛ وإذا كان الفن الذى لقنه إياه الاغريق واللاتين ، نتيجة لطبيعة جديدة ، فان تلك لا تمحو طبيعته الأولى ؛ فاذا كان « أناكريون » ، و « هوراس » أستاذه المفضل ، قد هذبا من موهبته، فانهما مع ذلك لم يخلقاها . وهو وإن لم تكن عواطفه قوية ، فانه يتغنى فى جمال بسعادة أوقات الفراغ ، وبعذابنا فى الحياة ، وخوفنا من الممات ، ومروق الزمان، وبكاء كلويه على ذبول زهوره ؛ وهو يخلو من الغضب والاحتقار والحزن الشديد : ولكن من حين إلى حين تتطرق نغمة حزينة إلى أغانيه ، فينفذ حينذاك بصورة أعمق إلى شغاف القلوب . يجوب ماتيو أنحاء انجلترا القديمة مع صديقه جان ؛ فيتقدم إلى خان كان يعرفه من قديم :

Come here, my sweet landlady, pray how d'ye do ?
Where is Cicely so cleanly, and Prudence, and Sue ?
And where is the widow that dwelt here below ?
And the hostler that sung, about eight years ago ?
And where is your sister, so mild and so dear
Whose voice to her maid like a trumpet was clear ? (١)

(١) تعالى إلى ، يا صاحبة الفندق ، بربك كيف حالك ؟ — أين سيسيليا النظيفة ، وبرودنس وسوزى؟—وأين الأرملة التى كانت تقيم هنا فى الطبقة الأرضية؟—والسائس الذى غنانا من نحو ثمانية أعوام؟ — وأين أختك العذبة الغالية؟ — التى كان نداؤها لوصيفتها واضحا كالنفير؟ (ماتيو پرايور، من قصيدة *Down Hall* ، عام ١٧٢٣).

إنها لوحة انجليزية : الخان الريفى ، وصاحبه الجالس إلى المائدة ، وصاحبته :

By my throth! she replies, you grow younger, I think.
And pray, Sir, what wine does the gentleman drink?
Why now let me die, Sir, or live upon trust,
If I know to which question to answer you first. (١)

كل ذلك طبيعى ومألوف ؛ ثم ننتقل — دون أن تتغير النغمة — إلى التأثر الذى يتملكنا عندما نفكر فى ذكريات الماضى :

Why, things, since I saw you, most strangely have varied,
And the hostler is hanged, and the widow is married.
And Prue left a child to the parish to nurse;
And Cicely went off with a gentleman's purse;
And as to my sister, so mild and dear,
She has lain in the churchyard full many a year. (٢)

ولا يصعب علينا ، أن نبين بعض الشعر عند الآخرين ؛ سواء تراءى شعراً لآذان من يسمعه لأول وهلة ، أو غلفته السنون حتى احتفظ بمسحة من جمال قديم مؤثر إلى وقتنا هذا . ومع ذلك ، فنحن لا نستغنى عن أن نستعين بالظروف المخففة ؛ وأن نتخلى عن المطلق لنقنع بالنسبى ؛ وأن نقرر ، مع كردوسى Carducci ، أنه لم يوجد زمن أقل شاعرية من الخمسين سنة الأولى من القرن الثامن عشر، وبذا كانت هنا بداية عهد من الاجداب ؛ وأن نعترف ، أخيراً ، بأن أحسن الشعراء الذين سردنا أسماءهم ، ليسوا إلا شخصيات هزيلة بجانب دانتى وشاكسبير .

***

فلنعترف بأن هذا الانقلاب نفسه قد وقع فى معظم ميادين الأدب ، فقد

(١) فتجيب ، قسما سيدى ، أرى أنك تصغر سنا — وبربك يا سيدى أى نبيذ يشربه السادة ؟ — فلأمت يا سيدى أو أعش على الصدق — إن كنت أعرف أى سؤال أجيبك عنه أولا .

(٢) آه ، لكم تغيرت الأمور منذ رأيتك أخيرا — فقد شنق السائس وتزوجت الأرملة — وتركت ثرو طفلا للأبرشية لتربيه — وهربت سيسليا بحافظة نقود أحد الوجهاء — أما عن أختى العذبة الغالية — فانها ترقد فى رحاب الكنيسة منذ أمد طويل .

فقد الناس معنى القيم المبتدعة ، ظانين أن التأليف هو التقليد ، هو الطاعة .

وقف النقاد على مفترق الطرق لمنع المؤلفين من الضلال ، وإعادتهم إلى الطريق الأمين . وكما قال توماس ريمر — الذى كان له الفخر فى تبيان أن شكسبير لم يفهم شيئا فى المأساة — فان الشعراء قد يصبحون فى غاية الاهمال إذا لم يشعروا بأن النقاد يقفون لهم بالمرصاد .

وما أكثر النقاد ! الأموات الذين لم يتخلوا عن أماكنهم ، أرسطو ، هوراس ، لونجين ، الذى لم ير احتفالا مثل هذا قط . والأحياء : الأب بوهور ، الأب راپين ، والأب لى بوسيه ، العلماء الأعلام الذين يعرفون كيف يكون التفكير السليم فى مؤلفات الفكر ، وكيف تنظم الخطب والأشعار ، وكيف ترتب الملاحم الشعرية . وفريق من الانجليز أصحاب السلطة ، جيرار لانجبين وإدوارد بيش وليونارد ويلستد ، وجون دنس وغيرهم . وفى إيطاليا موراتورى وكريسيمبينى وجرافينا يدرسون جوهر الشعر والمسرحية الكاملة . وفى ألمانيا يشرح كريستيان فرنيك أن الأدب الفرنسى إنما ارتفع إلى ذروة الكمال ، لأن كل مؤلف فى باريس ، لا يظهر إلا ويتبعه النقد على الفور ، حتى ولو كان لمؤلف مشهور . . . يا للحمية ! يا للسلطة الصارمة ! يا للتذمر ويا للنزاع ! فلنرث للمؤلفين على ما يتعرضون له من امتحان وتأنيب — لقد سايروا الزمن ، وكان لهم فى ذلك متعتان : متعة الصياح فى الرد للمتكبرين، ومتعة الطاعة للكسالى الخاملين .

وهرم بوالو . لقد لخص مبادئه الأدبية فى مقدمة طبعة مصنفاته عام ١٧٠١ ، ثم ودع الجمهور : « بما أن طبعة مؤلفاتى هذه قد تكون الأخيرة التى أشاهدها ، وليس من المحتمل أن تمتد حياتى أكثر من ذلك ، إذ بلغت الثالثة والستين من عمرى وأرهقتنى الأمراض ، فرجائى أن يتقبل الجمهور وداعى ، وأقدم له عظيم امتنانى على ما أبداه من كرم فى الاقبال على مؤلفاتى التى لا تستحق فى الحق كل هذا الاعجاب الكريم . . . » بيد أن الجمهور لم يكف عن الاعجاب ، والدليل أن بوالو فى نفس وداعه هذا يشكر الكونت دى إريسيرا على ترجمته الشعرية البرتغالية لمؤلفه « فن الشعر » والتى تفضل بارسالها إليه من لشبونة مصحوبة برسالة وأشعار بالفرنسية من تأليفه . ترى ، أى بلد لم يقرأ فيه « فن الشعر » ، ويفسر ، ويترجم ؟ أى بلد لم يتخذ فيه

مكانة القانون؟ إن بوالو ، ذلك الفرنسى المزهو الذى لم ير ولم يقدر شيئا خارج حدود بلاده ، لا يزال بالرغم من ذلك يمثل دور مشترع بارناس(١) ، السلطة الباقية ، بينما هى قد ضعفت فى كل مكان .

إنه لم يعد شخصا فحسب بل أصبح مؤسسة : لقد أقبل الناس على زيارته فى أوتى ، كأنما يزورون اللوفر . تخيل امرأة أديبة — مسز مونتاجو ، ترحل لتلحق بزوجها سفير انجلترا فى القسطنطينية ، فتقرأ أشعاراً تركية . ترى فيمن تفكر فى ذلك الحين ؟ فى بوالو . — إنها تقول : « أرى فى هذه الأشعار كثيراً من الجمال ؛ فمثلا هذا التشبيه « سلطانة لها عيون الغزال » ، يعجبنى غاية الاعجاب وإن لم يبد ظريفا بالانجليزية ؛ يخيل إلى أنه يعرض صورة حية للنار التى تضطرم فى عيون حسناء فاترة . لقد لاحظ بوالو بدقته ، أننا لانستطيع أن نحكم على جمال هذا التعبير أو ذاك عند القدماء ، بناء على الفكرة التى يمثلها ، لأن هذه الكلمة أو تلك ، وقد كانت عندهم لطيفة ، ربما تبدو عندنا مبتذلة أو جارحة للأذن . . . (٢)»

لم يفكر بوالو أبدا فى أنه يمكن لمؤلف أن يستغنى عن العبقرية : لكن أخلافه خالفوه ، مفضلين الأصول الفنية على العبقرية . قالوا إنه يكفى توافر شرط واحد لنظم الشعر الجيد : وهو احترام القواعد . لقد أيد بوالو قاعدة التفريق بين الأنواع : فكم من تمييز تافه ، كم من تفريق وتقسيم ستؤدى إليه قاعدته هذه ! كانت الكلاسيكية روحا وإرادة ، بينما الكلاسيكية الكاذبة أصبحت صيغة : كل الفرق هنا .

الأخلاق : هو ذا ما سيدافع عنه الورثة المساكين ، كأنما ينشدون السلوة . فالملحمة الشعرية يجب أن تكون أخلاقية ، هدفها الاصلاح الخلقى . والشعر ينبغى أن يكون أخلاقيا ، يعلم الحقائق الدينية ، إنه علم أخلاقى ، وجزء من علم اللاهوت . « الشاعر الحق هو الذى يجمع بين الفائدة والتسلية حتى إنه يعلم حينما يسلى ، ويسلى حينما يعلم » . — « الشعر ساحر ، لكنه ساحر مسالم ، وهو هذيان يطرد الجنون » . والمسرح على الأخص ينبغى أن

---

(١) بارناس : جبل مخصص لاله الشعر (أبوللو) فى الأساطير اليونانية . [المترجمان]
(٢) إلى بوب من أدرنة ، إبريل ١٧١٧ .

يكون مدرسة ؛ تبا للمؤلف الهزلى إذا هزأ بالفضيلة ، وأضمر الرذيلة ! لقد وجدت الملهاة فى انجلترا شكلا مبتكراً ؛ كانت تقتبس الحبكة من النماذج الفرنسية وعلى الأخص من موليير ؛ ولكنها أضفت عليها نكهة خاصة ، بأن مزجت بينها وتبلتها ببعض التعابير المبتذلة والمواقف الخليعة ؛ فكانت متهتكة فاضحة ، مرحة ، لطيفة : تلك هى المسرحية التى جعلها كونجريف وفانبرو تنتصر على مسارح لندن . إلا أن أكليركيا هو جيريمى كولبير هاجمها هجوما عنيفا ، ونشر فى عام ١٦٩٨ مقالا عن « تهتك المسرح الانجليزى » . شيئا من الأخلاق . إن ما يعوزنا هو الأخلاق ! على المسرح أن يبين لنا بطلان التعاظم البشرى ، وتقلبات الحظ المباغتة ، والعواقب الوخيمة للقسوة والظلم ، وجنون الكبر ، وإجرام النفاق . لكن ماذا يفعل المسرح الانجليزى بدلا من ذلك ! لقد استحالت الفضيلة إلى سخرية ، وساد التجديف والكفر والفحشاء ، ولم يتورع الناس عن الهزء برجال الدين ! يا للعار ! يا للفضيحة! — والشئ الأغرب ، أنه بعد مناقشات عنيفة أثارها جيريمى كولبير ، أفلح الروح البوريتانى فى إصلاح الملهاة ، التى لما رأت أنها لم تعد تستطيع العيش فى الشكل الذى ترضاه ، آثرت أن تموت .

وفى نفس الحين تقريباً ، حاول الايطاليون خلق ملهاة تحترم العقل والأخلاق فى وقت واحد . ففى نابولى — بصرف النظر عن روما وفلورنسة — وجد مؤلف هو نيكولو أمنتا ، تخلى عن الهرج والهوس : لا شخصيات خليعة ، لا ألفاظ مبتذلة ، لا فورات عاطفية ، ولا خادمات فاجرات ، ولامكائد جنونية : بل الانتظام ، بل الأخلاق .

إن تأسيس مجمع رسمى يختص بالفحص فى المسائل اللغوية ، والسهر على سلامة الذوق فى الأدب ، رغبة لم تراود ذهن دولة من الدول سوى فرنسا ، حينما كانت متحمسة للنظام والطاعة . أما الآن فان الشعوب المجاورة تحسد هذه الأكاديمية الفرنسية ، التى اتخذت مهمتها رويدا رويدا صفة مقدسة ، واكتسبت نفوذاً لم يعرفه مجلس آخر ، والتى تعد كل أفعالها — كجائزة أو احتفال أو خطبة — أحداثا مهمة جليلة . وابتغى الانجليز ، أكثر شعوب الدنيا حرية ، أن يكون لهم أكاديمية مماثلة ، يكون من أعضائها بريور الذى يعد فى بريطانيا بمثابة لافونتين ، وبوب الذى يعد بمثابة

فى قلوب معظم الكتاب : السأم ، فراغ الصبر ، والعصيان ضد النقاد . فنحن نعلم أن الكتاب يرحبون بالمدح ، ولكنهم لا يتحملون أحكام الادانة . يحمل بوب على النقاد فيقول : أولئك الناس الذين يعيبون مافى مؤلفاتى من نقص وقصور ، الذين يفرضون علىّ حكمهم ورقابتهم ، أى حق لهم ؟ لقد أعلنوا ذات يوم أنهم سيكونون نقاداً ، إنها المهنة التى اختاروها : فهل يكفى هذا الاختيار ليكون أساساً لتفوقهم ؟ واعجباه ! أيليق أن أى أحمق يضفى على نفسه مظاهر الأهمية ، ويزعم نفسه وصيا علىّ ؟ هل يجوز أن أى شاعر فاشل مغمور يحكم على قيمة أشعارى ؟ أو أن مؤلفا مسرحيا فاشلا يتقدم ليعلمنى كيف ينبغى أن أكتب الملهاة ؟ فليسمعوا منى بعض الحقائق بدورهم ، وليحدث مرة أن ينتقد النقاد كاتب . كل شاعر ردئ يقابله عشرة حكام أردياء ؛والعجرفة ليست شهادة بالقيمة ، وقبل أن نحكم ينبغى على الأقل أن نفهم : إن ذهنا محدوداً عاجزاً عن استيعاب وجهة نظر الكاتب، لابد من أن يخطئ فى التفسير . ما أكثر المزايا التى يحق لنا أن نتطلبها فى السادة النقاد — أقران أرستارك(١) — هل اكتسبوا رأيهم السديد الأكيد بالتجربة وبالعمل ؟ هل أوتوا مرونة الذهن ، والحدس ؟ هل بلغوا من التواضع ، بحيث لا يعرفون الغيرة والحسد ؟ هل يقدرون على غض النظر عن العيوب الهينة ، وعلى التنويه بالمواهب ؟ وعلى أن يجودوا بالمدح بخلوص نية ورضا بدلا من التقتير فيه كالبخلاء ؟ هل يحدوهم دائما الانصاف ؟ وأسفاه ! إنهم عبيد القوة ، والشهرة ، والأحزاب السياسية ، والأهواء الدينية . . .

إن هذه الغضبة ، التى تنبئ عن نفس جياشة حية ، وعن طبع لا يرى أنواء أنكد من أنواء المحبرة الهوج ، لممتعة جداً . إلا أن الأعجب أن نرى كيف يتصدى بوب الآخر للأول — الذى سرعان مايقتنع فى غير عناء — لأنه فى الحق لم يحمل على النقاد إلا لأنه يتمنى لهم رفعة المقام . إن بوب الحكيم المنطيق يعلن مبادئه ونظرياته ، فيقول إننا يجب أن نتبع الطبيعة ، الطبيعة المعصومة ، الضوء الصافى ، الشعاع النورانى : بيد أنه يجب أن نتبع هذه

---

(١) أرستارك : عالم نحوى اسكندرى وناقد مشهور ، مربى أولاد بطليموس ، فى القرن الثانى قبل الميلاد ـ مضرب المثل فى شدة النقد مع الصحة والوضوح . [المترجمان]

بوالو ، و كونجريف الذى يعد بمثابة موليير(١) ، وسويفت الذى أعلن أنه سيطيع الأكاديمية مختارا ، وإن كان لا يحتمل أى نير (٢) . وبعد مجادلات عنيفة أخفق المشروع . لكن على الأقل ، تأسست أكاديمية برلين فى عام ١٧٠٠ ، والأكاديمية الملكية الاسبانية فى عام ١٧١٣ ، وحتى الروسيا البعيدة حصلت على أكاديميتها فى عام ١٧٢٥ .

إن النقد ، الذى كان لا يقيم وزنا لجميع لظم الماضى فيما يخص الدين أو السياسة ، أصبح هنا ، على النقيض ، محافظا . كان يتهم القدماء بأنهم يعوقون تقدم أنوار المعرفة : أما هنا ، فكان يستشهد بهم كآلهة حافظة . كان يجعل من الرأى الشخصى قاعدة لكل شئ : أما هنا فلا يرى السلام إلا فى مراعاة القواعد ،إ ذ يحول وقائع التجربة إلى إلزامية . إذا شئت أن تؤلف تراجيديا ، فخذ أربعا وعشرين ساعة ، وبهواً فى قصر ، وبعض الواجب ، وشيئا من العشق ، وبعض أبطال مشاهير .

***

فى عام ١٧١١ ، غمرت السعادة الانجليز لرؤيتهم مؤلفا صنواً « لفن الشعر » يولد فى أرضهم ، دبجه أحد مشرعى « بارناس » . رجل عليل ، قمئ ، عصبى ، مرهف الحس لكل نفثة ولكل فيض عاطفى ، ولكنه بالرغم من كل هذه الفوارق ، وغيرها ، خلف مجيد لبوالو . وقد كان ينتظر الكسندر بوب سؤود طويل ، مادام عمره لم يكن يتعدى الثانية والعشرين ، عندما نشر مؤلفه مقال عن النقد : *Essay on Criticism* .

يخيل إلينا أننا نجد فى هذا المؤلف الذى سرعان ما أصبح واحدا من أشهر مؤلفات العصر ، معركة نهائية . كان فى مؤلف « مقال عن النقد » رجلان ، لا يتفقان فى كل آن : بل طالما يتعارضان . أحدهما يمثل حمية طبع فردى حى ، والآخر يمثل الطاعة والنظام اللذين سينتصران . أولى هاتين الشخصيتين تطلق لحميته الفتية العنان ، وتفصح عن الشعور الذى يعتمل — سرا أو جهراً —

---

(١) فولتير : رسائل فلسفية ، الرسالة ٢٤ . عن الأكاديمية .

(٢) سويفت : اقتراح لتصحيح وتحسين وتوطيد اللغة الانجليزية ، لندن ١٧١٢ .

الطبيعة الثابتة الشاملة، بهدى العقل : يجدر بنا فى الواقع أن نسوس «بيجاز» (١) لا أن نهمزه ، أن نكبح فورته لا أن نستحث سرعته ، ينبغى أن نخفف سرعة الفرس المجنح الأصيل . إن الفن هو الطبيعة ، لكنه الطبيعة المستكملة ، الطبيعة النظامية ، الخاضعة للعرف . فليتبع الشعراء إذن القواعد التى اقتبسها الأقدمون من الطبيعة ، وليدرسوا المبادئ النافعة التى تلقننا بها اليونان الحكيمة كيف نكبح — فى الوقت المناسب — جماح الخيال ، لنرد له قوته ! لقد جرب فيرجيل يوما أن يرتكن على عبقريته ، ولكنه أدرك للحظته أن هوميروس والطبيعة ليسا إلا شيئا واحداً ؛ فترك مشروعه الجرئ ، مقتنعاً ، مذهولا ، وبلغ به الحرص أن أخضع مؤلفه لقواعد صارمة ، كما لو أن كل فقرة من شعره قد فحصتها عين أرسطو . فليقدر الشعراء إذن عظماء الماضى النموذجيين حق قدرهم : فان تقليدهم تقليد للطبيعة . وبالمثل ، فليتناولوا مؤلفاتهم بالصقل المرة تلو المرة ! إن الأسلوب الذى يبدو سلساً لنتيجة للفن ، لا للمصادفة ؛ إنه لبدارسة الرقص تكتسب سهولة الخطوة . — هكذا يعبر بوب الكلاسيكى . إنه مشبع بمؤلفات أولئك الذين يحى فيهم أسلافه العظماء ، أرسطو وهوراس ودنيس هاليكرناس وبترون وكنتليان ، ولونجين ؛ وإرازم الذى قهر الخرافة القوطية ، وفيدا الذى يترجم عن تفوق إيطاليا فى عصر ليون العاشر ، وبوالو . إنه يباهى بأولئك الأسلاف الأمجاد الذين ينحنى أمامهم تبجيلا ، ثم يلتفت صوب معاصريه ، زاعما إرشادهم وقيادتهم بدوره .

***

لا بأس بأن نبين بعض المؤلفات ، لتحقيق امتياز النظريات ؛ وكان من اللازم أن يكون هذا أمراً يسيراً . مادامت طريقة نظم الملاحم الشعرية معروفة جيداً ، فماذا ينتظر الشعراء ؟

Excelling that of Mantua, that of Greece,
A wond'rous, unexampled Epick Song,
Where all is just, and beautiful, and strong,
Worthy of Anna's arms, of Malbro's Fire,
Does our best Bard united strength require . . .

(١) «بيجاز» : فى الأساطير اليونانية ، فرس ذو جناحين ويعد رمزا للشعر . [المترجمان]

ملحمة شعرية ، تفوق ملاحم مانتوا(١) وملاحم الأغريق ؛ ملحمة رائعة معدومة النظير ، كل مافيها صحيح ، قوى ، جميل ، جدير بأسلحة « آن » ونار « مالبورو » ، — ذلك ما تطلبه القوات المتحدة لأشعر شعرائنا . . . إن ريشارد بلاكمور ، الذى يحمس سواطنيه بهذه الكلمات ، قد ضرب بنفسه مثلا طيباً . هدف الشعر هو تثقيف الذهن وتهذيب الأخلاق ؛ والملحمة هى أسمى أنواع الشعر ، وأكثرها أخلاقية أيضا . فالأبطال الذين تقدمهم ، يعلمون الدين ، والفضيلة ، والسيطرة على الشهوات ، والحكمة : إذن فمن الواجب نظم الملاحم . صحيح أنه منذ هوميروس وفرجيل لم يفلح فى ذلك أحد : ولكن مرد هذا الاخفاق ليس إلى الافتقار إلى العباقرة بل إلى الجهل بالقواعد . واليوم ، لدينا خلاف أرسطو وهوراس ، أدلاء مثل رابين وداسييه ولوبوسيه ، وريمر ؛ إذن لم نعد نجهل شيئا مما يلزم لاتقان التأليف : فلنبدأ .

ويبدأ : « خبرينى ، يا عروس الشعر . . . » فتوحى إليه العروس بقصائد الفروسية « الأمير أرثر » ، و « الملك آرثر » و « إليزا » و« ألفريد » ، وبالقصيدة الفلسفية « الخليقة » ؛ عشرات من الأغانى ، وآلاف مؤلفة من الأشعار . ولكن ريشارد بلاكمور كان طبيباً أكثر منه شاعراً ، فجر النسيان ذيوله على قصائده .

والمسرحية ؟ إن عقلا ممتازاً ، فقيهاً مشهوراً ، هو جان فانسنزو جرافينا ، سوف يقدم لنا النموذج . إنه يدرس البحوث ، وفنون الشعر ؛ إنه لا يقنع بالكلاسيكية الفرنسية ، ولا بمؤلفات النهضة ، بل يصل إلى التراجيديا الاغريقية ، التراجيديا الصحيحة ، الأصلية : وإنه ليملك ناصيتها ، ولن تهرب من قبضته . وفى مقدمة المسرحيات الخمس التى ينشرها فى نابولى فى عام ١٧١٢ ، يعطى جرافينا الكلمة للتراجيديا شخصياً فتصيح : هأنذى ! أخيراً أظهر فى صورتى الأولى ، بعد قرون طوال من الجهل ! أخيراً وصلت ، بارشاد فقيه فى القانون ، خطيب ، فيلسوف ، يحرسنى « العقل الشاعرى » الذى تنقاد له القواعد ، وتوجهنى شعلة النقد ! . . . إن هذه العروس تحسن الكلام : لكن هذا لم يمنع مسرحيات جرافينا من أن تكون مرذولة .

---

(١) مانتوا : بلد فيرجيل فى إيطاليا . [المترجم]

بدأت فى كل أنحاء أوربا مباراة عامة فى التراجيديا ؛ وأخذت الشعوب المختلفة تسعى للحصول على الجائزة وإكليل الغار ؛ ورجال المسرح يسعون جاهدين من كل صوب . فكريبيون Crébillon (١) ينافس راسين : ولكنه يسرف فى الشخصيات البرونزية والسوداء . لقد أخذ الأجنبى ينافس فرنسا : آه ، لو استطاع أن يكسفها ! إن كريبيون على الأقل لم يقتصد فى الوقت ولا فى العناء ولا فى عدد المسرحيات ؛ بل بذل كل ما فى وسعه طوال سنين . إنه يوم يستحق الذكر ، يوم قدم المركيز « سيبيونى مافيى » لأول مرة ، فى فيرونا فى ١٢ يونيو ١٧١٣ ، « ميروب » ، تلك المسرحية التى كانت تبدو أكثر كلاسيكية من كل المسرحيات الكلاسيكية الفرنسية ، بالرغم مما كانت عليه من هزال . أى تصفيق ! أولا فى إقطاعيته ، ثم فى كل أنحاء إيطاليا ! وأى نصر ! أى إعجاب بتلك المشاعر الدفاقة ، وتلك المقطوعات المفخمة ، وتلك الأشعار الموزونة بطريقة آلية ! ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى فى أنحاء العالم ، وقد ترجمت ، ونوقشت وامتدحت ؛ ثم وصلت فيما بعد إلى جيته عن طريق فولتير وليسنج . والانجليز أيضاً أدركوا جيداً أنه لابد لهم من أن يصلحوا مسرحهم ، وأن يوقفوا تجاوز شكسبير غير اللائق ، وأن يمنعوا « التراجيديا ــ الكوميدّية » من أن تزعم التشبه بالتراجيديا نفسها ، وأن يحذفوا من المسرح أثر المعارك ، والجلبة ، والمواكب ، والأبواق والطبول ، والاغتيالات ، التى لا يمكن أن نحتمل مشهدها ، إذا أوتينا شيئا من سلامة الذوق ؛ والخلاصة أنهم كانوا يصبون إلى التراجيديا المنتظمة الجميلة ، المرسومة بدراية ، التى لا تبالغ فى الرعب أو الشفقة ، وتبدو متواضعة فى الفروسية ، وسامية دون مغالاة . كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم . فنرى ناتانيل لى يؤلف نيرون ، سوفونيزب ، جلوريانا ، والملكات المتنافسات ، وميتريدات ، وأوديب ، وتيودوز ، بروتس وغيرها ، حيث تجتهد عبقريته المفطورة على الارتباك ألا تدخل واقعتين فى مسرحية واحدة ، وأن تحذف منها الحشو غير النافع ، وأن ترضى قاعدة وحدة الزمن المتألهة ، وأن تحترم

---

(١) كريبيون : شاعر مسرحى فرنسى : صاحب تراچيديا « راداميس وزنوبيا » (١٦٧٤ - ١٧٦٢) . [المترجم]

العرف ، وألا تتكلم إلا فى لهجة نبيلة مفخمة . ولقد وفق فى بعض الأحيان ، ولم يكن بعيداً عن هذا الانتظام الذى يرى أنه الجمال الأسمى . وكانت مسرحية « البندقية المنقذة » *La Venise Sauvée* التى ألفها أوتواى Otway نجاحا جميلا ، يثبت للأجانب أن المسرح الانجليزى قادر على أن يكون صحيحاً ومؤثراً فى نفس الوقت . ولكن سنة ١٧١٣ تسجل أخيراً الانتصار . يومئذ ظهرت « كاتون » مسرحية أديسون ، الجديرة بأن تترجم على الفور إلى الفرنسية : إن لندن التى كان لديها قرين لبوالو أصبح لديها قرين لراسين ، وبدأت أوروبا تمجد هذه المسرحية الرائعة . إنها نتيجة نصف قرن من الجهد أو مايقرب من ذلك . ولم يكن فى مقدور الانجليز أن يهذبوا مالم يكن مهذبا من عبقريتهم فى مدة أقل من هذه ، وأن ينتجوا هذه التحفة الرائعة .

وتخلف الألمان : ولكنهم مع ذلك سيصلون ، فلنتذرع بالصبر . إن جوتشد Gottsched يتألم من تخبط المسرح الألمانى ؛ فيعكف على العمل ، يقرأ « فن الشعر » لأرسطو وشرحه ، ومسرحيات القدماء ، والشعراء الفرنسيين ، حتى بما تتضمنه من مقدمات ؛ فيستيقظ ، مدركا أن للفن المسرحى قواعد تبلغ من المنطقية ، والقطعية ، وتقضى بها الضرورة الحتمية ، حتى إن ألمانيا قد تظل فى حالة الهمجية طالما ترفض مراعاتها . وعلى ذلك يسعى جوتشد بكل وسيلة ليقف على أسرار الفن ، وأخيراً يقدم ، منتصراً ، مسرحيته « كاتون على فراش الموت » فى عام ١٧٣٢ . ويقول إنه قد كان يكتفى بترجمة مسرحية أديسون « كاتون » ، لولا أنه وجدها غير كاملة الانتظام ، فيها شئ من الاستطراد ؛ فقد تضمنت بعض الحشو والزخرف ، مما ينقل بناءها بلا مناسبة — وشكراً للسماء ، وشكراً للمؤلف ، فان كل مناظر « كاتون » الألمانية تحدث فى قصر واحد وفى بهو واحد ، ومدة المسرحية « تبتدئ ظهراً وتنتهى مع غروب الشمس . »

وإنه لشئ غريب حقاً ، أن رجلا مثل فولتير — عندما يكتب مسرحيات أو ينظم قصائد — يخرج عن عبقريته الخاصة ، دون أن يستشعر معاصروه ذلك ، ودون أن يستشعره هو نفسه ؛ إذ يريد أن يقلد كورنيل وراسين أو بوالو . إننا لنشعر بشئ من الحزن إذ نرى منذ ذلك العهد — ودون أن ننتظر أن تتقوى « الكلاسيكية الكاذبة » خلال فترة أطول مما رأت أى مدرسة حديثة —

الفصل الثانى

بهجة الحياة

مادامت هذه الحقول من الأزهار الاصطناعية لا أمل فيها ولا حتى سراب ، فلنبحث فى غيرها . . .

إن السيد سبكتاتور يوصى قراءه بالتزام الحكمة والاعتدال : ولكنه ، يتوقف فى أثناء إرشاداته ، ليشيد بمتع الخيال ، وليؤكد أن المتعة التى يهيئها لنا البصر ، لا تقل عن التى يهيئها الذكاء ، بل ليبدى إعجابه بمفارقات شكسبير النبيلة : يروق الفضلاء أن يقتربوا من الينابيع Juvat integros accedere fontes ... ويوصى علماء إيطاليا باطاعة القواعد : ولكنهم فى الوقت نفسه يحتفظون بمزايا وحقوق بعض الهوى المبدع : حتى رأى الناس فيهم — بشئ من السماحة لا يخلو من الاسراف — أسلاف الرومانتيكيين . يا للتناقض الظريف ! دعوا الفرنسيين يعملوا ، إنهم فى سبيل إخضاع كل شئ للفرجار : اللهم إلا إذا أتت الجنيات تهوش ، فى لعبها ، رسومهم الهندسية . كانت نهاية القرن رزينة ، حزينة ، لتأثرها بالشعور الذى يسود عند اضمحلال العهود العظيمة ؛ لقد خلفت المؤلفات الرائعة كتب النقد ، وعلى حين غرة تخيل ماذا يطلب البدع ؟ وأى كتب تعرض فى واجهات المكتبات ؟ حكايات الجن .

إن معاصرى لويس الرابع عشر المسن ، ومدام دى مانتنون العاقلة المتدينة ، يستلطفون الحكايات التى تقصها « أمنا الاوزة » للأطفال . نستطيع أن نقبل أن ديكارت لم ينبذ نهائيا ، وأن قرعة مذهبة تستحيل إلى عربة مذهبة ، والعظايات (السحالى) إلى خدم ذوى أردية مزخرفة ، والفئران ذوات الشوارب إلى سواق ذوى شوارب ؛ وبذا نكون قد احتفظنا إلى حد ما بالنسب المعقولة التى يعزها الشعب الفرنسى . ولكن أى مجافاة للمنطق ! إن قصوراً

هذه الكتلة المهوشة من القصص الخالية من الروح ، والمسرحيات الخالية من الحقيقة والأشعار الخالية من الشعر . قوة بلا روح . . . هذا هو ثمن الجمائل التي قدمها المذهب الكلاسيكي للعالم . لأن الكلاسيكيين الفرنسيين وصلوا إلى درجة سامية من الكمال ، الذى فتن عقول خلفائهم ، حتى إنهم ظنوا أنه لا وسيلة إلا أن يقلدوهم ؛ ولأن كتاب الصف الثاني — وقد يسارعون إلى السهل — يحبون أن يكرروا مالقى النجاح مرة ؛ ولأن الروح الهندسي قد قضى على حب الأشكال المرنة والألوان الحية ؛ ولأن العقل المسيطر لم يعد يحتمل « أزهار » البلاغة إذا لم تكن سوى أزهاراً ؛ لقد ذوت القوات الغنائية ؛ ووقعت العبقرية الشاعرية في سبات عميق .

***

أولئك الذين قاموا بالرحلات الحقيقية لم يأتوا لنا بكل مانحبه اليوم ؛ إنهم لم ينقلوا « إنيتهم » إلى الجهات النائية ليعرفوا ماذا يصيبها ، وليشعروا بأثر هبوب الرياح المجهولة عليها . ومع ذلك فنحن لم نقل كل شئ إذا لم نتحدث إلا عن أفكارهم . هل كانوا عقولا خالصة ؟ ألم تبدأ عيونهم تتفتح أمام بهجة الدنيا ؟ ألم يقدموا لقرن قد تشبع بالذكاء ، صوراً تغريه ؟

لقد ظهرت فى أوروبا نفسها ، أراض عجيبة ، كما لو كانت جزرا جديدة فى وسط محيط مألوف . تلك هى لابلاندة التى كانت تتبدى رويداً رويداً من خلال الظلام الكثيف . يقول الرحالة فرانسو برنييه إن اللابلانديين قوم غرباء ، فطس الأنوف ، « قصيرو القامة ، أقوياء السيقان ، عريضو الأكتاف ، قصيرو العنق ، طوال الوجوه بشعو الخلقة كالدببة ، يشربون زيت السمك فى جنون . . . » بلاد عجيبة ، حيث لا تغرب الشمس صيفا ولا تشرق شتاء ، حيث تحل الرنة محل الحصان ، حيث يتزلق الناس على ألواح مشدودة إلى الأقدام ، حيث ينتاب السحرة رعب شديد لقاء « نعم » أو « لا » . إنها تبلغ من الغرابة بحيث ينقل عنها السياح « وصفاً لدنيا جديدة أكثر منه رواية عن شطر من قارتنا . . . » .

وما أغرب مالم يزل يرد من ولايات المغرب من روايات ، ومغامرات بحرية ، وحوادث أسر ، وهروب ونجاة ، وفرقة أحباب وملاقاة ، وشهداء وعصاة ، وباشوات وانكشارية ، وغادات يذرفن الدموع ، أسيرات فى القصور ، وأجانب يشفقون على دموعهن ، وحراس يراقبون سجناء ينحنون على المجاذيف ،ومبعوثين يحضرون معهم بكل عناء ، فديات ضخمة بالعملة الاسبانية أو الفرنسية . تلك الروايات التى لم يكف الناس عن تكرارها وتوشيتها ، كانت تحظى دائماً بالاعجاب . خواتم الكوميديات ، مغامرات قصص الحب ، ووقائع حقيقية أكثر روائية من الروايات .

وقد ورد من أورشليم ، بيت المقدس ، مرة على الأقل ، أنين شاعرى أليم . أيا أورشليم ! أيتها المدينة التعسة ! يا مدينة القبور ! إن الهياكل العظمية ،

فاخرة تنكشف فجأة ، قصوراً لا ترى فيها إلا الذهب والياقوت ، ويغطى أبوابها العقيق ، وعليك لكى تلجها أن تشد رجل جدى معلقة فى سلسلة من الماس . الحيوانات تتكلم ؛ فالوعلة التى ترعى فى الغابة ، والهرة التى تأوى إلى ركنها ، هن نساء مسحورات ؛ والطيور الزرق أمراء فاتنون . لا نرى إلا أعاجيب ، وزهوراً ، ومجوهرات ، وزينة خارقة للعادة : قطعة من قماش طولها ٤٠٠ متر تطوى فى حبة صغيرة من الذرة البيضاء ، وإذا بسطت تنفذ من سم خياط ؛ عليها رسم كل حيوان الأرض والبحر والسماء ، مع القمر والشمس والنجوم . والناس يمتطون جياداً من خشب ، تعدو مطلقة العنان ، وتقفز أحسن مما تقفز خيول الأكاديمية ، ويتجولون فى مركبة يشدها خروف سمين خبير بكل الطرق ، أو فى زحافة صغيرة مذهبة ، يجرها أيلان فى سرعة إعجازية ، أو فى كرسى طائر تجره ضفادع مجنحة ، أو فى عجلات نارية تقودها التنانين فى الجوزاء — ولم لعد نتعرف قوانين الدنيا التى تجد بعض القوى السحرية متعة فى قلبها ، فالأجسام تفقد أوزانها ، والأحلام تتحقق ، والفضيلة تنال ثوابها ، والرذيلة تلقى عقابها . وإذا نحن تخلينا عن هذه الحكايات العجيبة ، نجد الحياة من الكآبة والفتور ، بحيث يصبح العيش عناء .

وكانت النساء سباقات إلى جمع هذه الحكايات ، الصادرة من أغوار الزمان والتى توغل فى قدمها حتى لتتعذر معرفة أصلها ؛ هذه الاختلاجات للنفس البدائية ، التى لم تر فى الخليقة كلها ، فى الريح وفى الليل ، فى الربيع وفى الشتاء ، إلا سحراً فى سحر . نساءهن حارسات الخيال ، لأنهن أقوى غريزة ، وأكثر حساسية لماضى البشر . ثم أتى شارل بيرو ، ناظر الأملاك الأميرية السابق ، الذى تنـاول بعض أجنحة الفراش وأولاد العذراء وأشعة القمر ، وبنى بها حكاياته عن الجن ، تلك التحف الرقيقة الخالدة . كانت الحسنـاء تغفو فى الغابة ، وتوقفت كل حركة ، حتى الأحلام ؛ وكفت العفاريت عن لهوها ، والنزوات عن عبثها ، وخيم الحزن الكئيب على فرساى وعلى المدينة وعلى البلاط ؛ ثم ضربة عصا ، وإذا بكل شئ يفيق ، فيهرول الطهاة ، ويتواثب الخدم ، وتصهل الخيول ، وتتناجى طيور الغابة على الغصون ، فتستيقظ الأميرة ، ثم تبتسم وتعاتب الأمير على تأخره فى الحضور ، وتخبره أنها انتظرته طويلا .

والعظام المنفصلة ، العظام المحطمة التى نراها فى المقابر توحى بأفكار مفجعة ، تبدت فى « تأملات » :

Is this, alas! our boasted mortal State?
Is it fort this, we covet to be great?
What Happiness from envied Grandeur springs,
When these poor Reliques once were mighty kings?
O frail uncertainty of human Power,
While Graves can Majesty itself devour! (١)

إن الذى يئن هذا الأنين ، ليس يونج فى « لياليه » ، وليس هيرفى فى « مقابره » ، بل هو آرون هل الرومانتيكى ، آرون هل ، السائح فى الأرض المقدسة .

لو أن لويس الرابع عشر قرأ الرسائل التى كان يرسلها الأب بريمار من كانتون إلى الأب لاشيز ، لخالجه الريب فى وجود أمساخ أغرب مما كان مصوراً فى لوحات الهولانديين . كانتون ؛ أى بلد غريب ! تخيل الأزقة الضيقة ، التى تعج بشعب بأكمله : ترى حمالين حفاة الأقدام ، يغطون رءوسهم بقبعة من القش ، تقيهم المطر والشمس معاً ؛ ومقاعد غريبة بدلا من العربة ، والأب بريمار نفسه يتنزه فى مقعد ضخم مذهب ، يحمله ستة رجال أو ثمانية على أكتافهم ؛ وحرساً محارباً ، لأن سونج — تو ، أعنى حاكم ولايتين ، لا يخرج أبداً إلا وترافقه حاشية من مائة شخص على الأقل . . . « يخيل إلى أن كل ماقلته لك هنا ، يعطيك فكرة عن مدينة حديثة ، لا تمت بصلة إلى باريس . وحتى لو نظرنا إلى البيوت وحدها ، فأى أثر تترك فينا شوارع بأكملها لا ترى فيها أى نافذة ، بل كلها حوانيت ، معظمها فقير ، مدخلها سياج بسيط من القصب بدلا من الباب ؟ . . . (٢) » أضف إلى ذلك المعابد pagodes التى

---

(١) أهذه إذن ، واآسفاه ، حالتنا الفانية التى نباهى بها ؟ — أمن أجل ذلك نبتغى المعالى ؟ — أى سعادة إذن فى المعالى المشتهاة — بينما هذه الاشلاء التعسة كانت يوماً ملوكا عظاما ؟ — ياللقدرة البشرية الضعيفة التى لا أمان فيها — ما دام القبر قادرا على التهام العظمة نفسها !

(٢) رسالة من الأب دى بريمار إلى الأب لاشيز . فى كانتون ١٧ فبراير ١٦٩٩ . (رسائل غريبة مرسلة من البعثات الأجنبية ، الجزء الأول ، ١٧٠٣) .

يقوم على خدمتها رهبان بوذا ، وبوابات الشوارع التى تغلق فى آخر النهار ، وعلى النهر مدينة بأكملها عائمة ، وقوارب تقطن كل واحد منها أسرة ؛ ومزارع الأرز فى الريف . . .

ومن بلاد الهند الغربية ، من « الجزر » ، وصلت صورة المغامرة ذاتها ، صورة أخطر المغامرين على الأرض أو المياه . كانت قيادتهم العامة فى جزيرة « السلحفاة » على مقربة من « سان دمنجو » : عصبة من الأشرار desperados من كل بلد ومن كل جنس ، يعيشون فى ظل قانون لشرف يخصهم وحدهم ، شرف ينفردون به دون بقية البشر . إنهم القراصنة : طائفة البوكانييه Boucaniers وطائفة الفليبوستيه Flibustiers . الأولون يصيدون الثيران من أجل جلودها ، والخنازير البرية من أجل لحومها . ويتعقبــون طريدتهم وقد حملوا البنـادق الطويـلة المصنوعـة خصيصاً لهم فى دييب أو نانت ، تتبعهم كلاب الصيد ، ويساعدهم الخدم الذين يتعهدون بالخدمة لمدة ثلاث سنوات ، يصبحون بعدها رفاقا لهم إذا توافرت فيهم القوة والشجاعة : فاذا قتلوا حيوانا ، استخرج الزعيم العظام الأربعة الكبيرة ، وكسرها ثم امتص نخاعها الدافئ : ذلك هـو إفطاره . وإنهم لمن المهارة فى التصويب حتى إنهم ، على سبيل التسلية ، يقطعون عنق البرتقالة دون أن تمس القذيفة الفاكهة ؛ وبعضهم من الخفـة بحيث يلحقون الثور فى عدوه ويقطعون فخذه . فى خلقهم الجفوة والقسوة ، الشراسة ، والوحشية ، وهم على استعداد دائم لاراقة الدماء ، ولكنهم شجعان بين الشجعان ، بهم حساسية عجيبة للصداقة . . .

أما الطائفة الثانية (الفليبوستيه) فهم صيادو البحار . إنهم يلقون بأنفسهم على أمواج المحيط ، يطاردون السفن الكبيرة ، وعلى الأخص الاسبانية ، التى تمر مشحونة بذهب بلاد الهند ، ويهجمون ، ويغتالون البحارة ، فتصبح السفينة لهم ؛ ومن عراك إلى عراك ، ومن نصر إلى نصر ، يجمعون الغنائم : إلى أن يرسوا فى ميناء ذات يوم حيث ينفقون مالهم فى جنون ، مثل أولئك الذين أسروا ، عند وصولهم إلى بوردو ، بعد حصولهم على غنائم هائلة ، بحملهم على مقاعد ، تحف بهم المشاعل ، فى وضح النهار .

وأولئك القراصنة بما أوتوا من شجاعة ووحشية ، يصلون إلى ذروة الفروسية . منهم من يدعى اسكندر الملقب بالذراع الحديدية لقوة ذرعه ، « الذى سجل

اسمه بين المغامرين بقدر ماسجل الاسكندر القديم اسمه بين الفاتحين » ؛ ومنهم بطرس الأكبر ، من أهل دييب ؛ وروك ، الملقب بالبرازيلي من أهل جرونج ؛ ومورجان الغالى ؛ والريان مونتوبان ، الذى جال عشرين عاما حول شواطئ إسبانيا الجديدة وقرطاجنة والمكسيك وفلوريدا ويورك الجديدة وجزر الكنار والرأس الأخضر . ورابط القرصان « لولونوا » ، من سكان بواتو ، بسفينته أمام كوبا ، على رأس واحد وعشرين رجلا ؛ واستولى على السفينة التى كلفت بمطاردته ، وعندئذ علم أن الحاكم الاسبانى قد أعد على ظهر هذه السفينة جلاداً خصيصاً لشنق القراصنة . « وعصف بلولونوا الغضب عندما سمع بكلمتى الجلاد والشنق ، وعندئذ أمر الاسبان من خلال كوة سطح السفينة بالصعود فرادى ؛ حتى إذا صعدوا أطاح رءوسهم بسيفه . ولقد أتم هذه المجزرة وحده حتى آخر إسبانى . » ولقد استولى لولونوا على مكارايبو وجبل طارق فى ولاية فنزويلا . « ولما جمع كل شئ ، وجد أنه بتعداد الحلى ، والنقود ، بحسبان الجنيه عشرة « أيكوسات » ، كان لديه مائتان وستون ألف إيكوس ، بخلاف الغنائم الأخرى التى كانت تساوى مائة ألف على الأقل ؛ غير ما سبب من تلف يفوق المليون إيكوس ، من كنائس مخربة ، وأثاثات مدمرة ، وسفن محرقة ، منها واحدة مشحونة بالطباق ، استولى عليها ، ولا تقل قيمتها عن مائة ألف جنيه » . وكانت نهاية لولونوا مشئومة : « كان من سوء حظه أن وقع فى يد الوحوش الذين يسميهم الاسبان الهنود الشجعان Indios bravos ، قطعوه إربا إربا وشووه على النار وأكلوه (١) . »

وكانت تصل من الشرق أروع الحكايات ؛ ذلك « أننا نعلم أن الشرقيين يفوقون كل الشعوب الأخرى فى ناحية الأعاجيب » . نشر أنطون جالاند من عام ١٧٠٤ إلى ١٧١١ ترجمته لألف ليلة وليلة . لما بدأت شهر زاد تحكى رواياتها الليلية ، وتبدى ، بلا كلل ، موارد خيالها التى لا تغيض ، وقد تغذى بأحلام بلاد العرب وسوريا والشرق الأدنى العريض ؛ ولما أخذت تصف أخلاق الشرقيين وعاداتهم ، ومراسيم دينهم ، وتقاليدهم البيتية ، تلك الحياة

---

(١) ا.و. أوكسميلين ، القرصان فى أمريكا ، امستردام ١٦٧٨ . ترجمة فرنسية ١٦٨٦ .
A. O. Œxmelin, *De Americansche Zee-Rovers*, Amsterdam, 1678.

الساطعة المتعددة الألوان ؛ ولما بينت كيف يمكن اجتذاب الناس وافتتانهم ، لا بالاستدلال المنطقى ، بل بنضرة الألوان وسحر الأقاصيص : حينئذ تحرقت أوروبا كلها للاستماع إليها ، حينئذ احتلت السلطانات والوزراء ، والدراويش ، والأطباء اليونانيون ، والرقيق السود — مكان الجنية « كارابوس » والجنية « أورورا » ؛ حينئذ احتلت فنون العمارة الرقيقة الهوائية ، والنافورات ، وأحواض الاستحمام التى تحرسها أسود من ذهب مصبوب ، والأبهاء الواسعة المزينة بالحرائر وأقمشة مكة — مكان القصور حيث كان « الوحش » ينتظر استيقاظ «الحسناء» للعشق(١) ؛ حينئذ خلفت بدعة ، بدعة أخرى : ولكن الأمر الذى لم يتغير هو ما يتطلبه الانسان ، الذى يريد قصصاً تلو قصص وأحلاما تلو أحلام ، إلى الأبد . . .

صور . . . إن السياح يزينون رواياتهم بالرسوم والنقوش ، معابد الصين ، والأفاعى أو قنن الجبال المستديرة أو كهنة سيام « الطالابوان » ، والنباتات العجيبة التى تنبت فى حدائق مالابار . ونقش الأب بوفيه لوحات تبين للفرنسيين ، المندهشين ، ثياب موظفى الصين ؛ وأوصى السيد دى فريول وزير البلاط الفرنسى لدى السلطان الأعظم ، على مجموعة من مائة طابع ، ليبين لسكان باريس ثياب الشرق الفاخرة . ويقدم البعض للقارئ مناظر ولوحات ،مستغلين تلك النماذج الأجنبية : همجى يقدم مشعلا لسيدته فى فراشها ؛ كشافون يدخلون هرما مصريا حيث تلقى مشاعلهم أنواراً غريبة على المدافن التى تطاول الدهر فى القدم . كثيرا ماتبدو تلك الرسوم مليئة بالفتنة ، تلك الرسوم التى ترد من القصى البعيد ، من المجهول ؛ وكأنما تعيد جدتها للفنانين الحيوية التى فقدوها من كثرة تقليدهم للنماذج القديمة . وأحيانا كان السائح نفسه ينقلب إلى رسام ، لعلمه بأنه سيكون أقوى تأثيراً على العقول ، بتمثيل الأشكال المباشر ، مما إذا التجأ إلى الكلمات والجمل : إن كورنليوس فان برون يقف أمام نماذجه ، واعيا ، جادا كأنه يقوم بواجب مقدس : إنه مبعوث الحقيقة .

ولكن هل يتعلق الأمر بالكتب فحسب ؟ إن الزوار مختلفى الألوان ،

(١) الحسناء والوحش : قصة كتبتها مدام لوبرانس دى بومو . اضطر تاجر أن يسلم إحدى بناته لوحش مخيف . لكنه أحب الفتاة التى أحبته بدورها لطيبة قلبه . وجعله هذا الحب يستعيد أصله النبيل ، كأمير ، ويتزوجان . [المترجمان]

القادمين من الجزر ، ومن بنجكوك ، ومن بكين يعمرون الأفق المألوف . وأقمشة الفلاندر المزركشة تتخذ أرجاء المعمورة الأربعة موضوعا لها ؛ والصينيون الذين مثلهم الناس فى الأوربا وفى مسارح الأسواق من قبل ، قد سجلت رسومهم الآن على السجف والجدران . والأوانى الصينية وأطليتها الزاهية ، لا تتأخر فى وصولها عن أفكار كونفوشيوس .

سبينوزا ، مالبرانش ، ليبنتز : ولكن أيضاً اسكندر ذو الذراع الحديدية وشهر زاد . النظريات الميتافيزيقية الكبرى ، المستندة على العقل ؛ ولكن أيضاً الخيال الذى يتسكع فى قصص الجن والسحر ، والعين التى تحلم فى وجل وهى تنظر إلى وحيد القرن وجاموس البحر . كل هذا الجهد العظيم لتفسير الدنيا ، فى الأعماق ؛ وعلى السطح تلك اللمعات والألاعيب .

***

أما « الطبيعة العلة » ، و « الرؤية عن طريق الله » (١) ، فان طائفة كبيرة من المرحين الأفاقين السكارى النشالين تهتم بها اهتمام السمكة بالتفاحة ؛ بل قل إن « الاتساق المقدر » (٢) الوحيد الذى يهم أولئك الأشرار هو الاتساق الذى يشعرون به بين حلقهم والنبيذ الجيد . إنهم يواصلون طريقهم دون أن يتساءلوا من أين يأتون ودون أن يعرفوا إلى أين ينتهى بهم الطريق ؛ فما جدوى ذلك ؟ المهم هو الحياة ، فكلب حى خير من فيلسوف ميت . الواقع الملموس : ذلك هو ميدانهم . وهم يجولون فيه بكل مرح ، مصفرين ، مغنين ، مفرطين فى الطعام والشراب ، منتفعين من الحمقى والبلهاء ، سعداء بالحياة ؛ لا يأبهون بالموت ولا بالآخرة .

لابد من أن طراز الصعلوك ، الفاجر ، النشال ، يتضمن فى ذاته شيئا من الحقيقة السيكولوجية ، أو قيمة رمزية ، أو آية من القوة المسلية ، مادام

---

(١) الطبيعة العلة Nature Naturente : فى فلسفة اسبينوزا يطلق هذا التعبير على الطبيعة التى تعد علة لظواهرها . الرؤية عن طريق الله Vision en Dieu : نظرية مالبرانش المشهورة وقد سبق الكلام عنها فى فصل « العقليين » القسم الثانى . [المترجمان]

(٢) الاتساق المقدر : l'Harmonie préétablie : نظرية فلسفية لليبنتز سنتكلم عنها فى فصل « ميتافيزيقا الجوهر » من القسم الرابع . [المترجمان]

لا يكف عن افتتان الأجيال وإن اتخذ صوراً مختلفة . إيه يا « بيكارو »(١) الخالد ! إن أبناء وأحفاد « جوزمان دالفاراش »(٢) و « لازاريلو دى تورمس » لازالوا يذرعون الدنيا ، كتفا إلى كتف ، مع نسل « بانورج »(٣) ابن عمهم الانجليزى . لكن جماعتهم التى لا تكل قد ازدادت بامدادات جديدة . فى لندن يترك ندوارد Nedward حانته ، وقد كان جالساً قبل ذلك مع لفيف من أخصائه ، وأمامه أوزتان مشويتان ، ورأس عجل ، وقطعة ضخمة من جبن تشستر : كل هذا قد سقى بعدد كبير من كؤوس الجعة ، كبداية ، ثم من كؤوس « البورتو » فى النهاية . وعند خروجه من الحانة ، يصادف فى طريقه لوك ، صامويل كلارك ، بويل ، أو نيوتون ، ثم يتجول خلال الشوارع والميادين ، ويلج حانات أخرى ، ومنازل وكنائس ومصارف ومتاحف ، وكل مكان يمكن للمرء أن يقابل فيه نماذج ظريفة لهذا الجنس الغريب ، الذى يدعى البشرية . حينئذ أخذ يصفهم فى لهجة قاسية ، وصور آسرة وأسلوب ممتع : يبدو كأنه لا يفرغ ، يفيض بالدعابة والسخرية ، ويجعل من كل فصل من كتابه «جاسوس لندن » *Espion de Londres* ملهاة واقعية : واقعية ومرحة ، تلك هى الآية التى كان يأتى بها ويجددها كل يوم . وكان على مقربة منه توم براون البوهيمى بين البوهيميين ، الساخر بين الساخرين ، المستعد دائما لأن يؤجر قلمه ، وأن ينفق ما كسبه بفضله ، يراقب من جهته هوس المدينة الكبيرة . وبعد ؟ هل الحياة إلا التسلية ؟ البعض يتسلى بالطموح ، والبعض يتسلى بالمنفعة ، والآخر بتلك العاطفة السخيفة ، الحب . الصغار يتسلون بالمتع الصغيرة ، والعظام يتسلون باكتساب المجد : وأنا أتسلى بالتفكير فى أن كل هذا لا شئ ، لاشئ إلا تسلية . . .

هكذا تكلم هذا العالم الأخلاقى الغريب ، الذى مات فى الواحدة والأربعين من عمره ، بعد أن ثمل وأحب ، واستدان ، وتعدى رقاده فى السجن رصيده .

---

(١) شخصية مألوفة فى القصة الاسبانية تدل على الأشقياء . [المترجم]

(٢) شخصية من رواية اسبانية فى القرن السادس عشر . [المترجم]

(٣) شخصية معروفة من رواية « بانتاجرويل » *Pantagruel* للكاتب الفرنسى رابليه Rabelais . [المترجم]

وفى تلك الأثناء كان « الشيطان الأعرج »(١) يتسلى بين باريس ومدريد بنفس الطريقة : ولكنه كان يؤثر أن يرفع سقف المنازل — بدلا من أن يلجها من الأبواب — ليكتشف أناساً يعادون الميتافيزيقا ، والبطولة ، وينغمسون فى غمار المادة ولا يعتقدون أن فى ذلك ضرراً لهم أو سوءا ، أو على الأصح لا يفكرون فى شئ : إنهم قانعون بالوجود . « صورة لما تتكلفه المخلوقات التعسة الفانية من عناية وحركة ومشقة ، لتملأ — على أفضل صورة فى مقدورها — تلك الفترة القصيرة بين حياتها وموتها . » (٢) لا أفضل ولا أكثر ؛ ولا أى سؤال فيما يتعلق بالحقائق السامية ، بل حتى فيما يبدو ، لا قلق على الاطلاق ، ولا أى حب استطلاع . الحقيقة الواقعية هنا ، هى قبح النفوس والأجساد ؛ يكفى أن تزيل قليلا قشور المظاهر لتجدها ، ولا تجد سواها . « إنى أرى فى المنزل المجاور لوحتين ممتعتين ، إحداهما لغانية عبثت الأيام بشبابها ، تخلع قبل النوم شعرها ، وحاجبيها وأسنانها وتتركها على منضدة لزينة ؛ والأخرى لشيخ متصاب فى الستين من عمره ، عائد من موعد غرام . وقد خلع عينه وشاربه الصناعى ، مع شعره المستعار الذى كان يخفى رأساً أصلع . وهو ينتظر أن يخلع له خادمه ذراعه وساقه الخشبيتين ، لكى يذهب إلى فراشه مع ما تبقى . » إذن ، هل الجمال لا وجود له ؟ ألا رجاء لنا فى أن نجده ؟ يقول زامبولو : « إذا صدقت عينى ، أرى فى هذا المنزل فتاة رائعة القوام ، تستحق التصوير — ويرد الأعرج : « حسنا ، إن هذه الفتاة الجميلة التى تفتنك هى الأخت الكبيرة لذلك الشيخ المتصابى الذى يوشك أن ينام . يمكن القول بأنها زميلة هذه الغانية العجوز التى تقيم معها . إن قوامها الذى يحظى باعجابك لآلة استنفدت كل الفن الميكانيكى . إن عنقها وفخذها اصطناعيان . . . ومع ذلك فان تصابيها أوقع عاشقين شابين فى منافسة من أجل مفاتنها ، حتى نشب بينهما عراك من أجلها . يا لجنونهما ! يخيل إلى أنى أرى كلبين يقتتلان من أجل عظمة . » إن كتاب « الشيطان الأعرج » يخلو من الأفكار ، بل يتضمن رأيا مبتسراً من خيال سقيم أو أسود . إن ليساج سيصل إلى أوج الكمال فى مؤلفه « جيل

---

(١) كتاب ألفه ليساج Lesage ، واسم هذا الشيطان أزموديه Asmodeé . [المترجمان]

(٢) آلان رينيه ليساج ، الشيطان الأعرج ، ١٧٠٧ .

بلاس » — *Gil Blas* الذى ظهر القسم الأول منه فى عام ١٧١٥ : حيث يبدو البطل أرق حاشية ، وأوفر فطنة ، وأكثر تركيبا ؛ وحيث يبدو المؤلف أكثر تعمقاً فى دراسته ، والأسلوب أكثر سلاسة وطبيعية : ومع ذلك لازلنا على مبعدة من التراجيديا الميتافيزيقية .

***

وأخيراً ، هاك نبلاء حسنى المظهر ، يقفون فى مؤخرة الصفوف ، كأنما يخجلهم التحاقهم بهذه الفرقة ، ولكن فيهم نقصا هو عدم الاهتمام بالمسألة الأخلاقية ، أو التفكير فى شأنها فى وقت متأخر ، حتى ليمكن أن نقول عنهم ماقاله صاحب الفندق فى «إميين » عن مانون ليسكو وعشيقها دى جريو : إنهما ظريفان ، ولكنهما أفاقان إلى حد ما . فأولئك النبلاء لايعيشون إلا للمغامرة ، والرحلات ، والمقامرة والعشق ؛ تستهويهم الحيلة والاختلاس اللطيف ، والجرأة ، وضربات السيف التى يسرفون فى توزيعها والتى أحيانا يتلقونها : ولكنهم لا يموتون أبداً . يعالجون جراحهم ، ويلتزمون فراشهم : وبعد ثمانية أيام يغادرون الفراش ، ويبدأون من جديد حياتهم الصاخبة الناهكة ، والتى تدير أقل رواية عنها رءوس البورجوازيين الهادئين . يمكن تسمية كل منهم بنفس اللقب الذى خلعه جاسيان دى كورتيلز على أحد أبطاله ، والذى أطلق فى الدنيا عدداً وافراً من الأشقياء Picaros المتنكرين فى ثياب النبلاء ؛ يمكن تسمية كل منهم « شفاليبه هازار » . أى حياة ! أى نسق جنونى ! « لم يعرف الشفاليبه هازار أبداً أبا ولا أما ؛ لقد وجد فى لفة على عتبة كنيسة وتربى على حساب الكنيسة ، ويترك مربيه ليجرب حظه فى جهة أخرى ؛ وتلحقه سيدة نبيلة ليتمرن فى حانوت صائغ ؛ ويهرب من معلمه لينضم إلى الجيش ؛ ويلتحق بالقوات البحرية للورد (س. ت) ؛ وتغرق السفينة التى يعمل بها ؛ وينقذ نفسه بمعجزة مع أحد البحارة ؛ ويبحر إلى بوسطون ؛ حيث يقتل صديقه فى عراك مقامرة ، ويأخذ بثأر صديقه وإن كان هذا يضر بحبه لعشيقته ؛ ويتهم بأنه حمّل فتاة سفاحا ، ويوشك على الرواج بفتاة أخرى ؛ ويهاجمه البعض فى الطريق ويصاب بطلق نارى ، ويصبح جرحه خطيراً ؛ وفى تلك الأثناء تقام العراقيل فى طريق زواجه ؛ تريد الفتاة

الحامل أن تتزوجه ، وترفع عليه دعوى ؛ ويريد شقيقها أن يغتاله ، ويهاجم مرة أخرى ؛ ويصاب بأربعة جراح ؛ وبعد شفائه ، تصاب عشيقته بالجدرى ثم تموت . . . (١) » . إذا كان هذا الرجل المضطرب المسكين ، مشغولا إلى هذا الحد ، وعلى هذا المنوال ، فكيف يجد وقتا للتفكير ؟

وأكثر أولئك المغامرين المشاهير جاذبية ، ليس المركيز دى مونبران ، ولا الشفالييه دى روهان ، الأمير العاثر الحظ ، ولا حتى دارتانيان الذى قدر له مستقبل بمثل هذا الجمال ، بعد ما نام مائة وخمسين عاما ؛ بل هو الكونت دى جرامون الذى وجد أنطونى هاملتون متعة فى نشر حياته (٢) . من ذا الذى لا يعرف هذه الصورة الساطعة ، التى أهداها إنجليزى إلى الأدب الفرنسى ؟ من ذا الذى لم يتابع الكونت دى جرامون فى سنوات تمرينه ، وفى حملاته فى بيمونت ، وفى إقامته فى البلاط الانجليزى الذى أصبح قدوة سيئة فيه ؟ من ذا الذى لم يبتسم لتلك الذكريات الظريفة ، لصورة زميله ماتا ، لصورة الآنسة دى سان جرمان ، أو المركيزة دى سينانت ؟ من ذا الذى لم يعجب بما فى القصة من حرية ، وبهجة ، ودسامة ، وقوة ، ودعابة ؟ فلندع هاملتون نفسه يقول لنا كيف اهتم بالشخصيات لا بالأخلاق ؛ بالنواحى البارزة لا بالخير والشر ؛ بالحياة لا بالتفلسف : — « إن الموضوع هو وصف رجل تغطى شخصيته التى لا نظير لها على نقائص لا نزعم إخفاءها ؛ رجل يشتهر بمزاج من الرذائل والفضائل التى يبدو أنها تندعم فى تسلسل لازم ، فريدة فى توافقها التام ، ساطعة فى تعارضها . إن هذا الجانب البارز الذى لا يفهم ، هو الذى جعل الكونت دى جرامون — فى الحرب ، والغرام ، والمغامرة ، وفى مختلف ظروف حياة طويلة — موضع إعجاب عصره ... » . النشاط الحيوى : ذلك فى الحق ، مامثله جرامون فى شخصه ، وما ترجم هاملتون عنه .

إنه لمن السذاجة أن نتعجب أمام ذلك المشهد البهيج من هرج الناس ومرجهم ، الذى ينعكس فى الأدب . لكننا كنا قد نسيناه ، إذ لم نتطلع إلا إلى حالق .

---

(١) مذكرات الشيفالييه هازار ، مترجمة عن النسخة الانجليزية الأصلية ، فى كولونيا ، عند بيير لوسانسير ، ١٧٠٣ .

(٢) مذكرات حياة الكونت دى جرامون ، تتضمن على الأخص التاريخ الغرامى للبلاط الانجليزى فى عهد شارل الثانى ، كولونيا ، بيير مارتو ، ١٧١٣ .

الفصل الثالث

الضحك والدموع وانتصار الأوبرا

Je chante les combats, et ce prélat terrible
Qui, par ses longs travaux et sa force invincible,
Dans une illustre église exerçant son grand cœur,
Fit placer à la fin un lutrin dans le chœur ... (١)

اختيار موضوع تافه ونظمه على طريقة الملحمة ، بدلا من ترجمة «أنابيد» فرجيل Énéide في أسلوب هزلي ؛ وصف النزاع والكفاح بين أمين صندوق كنيسة وخصمه المرتل ؛ إضفاء مظهر هزلي على المحسنات الضرورية في القصائد الكبرى ، من وصف ، وعراك ، وقتال ، وتنبؤ ، وأحلام : هل هذا حقا يثير الضحك؟

ومع ذلك ، فكثيراً ما أضحكنا شعر « المقرأ » Le Lutrin عندما كنا في المدرسة ، ولم يكن لنا غذاء آخر ؛ ولقد أضحك أوروبا قبل زمننا بمائتي عام ، ولم تكن قد ملت بعد ، أوربا الكلاسيكية ، أوربا الأفاضل . صفوة أوربا كلها ، مادام ليس هناك بلد لم يلق فيه الاعجاب هذا المؤلف الممتع للسيد بوالو — الهجاء الكبير — ، ولم يترجم ولم يقلد ؛ ومادام واحد من خيرة أطباء لندن — صامويل جارث — لم يجد المجد الشعرى إلا فى إعادة الموضوع نفسه ، أى بتحويل « المقرأ » إلى « الصيدلية » ، باستبدال الأطباء بالرهبان ، والصيادلة بالمرتلين ، وما يتبعهم من محاقن ومدقات وهاونات :

---

(١) أترنم بالمعارك ، وبهذا القسيس الغريب — الذى كان يرتل بقلبه فى كنيسة مشهورة — والذى نجح بعد جهد كبير وبقوته التى لا تغلب — فى وضع المقرأ بين جوقة المرتلين . . .

(شعر هزلى كتبه بوالو يصف فيه نزاعا بين أمين صندوق ومرتل فى كنيسة واسم هذه القصيدة الهزلية «المقرأ» *Lutrin* . [المترجمان]

Muse, raconte-moi les débats salutaires
Des médecins de Londres et des apothicaires
Contre le genre humain si longtemps réunis:
Quel Dieu, pour nous sauver, les rendit ennemis?
Comment laissèrent-ils respirer leurs malades,
Pour frapper à grands coups sur leurs chers camarades?
Comment changèrent-ils leur coiffure en armet,
La seringue en canon, la pilule en boulet?
Ils connurent la gloire: acharnés l'un sur l'autre,
Ils prodiguaient leur vie et nous laissaient la nôtre... (١)

وبالمثل : اتخاذ بعض أشعار ملتون كعنوان ، وجعلها تنتهى إلى سقطة مضحكة :

Sing, Heavenly Muse,
Things unattempted yet in Prose or Rhyme,
A shilling... (٢)

أما وقد أضفينا هذه النغمة ، وتغنينا فى أشعار هائلة بسعادة رجل يملك شلنا ، شلنا جميلا ، جديدا ، لامعا ؛ رجل لم يعد بعدئذ يخشى الفقر الشاحب الوجه ، ويستطيع أن يلج حانة حيث يطلب جعة راغية ، ومحاراً طازجا ؛ ولا يسمح أبداً للحزن أن يبدى وجهه تماما ، بل يطرده ببعض الحيلة الفكهة ، بمجرد ما ينوى أن يستقر — هل فى هذا شئ يضحك ؟ أجل ، مادامت صحيفة « تتلر » قد أعلنت أن أجمل شعر هزلى نظم باللغة الانجليزية هو « الشلن الرائع » *The Splendid Shilling* لجون فيليبس .

(١) ياعروس الشعر ، احكىلى عن هذا الجدال الناجح — بين أطباءلندن والصيادلة — المتحدين ضد الجنس البشرى منذ زمن طويل : — أى قدرة إلهية أوقعتهم فى عداء لانقاذنا ؟ — كيف تركوا مرضاهم يتنفسون — ليوجهوا إلى أصدقائهم الأعزاء أعنف الضربات ؟ — كيف حولوا القلنسوة إلى خوذة — والحقن إلى مدفع ، والحبة إلى قنبلة ؟ — لقد عرفوا المجد : فضحوا بحياتهم ، وقد تحمسوا فى تقاتلهم — وتركوا لنا حياتنا . . .

فولتير ، تعليقا على « صيدلية » صاموئيل جارث ، ١٦٩٩ . فى القاموس الفلسفى باب بوفون Bouffon .

(٢) غنى ، أيتها العروس السماوية — أشياء لم يسبق لها مثيل فى نثر أو شعر — شلن واحد . . . (ج. فيلبس ، الشلن الرائع ، ١٧٠١ و ١٧٠٥) .

وبالمثل أيضاً يجلس بوب إلى مكتبه ، ويتفنن فى نظم « خصلة الشعر المغتصبة »(١) . وإنه لفخور بالجديد الذى وجده ، مثلما كان بوالو فخوراً بانتاجه مؤلفا ليس له مثيل فى الفرنسية . فى كل أشعار البطولة الهزلية ، لابد من عدة ؛ وهذا تعبير اخترعه المهرة ، دلالة على الآلهة التى توجه الحركة ، وعلى هذه العدة تتوقف الأعجوبة . وعلى ذلك ، خطر بباله أن يستعمل بدلا من الملائكة والشياطين التى كلت من طول الخدمة ، جنيات الهواء Sylphides وأقزام البحر الخارقة للعادة gnomes وعرائس الشتاء : شخصيات مقترضة من عالم السحر ، ذلك أن المسألة ليست عدم الاقتراض ، بل الغرض هو التوصل إلى مقرضين جدد . ثم يخترع مورداً جديداً ؛ فلو أنه وصف موضوعات لا يسهل إدخالها فى نطاق الشعر ، مثل مباراة فى لعب الورق ، فأى فضل ! إن الصعوبة المذللة هى الفن العظيم — نبيل عاشق يقص خصلة شقراء من حسناء ، فتغضب أشد الغضب ، ويتبع ذلك هياج شديد فى عالم الانس والجن. عقدة خفيفة لقصيدة قديمة ؛ بعض أزهار دقيقة مطرزة بتفنن ؛ وبعض الفطنة ، وبعض البريق الأخاذ : هل فى هذا ضحك ؟

وكان الضحك الايطالى أعلى رنينا على كل حال . كانت عروس الشعر فى الريف التوسكانى ، تستشعر حرية أوفر ، وخفة أكثر ، وتنطلق على سجيتها دون كبير تكلف :

Non è figlia del Sol la Musa mia,
Nè ha cetra d'oro o d'ebano contesta
È rozza villanella, e si trastulla
Cantando in aria... (٢)

والحق أنها كانت تريد هى الأخرى ، جعل قصص البطولة مهازل : لكن دون تكلف ، alla buona ؛ وإن اختلط الأمر عليها ، كالنمل الذى يصادف فى طريقه جصا أو دقيقا ، فانه لا يجد فى ذلك إلا لهواً :

---

(١) . *The rape of the Lock*, 1712 .

(٢) عروسى أنا ، ليست ابنة للشمس — ليس لها قيثار من ذهب ، أو مطعم بالآبنوس — إنها ريفية خشنة ، تتسلى — بالغناء فى الهواء . . .

Ma canta per istar allegramente,
E accio' che si rallegri ancor chi l'ode;
Nè sa, nè bada a regole niente... (١)

وهى إذن لم تكن تتردد . لم يعد هناك حب سماوى ، ولا شرف سام ، ولا روح فروسية ؛ لقد تحول الفرسان البواسل إلى غلاظ ثقلاء ، أفاقين ، سكارى :

E Rinaldo ed Orlando in compagnia
S'ubbriacano ben bene all'osteria... (٢)

كانت هذه العروس المجنونة ، والغليظة أحيانا ، تعامل كل العناصر القديمة بلا احترام ، من مثل السحر ، والافتتان ، وركوب الخيل ، والمطاردة ، والكمين ، والقتال الغريب ، والخان المسحور ، والسجن ، والقتل الشاعرى ؛ وتنتقل من حكاية إلى حكاية ، ومن صورة هزلية إلى أخرى ، دون أن تفكر فى السير المستقيم ، والاتجاه صوب هدف معين أيا كان ، بل لم يكن يشغلها إلا تبيان كم يسهل علينا أن نضحك وأن نضحك ، على ذقون الحمقى والمدعين .

لقد أبعد ممثلو « الكوميديا الفنية » Commedia dell'arte الايطاليون من باريس ، عام ١٦٩٧ ؛ وقد كانوا فى غاية الجرأة ، والجاذبية ، والمرح ؛ فأغلق مسرحهم . ولكن رينيار بقى ، رينيار المحبوب ؛ ولم يكن الحزن من طبع بورجوازيى باريس . وكان يكتفى بأبسط العقد ، من استبدال الشخصيات ، والتعرف ، والمفاجآت المتوقعة ؛ وبأكثر الشخصيات استعمالا فى قائمة المسرح ، من مثل المرابين الذين يخنقون أولاد الذوات ، والأرامل الثريات اللاتى يستغلهن الشبان ، والأمهات المتحكمات ، والفتيات العاشقات ، والشبان الطائشين ؛ وكم من خدم ووصيفات ، لاتمام التمثيل ! وسواء كان بمعجزة ، أو لعله بسبب إكثاره ، أو براعته ، أو حميته التى لا تغيض ، أو خبرته بالمواقف والكلمات ، أو مرح طبعه الذى لا يقاوم ، — فقد كان يستمد من هذه المواد القديمة رواية مضحكة تبدو دائما جديدة . هل هناك أسهل من مسرحيته « الرجل التائه » *Distrait* ؟ ليناندر هذا ، الذى يفقد حذاءه فى الطريق

---

(١) إنها لاتغنى إلا لتسعد — ولتسعد أيضا من يصغى إليها — إنها لا تعرف القواعد ، ولا تعيرها أدنى اهتمام .

(٢) ورينو ورولاند معا — يسكران فى الحانة ما استطاعا .

ويتبع طريق بيكاردى على أنه طريق روان ، والذى يضع إصبعه فى بيضة نمبرشت (ألاكوك) ويعضه حتى يتفجر منه الدم ، والذى يخطئ فى حجرته، ويلقى بساعته على الأرض ، والذى يعلن هيامه بالحسناء التى لا يحبها ، وكراهيته للحسناء التى يحبها ، والذى — بعد عشرين حادثا على هذا المنوال — ينسى ليلة زفافه أنه قد تزوج: أهناك شئ معروف أكثر من ذلك ؟ أو مستغل أكثر من ذلك ، أو فى معنى آخر مصطلح عليه أو معتاد ؟ إنها لا تعدو شخصية من شخصيات لابروبير أطيلت على خمسة فصول . ومع ذلك ، تجوز عليك الخدعة ، وتضحك على كل عثرة ، كالأطفال.

هذا المنظر أو حتى تلك المسرحية يمكن أن تكون محزنة ، لكن ليس الحزن العميق الذى نجده عند موليير ، مادام رينيار لا يتعمق أبداً النفسيات . ولكنه لا يجهل ما فى الناس من نقائص ورذائل ؛ لكنه يعرف تماما ما للنقود من قوة وتأثير على مجتمع يوشك على الانحلال ، لكنه لا يتردد فى تصوير كهول محطمين ، محمومين ، مصروعين ، مشلولين ، مسلولين ، مبهورين ، مستنسقين ، لم تبق فى فمهم إلا سن واحدة ، سوف تقع عند أول نوبة من السعال — يشتهون فتيات فى ريعان الشباب . فملهاة « الموصى العمومى » ، *Le Légataire Universel* تسودها رائحة المآتم . . . وأى بأس ؟ إننا لا نحس الحزن بل المرح . إن الشخصيات لا تظهر على المسرح إلا لتسلينا لحظة ، ولتلمع لمعة عابرة . إنها سريعة ، خفيفة ، تتراقص ، وتتواثب : لأنها قررت أن تعتقد — مرة و إلى الأبد — أن علاج الشرور كلها ، حتى فى حالة الموت ، حبة من الجنون . وحين تنتهى المسرحية ، وقد أصبح الغيورون والبخلاء موضع استهزاء ، وحين ينتهى أمر الخدم والوصيفات les Crispin et les Lisette (١) بالعفو والتبرئة ، ويتزوج العشاق ، وحين يحيى المثلون الجمهور ويسدل الستار ، حينئذ لا يحتفظ الشاهد المسرور إلا بذكرى واحدة :

Il faut bien que je rie
De tout ce que je vois tous les jours dans la vie (٢)

---

(١) كرسبان : شخصية فى ملهاة أصلها إيطالى أصبح مثالا للخادم الظريف الخالع العذار — وليزيت : اللقب الشائع للوصيفات فى الملهاة ، حيثما كرة لعوب. [المترجمان]

(٢) لابد من أن أضحك من كل ما أشاهد كل يوم فى الحياة . . .
(الرجل التائه ، الفصل الأول ، المنظر السادس)

دموع ! بطل مدرع يجرؤ على ذرف الدموع ، على المسرح ! إن الآخر يعصف به الغضب أكثر مما يتملكه الثأر :

MANLIUS.
Des larmes! Ah! plutôt, par tes vaillantes mains,
Soient noyés dans leur sang ces perfides Romains.
Des larmes! Jusque-là la douleur te possède! (١)

إن المشاهدين يتعجبون ، سائلين : بأى سر لا يخالجنا الخجل من الضحك على المسرح بتلك الحرية ، بينما نخجل من البكاء (٢)؟

هاك غرفة بيير بايل ؛ إنه يكتب إلى أخيه يعقوب ؛ لقد ماتت أمهما من قريب . إنه يقبل البكاء فى مثل هذه الحالة من الحزن .

— « إنى أوافق على غزارة دموعك ، ولا يزعجنى أن تشجعنى على أن أذرف منها بفيض . لا ينبغى أن نلقى أذنا صاغية للرواقيين . . . إن الحساسية التى نظهرها أمام ضربات القدر القاسية ، لا تعدم لها أثراً ؛ لذلك ينبغى أن نأسل فى رقة القلب أكثر مما نأسل فى خشونة الطبع . إن الله سيبارك دموعنا وأنيننا . . . »

ثم يتردد بايل قليلا ، ويتراجع . لنا الحق فى البكاء ، لكن ليس لنا الحق فى البكاء على الدوام :

— « ولو أنى قلت لك ذلك ، إلا أنى لا أمتدح الخلق الذى تحدثنى عنه ، عندما تقول بالحرف إن لك طبعا لينا ، وإنك لا تستطيع أن ترى أقل شئ أو تفكر فيه إلا وتبكى فى غزارة عجيبة . إن هذا الضعف لا يليق برجل ، ضعف نكاد نجيزه للنساء . فى كل ظروف الحياة وتقلباتها ، يجب أن يحتفظ كل ما يخص الرجل بصفة من الرجولة . . . »

---

(١) مانليوس : دموع ! آه ! ... أفضل أن أرى أولئك الرومان الخوان — غارقين فى الدماء بيديك الباسلتين — دموع ! أإلى هذا الحد تملكك العذاب ؟
(مانليوس كابتوليوس ، مأساة « لافوس دوبنى » التى مثلها لأول مرة ممثلو الملك يوم السبت ١٨ يناير ١٦٩٨) .

(٢) لابروير ، الشخصيات ، « عن نتاج الفكر . »

مصاحبة جديدة فى نغمة خافتة ، تخالف الأنغام العالية . لم يكن تولاند ولا كولنز من الضاحكين ؛ ولم تكن لتنال من فونتنل إلا بسمة ، خفيفة ، ساخرة ؛ وكان جان لى كلير جاداً ؛ وجوريو محزونا مكروبا . وكان بوسويه فى شيخوخته صارماً ، ويل للضاحكين فلسوف يبكون ؛ وكان فينلون يرى فى الضحك شيئا غير لائق ؛ ولم يعد لويس الرابع عشر يضحك ، فى خريفه ، فى شتائه . ولكن أولئك لم يكونوا يمثلون الجنس البشرى بأسره .

***

فلنكشف الآن كما كان الشيطان الأعرج يفعل ، عن مساكن جديدة . فلندع المازحين ، السكارى ، والأشقياء picaros والمتشردين rogues والنشالين ، أولئك الرفاق الخالي البال ؛ ولندع الضاحكين ؛ ولنلتفت إلى النفوس الحساسة ، التى تعجز عن العيش بلا انفعال ، بلا حزن ، بلا يأس ؛ ولنتجه صوب الذين يعتقدون أن العقل غير إنسانى .

ليس الموضوع أن نعرف ما إذا كان النـاس لم يكفوا أبداً عن البكاء فى هذه الدنيا ، بل هو تحديد الزمن الذى بدأنا نعتقد فيه أننا نستطيع أن نكشف عن دموعنا بلا خجل .

هاك منظراً فى مسرح ؛ بطل بخوذته ، وريشه ، وفخامته ، يشكو لبطل آخر ، رومانى مثله ، حالة قلبه الضعيف :

SERVILIUS.

Mais quand je songe, hélas ! que l'état où je suis
Va bientôt exposer aux plus mortels ennuis
Une jeune beauté, dont la foi, la constance,
Ne peut trop exiger de ma reconnaissance,
Je perds à cet objet toute ma fermeté.
Eh ! pardonne, de grâce, à cette lâcheté,
Qui, me faisant prévoir tant d'affreuses alarmes,
Dans ton sein généreux me fait verser des larmes. (١)

---

(١) سرفليوس : واآسفاه ! عندما أفكر أن حالتى — سوف تجلب أسوأ الشرور — على فتاة جميلة جعلنى إخلاصها ووفاؤها — مدينا لها بشكر ليس له حدود — إنى أفقد لذلك كل جأشى وصمودى فاغفرلى بربك ، هذا الهوان الذى يجعلنى أسكب أدمعى فى قلبك الكريم — لما أستشف فيه من مخاطر مرعبة . . .

ولكن ترى ألا يكون قد جرح أخاه؟ إنه يتراجع مرة أخرى : آه ! إذا أراد أخوه أن يبكى ، فليبك كيفما شاء !

— « بيد أنى وإن كنت أقدر محبة ألمك البالغ ، إلا أنى لا أوافق على هذا الحنان الكبير الشامل الذى تشعر به : وهكذا مع إدانتى لطبع شفيق إلى هذا الحد ، فانى لا أؤاخذك على هذا الفيض من الدموع التى ذرفتها وسوف تذرفها . يمكننا أن نستسلم إلى تلك المغالاة ، دون أن نفقد قوة الذهن التى يجب أن يمتاز بها جنسنا ، ومادام أكبر الأبطال ، وأكبر القديسين ، قد عرفوا البكاء ، فلا ينبغى أن تعد الدموع ضعفا نسويا . . .(١) »

ضعف نسوى . . . هاهو ذا المنزل البورجوازى الثرى حيث تكتب امرأة ضعيفة رسائل حب وهى تبكى وتنتحب . لقد أحبت فى مقتبل عمرها البارون دى بروتيل الذى خالته أجمل رجل فى الدنيا ، ولما تملكها اليأس لعلمها أنه ليس حراً ، عزمت ذات يوم على الفرار من بيت أبيها ، واتجهت صوب الدير ؛ ولكن أباها لحق بها فى الطريق ، وزوجها رغم أنفها ليعيد إليها صوابها ؛ وأصبحت الآنسة آن دى بلينزانى ، الرئيسة فيراند . وحدث أن رأت الرئيسة البارون مرة أخرى ، وأحبته أشد الحب ، أحبته بجنون . ومن هنا ، تلك الرسائل ، التى تعد من أجمل الرسائل التى دبجها قلم عاشقة ، وكلها مليئـة بالاضطراب : سعادة حب يجهله العالم ؛ متعة تزداد قيمة كلما بقيت سراً ؛ حزن منشؤه أن هذا الحب لا يستطيع أن يتفتح ، حراً ، مجيداً ؛ غضب من أجل العراقيل التى تتجمع شيئا فشيئا ؛ نغمات حانية شبه أمّية ، وصيحات عاطفية ، وتقزز للتفكير فى أنها ستعود — بعد مغادرة عشيقها — إلى زوج ينفر منـه جسدها ؛ بصيرة الشعور ، « نعم يا عزيزى ، أنت تحبنى ، وأنا أعبدك ... » ؛ فقدان التقدير الذى لا يكفى لمحو الحب : « لقد فقدت عطف أسرتى ، وأحلت عشى إلى جحيم من أجل عشيق لا يستحق إلا حقدى . ولكن يا إلهى ! هنا ذروة تعاستى ، لا أستطيع أن أكرهه ، إنى أحتقره ، إنى أشمئز منه ، ولكنى

---

(١) مالم ينشر من رسائل بايل ، ج. ل. چيريج . وفان روز برويك ، عـدد يوليو - سبتمبر ١٩٣٢ من « رومانيك - ريفيو » .

أشعر بأنى لست أكرهه . . . » إن هذه المرأة المفطورة على العشق ، فيها بعض الصفات التى ستفخر بها البطلات الرومانتيكيات بعد ذلك الوقت بمائة وأربعين عاما . فهى تقدر أن السعادة سلوة ، أما الحزن فيجعلنا أكثر إحساسا للحب : إنها أتعس امرأة أحبت ؛ لقد وسمها القدر : نظر إليها الحب ، منذ المهد ، كضحية لعذابه . إنها تذرف سيلا من الدموع (١). — منذ ذلك الوقت (٢) !

وكان المجتمع ينحل ، وهذا صحيح ؛ وكانت عدوى الترف تستشرى ، والترف يقتضى النقود ، بكثرة ، وبسرعة : عندئذ أخذ الناس يبحثون عنها فى المضاربة ، وأوراق النصيب ، وشركات الايراد ، ولعب الورق . إن مسرحية ***Turcaret*** ظهرت فى ١٧٠٩ ؛ ويعتقد توركاريه ذلك الخادم الذى أصبح ملتزما غنياً ، أن كل شئ يشترى بالجنيه ، السلوك المهذب ، والفن ، وقلوب النساء . ولا ريب فى أن لوساج يبديه لنا وقد انتهى إلى الافلاس وأصبح موضع سخرية واستهزاء : إلا أن النقود وإن لم تقدر على كل شئ فهى تفسد كل شئ ؛ وهاك المغزى الخلقى للمسرحية الذى يستخلصه الخادم فرونتان، فى حديثه مع الوصيفة ليزيت : « إنى معجب بسير الحياة البشرية ؛ إننا ننتف ريش غانية ، والغانية تأكل رجل أعمال ، ورجل الأعمال ينهب غيره ، وهكذا ننتهى إلى أظرف سلسلة من الخداع فى الدنيا . » وفى مسرحيات « دانكورت » ، مرآة ذلك الوقت ، الجميلة الأضلاع ، نجد أكثر الناس اصطناعا للسذاجة ، وأوفرهم فساداً ، وأكثرهم ولعا بالألقاب والمال ، هن النساء

وصحيح أيضاً أن الناس دفعوا بالنساء نحو الفلسفة ونحو العلم : لورد

---

(١) قصة حديثة لحب بليز وكليانت ، ١٦٨٩ - رسالات الرئيسة فيراند ***La Présidente Ferrand*** إلى البارون دى بروتيل de Breteuil طبع أوجين آس ، ١٨٨٠ .

(٢) يتعجب المؤلف لهذه المشاعر الرومانتيكية ، التى تظهر قبل الأوان . والرومانتيكية مذهب ظهر فى مبادئ القرن التاسع عشر ، وهو التحرر من قيود العصر الكلاسيكى . وأول مبشر بها جان جاك روسو ، ومن موحيها شاتو برياند Chateaubriand ومدام دى ستال . وتمتاز الرومانتيكية على الأخص بالفردية وتفوق الحساسية والخيال على العقل . ومن أعلامها لامارتين Lamartine ، والفريد دى فينى De Vigny ، وفكتور هوجو ، والفريد دى موسيه Musset وجورج صاند وبلزاك . [المترجم]

هاليفاكس حينا ، وفونتنل حينا آخر . وطالب البعض بتحرير النساء تحريراً تاما ؛ لأن الرجال أساءوا استعمال سلطتهم — عندما وضعوا القوانين —لاستبقائهن تحت حكمهم ؛ وعهدوا إليهن بأشغال تافهة ، ورسخ الشر بفضل العادة ، واستفحل بفضل التربية : ولقد حان الوقت لكى نغير هذه الحال . يجب أن تصبح النساء على قدم المساواة مع الرجال ، فبذلك يقضى المنطق والعقل : يجب أن يتلقين نفس التعليم ، وأن يشغلن نفس الوظائف ، فى القضاء ، والمعارف ، وحتى فى قيادة الجيش ، وحتى الكنيسة . أما بوالو ، الذى لم ينس « النساء العالمات » ، فليس من هذا الرأى ؛ فتراه يتذمر ، ويسخر من الداعرات والغانيات ، والمقامرات ، والعالمات ، والمتكلفات ، والهوائيات ؛ ويذكّر فى لهجة ساخرة بمفاتن الزواج : ولكن ترى بيرو Perrault يسارع إلى الذود عن شرف الجنس اللطيف . ويعلن أن بوالو رجعى الأفكار ؛ فانه يهجو النساء لأنه اقتبس هذا الموضوع من هوراس وجوفينال Juvénal ،-وأنه يظن نفسه ملزما بترديد كل ماقاله الأقدمون . بيد أن « المحدثين » ، وقد يفوقونهم سداد رأى ، يعلمون أن أخلاق اليوم تفترق كثيراً عن أخلاق الأمس : لله در النساء ! إن فيلسوفا إيطاليا ، باولو ماتيادوريا يردد ذلك ، مبيناً « أن المرأة ، فى كل الفضائل الكبرى تقريباً ، لا تقل عن الرجل فى شئ . »

كل هذا صحيح . يقرر المشاهدون أن الفتيات يتحررن ، وأنهن ينسين العادات القديمة الطيبة ، وأن سلوكهن فاضح ؛ وأن النساء سفيهات ، شرهات ، متغرضات . ولكن إذا وقع حب كبير ، بما يتبعه من عقبات ، نرى العاطفة تسترد حقوقها فوراً ، وتنفجر ، وتترجم إلى صيحات مؤلمة ، وزفرات موجعة : إن فى ذلك نداءً لعصر قريب ، سوف يريد أن يكون بأكمله ، عاطفة .

***

بأى براعة تتبدى الحساسية — كأنما من وراء حجاب — تلك الحساسية التى يريد البعض استئصال شأفتها من الدنيا ! صدرت عن انجلترا أيضاً إشارة ، وكان مصدرها ممثل ، كولى سيبر : لقد استشف هذا الميل الخفى لزمنه . كفى مسرحيات ماجنة ! كفى نبلاء فاسقين يزهون على

المسرح زهو الطاووس ! كان جيريمى كوليير محقاً ، لقد حان الوقت لكى نرد المسرحيات الانجليزية إلى اللياقة والأخلاق . واتخذت الأخلاق الشعور كرفيق .

فلنفترض زوجا شريراً ، قد هجر زوجته بقسوة ، بحثا عن المغامرة ، وأضاع ماله كله فى النبيذ العتيق والنساء الفتيّات — كما يقول ؛ ثم عاد إلى انجلترا مفلساً ، لكن محتفظاً بسفاهته . ودون أن نرهق خيالنا ، فلنسمّه لوفليس Loveless ولنفترض من جهة أخرى مثال الزوجات أماندا *Amanda* . إنها لم تنقطع عن حب زوجها الشرير ، وتريد أن تستعيده . ترى هل يحسن الالتجاء إلى سواعظ الأخلاق مباشرة ؟ كلا ، قطعا ؛ وإلا هرب من جديد . فمن الأفضل أن تلجأ إلى الشعور ، إلى الندم ؛ إلى بقية من عاطفة ، تستيقظ رويداً رويداً ؛ بل إلى المتعة . وأخيراً ، سيعترف لوفليس بأخطائه ، وسيتكلم مستغفراً : « آه . . . إنك انتشلتنى من خمود الرذيلة العميق . . . دعينى أركع أمامك ، وأشكر تلك التى أخضعتنى بفضيلتها الظافرة . هنا أود أن يكون مقامى ، راكعاً هكذا ، لشدة خجلى ؛ أريد أن أتطهر من جرائمى فى سيل من دموع التوبة . » لقد مر بمدرسة الشعور .

لقد مثلت مسرحية كولى سيبر هذه ، « حيلة الحب الأخيرة » *Love's Last Shift* على المسرح الملكى بلندن فى عام ١٦٩٦ ، ولقيت نجاحا عظيما . ومنذئذ تتابعت كوميديات ذات لونين ، مرحة ، جادة ، بورجوازية ، أخلاقية، تشوبها رائحة الخلاعة القديمة : ذلك أنك كنت ترى فيها أكثر من شخصية مقتبسة من القائمة القديمة ، وبالتالى ، لم تكف عن عادة الشرب ، أو مغازلة الفتيات ، أو التحدث فى لهجة غير صقيلة ، دون مراعاة للآذان العفيفة . كوميديات حديثة ، بما فيها من بعض المناظر الحية ، الصافية ؛ وقد تستعمل دون وازع ، أقدم الأساليب ، نعنى التنكر ، والتمسخر ، والخطأ فى عنوان الرسائل ، والغلط فى الشخصيات : ونرى كولى سيبر يقدم مثلا ، بافتراضه أن لوفليس لا يتعرف زوجته أماندا ؛ ويفسر ذلك بأن سيماء أماندا قد تغير قليلا بفعل الجدرى . كوميديات تبدو لجة ، ثقيلة فى خواتم الفصول وأحيانا فى خواتم المناظر ، لما فيها من بعض الأشعار الصغيرة الأخلاقية ، التى يصعب أن نعدها طبيعية أو جميلة . ولكنها تفصح جميعها عن حالة ضمير واحدة ،

وتقدم جميعــا ناحية سيكولوجية واحدة،من أجلها نغضى عن الكثير : فان إصلاحا أخلاقياً لا يمكن أن يتحقق بفعل خارجى ، بالقوة ، والسلطة ، بل لابد من ارتضاء النفس . إذن ينبغى — قبل أن نتوسل بالارادة المجددة ، أن تتأثر النفس ، وأن تنفعل أولا ، ثم تعالج ، بالشعور . فالزوج الذى يستشف اضطراب زوجته ، لن يحصل منها على شئ ، مالم يحرك فى قلبها شعور الأسف والندم . وفى سبيل ذلك ، يتخيل رواية كاملة ، فيلجأ إلى عشيق كاذب ، يستأجره ليدفع بهــا إلى حافة الخطيئة : وحين تصبح شبـه مذنبـة ، تحس فظاعة الكذب ، والخيانة ، فترجع إلى أحضـان الفضيلة لاشمئزازها من الرذيلة .

وسنصبح أكثر حنانا . إن خدما مسنين ، مخلصين إخلاص الكلاب الأمينة ، شاكرين لأسيادهم ما طوقوا به أعناقهم من أفضال ، سيكشفـون فى الأوقات الحرجة عن إخلاص يستحق الاعجاب . وسنترك بعض النسـاء اللواتى يستعصى إصلاحهن لنصيبهن التعس ؛ ولكن سوادهن سيكن رقيقات ، وديعات ؛ وإذا تشتت منهن القلب ، فسنعرف كيف نعيدهن إلى الطريق المستقيم . وعند الرجال ، لن يعدم الثبات فى حب مخلص جزاءه ، بعد الامتحان. وسنعجب بالوالد الذى يعنى بألا يصيب ابنه أى ألم ، وبالابن الذى لا يقل عنه رقة وعطفا : أحسن الآباء وأحدبهم وأحسن الأبناء وأحناهم : شخصيتان مرهفتا الحس — « كالست المستحية » — تنكمشان بمجرد اللمس . وسنرى فى نفس المسرحية عذراء ساذجة ، نقية وفاتنة ، تأبى الاعتقاد فى وجود الشر ، مهما قيل لها . وأقل الشخصيات ظرفا ، ستبدو على الأكثر ، فى شئ من خشونة الطبع أو قليل من الغيرة . ولكن ستسكن الغيرة وتستحيل الخشونة إلى رقة ، ويزول سوء التفاهم ، ثم يتعانق الجميع ، بين الدموع .تلك حال « العـاشقين المتحفظين » *The conscious lovers* لستيـل Steele اللذين يسجلان فى عام ١٧٢٢ انتصار هذا الطراز.

إنشطراً من الأدب يريد أنيصبح « خدمة كريمة فىسبيل الانسانية (١) ».

---

(١) ر. ستيل ، ملهاة ، الزوج الوفى ، ١٧٠٥ . R. Steele, *the tender husband*, 1705
إلى مستر أديسون ، « الشعر ... خدمة كريمة فى سبيل الانسانية . »

***

الأوبرا — أى إهانة موجهة إلى العقل ! تملق العيون والآذان ، استفزاز العقل : إن فى ذلك لتحرشا . غناء كل شئ من البداية إلى النهاية ، لا فى إعلان العشق فحسب ، بل فى الخطب والرسائل ، والأوامر ، والشتائم ، والمسارة ، والأسرار : فأى سخف ! « هل نستطيع أن نتخيل أن سيداً ينادى خادمه ، أو يكلفه بمهمة ، وهو يغنى؟ أو أن صديقاً يسر فى أذن صديقه وهو يغنى ؟ أو تدور المناقشة فى مجلس بالغناء ؟ أو نغنى الأوامر التى نصدرها ؟ أو يدور القتل فى مذبحة بالسيف والرمح على أنغام الموسيقا . . . ؟ » — « إذا أردت أن تعرف ماهى الأوبرا ، فاعلم أنها عمل غريب من الشعر والموسيقا ، حيث الشاعر والموسيقار ، وقد ضاق كلاهما بالآخر ، يبذلان كل جهدهما فى إتيان تأليف ردئ . . . »

أضف إلى ذلك ، المكلف بالزخرفة ، ذلك المجرم الآخر . ملأ المسرح بأعاجيب من الورق المقوى ، لابدال الفائدة السيكولوجية ، بمؤثرات خارجية من المفاجأة والدهشة ، واختراع آلات معقدة أبلغ التعقيد ، من عجلات تطير ، وآلهة تصعد إلى السماء ، ووحوش ناطقة : أى مخالفة للمنطق ! وجماع القول ، أننا إذا استمعنا إلى ذوى العقول السديدة ، أولئك الذين يحبون الشئ الحقيقى، المحتمل ، المنطقى ، المنتظم ، مثل سانت أفريموند وبوالو ولا برويير ، وأديسون وستيل ، وجرافينا وجراسمبينى ومافى وموراتورى، لوجدنا : أن الأوبرا تخالف العقل والصواب ، وأنها تستأهل كل احتقار . ذلك أن «حماقة حافلة بالموسيقا ، والرقص والآلات والزخارف لحماقة رائعة ، ولكنها حماقة على كل حال . . .(١) »

بالضبط : كانت الأوبرا مخالفة للعقل ، وكانت تروق الناس ! ذلك هو الواقع الذى لم يستطع أن ينكره أحد ؛ الجديد الذى أثار غيظ الذائدين عن العقل السليم . انتصرت الأوبرا فى كل مكان ؛ غزت فلورنسة ، والبندقية ، وروما ، ونابولى ، وكل مدينة فى إيطاليا . واستقرت فى المراكز الموسيقية الكبرى فى ألمانيا ، درسدن وليبزج . وكانت فتنة فيينا ، التى أصبحت وطنا ثانيا لها .

---

(١) سانت أفريموند ، رسالةعن الأوپرا .

فما من أمير أو دوق كبير لم يرد أن يكون له مسرح خاص ، ومزخرفين ، ومؤلفين ، وأحسن قادة الأجواق Maestro ، وأحسن أساتذة الرقص ، وأحسن المغنيات Prima donna . ومجدت باريس لولى وكينو . واحتجزت لندن هاندل . وتأخرت مدريد قليلا ؛ وقد حكت مدام « دولنوا » d'Aulnoy ، وهى تبتسم ، فى « قصة السفر إلى اسبانيا » فى عام ١٦٩١ : « لم أر قط أدوات فى مثل هذه الحقارة ؛ فقد كانت الآلهة تنزل بخيلها بوساطة دعامة خشبية مشدودة من طرف إلى طرف ؛ والشمس تسطع بوساطة اثنى عشر فانوسا من الورق المزيت داخل كل منها مصباح ؛ وعندما كانت « ألسين » تقوم بأعمالها السحرية ، وتستحضر الشياطين ، كانت الشياطين تخرج من الجحيم فى يسر ، على درج . . . » هذه الحالة ستتغير : ففى عام ١٧٠٣ ، ستستقر شركة إيطالية فى مدريد .

ما منشأ هذا الولع ؟ — إن الناس فى حاجة أبدية إلى عامل مؤثر ؛ والمأساة التى أصبحت منذ نهاية القرن محض تقليد وآلية ، لم تعد تهيئه . إذن فستهيئه الموسيقا . إن حاجة سيكولوجية ملحة ، تنتهى إلى تحويل فى الفن ، تنتهى إلى شكل جديد .

تأليف واسع مزخرف ، تشارك فيه كل الفنون ؛ عيد من الأنغام ، والألوان، والحركات الايقاعية ، افتتان الآذان والعيون ؛ انفعال ذو صفة نوعية جديدة ، مادمنا لا نستطيع أن نحلله ، مادامت فتنته حسية ، مادام الجسد نفسه يبدو كأنما يذوب ويلين بتأثيره ؛ متعة تجمع بين السحر والفتنة ؛ عميقة لا يمكن شرحها ، لذة فى صميم القلب : تلك هى الأوبرا . ولو أن الناس انتقدوها مائة وألف مرة ، لذهب نقدهم أدراج الرياح . لقد أخطأ الرقباء ؛ لم يدركوا أن رغبة قد استيقظت فى النفوس ، ولا بد من إشباعها : كان الجمهور ينشد ما هو عجيب ، مؤثر ، عاطفى . لم تعد النفوس تريد أن تقتنع ، بل تريد أن « تضطرب »(١) هنا كان التغير .

ولنسع إلى زيادة التخصيص : إن ماقابلته أوروبا بحماسة ، كان الأوبرا الايطالية . فايطاليا ، التى قدمت مثالا لها ، هى النبع الذى لا ينضب ، والذى تنبثق منه الأمواج الرنانة ؛ إنها تمد أوروبا بأسرها بالموسيقا والموسيقيين معاً ؛

---

(١) مدام دى سيفينيه ، رسالة فى ٨ يناير ١٦٧٤ .

إنها النغم نفسه . إن مآسيها الموسيقية (ميلودراما) تغزو كل الشعوب المجاورة . وباريس تريد الكفاح ولكن الموهبة التى تقدمها ضد إيطاليا ، إيطالية ؛ وعلى كل حال ، فان نصف فرنسا هو الذى يقاوم ، أما النصف الآخر فقد تم غزوه . وتظل هامبورج طويلا ، مخلصة للموسيقا الألمانية ، ولكن ينتهى بها الأمر إلى الاستسلام . إن عالم الأوبرا ليس إلا مستعمرة إيطالية .

وما منشأ هذه المعاملة اللطيفة بدورها ، وهذه السيادة ؟ — إن مؤلفى الأوبرا الايطاليين ، يريدون هم أيضاً أن يظلوا مخلصين للعقل السامى ؛ فانهم ينقذون أنفسهم ، باطاعته ، من احتقار النقاد ؛ وبذا يبذون كبار مؤلفى التراجيديا مقاماً . إن مجهود بنيديتو مارسيلو ، وأبوستولوزينو — مورد جلالة الامبراطور — والذى يريد أن يكون بمثابة بيير كورنيل فى الأوبرا ، يهدف إلى تنظيم قصة الأوبرا ، وأن يحذف منها مالا يتفق مع السياق ، وأن يحصرها ، وأن يصفيها ، وأخيراً أن يقربها من التراجيديا ؛ وسينتهى ميتاستاز فيما بعد ، إلى تبرير الميلودراما باسم « فن الشعر » الأرسطوطاليسى .

لكن بلا جدوى . فلم يستطع مؤلفو الأوبرا المتحمسين أولئك ، وقد كانوا ضحايا الوهم الأدبى السائد حولهم ، والذى يرفع الملحمة والمأساة إلى أعلى درجات إنتاج الذهن الانسانى — لم يستطيعوا أن يفهموا أن الأدب لم يعد إلا خادما متواضعا ، تفرض الموسيقا عليه قوانينها . فالموسيقا تتطلب هنا لحنا ، وهناك ثنائيا ، وهنالك جوقة مرتلين ؛ تريد عدداً معيناً من الشطرات ، على إيقاع معين ، تخصص للصوت المرتفع (تينور) أو للصوت المنخفض (باس) ؛ كانت تتحكم فى كل شئ ، حتى اللغة ، التى لا ينبغى أن تقدم إلا اللفظ السهل والمنسجم . وهى لا تطلب من الكاتب إلا المرونة والبراعة : فلم تترك له إلا فن المجاراة ، فن طاعة الملحن ، وقائد الجوقة ، والمغنية الأولى (البريمادونا) . ولما كانت اللغة الايطالية ، أغنى وأحسن وقعا ، وأكثر انسجاما ، وأوفر تنوعاً من كل لغات أوروبا الأخرى ؛ فقد استعادت هنا المكانة التى كانت قد فقدتها ، عندما كان الأمر يتعلق بالتعبير عن الأفكار .

الموسيقا الايطالية ، أى فتنة ! أى تدفق هارب من القيود ! أى غنى دافئ ! أى غزارة ! أى سهولة منتصرة ! كانت بما هى عليه من كرم وغنى لا يغيض — تقدم لجمهور لا غنى له عنها ماليس فى الموسيقا الفرنسية ، ولا فى

أى موسيقا فى أى بلد : الحمية والحيوية والشخصية المميزة . نعم ، الشخصية ، البارزة أبداً ، سواء فى حيويتها أو فى رقتها . لم تنشد توافقا موسيقيا رقيقــا ، متساويا ، موحداً ، لا يعمل إلا بالتسلسل ، حذراً ، منطقياً : بل كانت تتجاسر وتخاطر ، وبجسارتها هذه كانت تشمل النفس . إنهم المعاصرون أيضا الذين يقررون هذا ، بل حتى الفرنسيون . « إن الموسيقيين الفرنسيين ليعتقدون أنهم قد ضاعوا لو خالفوا القواعد أدنى مخالفة ؛ إنهم يتملقون ، يدغدغون ، يحترسون الأذن ، ومع ذلك يرتعدون مخافة ألا ينجحوا بعد ما أدوا ما عليهم بكل ما يمكن من انتظام ؛ أما الايطاليون الذين يفوقونهم جسارة ، فيغيرون النغم والمقام فجأة ، ويأتون بوقفات مزدوجة ومضاعفة لسبعة مقاييس (مازوره) أو ثمانية على نغمات نعتقد أنها لا تستطيع أن تتحمل أقل رجفة ؛ إنهم يطيلون النغمة إطالة فذة ، حتى إن غير المعتادين عليها ، لا يستطيعون أن يملكوا أنفسهم من الغيظ فى بدء الأمر من هذه الجرأة التى يعتقدون فى النهاية أنهم لن يوفوها حقها من الاعجاب . . . » وجماع القول ، « إنهم يلقون الذعر بقدر ما يلقون الدهش فى ذهن المستمع ، الذى يظن أن « الكونشرتو » كله سوف يقع فى نشاز مريع ، ويذا يستثيرون اهتمامه بالخراب الذى يبدو كأنما يهدد الموسيقا كلها ، ثم سرعان ما يطمئنونه بزلات منتظمة ، لدرجة أن كل مستمع يدهش لرؤية التوافق كأنما يبعث فى نفس هذا النشاز ، ويستمد القسط الأكبر من جماله من ذلك الشذوذ الذى كان يبدو أنه يعمل على دماره . . . (١) »

متعة تفيئها الجرأة ، متعة نتوصل إليها على الأقل يتوهمنا أننا نخرق القيود المقدسة ، متعة تهم كياننا الجسدى ، حيث تختلج أعصابنا اختلاج الكمان تحت القوس : تلك هى المتعة التى قدمها لنا كثير من الملحنين الايطاليين — الذين حتى أسماؤهم كانت رنانة — والذين « فتنوا أوروبا بأسرها بانتاجهم الرائع » ، وعندما كان تلامذة سكارلاتى — أشهر أولئك الملحنين — يسألون أستاذهم عن سبب هذا التفضيل أو ذاك أو عن سبب هذه النصيحة أو تلك ، لم يكن لديه إلا جواب واحد : لأن الاحساس شئ جميل Perchè fa buon sentire .

(١) راجنيه Raguenet ، موازنة بين الايطاليين والفرنسيين فيما يتعلق بالموسيقا والأوپرا ، ١٧٠٢ .

الفصل الرابع

العناصر القومية والشعبية والغرزية

لقد حاولنا أن نرى كيف تعمل بعض القوات ، التى تعارض ، بكيانها نفسه ، فى ألا تكون أوروبا إلا نقداً ، وتحليلا ، إلا منطقا وعقلا : استمداد للمستقبل ؛ استعداد غامض للانتقام — الذى لم يحن وقته بعد — للحساسية والخيال . لقد نظرنا إلى هذه القوات ، كما هى عليه ، قابلين ، مسجلين مظاهر هذه الحياة الملموسة ، فى تنوعها المبهم . هل يمكن الآن أن نشرف عليها ، وأن نميز ، من وجهة نظر أعلى ، بعض المبادئ التى تحب عناصر المقاومة هذه أن تتجمع حولها ؟

***

شعور الفوارق القومية : من يستطيع أن يستأصله ؟ إنه يدخل فى الموضوع قيما لا تقبل أى نقص ؛ إنه يصدر عن أسباب يعرفها العقل ، وعن أسباب أخرى لا يعرفها العقل .

طريقة واحدة فى التفكير ، وبالتالى طريقة واحدة فى التحرير ، تسعى لكى تفرض نفسها على كل البلاد : النظام ، الدقة ، الحكمة المنظمة ، الجمال المتين الذى يكتسب بالصبر الطويل والجهد المكين : هذه حقيقة أولى . لكن أليست الحقيقة الثانية أن كل بلد كان يفسر على طريقته ، هذا المبدأ العام ، ويذا تظهر فوارق محسوسة ، بل قل اختلافات ، فى هذه الوحدة المرغوبة ؟ فمثلا : قبلت انجلترا الكلاسيكية ، من جهة تحت تأثير فرنسا ، ومن جهة أخرى لأنها كانت تروم إصلاحا داخلياً ينظم قوتها . بيد أن هذا لم يكن أبداً

إلا كلاسيكية بريطانية ؛ كلاسيكية منفصلة ؛ كلاسيكية اصطلاحية (١).
ولنضرب فى الحال مثلا بينا . يعد سويفت من الكلاسيكيين ؛ والواقع أنه شارك فى ضبط النثر الانجليزى إلى حد كبير ؛ وهو يشرح فى المدارس ، ولاريب فى أنه سيشرح فيها على الدوام ؛ إنه أوتى تلك المتانة فى الملكة ، تلك العبقرية التى لا تنكر والتى تجعلنا لا نتردد فى عده من بين أكبر كتاب شعبه ؛ ومع ذلك فكم يبدو كلاسيكياً غريباً فى نظر الفرنسى ، اليوم ، ومن باب أولى فى نظر الفرنسى الذى كان يقسم ببوالو ! فلنتصفح « قصة البرميل » ؛ ولنحاول أن نضع أنفسنا محل قارئ من القراء ، بما هو عليه من حالة ذهنية فى عام ١٧٠٤ ؛ ولنتخيل دهشته . فأولا ، أى اختلال ! هذا الرجل لا يعرف أصول التأليف ؛ إنه يتبع الفكرة الأولى التى تمر بذهنه ، ويحيد عنها ، ثم يحيد : كما لو كان يجهل تلك الوسيلة الهامة لفن التحرير التى تسمى التسلسل . إنه لا يصغى إلا لهواه ؛ واستهلالاته أطول من عروضه وبياناته ؛ وليس لديه أى احترام للمنطق القطعى : وذلك يجعله يبدو كما لو كان يسخر منا . « بعدما ألقيت بنفسى فى تلك الانحرافات الواسعة ، أعود إلى الطريق معتزما تتبع موضوعى خطوة خطوة حتى نهاية رحلتى ، مالم يعرض لذهنى مشهد ظريف... » ماذا تقول فى مؤلف يستطرد فى مدح استطراد ؟ وأى صور خارقة للعادة ؟ أى شذوذ ! أى جنون فى الخيال ! « إن الحكمة « ثعلب » ، كثيراً ما نطارده بلا جدوى ، إذا لم نجبره على الخروج من جحره ؛ الحكمة « قطعة من الجبن » تزداد حلاوتها كلما كانت قشرتها سميكة ، متينة ، مقززة ؛ الحكمة « شوكلاتة » تزداد لذتها كلما اقتربنا من عمقها . الحكمة « دجاجة » لابد من أن نحتمل صوتها المزعج لأنه يتبعه بيضة ؛ الحكمة تشبه « جوزة » ، إذا أنت لم تحسن اختيارها كلفتك سنا ، ولا تأخذ منها إلا دودة . . . »

ثم ما هذا الهوس فى مهاجمة كل شئ وتدمير كل شئ ؟ إنه يهاجم الكاثوليك أولا ، ثم اللوثريين ، وأتباع كالفين ، والمتحمسين من كل نوع ؛ إننا لانضمن أبداً ، أنه بعد ملاطفته لنا ، لا يعضنا ؛ إنه يهتاج ، ويستولى عليه الغضب ،

---

(١) أنظر فى هذا الصدد الملاحظات النفاذة للويس كازاميان فى « تاريخ الأدب الانجليزى » بقلم ا. لوجوى ، ل. كازاميان ، ١٩٢٤ ص ٦٩٤ .

ويشتم ويسب : إنه أرستوفان(١) مجنون . وما هذه الاستعارات الدائمة ؟ ! وتلك السخرية ؟ ! إنها لا تنتهى . وهذه الدعابة القاسية ! « لقد رأيت فى الأسبوع الماضى جسد امرأة مسلوخة الجلد ؛ ولا يمكنك أن تتصور كم كان هذا النوع من العرى فى غير صالحها . . . » .

كم من انجليزى ، وقد اعترف بقيمة القواعد الكلاسيكية ، بل حاول أن يجاريها ، استشعر فى صميم قلبه أسفا على الحرية المفقودة ! كم منهم من فكر أن أرسطو ومن بعده هوراس ، كان فيهما الكفاية ، وأنه لم تكن هناك حاجة إلى التزام الصرامة والصلابة الفرنسية ! « كأننا لكى نحصل على عسل شهى ، قصصنا أجنحة النحل ، وأجبرناها على التزام خليتها ، أو على عدم الابتعاد عنها . . . النحل تريد أن تنطلق فى الريف ، كما تنطلق فى البساتين ، لكى تختار بنفسها الزهور التى تروقها . . . (٢)»

ويزداد الاختلاف بروزاً ، ويصبح عنيداً بل شديداً ، حين لا يتعلق الأمر بالأدب بل بالأخلاق ؛ أو بمعنى آخر حين يتعلق الأمر بالدفاع عن ملاذ آمن وأعمق ، عن عادات متأصلة ، عن كيان نوعى خاص . عندما نطالع قصص أو كوميديات زمن كان يقبل ، على كل حال ، وإلى حد ما ، نموذج المؤالسة الفرنسية ، فاننا ندهش لشدة رد الفعل . إن فرنسا تمثل فيها كوقحة ، قد خلفت للندن أساتذة الرقص ، وخدمها الفاسدين ، ووصيفاتها الفاسقات ، وتجار البدعة ، ونساءها المغامرات ، ونبلاءها المزهوين الذين يستعرضون أساليبهم الجميلة بحماقة ، والذين ليسوا إلا جبناء خداعين . إن الانجليز يعرضون مقابل هذا ، الانجليزى الفاضل ؛ البسيط ، الصارم : وهذه الصرامة نفسها تعرض كفضيلة . من الأفضل أن يحتفظ المرء بصراحة كلامه ، وخشونة سلوكه وقوته البكر ، بدلا من أن يستسلم للفساد تحت تأثير قوة أجنبية ، تروم أن تجعل منه رجلا آليا ، عديم الرأى ، منافقا ، « جميلا » . هكذا يظهر الفرنسيون والفرنسيات فى كثير من المسرحيات ، فى دور المنفّرين : أشخاص سخفاء ،

---

(١) الشاعر الهزلى اليونانى الشهير ، وقد صار فى الأدب مثالا للكاتب الذى يهاجم بشدة ، ويسخر من نقائص معاصريه . [المترجم]

(٢) وليم تمبل ، عن الشعر ، فى « متنوعات » ، ١٦٩٢ - ترجمة فرنسية ، أوترخت ، ١٦٩٣ ، ١٦٩٤ . أمستردام ، ١٧٠٨ .

مهمتهم أولا إثارة مرح الجمهور، ثم تبيان قيمة المزايا، المزايا الانجليزية المتينة.

وتشكو إيطاليا من عبوديتها لفرنسا؛ والواقع أنها أصبحت أمة لها، إلى حد ما. ولكن هنا أيضاً، فلنحذر التوكيدات المطلقة. فلا يقتصر الأمر على أن بعض شعرائها يحتفظون بفكرة الوحدة الرومانية قائمة حية، فكرة أن شعب «الغال» ليس على كل حال إلا طارئا متأخراً، والأمل فى عودة عهد يسترد فيه السلطان الحقيقى حقوقه فحسب؛ بل مادمنا قد ذكرنا الكلاسيكية، فان علماء إيطاليا يطالبون بحقوق كلاسيكية إيطالية، سابقة فى تاريخها على المذاهب الفرنسية، هى وحدها الشرعية، الصحيحة، النقية. إنهم يواصلون «النهضة» بعناد، نهضتهم هم: من يستطيع أن ينكر فضلهم فيها؟ بينما يسعى الشعراء إلى تقليد كورنيل وراسين، معلنين عزمهم صراحة على النجاح أكثر مما نجحا، نراهم يرددون أنهم يرغبون فى البقاء مخلصين لروح، ولنموذج التراجيدية الاغريقية: الوحيدة التى يحسب لها حساب، والتى آلت إليهم ملكيتها بحق الاكتشاف والاستثمار الأول. وبعد، فماذا فعلت فرنسا؟ لقد شوهت، وأفسدت تلك النماذج النبيلة. لقد خنثت التراجيديا العتيقة، جعلتها أنيقة، وأعطت للتعبير عن الحب مكانة زائدة عن الحد. إن الأستاذ العظيم لا يزال هو سوفوكليس: إليه ينبغى أن نعود.

***

وبدأت الشعوب تتحارب أيضاً، لاسترداد حق الأسبقية فى الزمن. وعندئذ حاولت جميعها النزول إلى أعماق ماضيها، لاستحضار وثائق العراقة. كلها تملك أقدم لغة، أقدم شعر، أقدم نثر، أقدم حضارة. وأخذ كل شعب يؤكد فخوراً، أن جيرانه ليسوا إلا مدعين، محدثى نعمة.

ولم يبذل أى بلد جهداً شجاعاً قدر ما بذلت ألمانيا فى هذا السبيل. لم تكن إلا ترابا، كانت مسحوقة، ذليلة. كانت تعانى كل أنواع النفوذ، وليس لها أى نفوذ، ولذا لم تعد تبدو قوة معنوية.

ولكنها دافعت عن حيويتها الغامضة؛ ولتوطيد كيانها، كانت تجادل فى كل الجبهات. الوحدة؟ سوف تستعيدها بسهولة باصلاح داخلى، كما قال بوفندورف، كما قال ليبنتز — القانون؟ ألم يكن هناك قانون جرمانى أقدم

وأسمى من القانون الروماني ، ومن القانون الاكليركى ؟ القانون الروماني، القانون الاكليركى ، ذلك كل ما نعلّمه فى الجامعات ؛ أى خطأ كبير ؛ لقد حان الوقت لكى نرد إلى القانون الأهلى القومى مكانته — اللغة ؟ لكن اللغة الألمانية كانت فى قدم وفى جمال اللاتينية ، واليونانية ، وأية لغة كانت : إن اللغة الألمانية قديمة قدم الدنيا . — الأدب ؟ إن الأدب الألمانى لم يكن يقل عن أى أدب آخر . ذلك ما أثبته فى عام ١٦٨٢ ، العالم موروهوفيوس . كم بذل من جهد ، كم جمع من براهين ! كم كنت تشعر ، فى كل صفحة من صفحات كتابه الدسم ، الضخم ، بحب الوطن الألمانى ! كان يقول إن ألمانيا كان لها شعراء فى ذروة المجد ، نسيناهم ظلما ، مثل هانزتزاخ ، وشعراء أقدم منه ، يطالب بهم أولاوس رودنك لاسكندناوة بدون وجه حق . وكان لفرط حماسته ، يستدل استدلالا غريباً : كان لألمانيا شعراء لم يبق لهم أى أثر ، ولكن هذا لا يعنى أنهم لم يكن لهم وجود : بل على النقيض ، لابد من أنه كان لهم وجود ، مادام الشعر فى كل الشعوب هو أول صورة للأدب ؛ وبالتالى فان لهم وجوداً ، سواء جهلناهم أو لم نقف على وجودهم . . .

إن هذه اللغة الألمانية التى تملك قوة اللغة الاغريقية ، وعظمة اللغة الرومانية ، وجمال اللغة الفرنسية ، وفتنة الايطالية ، وغنى الانجليزية ، ورفعة الفلمنكية ؛ إن هذه اللغة ستعطى — كما يرجو محاموها المتحمسون — روائع أدبية سوف تجبر أوروبا الغيرى على الاعتراف بمزيتها . أى صيحة انتصار ! حين ظهر فى عام ١٦٨٩ « أرمنيوس وتوزنلدا » تأليف كاسبرز فون لوهنشين . أخيراً ظهر مؤلف عظيم ، وفىّ للوطن *patria amantissimus* ، قد بحث ووجد موضوعا جديراً بالشعب الجرمانى ؛ إنه مجّد ذلك البطل أرمنيوس الذى قاوم روما ، لا فى بدايتها الضعيفة ، بل إبان عنفوان قوتها ؛ إنه يرد لألمانيا إكليل الغار . صيحات الغبطة ، ودوى النصر . . .

نداء الحنين Sehnsucht ، أى صفة للنفسية الألمانية الأبدية أشهر منه ؟ إنه لا يفتقد فى زمن تزمع فيه أنوار المعرفة أن تبدد كل ظلمات النفس ، وأن تضئ حتى ما وراء الشعور . كان كريستيان وايز ، الشاعر ، عالم التربية ، الذى توخى فى كل تأليفه البحث المؤثر عما هو بسيط ، وطبيعى — يقدم كل سنة مسرحيات تمثل فى المدرسة التى يديرها : ومن هنا ، متعة الطلاب الذين

أصبحوا ممثلين ؛ وزهو الآباء . وقد ظهر عذاب نفس غير قانعة ، فى إحدى هذه المسرحيات « النفس المعذبة » *Die unvergnügte Seele* ، التى مثلت فى عام ١٦٨٨ . إن فرتيمنوس ، الكريم المحتد ، الطيب ، الذى كان المنطق يقتضى أن يكون سعيداً فى الحياة ، كان تعساً شقياً : يشعر بأنه غير قادر على التمتع بالمال الذى يملكه ، ولا يستطيع أن يقول ماذا ينقصه . فيحاول أن يملأ فراغ نفسه : بالنساء ؛ بالصحبة المرحة من الندماء ؛ بالألقاب ؛ بمعاشرة كبار الفنانين : لكن كل ذلك لم يجده ؛ فيقع فريسة اليأس ، يوشك أن يموت ؛ ألا راحة إذن إلا فى الموت ؟ — وعند هذه النقطة ، تنقلب المسرحية إلى موعظة أخلاقية ، فتفقد فائدتها السيكولوجية . ويمر فلاحان ، « القانع والمطمئن » Contento et Quiete ؛ وقد عرفا صروف الدهر ، التى كانت كبيرة ، ولكن ذلك لم يقلل من تذوقهما للحياة ، إذ لم يطلبا منها إلا ما كان فى وسعها أن تعطيه ؛ فيعطيان درساً لفرتيمنوس ، الذى يصغى إليهما ، ويتوب .

إن النفس غير القانعة لا زالت خجولا ، متواضعة ؛ تعوزها الكبرياء ، فهى لا تعد نفسها ذات امتياز بل تعتقد أنها قابلة للشفاء . ولكنا نعلم أن فرتمنوس سيكون له خلفاء ، سيذهبون فى ضجرهم إلى أقصى درجاته ، وسيستشهدون بالدنيا وبالله ذاته على تعاستهم ، وأن « القانع » و «المطمئن » لن يسعفاهم عندما يعتزمون مفارقة هذه الدنيا التى لا تليق بهم .

لم يدر بخلد نقاد ذلك الوقت ، الذين أعجبوا « بأرسنيوس وتوزمنيلدا » ، أو بأشعار كرستيان ويز العديدة — أن ألمانيا كانت قد أنتجت رواية من أروع الروايات ، ترجم فيها لأول مرة عن نفس جماعية : الرجل البرىء ، *le Simplicissimus* لجر يملسهوزن . لعلها تشبه روايات الأشقياء ، بالمغامرات العديدة التى يخوضها البطل : لكن فيها لذة محلية عميقة كل العمق ، حتى إنها تحدّت المترجمين ، ولا زالت تتحداهم إلى الآن فى بعض البلاد كفرنسا . موضوعها ذكريات حرب الثلاثين ، إتلاف الحصاد ، نهب القرى ، التنكيل بالفلاحين ، النار فى كل مكان ، الدماء فى كل مكان . موضوعها العقل البرىء السليم ، الملقى به فى وسط مدينة فاسدة ، تغريه وتغويه ، ولكنه ينتهى مع ذلك بالغلبة عليها . موضوعها الايمان ، الذى يخترق الأرض كأنه غابة من التماثيل الرمزية ، الذى يعى أنه يعيش وسط وفرة من الأوهام الوقتية ، تواقاً

على الدوام إلى الحقائق الأبدية ؛ موضوعها المسيحي الذى يكسب السماء بمشقة ، بمروره بألف امتحان ، بالجهل ، بالخطيئة ، والتوبة ، والأمل الذى يسبق الغبطة الأبدية : هذه الموضوعات تنمو ، وتتعانق ، وتذوب وتستعيد نغمتها الأصيلة ، وتتسلسل فى تدفق ولضرة ليس لها مثيل ، مترنمة بفروسية شعب يعتقد جيرانه أن موته وشيك ، بينما يظهر ، على النقيض ، إرادة لاتلين فى قوة أصلية .

ولم يكن الناس قد اخترعوا ، عندئذ ، نظرية تفوق جنس على جنس آخر . ولم يكونوا قد حللوا بعد ، مضمون هذه الكلمة : الوطن . بل حتى لم يكونوا قد كونوا فكرة واضحة عما يمكن أن يكون الشعب . ولم يكونوا قد أضافوا بعد ، إلى المشاعر التى يولدها فى النفوس نداء الأرض وقباب الأجراس ، عمل العقل الذى يفسرها ويبررها . ولكن هذه المشاعر كانت حية فى النفوس ؛ و بمجرد ما كان إيطالى من إيطاليا الممزقة ، أو ألمانى من ألمانيا المفرقة ، أو أو بولندى من بولندة التى تحارب نفسها بنفسها ، أو إسبانى من إسبانيا الغافية ، يعتقد أن أحداً قد مس مزية بلده أو حتى مجده الخارجى ، كان يبتدئ الاحتجاج والنزاع ؛ كان العقل الشامل المسوى يفقد حقوقه أمام الخصائص الأهلية .

***

وكنت تسمع أحياناً أغنية ، لا هى قصيدة مؤلفة بدراية ، ولا هى بغزلية ولا هجائية ، بل أغنية شبه بربرية : تذكر أن أحد ملوك اسكندناوة فى القرون الوسطى — رينير لادبروج — وقد نهشته أفعى نهشة مميتة ، ترنم بأشعار باللغة الجرمانية القديمة ، قبيل سريان السم إلى قلبه (١) ؛ وكانت هذه الأشعار تستطيع ، بما فيها من غرابة ، أن تدهش أو تفتن معاصرى وليم أورانج ولويس الرابع عشر . وكانت هناك أيضاً أغان شعبية ترد من أقصى الأصقاع ، من بلاد أولئك السكان الذين لا شبيه لهم ، سكان القطب ، اللابلانديين . أغنية صحراء الجليد :

---

(١) وليم تمبل مقال عن « الفضيلة الباسلة » فى « المتنوعات » ،القسم الثانى ، لندن ١٦٩٠ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ W. Temple, *Essay upon Heroic Virtue* .

O soleil levant, dont le joyeux rayon
Invite ma beauté aux plaisirs champêtres,
Dissipe la brume, éclaircis le ciel,
Et amène devant moi ma chère Orra.

Ah! si j'étais sûr de la revoir, ma bien-aimée,
Je grimperais jusqu'à la plus haute branche de ce sapin;
Là-haut, dans cet air qui doucement frissonne,
Et tout à l'entour, je regarderais sans trêve... (١)

أو أغنية الرنة :

Hâte-toi, mon renne, et accomplissons d'un pas agile
Notre voyage d'amour à travers cette lande désolée.
Hâte-toi, mon renne, tu es encore, encore trop lent,
Un amour impétueux exige la vitesse de l'éclair... (٢)

ولم يكن هذا شيئا مذكوراً ، وسط الأشعار العديدة المنظومة وفقا لأحسن القواعد ؛ ولقد كانت تقل عن ذلك ، لو لم يدر بخلد أديسون أن يهتم بهذه الأشعار الفجة ، وأن يعترف باعجابه بها . أنعم بأغنية Chevy Chace القديمة ، وبالقصيدة الرقيقة «طفلان فى الغابة» : لقد كانتا بريئتين وجميلتين ؛ وكان يسره أن يسمع ، وهو يخترق انجلترا ، تلك الأغانى التى يتوارثها الابن عن الأب ، والتى تعد فتنة البسطاء (٣). صحيح أن أديسون يدخل هوميروس وفرجيل ، تبريراً لذوقه ، ليبين أن فى تلك الأشعار ما فى الأوديسا والانابييد من مزايا . ولكنه لحسن الحظ ، لم يصر على هذا الاثبات العلمى ، بل عاد إلى مدح الطبيعى ، الفطرى ، التعبير الساذج للفلاح يعود من حرثه ، مردداً أغنية — تعبير الروح الشعبية . « هذه الأغنية هى صورة بسيطة للطبيعة ،

(١) أيتها الشمس المشرقة التى تدعو أشعتها المرحة — حسنائى إلى المتع البرية — اقشعى الضباب ، وأضيئى السماء — وإلى بالعزيزة أورا .
آه ... لو كنت واثقا برؤية حبيبتى مرة أخرى — لتسلقت أعلى غصن لشجرة الصنوبر هذه — عاليا هنالك ، حيث يخفق النسيم الرقيق — وتطلعت فيما حولى على الدوام ...

(٢) أسرعى يارنتى ، ولنتم بخطوة سريعة — رحلة غرامنا خلال هذه البيداء الموحشة — أسرعى يا رنتى ، إنك لازلت شديدة البطء — إن الحب الجارف يتطلب سرعة البرق ... (سبكتاتور رقم ٣٦٦ ، ٤٠٦) .

(٣) سبكتاتور ، رقم ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٥ .

مجردة عن كل عوامل الفن وزخرفه . . . ؛ وهى لا تروقنا إلا لعين هـذا السبب : إنها صورة من الطبيعة . . . »

وفى قطب آخر للحياة ، كانت تسود أيضاً ، أو تسرى على الأقل ، فكرة أن السلطة الشعبية هى وحدها الشرعية ، وأن السلطة الملكية لا تقوم إلا بتفويض منها . وحتى فى مملكة فرنسا ، كان هناك قوم يذكّرون بأن شعوب « الفرنجة » Les Francs كانت قد غزت شعوب الغال ، وأن الفرنجة كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى ميدان مارس ، وقد اعتادوا أن يعينوا لهم رؤساء ؛ وهكذا لم تعد السلطة تستند على بعض امتياز إلهى ، أو تقليد رومانى، بل على مبايعة من جانب كتلة المحاربين لسيد يختارونه بحرية . فالشعب ، كديموقراطية ، لم يكن له بعد وجود ؛ ولكن فكرة السلطة الشعبية كانت تتكشف ، مليئة بالمستقبل .

***

الغريزة : إنها لم تكن قد اكتسبت بعد عطف الناس ، مادامت تنفر المسيحيين وتقلقهم ، ومادام الفلاسفة لا يزالون يترددون فى حسبان الطبيعة خيّرة تامة الطيبة ، مفضلين جذبها نحو العقل . ولكنها على الأقل لم تكن غائبة تماما عن المشاغل الجارية . حينا يشهّر طبيب بالجامعة وسبادئها ، ويمتدح طريقة علاج المرء لنفسه بنفسه ، وحفظ الصحة بالغريزة . وحينا ، يتكلم رجل مبتكر عن الالهام الشعرى ، فينسب مصدره إلى نوع من الجنون furor ، إلى جنون فائق ، إلى الغريزة . وفى هذا الصدد ، كان هناك عامل مضايق ، يتملص من الجهود الفكرية ، والقيود الاختيارية ؛ عامل لقى العقليون عناء كبيراً ليخضعوه للطاعة : الجليل الجمال Le sublime . لما قال الناس إنه ليس إلا الحقيقى والجديد مجتمعين فى فكرة كبيرة ، ومشروحين بأناقة ودقة ؛ وإنه بغير الحقيقى لا يمكن أن يوجد جمال جليل ، وبالتالى أى جليل : كانوا يشعرون أن الدعوى لم تنته بعد . لذلك كان يدفعهم ولع لا يقنع إلى سؤال لونجين(١) ، الذى لم يخش أن يعرّف هذه الكلمة الصعبة ، والذى كانت فى صفّه هيبة الأزمان القديمة . الجليل

---

(١) لونجين : ongin البلاغة اليونانى مؤلف « بحث فى الجليل الجمال » *Traité du sublime* الذى ترجمه بوالو (٢١٣ – ٢٧٣) . [المترجمان]

الجمال — أليس بالرغم من كل شئ ، قيمة تخرج إلى حد ما عن رقابة العقل ؟

ماذا كانت تلك المناقشة حول أرواح الحيوان ، التى استمرت منذ ديكارت، والتى لم تكن قد أوشكت على الانتهاء ، وقد دعت إلى المبارزة المفتوحة الباب دائما ، أبطالا من كل نوع ، — ماذا كانت ، إن لم تكن احتجاجا فى صالح الغريزة ، وإن كان غامضاً ؟ لما جعل الناس يدافعون ، فلانا عن جواده العزيز ، وعلانا عن كلبه الأليف ، لم ينسبوا للحيوان روحا شبيهة بروح الانسان ؛ لم يطالبوا لها إلا بادراك جزئى : ولكنه كان واضحا أنها تحب ، وتتعذب ، وأنها لم تكن آلات ، مادامت الآلات لا صلة لها بالشعور : قال لافونتين منذ ذلك اليوم ، فى خطابه إلى مدام لاسابليير إنه ينسب إلى الحيوان :

Non point une raison suivant notre manière,
Mais beaucoup plus aussi qu'un aveugle ressort:
Je subtiliserais un morceau de matière
Que l'on ne pourrait plus concevoir sans effort,
Quintescence d'atome, extrait de la lumière,
Je ne sais quoi plus vif et plus mobile encor
Que la flamme ...
Je rendrais mon ouvrage
Capable de sentir, juger, rien davantage,
Et juger imparfaitement ... (١)

كان « ماجالوتى » عالم الطبيعة الفلورنسى ، وروح مجمع « سيمنتو » أكثر جسارة ، فى استشهاده ضد ديكارت بحبنا للحيوان ، « الحب البالغ ، الحنون ، والذى كثيراً ما يبدو فى غاية الجنون والغباء ، الذى نكنه لكلب ، أو هر ، أو جواد ، أو ببغاء ، أو عصفور . » ولقد قال « دانتى » :

Amor, chà nullo amato amar perdonna...

وقال « لوتاس » Le Tasse :

amiamo or quando
Esser si puote riamati amando;

---

(١) لا عقلا كالذى لعهده — بل شيئا أكثر من محرك أعمى :
لو أنى بخرت قطعة من مادة — حتى تصبح شيئا لا نستطيع تصوره بلا جهد ، جوهر ذرة ، أو خلاصة ضوء — أو شيئا أكثر حيوية وحركة — من اللهب ... لجعلت عملى — قادراً على الحس ، والحكم ، ولا شئ أكثر ، لكن حكما غير كامل ...

« نحن لا نحب إلا إذا كان محتملا أن نحب » . وإذن فادمنا نحب الحيوان ، فلابد أنه يحبنا ؛ وإذن فهو لا يخلو من الاحساس . . . — بتلك الأصوات المتشعبة ، وفى تلك الظروف المختلفة ، كان يظهر فعل ذلك الجزء من الوجدان الذى يتوق إلى الاحساس : فقاعات تصاعد من أعماق المستنقعات ، وكثيراً ما تفنى على أديم المياه .

أيتها العرائس السعيدة ، أيها الرعاة السعداء ، الذين يعيشون حياة وادعة على مقربة من العيون ، وفى عزلة الغابات ، كم كان يحسدكم الناس فى هذه الأوقات الجدبة ! ويا أهل الأندلس القديم البسطاء ، يامن كنتم تستغنون بمثل تلك السهولة — فى أحلامكم اللذيذة — عما فى المدنية من مغالاة فى الرقة والترف ؛ كم كانوا يمتدحون سعادتكم ، التى يجهلها أولئك الذين كفوا عن اتباع قوانين الطبيعة ! « أوه . . . ما أبعد هذه الأخلاق عن الأخلاق الباطلة الطموحة للشعوب التى نظنها أوفر الشعوب حكمة ! لقد بلغنا من الفساد حداً لا نكاد معه نتصور أن هذه البساطة يمكن أن تكون حقيقية . نحن ننظر إلى أخلاق هذا الشعب كأنها أسطورة جميلة ، ولا ريب أن أخلاقنا تتراءى له كحلم مرعب ! » — أيها الهمجى السعيد ، بأى لهجة ثورية أعلن الناس أنك ينبغى أن تكون مثالا للحياة الكاملة ، وأن الأوربى ينبغى أن يجعل من نفسه هيرونيا (١) ! لقد أعلن أذكى الناس إفلاس العقل :

Source intarissable d'erreurs,
Poison qui corromps la droiture
Des sentiments de la nature,
Et la vérité de nos cœurs;
Feu follet, qui brilles pour nuire,
Charme des mortels insensés,
Esprit, je viens ici détruire
Les autels que l'on t'a dressés ... (٢)

---

(١) Hurons : قبيلة من مواطنى شمال أمريكا ... [المترجمان]

(٢) شوليو Chaulieu قصيدة ضد العقل ، ١٧٠٨ .
يامنبع الضلال الذى لا يغيض — أيها السم الذى يفسد استقامة المشاعر الطبيعية، وحقيقة القلوب ؛ — أيها اللهب الشيطانى الذى يلمع ليغوى ويؤذى ، — يافتنة الغافلين ، — أيها العقل ، لقد جئت لأدمر الهياكل — التى أقيمت لك ...

Esprit ! tu séduis, on t'admire,
Mais rarement on t'aimera ;
Ce qui sûrement touchera
C'est ce que le cœur nous fait dire ;
C'est ce langage de nos cœurs
Qui saisit l'âme et qui l'agite ;
Et de faire couler nos pleurs
Tu n'auras jamais le mérite . . . (١)

أما الناس الأقل إحساساً ، ولكنهم أحذق فى تنسم الريح ، فقد أعلنوا مساوئ العقل :

C'est elle qui nous fait accroire
Que tout cède à notre pouvoir ;
Qui nourrit notre folle gloire
De l'ivresse d'un faux savoir ;
Qui par cent nouveaux stratagèmes
Nous masquant sans cesse à nous-mêmes
Parmi les vices nous endort :
Du Furieux fait un Achille,
Du Fourbe un Politique habile,
Et de l'athée un Esprit fort.

Mais vous, mortels, qui dans le monde
Croyant tenir les premiers rangs
Plaignez l'ignorance profonde
De tant de peuples différents, (٢)

---

(١) أيها العقل ! إنك تفتن وتعجب — ولكن يندر أن تحب ؛ — إن الذى يؤثر بكل تأكيد ، هو ما يمليه علينا القلب ؛ — إن لغة القلوب هى التى تملك النفس ؛ ولن يكون لك أبدا — فضل إسالة الدوع ...

(٢) چان باتست روسو Jean-Baptiste Rousseau القصيدة التاسعة ، إلى المركيز دى لافار .

هو الذى يجعلنا نظن — أن كل شئ يذعن لقدرتنا — هو الذى يغذى عظمتنا الجنونية ، بنشوة علم باطل — هو الذى يعمينا عن حقيقة أنفسنا — بمائة حيلة حديثة — فيستبقينا فى أحضان الرذيلة — يخلق من كل ثائر « أشيلا » — ومن الخداع سياسيا حاذقاً — ومن الكافر « عقلا قويا » .

أما أنتم يا من تظنون — أنكم فى مقدمة الصفوف فى الدنيا — فتشفقون على الجهل العميق ، لكل تلك الشعوب — يا من تخلطون بين الحيوان —

Qui confondez avec la brute
Ce Huron caché sous sa hutte
Au seul instinct presque réduit :
Parlez : quel est le moins barbare
D'une raison qui vous égare
Ou d'un instinct qui le conduit ? (١)

منذئذ ، بدأ يظهر تعبير مؤثر لهـذا الشعور ، لهذه الحاجة إلى اطراح كل الخدع المتكتلة : عبء القرون الذى يثقل كاهلنا ، والنفاق الذى ندعوه أخلاقا دون أن نصدق بها . كان هناك ذات مرة إنجليزى يدعى « توماس إنكل » ، ثالث أبناء أحد مواطنى لندن الأثرياء ؛ أبحر إلى بلاد الهند الشرقية للاتجار . وفى أثناء رسو السفينة فى أحد الثغور ، اغتال الهنود فريقاً من جماعته ؛ وهرب واختبأ ، واكتشفته هندية ، فتية جميلة ، اسمها « ياريكو » . ولقد أحبت ذلك الأجنبى ، ذلك التعس ؛ ووهبته نفسها جسما وروحاً ؛ وتولت غذاءه واستبقته ؛ فوعدها بأن يصطحبها إلى انجلترا إذا تهيأت الفرصة . وذات يوم لحا شراع سفينة فأشارا إليها : واقتربت السفينة ، ونزل بعض البحارة ثم اقتادوهما إليها : فكانت السلامة . ولكن على طول الطريق ، جعل توماس إنكل يحلم . ماذا سيفعل بهذه المرأة؟ لقد أضاع وقته ، وماله : اعتزم أن يبيعها كأمة فى أقرب ميناء . بكت الهندية وأنّت ، وحاولت أن تمس شغاف قلب عشيقها ؛ ولما كانت حاملا فقد باعها توماس إنكل بثمن غال . هكذا يتصرف المتمدنون (٢). . .

وذات يوم صادف فونتنل الغريزة فى الطريق ؛ فأخذه الدهش ، بل تكدر لهذا الظهور . « أعنى بكلمة غريزة شيئا مضافا إلى عقلى ؛ يولدمفعولا مفيداً لحفظ كيانى ؛ شيئا أفعله دون أن أعرف لماذا ، ومع ذلك فهو يفيدنى كل الفائدة : وفى ذلك كل أعجوبة الغريزة ... » ولما كان لا يمكن أن يقبل مثل هذا الخروج على المنطق ، ومادمنا قد اتفقنا على أن « العجيب » ليس له أى حق فى الوجود ، فانه يتوسل بأصعب رياضة ذهنية ، وبأحذق البراهين

(١) وذلك الهيرونى اللائذ بالكوخ — الذى يعيش على الفطرة — فلتتكلموا : أيهما أقل بربرية — العقل الذى يضلكم — أم الغريزة التى تقوده ؟

(٢) سبكتاتور ، رقم ١١ .

ليثبت أن الغريزة ليست إلا عقلا يتردد ، عقلا لم ينتخب بعد ، بشكل واع بصير ، وسيلة من وسائل العمل المختلفة التي تعرض له : ومنذئذ يعد فونتنل نفسه مطمئنا .

ويخيل إلينا أننا لازلنا بمبعدة عن « الغريزة الالهية » التي سيمجدها جان جاك روسو . لكن أقل مما نظن ، إذا نحن — بدلا من أن نبحث عند الذين لا يستطيعون العيش دون ترف الحياة — سألنا أصحاب الطبع الخشن ، وإذا وجدنا لدى سويسرى يدعى بيات دى مورا ، تصويراً أوليا لمقال روسو الشهير :

« منذ ما فقد الانسان شغله وكرامته ، فقد أيضاً معرفة ما يخصه ، وفى تلك البلبلة التي نعيش فيها ، لا نعرف ماهية كرامتنا ومشاغلنا . ولما كان النظام وحده هو القادر على أن يرد لنا هذه المعرفة ، فظنى أن هناك وسيلة واحدة للبقاء فى النظام : هى اتباع الغريزة التي تكمن فينا . الغريزة الالهية التي ربما تكون كل ما تبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتي تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة . كل المخلوقات الحية التي نعرفها لها غريزة لا تخدعها أبداً . فهل الانسان ، الذي يفوق فى كماله كل هذه المخلوقات ، ليس له غريزة ، بحيث تشمل كل خلقه ، وبحيث يكون فيها من الوثوق بقدر ما فيها من الشمول ؟ لا شك فى أن له غريزة ، وهذه الغريزة هى صوت ضميره ، حيث يتصل الاله بنا ويحدثنا . . . (١) »

« الغريزة الالهية التي ربما تكون كل ماتبقى لنا من حالة الانسان البدائية ، والتي تركت لنا لاعادتنا إلى هذه الحالة » : هل من الممكن أن نجلجل بنداء الرجل البدائى جلجلة أوضح وأعلى من هذه ؟

---

(١) رسالة عن الرحلات ، كتبت فيما بين ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ . انظر إلى طبعة ش . جود ، ١٩٣٣ ص ٢٨٨ .

الفصل الخامس

سيكولوجية القلق ، استطيقا الشعور ، ميتافيزيقا الجوهر ، والعلم الجديد

سيكولوجية القلق

لقد أمسك لوك عن الألعاب الكبرى ، كما قلنا ؛ ولما كان رجلا متواضعا ، فقد ترك البحث عن الحقائق السامية ، وقنع بالحقائق النسبية ، التى يمكن أن تلمسها أيادينا الضعيفة . وإن من يطلب منه التحليق العالى فى سماء الخيال ، لمخطئ فى العنوان ؛ فان لوك الحكيم لن يدله إلا على طريق أمين سالم نحو يقين متواضع ، طريق ممهد ، خال من النزوات .

ومع ذلك ، فأى نتائج مستقبلية ، فى توكيده هذا : إن الاحساس هو العمل الأوّلى للنفس ! لأن هذا التوكيد — إذا فكرنا فيه جيداً — يثير انقلابا فى القيم التدرجية التى كانت تبدو حتى ذلك الوقت أثبت القيم الموروثة .فالأفكار النبيلة ، أجمل الأفكار وأنقاها ؛ والمبادئ الأخلاقية ، ولشاط النفس ، كل هذا منشؤه الاحساس . والعقل الذى يؤثر على الاحساس نفسه ، ليس مع ذلك إلا عاملا ، عاملا معاونا : فلا حياة عقلية بلا حياة عاطفية تسيطر عليها . إن التابع يصبح سيداً ؛ إنه يستقر ، لقد فاز بحق الرشد وحق الاصالة ؛ وإن شهاداته لمسجلة فى « المقال عن الادراك الانسانى » .

إنه ليس جوهر النفس — ولكن جوهر النفس يستحيل إدراكه ؛ والشئ المحقق أن هـذا الامتياز لا يمكن نسبته ، بأى حال ، إلى الفكر . لو كانت النفس فى جوهرها فكرًا ، لما كنا نراها تمر بحالات مختلفة (كما نراها فعلا) ، منذ الانتباه وما يصحبه من مجهود كبير إلى حالة توشك فيها على الفناء . إن

الفكر يختفي اختفاء تاما في أثناء النوم ؛ وهو حتى عند الرجل اليقظان ، يمر بلحظات من الضعف والغموض تقترب كثيراً من العدم : وهذا الاختفاء ، هذا التغير ، هذا الاقلال ، ليس من خصائص الجوهر ، بل من خصائص الفعل ، الذى يحتمل الانقطاع والاهمال .

بل أكثر من ذلك : إن سيكولوجية الرغبة والقلق لنتيجة لهذا الترتيب الجديد للقيم .

واعجباه ! هل كانت نفس « رجل العاطفة » من إعداد لوك ؟ وسانت برو ؟ وفرتر ؟ ورينيه ؟ (١) — إنهم جميعا ليسوا من نسله المباشر ؛ ولكن ، في مختلف الأسباب التى تحول عقلية الأجيال المتتابعة ، وفي تطور حالة نفسانية ستنتهى بأن تطلب من القلب إشباع رغبات لم يحققها لها العقل ، — فلنحسب ، فلنحسب بلا تردد فلسفة لوك . هاك ما قالته هذه الفلسفة قبل أن ينتهى القرن السابع عشر :

« إن القلق الذى يستشعره المرء في دخيلته ، لغياب شئ قد يهيئ له متعة إذا كان موجوداً ، هو ما نسميه « رغبة » ، وهذه الرغبة تضعف أو تشتد ، بحسب ما يكون عليه قلقه من ضعف أو شدة . ولعله لا يخلو من فائدة أن نلاحظ ملاحظة عابرة ، أن القلق هو المحرك الأساسى ، إن لم يكن الوحيد، الذى يثير اجتهاد ونشاط الناس . . . (٢) »

Uneasiness : تلك هى كلمة النص الانجليزى ، ولقد توقف عندها المترجم ، بيير كوست ، لأنه لم يجد مرادفاً لها في الفرنسية ، فترجمها بكلمة « قلق » *inquiétude* ، لعدم وجود ما يفضلها ، وكتبها بأحرف مائلة خاصة ، ليبين أنها تتضمن معنى خاصا جديداً . وسيصادفها مراراً ، لأن لوك يصرعليها :

« كل من يتأمل في نفسه ، سرعان ما يجد أن الرغبة حالة من القلق،

---

(١) سانت برو Saint-Preux بطل رواية « هيلويز الجديدة » أو جوليا *Julie* تأليف جان جاك روسو ؛ وفرتر *Werther* بطل رواية جوته « فرتر » ؛ ورينيه *René* بطل رواية شاتوبرياند (رينيه) . ويمثل فرتر ورينيه ، الرجل الذى يعيش في قلق وعذاب نفس ، بسبب قلبه المريض ، الذى يشمئز من الحياة المادية الملموسة ، ويبتغى أن يتخيل في أفق لامتناه . [المترجان]

(٢) مقال عن الادراك الانسانى ، ١٦٩٠ ، الكتاب الثانى ، الفصل العشرون

لأنه من ذا الذى لم يشعر فى حالة الرغبة بما قاله الحكيم عن الرجاء — الذى لا يفترق كثيراً عن الرغبة — والذى إذا ماطل يمرض القلب (أمثال ، الاصحاح الثالث عشر، ١٢)(١) ؛ وذلك بصورة متناسبة مع شدة الرغبة ، التى تصل بالقلق فى بعض الأحيان إلى الدرجة التى جعلت راحيل (٢) تصيح : هبنى بنين ، هبنى ما أريد ، وإلا أمت؟(٣) » .

ليس وجود شئ معين هو الذى يدفعنا إلى العمل ، بل عدم وجوده . إن أفعالنا رهن بارادتنا ، ومحرك إرادتنا هو القلق . ونحن ، بدون القلق ، نقع فى حالة جمود وخمود : فعليه تتوقف آمالنا ، ومخاوفنا ، وأفراحنا ، وأحزاننا ؛ عليه تتوقف عواطفنا ؛ عليه تتوقف حياتنا . وسيعود أشياع لوك إلى هذا الموضوع ، حتى يصلوا به إلى أقصى سعته . سيعلن كوندياك — فى شهادته لأستاذه (وعنده أنه بين أرسطو ولوك لا توجد فلسفة جديرة بهذا الاسم) ، أنه لا يزال علينا ، بعد لوك ، أن نثبت أن القلق هو المبدأ الأول الذى تنشأ عنه عادات اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والحس ، والتذوق ، والمقارنة ، والتقدير ، والتفكير : كالرغبة ، والحب ، والكره ، والخوف ، والأمل ، والارادة ؛ وأن القلق يولد كل عادات نفسنا وجسدنا . وسيمجد الرغبة ، ويعرف الضجر ، عذاب النفس . وسيعزّز هلفسيوس قول كوندياك ، مصراً على قوة العواطف ، وعلى الألم الذى يخلقه الضجر ، مبيناً أن العاطفيين يفوقون المتعقلين ، وأننا نصبح أغبياء بمجرد ما نقلع عن العاطفة . — لقد بحث الناس عن مختلف الوسائل لتأويل النفسية الرومانتيكية ، دون أن يدور بخلدهم أن يلتفتوا نحو لوك : إن لوك قد توصل إلى الانسيكلوبيديا ، إن لوك خلق علماء الأفكار : هذا كثير . ولكنه أيضاً الرجل الذى لاحظ فى النفس القلق الذى يعذبنا ، والذى جعل منه مبدأ إرادتنا وأفعالنا .

---

(١) « الرجاء الماطل يمرض القلب والشهوة المتممة شجرة حيوة » (العهد القديم) . [المترجمان]

(٢) « فلما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت راحيل من أختها وقالت ليعقوب هب لى بنين وإلا فأنا أموت . » (تكوين ، الاصحاح الثلاثون) . [المترجمان]

(٣) مقال عن الادراك الانسانى ، الكتاب الثانى، الفصل ٢١ ، ترجمة بيير كوست .

وحين يشتغل لوك بالتربية ؛ حين يصنع مخلوقا بشريا ، موحداً بين تجربته كمرب وبين مثله الأعلى كفيلسوف ، فماذا عساه يسعى أن يربى فيه ، إن لم تكن الاختيارية الطبيعية ؟ إنه يقف موقف الثائر ، ويحتج على طريقة تنشئة الأطفال المتبعة فيما حوله . فهم أولا ليسوا أشباحاً ، فلكل منهم ذراعان ، وساقان ، وصدراً ، ومعدة ؛ جسم ينبغى أن نقويه بمختلف وسائل التدريب ، لكى نجعله صحيحاً وسليما . أما ذهنهم ، فيجب أن يحكمه العقل : لا «الروتين»؛ لا سلطة خارجية تعمل دون أن تقابلها موافقة نفسية ، ولا قاعدة تعسفية تطبق على المجموع دون تمييز . ذلك أنه فى كل طفل ملكة طبيعية يجب أن يحسب حسابها . «يجب أن نذهب بالملكة الطبيعية لكل طفل إلى أبعد ما نستطيع . أما الشروع فى إضافة ملكة أخرى إلى ملكته ، تختلف عنها كل الاختلاف ، فهو عناء لا ثمرة فيه . كل عمل من هذا القبيل ، لن يؤدى بنا على الأكثر إلا إلى صورة سيئة زرية ؛ إذ نرى فيها دائما تلك الهيئة المنفرة التى يخلفها الاجبار والتكلف على الدوام . » — « إن الطبيعة البسيطة غير المصقولة ، المتروكة على سجيتها ، لخير من جمال سىء مصطنع ، ومن كل الأساليب المدروسة لاخفاء الخلق الطبيعى وإفساده بدلا من تقويمه . » ينبغى أن تؤثر الفضيلة على المعرفة : لأن المهم فى الحياة ، ليس أن نعرف الكثير ، بل أن نكون شرفاء طيبين . وفوق ذلك ينبغى ، لكى نودع فى الطفل أقل المعرفة التى تلزمه ، أن نحسب حساب تلك الاختيارية التى لا يكف لوك عن التفكير فيها . علينا أن نختار المكان والساعة ، وملاءمة اللحظة ، واستطلاع الطفل . إن التعليم لو فرض كمهمة إجبارية ، كحمل ثقيل ، يصبح مضايقاً غير مستساغ : فلنستفد من هذا المزاج ، من ذاك الاستعداد الموقوت ، وسنرى كيف تسهل المهمة . يجب مساعدة الطبيعة وتقويمها وتوجيهها ، لكن دون أن تخالجها فى ذلك شبهة : ولنستعمل الحيلة قليلا عند الحاجة ، حتى يكون مظهرها أكثر طبيعية .

الفرد : هذا هو فى الأصل ما يهم لوك : لا مدارس عامة . بل مرب حكيم ، يحل محل الأب ، ويضحى بنفسه دون تحفظ ، لتلميذه . لا عقوبات جسدية ، تجلب المهانة والذل . أقل إجبار ممكن ، فيما عدا السنوات الأولى ؛ على أن نزيد الحرية مع مرور الزمن . يجب اتخاذ ألف تحوط بارع حول النبات

الصغير الذى يشق طريقه ؛ وحبذا ألف تدليل حاذق لتبرير الدروس التى نريد أن نودعها فيه . وفى هذه التربية التى تتراءى فى غاية البساطة واليسر ، بينما هى فى الواقع فى غاية التعقيد والكبر ؛ والتى تريد أحياناً أن تبلغ فى رواقيتها مبلغ الشدة ، بينما هى فى معظم الوقت تطلب من الحساسية كل شئ ، وتسمح لها بكل شئ ؛ والتى لا تكف عن الحديث عن الحقائق الواقعية مع أنها زاخرة بالأحلام ؛ فى هذه التربية التى هى برنامج مخصص لتلميذ ، وفى نفس الوقت رواية يسجل فيها الأستاذ ثورته ، وأسفه ، وآلامه ، ورغباته : نرى هنا أيضاً الرجل الذى سيؤكد علنا ، بعد سبعين عاما ، إيثاره للوك : جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau .

استطيقا الشعور

« إن الذهن الفلسفى الذى يجعل الناس « متعقلين » إلى هذا الحد ، سيجعل شطراً كبيراً من أوروبا ما جعل القوط والوندل (التيوتون) منها فيما سبق . . . أرى الفنون الضرورية ، مهملة ؛ والمعتقدات المكتسبة النافعة كل النفع للمجتمع ، تفنى ؛ والتفكير النظرى مفضلا على الحياة العملية . إننا نتصرف دون أى تقدير للتجربة ، أصلح مرشد للجنس البشرى . والعناية بالأجيال المقبلة ، مهملة كل الاهمال . وكل النفقات التى تكبدها أجدادنا فى العقارات والمنقولات قد كنا نفقدها ، ولم نكن لنلاقى فى الغابات خشباً للبناء ، ولا حتى للتدفئة ، لو أنهم كانوا « متعقلين » بالطريقة التى نحن عليها الآن. » إن الذى يسمعنا هذه الأقوال الجريئة هو الأب ديبو Dubos . إن « تأملاته النقدية عن الشعر والرسم » التى ظهرت فى عام ١٧١٩ ، لنتيجة لدراسة بطيئة عميقة .

كان هناك فريقان ، الأول فريق أولئك الذين يريدون تحويل الفن نفسه إلى عقل صاف . ما هو الجميل ؟ ما هو الذوق السليم ، الذى يتيح لنا تمييز الجميل ؟ ما هو الجليل الجمال ؟ مسائل عويصة ! كان هناك الفلاسفة ؛ وليس الفلاسفة فحسب ، بل كل أولئك الذين لا يثقون إلا بالذهن الهندسى لايجاد الحلول ، وإن لم يكونوا فلاسفة — سواء بحسب العادة أو الانسياق

أو البدع . — كانوا يقولون ، كما سمعناهم ، إن الجميل هو الحقيقى أو على الأقل شبه الحقيقى ؛ ومادام هو الحقيقة فهو يشارك من جانبه فى الأخلاق والفضيلة ؛ وإن الذوق السليم يقوم على مبادئ ، على نماذج ، وبالتالى يستطيع أن ينطق بأحكام أكيدة طبقاً لقواعد ثابتة مكينة .

طبقّ فلسفة الفن هذه فى الحياة العملية : تصل إلى «التأكدم» Académisme . تقليد القدماء . معرفة تامة لقواعد فنية ، على كل فرد أن يخضع مواهبه لها . دراسة الطبيعة : لكن فى الوقت نفسه ، كيفية تقويم هذه الطبيعة وتنظيمها ، التى تبيح — فى تفاصيلها — كثيراً من النزوات والأهواء . لقد أصبح لو بران Le Brun رسام لويس الرابع عشر ، الذى خلده النجاح والزمن ، والسلطة الملكية ، شبه مؤسسة ؛ إن لو بران هذا — الذى يذكّرنا مجرد ذكر اسمه بمجموعة من اللوحات الفخمة المثلجة فى إطاراتها الذهبية ، يعلم تلاميذه أصول التعبير : كيف يجب تصوير الغضب ، الدهشة ، والفزع ؛ أو — وهو الأصعب — التقدير ، الاعجاب ، التبجيل . من التقدير إلى الاعجاب : « لا يعترى الوجه إلا أقل القليل من التغير فى كل ملامحه ، وإذا حدث تغير ، فانما يكون فى رفع الحاجب ليس غير ؛ لكن بشرط أن يبقى الجانبان متساويين ، وتكون فتحة العين أوسع قليلا من المعتاد ، وكذا الحدقة بين الجفنين ، مثبتة دون حركة على الشئ الذى أثار الاعجاب . ويفتح الفم أيضاً لصف فتحة ، على أن يبدو بدون تغير ، مثله فى ذلك مثل بقية ملامح الوجه . » وهكذا فيما تبقى ؛ كل شئ مقدر ، مرتب ومنظم . الجمال هو العقل موضوعا فى « روشتة » . . .

والفريق الثانى أقل عدداً ؛ الرسامون الذين لا يقنعون بلو بران كنموذج ، والمثالون الذين يسعون إلى الابتعاد عن نماذج « برنان » ليستبدلوا الظرف والجمال بالنبل والفخامة ، والمعماريون الذين يحلمون ببناء مساكن جميلة يؤوى فيها المتحررون عشيقاتهم ، بدلا من كنائس مشيدة على طراز « جيزو » ، أو قصور على طراز فرسايل : شباب يتحرقون وقد فرغ صبرهم إلى قطع كل صلة بالكبار ، بالأساتذة . ثم هواة يواجهون المحترفين ، وفى ثورتهم على التقاليد الأكاديمية ، يجترئون فى المطالبة بحقهم فى إعزاز ما يروق لهم : مثل روجيه دى بيل الذى يفضل رامبراندت Rembrandt وعلى الأخص روبنز Rubens على

المدرسة البولونية(١) ، ولا يتورع من إعلان ذلك دون حياء . إنه ليس ثوريا على وجه التدقيق ، بمعنى أنه لا يهاجم المذاهب السائدة مدفوعا برأى مبتسر ؛ لكنه يريد أن يكون رجلا لا ينقص من شخصيته : وهذا بحسب الظروف ، أقل من الثائر قليلا ، أو أكثر منه كثيراً . بل حتى خلوه من الرأى المبتسر يشارك فى إضفاء لون طريف من الحرية على أقواله . فمثلا : « إن العبقرية أول شئ يجب أن نفترضه فى الرسام . هذا أمر لا يمكنه اكتسابه بالدراسة ولا بالعمل . . . » — « إن الاجازة من الضرورة بحيث لا يخلو منها فن من الفنون . إنها تخالف القواعد ، إذا التزمنا الحرفية ، أما إذا أخذنا بالروح ، فان الاجازة تصبح قاعدة إذا استعملت استعمالا مناسبا . . . (٢)»

من بين أولئك المتمردين ، يبرز الأب ديبو . لأنه يجمع بين مزايا نادرة ، فهو فى الوقت نفسه رجل مجتمع وعالم ضليع : فلم يكن تردده على المجامع العلمية يقل عن تردده على دور الأوبرا . ولأنه أوتى ذهناً رقيقاً ، وقوياً معا . ولأنه فرنسى جداً ، ومختلط . ولأنه رجل عمل ، وفيلسوف . ولأن مخالطته للوك (وقد عرفه فى لندن ، واستوثق من أمانة ترجمة بيير كوست بمراجعتها على النص الأصلى) دفعت به صوب مصدر الحساسية الذى كشفه الانجليزى الكبير : وأدرك ديبو أن هذه الحساسية يمكنها أن تروى ظمأ المعاصرين غير المفهوم . إن الحساسية منبع الجميل ، منبع الجليل الجمال ، ومنبع الفن . وهو يأخذ على عاتقه إثبات ذلك للناس .

إن « التأملات النقدية عن الشعر والرسم » تعج بالأفكار ؛ لقد أجرى الأب ديبو كثيراً من التجارب ، وشهد كثيراً من اللوحات ، وحضر كثيراً من الكوميديات والتراجيديات والأوبرات ؛ إنه يهوى المحادثة ، المحادثة التى لا تقنع بالكلمات بل تعمل على إذكاء التفكير ؛ وهو لبق كل اللباقة ولو لم يملك الحقيقة تماما ، حتى إن كتابه ليعطيك تأثيراً عن ثروة لا ينضب لها معين .

---

(١) المدرسة البولونية . نسبة إلى مدينة بولونيا بايطاليا ، مقر مدرسة مشهور فى عصر النهضة . ورامبراندت رسام هولندى شهير من أهل ليون ، يعد من أكبر عباقرة الرسم ، وروبنز رسام شهير من أهل الفلاندر ومن روائعه « صلب القديس بطرس ، وصورة هيلين (١٥٧٧-١٦٤٠). [المترجمان]

(٢) مختصر عن حياة الرسامين، ١٦٩٩ .

إنه يريد أن يدخل عليه شيئاً من التوازن ، ويقسمه إلى أجزاء : إلا أن بعضها قصير وبعضها طويل ، والشروح تقف أو تستطيل على هواها ؛ والموضوعات تختفي بعد أن تتناول ، أو تتكرر كيفما تشاء : هذا ليس بالتأليف الكلاسيكي العظيم على الاطلاق ، بل إنه من نوع « روح القوانين » وإن كان أقل منه تألقاً . إن الحساسية التي تتحرر بكل مشقة من روح التحليل ، تتبدى بفضل عناية ذكاء رقيق ، يستعين بالمثل والواقع .

أي نفوذ « للمؤثر » على النفوس ! أليس عجيباً أن نرى الشعر والرسم يثيران فينا إعجابا أكثر لو نجحا في أن يحزنا قلوبنا ؟ إذا وجدنا في بهو عرض ، فان اللوحة التي تمثل التضحية البشعة بابنه « يفتاح »(١) تستبقينا أطول من اللوحات المرحة وتغرينا أكثر منها . إن قصيدة موضوعها الأساسي وفاة أميرة فتية ، تدخل في برنامج إحدى الحفلات ، وهذه الفاجعة تفتن جماعة لم تجتمع إلا بقصد التسلية . « أبيح لنفسي أن أوضح هذا الواقع الغريب ، وأن أشرح مصدر المتعة التي تفيئها علينا الأشعار واللوحات . . . »

الواقع : أن أعدى أعداء الناس السأم . وهم يتخلصون منه إما بالاحساس وإما بالتأمل . إلا أن الوسيلة الأولى أقوى ؛ إن العاطفة تتملكنا تمام الامتلاك . وإن الانفعال الذي تثيره فينا ليبلغ من الحيوية أن كل حالة نفسية أخرى لتبدو بازائه خموداً . إلا أن العواطف الحقيقية لها عواقب خطيرة ، عرفناها بتجارب أليمة . فماذا نحن فاعلون إذن ؟ نحن نقلد الموضوعات التي قد تبعث فينا العواطف الحقيقية . تلك مهمة الفن . « إن الرسم والشعر يبعثان فينا هذه العواطف الصناعية ، بتقديمهما لنا تقليداً للموضوعات القادرة على أن تبعث فينا العواطف الحقيقية . »

إذن ، فالصيغة المتفق عليها عموما : الفن يساوي العقل ، لا قيمة لها . الفن يساوي العاطفة ؛ عاطفة مصفاة ، لكن ممثلة في كل قوتها . ودرجة القوة العاطفية هذه ، تفسر تدرج الأنواع : فالتراجيديا تؤثر فينا أكثر مما تؤثر الكوميديا ؛ « كل نوع يؤثر فينا بقدر ما يستطيع الموضوع — الذي من جوهره

---

(١) قصة يفتاح الجلعادي وابنته (العهد القديم ، قضاة ، الاصحاح الحادي عشر) . [المترجمان]

أن يصوره ويقلده — أن يؤثر فينا . لذلك يجتذبنا النوع الرثائى والنوع الرعائى أكثر مما يجتذبنا النوع المسرحى . » ورويداً رويداً يتجدد كل شئ ، سواء فى التأليف أو فى النقد ، مادام الأمر لا يتعلق إلا بتصوير العواطف بصورة فعالة ، ومعرفة ما إذا كانت قد صورت بهذه الصورة أو لم تصور . إن الأب ديبو سوف يذهب فى بحثه عن سر الفن ، حتى أعمق أغوار كياننا ، حتى الاحساس ، القيمة الأولى : إن القيم الفكرية لا تظهر بالنسبة إليها إلا شاحبة ، هزيلة ، صناعية . إنه يقول « أعتقد أن نفوذ الرسم على الناس لأبلغ من نفوذ الشعر ، وقوام اعتقادى هذا سببان . أولها أن الرسم يؤثر علينا عن طريق حاسة البصر . والثانى أن الرسم لا يستعمل علامات اصطناعية كما يفعل الشعر ، بل علامات طبيعية . وبالعلامات الطبيعية يؤدى الرسم تقليده . » إن المتعة التى يفيئها الأسلوب حسية . والمتعة التى تفيئها موسيقا الشعر هى الأخرى حسية . وما أبعد العبقرية عن أن تكون موهبة ضعيفة نحاول عبثا أن نقويها بالتقليد ، والتدريب ، بل هى موهبة طبيعية ، قوة بدائية ، لا شئ يعوقهــا ، تعلو على القواعد والقوانين . وما من ريب فى أنها قوة فيزيقية : « هذه العبقرية شعلة إلهية ، حمية ، لها بلا ريب أسباب فيزيقية ، مزية خاصة فى الدم ، مضافة إلى استعداد حسن فى الأعضاء . » وسنعرف ذلك فيما بعد ، عندما تكتسب هذه الشروح الفيزيقية ، غير الكاملة اليوم ، الضمان الكافى . ولكن ، يمكننا أن نتساءل من الآن عما إذا لم يكن للأسباب الفيزيقية نصيب فى التقدم العجيب للآداب والفنون ؟ عما إذا كانت الشمس ، والهواء ، والجو لا تؤثر على إنتاج الرسامين والشعراء ؟ عما إذا كانت هذه القوات لا تؤثر على الآلة البشرية بأسرها ؟ إن صفات ذهننا وميولنا تتوقف كثيراً على خصائص دمنا ؛ وهذه الخصائص تتوقف على الهواء الذى نستنشقه ، وعلى الأخص فى فترة تكويننا ، فترة طفولتنا ؛ ذلك هو بلا ريب السبب فى أن الشعوب التى تعيش فى أجــواء مختلفة ، تختلف ذهنا ، كما تختلف ميولا . . .

إن ديبو يقف عند هذه النقطة . أى مرحلة قطعناها ! أى علامة ساطعة على ثورة مزدوجة ، ضد الطريقة الأكاديمية الدجماطيقية ، وضد التجرد العقلى من جهة أخرى ! حينما سطر الأب ديبو أفكاره ، لم تكن كلمة « استطيقا » قد اخترعت بعد . إنها لن تظهر إلا فى عام ١٧٣٥ ، فى رسالة دكتوراة لشاب

ألمانى ، اسكندر أسيديه بومجارتن . ومع ذلك نجد فى « التأملات النقدية » محاولة استطيقية تستند على الشعور . الألوان والأصوات ، الأرض والمياه والسماء ، كل مانرى ، ونسمع ، ونلمس ، كل ما يتصل بحياتنا الحسية ، كل ما فى دخيلتنا ، من عاطفية ، وحيوانية ، ومادية على وجه التقريب — كل هذه تحتج على نسيان العقل الخالص لها وازدرائه إياها .

ميتافيزيقا الجوهر

فى فلسفة ليبنتز ، نستطيع أن نجد مطالبة أخرى : مطالبة بميتافيزيقا تستند على قيمة اللامتناهى فى الصغر ، مالا يرى ، مالا يدرك ، الغامض ؛ على قدرة « الديناميكية » النفسية ؛ على وجود جواهر بسيطة هى بمثابة ماهية الغريزة الحيوية ، ماهية « الإنية » .

لم يكن ليبنتز ليقبل أن يكون للهندسة التفسير النهائى للأشياء . وكان يكن لديكارت إعجابا خالصاً ، لكن مع نفور أخذ يتكشف من كتاب إلى كتاب ، إلى أن كتب أخيراً وصيته الفلسفية « المونادولوجيا » Monadologie فى عام ١٧١٤ ، قبل وفاته بسنتين . ولم تنشر مباشرة ؛ إذ أخفاها الأمير « أوجين دى سافوا » فى صندوق صغير ؛ ولم يطلع عليها إلا بعض العلماء الاختصاصيين : كنز مخفى . . . وسوف يأتى اليوم الذى تخرج فيه الرسائل والأبحاث من ثنايا الظلام ، حيث يفتح الصندوق الصغير ، وحيث يؤثر الجوهر الروحى الذى يتضمنه تأثير الخميرة .

كان يأخذ على ديكارت إغفاله للعناصر الهامة ، بما اقترفه من خلط بين الامتداد والجوهر ، بين الحركة والقوة الحية . ووضوحه البادى الذى يرجع إلى أسلوبه فى البت فى كل شئ إلى قسمين ، وإهماله للتدرج الذى يوصلنا إلى اللامتناهيات فى الصغر ، وجهله بأحاسيس النفس الغامضة . لقد قال صراحة فى « المونادولوجيا » إن عدم حسبان الأحاسيس التى لا ندركها ، هو موضع القصور فى المذهب الديكارتى : كما أنه ذكر قبل ذلك بعشر سنوات فى كتابه « مقال جديد عن الادراك الانسانى » ، أنه فى كل لحظة تحدث فى أنفسنا تغيرات كثيرة لا نحسها ، لأنه إما أن تأثراتنا ضعيفة جداً وعديدة ،

و إما أنها متحدة . لقد جعلتنا العادة لا نهتم لحركة طاحون أو مسقط مياه ، لو عشنا على مقربة من أيهما فترة من الزمن ؛ ومع ذلك فان هذه الحركة تؤثر دائما على أعضائنا . عندما نكون على الشاطئ نسمع صخب البحر : ينبغي أن نحس إذن صوت كل قطرة فى كل موجة : ومع ذلك نحن لا نحسها . إن ديكارت لم يلاحظ هذه الأحاسيس غير المحسوسة ، التى هى أساس الحياة السيكولوجية . « نحن مضطرون إلى الاعتراف بأن الاحساس Perception وما يتعلق به ، لا يمكن شرحه بالأسباب الميكانيكية ، أى بالصور وبالحركات . ولو افترضنا أن فى الاحساس آلة ، تجعلنا عدتها نفكر ، ونشعر ، ونحس ؛لاستطعنا أن نتخيلها تكبر محتفظة بنفس النسب ، بحيث يمكننا أن ندخل فيها كما ندخل فى طاحون . أما وقد افترضنا ذلك ، فلن نجد فى داخل هذه الآلة عند زيارتنا لها ، إلا قطعاً تدفع كل منها الأخرى ، ولن نجد فيها أى شئ يشرح لنا الاحساس. وهكذا ينبغى أن نبحث عنه فى الجوهر البسيط ، لا فى المركب ولا فى الآلة...»

هذا الجوهر البسيط هو « الجوهر الفرد » La Monade ، الذرة الحقيقية للطبيعة ، عنصر الأشياء . وما يسترعى النظر فى طريقة شرح ليبنتز لخصائص هذا الجوهر الفرد — الذى يأخذ التفسير المبدئى للحياة من الفزيقا وينسبه إلى الميتافيزيقا — هو الدفاع عن قوة نفسية فردية وحمايتها ؛ فبينما يعمل سبينوزا على تحويل الخاص إلى الشامل ، ينشد ليبنتز توافقاً يمثل فيه الشامل دون أن يفقد الخاص حقوقه . لا يمكن أن يتغير الجوهر الفرد فى صميمه بفعل مخلوق آخر ؛ وليس به منفذ يتيح لأى شئ أن يدخل فيه أو يخرج منه . ولكل جوهر فرد خصائصه النوعية بالنسبة إلى ما يجاوره من جواهر فردية ، إذ لا يوجد فى الطبيعة أبداً كائنان متماثلان . والجوهر الفرد قابل للتغير مثل كل مخلوق : ولكن نفس هذا التغير يتوقف على مبدأ داخلى ولا يأتىمن الخارج .

إن صفة الجوهر الفرد هذه ، لمن البروز بحيث تنجم عنها مشكلة : مادام الجوهر الفرد جوهراً بسيطا ، ومادام لا يتضمن شيئا إلا ما يأتيه من دخيلته ، ألا يكون هذا حكما عليه بالعزلة ؟ — كلا ؛ بفضل « الاتساق المقدر » : Harmonie préétablie (١) .

(١) كل شئ فى الطبيعة يفسر بضرورة فيزيقية ، تعرض لنا فى شكل يشغل امتدادا ، لكن لا تستمد مبدأها من شكل يشغل امتدادا . إن المادة الملموسة تفترض روحا ، =

أما كيف يضع ليبنتز هذا التوافق العجيب ، فهذا ماليس علينا أن نعيده هنا ، لأن تاريخ الفلسفة كله يشرحه أكثر مما نستطيع أن نفعل . ولكن فى متناولنا من الآن ما نحتاج إليه لبرهاننا — ما وراء الشعور : L'inconscient — القيمة الجوهرية للذهن : « كل ذهن بما أنه بمثابة عالم منعزل ، مكتف بنفسه ، مستقل عن كل مخلوق آخر ، مشتمل على اللامتناهى ، معبر عن الكون ، فهو دائم ، باق ، مطلق ، كعالم المخلوقات . » — تصوير شاعرى لتكاثر الحياة :

« قد يكون كل جزء من المادة بمثابة بستان عامر بالنبات ، و بمثابة بركة عامرة بالأسماك . ولكن كل فنن فى النبات ، وكل عضو فى الحيوان ، وكل قطرة من أخلاطه ، هى أيضاً بستان مثل ذلك البستان ، بركة مثل تلك البركة .

وبالرغم من أن الأرض والهواء المحجوزين بين نباتات البستان ، أو المياه المحجوزة بين أسماك البركة ، ليست نباتا ولا سمكا : فهى مع ذلك تحتوى نباتا وسمكا ، ولكنها غالباً من نوع دقيق جداً يستعصى علينا إدراكه .

وهكذا ، ليس فى الكون شئ بائر ، مجدب ، أو ميت ، لا خواء ولا اختباط إلا فى الظاهر . . . (١) »

= تحقق بمجهودها الوحدة الحقيقية للجوهر . هذه الروح أو الجوهر الفرد ليست لجة كالذرة — التى تقبل التقسيم دائما مادامت تشغل استدادا — : ولكنها أيضا ليست مجردة كنقطة رياضية مماثلة لغيرها من النقط . إنها تفترق عن غيرها بمقتضى صفتها ، وتأتى وحدتها بأكملها من نشاطها الموجه ...

فلنفترض فكرة تأثير متبادل مباشر بين بعض الجواهر وبعض فى الكون . من المحقق أن حالة كل جزء من المادة تعبر عن الكون ، أى تتحول بمقتضى تحولات كل عناصر الدنيا : فالقدح الذى أمامى يعبر بصلابته ولونه وكل خصائصه ، عن المسافة الحالية بين الشمس « وكلب الجبار » ، وعن كل مصادر القوة التى يمكن أن يكون لها مفعول حالى عليه . ولكن لو فرضنا أن الحركة ليست « متعدية » ، لو أنكرنا أن الاستداد له قدرة على النقل أو التوصيل - لأن صوره ثابتة جامدة لا حياة فيها - فاننا لاندرك هذا التأثير المتبادل بين الجواهر إلا بصورة غير مباشرة ، بوساطة قدرة خارقة للطبيعة ، وعن طريق عدد لا متناه من الحركات الانبعاثية المنتظم بعضها على بعض . إن ظواهر التأثيرات المتبادلة قائمة : وهى محل دراسة العلم . هذا التصور عن الصلات بين الجواهر هو مايسميه ليبنتز « الاتساق المقدر » . (مقتطف من مقدمة ل پرينان ، فى « مختارات مصنفات ليبنتز ») Leibniz, *Œuvres Choisies*, Garnier, *Préface de L. Prenant*. [المترجمان]

(١) المونادولوجيا ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

وأخيراً توكيد اتساق سام ، اتساق يدخلنا ، وقد افتتنا به ، فى مجال الحب الصافى .

العلم الجديد

نابولى . الشمس ؛ بهجة الحياة . صيحات ، وضوضاء . وفى الأزقّة المنعطفة، أكثر جماهير الدنيا حركة . حيوية ، وحب استطلاع منقطعا النظير ؛ حركة تثقيف واسعة . محادثات حامية ، اجتماعات ، ندوات ، حيث رجال يحملون بكل خفة أثقال معرفة هائلة ، يثيرون كل المسائل العلمية والفلسفية ، و يمحّصون كل المذاهب ، و يجمعون كل الوقائع . فى نابولى التى تستقبل — لأنها تستدعى — رسائل الفكر الأوربى ، وتعرف كيف توفق بينها وبين عبقريتها ؛ فى نابولى المبتدعة والمليئة بالضوضاء ، والتى تبدو هنا كرمز للقوة والحيوية ، ولد فى ٢٣ يونيو ١٦٦٨ جيامباتستا فيكو .

لقد عرف ذهنه كل أنواع الاجبار ، وعرف كيف يتخلص منها جميعاً . عرف كيف يتفادى خطر أن يكون طفلا إعجازيا ؛ أن يكون تلميذاً منصاعاً لأساتذته ، لا يقسم إلا بأقوالهم ؛ أن يكون أسيراً لاحدى المهن ؛ بل حتى أن يكون سعيداً ، وهو أخطر ما يتهدد من يروم التفكير . قرأ أرسطو ، وجميع الاغريق ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما ، غاسندى ولوك ، ديكارت وسبينوزا ، مالبرانش وليبنتز ، دون أن يصبح عبداً لأحد ، قانعاً باختيار أربعة نماذج : إفلاطون ؛ تاسيت ؛ باكون ، الذى رأى « أن العلوم الانسانية والالهية فى مسيس الحاجة لأن تصل فى أبحاثها إلى مدى أبعد ، وأن القليل من المكتشفات التى توصلت إليها مازال فى حاجة إلى تصحيح » ؛ وجروسيوس ، الذى « جمع كل الفلسفة فى نظرية قانونية شاملة ، والذى أقام لاهوته على تاريخ الوقائع خيالية كانت أو محققة ، وعلى تاريخ اللغات الثلاث : العبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، وهى وحدها اللغات القديمة العليمة ، التى أوصلتها إلينا الديانة المسيحية . . . » . ولكن مهما بلغ تأثير هؤلاء العباقرة عليه ، فان ذلك لا يمنعه من مراجعة مبادئ معرفتهم من أساسها . إن فيكو قد بقى هو نفسه ، بصورة أليمة ورائعة .

إنه يملك نوعى الذكاء ، النوع الذى يفهم ، والنوع الذى يخلق . إن حميته تجعله يحيد عن الطرق التى اختطها بنفسه ؛ وهو يكثر من المجاز ، ومن الخيال ؛ ينحو نحو التحليل ثم على حين غرة يعمل بوحى من حدس فائق . وهو يقيم براهينه وفقا لأسلم قواعد المنطق ؛ ثم يتعجل فيتعدى إثباته ، بسبب طبيعة ذهنه أكثر مما هو بسبب سعة الموضوع الذى يتناوله . وهو عنيد فتراه يكرر ويعيد ، ضيق الصدر فتراه يسرع ، إذ يعرض لنا النتائج بينما هو لم ينته بعد من المبادئ الأولى ؛ إنه مفتون بالجديد ، بالجرئ ، بالغريب ، بالصحيح ، الذى يزيح عنه أكوام الأخطاء ثم يذيعه على العالم ، هو ، جيامباتستا فيكو . لا يعرف الاتزان الكلاسيكى ؛ وهو بفورته ، وعصبيته ، بل هوسه أيضاً ، يمثل الرجل المتبرم غير الراضى : فهو أبداً لم يثبت الاثبات الكافى ، أو يصحح نصوصه ، أو يجدد تفكيره ، أو يفرض على القراء اكتشافاته العجيبة . إنه متصلب الرأى ، صعب المراس ، غير ودود ؛ وهو متعاظم ، غضوب ؛ يشعر بتفوق عبقرية لا يعترف به معاصروه ، الذين لا يفهمونه ، ولذا فهو يتألم أشد الألم . عندئذ يضاعف مجهوده لاقناعهم ؛ ويشرع فى كفاح ضدهم ، وضد نفسه . لابد من أن ينتهى باشراكهم فى سره العظيم ، سر « العلم الجديد » .

والحق أنه سيكون جديداً ؛ أولا بالمقدرة التى يؤثر أن يستعملها ، وهى الخيال الخالق . إن للنقد دوره وفائدته بلا مراء ، غير أنه لا يتفق تمام الاتفاق مع المغزى العميق للحياة : التى ليست تجرداً ، بل خلقاً متصلا . — وسيكون جديداً بمنهجه ، المنهج الذى يرفضه الناس من حوله ، المنهج التاريخى . غير أن التاريخ ليس عبارة عن روايات المؤرخين : بل هو يطالع فى كل الآثار التى خلفتها الانسانية من تلقاء نفسها على طول طريقها : الشعر البدائى ، اللغة ، القانون ، والأنظمة ؛ كل ما كان كيفية لكيانها . — وسيكون أيضاً جديداً بحركته : لأنه يسير مخالفاً مجرى العصور ، ويبحث عن الحقيقة لا فى أقاصى المستقبل البعيد بل فى مصادر الجنس البشرى . وسيكون جديداً فى ماهيته . إنه معرفة الصيرورة الجماعية ، معرفة الكائن الذى يخلق نفسه ويعرف نفسه فى الوقت ذاته ، ويجد ضمان يقينه فى المماثلة بين الفاعل والمفعول : العلم ، هو خلق الانسانية بالانسانية ، المسجلة أيضاً بالانسانية . « من وسط هذا الليل العميق البهيم ، الذى يغلف الزمن القديم ، الذى نبعد عنه أيما بعد ، يلوح

لنا نور أبدى ليس له غروب ، حقيقة لا يمكن أن تساورنا فيها شكوك : لاريب فى أن هذه الدنيا المدنية من فعل الناس . إذن من المحتمل ، لأن هذا مفيد ولازم ، أن نجد مبادئها فى تبدلات ذهننا . »

***

أيها المسكين ، أيها العظيم فيكو ! إن الناس لم يفهموه ، إنهم لم يكادوا يعيرونه أسماعهم ، كانت أفكاره بالغة الجدة ، تختلف كثيراً عن الأفكار التى قبلها الناس من حوله . كان الآخرون يمجدون النظرى ، العقلى ؛ يخجلون من ماض يبدو لهم مثار فضيحة لمدنيتهم التقدسية ؛ يرون التاريخ كذبا والشعر تمويها ، يطّرحون الحساسية ، تلك المريضة ؛ والخيال ، ذلك المجنون . أما هو فيرفض — بعناد العبقرية — أن يعد جسم الانسانية قطعة تشريحية ، ويصر على البحث فى اختلاج الحياة من جديد . إنه يستعين بالفقه ، والفيلولوجيا ، والصور ، والرموز ، والأقاصيص ، حتى تتوطد بينه وبين الماضى رويداً رويداً أواصر الألفة ، فيصل إلى أغوار الهوات السحيقة ، ليكشف تاريخ تطورنا والصورة المثالية لذهننا ، معاً .

ولم يقبل الناس الغصن الذهبى الذى أتى به . لذلك يمكننا أن نسمع فى « العلم الجديد » Scienza Nuova (١) صيحة نفس ساخطة . إن الانفعال يحاول أن يرفع الجمل المشحونة بالتفكير ، ليساعدها على سهولة التحليق ؛ ويسعى فيكو — طامعاً فى إثبات كل شئ فى آن واحد ، خاشياً من أنه لم يقل الكفاية أبداً ، مستعجلا ، لاهثاً ، ثقيلا — فى أن يقدم لمعاصريه المؤلف العظيم الذى يقابلونه بعدم اكترات . علينا أن ننتظر ثلاثة أرباع قرن ، قبل أن يلقى هذا الكتاب الرائع شعاعه الساطع على الأفق الأوربى .

---

(١) مبادئ علم جديد ، (الطبعة الأولى ، ١٧٢٥ ، الثانية فى ١٧٣٠) .
Principii di una Scienza Nuova intorno alla commune natura delle nazioni (Première édition, 1725 : *Prima Scienza Nuova.* Deuxième édition, 1730 : *Seconda Scienza Nuova*).

الفصل السادس

الحميــــة الدينيــة

كل هذه الأبراج التى تشرف على الأرياف ، وكل هذه الكاتدرائيات التى تتزاحم حولها البيوت فى المدن ، متوسلة إليها أن تتسامق نحو السماء . الشعاع الذهبي للشموع التى تخفق أمام الهياكل ، صوت القسس وجوقة المؤمنين ، دستور الايمان المسيحى ، وأنشودة العذراء ، رنين الأجراس ، وعبق البخور . الكنائس العديدة ، والمعابد ، والمساجد ، وكل مكان يجتمع فيه الناس ليعترفوا بالسر الذى يحيط بولادتهم ، وحياتهم ، وموتهم ، وليعهدوا إلى الله بالتفسير الأسمى الذى لا يستطيع عقلهم وحده أن يتوصل إليه . . .

إن الضرورة الدينية تدافع عن أبديتها .

***

نحو ذلك الوقت ، استشعر المؤمنون تهديد جهود المفكرين الأحرار ، والكفار لهم ؛ وأشارت جمهرة من علماء الدين إلى الخطر المستفحل . وإذا كان بعضهم قد قبل — دون تردد — الكفاح فى الميدان العقلى ، فقد أخذ البعض الآخر ينشد أسلحة أخرى . كانت الذئاب الضارية تتكاثر حول القطيع ، فلم يكن بد من خضد شوكة هجومهم بوسائل دفاعية جديدة : فلنرد على الكفر الصريح بتقوى أشد حيوية ! لن يظفر العدو بمن يسهرون ويتعبدون .

« هذا القرن الجليل الذى يمكن أن ندعوه عصر الفكر ، أو عصر الحب الخالص . . . » هكذا كان يعبر هنرى بريموند فى دراسته للحياة المسيحية فى ظل « النظام القديم » ؛ وكان يبين أن تقدم المذهب الديكارتى ، لم يوهن فى النفوس التقية ، لا حيوية تقبل حقائق الايمان الأساسية ، ولا مزاولة العبادة . وإنى لأود أن أحجز واحداً من كتب الصلوات التى يذكرها دعما

لأقواله ، واحداً بريئاً وجميلا ، « ساعة لعبادة القربان المقدس الدائمة » ، المؤرخ عام ١٦٧٤ . هذه الساعة المقدسة تسجل أوقات الأخطار الداهمة ؛ يستطيع المؤمنون أن يتخيلوا ، باستماعهم إلى دقاتها ، هجوم الأعداء الذين يهدفون إلى تدمير الايمان بقيادة إبليس ؛ كل ساعة تستدعى خيالا يثير الرعدة . منتصف الليل : يخرج أسراء الظلام من كهوفهم ، فى الليل البهيم — وهو الشطر الرئيسى من مملكتهم — ، دون أن يفارقهم العذاب والنيران التى يحملونها فى كل مكان ، ويطيرون فوق الأرض لجمع معاونيهم الأشرار . . . الساعة الخامسة صباحاً : يلقى « بالخبز المقدس » إلى الكلاب . . . ولكن كل إهانة يقابلها دعاء معوّض ؛ وتوقظ دقات هذه الساعة الرهيبة « غريزة جديدة » ، « حمية خفية » ، لم يكن هناك داع لظهورها فى هدوء الأيام الخالية من الكفاح .

حياة حساسة تزداد نموا ؛ لعل هذه هى النقطة الأساسية هنا ؛ هنا تسجل مبادئ علم الدفاع عن الدين المسيحى — وإن كان لا يزال على شئ من الغموض — الذى يستغرق قرنا بأكمله قبل أن يتقوى . أنوار المعرفة ، حسناً : ما من كنيسة عدوة للنور . العقل ، حسنا : ما من كنيسة تزعم أنها فى غنى عن مشاركة العقل . ومع ذلك ، ودون حسبان لصور الكفر الصريح المتطرفة، وإذا لم نعتدّ إلا بالتبدلات التى تعتمل فى متوسط الضمائر ، — فقد فقد الدينَ عون قوة ذهنية تريد الانفصال عن الايمان ، والاستغناء عنه ، وتشكيل مثل إنسانى أعلى من دونه . « لاشك فى أن عصرنا عليم مستنير . لقد حققنا تقدما كبيراً فى العلوم وفى الفنون ، سواء لأننا هيأنا لها مبادئ أفضل ، أو لأننا وضعنا لها أدلة وبراهين أقوى . كم من مكتشفات حديثة ، كم من تجارب جديدة ، وضعناها فى وضح النهار ، لنساعد الذهن على التغلغل إلى ماوراء تلك الحدود التى كانت برية العصور السالفة تحتجز عندها أنوار المعرفة! —ومع ذلك يحق لنا أن نشك فيما إذا كان الدين قد لقى فائدة كبيرة من كل تلك الأبحاث الجميلة ؛ وفيما إذا لم يكن قد خسر أكثر مما كسب ...(١) » يمكنه أن يعوض ما فقد، إذا طلب العون فى قوات نفسية أخرى ، مما يحتقرها خصومه أو ينكرونها.

---

(١) اسحق جاكلو ، بحث فى وجود الله ، لاهاى ١٦٩٧ ، مقدمة .

إن البراهين الميتافيزيقية على وجود الله ، أفضل البراهين بلا مراء ؛ ولكنها ليست فى متناول « العاديين من الناس ، الذين يمتثلون لخيالهم . » أما بالالتجاء إلى خيالهم وحساسيتهم ، فيستطيع عالم الدين المسيحى أن يقنعهم بوجود الله . أفلا تثبت آيات الطبيعة وجوده ، وعظمته ، وطيبته ؟ حجة ليست جديدة ، ولكنها تكتسب قيمة جديدة لو أعطيناها لونا خاصا ، لو انقلب البرهان إلى اندفاق عاطفى . عندئذ ندخل فى حالة من الاعجاب تفسر كل شئ فى حالة شاعرية لا يقاومها شئ . أنظر إلى الغابة : « فى الصيف تحمينا هذه الغصون بظلالها من أشعة الشمس ؛ وفى الشتاء تغذى الشعلة التى تحفظ فينا الحرارة الطبيعية . وليس خشبها مفيداً للوقود فحسب ؛ بل هو مادة رقيقة طيعة ، بالرغم من صلابتها ومتانتها ، تستطيع يد الانسان أن تعطيها دون عناء ، الشكل الذى يشاء ، لأكبر الأعمال المعمارية والملاحية . وفوق ذلك ، فان أشجار الفاكهة ، بميل فروعها نحو الأرض ، تبدو كأنما تقدم للانسان ثمارها . . . » — أنظر إلى المياه : « لو أن الماء كان أقل كثافة لأصبح نوعا من الهواء ، ولأصبح كل ما على وجه البسيطة جافا مجدبا ؛ ولما وجد إلا حيوان طائر ؛ ولما استطاع أى نوع من الحيوان أن يسبح ، ولا أى نوع من السمك أن يعيش ، ولما وجدت أى تجارة للملاحة . لو أن الماء كان أقل كثافة ، لما استطاع أن يحتمل تلك العمائر العائمة الهائلة التى نسميها سفنا ؛ ولغاصت أقل الأجسام وزنا فى الماء ... » انظر إلى الأجواء وإلى النار ؛ انظر إلى الأفلاك ، وإلى هذا الفجر الذى « لم يقصر مرة واحدة منذ آلاف السنين عن أن يبشر بالنهار ، يبدؤه فى وقت معين ، فى لحظة محددة ومكان محدد . » انظر إلى الحيوان : « فقد أوتى الفيل خرطوما ، لأنه لو كانت رقبته فى مثل طول رقبة الجمل لكانت تثقل عليه كثيراً نظراً لضخامتها . . . (١) »

قليلا من الوقت ، وسيأتى نيوفنتجت Nieuwentijt ، وسيأتى الأب بلوش Pluche اللذان سوف يثبتان وجود الله بآيات الطبيعة أمام جمهور واسع : ومن بعدهما برناردان دى سان بيير ، ثم شاتو بريان .

---

(١) فنيلون ، إثبات وجود الله ، مستمدا من معرفة الطبيعة ، ١٧١٣ .

***

عند هذه النقطة من طريقنا ، وعلى عتبة آخر ملاذ ، حيث يتحمس رجل الشعور ، فلنتذكر « جو تفريد أرنولد » ، حاملا فى يده كتابه « تاريخ مقسط للكنيسة والالحاد » . إنه يقول لنا إنه تاريخ مقسط لأن الذى كتبه رجل لا ينتمى إلى مذهب من المذاهب ، ويستعمل المنهج التاريخى لا اللاهوتى . وإنه عام ، لأنه لا يقبل أن توجد كنيسة واحدة ، وإنه سيتكلم عن كل الكنائس التى تبشر بالايمان بالله وبالسيد المسيح . وإن كتابه يريد على الأخص أن يكون تاريخا مجيداً للالحاد .

والواقع أننا إذا صدقنا قوله ، نخطئ فى شأن الملحدين ، الذين لا يفهمهم الناس ويفترون عليهم . الملحدون ، اسم يطلقه أصحاب المصالح على من يضرون بمنافعهم ونفوذهم . إن أصحاب المصالح يباهون بأنهم أرثوذكس : إلا أن الأورثوذكسية ليست الايمان . قبول العقائد والصيغ بدون تمحيص ، والخضوع للسلطات ، وعد الايمان عملا فعالا opus operatum : تلك هى الأرثوذكسية ، التى ليست فى الواقع إلا « عقلية » فارغة ، تجهل التجارب الدينية ، واليقظة والبعث .

إن الملحدين الحقيقيين ليسوا أولئك الذين يخاطرون بأن يخطئوا ، مع سلامة نيتهم ؛ بل هم على النقيض أولئك الذين يعيشون كالوثنيين ، رافضين الخضوع لنفوذ الله ؛ أى الأنانيون ، والدجماطيقيون ، وغير المتسامحين .... هكذا يتكلم فى عام ١٦٩٩ جوتفريد أرنولد ، العالم ، المتمرد ، المتصوف : أولئك الذين نعدهم عادة ملحدين ، هم المسيحيون الحقيقيون ، أتباع المسيح ، الذين يطهرهم الألم ، وتزكيهم المحبة ؛ وأولئك الذين نسميهم الأورثوذكس ، ذوو القلوب الجافة المجدبة ، هم الملحدون .

***

فلندخل الآن تحت قيادته ، إلى دائرة النفوس الغيورة .

فى عام ١٧٠٩ ، طردت آخر الراهبات اللواتى كن لا يزلن مقيمات ببور — رويال ، وفى عام ١٧١٠ دمر هذا الدير . وسيقضى على مذهب جانسينيوس

قضاء مبرما ؛ إن المذهب الذى أزعج كنيسة فرنسا منذ سنوات عديدة سيغلب أخيراً على أمره : ubi solitudinem faciunt, pacem appellant أينما حولوا إلى خراب قالوا إنهم أتوا بالسلام(١) . — لكن لا ، فان هذا المذهب ينتشر فى الخارج ، ويكسب أشياعا شيئاً فشيئاً ، وتبقى له مراكز فى لوفان ؛ وفى أترخت حيث تؤوى كنيسة عنيدة المنفيين والمبعدين ؛ وفى مدن مختلفة فى ألمانيا ؛ وفى فينا حتى فى البلاط الامبراطورى ؛ وفى بيمونت ولمبارديا ، وليجوريا ، وتوسكانيا وحتى فى روما ؛ ويقوم أتباع جانسينيوس بدعاوة واسعة فى إسبانيا . وفى فرنسا تجدد العراك ، عنيفاً كأول يوم ، على إثر إعلان القرار البابوى ***Bulle Unigenitus*** (٢) فى عام ١٧١٣ . إذ ينشر كينيل القسيس بالأوراتوار كتابا عن « الأخلاق الانجيلية » ؛ ويحرم البابا مائة قول وواحد من هذا الكتاب ؛ وكأنما كان ذلك إيذانا بمعاودة القتال ؛ فأخذ المعارضون ، والمؤيدون ، والموفّقون يتجادلون ، وسوف يتجادلون خلال سنين طوال . وسيظهر عن قريب المتعصبون المتشنجون Les convulsionnaires (٣) — وسوف تحدث معجزات ، فى أثناء المواكب الاحتفالية ، وعلى مقابر القديسين ؛ وفى هذه المرة ستبلغ الاضطرابات مبلغ الفضيحة . وإذا كان لمذهب جانسينيوس عنصران أحدهما لاهوتى والثانى أخلاقى ، فان الأول سوف يضعف مع مر الزمن ، بينما يزداد الثانى قوة . إن الحسرة والقلق النفسانى ، والاسترابة فى شأن السلام ، وذكرى الاضطهاد الأليمة ، والايمان بالآيات المنتقمة ، لا تتبدد بارادة الملك ولا بقرارات روما . لم تعد الجانسينية مذهباً ، بل أصبحت على مر الزمن روحا ، روحا عنيفاً صارما ، يسرى فى مواجهة سريان التهوين فى العقيدة والأخلاق .

وكان البروتستنت السفينيون Camisards (٤) ، الذين يتعقبهم البوليس

---

(١) كلمة للشاعر تاسيت فى « حياة أجريكولا » على لسان جالجاكوس البطل الكلدانى . تطلق على الغزاة الذين يبررون ما يسببون من خراب بحجة المدنية . [المترجمان]

(٢) قرار أعلنه البابا كليمان الحادى عشر بادانة مذهب چانسينيوس . وقام على إثره عراك عنيف بين أتباع چانسينيوس والجيزويت . [المترجمان]

(٣) صفة لأتباع چنسينيوس المتعصبين ، فى القرن الثامن عشر ، الذين كانوا يقعون فى تشنج عصبى لفرط حماستهم الدينية . [المترجمان]

(٤) كاميسار : لقب لبروتستانت السيفين الذين تسلحوا عقب فسخ أمر نانت . وكانوا يرتدون صدرية تسمى Camiso ومن هنا هذا اللقب . [المترجمان]

الراكب ، ويعذبون إذا وقعوا فى قبضته ، شهداء الايمان — يقعون من باب أولى فى فوران عاطفى شديد ، يزداد غلواً حتى يصل إلى درجة الوهم . فلننظر إلى أحد رؤسائهم ، ابراهام مازل الذى خلف لنا مذكراته أو بمعنى آخر اعترافه . « قبل أن أتناول السلاح ببضعة أشهر ، وقبل أن تدور بخلدى أية فكرة ، حلمت أنى أرى فى بستان ثيرانا ضخمة سوداء ، سمينة جداً ، ترعى فى كرمب البستان . وأمرنى شخص لا أعرفه أن أطرد الثيران السود إلى خارج البستان ، فرفضت أن أفعل ، إلا أنه لما أصر وكرر أوامره أطعته وطردت الثيران . وعلى إثر ذلك نزل على الروح القدس ، وأمسكنى كالعادة مسكة رجل قوى ، ثم فتح فمى وجعلنى أقول فيما أقول إن البستان الذى رأيته يمثل الكنيسة ، وإن الثيران السود السمينة هى القسس الذين يلتهمونها ، وإنى إنما استدعيت لتنفيذ هذه الرؤيا . وقد أوحى إلى أكثر من مرة أن أستعد لحمل السلاح للكفاح بجانب إخوانى المضطهدين ، وإنى سأحمل الحديد والنار ضد قسس الكنيسة الرومانية وسأحرق مذابحهم . » بالوحى ، يعقدون اجتماعات فى الغابات ، وينزل عليهم « الروح » بصورة مرعبة حتى إن الرعدة التى تهز أجسامهم تلقى بالخوف والذعر فى قلوب من يشاهدهم . بالوحى ، يحملون السلاح ، ويسيرون ، ويهاجمون ، ويتفرقون . بالوحى ، يحرقون الأبرشيات ويقتلون الخوارنة . ولما قبض على مازل سجن فى برج كونستانس فى أيج — مورت . وقد نشر أحد أحجار البرج ، ليهرب ، و « كان يستشعر وحى الروح كلما اشتغل بهذا العمل . »

ولعل حالة إيلى ماريون تحيرنا أكثر . « فى اليوم الأول من هذا العام ١٧٠٣ ، أسبغ الله على شرف زيارة روحه ، ومن أول وحى نطقت به ، قيل لى فيما قيل ، إن الله قد اختارنى منذ كنت فى بطن أمى لتمجيده . » إن إيلى ماريون هو « المختار » ، البشير بعهد المسيح المجيد . فلنتذكر — دون أن نتبعه فى معاركه ، وفى هزيمته — الطريقة التى انتهجها فى معيشته فى لندن ، حيث التجأ فى عام ١٧٠٦ . إن الأوهام تتملكه ، فيتنبأ ، وينزل عليه « روح الله » ، ويروعه ؛ وينفجر ضد ضعاف الايمان والقسس أكثر مما يرعد ضد الملحدين والكفار . وكان قبل ذلك قد فضح قسس جنيف ، الذين أبوا أن يصدقوا بقرب مجئ المسيح . « إن هذا المجئ الثانى لبمثابة الشمس لهم ،

لا تستطيع عيونهم أن تحتمل شعاعها إذ يعميهم . فليحذروا أن ينبذوا كما نبذ اليهود من قبلهم ! » وفى لندن يرعد ضد القسس الفرنسيين ، ضد الانجليكان ، وضد الجميع ؛ وهكذا تبدأ قصة عجيبة أليمة . أولئك « الأنبياء » الكاميساريون وقد طردوا من الكنائس ، وأرذلتهم الجماهير ، وقبض عليهم ، وقدموا للمحاكمة، وأدينوا ، يستشعرون لهباً يزداد اضطراما على الدوام . وهم يكسبون أنصاراً من الانجليز ، لأن مرضهم معد ؛ وتغتنى جماعتهم بطائفة إنجليزية هيستيرية . وذات يوم يعلنون أن النهاية قد أوشكت ، وأن النار سوف تلتهم « المدينة » بما فيها من كفار : ولن ينجو إلا المؤمنون ؛ ولكى يتعرفهم الملك المدمر ، عليهم أن يرتدوا شريطاً أخضر إما فى ذراعهم وإما على رءوسهم . ومرة أخرى يتنبأون أن اضطهاد « الأنبياء » سيتوقف قبل مرور ستة أشهر ، وتتأيد حقيقة رسالتهم : وتمر الستة الأشهر دون حدث جديد . ومرة أخرى يزعمون قدرتهم على بعث الأموات . وينظر الشعب الانجليزى مندهشاً إلى أولئك المتحمسين ، أولئك المجانين ؛ ويظهر حيالهم فى بادئ الأمر أمارات فروغ الصبر ، ثم عنفه البارد . وحكم على إيلى ماريون بالحناك العلنى pilori ؛ وقد كتب على ورقة معلقة فوق رأسه : « إيلى ماريون ، المعترف بادعائه أنه نبى حقيقى — وهذا كذب وكفر — وبأنه نشر وأعلن كثيراً من الأقوال بدعوى أن روح الله قد أملاها عليه أو أوحى إليه بها ، بقصد إثارة الرعب فى رعية المملكة . » وأخيراً سيغادر إيلى ماريون البلاد ، متبوعا ببعض المخلصين الذين سيظلون ملتصقين به فى عناد ، وستنتقل الجماعة الصغيرة من بلد إلى بلد حتى الآستانة ، حتى آسيا الصغرى ، مبشرين دائما ، متنبئين دائما ، مهددين دائما ؛ مضطهدين ، مسجونين أحيانا ، ولكن حاملين فى أنفسهم شعلة جنونية ، زاعمين أن يجعلوها تشتعل فى كل الشعوب : إنها بريق الضوء النازل من السموات ليكشف فى ليل شعوب الأرض عن الفساد الموجود فى ظلماتها . . .

***

إن قدرية سبينوزا تمثل — من وجهة نظر معينة — صلابة العقل . ومع ذلك فهناك شئ من اللذة فى الاستغراق ، والذوب فى « الكائن » الشامل : إنه شعور ، بل إحساس تقريباً . هذا الانضمام إلى النظام الذى يسود الدنيا ،

الذى هو الدنيا ، وهو الله ، وهو كل شئ ، يجب أن يكون واعياً و إراديا ليكون له أثره الفعال : ولكنا نستطيع بميل يسير أن ننزلق من هذه الصفة الارادية إلى إذعان سلبى ، يصبح استسلاما . فلا عجب إذن إذا رأينا تصوفا يتوالد من « علم الأخلاق » ، وينتشر فى هولندا وفى ألمانيا . — ولكنا لازلنا ، مع أولئك ، الاسبينوزيين ، على مبعدة من الدوائر الأخيرة ، أكثرها حمية .

مادمنا ننعى على قسس اللوثريين نفس الرذائل التى نعوها على الكاثوليك ؛ ماداموا قد أضحوا عبيداً للحرفية لا للروح ؛ مادامت لا تحدوهم شفقة ولا إيمان ؛ وماداموا ينتفعون بالمال من مباشرة عبادتهم ، بل إنهم يسمحون بمشترى العقاب بالنقود ؛ ومادامت مواعظهم ، بدلا من أن تكون منابع للحقيقة وللحياة ، قد أصبحت خطباً محفوظة عن ظهر قلب ؛ ممزوجة ببعض الفكاهة الشعبية ، ولا صلة لها مطلقاً بعظات كلام الله : فقد تولد ، ضدهم ، وانتشر فى ألمانيا ، مذهب « الخشوعية » ، دين القلب . الخشوع ، القلب ؛ هاتان الكلمتان ستترددان كثيراً بقلم ولسان الرجل الذى أتاح للحساسية الألمانية ، المكبوتة منذ أمد طويل ، أن تظهر إلى وضح النهار ، « فيليب يعقوب سبنر ». كان قسيساً فى فرانكفورت لما واتته فكرة تأسيس « مدارس التقوى » ، فى عام ١٦٧٠ : ليس واجب القسس أن يجادلوا ، وأن يتصايحوا ، بل هو على النقيض أن يذكوا الحياة الباطنة ؛ وعلى ذلك فقد كان يجمع فى المساء ، مرتين فى الأسبوع ، ذوى الارادة الطيبة لقراءة الكتاب المقدس ، والتعبد ، وليتركوا الله يؤثر فى نفوسهم . وكانت هذه هى الخطوة الأولى ، وقام بالثانية لما نشر فى عام ١٦٧٥ *Pia desideria, oder herzliches Verlangen nach gottgefalliger Besserung der wahren evangelischen Kirche* (تمنيات صالحة ، أو رغبات المؤمنين القلبية لاصلاح الكنيسة الانجيلية الحقيقية) . عندئذ اتسع نشاطه ، وشمل القسس ، والمؤمنين ، يدعوهم إلى العودة إلى إيمان حى فعال ، إلى إيمان قوامه المحبة . فى ١٦٨٦ ينتقل إلى درسدن ، ويصبح واعظاً فى البلاط ، ومرشداً لمنتخب ساكس ، وعضواً فى مجلس الكرادلة الأعلى : وقد لا يكون لهذه الألقاب قيمة ، لو لم تسمح لنا بتقدير مدى نفوذه ونجاحه : فالطلبة والنساء يستمعون إلى كلمته المستحرة والخطيرة فى نفس الوقت ؛ وتجتمع الدوائر — بوحى منه — لدراسة الكتاب المقدس ؛ وأصبحت كلمة « الخشوعى » Piétiste

لازم : الاتحاد بالله . . .(١) — هنا لا يزال شئ من الحركة باقيا ؛ وسوف يلغيه أنصار الركونية .

***

كيف نفسر النزاع الذى أوقع بين أشهر أسقفين فى كنيسة فرنسا ، بوسويه وفنيلون ، والذى دفعهما إلى تبادل اللوم والاتهام ؛ إلى الالتجاء إلى روما حتى حكم على أحدهما بالادانة — إلا إذا وجدنا فى هذا الجدال الكبير حالة خاصة لميل عام ؟ كان مذهب « الركونية » Quiétisme (٢) صورة من صور التصوف التى كانت تزعزع أسوار الكنائس فى كل مكان ، باسم الشعور المنطلق .

أى أحلام عذبة لم يتعلل بها فنيلون ؟ إنه يتأهب للرحيل ؛ اليونان مستعدة لاستقباله ، السلطان يجزع فيتراجع ؛ وكان يرى — وهذه هى ألفاظه بالضبط — الشقاق يزول ، والشرق والغرب يتحدان ، وآسيا التى تئن حتى ضفاف الفرات ، والتى ترى بزوغ النهار بعد ليل طويل . أو كان يتخيل أرضاً من أراضى الأحلام ، أو « أندلسا » مثالى الجمال ، ليصفه بألفاظ كلها إعجاب : شتاؤه دافئ ، وصيفه غير محرق ، السنة بأكملها كأنها زواج سعيد بين الربيع والخريف اللذين يبدوان كأنما يشدان على أيدى بعضهما ؛ تربته من الخصوبة حتى إنها تفئ محصولا مزدوجا ؛ وأشجار الرمان والغار والياسمين تحف بالطرق العبقة . أو كان يبنى بيديه المدينة الخالية من العيوب ، « سالانت »(٣) :

---

(١) Agir en Dieu . . . يشرح بول هازار هذا التعبير بأنه يعنى « الذوب فى الله » ، أى الاتصال فى الفكر بالله . أنظر الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر ، الجزء الأول ، باب « السعادة » ، ص ٢٤ . [المترجان]

(٢) الركونيه Quiétisme : مذهب تصوف ، يرى أن الكمال المسيحى فى محبة الله ، وفى عطلة الروح عن الحركه . وكان لهذا المذهب ممثلون فى كل عصر ، وأشهر رؤسائه القسيس الاسبانى مولينوس Molinos ، الذى نشر فى منتصف القرن السابع عشر كتابا فى التصوف ، جعل فيه الدين فى صورة مثالية حتى لم يعد يفهمه العامة . وقد قبل فنيلون هذا المذهب وتكلم عنه فى مؤلفاته ، وكانت حركاته هذه ولا سيما وهو أسقف « كامبرى » ومربى ولى العهد ـ سببا فى نزاع شديد بينه وبين بوسويه الذى رأى أن هذا المذهب يفقد المرء شخصيته ولا يترك له أى قوة أو إرادة لمحارب الشر . [المترجمان]

(٣) سالانت : انظر تيلماك ، الكتاب الثامن . [المترجمان]

مجيدة بعد أن كانت مرذولة . كان أوجست هرمان فرانك خشوعياً ، ولما كان عليه أن يعظ بالايمان ، وأحس أن الايمان يعوزه ، وقع فى اليأس ، وجثا ، متوسلا إلى الله أن ينقذه من حالته التعسة : فيلهمه الله ، وتكون رسالته أن يعمل على إنارة الآخرين بدوره . والأمراء ، والنبلاء ، الذين ينشدون سلامهم بأنفسهم خشوعيون أيضا ، وكذلك البورجوازيون ، وعامة الشعب ؛ إن ألمانيا تفيء إلى الايمان .

وسوف تسرى العدوى على الدوام ، العدوى التقية . سيغادر سبنر Spener درسدن قاصداً برلين ، ويكسب منتخب براندبرج ، وعندما يحول هذا الأخير أكاديمية هال إلى جامعة ، فى سنة ١٦٩٤ ، سيصبح سبنر موجهها ومحركها . وهكذا ترتفع قلعة « الخشوعية » ، محوطة من كل جانب بأعمال مسيحية . ماذا تمثل إذن تلك القلوب المتحمسة ، والمنتصرة هنا ؟ أولا ، أثراً باقياً ، أثر بوهم Boehme المتصوف ، الحاضر فيهم على الدوام — ثم رفضاً ، تمرداً على الميل إلى تبلور وإلى تبريد موجة الحياة الدينية التى تنبثق فى نفوسهم . — وبصورة أعمق ، فكرة أن المنهج التحليلى والبحث المنطقى لايمثلان كل المعرفة ؛ وأن الوضوح ليس حتما كل الحقيقة : إنها تحمى الحدس ؛ إنها تحفظ إمكان المعرفة المباشرة ، إمكان الاتصال الكلى بمنبع الحياة الأبدى — الإنية Le Moi ، وفى الإنية ، قوة المقدرات العاطفية ، وهى أكثر شخصية ، وأكثر فردية من المقدرات الأخرى . — التمسك بقوام أولى Substratum ، تهدده صور التمدن الدينى المعتادة فى كماله وسلامته .

إن فوارق الشعور المتعددة تغنى حياتهم . إذ يستشعرون نضوب عواطفهم، وإجدابهم ، وضياعهم ؛ ويحسون ضيق من يصبح فى الصحراء بلا جدوى : هل هناك أشد إيلاما من انتظار طويل للغفران ؟ ثم تحين ساعة الاعتراف ، والفضفضة ؛ وتلك الضربة التى تصدمهم : المعجزة ، الإلهام ، الوحى المباشر . حينئذ تكون لذة حب سماوى لا نهائية ، ذوب المخلوق البشرى فى « الكائن » الذى يعلم ، والذى يريد ، والذى يعطى للحياة طعماً « سبقياً » من الأبدية . فما جدوى البحث من الآن فصاعدا ؟ وما فائدة الفلاسفة ؟ أو حتى اللاهوتيين ، أو حتى شراح الكتاب المقدس ، الذى يجب أن يفهم من نفسه ، مادامت كلمة الله قد سجلت فيه دون ألغاز ؟ Unum est necessarium : شيء واحد

حيث لا بؤس ولا رذيلة ؛ إن الأراضى الاسترالية لتكاد تستطيع أن تقدم لأبنــاء الانسان سعــادة مماثلة . ففى سالانت يسود الســلام ، والعــدل والنظام الاجتماعى ، والغزارة ؛ حيث تدخل الثروات كمد البحر ، وتترك ثروات أخرى فى محلها عند الجزر . ولـكل صعوبة « علاج يسير » . ضربة عصـا سحرية وكل شئ يتغير فى الحال : سكان الحضر سعداء ، والقرويون سعداء ، والنساء سعداء ، وكذلك الأطفال ، والـكهول . « كان الـكهول ، وقد ذهلوا لرؤيتهم ما لم يجرأوا على أن يتمنوا رؤيته بعد مثل هذا العمر الطويل ، يبكون لفرط الغبطة المشوبة بالحنان ، رافعين أياديهم المرتجفة نحـو السماء . . . » وفى الخــارج يسود السلام . فلصد هجوم الأعداء ، يكفى الوقوف فى وسطهم ، وإلقاء خطبة عليهم . عندئذ يلقى الجنود سلاحهم ، ويتعانق الجميع ، فى بكاء ودموع .

ذلك أن فنيلون يهوى الدموع ؛ إن أبطال « تليماك » يذرفون أنهاراً ، بل سيولا من الدموع ، تغرق الـكتاب . كاليبسو ، أوكاريس وفينوس ؛ تليماك ،منتور ، فيلوكليس ، وإيدومينيه ، يسكبون كثيراً من تلك الدمـوع الغالية . إنه يريد أن يكون محبوباً ، رقيقاً ، حنونا . إذ يقول فى « رسالته عن مشاغل الأكاديمية » : أفضل المحبوب ، عن المذهل ، والعجيب ؛ ويقول فيه أيضاً إنه يود أن يسمح فى اللغة بكل ماينقصنا من تعبير ، يكون جرسه رقيقاً : فيجيبه مدير الأكاديمية « الرقة التى تمتازون بها . . . » . كان محسنا ، كريماً ؛ ولقد عرف وباشر بسليقته كل طرق افتتان القلوب ، ما تقاوم منها وما تسلم .

ولـكنه كان يعلم أيضاً أن خياله كان طموحا ، ملحاً ، لا يقنع بالتحليق فى « ما وراء الواقع » . كان عليما بقدرته على أن يكون متكبراً ، متجبراً ، بل كانت تكمن فى نفسه قوات حية من الحقد . كم كان بعيداً عن الـكمال ! كم كان تعساً بهذه المتناقضات ! نفس معذبة ، قلب كان فريسة للحزن ، وللضجر ، ولذا كان يتطلع متألما إلى « أغوار لا تشرح » فى كيانه الأخلاقى ؛ فيحس عندئذ شعوراً من الاشمئزاز ، لأنه كان يرى فيه أفاعى — على حد قوله .

إنه يتوق إلى مياه نقية تستطيع أن تروى غليله ؛ ويتحرق إلى الغفران الذى قد يمحو نقائص الدنيوى ، الدساس ، الطموح ، الممثل ؛ ويتمنى كمالا

ليس فى مقدوره أن يصل إليه بلا عون ؛ إنه يتألم من قلقه . هنا ولا شك ، سر نفوذ مدام جويون Guyon : إنها لم تنل هذه السيطرة العظيمة عليه ، إلا لأنه كان يشعر بحاجته لأن يصهر و يمحو الأغلال التى تثقل كاهله فى نار التصوف . كانت مدام جويون قد كسبت طالبات مدرسة سان سير Saint-Syr (١) ، وكبار السيدات ، و مدام دى مانتنون نفسها : كسب سرعان ما ضاع ، لأن هذه النفوس تتدارك خطأها عند أول إشارة . ولقد حاولت أن تكسب بوسويه : مهمة عسيرة جداً ، فانها لم تفلح حتى فى استثارة أى رغبة عنده ، لأن إيمانه لم يكن فى حاجة إلى هذا العون المشتبه فيه . إن هذه المرأة ، بصفتها امرأة ، هذه السيدة التى « لديها فكرة كبيرة عن نفسها » ، التى تباهى بأنها تتنبأ ، وتواتيها الرؤى ، وتأتى بالمعجزات ، — كانت موضع كراهيته . عندما تدعى أن الدعاء ينبغى أن يكون فناء كاياً للنفس ، وأنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من الله ، ولا حتى عفواً عن خطاياها : انتهى أمرها ، إن مدام جويون ملحدة ، لن يستمع إليها بوسويه . أما عند فنيلون ، ذى القلب المهموم ، ذى القلب المحموم ، ذى الروح التى تبلغ من النبل أن تدرك نقائصها ، ولكنها لا تستطيع لاستغراقها فى الحياة أن تتخلص منها — عند فنيلون ، كانت مدام جويون تأتى بمذهب الحب النقى .

الوسائط بين الله والانسان ، تلك الوسائط التى يبدو بعضها كثيفاً غليظاً ، والبعض الآخر دقيقاً وغير مادى تقريباً ، ولكنها مع ذلك تكوّن فواصل ، يقل احتمالها كلما وصل الانسان إلى هذه الدرجة من الرغبة حيث تبدو له عندها أقل عقبة — مثل لزوم حركة أو وجوب دعاء — أقوى العقبات ؛ هذه الوسائط بين الله ومخلوقه تريد مدام جويون أن تقضى عليها . ولما كانت حديثة فى المذهب ، وقد تملكتها رغبة شديدة فى توجيه الضمائر ، فانها تقول لنا كيف ينبغى أن نعمل لكى نصل إلى هذه الدرجة العالية من الروحانية . فهى تصيح أن تعلموا العبادة ، تعلموا الدعاء : يجب أن تعيشوا على الدعاء ، كما يجب

---

(١) مدرسة أنشأها لويس الرابع عشر بمعاونة م مدادى مانتنون لفتيات الطبقة النبيلة . [المترجمان]

أن تعيشوا على الحب . تعالوا ، أيتها القلوب المسغبة ، تعالوا أيها المعذبون المساكين ؛ تعالوا ، أيها المرضى ؛ تعالوا أيها الخاطئون ، بالقرب من ربكم . تعالوا ، يا من لكم قلب .

إنك تضع نفسك بين يدى ربك ، بفعل من أفعال الايمان الحى ؛ تبتدئ بقراءة بعض نصوص من كتب الدين لا للتفكير والاستدلال بل لحصر الذهن فحسب . ثم تستغرق فى نفسك بعمق ، وتجمع كل حواسك فى دخيلتك . وحين تتأثر عاطفتك ، دعها تسترح فى هدوء وسلام . فلو أنك حركتها أكثر ، لحرمت روحك من غذائها ؛ يحسن أن تهضم ما تتذوقه فى شئ من الراحة المملوءة بالمحبة والثقة .

وتتولد العادة ؛ فتبتدئ الدرجة الثانية من التعليم ، الدعاء فى بساطة . ولا يلزم إلا قليل من الجهد ؛ ويزداد الاحتمال ؛ يكون الشعور بوجود الله أيسر ، وكأنه أقوى . ولا سيما إذا أفاءت الروح على الدعاء حباً صافياً ، متجرداً من كل ما لايكون الحب ذاته ، وبالتالى حباً خالياً من التغرض . لا يجوز أن تطلب الروح شيئاً ، لا يجوز أن تقوم بالدعاء لتحصل على شئ من الله ، لأن الخادم الذى لا يخدم سيده إلا إذا كان يكافئه ، لا يستحق المكافأة .لاابتهال، بل انتظر كل شئ . دعاء يكاد يكفى للاستغراق فى التقوى : ليس الدعاء إلا شعلة حب تصهر الروح وتذيبها .

إن المسيحى الذى يرتقى الجبل المقدس يصل عندئذ إلى الاستسلام : تجرد من كل عناية بالنفس ليسلم قياده كله لله . لا استدلال ولا تفكير . اطراح كل إرادة ، حتى ولو كانت طيبة . عدم اكتراث بكل شئ ، سواء للجسد أو للروح ، بالخيرات الزمنية والأبدية ؛ ترك الماضى فى غياهب النسيان ،والمستقبل للعناية الالهية ، و إعطاء الحاضر لله . فمن يستسلم له تمام الاستسلام فسرعان مايحوز الكمال .

عندئذ تختفى الصفة الذاتية الخاصة للفرد ، منشأ كل خبث . إذ يبعث الله أمامه حكمته تعالى ، كما ستبعث النار على الأرض لتفنى كل نجاسة فى الانسان . النار لا تبقى ولا تذر ، ولا شئ يقاومها إلا وتفنيه . والحكمة الالهية مثلها ، تفنى كل نجاسة فى المخلوق لاعداده للاتحاد الالهى . و إنه لاتحاد يجل عن الوصف. و إذا نحن أردنا ، بالرغم من ذلك ، أن نعبر عنه بالألفاظ ، يمكن القول إننا

تشعر بمحبة علوية تغرقنا فى السعادة . إن فى التنازل عن الأنية ، فى امتلاك اللانهائى ، للذة يستحيل على أى متعة بشرية أن تعطينا فكرة عنها . لافراغ بل غزارة . فالتنازل هو الكسب ؛ التخلى ، هو غنم كل شئ . ليس علينا إلا أن نحب .

هكذا تقدم مدام جويون ، ملخصة لأول مرة بياناتها المسهبة ، إلى من يريد الاستماع إليها « وسيلة مختصرة وسهلة للدعاء ، يستطيع الجميع أن يباشروها بكل يسر ، وهكذا يصلون فى قليل من الوقت إلى كمال رفيع » (١٨٥٦) . ولما كانت جريئة ، دساسة ، فقد كانت تحلم بمشروع تجديد دينى واسع . لم تجد أبداً ، لا فى دوفينى ، ولا فى أثناء تجولها فى طرق بيمونت مع معاونها الأب لاكومب ، وهى تبشر ، وتنشر مذهب مولينوس ؛ ولا فى باريس ، لم تجد أبداً رجلا يقدر على أن يضفى على مذهبها السعة والانتشار . كانت تتمنى أن يكون فنيلون المصباح المشتعل الساطع الذى يضئ الكنيسة المجددة ؛ وأن يبين كيف يجب أن نتعبد « للسيد » فى تناول القربان ؛ كيف يجب أن نكافح الشيطان ؛ وجماع القول ، أن يوطد تحت قيادته سلطان المحبة الالهيـة .

ولعلها قد تكون فى نظر الآخرين امرأة مغامرة : أما عنده هو فكانت المرشد الذى يدفعه نحو الكمال . كم كان من الصعب عليه أن يتخلى عن منطقه، المنطق البالغ الرقة والفطنة ! وأن يتنازل عن حكمته الانسانية ! عن كل تلك العناصر الدنسة التى يناقض وجودها إرادته الطيبة ويؤذيها ! ولكن الحمية الصوفية التى كانت تذكيها هذه المرأة ، كانت تقضى رويداً رويداً على هذا الدنس . « أكن لك إخلاصا متزايداً ، لا يفوقه إلا إخلاصى لله ، وهو وحده عليم بمقدار شكرى لك . » وكان عرضة لنكسات ، وغفلات ، واندفاعات إرادية ، وللكراهية ، ونفاذ الصبر ، والكبر ، ونوبات من الاجداب ، باطناً بالنسبة إلى الدعاء ، وظاهرا بالنسبة إلى الصلة بالناس : فكانت تقوّمه ، وتدفعه إلى التقدم ، وتزيل عنه هذه العوائق . فكان يستشعر تجدداً من السذاجة والبراءة : « يا للسعادة اللانهائية فى تصاغرنا إلى غير شئ ! » ؛ وكان يشعر أنه يصير إلى ما كان يود أن يكون ، ، فانياً ، محروما ، مثل طفل صغير . عندئذ كان ينظم أشعاراً ، على منوال الأغانى :

O pur amour, achève de détruire
Ce qu'à tes yeux il reste encor de moi.
Divin vouloir, daigne seul me conduire,
Je m'abandonne à ton obscure foi ... (١)

أو :

C'est peu pour toi que n'avoir plus de vie
Et qu'abimer ce moi jadis si cher ... (٢)

ولم يكن هذا بكاف ؛ فقد كان لا يزال باقياً فى هذه الأشعار شئ صريح ، واضح ؛ فقد كان يلزمه بعض التتمة ، والهمهمة ، كالأطفال . فكان يعود دائما إلى هذا : أى متعة فى أن يكون المرء مخلوقا يزعم أنه مدين بوجوده لنفسه ، ملئ بالخبث ، قلق ، تعس ، معذب على الدوام — ولا يصبح الآن ، إلا طفلا صغيراً ، نائما على ذراع « الأب » ! وكانت تكتب له : « لابد من أن تصبح يوما بسيطا مثلى . كلما كنت حكيما ، كنت بسيطاً وصغيراً ، بفرض أن الايمان هو أن يقلع المرء عن أن يكون رجلا كبيراً ليصبح طفلا صغيراً . » ويكتب هو لها : « إنى أفتح لله كل امتداد قلبى ، لأتلقى روح الطفولة والصغر ، هذا الذى تتحدثين عنه . » — « يخيل إلى أن الله يريد حملى كطفل صغير ، وأنى لا أستطيع أن أخطو خطوة وحدى ، دون أن أتعثر : وعلى شرط أن ينفذ إرادته فى نفسى ، وبنفسى ، فسيكون كل شئ حسناً ، مهما حدث . »

سيكون كل شئ حسناً . حتى الاضطهادات ، حتى التفسيرات الخاطئة لمذهب مدام جويون : لأنه كان يعدها تفسيرات خاطئة ، ولم ير فى مدام جويون شيئا يزيد عما نراه فى أكبر المتصوفين الذين اعترفت بهم الكنيسة : القديسة تيريزا قديسة يسوع ، والقديس يوحنا قديس الصليب . إلا أن قوما لم يجبلوا على تذوق عذوبة الحب الصافى ، قابضين أيديهم الغليظة على تلك الزهرة الرقيقة للتقوى الجليلة ، كانوا يزعمون أنها ليست جديرة بمذابح المعابد . حتى الحكم المدين ، الصادر من روما بعد معارك طويلة ، لم ير فيه إلا امتحانا ؛ فالتصاغر ، وقبول هذا الحكم ، وإبلاغه فى خطاب رعوى إلى المؤمنين فى أسقفيته ، لم تكن عنده إلا وسيلة للقضاء على رجل الجسد ، وقبول التضحية

---

(١) أيها الحب الصافى ، أنجز تدمير — ما تراه باقيا من نفسى — أيتها الارادة الالهية — اقبلى أن تقودينى وحدك — إنى أستسلم لدينك الغامض ...

(٢) إنه لشئ قليل بالنسبة إليك ألا تكون لى حياة — وأن ألغى إنيتى العزيزة على ...

النهائية ، وإبطال آخر مقاومة للكبرياء ، والانتصار بالله . Inveni portum : لقد وجد الطمأنينة التى لم يعرفها أبداً قبل اتصاله بمدام جويون ، والتى لايريد أن يفقدها حتى مماته . وكان يعترف بأخطائه ، إذا كانت أخطاء ؛ ويفرض على نفسه العقاب ، إذا ارتكب خطيئة : ولكن ذهنه لم يكن فيه محل للخطأ ، ولم يكن فى مقدور قلبه أن يأثم ؛ كان غير شئ تماما ، رماداً — بقبة حب يبلغ من القوة أنه لم يجد قناعة إلا فى موت الكائن الذى اختار أن يحرقه . إن مأساة سيره الباطنى نحو الحب الصافى ، لأهم عند فنيلون من المأساة التى يتجه إليها اهتمامنا عادة — الجدال مع بوسويه ، الرسائل ، البحوث ، الردود ، الردود على الردود ، الأخاص ، المرافعات ، القرارات . مأساة خفية ، لايمكن لرجل الشارع أن يكون لديه ولو فكرة عنها : هل يستطيع أن يتصور الصفة المؤثرة ، الصفة الخطيرة لتحول الماهية البشرية هذا إلى ماهية إلهية ، لهذا التطهر بالنار؟ — « عندما أتحدث عن الحب الصافى ، لا أقصد الحب الحار الذى لا يعمل إلا على تجميل من يشعر به ، والذى يبدو كأنه مخصص له : هذا الحب غير مكمل ، مع أنه الحب الذى يعده الجهال ذروة القداسة . لست أرى حبا صافياً إلا الحب القاسى ، المبيد ، الذى لا يجمّل أو يزين صاحبه ، بل ينتزع منه كل شئ بلا رحمة ، لكيلا يبقى فيه شئ ، وبذا لا يحول شئ دون انتقاله إلى الآخرة . وفيما عدا ذلك لا يمكن أن يكون للحب الصافى وجود . كل عنايته تتجه إلى أن يقبّح ، وينتزع ، ويهلك ، ويضيع ؛ لا عيش له إلا فى الهلاك ؛ إنه مثل هذا الوحش الذى رآه دانيال والذى يأكل ، ويسحق ، ويلتهم كل شئ . »

***

كان لمدام جويون أتباع فى كل أنحاء أوربا ، وقد نشر بواريه Poiret مؤلفاتها، بواريه الذى لم يكن أقل من علّموا «لاهوت القلب» . كان المتحمسون يطاردون بلا جدوى : ما من قوة كانت تتغلب عليهم ؛ وكيف يمكن ردهم إلى جادة العقل، ماداموا يرفضون التعقل ؟ كانوا يتزايدون ، ويتكاثرون ، أولئك الجشعون ، أولئك المتحمسون ، بل أولئك المرضى الذين ، وقد غالوا فى نصائح الأساتذة المغالين ، انتهوا إلى البحث عن الله فى غليان أعصابهم ، فى اختلال أذهانهم ، فى الجنون . لقد كانوا يرفضون أى إجبار ، إجبار الكنائس الأهلية ، التى كانت

تبدو لهم كسجون ؛ و إجبار رجال الدين، الذين كانوا يسمونهم الطغاة ؛ بل حتى إجبار المجتمع ، الذى كان يضطهدهم . ويعدون التقدم فساداً ، والعلم انحلالا . ويقبلون على وجه العموم الخطيئة الأولى ، والخلاص . أما وقد انتهت فائدة هذا الخلاص الأول ، فلابد من خلاص ثان، مجيئه وشيك . لقد انتهى الزمن ، إن «النبى الكذاب» Antéchrist بسيطر على الدنيا ، التى لم يعد فيها مسيحيون حقيقيون:

Cet Antéchrist est né
Ja plus d'un an passé.
Le temps est arrivé
Qu'il soit manifesté.
Je l'ai vu en esprit
Par une claire nuit,
Sur un théâtre grand
Riche et resplendissant,
Couvert d'un pavillon
Bordé à l'environ,
Tout tendu de velours
Incarnat à l'entour.
Dessus un lit mollet
Demi couché il est,
Il n'est plus en bas âge
Ains un grand personnage.
Sa gloire est sans pareille,
On l'estime à merveille;
Fait paraître son train
De nuit, en grand festin:
Il a valets en nombre,
Comme une armée innombre
Du peuple aux environs
De toute nation . . . (١)

---

(١) لقد ولد هذا النبى الكذاب — منذ أكثر من عام — وقد حان الوقت — لكى نزيح عنه الستار — لقد رأيته فى المنام — ذات ليل مضئ — على مسرح كبير — غنى ساطع — يظله سرادق — منقوش الحروف — كله من مخمل قرمزى — مستلقيا على فراش وثير — ليس صغير السن — بل يبدو كرجل كبير — إن مجده ليس له نظير — يقدره الناس أكبر التقدير — يجعل من حياته فى الليل — حفلة كبيرة : عنده عدد كبير من الأتباع — كجيش عرمرم — يحيط به حشد — من كل شعب (انطوانيت بورنيون ، النبى الكذاب المكشوف ، أمستردام ١٦٨١ ، الفصل الثالث والعشرون) .

بدأت النكبة الأولى : الحروب ؛ وسوف تتبعها الأخرى ، الطاعون ، والنار ، والمجاعة . ولكن الله لن يدع المؤمنين يهلكون . عن قريب سيأتى المسيح ، جسما ، وروحا ، وألوهية ، وفى مجد عظيم ، حينئذ يبدأ عهد السعادة الصحيحة .

وكثيراً ما كان أولئك المتحمسون يؤسسون الجمعيات ؛ مثل جوهان جورج جيتشل ، الذى أسس جمعية الاخوان الملائكيين : فعلى أشياعها أن يحولوا الناس إلى ملائكة ، بالتخلى عن كل المشاغل ، وكل الأعمال ، بالتأمل والخمود . أو مثل جين ليد التى أسست مذهب « صوفى المتصوفة » ونظمت شيعة « الفيلادلفيين » ، والتى وجدها جتشل ضيقة الأفق ، ولا تتفق بساطتها مع ذوقه . كانت تقنع برؤى متواترة ، وتنبؤات كالآتية : سوف تفتح الأختام السرية لكتاب الحمل ، سوف يطارد أتيلا العظيم التنين ، وسيرفع الفيلادلفيون راية المحبة المطرزة بالاسم الملكى ، وسينتشر الانجيل فى كل مكان ، وسوف تدين أكثر بلاد الأرض تأخراً للمسيح المنقذ . . .

ولم يكتفوا بالاستسلام العلوى ؛ بل كانوا يرون رؤى إعجازية ، ويقعون فى نشوات وغيبوبات ؛ لم يعد الأمر يتعلق بالمتع الروحية فحسب بل بالمتع الحسية أيضاً . كانوا يكافحون الشيطان ، الذى كان يتبدى لهم فى صور مرعبة ؛ ويخرجون منتصرين من تلك المعارك المضنية . كانوا أنبياء ، شافين ، صانعى معجزات : يالصانعى المعجزات المساكين ، الذين سجنهم الناس ، ورجموهم بالحجارة ، الذين انتقلوا من مدينة إلى مدينة ، ومن بلد إلى بلد ، يتعقبهم أصحاب السلطان ، وفى نفس الوقت جنونهم . وكانوا يجدون سلوة فى التفكير فى أن الشيطان هو الذى يجر عليهم هذا العذاب ، لأنه كان يرى فيهم مدمرى سلطانه وعدة الله . وكانوا يموتون تعساء ، على أسرة المستشفيات؛ وأحيانا يموتون فى عذاب ، مثل كورينوس كوهلمان ، الذى ، بعد أن اخترق ألمانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا وتركيا ، باذراً الحب فى أراض مجدبة جرداء ، محاولا إنشاء الجمعيات فى طريقه ، معلنا أن بابل سوف تسقط وتبتدئ الملكية الخامسة للصالحين — أحرق فى موسكو عام ١٦٨٩ .

فلنفكر فى عددهم الكبير ؛ وفيما بينهم من علاقات ، وروابط ، وصلات ؛ وفى الكتب التى ينشرونها بوفرة ، والتى تجد دائما مترجمين فى كل بلد ، شبكة « تيوصوفية » théosophique واسعة تمتد خلال أوروبا . فلنفكر

فى طبقة أخرى من الأفراد الذين يتغذون بأحلام أخرى ؛ فى أشياع « الصليب الوردى » الغامضين ، فى القبليين Cabalistes ؛ فى الموقفين الذين ينشدون حجر الفلاسفة ، ظانين أنهم سيستطيعون إذابة مظاهر روح الكون الموحدة بعضها فى بعض : حينئذ سوف تتكون لدينا فكرة ، عن تخمر هائل متصل .

إن الشعور يهزمه العقل ، ولكنه لا يقبل هذه الهزيمة . ضد أنوار المعرفة ، كما يفهمها الفلاسفة ، يزعم « الملهمون » les illuminés أن لديهم ناراً تنيرهم وتشعلهم فى وقت واحد . ضد العلم الذى يستأسن المستقبل على تقاسه ، يعلن « اليتوصوفيون » أن لديهم علما مباشراً لدنياً ، هو وحده الذى يحسب له حساب . إن سواد المفكرين المعاصرين يقولون : « المعرفة » ؛ ولكن أقلية تجيب : « المحبة » . إن أنطوانيت بورنيون ، فى حياتها المغامرة المتعدية ، حياتها المضطهدة — تلك المرأة العجيبة التى انتهى الأمر بها إلى ألا يكون لها إلا حياة عاطفية ؛ التى تتصل مباشرة بالله وتحتقر المعرفة لأنها تحجب الحكمة الغامضة التى تكفيها كل الكفاية ؛ والتى تعلن أنه حتى لو اندثر الانجيل ، لوجد المخلوق فى نفسه ناموسا يكفى ليقوده نحو الحقيقة ونحو السعادة (١) — أنطوانيت بورنيون هذه ، واجهت ذات يوم بعض الهولانديين من أشياع ديكارت . « لقد عقدت اجتماعات مع الديكارتيين ، وكونت عن مبادئهم فكرة مروعة . . . لم يرضوا عنها قط ، ولم ترض عنهم بالمثل . لم يكن منهج الديكارتيين من شأنها ؛ لم تكن تريد أن نستشير أنوار العقل ، على حين أن مبدأهم أنه يجب أن نفحص كل شئ بهذا المحك . وكانت تؤكد « أن الله قد كشف لها » ، بل قال لها صراحة إن غلطة الديكارتيين هذه ، هى أسوأ الغلطات ، وألعن إلحاد رآه العالم ، وأنها كفر بيّن ، أو إنكار لله ، الذى يحل محله العقل الفاسد . » يضاف إلى ذلك ما كانت تقوله عن الفلاسفة من أن « مرضهم مرده إلى أنهم يريدون فهم كل شئ بنشاط العقل البشرى ، دون أن يتركوا أى مجال لالهام الايمان ، الذى يتطلب إبطال عقلنا ، وذهننا ، وفهمنا الضعيف ، لكى ينشر الله فيها ، ويذكى ذلك النور الالهى . وبغير ذلك ، لا يقتصر الأمر على أننا

---

(١) النور المتولد فى الظلمات ، انفرس ١٦٦٩ - الطبعة الثانية ، أمستردام ، ١٦٨٤ .

لا نعرف الله حق المعرفة فحسب ، بل إن الله وبمعرفته الحقيقية يبتعدان أيضاً عن النفس بفعل نشاط عقلنا هذا ، وذهننا الفاسد . وإن هذا لنوع من الكفر ، وإنكار الله . . . (١)»

****

«عندما ألغى القرن الثامن عشر ، أو ظن أنه ألغى — والمعنى واحد — صورة الاله ذى اللحية البيضاء ، الذى يشمل كل مخلوق بنظره العطوف ، ويحميه بيمينه ، لم يلغ فى نفس الآن المسألة الدينية . لأن الرغبة الصوفية شئ ، والصورة التى نتخذها رمزاً لهذه الرغبة ، ترضية لأنفسنا ، شئ آخر . فاذا زال الرمز ، بقيت الرغبة . إن الانسان عطش إلى أن يجد فوقه ملاذا سامياً يبث إليه رغباته المكبوتة ، التى تصر على أن تنبجس من أعماق نفسه(٢) .»

(١) بيبر بايل ، القاموس ، باب بورنيون ، بيان ك .

(٢) بيير ابراهام ، شخصيات عند بلزاك ، ١٩٣١ ، ص ١٥ .

خاتمة

ما هى أوربا ؟ بغضاء محتدمة بين جيران يتقاتلون . منافسة بين فرنسا وانجلترا ، وبين فرنسا والنمسا ؛ حرب حلف أوجسبرج ، حرب الوراثة الاسبانية(١) حرب عامة ، كما تذكر المؤلفات التاريخية التى لقيت صعوبة فى تتبع تفاصيل هذه المعارك المهوشة . الاتفاقات لا تؤدى إلا إلى هدنات قصيرة ، والسلام لم يعد إلا حنيناً إلى الوطن ، والشعوب تنهك بينما تستمر الحرب : والجيوش تعاود القتال فى كل ربيع .

إن ليبنتز ، وقد رأى استحالة منع الأوربيين من التقاتل ، يعرض عليهم توجيه حميتهم الحربية الجنونية إلى الخارج . فالسويد وبولونيا تغزوان سيبريا وروسيا الجنوبية ، وانجلترا والدانمرك تختاران أمريكا الشمالية من نصيبهما ؛ ويكون لاسبانيا أمريكا الجنوبية ، ولهولاندة بلاد الهند الشرقية ؛ وترى فرنسا أفريقية فى مواجهتها ، فلتغتصبها ، ولتتوغل حتى مصر ، ولتبسط حتى الصحراء سلطان زهور الزنبق . هكذا تستغل كل تلك الجنود ، كل تلك البنادق ، كل تلك المدافع ، ضد البرابرة ، وضد غير المؤمنين ؛ وهكذا تتباعد المطامع والمصالح فى أقاصى الأرض ، ولا تتصادم بعد ذلك أبداً .

أما الأب سان بيير فلا يقنع بإبعاد المنازعات . « عندما فكرت فى شأن القسوة ، والقتل ، والعنف ، والحريق ، وغير ذلك مما تسببه الحرب من خراب ،

---

(١) حرب حلف أوجسبرج : حلف وقع عقب فسخ أسر نانت بين النمسا وإسبانيا والسويد وبعض أمراء ألمانيا ووليم أورانج ضد لويس الرابع عشر . وامتدت الحرب تسع سنين وانتهت بصلح رزويك (١٦٨٨ - ١٦٩٧) .

حرب الوراثة الاسبانية : بين فرنسا والدول المتحالفة : النمسا وانجلترا وهولاندة بمناسبة جلوس فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) على عرش اسبانيا ، انتهت بمعاهدة أترخت (١٧٠١ - ١٧١٣) . [المترجم]

ولما كنت شديد التأثر بما أصيبت به فرنسا وغيرها من شعوب أوروبا ، جعلت أبحث فيما إذا كانت الحرب شراً ليس له دواء ، وفيما إذا كان من المحال جعل السلام مقيما . . . (١)» أجل ، فلنجعل السلام مقيما ، بل دائماً ! ولتجعل الأملاك الحالية مكتسبة إلى الأبد ، لا تقبل أى تغير أو تصرف ؛ ولكيلا يكون لدى دولة جيوش أكبر مما لدى جيرانها ، تحدد القوات العسكرية ويعين عددها ، وليكن اثنى عشر ألف فارس على الأكثر . وإذا تولد نزاع بالرغم من كل ذلك ، يحتكم فيه إلى « الاتحاد » ، وعند الاقتضاء يعلن «الاتحاد» الحرب على الأمير الذى يرفض الخضوع للنظام الذى وضعه ، أو الاذعان للحكم الذى أصدره . وينعقد مجلس مستديم من مندوبين مفوضين فى مدينة حرة ، محايدة ، مثل أترخت ، كلونيا ، جنيف ، أو أكس لاشابل . . . إن كلمة تفتن الأب سان بيير ، وهو ينظم — بدقة الخياليين — تفاصيل حلمه ؛ كلمة يخالها تتضمن كل الآمال ، كلمة « أوربى » : محكمة أوربيـة ، قوة أوربيـة ، جمهورية أوربيـة . فليسمع الناس له ، حينئذ تصبح أوربا جمعيـة ، بدلا من أن تـكون ميداناً للقتال .

ولـكن عندما أراد ليبنتز فى عام ١٦٧٢ أن يشرك فرنسا فى مشروعه العظيم ، كانت الحرب قد أعلنت على هولاندة ؛ وليس من المحقق أن لويس الرابع عشر قد قابل هذا الفيلسوف الذى قدم من ألمانيا ليمحضه النصح . وعندما جعل الأب سان بيير ، بعد أربعين عاماً ، يقيم سراباً فوق سراب ، تركه معاصروه يبنى أحلامه السابقة لأوانها فى الخلاء . ولما كان الأب سان بيير ، يمتلئ بحمية جديدة ، ويبحث عن عون ، فقد أبلغ خططه إلى ليبنتز ، ذلك البطل العجوز فى قضية السلام الكبرى ، فرد عليه ليبنتز فى حزن شديد. رد عليه بأن أكثر ما يعوز الناس ليتخلصوا مما لا يحصى من الشرور ، هو الارادة ؛ وأن الأمير الهام يستطيع ، فى أسوأ الظروف ، أن يرد غائلة الطاعون أو المجاعة عن حدود بلاده ، إلا أن تفادى الحروب أشق من ذلك بكثير ، لأن الأمر لا يتعلق بقرار رجل واحد ، بل يتطلب مشاركة الأباطرة والملوك . ولا يوجد الوزير ، على حد قوله ، الذى يستطيع أن يعرض على الامبراطور

(١) شارل كاستيل دى سان بيير ، مذكرات لجعل السلام دائماً فى أوروبا ، كولونيا ، ١٧١٢ . مقدمة
Ch. Castel de Saint-Pierre, *Mémoires pour rendre la paix perpetuelle en Europe*, Cologne, 1712. *Préface*

أن يتنازل عن حقوقه فى وراثة عرش إسبانيا ، وبلاد الهند ، لقد كان الأمل فى إدخال الملكية الاسبانية إلى العرش الفرنسى ، مصدر خمسين عاماً من الحرب ؛ ويخشى أن الأمل فى إخراجها منه قد يعكر صفو أوروبا خلال خمسين سنة أخرى . « هناك فى أغلب الظروف ، أسباب مقدرة تحول دون أن يكون الناس سعداء . . . (١) »

***

ما هى أوربا ؟ شكل متناقض : قطعى معين ، وغير ثابت فى وقت واحد . اشتباك من الحواجز ، أمام كل منها أناس صناعتهم طلب إجازات السفر ، ودفع المكوس ؛ كل العوائق الممكنة تقام فى سبيل الاتصالات الأخوية . حقول نعتنى بتحصينها حتى لا نجد وقتاً لاستغلالها ؛ ما من قيراط واحد من الأرض إلا كان محل نزاع من قرون ، وكل مالك يسوره بدوره . لم تعد هناك مساحات واسعة كبيرة حرة ؛ كل شئ منظم ، معين ، محدد ؛ إننا نشعر بضيق واختناق ؛ لا يوجد محل خال : « لقد قدمت إلى الدنيا متأخراً ، حتى إنى لا أكاد أجد فيها شبراً من الأرض لأبنى فيه لنفسى مقراً ، وقبراً (٢) . »

هذه الحدود المعينة ، نجعلها غير محققة ، مادمنا نغيرها تبعاً للفتوحات ، والمعاهدات أو حتى بمجرد وضع اليد . هذه الحواجز ، نقدمها ، ونؤخرها ، ونزيلها ، ونقيمها من جديد ؛ ولا يكاد الجغرافيون ينتهون من وضع الخرائط الجديدة ، حتى تصبح هذه الخرائط عديمة القيمة(٣) . ممالك بأسرها نريد أن

---

(١) ليبنتز إلى الأب دى سان بيير . من هانوفر ، ٧ فبراير ١٧١٥ - اقرأ لنفس المؤلف ، ملاحظات عن مشروع السلام الدائم للأب سان بيير (مصنفات ليبنتز ، طبعة فوشيه ، الجزء الرابع) .

(٢) مارانا : محادثات بين فيلسوف ورجل منعزل عن موضوعات شتى أخلاقية وعلمية، ١٦٩٦ ، ص ٢٩ . انظر أيضا ص ٢٨ : « يحاول الناس فض المنازعات بالعنف والحدة ، فالقوى سيتغلب دائماً على من كان أقل استعداداً للدفاع عن نفسه ؛ وطالما هناك ولايات وممالك ، وشعوب ، ستبقى العداوات والحروب ، تماما كما ستوجد الرذائل طالما هناك أناس فى الأرض . . . »

(٣) جريدة العلماء ، ١٣ إبريل ١٦٩٣ . بمناسبة «الحالة الحاضرة للشئون الأوربية» ١٦٩٣ : « لا يمر يوم تقريبا إلا وتتعرض فيه لتغيير جديد . »

تجعلها تكملة لممالك أخرى ، وجبال البرانس نريد أن نلغيها . ومن هنا هذا التناقض الداخلى : إن أوروبا لمركب من أشكال تزعم أنها لا تمس ، بينما هى لا تكف عن المساس بها .

من جهة الغرب يسود الاطمئنان : فلن تأتى عن طريق البحر أساطيل بربرية كبيرة ؛ ولن يقبل الغزاة الأجانب لتخريب القرى العريقة ، وإذا حدث قتال ، فلن يكون هذا — ولله الحمد — إلا بين إخوان ؛ انجليز ،فرنسيين ، برتغاليين ، وإسبان . — وفى البحر الأبيض المتوسط ، جعل الأتراك يأتون بأعمال مهينة حيال السياح والبلاد الواقعة على الشاطئ : إلا أنهم لا يمثلون خطراً داهماً — أما من جهة الشرق ، فيا للمفاجأة ! فيما مضى ، كان على أوربا أن تدافع عن نفسها أمام جيوش الهلال ، التى جاء دورها لتقبض على زمام المدنية . أما الآن فلم تعد المسألة بهذه السهولة . فهاهم أولاء ملايين من الناس يظهرون على أبواب الشرق ، مطالبين ، تنفيذاً لارادة القيصر ، بالانضمام إلى أوربا . يطلبون أن ترسل إليهم منتجات أمستردام ، ولندن ، أو باريس ؛ ونماذج أيضاً وأساتذة ؛ فهم يحلقون لحاهم وشعرهم ويغيرون ملابسهم ويدرسون اللغة الألمانية . . . لكن نفوسهم ، ترى هل يغيرونها بمثل هذه السرعة ؟ هل سيقنعون بدور التلامذة المتأخرين ، الذين ينصتون فى تواضع إلى دروس إنسانية سامية ؟ وإذا نحن لبينا رجاءهم (وكيف لا نلبيه ؟) أفلا يحتمل أن يعرضوا علينا يوماً حكمتهم الخاصة مقابل حكمتنا ؟ أما كونها حكمة أو جنوناً ، فهذا هو السؤال الذى سيعرض فيما بعد . لكن أوربا تشعر من الآن بشئ من الضيق ، فقد فقدت توازنها بفعل أوربا المنافسة هذه ، بفعل هذا الامتداد والتقليد والتزييف لأوربا التى ظهرت على حدود الشرق .

أوربا ، أرض النزاع والحسد ! الحسد والألم والمرارة . فاللاتين يحتقرون الجرمان ، لضخامة جرسهم ، وجفوة خلقهم ، وبلادة ذهنهم ؛ والجرمان يحتقرون اللاتين ، المنهوكين ، المنحلين . واللاتين يتشاجرون فيما بينهم ؛ يبدو أنهم يتألمون حين يضطرون إلى الاعتراف بمزايا شعب مجاور ، فلا يخطر ببالهم أبداً سوى النقائص . مثل معطف أزموديه ، الشيطان الأعرج ، حيث نرى صوراً لا تحصى منقوشة بالحبر الصينى : فليس بينها صورة جميلة ، بل كلها قبيحة : سيدة إسبانية متشحة تغازل أجنبياً فى الطريق ؛ سيدة فرنسية تتمرن أمام المرآة

على حركات مغرية جديدة ، لتجربها على قسيس شاب ، يتقدم إلى مدخل غرفتها ، وقد جمّل وجهه بالأحمر وبخال اصطناعى ؛ جماعة من الألمان ، غارقة فى الفوضى ، وقد صرعهم النبيذ ولوثهم الطباق ، يحيطون بمائده تفيض بآثار فسقهم ؛ انجليزى يقدم إلى رفيقته بكل رشاقة غليوناً وقدحا من الجعة ...(١) وبالمثل ، أدخل إلى حديقة السيد سبكتاتور : تجد الأزهار ، بمجرد أن تصبح شعاراً للشعوب ، تفقد بهاءها وشذاها : فان أريج زهور إيطاليا بالغ القوة ، يؤذى المخ ؛ وأريج زهور فرنسا — ولو أنها زاهية ، فاتنة ، حية — ضعيف وعابر ؛ وزهور ألمانيا وبلاد الشمال إما أن أريجها ضعيف وإما أنها ليس لها أريج ، وإذا كان لها رائحة فهى كريهة على كل حال(٢) .

***

ومع ذلك ، فاذا استمع المرء مدة طويلة ، كما استمعنا ، إلى الصيحات والشكاوى التى تصّاعد من هذه الأراضى المعذبة ، فانه يسمع أيضاً ، وسط التحرش والتأنيب ، أصوات الكبرياء . يسمع أنشودة تتعالى شيئاً فشيئاً تمجيداً لمزايا أوربا التى لا تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تعادلها ذكاء ، وقوة ، وظرفاً ، وبهاء .

صحيح أن أوربا أصغر أقسام الدنيا الأربعة : ولكنها أجملها ، وأخصبها ، إذ ليس فيها قفار أو صحراء ؛ كما أنها أكثرها استثماراً ؛ ارتقت فيها الفنون العقلية والميكانيكية إلى نضرة ليس لها مثيل . فليمدح الآخرون ، إذا شاءوا ، العجائب التى تكتشف فى الصين : « هناك ضرب من العبقرية لم يخرج بعد من حدود أوربا ، أو على الأقل لم يبتعد عنها كثيراً ولعله غير مسموح له أن يمتد إلى مساحة واسعة من الأرض مرة واحدة ، ولعل القدر يفرض عليه حدوداً ضيقة . فلنتمتع به طالما نمتلكه ؛ ومن خير مزاياه ، أنه لا يقتصر على العلوم وعلى الدراسات النظرية الجافة ، بل يمتد بنفس النجاح حتى فنون اللهو والتسلية التى أشك فى أن شعباً من الشعوب يقف فيها معنا على قدم المساواة (٣) . »

---

(١) لوساج ، «الشيطان الأعرج» ، الفصل الأول .

(٢) سبكتاتور ، رقم ٤٥٥ .

(٣) فونتنل ، محادثات عن تعدد العوالم ، الأمسية السادسة .

ومهما كانت أوربا منقسمة على نفسها ، فانها تتحد بمجرد أن تواجه القارات التى عرفت كيف تستعبدها ، والتى تستطيع أن تتغلب عليها كلما لزم الأمر . مازالت باقية فى أذهان شعوبها ذكريات الرحلات البحرية الباسلة ، والاكتشافات ، والسفن الموسوقة بالذهب ، والأعلام المجيدة التى رفعتها على أنقاض الممالك البربرية . ولا زالت تشعر ، على حد قولها ، إنها « مهولة » ، و « محاربة » . « ولو أن أوربا أرادت أن تذهل الشرق والغرب ، لأذهلتهما قبل أن تقرر ذلك » . — « عند أول إعلان للقتال يصدره أمراء أوربا ، يجدون رجالا يحملون السلاح طواعية — لا تدفعهم إلا رغبة واحدة هى اكتساب المجد — أكثر ممن يستطيع الآسيويون والافريقيون أن يجمعوا بفضل الذهب ، والفضة ، والوعود. (١) » إن أوربا — وإن كانت ممزقة ، مجروحة لوعيها التام لابتعاسها فحسب ، بل بأخطائها أيضاً ، وإن كانت تندم على فقدان وحدة العقيدة فوق ندمها على كل ما تشعر به من خسار ، وإن كانت يائسة من أن تدعى « بالمسيحية » كما كانت تدعى فيا سبق — إن أوربا لازالت تحتفظ مع ذلك بشعور من امتياز يخصها وحدها ، من بديعية تزيدها كل مقارنة ظهوراً ، من قيمة موقوفة وفريدة .

***

ماهى أوربا ؟ تفكير لا يقنع أبداً . إنها لا تكف أبداً ، دون أن تشفق على نفسها ، عن تتبع بحثين : أحدهما فى سبيل السعادة ، والآخر فى سبيل الحقيقة ، وهو ألزم لها ، وأعز . لا تكاد تجد حالة توفى هذه الضرورة المزدوجة، حتى تحس ، وتعرف ، أنها لا تملك بعد إلا الموقوت ، إلا النسبى ، وبصورة غير محققة ؛ وتعاود بحثها المستيئس الذى تجد فيه مجدها وعذابها .

وفى خارجها ، كتل بشرية ، لم تلمسها المدنية ، تعيش بلا تفكير ، قانعة بالحياة . وأجناس أخرى تحس أنها بلغت من الشيخوخة والسأم ما يجعلها تكف عن قلق مضن ، وتستغرق فى جمود تدعى أنه حكمة ، وفى عدم تزعم أنه كمال .

---

(١) لوبس دى ماى ، «السائح الحذر» ، جنيف ، ١٦٨١ ، المقال الرابع « عن أوربا عامة» .

وأجناس أخرى أمسكت عن الاختراع ، مكتفية بالتقليد على الدوام . أما فى أوربا ، فنحن ننقض فى الليل النسيج الذى نسجه النهار ؛ ونجرب خيوطاً أخرى ونصنع لحا أخرى ، وفى كل صباح نسمع صخب الأنوال التى تصنع الجديد ، فى اهتزاز وارتجاف .

وإذا كان ذلك العامل الطاع قد استشعر يوماً أنه يستطيع أن يتوقف وأن يرتاح — لأنه أنتج أخيراً أروع تحفة — فانما كان ذلك فى العصر الكلاسيكى . هل كان يستطيع أن يخلق أشكالا أجمل وأمتن ؟ أشكالا تبلغ من الجمال والمتانة ما يجعلها تنال إعجابنا اليوم ، وتكون جديرة بأن تعرض كنماذج لأبنائنا وأبناء أحفادنا ؟ بيد أن هذا الجمال نفسه يفترض أمانا فى الأذهان التى أنتجته . لقد وجدت الكلاسيكية وسيلة لكيلا تطرح الحكمة القديمة ، ولكى تباشر الحكمة المسيحية ؛ ولتحقق الاتزان بين مقدرات النفس؛ ولتبنى النظام على أساس القناعة والاعجاب ، ولتأتى بمائة معجزة أخرى ، ولنجمل كل شئ فى كلمة واحدة : لتعرض على الناس حالة تقرب من الطمأنينة .

حتى أن أوربا ، وقد سعدت بتأمل هذه النتيجة الجديرة بالذكر ، توقفت لحظة . لقد توهمت ، هنيهة ، أن فى مقدورها أن تتوقف قليلا فى وسط آمال وأوجه نظر تبلغ من الصحة والعظمة أنها لن تجد أبداً أضبط منها أو أكمل .

أمل لم يطل ، بل سرعان ما أنكر ؛ ميل إلى التوقف ، أكثر منه توقفاً صحيحاً ، لأن أوربا لم تكف أبداً عن احتمال قانونها الخاص ، قانونها القاسى . قبل أن ينتهى العلماء ، فى دنيا تقيم منطقها على الارتضاء المختار للسلطة ، من شرح مذاهبهم وما بها من فوارق دقيقة ، جعل علماء أخر يلفتون الأنظار إلى ما فى هذه السلطة نفسها من أخطار وسوء استعمال ، ونقائص ، وانتهوا إلى رفض كل قيمة لفكرة السلطة ، مكالحين كل ما فيها من تجاوز ومغالاة . هكذا بدأ العمل فى البحث من جديد ، خفية ؛ وتولد الاضطراب تحت المظاهر الهادئة ؛ وجعل الناس يسعون نحو سعادة أخرى ، نحو حقيقة أخرى ؛ وأخذ القلقون ، محبو الاستطلاع — الذين كانوا مستذلين ، مضطهدين ، مستخفين فيما سبق — يظهرون فى وضح النهار ، ويتقدمون ، ويشتهرون ، ويطالبون بمكان القادة والرؤساء . تلك هى أزمة الضمير التى شهدناها ، فيما بين القرن السابع عشر والثامن عشر .

***

لكن ، من ذا الذى غذى هذا التفكير النقدى ؟ من أين اتخذ قوته ، وجرأته ؟ وأخيراً من أين يأتى ؟

من أعماق الدهر ؛ من عهد اليونان القديمة ؛ من هذا العالم أو ذاك من علماء القرون الوسطى الملحدة ؛ من هذا المنبع القصى أو ذاك ؛ لكن من زمن النهضة بلا مراء . إن بين النهضة والزمن الذى ندرسه قرابة لا مرية فيها . نفس الرفض ، من جانب العلماء المجترئين ، رفض إلحاق البشرى بالإلهى . نفس الثقة ، الثقة بالبشرى ، البشرى وحده ، الذى يحدد كل الحقائق ، ويحل كل المسائل ، أو يعد ما يعجز عن حلها كأن لم تكن ، والذى يتضمن كل الآمال . نفس التدخل من طبيعة ، غير معرّفة كل التعريف ، ولكنها قادرة كل القدرة ، لم تعد من صنع الخالق ، بل هى الحمية الحيوية لكل الكائنات على العموم وللانسان على الخصوص . نفس الشقاق ، فان فشل وحدة الكنائس ، فى نهاية القرن السابع عشر ، ليس إلا تأييداً للشقاق الذى حدث فى القرن السادس عشر ، والذى حاول الناس إزالة صفته القاطعة بلا جدوى . نفس الجدال الذى لا ينتهى ، فى علم التاريخ ، وفى السحرة . هذه السنون الشاقة ، هذه السنون ذات الجهد والنبل ، حيث يتأمل كل امرئ حتى أغوار نفسه ، حيث يعى المدعون والمدافعون أنهم يكافحون فى سبيل عقيدتهم بأكملها ، حيث لا يزال الارتيابيون يبدون فى صورة مهتدين جدد ، حيث لا يجهل أحد أن الأمر يتعلق بتفسير قاطع للحياة — هذه السنون تبدو لنا بمثابة «نهضة» ثانية . إلا أنها أكثر منها صرامة ومشقة ، وكأنما هى مستدركة مستفيقة : نهضة بدون رابليه(١) ؛ نهضة بلا بهجة .

ليس الأمر أمر تشابه مبهم ، بل هو صلة تاريخية يسهل علينا إدراكها . أولئك المجتهدون المتحمسون ، كتّاب المجلدات الضخمة ، أولئك القراء الكبار

(١) Rabelais : مؤلف فرنسى فى القرن السادس عشر (١٤٩٤ - ١٥٥٣) ، صاحب «حياة جارجانتوا وبانتاجرويل» *Gargantua et Pantagruel* . وضع أفكاره عن الانسانية وفلسفة الطبيعة والأخلاق الأبيقورية فى أسلوب هزلى مرح بهيج . ويتميز بروح نقدى عال ، وشك ، وحب حى للانسانية والعدالة ، وتقديس للعلم الحقيقى . [المترجمان]

الذين لم تشبع شهيتهم أبداً ، — وإن كانوا لم ينظروا بعين التقدير إلى الشعراء الذين تدين لهم النهضة بفتنتها وبسمتها — إلا أنهم درسوا الفلاسفة الذين كونوا روحها الجسور ، وعرّفوها متعة وعذاب تفكير ليس له حدود . إنهم سمعوا لهم ، وأعجبوا بهم ، وتبعوهم . إن بيير بايل لوريث نسل المتحررين الذين يمدون القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر : إنه يحب لامت لوفاييه ، الذى تتضمن « محاوراته » ، « أموراً بالغة الجرأة فيما يخص الدين ، ووجود الله » ؛ وهو يذكر لاسيليو فانينى عادّاً إياه الشهيد المجيد لعدم التصديق . وهو يعرف من قبل ذلك جان بودان ، وشارون ، وميشيل دى لوسبيتال ، ولعله من نافلة القول أن نقول مونتانى Montaigne : الذى لفت نظره — فى لسانه الغالىّ القديم — إلى أن كثيراً من الناس يهملون الأمور للبحث عن العلل : وهذا مما شهدناه جيداً فى مثل المذنبات . وهو يعرف ، مثلا يعرف سواد معاصريه الكبار ، جيوردانو برونو ، الذى « كان رجلا ذا ذهن واسع ، ولكنه أساء استعمال معارفه ، لأنه لم يقتصر على مهاجمة فلسفة أرسطو فى وقت لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يسبب مائة اضطراب ، بل هاجم أيضاً أهم حقائق الايمان . » وهو يعرف كاردان — « واحد من أعظم الأذهان فى عصره» « رجل ذو طبع فريد » — « الذى يقول إن أولئك الذين يزعمون أن الروح تموت مع الجسد ، هم بحسب مبادئهم أناس أصلح من الآخرين » ؛ وهو يعرف بومبونازى . ومن ذا الذى لا يعرفه ؟ إنه يعرف بالينجنيوس الملحد ، المؤلف الأثير لدى السيد نوديه ؛ إنه يَعرف ، بصفة عامة ، كل أولئك الذين لم يشاءوا الاعتراف بقانون آخر ، إلا قانون العقل البشرى(١) .

وبالمثل ، لا يجهل ريشار سيمون أحد ممن عكفوا على دراسة الكتب المقدسة من قبله ، والذين كان هدفهم الوحيد — طبقاً لقول جيوم بوستيل — « إخضاع الكون بأسره لاستعمال العقل الحق . » إن احترام النصوص ، ومعرفة اللغات العالمة ، وتقدم الفيلولوجيا ، وكل أنوار المعرفة التى أضاءت طريقه ، مصدرها « النهضة » . فهو يتبع مثال أساتذته البعيدين بالكلية الملكية : يقول « بين يدى وثائق دعوى رفعتها كلية اللاهوت بباريس على الأساتذة

---

(١) «أفكار عن المذنب» ، فى أبواب مختلفة ؛ و«القاموس».

الملكيين بالعبرية واليونانية ، بعد أربع سنوات من تأسيسها (١) . »

لقد لاحظ الناس هذا التحالف الأكيد بينهم ، فى أثناء حياتهم . إن بوسويه يجمع فى لوم واحد بين « إرازم وسيمون ، اللذان يزجان بنفسيهما فى الحكم بين القديس جيروم والقديس أغسطين ، بدعوى ما لها من امتياز فى الآداب واللغات (٢) » بينما يرى المعجبون ببايل أنه ينبغى أن يقام له تمثال بجانب تمثال إرازم فى روتردام (٣) . إن أعداء الفلسفة يدينون فى حكم واحد سبينوزا ، برونو ، كاردان ، والنهضة الايطالية التى بعثت أخطاء الوثنية إلى الحياة ، ونشرت الكفر فى الدنيا (٤) ؛ ويمجد أصدقاؤها نهاية القرن الخامس عشر ، وبداية القرن السادس عشر ، التى انبثقت منها أشعة نور جديد (٥) .

***

هكذا ترتسم حركة التفكير الحديث ، كما يلى على وجه التقريب . تظهر ابتداء من النهضة ، حاجة إلى الاختراع ، ولع بالاكتشاف ، اقتضاء نقدى ، تبلغ من الوضوح أننا نستطيع أن نرى فيها الصفات الغالبة فى ضمير أوربا . ابتداء من منتصف القرن السابع عشر ، أو نحو ذلك ، نرى توقفا مؤقتاً ؛ توازناً غريباً يتحقق بين عناصر متعارضة ؛ مصالحة تقع بين قوى متعادية ؛ وهذا النجاح ، الاعجازى بحق : الكلاسيكية . فضيلة مسكّنة ؛ قوة هادئة ؛ مثال لطمأنينة توصّل إليها ، بوعى ، أناس قد عرفوا — كما عرف الناس قاطبة — الشهوات والشكوك ، ولكنهم يتوقون — بعد اضطراب العصر السالف — إلى نظام منقذ . ولا يعنى هذا فناء روح الفحص : فهو باق لدى

---

(١) « رسائل مختارة » ، الرسائل ٥ ، ٩ ، ٢٣ ؛

(٢) « دفاع عن التقاليد والآباء القديسين » ، الفصل العشرون ، الكتاب الثالث ، القسم الأول : « نقد جرىء لارازم عن القديس أوغسطين ، يدعمه السيد سيمون . »

(٣) انظر بايل ، « مراسلات » ، طبع جيجاس ، مقدمة ، ص ٩ . بيير جوريو « فيلسوف روتردام ، المتهم ، المذنب واقعا وقانونا » ، ١٧٠٦ ، ص ٢ .

(٤) انظر جون افلين Evelyn ، « تاريخ الديانة » ، طبعة لندن ، ١٨٥٠ ، المقدمة ، ص ٢٧ ، و ش . كورهولت : Ch. Korholt, *De tribus impostoribus magnis liber*, Kilonii, 1680, début

(٥) ل . ب . ، « مقالان مبعوثان فى رسالة من أكسفورد إلى نبيل فى لندن » ، ١٦٩٥ .

الكلاسيكيين أنفسهم ، منظم ، مكبوح ، معنيّ بأن يصل بالروائع الأدبية إلى ذروة الكمال ، تلك الروائع التي تقتضى صبراً طويلا لكى تكتسب الخلود .
وهو باق لدى المتمردين الذين ينتظرون دورهم ، فى الظلام . إنه باق لدى أولئك الذين يتعاهدون مع النظم السياسية والاجتماعية — وهم يلعنونها ؛ تلك النظم التى ينتفعون منها ، والتى يجدون فيها متعة حياتهم ، مثل سانت أفريموند وفونتنل وغيرهما ، أرستقراطيو الثورات .

لذلك ، بمجرد ما تكف الكلاسيكية عن أن تكون مجهوداً ، إرادة ، قبولا متفكراً ، وتتحول إلى عادة و إلى إجبار ، فان الميول المجددة — المستعدة — تستعيد كل قوتها ونشاطها ؛ ويعود الضمير الأوروبى إلى بحثه الأزلى . حينئذ تبدأ أزمة تبلغ من السرعة والمباغتة ، أنها تدهشنا : بينما هى فى الواقع ليست إلا مغاودة أو مواصلة ، قد سهرت على إعدادها تقاليد باقية من أجيال .

ولما كانت مكتملة ، متجبرة ، عميقة ، فانها تعد بدورها — قبل أن ينتهى القرن السابع عشر — القرن الثامن عشر بأكمله على وجه التقريب . لقد وقعت معركة الأفكار الكبرى قبل عام ١٧١٥ ، بل حتى قبل عام ١٧٠٠ . إن جرأة حركة التفسير Aufklärung ، جرأة عصر الأنوار ، لتبدو شاحبة هزيلة ، بجانب جرأة « البحث اللاهوتى السياسى » المتهجمة ، بجانب جرأة « علم الأخلاق » المدوخة . لافولتير ، ولا فردريك الثانى وصلا إلى حملات تولاند الجنونية ضد الأكليروس وضد الدين ؛ ولولا لوك لما كتب دالامبير « المقال الافتتاحى للانسيكلوبيديا » ؛ ولم يكن العراك الفلسفى أعنف من المعارك التى رن صداها فى هولاندة وانجلترا ؛ وحتى بدائية روسو لم تكن أكثر مطالبة بالاصلاح من بدائية أداريو الهمجى ، الذى قدمه لاهونتان المتمرد . من هذا العهد الكثيف المشحون الذى يبدو غامضاً ، ينبع بوضوح النهران الكبيران اللذان سوف يخترقان القرن بطوله ؛ أحدهما التيار العقلى ؛ والثانى وإن كان ضعيفاً فى بدايته ، ولكنه سيفيض فيما بعد على شواطئه : التيار العاطفى . ومادام الأمر فى هذه الأزمة نفسها كان يتعلق بالخروج من المجالات المخصصة للمفكرين للاتجاه نحو الجمهور ، للحاق به و إقناعه ، ومادام الناس قد مسوا مبادئ الحكومات بل حتى فكرة الحق نفسها ، ومادامو قد أعلنوا المساواة والحرية الفردية المنطقيتين ؛ ماداموا قد نادوا بحقوق الانسان والمواطن : فلنعترف أيضاً

بأن كل الاتجاهات الذهنية ، على وجه التقريب ، التى ستؤدى جملتها إلى الثورة الفرنسية ، كانت قد اتخذت قبل نهاية حكم لويس الرابع عشر . الميثاق الاجتماعى ، تفويض السلطان ، حق المواطنين فى العصيان ضد الأمير : حكايات قديمة ، نحو عام ١٧٦٠ ! فمنذ ثلاثة أرباع قرن أو أكثر ، والناس يناقشونها فى وضح النهار .

إن الكل فى الكل ، كما نعلم ؛ ولا شئ جديد ، كما نعلم أيضاً ، مادمنا قد انتهينا منذ لحظة من تسجيل القرابات والأنساب . لكن إذا وصفنا بالجدة ، إعداداً بطيئاً يصل إلى هدفه أخيراً ، إتباع الميول الأبدية التى تنبثق ذات يوم — بعد أن كانت مدفونة فى الأرض — محبوة بقوة ، وموشاة بنضرة ، تبدوان مجهولتين للناس ، الجهال الدائبى النسيان ؛ إذا وصفنا بالجدة طريقة معينة لعرض المسائل ، لهجة معينة ، اختلاجاً معيناً ؛ عزما معيناً على التطلع إلى المستقبل أكثر من الماضى ، على التخلص من الماضى مع الاستفادة منه فى نفس الوقت ؛ وأخيراً إذا وصفنا بالجدة تدخل « الأفكار — القوات » التى تصبح من القوة والوثوق بنفسها بحيث تؤثر تأثيراً جلياً على الحياة اليومية : فان تغيراً قد وصلت عواقبه إلى عصرنا الحاضر ، كان يعتمل فى السنوات التى قام فيها عباقرة مثل سبينوزا ، بايل ، لوك ، نيوتن ، بوسويه ، فنيلون — مع الاقتصار على ذكر أعظمهم — بفحص كلى للضمير ، لكشف الحقائق التى تسيطر على الحياة . ولنقل مع أحد أولئك العباقرة ، مع ليبنتز ، مادين قوله عن العالم السياسى إلى العالم الأخلاق : Finis saeculi novam rerum faciem aperuit (١): فى السنوات المختتمة للقرن السابع عشر ، بدأ ترتيب جديد للأمور .

---

(١) مصنفات ، طبع فوشيه دى كاريل ، الجزء الثالث : *Status Europae incipiente novo saeculo* . حالة أوربا فى مستهل القرن الجديد .

أسماء الأعلام

(١)

(ت)

(ج)

(ش)

(ل)

(م)

(ن)

اصطلاحات

(ا)

الاتساق المقدر	Harmonie préétablie
الارتيابيون	Sceptiques
استطيقا	Esthétique
استنباط	Déduction
آلية	Mécanisme
امتداد	Etendue
الانية	Le moi
أنوار المعرفة	Les lumières
أوليا	À priori

(ب)

بداهة	Évidence
بيداجوجيا	Pédagogie

(ت)

التجلى	Illuminisme
التجريبية	Empirisme
تحليل	Analyse
تصوف	Mysticisme
تيوصوفية	Théosophie

(ج)

الجليل الجال	Le sublime
الجوهر	Substance
الجوهر الفرد	Monade

(ح)

حدس	Intuition
الحساسية	Sensibilité
حساب النهايات الصغرى	Calcul infinitésimal
الحلوليون	Panthéistes
الحيوانات ـ آلات	Les bêtes-machines

(خ)

الخشوعية	Piétisme

(د)

دييزم (الاعتراف بالله وإنكار الوحى) Déisme

(ر)

الركونية Quiétisme
الرواقيون Stoïciens

(س)

السوسنيانيون Sociniens

(ص)

صغرى القياس La mineure
الصيرورة Le devenir

(ع)

العقليون Rationaux
العلة La cause
العلة الغائية La cause finale
العلل الفعالة Les causes efficientes

(غ)

الغدة الصنوبرية La glande pinéale

(ف)

الفراغ Le Vide
الفضاء L'Espace
فكر Pensée
فكرة Idée
فلسفة الذرائع Pragmatisme
فيلولوجيا Philologie

(ق)

قلق Inquiétude
القوام Substratum
قياس Syllogisme

(ك)

كبرى القياس La majeure
الكويكرز Quakers

(ل)

لاستناه Infini
لامنطقية Illogisme

(م)

ماهية Essence

مختلط	Cosmopolite
مخالفو التثليث	Antitrinitaires
المطلق	L'Absolu
الملهمون	Les illuminés
منهج	Méthode
الموقفون	Les initiés

(ن)

النسبي	Le relatif
النور الفطرى	Lumière naturelle

(و)

وحى	Révélation
وضوح	Clarté

(ى)

يقين	Certitude

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

